١٢

رسالة ماجستير

بعنوان

صورة الصليبيين في الأدب العربي

إعداد

عبد القادر شريف عبد الله أبو شريفة

١٩٧٧ / ١٩٧٨

بإشراف

الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب في الجامعة الأردنية.

١٠٢٥



١٠٠٣٠٧٩

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(مقدمـة)

قسّم الأدب العربي تقسيما تاريخيا الى عصور مختلفة ، كل قسم يُدرس من خلاله فترة قائمة بنفسها ، لها ميزاتها وخصائصها الفنية ، بدءا بالعصر الجاهلي وانتهاء بالعصر الحديث .

وقد كان لهذا التقسيم أثر غير محمود في فهم الأدب العربي ، إذ جُمّد في أطر تاريخية منفصلة ، تبدأ بسنة كذا وتنتهي بسنة كذا ...

وفي اطار هذا التقسيم التاريخي للادب ، وصفت بعض العصور بالقوة والازدهار ، ووصفت عصور أخرى بالجمود والانحطاط ، ولو حاولنا معرفة السبب في هذه الاحكام ، لكان في تصور من قالوا بها - مرتبطا في الغالب بالاوضاع السياسية للدولة الاسلامية .

هذا الربط بين السياسة والأدب هو الذي كان من وراء بعض التصورات الخاطئة وهو الذي أبعد أدب الحروب الصليبية عن منطقة الضوء ، علما بأن أدب هذه الفترة أدب خصب ، ذو أهمية خاصة نظرا لما يرتبط به من صراع طويل مرير بين أمتين وحضارتين .

وهنا نتساءل ، حتى لو سلمنا بأن هذا العصر عصر تمزق سياسي ، هل كل ضعف سياسي ينتج عنه ضعف في الانتاج الادبي ؟ والجواب - بالطبع - لا ، ويمكن تقديم الشواهد على ذلك من أدب الشرق وأدب الغرب على السواء .

والحقيقة ، أن الذين وصفوا هذا العصر بالجمود ، أنما أطلقوا أحكامهم بناء على تصور نظري ، ولم يعنوا أنفسهم باحتمال مشاق البحث والتثبت ، حتى كأن الظاهرة أشهر من أن تعلل أو يبين لها سبب ، ولو رجعوا الى ما وصلنا من أدب هذه الفترة لتبينوا ما في أحكامهم من خطأ ، وذلك لأنهم أصدروا حكما دون التثبت من صحته ، مخالفين أصول المنهج العلمي السليم ، مما نتج عنه تصور بقي مقبولا حتى وقت قريب .

وقد كان للجامعة الأردنية الفضل في طرح مساقات يُدرّس فيها أدب هذه الفترة وذلك منذ عام ١٩٧٣ ، حين أعتمد قسم اللغة العربية تدريس مادة : أدب الحروب الصليبية " ضمن المواد الادبية التي يدرسها . وقد لاقت هذه المادة اقبالا جيدا من الطلاب وذلك لأنها مادة جديدة ، ومرتبطة بأوضاع قائمة في زماننا هذا . وتبين من دراسة هذه المادة خصب الانتاج الادبي في هذه الفترة ما جعل الطلاب يتمنون أن تضاء جوانب الحياة فيها ، لتنال من العناية ما نالته الفترات الاخرى .

وبعد دراسة تاريخ القرنين السادس والسابع الهجريين ، وما دار فيهما من صراع مرير ، وجدت رغبة ملحة في نفسي - لا سيما بعد نصيحة أستاذي :

الدكتور عبد الكريم خليفة ، والدكتور محمود ابراهيم — بأن استقصي صور هذا الصراع ، وصورة المحتلين ، فكانت هذه الدراسة بعنوان : "صورة الصليبيين في الادب العربي" .

ومما قوى هذه الرغبة في نفسي ، هذا التشابه بين الاوضاع القاسية التي مرت بها أمتنا ، والاوضاع التي تمر بها حاليا ، فقد تعرضت الامة فيما مضى لغزو استعماري استيطاني استهدف الارض والانسان ، وحاول بكل ما أوتي من قوة وجبروت ، أن يخلع جذور هذه الامة من الارض المقدسة ، وقد أحرز فعلا نجاحا كبيرا فيما حاوله ، فاحتل أجزاء كبيرة من أرض المشرق الاسلامي ، وبقي خطره يتفاقم الى أن بدأت ردة الفعل الاسلامية للغزو ، التي انتهت بخروج الصليبيين نهائيا من ديار الاسلام .

وفي الزمن الحاضر ، غرس في مشرقنا الاسلامي ، كذلك ، جسم غريب ، ابتلع أرض فلسطين ، ثم تجاوزها الى أرض عربية أخرى ، وما زالت أطماعه التوسعية تبدو في كل تصرف من تصرفاته .

على أن عاملا آخر قد شجعني على دراسة هذه الفترة أيضا ، ذلك هو أنها لم تحظ بدراسات كافية شاملة في وقتنا الحاضر ، وقد يكون من المفيد أن أقدم استعراضا سريعا لهذه الدراسات لكي يتبين موقع هذه الدراسة منها :

الدراسة الأولى ، هي دراسة الدكتور عبد اللطيف حمزة بعنوان "أدب الحروب الصليبية" وقد بين المؤلف في مقدمته أن الكتاب جاء استجابة لرغبة المجمع الملكي للغة العربية في مصر سنة ١٩٤٨ "إذ دعا الكتاب والمؤرخين الى الكتابة في هذا الموضوع الجليل" . وقد احتوى هذا الكتاب عرضا تاريخيا لمراحل الحروب الصليبية ، ثم ركز على دور مصر في هذه الحروب ، وقد أثبت المؤلف عددا من القصائد قيلت في المعارك المشهورة ، وهذا يعني أن المؤلف قد سار على النهج التقليدي في كتابة التاريخ الأدبي ، وقد قام المؤلف نفسه ، كذلك ، بدراسة أخرى أسماها "الادب المصري من قيام الدولة الايوبية الى مجيء الحملة الفرنسية" (٢) وجاء هذا الكتاب ملخصا للكتاب الأول ، ولكنه تجاوز الفترة الى ما بعد الحروب الصليبية حتى الحملة الفرنسية على مصر .

والدراسة الثانية ، هي : كتاب محمد سيد كيلاني ، "الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي في مصر والشام" (٣) ، وقد احتوى الكتاب عرضا تاريخيا موجزا ، ودراسة بسيطة عن الحالة الاجتماعية المتولدة عن هذه الحروب في مصر والشام ، ثم تعريفا موجزا بأشهر شعراء هذه الفترة وكتابها .

---

(١) د . عبد اللطيف حمزة ، أدب الحروب الصليبية ، مطبعة الاعتماد ، نشر دار الفكر العربي ، مصر ، سنة ١٩٤٩

(٢) د . عبد اللطيف حمزة ، الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية الى مجيء الحملة الفرنسية ، مكتبة نهضة مصر ، مصر ، ؟

(٣) محمد سيد كيلاني ، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام دار الكتاب العربي ، مصر ، سنة ١٩٤٩

وفي هذا الكتاب أستنتاجات لا تستند الى دليل ، ومنها ما هو مغالطات تحتاج الى برهان (١) ، ولكنه مع هذا ينقل مادة أدبية غزيرة ولو أنه لا يذكر مصادرها .

والدراسة الثالثة ، قدمها د . محمد كامل حسين ضمن كتابه " أدب مصر الفاطمية " (٢) وقد أشار أشارة سريعة الى دور الفاطميين في هذه الحروب .

والدراسة الرابعة ، قدمها ، د . أحمد أحمد بدوى بعنوان : " الحياة الادبية بمصر والشام " (٣) وفيها عرض للحياة الادبية والسياسية والاجتماعية في مصر والشام ، والمامة بسيطة بحياة الصليبيين جاءت تحت عنوان : " تصوير الفرنج " وقد أعتمد على كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ، فذكر الصفات التي أوردها أسامة بأختصار شديد .

والدراسة الخامسة ، قام بها ، ايضا د . محمد كامل حسين بعنوان " دراسات في الشعر في عصر الايوبيين " (٤) وفيها تركيز على الأدب في مصر زمن الايوبيين ، ودور مصر في الحروب ، مع أثبات نصوص شعرية ونثرية عن المعارك التي جرت مع الصليبيين .

والدراسة السادسة قام بها ، د . عبدالعزيز الأهواني بعنوان " أبن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر " (٥) ، وقد وصف هذا العصر بالجمود ، معللا أياه بأسباب عامه قد لا تنطبق كلها على العصر ، ومنها ما لا ينطبق حتى على شعر ابن سناء الملك نفسه .

والدراسة السابعة ، قام بها ، محمود مصطفى ، بعنوان " الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي الى نهاية العصر الأيوبي " (٦) وفيها ميل عاطفي يتمثل بالإعجاب المفرط بالأدب في هذه الفترة ، وابراز دور مصر فيه .

---

(١) الحروب الصليبية في الأدب العربي في مصر والشام ٩ ، ٢١، ٣٩، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ١٠١ ، ١٠٤ ...

(٢) د . محمد كامل حسين ، أدب مصر الفاطمية ، دار الفكر العربي ، مصر ، ١٩٥٠

(٣) د . أحمد أحمد بدوي ، الحياة الأدبية بمصر والشام ، مكتبة نهضة مصر ، مصر ١٩٥٤

(٤) د . محمد كامل حسين ، دراسات في الشعر في عصر الايوبيين ، دار الكتاب المصري مصر سنة ١٩٥٧

(٥) د . عبدالعزيز الأهواني ، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ، مكتبة الانجلو مصرية ، مصر ، سنة ١٩٦٢

(٦) محمود مصطفى ، الأدب العربي في مصر من الفتح الاسلامي الى نهاية العصر الايوبي ، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ، مصر ، سنة ١٩٦٧

والدراستان الثامنة والتاسعة قام بهما د . محمد زغلول سلام ، بعنوان " الأدب في العصر الأيوبي "(١) و " الأدب في العصر المملوكي "(٢) وقد تحدث فيهما عن النواحي السياسية والإجتماعية ، وحالة الأدب والأدباء ، وأورد تعريفات سريعة ببعض الادباء والشعراء .

والدراسة العاشرة قام بها د . عمر موسى باشا ، بعنوان " الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك "(٣) وهي دراسة مسطحة شاملة لفترة الحروب الصليبية وما واكبها من شعر أو نثر من تقويم فني لهذا الأدب .

والدراسة الحادية عشرة قام بها فاروق جرار ، بعنوان " محمد بن نصر القيسراني حياته وشعره " (٤) وفيها ترجمة للشاعر ودراسة لقصائده .

والدراسة الثانية عشرة قام بها د . محمود ابراهيم ، بعنوان : " صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني "(٥) وفيها تحليل لشعره ، ونظر مستقص في فنه الادبي .

والدراسة الثالثة عشرة قام بها هادي نهر ، بعنوان : " معارك نور الدين في شعر الحروب الصليبية " (٦) وهي رسالة ماجستير لم تطبع بعد ، وفيها دراسة للشعر الذي مجد نور الدين محمود في حروبه مع الفرنج من نظر سريع في السمات الفنيه لهذا الشعر .

مما مضى يتبين أن مجموع الدراسات التي تناولت الفترة بلغ ، فيما أعلم ، ثلاث عشرة دراسة ، كان معظمها يركز على دور مصر في الأحداث ، في حين عرض بعضها للمادة الادبية في أطار الاحداث التاريخية . وقد ركزت هذه الدراسات على تصوير الجانب الاسلامي ، أما الفرنج فلم تفرد لهم دراسات خاصة ، بأستثناء اشارات غير مستقصية .

وقد يتبادر الى الذهن أن أدب هذه الفترة قد رسم صورة قاتمة للصليبيين ، لأن العلاقات التي كانت قائمة بين المجتمعين هي علاقات دموية ، يسودها الحقد والكره والالم .

---

(١) د . محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر الايوبي ، دار المعارف مصر ١٩٦٧ .

(٢) د . محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف ، مصر سنة ١٩٧٠ .

(٣) د . عمر موسى باشا ، الأدب في بلاد الشام ، عصور الزنكيين والايوبيين والمماليك دار الفكر الحديث ، دمشق ، سنة ١٩٦٧ .

(٤) فاروق جرار ، محمد بن نصر القيسراني حياته وشعره ، المطبعة التعاونية عمان سنة ١٩٧٤ .

(٥) د . محمود ابراهيم ، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، المكتب الاسلامي ومكتبة الاقصى ، دمشق ، عمان سنة ١٩٧١ .

(٦) هادي نهر ، معارك نور الدين في شعر الحروب الصليبية ، جامعة القاهرة، رقم ٩٠٣ سنة ١٩٧٥

ولكن ، بعد دراسة المادة ،ظهر لي أن هذا الصراع الدموي ، الذي صوره أدب هذه الفترة قد قدّم في صور متعددة ، منها ما يتعلق بمظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للغزاة ، ومنها ما يتعلق بالعلاقات بينهم وبين المسلمين خلال فترات الهدن المؤقتة التي كانت تعقد بين الطرفين .

وبعد جمع المادة الشعرية والنثرية من المصادر الأساسية قمت بدراستها وتحليلها ثم تصنيفها الى فروع تشكل الاطار الكلي لصورة الصليبيين في الادب العربي .

ولما كانت المادة واسعة ،والشواهد كثيرة ، فقد أوردت بعض الشواهد وأحلت القارئ الى مصادر الشواهد الاخرى خشية الاطالة .

وقد قسمت الرسالة الى ثلاثة أبواب وخاتمة ، أما الباب الاول فقد تحدثت فيه عن الشرق الاسلامي قبيل الغزو الصليبي وأوضحت فيه الحالة السياسية في العراق وبلاد الشام ومصر ... ودور كل منها في الحروب الصليبية ، كما أوجزت أوضاع الغرب الأوربي قبيل الغزو ،والاسباب التي دفعتهم الى مهاجمة الشرق الاسلامي ... وحددت في هذا الفصل المناطق التي تعرضت للغزو ، وما نتج عن هذا الغزو من آثار . وأما الباب الثاني فقد بينت فيه النظرة الاسلامية للصراع ، ووجدت أنها نظرة دينية لصراع حربي ، أسهب الأدب في توضيح عناصره ، فوصف الجيش الصليبي وقوته وأمداداته ، وأسلحته ومعداته ، وقلاعه وتحصيناته ، ومعاركه وخططه ... كما أوضح خطر هؤلاء الغزاة على الاسلام والمسلمين والبلاد الاسلامية جميعها .

وقد صور الادب كذلك ، حياة الصليبيين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وكانت صورة الحياة الاجتماعية فيه أوضح من صورة الحياتين السياسية والاقتصادية .

وأما الباب الثالث فقد أشتمل على دراسة فنية للشعر والنثر ، وما أحتوياه من خصائص ثم مقارنة بين أسلوبي الشعر والنثر في تقديم صورة الغزاة . وأما الخاتمة فقد لخصت فيها نتائج البحث ،وما توصلت اليه من حقائق ، ثم أتبعتها بعدة ملاحق :

١. ملحق شعري : وقد رتبته حسب وفيات الشعراء ما أمكن ، وإن تعذرت معرفة سنة الوفاة كنت أدون الشعر حسب السنة التي قيلت فيها القصيدة أو القصائد . وفي أطار هذا النظام أوردت القصائد مرتبة حسب القوافي ترتيبا أبجديا .

٢. ملحق بمعاني المصطلحات الحربية المستعملة آنذاك .

٣. قوائم بحكام المسلمين والصليبيين في فترة الصراع .

٤. جدول بتحويل السنوات الهجرية الى ميلادية .

٥. الشرائط وهي أربع : توضح الاولى منها الحروب الصليبية بشكل عام ، وتوضح الثانية الإمارات الصليبية الاربع ، وتوضح الثالثة ممتلكات الصليبيين بعد معركة حطين ، وتوضح الرابعة أسماء الاماكن التي جرت فيها المعارك أو التي ورد ذكرها في الشعر أو النثر.

أما المصادر التي أعتمدت عليها في هذه الرسالة فهي كثيرة ، بسبب طول الفترة واتساع ميدان الصراع ، ... ولذلك سأقتصر على المهم منها ، والباقي يجده القارئ في فهرس المصادر والمراجع :

أ . الدواوين الشعرية :

١. ديوان ابن الخياط : ـ ٥١٧ هـ وفيه قصيدة تسجل الاحداث الاولى للحروب الصليبية .

٢. ديوان ابن القيسراني : ـ ٥٤٨ وفيه عدد من القصائد التي تصف الحياة الاجتماعية وما زال الديوان مخطوطا .

٣. ديوان طلائع بن رزيك ـ ٥٥٦ ، وفيه قصائد عن حروبه مع الفرنج ، واستحثاث لنور الدين محمود على تعاون مصر والشام في الصراع القائم ضد الغزاة .

٤. ديوان أسامة بن منقذ ـ ٥٨٤ هـ وفيه مراسلات بينه وبين طلائع بن رزيك حول الحروب ، والحث على التضامن بين مصر والشام .

٥. ديوان ابن الساعاتي ـ ٦٠٤ وفيه قصائد عن الفتوح الكبرى زمن صلاح الدين

٦. ديوان ابن سناء الملك ـ ٦٠٨ هـ وفيه قصائد عن الفتوح الكبرى زمن صلاح الدين .

٧. ديوان فتيان الشاغوري ـ ٦١٥ هـ وفيه قصائد عن الفتوح الكبرى زمن صلاح الدين .

٨. ديوان ابن النبيه ـ ٦٢٠ هـ وفيه قصائد عن معركة دمياط زمن الملك الكامل ابن العادل .

٩. ديوان ابن مطروح ـ ٦٤٩ هـ وفيه قصيدة عن حصار دمياط سنة ٦٤٧

١٠. ديوان ابن دنينير ـ ٦٥٠ هـ وفيه عدة قصائد عن حصار دمياط سنة ٦١٤ وما زال الديوان مخطوطا في المكتبة الظاهرية بدمشق .

١١. ديوان البهاء زهير ـ ٦٥٦ هـ .

١٢. ديوان البوصيري ـ ٦٩٦ هـ وفيه قصائد طويلة تحمل طابعا دينيا واضحا هذا بالاضافة الى ثمانية دواوين أخرى أشير اليها في قائمة المصادر والمراجع .

ب. المصادر الأدبية والتاريخية مرتبة حسب وفيات أصحابها :

١. الاعتبار لأسامة بن منقذ ــ ٥٨٤ ،وقد صور فيه بعض النواحي الاجتماعية في حياة الصليبيين بالمسلمين في عصره ، وتمتاز كتابته بالصدق والواقعية ، نظرا لمباشرته للفرنج مدة طويلة .

٢. الفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الأصفهاني ــ ٥٩٧ ، وقد حوى تاريخ سبعة أعوام ابتداء من عام ٥٨٣ وفيه وصف دقيق لبعض عادات الفرنج بلغة بديعية مزخرفة .

٣. خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني ــ ٥٩٧ وتقع في عدة مجلدات مقسمة على بيئات مختلفة منها الشام ، ومصر والعراق ، وتحتوى هذه المجلدات تراجم أدباء القرن السادس ممن عاصروا المؤلف ، ومنتخبات من أنتاجهم .

٤. رحلة ابن جبير ــ ٦١٤ وقد وصف فيها حال بعض بلدان الشام زمن صلاح الدين ، ما كان منها في حكم المسلمين ، وما كان منها تحت الاحتلال الصليبي وأورد وصفا حيا لبعض عادات الصليبيين كما شهدها في الأرض المحتلة .

٥. الكامل لابن الاثير ــ ٦٣٠ ويحتوى تاريخا لأحداث الحروب الصليبية ، وبعض القصائد التي قيلت في الحروب .

٦. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، لبهاء الدين بن شداد ــ ٦٣٢ هـ وقد ألفه عن صلاح الدين ،وقسمه الى قسمين : الاول : في مولده ومنشئه وخصائصه والثاني : في تقلبات الاحوال به ووقائعه ، وفيه وصف للصليبيين وأدواتهم القتالية وخططهم الحربية .

٧. زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ــ ٦٦٠ هـ ويحتوى تاريخا لاحداث الحروب الصليبية .

٨. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين وكتاب الذيل على الروضتين لابي شامة المقدسي ــ ٦٦٥ هـ ويحتويان مادة شعرية ونثرية خصبة جدا ... ويعتمد المؤلف في أخباره على المؤرخين الذين سبقوه وعلى دواوين الشعراء ، وقد حفظ كثيرا من النصوص من الضياع .

٩. الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية للملك الامجد الحسن بن داوود ــ ٦٧٠هـ وهو مخطوط في دار الكتب المصرية ،ويحتوى عدة رسائل لوالده ، ومنها تلك التي بعثها الى الملك الصالح أيوب يحرضه على قتال الفرنج .

١٠• تشريف الايام والعصور لابن عبد الظاهر ـ ٦٩٢ ، وهو في سيرة الملك المنصور وفيه توضيح للسنوات الاخيرة من الحروب الصليبية .

١١• مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل ـ ٦٩٧ هـ ويقع في أربعة مجلدات ،يتحدث فيها عن الملوك من بني أيوب ، وفيه شعر مرتبط بالاحداث الهامة .

١٢• نهاية الارب للنويري ـ ٧٣٢ هـ وهو في ثلاثين مجلدا وقد أعتمدت على الاجزاء التالية : الخامس ، والسابع ، والثامن ،وهي مطبوعة والجزء السابع والعشرين وهو مخطوط ، وفي هذه الاجزاء بعض الرسائل والمعاهدات المرتبطة بالحروب الصليبية .

١٣• تاريخ ابن الفرات ـ ٨٠٧ هـ وهو في عدة مجلدات،وفيه تاريخ للحوادث،وذكر للاشعار التي ترتبط ببعض هذه الحوادث .

١٤• عقد الجمان للعيني ـ ٨٥٥ هـ وهي أجزاء كثيرة ما زالت مخطوطة بدار الكتب وفيها ، بعض القصائد التي لا توجد في المؤلفات الاخرى

هذه بعض المصادر الاساسية التي أعتمدت عليها ، ويجد القارئ مجموعة كبيرة في قائمة المراجع والمصادر ، وهناك مصدران فرنجيان معاصران للحروب الصليبية ، لا بد من الاشارة اليهما وهما كتاب مؤرخ مجهول حققه د . حسن حبشي وفيه وصف لبعض الاحداث والكتاب الثاني هو مذكرات كتبها جوانفيل أحد مرافقي الملك لويس التاسع الفرنسي في حملته على مصر .

ومما يجدر ذكره أن المصادر العربية تتميز بصدقها ودقتها وقد نوه كل من هاملتون جب وفليب حتي بدقة هذه المصادر .

هذا،وقد أعترضتني بعض الصعوبات في هذه الدراسة ، أهمها: أنها تشتمل الشعر والنثر معا ، وتستغرق فترة الحروب الصليبية كلها في بلاد الشام ومصر مع أن الزمن المحدد يضيق عن الوفاء بما تتطلبه دراسة واسعة كهذه ، لا سيما أن بعض المخطوطات لم يتيسر لي الحصول عليها في الأردن ، مما أضطرني الى السفر الى سوريا ولبنان ومصر ، وكان من فضل الله علي أن اقترن السعي بالتوفيق فلله الحمد على ذلك .

ولا يفوتني أن أشكر أستاذى الفاضل د . محمود ابراهيم الذى أشرف على هذه الرسالة ، فأبدى توجيهاته وأرشاداته وأمنني العثار والزلل ، وقدم لي بعض المصادر التي تعذر الحصول عليها لولاه .

وأخيرا ، أقول ما قال العماد : " إني رأيت أنه لا يكتب انسان كتابا في يومه إلا قال في غده ، لو غُيّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد لكان يُستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذه أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر " .

فأحمد الله إن أصبت ، وأعتذر للقارىء ان أخطأت ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ...

عبد القادر أبو شريفة
الجامعة الاردنية
١٩٧٧ / ١٩٧٨ م

الباب الاول

توطئة تاريخية

الفصل الأول : الشرق الإسلامي قبيل الغزو الصليبي

الفصل الثاني : الغرب الأوروبي قبيل الغزو الصليبي

الفصل الثالث : الصراع : ميدانه وزمانه

الفصـــــل الأول

الشرق الاسلامي قبيل الغـــــزو الصليبـــــي

شهد القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، صراعا عنيفا بين الروم والمسلمـــين تمكن الروم خلاله من السيطرة على أجزاء من بلاد الشام ، ولـو لم تقف الدولة الفاطمية في وجـــه الغزو البيزنطي لاحتلوا بلاد الشام حتى القدس(١)، وقد ساعد على وقف هذا الغزو كذلـــك انشغال الامبراطور البيزنطي باسل الثاني بشؤون أرمينية ، إذ كانت تمر بمرحلةضعف أغـــرى الامبراطور بها ، فضمها الى ممتلكاته ،وأقام فيها الحاميات وأنفق عليها الاموال الطائلـــة ليجنبها مخاطر القوى الاسلاميـــة ، ولكن مساحتها الشاسعة ، وضعفها الذى ساعد علـــى تمكن الروم من احتلالها ،جعلا هذه الخطوة غير محمودة العواقب بالنسبة الى الدولة البيزنطية ، فقد ظهرت مخاطر تهدد كيان الدولة البيزنطية من الشمال بسبب الغارات المتكررة التي قـــام بها الهلغار ، مما سبب هجرة المواطنين في البلقان ، وترك الاراضي الزراعية ، فجــــرد الامبراطور عدة حملات ليوقف هجمات تلك القبائل (١) ، وفي الوقت نفسه ظهرت قوة أخرى فـــي المشرق من أخلاط القبائل التركية ، كانت تعتمد في معيشتها على الاغارة والنهب ، حتى دخلت ديار الاسلام فأسلم زعيمهم سلجوق بن دقاق * ، وأقام بنواحي بخارى حتى مات ، فخلفه أبنـــه ميكائيل ** ،وبعد موته تولى الأمر أبنه طغرلبك (٢) .

انتهز طغرلبك تصارع القوى في فارس والعراق ،فمال نحو الغزنويين لقربهم إليه ، ضد البويهيين ، وقد حقق الغزنويون أنتصارات وسعت مملكتهم ، لكن طغرلبك لم ينله منها شيء ، فعمد الى استمالة التركمان في نواحي خراسان مما زاد من قوته ، وحدثته نفسه بالانفصال عـــن الغزنويـين ، فأحس السلطان مسعود الغزنوي ـ خليفة السلطان محمود الغزنوى ـ هـــذه النوايا ، وجهز جيشا لايقاف الاعتداءات السلجوقية على مملكته ، فالتقى مع السلاجقة فـــي داندانقان (٤٣١ هـ/١٠٤٠ م ، وكانت الدائرة عليه ، فاستولى السلاجقة على معظـــــم أملاكهم (٤) ،وانحصر نفوذ الغزنويين في أفغانستـــان (٥) .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ،الحركة الصليبية ، [illegible] ط ٢ مكتبة الأنجلو مصريـــة القاهرة سنة ١٩٧٥ ، ج١ ص ٦٥ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٦٨ ، ص ١١٦

* كان له من الابناء : أرسلان ، وميكائيل ، وموسى ، أنظر السلوك لمعرفة دول الملـوك ج١ ق ١ ص ٣٠

** كان له من الابناء : بيغو ، طغرل ، ينال ، جغرى بيك داود ، أنظر المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٣٠

(٣) ابن طباطبا ، الفخرى في الاداب السلطانية ، دار صادر ، دار بيروت ١٩٦٦ ص ٢٩٣

(٤) الحسيني ،أخبار الدولة السلجوقية تحقيق محمد أقبال ، لاهور سنة ١٩٣٣ ص ١٩٤

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٧٦

اندفع السلاجقة حينئذ بزعامة طغرلبك يتوسعون على حساب دولتي المسلمين والبيزنطيين ، اللتين كانتا تعيشان مرحلة تفكك وصراع داخلي ، بينما أجتمع للسلاجقة عدة محركات ،منها القيادة الطموح ، والقوة الضاربة ونشوة الانتصارات المتتالية .

وحدث أن تجبر البويهيون وأرغموا أهل السنة على الاشتراك في أعياد الشيعة مما أدى الى الفتن في العراق (١) ، فأسرع طغرل الى بغداد وأزال دولة بني بويه ، وقدم الولاء الرمزي للخليفة الذي أنعم عليه بلقب أمير المسلمين ونائب وصي أمير المؤمنين (٢)

وبعد أن أستقر الأمر في بغداد توجه الى نصيبين " وديار بكر " ، فضمها الى ملكه ،واستولى على الموصل وولى عليها أخاه (ينال أبراهيم) (٣) ، وكان قد سيطر على أجزاء واسعة من فارس وشمال العراق ،وأتخذ أصبهان عاصمة له (٤) .

لكن أنصار بني بويه في بغداد لم يقفوا مكتوفي الأيدي بعد تدمير دولتهم ،إذ قام أحد قادتهم ويدعى " البساسيري " بتكوين جماعة تدعو الى الثورة على الخليفة العباسي وأتصل مع الخليفة الفاطمي كي يساعده في اعلان الحكم الفاطمي في بغداد .. وحين أنس في نفسه القدرة عزل الخليفة العباسي ودعا للخليفة الفاطمي ، فعادت الفتنة الى بغداد (٥) .

وحين علم طغرلبك بفتنة البساسيري ، قدم ثانية الى بغداد وقضى عليه سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م وأعاد الخليفة العباسي الى كرسي الخلافة ، مما جعل الخليفة ينعم عليه بلقب ملك الشرق والغرب ، كما دعاه بالسلطان مكافأة له على ما أسداه من معروف (٦) لكن طغرلبك كان بعيد النظر ،فأراد أن يسبغ على حكمه شرعية أكثر ، فطلب من الخليفة أن يزوجه ابنته ، وما كان الخليفة ليستطيع أن يرد طلب الحاكم الفعلي لبغداد حتى في المسائل الشخصية ولكن موت طغرل أنهى أحراج الخليفة وعادت ابنته من " الري " بعد وفاة طغرل سنة ٤٥٥هـ (٧) .

وبعد موت طغرلبك بالري خلفه ابن أخيه - عضد الدولة أبو شجاع محمد ألب أرسلان* وقد سار على نهج عمه طغرلبك في التنظيم الداخلي والفتوحات الخارجية .

---

(١) ابن الاثير ،الكامل ،دار صادر ،ودار بيروت سنة ١٩٦٦ ج٩ ص ٥٩٣
(٢) عبد القادر اليوسف ،علاقات بين الشرق والغرب ، بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ، المكتبة العصرية ، صيدا سنة ١٩٦٩ ص ١٧
(٣) المقريزي ،السلوك لمعرفة دول الملوك ، ت محمد مصطفى زيادة ،دار الكتب المصرية القاهرة سنة ١٩٣٤ ج ١ ق ١ ص ٣٢
(٤) المصدر السابق ص ٣٢ (٥) الكامل ١٠/ ٦٤٠ - ٦٤٢
(٦) علاقات بين الشرق والغرب ص ١٨
(٧) السلوك ج ١ ق ١ ص ٣٣ ، وانظر ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، نقله السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت سنة ١٩٦٧ ج ١ ص ١١٥
* ألب أرسلان هو ابن جغرى بن داود بن ميكائيل من سلجوق ،وسبب توليته هو أنجاب طغرل وريثا .

مستفيدا من قوته التي ازدادت بسبب الفتوحات السابقة وضعف البلدان المجاورة • كما تابع فتوحاته في أرض أرمينية فأحتل "آني" و"قارص" وهما العاصمتان القديمتان لأرمينية مما جعل الطريق مفتوحة الى الأناضول • كل ذلك وأمبراطور بيزنطة قسطنطين العاشر دوقاس لا يحاول صد الهجمات (١) مما أتاح الفرصة للسلطان ألب أرسلان لأن يوطد قدميه في المناطق التي يحتلها مخالفا بذلك ما كان يحدث في عهد سلفه من الأباطرة •

وفي سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م تولى العرش البيزنطي أمبراطور جديد عمل على تقوية الجيش وإمداده بالمرتزقة من التركمان والنورمان أملا في أن يستطيع درء الخطر السلجوقي الذى أضحى يهدد عاصمة بلاده • وقد تمكن الأمبراطور رومانوس ديوجين الرابع من ذلك تصد الهجمات السلجوقية • بل وتمكن من استرجاع بعض المدن (٢) مما شجعه على الاستمرار والمضي قدما لاسترجاع أرمينية • فخرج بجيش قوامه مئة ألف مقاتل (٣) وفي تلك الاثناء كان الامير ألب أرسلان منهمكا في مواصلة ضم الاراضي في بلاد الشام حيث أخضع حلب • وأمّر عليها صاحبها محمود بن نصر المرداسي • ثم بعث جيوشه بقيادة "اتسز" فأستولت على القدس والرملة وأنتزعتهما من أيدى الفاطميين (٤) • كما واصلت زحفها لتستولي على مكة والمدينة بينما قام بمحاصرة دمشق بنفسه (٥) • وفرض عليها معيشة أقتصادية سيئة • فقطع عنها الميرة ورعى الزرع وازداد غلاء الاسعار فيها ونزح أكثر سكانها عنها (٦) • ولكنه حينما سمع بتحركات الامبراطور البيزنطي كرّ راجعا الى أرمينية • والتقى الجيشان السلجوقي والبيزنطي في "ملاذكرد" • وكان أن انسحبت الفرق التركمانية من الجيش البيزنطي • مما نتج عنه ضعف روح البيزنطيين المعنوية • لكن ذلك لم يوهن من عزيمة الامبراطور بل بقى مصمما على القتال الى أن دارت الدائرة عليه • وقتل معظم جنده وتمكن أرسلان من القبض عليه أسيرا (٧) •

وقد كان لهذه الموقعة آثار متعددة : منها تردّي الروح المعنوية عند الروم مما اضطرهم الى الاستنجاد باللاتينيين (الفرنج) رغم ما بينهما من عداء • وهذا كانت سببما مباشرا من أسباب الحروب الصليبية (٨) • ومنها • تدخل السلاجقة في شؤون الدولة البيزنطية • ومنها • ازدهار دولة السلاجقة واتساعها • وقد نتج عن هذا الاتساع فيما بعد انقسامها الى ثلاث دول هي: دولة سلاجقة الروم • ودولة سلاجقة الشام • ودولة سلاجقة فارس

---

(١) الحركة الصليبية ج ١ ص ٨٢ (٢) الكامل ج ١ ص ٦٠

(٣) رنسيمان • تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ١١٥

(٤) الفارقي • تاريخ الفارقي • ت بدرى عبداللطيف • بولاق • القاهرة ١٩٥٩ ص ٤٧٣
وانظر أبو الفداء • مختصر في تاريخ البشر • المطبعة الحسينية مصر • ؟ ج٢ ص ١٨٧

(٥) تمارا تالبوت رايس • السلاجقة • تاريخهم وحضارتهم • ترجمة لطفي الخورى وابراهيم الداقوقي • مطبعة الارشاد • بغداد ١٩٦٨ ص ٢٣

(٦) ابن القلانسي • ذيل تاريخ دمشق • مطبعة الاباء اليسوعيين • بيروت ١٩٠٨ ص ٩٨-٩٩

(٧) الكامل ١٠/٦٦

(٨) The Ency. of Islam, Malazgerd

وقد أزدهرت الدولة السلجوقية في عهد ملكشاه بن ألب أرسلان حتى بلغت الـذروة بفضل هذا الملك وبفضل وزيره نظام الملك الذي عرف بحسن إدارته وسعة أفقه ، فعمل علـى أيجاد نهضة علمية وعمرانية لم تشهدها المنطقة منذ مدة طويلة .

أما ملكشاه فقد نذر نفسه لاستكمال الفتوحات ، حتى بلغ به الطموح أن يفكر بتقسيم أقاليم الدنيا (١) ، ولذلك أعتمد على قادة أقوياء أوكل لكل منهم منطقة معينة ، فجعل الأمير برسق لمنطقة الروم ، فغايقها وأقرّ على قسطنطينية جزية بلغت " ثلاثمئة ألف دينار للسلطان وثلاثين ألف دينار يؤديها الرومي بالصغار والهوان " (٢) كما جعل أخاه تاج الدولة تتش مسؤولا عن أقاليم الشام يساعده في ذلك أمير الرها " بوزان " ، وأمير حلب " آق سنقر " حتى اذا استكملوا أقاليم الشام توجهوا نحو ديار مصر ثم بلاد المغرب (٣) .

ولعله فعل ذلك بناء على تصور لماضي العالم الاسلامي زمن هرون الرشيد ، فأراد ان يعيد مجد الدولة الاسلامية من الناحية السياسية على يد قادته العظام ، ومن الناحية العمرانية على يد وزيره نظام الملك (٤) .

أما عن توسعات السلاجقة في الجهات الغربية من أرض الروم (٥) ، فقد تولاها " سليمان بن قتلمش بن أسرائيل بن سلجوق " أحد أقاربه بحيث أصبحت الدولة السلجوقية تضم ما يقرب من ثلاثة أرباع آسيا الصغرى وأمتدت دولة السلاجقة بذلك في منطقة تقع ما بين حدود الصين شرقا الى بحر مرمرة غربا (٦).

وأتخذ سليمان بن قتلمش مدينة نيقيه مركزا له ، وضم اليها ولاية نيقوميديا ، ومنها راح يهاجم أرض الروم ، يساعده في ذلك أمير أزمير ، وقد أستطاع بعد أن انشأ أسطولا أن يهدد القسطنطينية وأن يحتل بعض الجزر القريبة من شواطئ آسيا الصغرى ، ومما سهل على سليمان هذا التوسع التمزق السياسي الذي كانت تمر به الدولة البيزنطية ، حتى بلغ الامر ببعض الاباطرة ان يستنجدوا بالسلاجقة مقابل السكوت عن ضم بعض الأراضي البيزنطية (٧) .

---

(١) البنداري ، مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ، مطبعة الموسوعات ، مصر ١٩٠٠ ص ٦٥
(٢) المصدر السابق ص ٦٥ ، ٦٦
(٣) المصدر السابق ص ٦٦
(٤) رشيد الجميلي ، دولة الاتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي ، دار النهضة / بيروت ١٩٧٠ (ص ٣١٢)
(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ج ١ ص ٨٧
(٦) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول لابن هارون الملطي ، المطبعة الكاثوليكية / بيروت ١٩٥٨ ص ١٨٦ ، انظر حامد غنيم ، الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية مكتبة الشباب القاهرة ١٩٧١ ، ج ١ ص ٩٥
(٧) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج ١ ص ٨٦ ، ٩٠

إلا أن هذا التوسع حمل معه بذور التمزق السياسي ، فقد تشكل من البيت السلجوقي ثلاث دول هي : دولة سلاجقة الروم بقيادة سليمان بن قتلمش ، ودولة سلاجقة الشام بقيادة تتش بن ألب أرسلان ، ودولة سلاجقة فارس بقيادة ملكشاه بن ألب أرسلان .

وفضلا عن هذا الانقسام فقد دب الخلاف بين أمراء السلاجقة ، اذ اتجه سليمان بن قتلمش الى التوسع على حساب أبناء عمومته في الشام ، فاصطدم مع تتش قرب حلب ، حين أراد سليمان ضمها الى ممتلكاته ، فاستنجد صاحبها بتتش ، فأنجده وتمكن من قتل سليمان سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م (١) ، وقد كان مقتل سليمان بداية اضمحلال لسلاجقة الروم ، إذ إنه ترك طفلا صغيرا اسمه قلج أرسلان ، لا يقدر على أعباء الحكم ، وحين تقدم ملكشاه ليتسلم حلب من أهلها أخذ معه هذا الطفل وعاد الى فارس ، ليبقى تحت رقابته ، مما أتاح الفرصة لبعض أمراء التركمان للظهور (١) .

ومن الامارات التي ظهرت : امارة نيقية ، وامارة أزمير ، وامارة كبادوكيا وقد حاول أمير نيقية التوسع على حساب سلاجقة فارس ، فجهز له ملكشاه حملة تأديبية فاستنجد بامبراطور الروم " ألكسيوس كومنين " الذي اغتنم الفرصة ليزيد الفتنة اشتعالا وبالتالي يخلو له الجو لينتقم منهم جميعا ويستعيد بلاده ، حتى بلغ به الأمر أن رفض عرضا من سلاجقة فارس يقضي بأن ترد له بعض الاراضي على أن يتخلى عن مساعدة أبي القاسم أمير نيقية (٢) ، ولما لبث النزاع أن نشب بين سلاجقة فارس والشام ؛ وسبب ذلك أن أهل حلب امتنعوا عن تسليم بلدهم لتتش بعد انتصاره على سليمان بن قتلمش ، وانما أرسلوا الى ملكشاه ، فتسلمها منهم ، ومنحها لحاجبه قسيم الدولة آقسنقر ، ثم تابع سيره الى انطاكية وتسلمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قتلمش ، وولى عليها مؤيد الدولة ياغيسيان وضمت الرها تحت امرة تابعه القائد بوزان ، وبذلك لم يبق لتتش سوى دمشق، وفلسطين التي كان يحكمها الأمير ارتق ، ثم ابنه سكمان الأول (٤)

ولما ادرك تتش أن الصدام المسلح لن يجدي ، ذهب الى أخيه ملكشاه في بغداد سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١ م ، وسأله التوسع في بلاد الشام على حساب الفاطميين فامده بامراء حلب وانطاكية والرها (٤) ، ولم تتوقف الخلافات عند هذا الحد ، اذ ان وجود السلطان ملكشاه خفف من حدتها ليس إلا ، اذ أنه عمل على ارضاء أخيه تتش ، كما عمل على استقطاب أبناء عمومته في الاناضول ، ولكن تفكك الدولة السلجوقية تهدد البنيان بعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م

---

(١) أبو الفداء ، المختصر في تاريخ البشر ج ١ ص ٨٩ ، ٩٠
(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج ١ ص ١٠٣
(٣) المصدر السابق ص ١١٥
(٤) المصدر السابق ج ١ ص ١٠٤ ، ١٠٥

وخلف ملكشاه أربعة أبناء هم محمود وبركيارق ومحمد وسنجر ، وقد تمكن بركيارق من الاستيلاء على معظم أجزاء الدولة(١) .

وعندما علم تتش بموت أخيه ملكشاه طمع في أن يكون له نصيب في تركته ، فتجهز نحو حلب ، وفيها الامير آقسنقر ، فسلمها اليه وحذا حذوه كل من أمير أنطاكية باغيسيان وأمير الرها بوزان ، ثم جهز جيشا وسار به شرقا يريد أرض فارس التي يحكمها ابن أخيه ، وفي طريقه أخضع بعض المدن ، ثم دخل أرض فارس ، وهناك تعرض له بركيارق ، وكان أن انحاز كل من أمير حلب والرها الى جيش بركيارق مما أضطر تتش الى العودة الى الشام لمعاقبة الأميرين ، وحاول بركيارق أن ينجد الاميرين بجيش كان على رأسه كربوغا ، لكن تتش تمكن من ايقاع الهزيمة بهم (١) .

وبعد أن أخمد تتش هذه الحركة الانفصالية ، أعاد الكرة الى فارس ، واستولى في طريقه على الجزيرة ، وديار بكر وخلاط ، وطلب الخطبة في بغداد (٢) ، ثم تابع زحفه الى فارس فاحتل همذان والري ، فتصدى له بركيارق ، وقد انضم اليه جيش أخيه محمود ، واستطاع أن ينزل بجيش تتش هزيمة ساحقة وتمكن من قتله هو وخواصه(٣) ، وبعد مقتل تتش ترديت الأحوال في الشام ، وسبب ذلك أن تتش خلف ولدين هما رضوان ودقاق ، فأخذ الاول حلب (٤٨٨/١٠٩٥ ــ ٥٠٧/١١١٣) وأخذ الثاني دمشق (٤٨٨/١٠٩٥ ــ ٥٠٨/١١١٤) لكن رضوان حاول أخذ دمشق أيضا فعمل على تكوين حلف يستطيع بمقتضاه تحقيق هدفه ونتيجة لهذه المنازعات انقسم الشام الى ست دويلات هي : حلب وأميرها رضوان ، دمشق وأميرها دقاق ، القدس وأميرها سكمان بن الارتق ، وانطاكيا وأميرها باغيسيان وهذه الامارات سلجوقية ، وطرابلس وأميرها القاضي ابن عمار الذي أستقل عن الفاطميين ، وشيزر وأميرها علي بن منقذ وقد أسسها سنة ٤٧٤ /١٠٨١ م .

وتشكل من هذه الامارات نتيجة الصراع بين الاخوين حلفان متصارعان ، تزعم الحلف الاول حلب بقيادة رضوان ، والتف حوله أراتقة ديار بكر وقبائل بني كلاب ، وأمارة شيزر ، وتزعم الحلف الثاني دمشق بقيادة دقاق ، والتف حوله أراتقة القدس ، وباغيسيان أمير أنطاكية وبينما هم على وشك الالتقاء عند شيزر كانت طلائع الحملة الصليبية الاولى قد شارفت الشام ، فانسحب رضوان الى حلب وباغيسيان الى أنطاكية ليشرف على العمليات العسكرية ، أما دقاق فلم يكترث للقوات النازية ، بل راح يهاجم ديار بكر كما انتهز الفاطميون انشغال السلاجقة بعضهم ببعض فاحتلوا القدس ، وقد خطب رضوان للمستعلي بأمر الله الفاطمي أربع جمع ، ثم خشي عاقبة ذلك فقطعها وأعاد الخطبة العباسية (٤) .

---

(١) الكامل جـ ١٠ سنة ٤٨٥ ص ٢١٤
(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ وأنظر الحسيني أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٥ ، أبو الفداء ، المختصر جـ ٢ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ابن الوردي جـ ٢ ص ٨ ، ٩
(٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠ أبو الفداء المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٠
(٤) ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ١٨٦٨ ، جـ ٢ ص ٩

وهكذا نجد أن السلاجقة أمدوا الدولة العباسية بفترة نشاط بلغت نصف قرن تقريباً، لكن تقسيم الدولة على الورثة وما تبعه من منازعات أغنمها الامبراطور الكسيوس كومنين جعل الاوضاع تتردى ، وتهيء الظروف المواتية للغزو الخارجي .

ولم يكن التمزق الذى أصاب بلاد الشام بأقل من التمزق الذى أصاب الدولة العباسية والدولة الفاطمية ..

أوضاع الدولة العباسية :

خضعت الدولة العباسية للبويهيين مدة قرن تقريبا (١)، عملوا خلالها على أضعاف سيطرة الخليفة حتى أصبح أسماً لامضمون له ، ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل نهجوا المذهب الشيعي ، وقهروا الرعية ، وبذلك عمت المصيبة ، فلا قيمة للخليفة ولا للرعية مما أدى الى أشعال نار الفتنة ، فجرت أحداث جسام كان ابتداؤها أواخر سنة ٤٤٤ هـ فلما كانت سنة ٤٤٥ هـ عظم الشر (٢)، وكان قد ظهر في فارس قوة تركية ، تمكن زعيمها محمود الغزنوى (٤٢١ / ١٠٣٠) من أحتلال أقليم خراسان كما أنتزع من البويهيين جزءا من عراق العجم ، حتى شملت رقعة مملكته المساحات الممتده من آسيا الوسطى شرقا حتى العراق غربا ومن بلاد فارس شمالا حتى الهند جنوبا (٣).

لكن السلاجقة تمكنوا بقيادة طغرلبك من السيطرة على معظم مملكة الغزنويين ونظروا الى الاحداث الدائرة في العراق ، اذ كان أمير الامراء البويهي الملك الرحيم خسرو فيروز (٤٤٠ /١٠٤٨ ـ ٤٤٧/١٠٥٥) قد أرخى القادته العنان ، فجاسوا خلال الديار ، حتى فكر البساسيري بأن يقضي على الخلافة العباسية ويعلن الخلافة الفاطمية في بغداد لتكون تابعة للفاطميين في مصر (٤)، كما سبق أن أوردنا ، وحينئذ ، تدخل طغرلبك رسميا ، وقضى على ثورة البساسيرى ، وأعاد الخليفة ثانية الى كرسي خلافته ، فأغدق عليه الخليفة الالقاب التي لا يملك غيرها ، مما أتاح الفرصة لطغرل أن يمكن جذوره في بغداد لا سيما بعد ما أحرزه من نصر معنوي ، إذ أزدادت ثقة الرعيه به لاعادته الخليفة لما للخليفة من أحترام ديني ، فأعلن أسمه في الخطبة ، وتقدم لابنة أخيه الب ارسلان زوجة للخليفة ثم طلب يد أبنة الخليفة لتكون زوجة له (٥)، لكن موته أوقف نفوذه وخططه فأكملها ألب أرسلان (٤٥٥ /١٠٦٣ ـ ٤٦٥/١٠٧١) الذى سار على نهج أخيه فعمل على ترسيخ السلطة في يده بحيث لم يعد للخليفة حكم (٦) .

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٧٧

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ سنة ٤٥٥ ص ٥٩٣

(٣) تامارا تالبوت رايس ، السلاجقة ص ٣٢

(٤) ابن طباطبا ، الفخري في الاداب السلطانية ص ٢٩٣

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢١، ٢٦

(٦) الفارقي ، تاريخ الفارقي ص ١٥٥ وانظر ابن الاثير جـ ١٠ ص ٢١، ٢٦

وفي عهد ملكشاه قوي سلطان السلاجقة وتنفذوا في بغداد وغيرها ، حتى أن الخليفة شكا عميد العراق الى السلطان ملكشاه(١) ، وقد أتخذ السلطان المذكور بغداد مقرا شتويا له ، بينما جعل مقره الصيفي في أصفهان ، ومن خلال هاتين العاصمتين أدار ملكه ، وأتصل باتباعه وقواده في الشمال والغرب ، حتى أتسعت دولته وقويت شوكتها وعرفت مملكتها وأستولت في الواقع على الخلافة(٢)، ويلاحظ هنا أن ملكشاه قد طور نفوذ السلاجقة ، فلم يعهد عن سلطان من قبل أنه أتخذ عاصمة له ، بل فعل ملكشاه أكثر من ذلك ، اذ حاول نقل الخلافة الى واحد من نسله(٣)•

وبموت ملكشاه تفككت الدولة السلجوقيه -كما بينا- وظهرت مخاطر ، جديدة ، وقوى قبلية ، نخرت جسم الدولة العباسية ،وحالت دون أضطلاعها بدورها في الحياة الاسلامية• أما المخاطر الجديدة ، فهي ما حصل بين السلطان بركياروق، وأخيه السلطان محمد ، فبعد أن هدأت الفتنة بموت تتش في الري ، سيطر بركياروق على فارس والعراق ثانية ، لكن أخاه محمدا لم يعجبه ما ناله من أرض اذربيجان وأرمينية وديار بكر والموصل(٤)، فثار على أخيه وتمكن من الانتصار عليه في سنة ٤٩٣ هـ/١٠٩٩ م ولكن بركياروق ، جمع جموعا عظيمة وأوقع بأخيه محمد هزيمة قاسية ، مما أضطره الى الصلح سنة ٤٩٨/١١٠٤ •

وكان العراق وفارس مسرحا لهذه العمليات ، مما أدى الى أنتشار الفساد والأوبئة والخراب ،وزاد في فقر الناس وعدم تحملهم للمطالب التي جابهتهم من قدوم الحملة الصليبية الاولى التي وصلت الى الرها • وأما القوى القبلية ، فقد ظهرت منها قوتان ، أولاهما قوة بني مزيد وهي قبيلة عربية عاشت على الضفة الغربية لنهر الفرات ، وقد تزعمها صدقة بن منصور ابن دبيس بن مزيد الأسدي ، وأتخذ من منزلة الحلة التي بناها سنة ٤٩٥ هـ /١١٠١ م مقراً له ، وفيها أعلن انفصاله عن الدولة السلجوقية التابعة لبركياروق وأخذ يتوسع في غمرة الأحداث على حساب الدولة العباسية والدولة السلجوقية ، حتى أمتدت دولته من هيت الى الكوفه وواسط(٥)•

وكثيرا ما وقعت الفتن في العراق حتى وصل بهم الأمر فيما بعد الى أن استنجدوا بالصليبيين للمحافظة على كيانهم•

---

(١) ابو الفداء ،المختصر في تاريخ البشر ، ج ٢ ص ١٩٤
(٢) ابن طباطبا ،الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٩٢
(٣) ابن طباطبا ،الفخري في الاداب السلطانية ص ٢٩٦
(٤) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧
(٥) سعيد عبدالفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ج ١ ص ١١٢

والقوة الثانية هي قوة الاسماعيلية* ، وزعيمها الحسن بن صباح ، وقد تفاقم خطرها في عهد المستظهر فاستولت على الحصون والمعاقل بخراسان وأتصل زعيمها بالفاطميين في مصر ، وعملت على تهيئة الناس للثورة في بغداد ، وقد استفاد الاسماعيليون من حالة الفوضى التي تمر بها الدولة العباسية والدولة السلجوقية وأخذوا يهاجمون الضياع ويبثون الخوف في نفوس الناس ، يقول الحنبلي (١) في أحداث سنة ٤٩٤ " كثرت الباطنية بالعراق والجبل ، وملكوا القلاع وقطعوا السبيل وأهمّ الناس من شأنهم واستفحل أمرهم لاشتغال أولاد ملكشاه بنفوسهم " ، ويقول في موضع آخر (١) " وعظم الخطب بهؤلاء الملاعين ، وخافهم كل عالم وأمير لهجومهم على الناس " ، وهذا يدل على أنهم لم يخصوا بأعمالهم الإجرامية الحكام فحسب بل هددوا كل من خالف دعوتهم ، ولذلك كانوا عونا لم يكن مثله للصليبين في تهيئة الاوضاع وهذا ما عبر عنه ، ستيفن رنسيمان ، بقوله(٢) : " أنهم أسدوا خدمة في السياسة الإسلامية لم يسع المسيحيين أنفسهم الا تقديرها " ويبين أنهم تصدوا لكل محاولة إسلامية من شأنها جمع شتات الامة ، وذلك بعدة طرق أهمها اغتيال القادة وهو من أهم أسلحتهم .

هذا مجمل لما كان عليه الوضع في العراق والشام ، خلاف مستمر ، وحروب وفساد ، وخوف الولاة بعضهم من بعض ، مما نتج عنه أهمال الرعية ، وزيادة تجزؤ بلاد الشام حتى ليخيل للمسافر أن كل بلدة منها تشكل دولة .

وفي هذه الاوضاع المتردية قدمت الحملة الصليبية الأولى ، ولكن كيف كانت الحالة في مصر ؟ ، وما هو دورها في التصدي للحملة الاولى ؟ ، هذا ما سنحاول الاجابة عنه في الصفحات القادمة .

(*) الاسماعيلية : فرقة تدين بمبادئ الشيعة المتطرفة ، وتنتسب الى مؤسسها الحسن بن صباح ، وكانت تنادي بأمامة أسماعيل بن جعفر الصادق ، فعرفوا بالإسماعيلية ، وكذلك أطلق عليهم أسم الحشيشية لاستعمالهم الحشيشة في حوادث القتل ونشر مذهبهم ، استولوا على قلعة ألموت وهي من أحصن قلاعهم ثم ظهروا في مناطق مختلفة من بلاد الشام مثل حلب ، دمشق ، طرابلس ، بانياس ، ، وقد تعرضوا لعدة عمليات أبادة لسوء أعمالهم (أنظر : المختصر في تاريخ البشر ج٤ ص ١٢٠ ، ودولة الاتابكة في الموصل لرشيد الجميلي ص ٤٣ ، ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٢٢ و ٢٧٥

(١) الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، المكتب التجاري ، بيروت ؟ ٣/٤٠٠

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٤

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ١٩٤

(٤) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٠

(٥) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ١٩٠

أوضاع الدولة الفاطمية :

بسط الفاطميون نفوذهم في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي على مناطق واسعة من بلاد الشام ، تمتد من دمشق الى جنوب فلسطين ، وحاولوا احتلال حلب التي كانت تحت أمرة الحمدانيين فاتصل أميرها سعد الدولة بالدولة البيزنطية وبين لهم خطر الفاطميين عليهم اذا احتلوا حلب ، مما جعلهم يتحمسون لمساعدته ضد أية محاولة من جانب الفاطميين لاحتلال حلب (١)، وقد كان لسعة الدولة الفاطمية وضعف السلطة المركزية وظهور قوة جديدة في الشرق الاسلامي ، أثر كبير في توجيه الاحداث واضعاف الدولة الفاطمية ، إذ من المعروف أن السلاجقة قد سيطروا على فارس والعراق ثم تحركوا نحو بلاد الشام وأملكوا معظمها ، وقد خضعت حلب بعد الحمدانيين لسيطرة بني مرداس، الذين حافظوا على استقلالهم مدة نصف قرن ، وبعد أن استولى عليها السلاجقة أستطاع صاحبها " أتسز بن أوق " أن يستولي على الرملة والقدس ومعظم فلسطين وما جاء عام ٤٦٧/ ١٠٧٥ حتى استولى على دمشق (١) ، لكن الفاطميين لم يسكتوا عن أعماله ، لأنها أقلقت الحكم الفاطمي من فلسطين وهددت كيانهم في مصر ، فوقف بدر الجمالي أمير الجيوش في وجه هذه القوة الجديدة ، وقد نجح فعلا في أقصاء صاحب حلب عن فلسطين ، كما حاول ضربه في دمشق ، لكن صاحب حلب ، وقد كان من أتباع السلطان ألب أرسلان ، استنجد بالحاكم السلجوقي تتش فقدم الى دمشق في الوقت الذي كان بدر الجمالي يحاصرها ، فآثر بدر الرجوع عنها ، وتسلمها تتش من صاحب حلب ، ثم ما لبثت حلب نفسها أن وقعت في يد الامير مسلم ابن قريش صاحب الموصل وأنطاكية ، وحين حاول سليمان بن قتلمش احتلال أنطاكيه ، هب الامير مسلم ابن قريش لانجادها لانها له ، فوقع صدام بينهما ٤٧٨/ ١٠٨٤ كانت نتيجته مقتل الامير مسلم وسقوط أنطاكية بيد سليمان ، ومنها تابع سيره نحو حلب التي كان فيها نائب الامير مسلم الشريف حسن بن هبة الله الهاشمي المعروف بالحتيتي (٣) ، فأستنجد بتتش، فأنجده وقضى على محاولة سليمان . وبذا قويت شوكة تتش وتوسع على حساب الفاطميين في الجنوب ، وولى على القدس أرتق التركماني ، وبقيت بيد الارائقة حتى سنة ٤٩١/ ١٠٩٨م حيث قام الفاطميون بانتزاعها منهم ، بعد أن اقتتل السلاجقة فيما بينهم .

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٦٥

(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٨ ، ٩٩ وأنظر ،

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages: Frank Cass and Co. LTD. 1968. P. 161

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، من تاريخ حلب ت ، سامي الدهان ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٥ ، ج ٢ ص ٩١

ولم يكن الخليفة الفاطمي بأحسن حالا من الخليفة العباسي ، فكلاهما لا كان حول لـه ولا قوة ، وكلاهما أنحسر نفوذه ، فلا يستطيع التصرف حتى في الشؤون البسيطة ، وسبب ذلك تنفذ الوزراء ، ومما يدل على ذلك أن الخليفة الفاطمي المستنصر أوصى لابنه نزار ، لكن الأفضل بن بدر الجمالي لم يعجبه ذلك فأوصى للمستعلي بالله بدل أخيه ، مما أدى بالتالي الى فتنـة عـامـة سنة ٤٨٨/١٠٩٥ أنتهت بمصرع نزار (١)

وقد عمد الوزراء الى تولية الخلفاء الأحداث ، حتى تكون السيطرة لهم تامة ، وقـد ظهرت آثار هذه السياسة على الديار المصرية والشامية معا : أما بالنسبة الى الديار الشامية فقد أنقطعت دعوتهم فيها ، وتعددت امارتها حتى بلغت ستا ، فضلا عن القوى الاخـرى ، وأما بالنسبة الى الديار المصرية ، فقد أختلت دولتهم وضعف أمرهم(٢) .

وبعد ما تبين من الحال الذي كانوا عليه ، ليس من الغريب أن يكون دورهم بسيطـا في التصدي للحملة الصليبية الأولى ، وان تكون عملياتهم تجريدة ـ كما يسميها ابن تغـري بردى " لا يتجاوز عدد رجالها ثلاثمائة الى أربعمائة "(٣) .

وليس هذا فحسب ، بل تذكر بعض المصادر أن الفاطميين في مصر أرسلوا الى الصليبيين يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكوه ، ويكونوا بينهم وبين المسلمين ، ويذكـر رنسيمان أنهم أرسلوا سفارة اليهم بتقسيم أملاك الدولة السلجوقية فيما بينهم (٤) .

ومن هنا لا نستغرب الحملة الشعواء التي شنها بعض الشعراء على الفاطميين(٥) .

---

(١) الكامل ، ج ١ ص ٢٣٧
(٢) مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، دار الجيل بيروت ١٩٧٣ ، ج ١ ص ٣٠٢
(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٤
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٢ ، وأنظر الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٢١٦
(٥) أبو شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ت . محمد حلمي أحمد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦ ج ١ ق ٢ ص ٤٦٦

الفصـــل الثانـــي

الغرب الأوروبي قبـل الغزو الصليبـــــــي

تبين لنا فيما مضى ،كيف أنّ معركة ملاذكرد قـد دفعت أباطرة الدولة البيزنطية الى التوجه نحو أوروبا رغم العداء المذهبي والتاريخي بين الجانبين(١) ، اذ جرت مفاوضات فـي عهد الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع(٤٦٤/١٠٧١ ـ ٤٧٢/١٠٧٩) مع البابـــا جريجوري السابع والامبراطور هنري الرابع امبراطور الامبراطورية المقدسة ، وكادت المفاوضات تنجح لولا أختلاف البيزنطيين واللاتينيين حول أتحاد الكنيستين الشرقية والغربية(٢) ، إلا أن البابا نبه الرأى العام الاوروبي الى ضرورة أنجاد الامبراطورية البيزنطية التي تقف وحيدة أمام خطر السلاجقـــة .

بقي الخلاف مستحكما زمـن ميخائيل السابع وخليفته الامبراطور نقفور الثالث ولكـــن بعد أن خلع الاخير ، وتولى العرش الكسيوس كومنين " ٤٧٤/١٠٨١ ـ ٥١٢/١١١٨ " ، أتخذت المفاوضات طابعا حاسما ، لما عرف عن ألكسيوس من حنكة سياسية حاز بسببها علـى رفع قرار الحرمان الذى كان البابا ، أوربان " قد أصدره بحقه ، مما أدى الى تقارب بـين الكنيستين ، تبعه مفاوضات بين الطرفين ، كان أهمها سفارة أرسلها الكسيوس ٤٨٩/١٠٩٥ الى البابا أوربان يحثه فيها على أنجاد الدولة البيزنطية ضد أعداء المسيحية ، الذين باتوا يهددون روما فضلا عن القسطنطينية(٣) ، فأستجاب البابا الى طلبه وحث على العمل لانجاده.

وقد جاءت هذه الدعوة أنقاذا لما تعانية أوروبا من مشاكل وتحقيقا لما ترجوه من آمال أما المشاكل التي كانت تعانيها أوروبا فمنها أنها كانت تعيش وفق نظام أقطاعي " دمر الحياة الاجتماعية والسياسية معا ، فعندما نجح الامراء الاقطاعيون في حماية رعاياهم من الهجمات الخارجية ، تحكم هؤلاء الامراء بالناس فجعلوهم خدما وأقنانا ..

---

(١) فيشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، نقله محمد مصطفى زيادة والباز العريـني ط ٥ دار المعارف ، مصر ١٩٦٩ ، جـ١ ص ٢٧٩ .
(٢) عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٥
(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ص ١٢٨
(*) خدم نظام الاقطاع أوروبا خدمة جليلة في أول عهده ، اذ لم يستطع نظام الاباطـرة الوقوف أمام غارات الهنغاريين الذين أوغلوا في وسط القارة حتى شرق المانيـــا ، فكان نظام الاقطاع الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذه الغارات ، إذ أعطى كبـــار الفرسان أقطاعا يدافعون عنه .. وكان الرجل العادي إما أن يصبح جنديا يدافع مع غيره عن الاقطاع ، وأما أن يصبح قنـــا يعمل في الارض .
أنظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ص ١٦٠ وسعيد عاشور ، حضارة ونظـــم أوروبا ، دار النهضة العربية ، بيروت سنة ١٩٧٤ ص ٣٨١

ولم يلبث رجال الدين أن انجرفوا مع التيار الاقطاعي ، فاعتمدوا على الفرسان وجعلوا لهم قدرا عظيما يظهر في طقوس تأهيل الفارس ، اذ يجرى تطهيره في الكنيسة بماء مبارك ، ثم يتناول العشاء الرباني ، ويترك ليحيي ليلته بالصلاة ، فما ينتهي منها حتى تغفر له ذنوبه (١).

وقد انقسم المجتمع في ظل هذا النظام الى ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين ، وطبقة النبلاء الفرسان ، وطبقة الفلاحين ، وعلى الطبقة الأخيرة كانت تقع أعباء هذا النظام. أما طبقة رجال الدين ، فقد انغمس أفرادها في ملاذ الحياة ، وانخرطوا فيها ، مما نتج عنه مشكلات جديدة ، اتخذت مظهرين : مظهر صراع داخلي في الكنيسة بين رجال الدين أنفسهم ، ومظهر صراع خارجي بين الكنيسة والسلطة الزمنية ، وأما طبقة الفرسان والنبلاء فقد دفعتهم حياة الترف والهدوء الى البحث عن مصادر للدخل تضمن المعيشة التي يتوقون اليها ، مما أدى الى الصدام بين الاقطاعيات ، فاهتم الامراء ببناء الحصون والقلاع ، وحشدوا فيها العبيد والأتباع ، تحسبا لأي هجوم أو استعدادا للهجوم .

وقد استنزفت هذه الحروب الداخلية طاقة الامراء والاباطرة ، وكذلك طاقة رجال الكنيسة مما جعل غوستاف لوبون يصف هذه الفترة بأنها أشد أدوار تاريخ أوروبا ظلاما (٢)، وخشيت الكنيسة أن تتفاقم الامور وتخرج من يدها ، ولذا حرمت الحروب الداخلية في أوقات معينة أطلقت عليها أسم " هدنة الله "(٣) ، لكن ذلك لم يكن ليحل المشكلة ، فاغتنم البابا أوربان الثاني دعوة الدولة البيزنطية لحرب المسلمين ، وراح يخطط لتشكيل حملة واسعة تستهدف القضاء على المسلمين في المشرق ، وتنهي كما اعتقد ، مشكلات أوروبا ، ولذا فقد سلك كل الطرق لانجاحها أما الطرق التي سلكها فهي: أنه استغل الدعايات التي نشرها الحجاج المسيحيون الغربيون عن معاملة المسلمين القاسية لهم ، إذ قيل إن الفاطميين منعوا قسما منهم من الدخول الى كنيسة القيامة ، وطردوا عددا آخر من البيت المقدس ، فاتخذ البابا من هذه الاقوال ذريعة لبث روح العداء والانتقام ، ووعد بالمغفرة كل من سافر الى فلسطين ليقاتل المسلمين ، علما بأن قوانين التوبة كانت صارمة وثقيلة ، وقد خاطبهم بقوله " ... إن القدس تناشدكم الآن المساعدة ، فاقصدوها بكل شوق تغفر لكم ذنوبكم وجزاؤكم دار الخلود (٤)" ، كما استغل حماس الفرسان وراح يحرضهم على الثأر ، ويسود قلوبهم بالحقد ، يقول " ... يا أمة الفرنج ، يا أبناء السلالة التي أحبها الله واصطفاها ، وصلتنا من جهات القدس والقسطنطينية أنباء مفجعة ، مفادها أن أمة من الأمم اشتطت عن السبيل فعاثت في الديار المسيحية سلبا وحرقا وقتلا ... على من تقع تبعة الثأر واستعادة الديار ؟ ألا تنهضوا أنتم بهذا الامر(٥)؟ " .

---

(١) فيشر : تاريخ أوروبا ، جـ١ ص ١٨١

(٢) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، نقل عادل زعيتر ط ٣ دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٣٢

(٣) سعيد عاشور حضارة ونظم أوروبا ص ٢٦٦

(٤) مكسيموس مونرند ، من تاريخ الحروب المقدسة ، ترجمة مكسيموس مظلوم ، مطبعة دير الرهبان الفرنسيسكان ، القدس ، ١٨٦٥م جـ١ ص ١٧ وانظر علاقات بين الشرق والغرب ص ٤٥ وانظر معاملة المسلمين لهم في كتاب احمد عبدالمجيد الدومي ، صلاح الدين الأيوبي ط ٢ ، المكتبة العصرية ، بيروت / صيدا ، ص ٨٦

(٥) علاقات بين الشرق والغرب ص ٤٥

إلا أن المنطق الذى أقنع به عامة الناس لم يكن ليفلح كثيراً في إقناع الخاصة ، لذلك طلب منهم ببلاغته وقوة ألفاظه أن يوجهوا السلاح ضد المسلمين ، فذلك خير من أستخدام بعضهم السلاح ضد بعض وقال لهم : " أربأوا بأنفسكم عن الضغائن ، وأنتزعوا الحقد من قلوبكم وأسلكوا سبيل الله(١) " .

واذا كان قد أستولى على عقول العامة والفرسان ، فلا بد أن يقنع النبلاء ليكونوا قادة لهذه الحملة ، وما يتبعها من حملات ، فأستغل الظروف الاقتصادية السيئة التي تمر بها أوروبا (٢) ، ووعدهم بالارض التي تفيض لبنا وعسلا ، قال " خلصوا الاراضي المقدسة من أيادى المغتصبين ، وأنتم تملكونها لذواتكم ، فهذه الارض حسب الفاظ التوراة ، تفيض لبنا وعسلا ، فإذا أنتم انتصرتم على أعدائكم فالملك الشرقي يكون لكم قسطا وميراثا (٣) " .

ومن الآمال الكبار التي كانت تراود الكنيسة الغربية ، أخضاع الكنيسة الشرقية ، فلا بد أن كان من ذلك في نفس البابا بأيه كثير ، يحقق فيه رسالته ، ويرضي حب التعالي المغروز في نفوس اللاتينيين تجاه البيزنطيين (٤) ، لذلك تحرك رجال الدين ، بل حرضوا أبناء ملتهم في أنحاء أوروبا على المشاركة وقد أفلح البابا في تكوين رأى عام ، أشترك فيه الامراء والنبلاء والفرسان ورجال الدين ، وعامة الناس من العبيد والاتباع الذين راحوا يهتفون " ... إنها إرادة الرب ...(٥) " وبذا خُيّل للعبيد أنهم سيتخلصون من ظلم الاشراف ، في حين طمع الاشراف في أراض جديدة يمتلكونها ، وأمل البابا أن يحقق هدفه في ضم الكنيسة الشرقية الى الكنيسة الغربية .

ولكن المسافة بين الشرق والغرب بعيدة ، وتفصل ما بينهما مياه البحار ، فلا بد للغزاة من سفن تقلهم ، ولذا أقترح أمير تولوز على البابا أن يستعين بسفن مدينة جنوا ، فلبى الجنويون الدعوة مسرعين ، آملين أن تفتح لهم أسواق الشرق فتنشط حركتهم التجارية .. ثم شاركهم في حماسهم وآمالهم تجار مدينتي بيزا والبندقية .

وبذلك تهيأت الظروف المادية والمعنوية ، لا نطلاق الحملة الصليبية الأولى ...

---

(١) عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٤٥
(١) من تاريخ الحروب المقدسه ج ١ ص ١٨
(٣) المصدر السابق ، ج١ ص١٣ ، ١٤ ، ١٧
(٤) فيشر ، تاريخ أوروبا ص ١٧٩
(٥) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج ١ ص ١٢١

الفصـــل الثالـــث

الصراع : ميدانه وزمانـــــــــــــه

لم يعالج المؤرخون القدماء من المسلمين ظاهرة الحروب الصليبية معالجة شمولية تتناول جميع عناصرها ، ولم يربطوها بالأحداث في الشرق الإسلامي ، وانما جعلها ابن الاثير ، امتدادا للحروب بين المسلمين والفرنج في الاندلس (١) ، ولكنه لا يجيب عن سبب تركيزهم للمغرب القريب على أسبانيا ، وهو الذي شكل الخطر على دولتهم هناك بعد انهاء الحكم الاسلامي لها ، وقد ظهر هذا الخطر غير مرة ، زمن المرابطين والموحدين ، لذا فان من المفيد أن نورد هنا أسباب أعمق من الاسباب التي أوردها ابن الاثير للحروب الصليبية ؛ فالخطر الذي هدد الدولة البيزنطية هو السبب الاول ، ورغبة البابا في السيطرة على الاراضي المقدسة وتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية هو السبب الثاني ، يضاف الى ذلك الاطماع الاقتصادية وأشباع النفسية الاقطاعية في أوروبا ..

وإذ كانت الحروب نابعة من أوروبا النصرانية ، واذ أتخذ الصليب شعارا لها فقد سميت بالحروب الصليبية * ، بينما لم يطلق على حروب الاندلس مثل هذه التسمية رغم أنهما مقدمة لهذه الحروب ** .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ١٠ / ١٤٢ ، وانظر صفحات ١٥١ ، ١٥١ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٢٦ ، ٢٧ يهزأ محمد سيد كيلاني برأي ابن الاثير في كتابة الحروب الصليبية ص ٨ ، مع أنه رأي له ما يبرره ، أنظر الحركة الصليبية ، سعيد عاشور (١ / ٦٩ ـ ٧٢ .

* لم تكن هذه التسمية معروفه عند المؤرخين المسلمين آنذاك ، وأنما هي ترجمة لكلمة Crusades الانجليزيه (حامد غنيم أبو سعيد ، الجبهة الاسلاميه / ١١٥)

** أختلف المحدثون في تحديد الحروب الصليبية ، فقد أعتبرها بعضهم حلقة من حلقات الصراع بين الاسلام والمسيحية (سهيل زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٨ وانظر حامد غنيم الجبهة الاسلاميه ص ١١٢ ـ ١١٧ وانظر سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية (١ / ٢٢ ـ ٢٦) وأعتبرها كمال توفيق ، وزكي المحاسني استمرارا لأعمال الامبراطورية البيزنطية قبل مائة عام (عمر كمال ، مقدمات العدوان الصليبي ، زكي المحاسني ، شعر الحرب في أدب العرب ٦٦٨ ، ٢٦٥) بينما غالى زكي النقاش (العلاقات الاجتماعيه ص ٨ فأرجعها الى العلاقات بين الشرق والغرب منذ أيام التاريخ الاولى أي في الالف الاولى قبل الميلاد واعتبرها شاكر أحمد أبو بدر (الحروب الصليبية والاسرة الزنكيه ص ١٤ ـ ١٦) حربا دينية لأنهم وضعوا شارة صليب على أمتعتهم وتصدوا للمسلمين بالذات واعتبرها بالاثر (أنظر كتاب ... لطيف حمزه ، ادب الحروب الصليبية ص ٢٥) بمثابة حج كبير يحميه السلاح .

ذكرنا فيما مضى أن نداء الكسيوس قد أحدث صدى واسعا في أوروبا ، خاصة بعد أن تبنى البابا " أربان " مشروع إنجاد الدولة البيزنطية ، فعقد عدة اجتماعات كان آخرها مجمع كليرمنت في أواخر صيف ١٠٩٥ / ٤٩٦ هـ وقد حضره ثلاثمائة من رجال الدين ، وجموع حاشدة من عامة الناس ، وقد بين البابا المخاطر التي تعترض سبيل الحجاج ، كما بين ضعف أخوانهم في الشرق أمام السلاجقة الأقوياء (١) فالتهبت حماسة الجماهير ، ودوى النفير " هكذا أراد الله " وقد كانت البساطة مسيطرة على عقول العامة فصدقت أقوال المحرضين وراحت تحتشد من كل أصقاع أوروبا (١) يقودها النوغائي بطرس الناسك ، ثم أتجهت هذه الجموع في فورة حماس ، متقدة الى الشرق عن طريق قسطنطينية ، والاراضي البيزنطية ، وعندما دخلت أرض السلاجقة ، واجهها السلطان قلج أرسلان وكانت قد أشرفت على مدينة نيقية بعد مسير أيام ، فقضى على رجالها قضاء ظن معه أن لن تقوم لهم بعده قائمة ، إذ لم يستطع الهرب الا ثلاثة آلاف من أصل خمسة وعشرين ألفا (٢) ، ولكن ما لبثت الحملة المنظمة (حملة الامراء) أن وصلت بعد ذلك الى نيقيه ، بعد أن تخلصت من مصاعب جمة في القسطنطينية ، وفي الطريق (٤) ، ثم حاصرت الجيوش الصليبية نيقيه حصارا شديدا ، فصمدت في وجوههم ولكن هذا الصمود أصبح متعذرا بعد أن حاصرها الكسيوس من البحر والجيوش الصليبية من البر فاستسلمت المدينة ، وسيقت زوجة السلطان وبناته أسيرات الى القسطنطينية .

أحدث سقوط نيقية أصداء واسعة في أوروبا بما قام به العائدون من دعايات أعلامية فذكروا "أن الشرق بحاجة الى محاربين ومستعمرين ليواصلوا عمل الله ، وأن في الشرق من الثروة والضياع الكثيرة ما ينتظر قدوم المغامرين "(٥) فجاءت حملة مكونة من الفرنسيين والالمان يرأسها ريموند (٥) .

وقد تابع الصليبيون سيرهم بمشقة بالغة ، بسبب تعرضهم لهجمات السلاجقة ، ولكنهم نجحوا في السيطرة على منطقة واسعة من الاناضول وأرمينية ، كما نجح بلدوين ، أحد قادتهم في تأسيس أول أمارة للصليبيين في الجزيرة الفراتيه سنة ٤٩٢ / ١٠٩٨ وهي أمارة الرها ، وبعد ذلك ، أتجهت الجيوش الصليبية الى أنطاكية ، وطال حصارهم لها رغم حاول صاحبها ياغي سيان أغتنام الفرصة ليدفعهم عنها ، ولكنه لم ينجح ، وبعد حصار سبعة أشهر دخلها الفرنسج سنة ٤٩١ / ١٠٩٨ وفعلوا بالمسلمين الاعاجيب (٦) ، "اذ هجموا على البيوت والأزقة يقتلون المسلمين خلوا من أستثناء " (٧) .

---

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ج ١ / ١٦٦

(٢) مونروند ، من تاريخ الحروب المقدسة ج ١ / ٢٦ ، ٦٥

(٣) سعيد عبدالفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ١ / ١٣٦

(٤) ابن الاثير ، الكامل ١٠ / ٢٧٤ (٥) رنسيمان ، الحروب الصليبية ج ٢ / ٣٧

(٦) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ / ١٣٥ وانظر ابو الفداء المختصر ٢ / ٢١٠ وتاريخ ابن الوردي ٢ / ١٠

(٧) مسيو مونروند ، من تاريخ الحروب المقدسة ج ١ / ١١٢

وبسقوط أنطاكية أنفتح الطريق أمام الصليبيين الى بلاد الشام ، فأتجهوا الى معـــرة النعمان ، فأستنجد أهلها بالملك رضوان وجناح الدولة صاحب حمص فلم ينجداهم فدخلهـا الفرنج وأعملوا فيها السيف فقتلوا ما يزيد على مائة ألف (١) . أحدثت هذه الاعمال الوحشية حالة ذعر عند المسلمين ، ولكن هذا الذعر لم ينتج عنه أتحاد ومقاومة ، ولذلك لم يكن مـــن الصعب على الغزاة متابعة سيرهم الى أن وصلوا شمال طرابلس ، وفيها جاءتهم رسل صاحــب طرابلس ، ثم أحتلوا طرطوس (٢) ، مما سهل عليهم مهمة الامدادات الخارجية من أوروبـــا ، بالاضافه الى ما تحويه المنطقة من خيرات (٣) ، وعلى أثر ذلك ، تدهور موقف المدن الإسلامية وأسرعت كل مدينة تعلن أستسلامها ، ومن تخلفت عن ذلك أتلفت مزارعها ، وقتلت أنعامها ، ومن وجدوه من أهلها فتكوا به كما حدث مع صور ، وهكذا تابع الصليبيون سيرهم الى قيسارية ثم أرسوف والرملة واللد وأحتلوا بيت لحم (٤) .

وأحاطت الجيوش الصليبية بالقدس ، وجاءتهم أمدادات من أوروبا عن طريق ميناء يافــا فأصبحت القدس منقطعة عن أمدادات الدولة الفاطمية التي كانت قد سيطرت عليها سنــة ٤٩٨ ، ونصب الفرنج عليها برجين ، وتمكنوا منها ، ولو لم ينشب خلاف بينهم حول ملكية القـــدس لاحتلوها في مدة تقل كثيرا عن المدة التي أستغرقها الحصار وهي ٤٠ أثنان وأربعـــون يوما (٥) ، وبعد الاستيلاء عليها قام الغزاة بمذبحة رهيبة لم تفرق بين زاهد وعالم ، فقد قتلوا ما يزيد على سبعين ألف نفس ، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم (٦) ، كما قاموا بعملية سطو على الصخرة فأخذوا نيفا وأربعين قنديلا فضة ، ونيفا وعشريـــن قنديلا من ذهب (٧) .

ويذكر مونرو نقلا عن تقرير رايموند ده أجيلاس ، أحد المرافقين للحملة ، أن الجامع قـد طاف بالدماء حتى أختضن الدم تحت القناطر عند بابه ، وعلا الى حد الركب بل الى حد لُجُم الخيل (٨) .

---

(١) تاريخ ابن الوردي ٢ / ١١ ، البداية والنهاية ١٠ / ٢٧٨ ، الأنس الجليل ١ / ٣٠٧

(٢) المختصر ٢ / ٢١٦

(٣) مرآة الجنان ٣ / ١٧٢ ، ابن الأثير ١٠ / ٤٧٥ ، النجوم الزاهرة ٥ / ٧٩

(٤) ابن الاثير ، الكامل ١٠ / ٢٦٥ ، المختصر ٢ / ٢١٤ ، رنسيمان ، الحروب الصليبية ١ / ٣٦١

(٥) ذيل تاريخ دمشق ٢٣٦ ، تاريخ مختصر الدول ١٩٧

(٦) الكامل ١٠ / ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، الانس الجليل ١ / ٣٠٧

(٧) الشذرات ٣ / ٣٩٧

(٨) من تاريخ الحروب المقدسة ، ص ١٧١

ويقول غوستاف لوبون " ولم يبد سلوك الصليبيين في الحملة الثانية بأحسن من سلوك رجال الحملة الصليبية الاولى ، ويؤكد قوله بما يرويه عن الكاهن " انكتيل " " فلما يوجد صليبي يسير بوحي ديني ، فلم يترك أولئك الصليبيون جرائم وحشية وضربا من قطع الطرق ، وفضائح مزرية الا أقترفوها "(١).

وهام المسلمون على وجوههم يبكون ويبكون ، ويستصرخون الخلافة في بغداد ، فأجتمع أهلها في الجوامع ، وبكوا ، حتى أنهم أفطروا من عظم ما جرى لهم ، وقال ابو المظفر الابيوردي* :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... اذا الحرب شبت نارها بالصوارم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم(٢)

وفي هذا الجو المكفهر أستقرت أمور الغزاة في بيت المقدس ، وأقيمت الصلوات والايدي ملطخة بالدماء البريئة ... وأنتخب جودفري حاكما للقدس ، بعد أن حاز على ثقة الكنيسة والامراء معا لما يتصف به من ميول دينية ، ولم يرض أن يسمى ملكا وأنما أسمى نفسه حامي القبر المقدس(٣) ، ولكن أنتخاب جودفري وفشل البطارقة كان يعني أنتصار السلطنية على الكنيسة ، وقد كان هذا لصالح المملكة الجديدة ، ولو كان الامر غير ذلك لما أستطاعت الكنيسة حماية هذه المملكة من الهجمات الاسلامية (٤).

وبدأت الدولة الجديدة – وهي الامارة الصليبية الثالثة – تمارس حياتها السياسية فتكون في القدس فرقتان دينيتان عسكريتان أسموها *Templars* أي فرسان الهيكل وعرفت عند المسلمين بالداوية ، وأخرى أسموها *Hospitalers* أي فرسان المستشفى وعرفت عند المسلمين بالاسبتارية (٥) ، ثم أخذت هذه الدولة بالتوسع حتى أستطاعت في سنوات قليلة أن تضم معظم أجزاء فلسطين(٦) ، وكان بأمكانها السيطرة على فلسطين جميعها لولا المنافسة بين ريموند الصنجيلي وجودفري .(٧).

---

(١) حضارة العرب ، ص ٣٢٩ ، وأنظر رنسيمان ، الحروب الصليبية ١/٤٠٤
* أخذناه عبد القادر اليوسف في أسم الشاعر ، أنظر علاقات بين الشرق والغرب ص ٧٢
(٢) المختصر ٢/٢١١ تاريخ ابن الوردي ٢/١١ ، النجوم الزاهرة ٥/١٥٢ ، الكامل ، سنة ٤٩٢ ، ١٠/٢٨٥
(٣) رنسيمان ، الحروب الصليبية ١/٤١٢
(٤) عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ص ٧٢ ، والحياة السياسية الاجتماعية عند الصليبيين ، رسالة ماجستير ، أعداد عبد الحفيظ محمد علي سنة ٩٧٥ ، ص ٨ ، ١٠٦
(٥) عارف العارف ، تاريخ القدس ، دار المعارف ، مصر ١٩٥١ ص ٧٥
(٦) ابن الاثير الكامل ، ١٠/٢٦٥
(٧) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ١/٢٤٩

وبعد أن توفي جودفري ، تولى أخوه بلدوين حاكم الرها القدس ، وقد أستطاع أن يتغلب على كثير من المشكلات والصعاب ، كما فرض احترامه على أمراء الحملة الصليبية ، وأخذ يواصل عملية ضم المناطق الساحلية ، حتى إذا علم أن الافضل بعد حملة لاسترجاع القدس ، التقى معه في الرملة ، وهزمه هزيمة منكرة واستولى على غنائم كثيرة وقتل ما يزيد على عشرة آلاف نفس(١) وقد مدحه أحد الشعراء بقوله(٢) :

نصرت بسيفك دين المسيـــــــــح	فلله دراك من صنجــــــــــــل
وما سمع الناس فيمـــــــا روي	بأقبح من كسرة الأفضــــــــــل

ولم يلبث الافضل أن تمكن من هذا الشاعر الخائن وقتله ، وفي سنة ٥١٤ قصد الفرنج الديار المصرية بقيادة بلدوين (بردويل) ووصلوا الى غزة وشربوها وأحرقوا مساجدهـــــا ، لكن موت ملكهم في الطريق ثناهم عن قصدهم (٣) .

أما ردود الفعل الاسلامية فلم تزد عن البكاء والتحريض ، وتجريد الحملات الـــتي كان يسيطر عليها الخلاف ، فترجع مهزومة أو فاشلة ، وبامكاننا أن نتصور الاوضاع في العالـــم الاسلامي كما يلي :

حاول الافضل الانتقام من الفرنج ، فجهز جيشا كبيرا ، وأرسله الى الرملة مرة ثانيـــة حيث أستطاع أنزال الهزيمة ببلدوين ، وأستولى على الرملة وحاصر يافا ، ولكن بلدوين أعـــاد ترتيب الجيش واستغل فرصة مرور الحجاج القادمين من أوروبا ، والتقى مع الجيش الفاطمـــي وكسره ، وحين علم الافضل بذلك أرسل نجدتين : أحداهما بحرية والاخرى برية وأمرهـــما بالتعاون ، ولكنهما تنازعا فعادتا فاشلتين (٤) ، وهذا ما دعا أبن تغري بردي لأن يستغرب من سلوك الفاطميين وتقاعسهم فيقول عن الافضل " وما أدري ما كان السبب في عدم خروجـــه مع قدرته على المال والرجال "(٥) ويقول عن الخليفة الآمر بأحكام الله : وكان فيه تهاون عـــن أمر الغزو والجهاد حتى أستولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه (٦)" .

أما في بغداد فقد عمت الثورة فيها وكسر الناس منبر مسجد السلطان ، فرأى الخليفة أسترضاء الثائرين ، فأوعز الى السلطان محمد أن يعمل على دفع الفرنج ، فأرسل السلطان الى تابعه أمير الموصل أن يخرج لقتالهم (٧) .

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧
(٢) الانس الجليل ، ج ١ /٣٠٨
(٣) الانس الجليل ج١ /٣٠٩
(٤) الكامل ، أحداث سنة ٤٦٦ وانظر ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨
(٥) النجوم الزاهرة ٥ ، ١٤٧/٥
(٦) النجوم الزاهرة ٥ /١٨٨
(٧) اليافعي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، مطبعة المعارف النظامية ، حيدر أباد ١٣٣٨هـ ١٧٢/٣

وأما حلب فقد حكمها بعد وفاة صاحبها رضوان ابنه ألب أرسلان حتى تتسلل سنة ٥٠٨/١١١٤ ، وعندئذ تولاها بدر الدين لؤلؤ (٥٠٨ هـ/١١١٤ ـ ٥١١هـ/١١١٧) وقد تعرضت خلالها لهجوم من الفرنج ، فضايقوها وقاسموها على أملاكها ولكنهم لم يحتلوها كما وهم ابن كثير (١) .

وازاء هذه التحديات قام أيلغازي صاحب ماردين بهجوم على الفرنج ، وقتل منهم مقتله عظيمة ، وقد مدحه الشعراء ومنهم العظيمي في قصيدته ، منها :

قل ما تشاء فقولك المقبـــــــول　　　وعليك بعد الخالق التعويـــــــل(٢)

وقد انقسمت الدولة الأرتقية بعد وفاة أيلغازي،فأخذ ابنها الأكبر الجزء الشمالي من ديار بكر وبهافارتين ، وأخذ ابنها الثاني الجزء الجنوبي منها وماردين ، وبقيت حلب تحت أمرة سليمان بن عبد الجبار .

وحاول الفرنج اغتنام الفرصة ، فقام بلدوين الثاني بهجوم على الأراتقة في الجزيرة الفراتية لينقذ جوسلين ولكنه هزم وأسر .

وقد تعرضت حلب فيما بعد لهجوم مشترك من الصليبين وبعض المنشقين من المسلمين ولكنها صمدت لهذا الهجوم والحصار الذى رافقه،بعد أن تلقت نجدة من صاحب الموصل(٣) .

وكان خطر الباطنية تدازداد في حلب بسبب أعتماد الملك رضوان بن تتش عليهم ، فتنفذوا في البلاد ، فسخط عليهم ابنه الذى تولى الحكم بعده،وحاول القضاء عليهم فتوجه من نجا منهم الى دمشق حيث أقطعهم وزير طغتكين المزدغاني حصن بانياس ، ولكنهم قاموا بأعمال تخريبية هناك (٤) .

ومن أبرز أعمالهم التخريبية،ما قاموا به في شيزر سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٩ م ،فتملكوا الحصن وأخرجوا أهله منه (٥) ، وفي سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩ م قتلوا صاحب حمص،جناح الدولة (٦) ، وفي سنة ٥٠٤ /١١١١ حاولوا قتل طغتكين ، وفي سنة ٥٠٦/١١١٣ قتلوا مودود أتابك الموصل ،(٧) كما قتلوا آقسنقر سنة ٥٢٠/١١٢٠ ،وراسلوا الفرنج بتسليم دمشق على أن يأخذوا صور بدلها ، وقد كان من المتوقع أن يبدأ تنفيذ المؤامرة وقت صلاة الجمعة ،فلما علمتاج الدولة بورى بن طغتكين المؤامرة قتل الوزير وعددا كبيرا من أصحابه ، ولكن الباطنية أغتالته في النهاية سنة ٥٢٦ /١١٣٢ (٧) .

---

(١) ابن كثير ،البداية والنهاية ،مطبعة السعادة ،مصر ١٣٤٨ هـ ، جـ١٢ ص١٨٤
(٢) تاريخ ابن الوردي ٢ /٢٥
(٣) الكامـــــــل ١٠ /٦٢٤
(٤) عبد القادر اليوسف ،علاقات بين الشرق والغرب ، ٩٤
(٥) اسامة بن منقذ ،الاعتبار ،حرره فليب حتي ،مطبعة جامعة برنستون ،الولايات المتحدة ١٩٣٠ ص ٧٧
(٦) المختصـــر ٢ /٢١٦
(٧) ذيل تاريخ دمشق ١٨٧ ، ٢٢٢

ويصور ابن الاثير قوة الفرنج حين تولى عماد الدين زنكي البلاد فيقول " وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين وسجستان الى عريش مصر ، ولم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحمص وحماة ودمشق ، وكانت سراياهم تبلغ ديار بكر الى آمد ، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد ، ومن ديار الجزيرة الى نصيبين ورأس العين ، ثم يصف البلاد الاسلامية فيقول " وأما الرقة وحران فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار واستضعاف وانتسار ثم يبين خطورة توثبهم " .. وانقطعت الطرق إلا على الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب المفاوز تعبا ونصبا ... وأما حلب فانهم أخذوا مناصفة أعمالهم حتى في الرحى التي على بابها الجنان وبينها وبين المدينة عشرون خطوة ، وأما باقي بلاد الشام فكان حالها أشد من هذين البلدين(١) .

إلا أن هذا الظلام انبثق منه الفجر ، منذ أن ظهر على مسرح الأحداث عماد الدين زنكي صاحب الموصل ،وهو حاكم اجتمعت له صفات حميدة ، فقد عرف عنه حبه للجهاد(٢) وإخلاصه وشجاعته ، فبدأ عملية توحيد القوى الاسلامية ، فانتزع جزيرة ابن عمر من ماليك البرسقي ، ثم استولى على مدينة اربل سنة ٥٢١ ، ثم سار الى نصيبين فتسلمها من صاحبها حسام الدين تمرتاش ابن ايلغازي واستولى على الخابور وسنجار وحران ثم استولى على الاثارب ثم على حلب (٣) ، فأصبح الطريق مفتوحا أمامه الى الشام (٤) .

لقي هذا السعي اعجابا من السلطان السلجوقي محمود فمنحه تفويضا بحكم الموصل والجزيرة والشام(٥) ، مما شجعه على الاستمرار في عملية ضم البلاد الإسلامية وتوحيدها فبعد أن استولى على حلب سنة ٥٢٢ (٦) ، أعلن أمير شيزر سلطان بن منقذ وأمير حمص تبعيتها له ،وفي سنة ٥٢٣ ضم حماة الى ملكه (٧) وبذلك تم له ملك الشام تقريبا ، ولم يبق أمامه الا دمشق التي كان يحكمها بوري بن طغتكين (٨) ، فاتصل معه بشأن الغزو للجهاد.

وقد أثارت انتصارات زنكي الرومَ فتحالفوا لكسر شوكته ، وأرادوا الاستيلاء على حلب سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٨ ، فساروا اليها ولكنهم انشغلوا بحصن بزاعة ، بين حلب ومنبج (٩) مما جعل زنكي يأخذ الحيطة ويُفشل حصار الروم والفرنج فتوجه هؤلاء الى شيزر (١٠)، فانجدها زنكي بقواته القليلة ، وبعث السلطان مسعود السلجوقي وفداً يحثه على ارسال المدد

---

(١) ابن الاثير ،التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل ت. عبد القادر طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٩ ـ ٣٤ ،وانظر ابن قاضي شهبة ،الدر الثمين في سيرة نور الدين ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٢٢٧ تاريخ ورقة ١ أ

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ت. جمال الدين الشيال ،القاهرة ١٩٥٣ ، ١ / ٢٦٦ ، ٢٢٩ ، زبدة الحلب ٢ / ٢٨٣

(٣) مفرج الكروب ١ / ٢٦٩ ، ٢٧٩ ،زبدة الحلب ٢ / ٢٨٣ ،الباهر ٣٩ ،الكامل ١٠ / ٦٥٨

(٤) ابن الاثير ،الباهر ٣٦ ، المختصر في أخبار البشر ٢ /٢٣٨ ، الكامل ١٠ /٦٥٨

(٥) ابن العديم ،زبدة الحلب من تاريخ حلب ٢ / ٢٤٤

(٦) المقريزي السلوك ج ١ ق ١ ص ٣٦ ،الباهر ٣٧ ـ ٣٨

(٧) المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٤ (٨) المختصر ٢ / ١٤٠ (فيه توري بدل بوري)

(٩) ذيل تاريخ دمشق ٢٦٠ (١٠) الاعتبار ١١٢ ـ ١١٤

ولكنه تقاعس عن ذلك ، فاغتنم الوفد وقت اجتماع الناس لصلاة الجمعة واستغاثوا " واستنطعوه وا دين محمداه " ، فتعهد السلطان بارسال حملة عاجلة ، كما أرسل الامير داود الارتقي خمسين الفا من التركمان (١)، ثم نجح زنكي في التفريق بين الروم والفرنج ، بأن شكك كل فريق بنوايا الاخر (٢) ، فانسحب الفرنج وتركوا ملك الروم وحده ، واستغل زنكي النزاع بين الروم والفرنج فهان عليه أمر الفرنج ، إذ صاروا يتمنون أن يحفظوا ما بايديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في البلاد (٣) ، فاستولى على عدد من الحصون المهمة مثل حصن بارين ، كما استولى على معرة النعمان وكفر طاب واعمالها ، وهي بلاد كبيرة وقرى عظيمة (٤) ، وفي ذلك يقول ابن القيسراني (٥):

حذارِ منا وأنى ينفعُ الحَذَرُ ... وهي الصوارمُ لا تُبقي ولا تَذَرُ

وبعد أن قويت شوكة زنكي حاول مرة أخرى أن يستولي على دمشق ، ويسطو على حاكمها جمال الدين محمد بن بوري حصارًا وصلحًا فرفض (٦) ، وهذا لم يبق أمام زنكي سوى استخدام القوة ، فحاصر دمشق لكن معين الدين أنر الذي زاد نفوذه بعد وفاة جمال الدين استنجد بالفرنج في القدس (٧) ، مبينا لهم خطورة الموقف اذا سقطت دمشق بيد زنكي " فإن ملكها لم يبق لهم معه بالشام مقام (٨) " ، ثم أغراهم بأن يقدم لهم نفقات الجيش الصليبي (٩)

وتقدم الجيش الصليبي بين القدس وطبرية وأشرف على دمشق ، فانسحب زنكي ، بينما قام الفرنج باحتلال بانياس التابعة لزنكي وأحدثوا فيها مذبحة شنيعة (١٠) ، ولم يكتف معين الدين بهذا العمل بل ذهب الى القدس ومعه اسامة بن منقذ (١١) ليقدم الشكر للفرنج ويقوى أواصر الصداقة بينه وبينهم ، وبذلك يقضي على نشاط زنكي في المنطقة بل سمح لهم ببناء قلعة صفد ، وغيرها من المعاقل في جنوب فلسطين مثل الكرك والشوبك (١٢)

---

(١) المفرج ١/ ٧٩ ـ ٨٠
(٢) ابن الاثير ، الكامل ١١/ ٥٧
(٣) ابن الاثير ، الكامل ١٠/ ٦٦٣
(٤) ابو شامة ، الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٨
(٥) ابو شامه ، الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٨
(٦) ابن الاثير ، الباهر ٥٩
(٧) اسامه بن منقذ ، الاعتبار ١٣٦
(٨) ابن الاثير ، الكامل ١١/ ٧٤
(٩) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٢٧٢
(١٠) المصدر السابق ٢٧١
(١١) الاعتبار ١٣٥
(١٢) الحركة الصليبية ١/ ٦٠١

لكن ملك بيت المقدس توفي سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م بعد أن ثبت أقدام الفرنج في فلسطين فانسح المجال لزنكي كي يسترد الرها ، وقد استولى عليها فعلا سنة ١١٤٤/٥٣٩ م دون أن يستخدم الاسلوب التخريبي الذي أستخدمه الفرنج بل أعاد ما غنمه الجيش ، ولم يفقد الا الشاذ النادر (١) .

وتابع زنكي فتوحاته في شمال الرها ... ثم أتجه الى قلعة جعبر التي يحكمها بنو عقيل ليصفي الجزيرة من هذه الامارات المتناثرة ويتجه نحو دمشق ويجاهد الفرنج (٢) ولكنه وقع فريسة الاغتيال عام ٥٤١ هـ وبعد مقتله ، أتصل الارمن من أهل الرها بجوسلين الثاني ، وطالبوا منه القدوم لتسليمه المدينة ، إذ أن الحامية السلجوقية فيها قليلة ، وعماد الدين زنكي قتل ، فأسرع جوسلين اليهم وتسلم المدينة ، وبقي رجال الحامية المستحكمة في القلعة ، ولكن نور الدين تمكن من الوصول اليها قبل أن تيأس حامية المدينة ، فأصبح جيش جوسلين محاصرا من الداخل والخارج ، ففضل الانسحاب بجيشه على البقاء في الخطر ، فدخلها نور الدين ، وطارد جيش جوسلين وقتل معظمه ومنهم حاكم مرعش ، أما جوسلين نفسه فقد نجا (٣) .

من ذلك يتبين لنا قدرة نور الدين الفائقة على الاضطلاع بالحكم ، اذ يعتبر عمله أستمرارا طيبا لمسيرة والده ، فاذا كان عماد الدين زنكي " جبارا عسوفا ينكباء النكبات عسوفا نمرى الخلق ، أسدى الحنق ، لا ينكر العرف ولا يعرف المعرف (٤) " فان نور الدين أخذ الجانب المضيء من صفاته * ، واستبدل بالجانب الخشن التقوى فهو كما وصفه الشاعر :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب في المحراب

وقد عمل نور الدين على أرضاء أخيه سيف الدين غازي حاكم الموصل (٥) ، كما عقد أتفاقا مع معين الدين أنر وتزوج بابنته (٦) ، وتفرغ لمهاجمة امارة أنطاكية ، وأستطاع أن يحرر معظم الاراضي الواقعة شرقي نهر العاصي (٧) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ١١/٤٠
(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٢٨٧
(٣) مفرج الكروب ١/١١١ ، ابن القلانسي ٢٨٨ ، ابن الاثير ، الباهر ٨٧
(٤) الاصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، القاهره ١٣١٨ هـ ص ١٨٦
(٥) النويري ، نهاية الارب في فنون الأدب مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ ، معارف عامه جـ ٢٥ ورقة ٨٠ ، مفرج الكروب ١/١١١ - ١١٢ ، الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٢٢
(٦) حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون القاهره ١٩٦٢ ص ٤٣
* أنظر صفاته في تاريخ الحروب المقدسة ، ١/٦٥
(٧) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ٢/٦١٤

وما يدل على عظمته ، تصديه للحملة الصليبية الثانية التي جاءت لتستعيد الرها ، ولكنها انحرفت عن هدفها الى دمشق، " فتوجه نور الدين نحو سرخد ولم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته ووفور عدته (١) " ثم سار الى بصرى فانهزم الفرنج ، وحين عادت الجيوش الفرنجية ومعها الامدادات الكثيرة ، استنجد صاحبها معين الدين بنوابه ، كما أرسل الى سيف الدين غازي وأخيه نور الدين ، في حين كان يتصدى للقوات الصليبية التي احتلت المزة والربوة (٢) ، متمنعا كثرة الاشجار فأوقع فيهم خسائر كبيرة ، مما جعلهم ينتقلون الى الجهة الشرقية (٣) ، فصادفوا الماء مقطوعا (٤) ، في حين وصلت النجدات الاسلامية من الموصل وحلب ، فآثروا الانسحاب على البقاء ، لا سيما بعد أن أغراهم معين الدين بحصن بانياس (٥) .

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية ولم تحقق لها أي هدف ، وانما رفعت معنويات المسلمين الذين كانوا يخشون قدوم مثل هذه الحملة ، واستغل نور الدين حالة الضعف التي تمر بها الامارات الصليبية ، على أن يعود في وقت مناسب ، فأوقع بالفرنج كسرة قبيحة في يغرى (شمال شرق بحيرة العمق) ، وأرسل الى الخليفة العباسي والى أخيه بعض الغنائم ، ثم أغار سنة ٥٤٤ / ١١٤٩ على حصن حارم وحاصر قلعة " أنب " وقتل ريموند ، ثم تفرغ نور الدين لدمشق ، وحكامها الذين لم يجاهدوا ، ولم يسمحوا لغيرهم بالجهاد ، وقد كان حرص نور الدين على الاستيلاء على دمشق ناشئا عن كونها تقع بين أراضيه وبين الفرنج ، فكان كلما حاول التصدي للفرنج وجد من الصعب السيطرة على الموقف لتعاون معين الدين أنر مع الفرنج ، وقد بقي الامر كذلك حتى توفي أنر سنة ٥٤٤ ، وخلفه مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين ، وكان أن ملك الفرنج عسقلان سنة ٥٤٨ هـ وهي مدينة فلسطين حصنا ومنعة .. ولما كانوا يحاصرونها ، كان يتلهف على انجادها ولا يقدر على ازعاجهم لأن دمشق في طريقه (٦) .

ولم يرتدع أبق عن أعماله المشينة فملك الفرنج في دمشق وتابعوا الغارات عليها ، وأكثروا القتل والنهب والسبي ، وجعلوا على أهلها قطيعة سنوية ، يأخذونها بأنفسهم فخاف الناس طائفته واتصلوا مع نور الدين (٧) .

---

(١) أبو شامة الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٢٠

(٢) ولاة دمشق في العهد السلجوقي ، نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق ، حققها د . صلاح الدين المنجد ص ١١ وانظر الباهر ٦٧

(٣) الحركة الصليبية ١ / ٦٣٦

(٤) الحركة الصليبية ٦٣٤/٢

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب ٢٧٢/٢

(٦) العيني ، عقد الجمان من تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ ، ج ١٢ ق ١ ورقه ٢٥٠

(٧) المصدر السابق ج ١٢ ق ١ ورقه ١٨٠ ، ١٩٦

وقد عمد نور الدين الى الايقاع بين أبق وأمرائه (١) ، ثم فرض حصاراً اقتصادياً على دمشق وأستحال حرسها في حين أستنجد أبق بالفرنج ، ولكن سرعة نور الدين فوتت الفرصة عليه (٢) ، وفي تلك الفتن يقول المرقلة : (٣)

ذرة الأتراك والعرب	وكن في حزب من غلب
بلغ أصبحت فتن	تجر الويل والوصب
لئن تمت لوا أسف	ولم تخرب لوا عجب

وقد أشرفت دمشق على الخراب ، ولكن نور الدين جنبها ذلك حين ملكها سنة ٥٤٩ هـ (٤) فصفت الممالك بالشام له (٥) ، وأمتد ملكه من الرها شمالاً حتى حوران جنوبا ، ومن حد النوبة الى باب همذان لا يتخللها سوى بلاد الفرنج (٦) ، وبعد أن أستقر ملكه عمر الشام ، وبنى الأسوار والمدارس حتى أصبحت مقرا العلماء والفقهاء والصوفية ، وبنى الجوامع والابراج على الطرق وجعل فيها من يحفظها وصحح الحمام الهوادي (٧) وأحسن الى الجند والرعية فأحبه الناس لتواضعه وحسن سيرته (٨) .

بعد هذا الاستقرار توجهت أنظاره الى الفرنج ، وحدث أن غدر بلدوين الثالث بالتركمان الذين يعيشون في منطقة بانياس بعد أن أمنهم فقتل بعضهم وأسر آخرين وأستاق خيلهم (٩) ، وفي هذا يقول باركر " فاذن صبر المسلمون على قيام دولة من المشركين فانهم لا يطيقون قيام دولة من اللصوص في أراضيهم " (١٠) ، فجهز نور الدين جيشا ، وأخذ بسه بانياس ، مما جعل الفرنج يجتمعون من القدس وطرابلس وأنطاكية لاحتلال حلب بينما كان نور الدين مريضا (١١) ، ولكن المدينة صمدت أمامهم ، فاتجهوا نحو شيزر واستولوا (١٢) .

---

(١) عقد الجمان ج ١١ ق ١ ورقه ١٨٠ ، ١٦٦

(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٣٢٥ ـ ٣٢٦

(٣) عقد الجمان ، ق ١ ج ١١ ورقة ١٦٦

(٤) ابو الفداء ، المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ٦٦ الباهر ١٠٦

(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب ١ / ١٢٨

(٦) الباهر ١٥٩

(٧) ابن قاضي شهبة ، الدر الثمين في سيرة نور الدين ، مخطوط ورقة ١٩ ، ٢١ الباهر ١٥٩

(٨) الدر الثمين ١٧ ، ١٨ ، عقد الجمان ق ٣ ج ١٢ ص ٥٤٥

(٩) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٣٢٧ ، ٣٢٨

(١٠) سعيد عاشور ، الحركه الصليبية ٦٦٧ نقلا عن باركر في الحروب الصليبية ص ٨٩

(١١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٨٢ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٣٤٩

(١٢) ذيل تاريخ دمشق ٣٥٠

وحين أبل نور الدين من مرضه هاجم منطقة صيدا والجليل ، فوقعت معركة بين الطرفين قرب بحيرة طبرية ربحها الفرنج ، فتقدموا نحو دمشق ، فتصدى لهم نور الدين وقتل منهم خلقا كثيرا وأسر منهم جماعة قيل فيهم :

ما رأينا فيما تقدم يومـــــــــا ... كامل الحسن غاية في البهـــــــاء
مثل يوم الفرنج حين علتهـــــم ... ذلة الاسر والبلى والفنـــــاء (١)

وحين لم يفلح الفرنج في حروبهم مع نور الدين اتجهوا نحو الدولة الفاطمية التي أصبحت تعاني الضعف والتمزق بعد مقتل وزيرها طلائع بن رزيك * ثم ابنه العادل ، اذ تولى الامر شاور سنة ٥٥٩ / ١١٦٣ لكن ضرغام نافسه وانتصر عليه (٢) .

وفي هذه الاثناء قام عموري (مري) بغزو مصر سنة ٥٥٩ / ١١٦٣ ، فوصل الى بلبيس وحاصرها ولكن فيضان النيل لم يمكنه من احتلال مصر ، فعاد ليجهز حملة كبيرة ليحتل بها مصر بعد أن رأى كثرة خيراتها (٣) .

وتوجه شاور الى الشام مستنجدا بنور الدين بأن له ثلث أموال مصر ان مكنه منها ، فأرسل معه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين سنة ٥٦٠ / ١١٦٤ فقضى على ضرغام الذي استنجد بالفرنج ، وسيطر على الموقف قبل وصول الفرنج ، ولكن ما لبث شاور أن تنكر لأسد الدين ، فاحتل أسد الدين بلبيس والشرقية ، فاستنجد شاور بالفرنج ، فتقدم جيش عموري واشترك مع جيش شاور في محاصرة أسد الدين في بلبيس ، واذ ذاك قام نور الدين بالهجوم على ممتلكات الصليبيين في الشام (٤) ، فآثر عموري الرجوع عن مصر ، حيث جهز جيشا عظيما من الفرنج والروم والارمن لقتال نور الدين ، ولكن نور الدين أوقع بالصليبيين هزيمة ساحقة سنة ٥٦٠ / ١١٦٤ (٥) ، وأسر عدة من أمرائهم واستولى على حارم وبانياس ثم على شقيف تيرون ومصر المنيطرة فمدحه الشعراء ومنهم ابن القيسراني بقصيدة مطلعها :

هذي العزائم لا ما تدعي القضـــــب ... وذي المكارم لا ما قالت الكتـــب (٦)

---

(١) عقد الجمان ق ٢ ج ١٢ ص ٢٨٣

(٢) ابو الفداء ، المختصر في تاريخ البشر ٣ / ٤١

* ساءت أحوال الدولة الفاطمية في حين سيطر الوزير عباس الصنهاجي على دار الخلافة وقتل الخليفة الظافر وأخويه ، فحدثت فتنة عظيمة بالقاهرة ، ثم أتاها طلائع بن رزيك وقام جيشه بعدة غارات ظافرة كما طلب من نور الدين أن يغزو الفرنج ، لكن اختلاف مذهبيهما لكون الاول شيعيا والثاني سنيا حال دون اتفاقهما على ذلك . (الديوان جمهدي ص ٦٥ ، وديوان أسامه بن منقذ ص ١٧٧)

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ٦٨١

(٤) تاريخ ابن الوردي ٢ / ٦٧

(٥) مفرج الكروب ١ / ١٤٤ ، عقد الجمان ق ٢ ج ١٢ ص ٣٦٦ وانظر ابن الاثير ، الكامل ١١ / ٢٠٨

(٦) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٢ والباهر ١٠٦

لم ينس نور الدين مصر وطمع الفرنج فيها وضعف شاور ، ولكنه تحين الفرص ، فحين دعاه العاضد ليخلصه من أستبداد شاور لم يتأخر في تلبية دعوته ، فأرسل شيركوه وصلاح الدين للمرة الثانيه (١) ، فأستنجد شاور بالفرنج ثانية ، فلبوا دعوته وعقدوا معه أتفاقا يخولهم الدخول الى القاهرة ويضمن لهم الاموال الكافية ، ثم سار الجيشان الفرنجي والمصري لمهاجمة شيركوه ، فانسحب الى جهة الصعيد في الصحراء ، وهناك تمكن من هزيمة الفرنج وشاور (٢) ، فعاد الفرنج الى الفسطاط بينما سار شيركوه وصلاح الدين الى الاسكندرية ، فرحب به أهلها (٣) ، وأبقى شيركوه فيها صلاح الدين ، ثم عاد الى الصعيد (٤) .

انصعد كل من شاور والفرنج بقيادة عموري لمهاجمة الاسكندرية ، فصبر أهلها وذاق صلاح الدين الأمرين في هذا الحصار (٥) ، فأستنجد بعمه سنة ٥٦٢ / ١١٦٧ ، بينما قام نور الدين بمهاجمة مملكة طرابلس وبيت المقدس (٦) ، ولما علم الفرنج ذلك خافوا على ممتلكاتهم في بلاد الشام ، وآثروا المهادنة بعد أن عقد شاور معهم أتفاقا معينا يدفع بموجبه مالا سنويا لهم ، لكن شاور تثاقل عن دفع المال وكان نتيجة ذلك ان طمع الفرنج في ملك مصر ، وقد وجدوا الفرصة ملائمة لتحقيق أهدافهم ، فهم يعرفون ضعف مصر ، من جهة وأنشغال نور الدين في حلب من جهة أخرى ، وعلموا أن تأخر ذلك يعني وقوع مصر في يد نور الدين وقائد أسد الدين شيركوه ، وإن صار فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج ونهايتهم من أراضي الشام (٧) ، فقدم الفرنج سنة ٥٦٤ بأعداد هائلة وأحتلوا مدينة بلبيس ، وجاءوا القاهرة من باب الشرقية ، بينما قام بعض الاعراب بالهجوم على البر الغربي وساقوا المواشي والابقار وحاصروا البلاد أشد حصار ، وكما جاء في كتاب القاضي الفاضل " فلا نهضتم الى النصرة ولاقصدتم عن المضرة " (٨) ، فأمر شاور بحرق مدينة بلبيس ، ثم سار الى القاهرة (٩) ، فأرسل العاضد يستنجد بنور الدين وضمن الكتاب شعر نسائه ، فأنجده على وجه السرعة خوفا على مصر (١٠) ، فعاد الفرنج الى بلادهم فاشلين (١١) .

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٥ / ٣٤٨

(٢) ابن قاضي شهبة ، الدر الثمين ، ١٣٠

(٣) الروضتين جا ق ٢ ص ٣٦٦ ، النجوم الزاهرة ٥ / ٣٤٩

(٤) السيوطي ، حسن المحاضره في أخبار مصر والقاهره ، ط ، ادارة الوطن مصر ١٢٩٩ هـ جـ٢ / ٢٣

(٥) ابن الاثير ، الكامل سنة ٥٦٤

(٦) الروضتين جا ق ٢ ص ٣٧٤ والنوادر السلطانية ٣٨

(٧) تاريخ ابن الفرات ، ت حسن الشماع مطبعة حداد البصرة ، ١٩٦٧ ، مج٤ جا ص ١٩ ـ ٢٠

(٨) محي الدين بن عبد الظاهر ، الدر المنظيم ، ت ، أحمد بدوي مطبعة الرسالة ، مصر ١٩٥٩ ص ٣٤

(٩) تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ جـ ١ ص ٢٤

(١٠) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ١٣٩ ، خطط المقريزي جـ ١ ط ١ بولاق ص ٣٦

(١١) تاريخ ابن الفرات جـ ١ ص ٢٣

وقد أثار تلاعب شاور بأسد الدين شيركوه وصلاح الدين الجند فأتفق صلاح الدين مع الجند على قتله ، وكان ذلك سنة ٥٦٤/ ١١٦٨ ، فخلع العاضد على شيركوه خلع الوزارة ولقبه بالمنصور ، وضم مصر عمليا الى دولة نور الدين ، أصبح أمل المسلمين كبيرا بفتح القدس (١) ، وما لبث شيركوه أن توفي بعد شهرين من وزارته فخلفه صلاح الدين (٢) ، وقد عظم مركز نور الدين بفتوحاته ، وعمله للوحدة (٣) ، حتى كأن ذلك بداية انهيار للامارات الصليبية ، وقد طلب من صلاح الدين أن يعلن عودة مصر الى الخلافة العباسية ، لكن صلاح الدين رأى أن ينظم الأمور في مصر أولا ، فقضى على ثورة الجند السودان سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ (٤) ، وبسط نظامه على مصر ، فأقض هذا العمل مضجع الفرنج في بيت المقدس ، وعلموا أن وحدة مصر والشام تعني القضاء عليهم ، فاستنجدوا بقومهم في أوروبا وعرفوهم ما تجدد من ملك مصر وأنهم خائفون على البيت المقدس" (٥) ، ثم طلبوا العون من الدولة البيزنطية ، فاجتمع الجيش الفرنجي والبيزنطي وحاصروا دمياط ، لكن صلاح الدين شحنها بالسلاح والمال والذخائر ، فعاد البيزنطيون وتبعهم الفرنج دون أن يحققوا نجاحا (٦)

وبعدها أعاد نور الدين الطلب من صلاح الدين اعلان الخلافة العباسية " وألزمه بذلك الزاما لا فسحة فيه (٧) " فأعلنها سنة ٥٦٧ هـ ، وكان العاضد على فراش الموت ولم يعارضه أحد " ولم ينتطح فيه عنزان " (٨) .

وبذلك أصبحت مملكة نور الدين تشكل "فكي كماشة" على الفرنج ، وما لبث نور الدين أن توفي ، فاغتنم الفرنج موت نور الدين وحاولوا احتلال بانياس ، لكن ابن المقدم وصي الملك أسماعيل بن نور الدين خرج اليهم وراسلهم ولاطفهم وقدم لهم عروضا مغرية ، وبين لهم خطورة أستعانته بصلاح الدين فتركوها (٩) ، وعندما علم صلاح الدين بهذا العمل ساءه سلوك ابن المقدم وأرسل الى الملك الصالح وأمرائه يقبح لهم ما فعلوه (١٠) .

ثم قدم الاسطول الصقلي الى الاسكندرية في ستمائة قطعة ما بين شيني وطرادة وطسة وغير ذلك ، وكانوا في ثلاثين الفا (١١) ، وضايقوا الثغر وأتلفوا السفن التجارية ولكن أهلها قاوموا النازين ، حتى جاء ثم مدد صلاح الدين ، فانسحب الفرنج وخرج أهل البلد يحرقون خيامهم ويقتلون من ظفروا به فعادوا خائبين (١١) .

---

(١) الروضتين ج١ ق٢ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٤
(٢) ابن الاثير ، الباهر ١٤١ ، الأنس الجليل ٣١٢/١٠ (٣) الباهر ١٦٠
(٤) الروضتين ج١ ق٢ ص ٤٩٢ ، المفرج ١/ ١٧٦ ـ ١٧٧ (٥) ابن الاثير ، الباهر ١٤٣
(٦) ابن الاثير ، الكامل ٣٥١/١١ (٧) مفرج الكروب ١/ ٢٠٠
(٨) ابن الاثير ، الباهر ص ١٥٦ ، الأنس الجليل ١/ ٣١٣
(٩) مفرج الكروب ٢/ ٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٣ ص ١٢
(١٠) الروضتين ج١ ق ١ ص ٥٨٩
(١١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تح جمال الدين الشيال ، مطبعة الدار المصرية للترجمة والتأليف والنشر ، ١٩٦٤ ص ٤٨ ـ ٤٩ ، مفرج الكروب ٢/ ١٢ ، النويري ، كتاب الالمام بالاعلام ، ت ، د ، آتين كومب وعزيز عطية ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد ، ١٩٦٨ ج١ ص ٢٩٣

وبعد ذلك تفرغ السلطان لأمور الشام ، فحين حدث نزاع بين الاوصياء على الملك الصالح ، اتصل أحدهم وهو ابن المقدم بصلاح الدين ، حتى يقضي على الطامعين من الفرنج فرصة ضعف الشام (١) ، فلبى صلاح الدين الدعوة ، ورحبت به دمشق أجمل ترحيب ، قال وحيش الاسدي :

رأيت جلق ثغرا لا نظير له   فجئتها ظامرا منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها   وأزمع الخلق من أوطانها هربا (٢)

أزال صلاح الدين ما كان فيها من البدع والمنكرات ، والضرائب التي ظهرت بعد موت نور الدين كما أصلح من أحوالها ، وأعاد الحقوق الى أصحابها (٣) ، ثم أتجه الى حلب ، فاستنجد المتنفذون فيها بالفرنج ، فانجدهم صاحب طرابلس (ريموند الثالث) ، وهاجم حمص وحماه فاضطر صلاح الدين الى الرحيل (٤) ، ثم وقع مصاف بينه وبين الزنكيين من الموصل وحلب ، عند قرون حماة سنة ٥٧١/١١٧٥ ، انتصر فيه صلاح الدين وضم بعض بلادهم (٥) ، وقد حاولت الباطنية قتله أكثر من مرة ، كانت أولاها أثناء حصار حلب سنة ٥٧١/١١٧٥ والثانية اثناء حصار حصن عزاز التابع لحلب سنة ٥٧٢/١١٧٦ ، والثالثة أثناء حملته على ديارهم في العام نفسه (٦) لكنه نجا فخرب ديارهم وأحرق بلدهم (٧) ، ووجه صلاح الدين بصره الى الجناح الثاني من دولته ليقوم بالتحصينات اللازمة ، فبنى حول القاهرة ومصر سورا عظيما (٨) ، وكذلك أهتم بالاسكندرية (٩) ، ثم قام بأعمال حربية هجومية على جنوب مملكة بيت المقدس ، وتمكن من حصار ملكها بلدوين الرابع وجيشه في غزة ، ثم أنتشر في رقعة واسعة من فلسطين ، هاجم خلالها الرملة واللد ، ووصل الى جهات نابلس ، ثم أتجه صوب الساحل ، فاعترضه نهر عليه تل الصافية ، فلم يتمكن من أجتيازه الا بصعوبة لتزاحم الجنود ، وأثناء ذلك فوجئ بجيش مجهز من الفرنج (١٠) ، تمكنوا به من المسلمين فقتلوا منهم جماعة كبيرة ، ثم عاد الى القاهرة وقد حاول الشعراء أن يهونوا أمر هذه الكسرة عليه .

---

(١) أنظر الخريدة ، قسم الشام ص ١٢ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج ٣ ص ٣٩٢ ، الشذرات ٤/٢٣٦ ، أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك في مصر والشام ٨٣-٨٥

(٢) عقد الجمان ج ١٢ ق ٣ ورقة ٥٧٠

(٣) العماد الاصفهاني ، الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام والامراء من بني أيوب ص ١٣

(٤) ابن الوردي ، تاريخه ٢/٨٣ ، الكامل ١١/٤١٧

(٥) تاريخ ابن الوردي ١٠/٨٦

(٦) عبدالقادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ١٢٨

(٧) تاريخ ابن الوردي : ٢/٨٧

(٨) تاريخ ابن الوردي ١٠/٨٧ ، مرآة الجنان ٣/٣٩٧ ، الشذرات ٤٠/٢٤١

(٩) أبو شامة ، الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٨٧

(١٠) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٧٠٠

اغتم الفرنج هذا النصر ، فقاموا ببناء قلعة عظيمة قرب بانياس تعرف ببيت الاحزان * ، لتراقب التحركات الاسلامية وتعقبها ، فعاد السلطان الى الشام لتدارك أمر الاسلام ،ثم قام بهجوم على بانياس وكان يضرب به المثل في الشجاعة والرأي في الحرب(١) فقتل عددا من الفرنج ومنهم صاحب بانياس (٢) ،ثم هاجم حصن بيت الاحزان سنة ٥٧٥ ، وغنم جميع ما فيه اذ كان فيه مقدار كبير من السلاح بلغ مائة الف قطعة ، كما كان فيه مؤن كثيرة ،وأسر سبعمائة مقاتل ، فأثنى الشعراء والكتاب عليه لما قام به من حفظ الديار الشامية (٣) ، كما كتب اليه الخليفة تقليدا بالبلاد المصرية واليمنية ، سهلا وجبلا ، مع ما تحتويه من جند ورعية ، وأضاف اليها بلاد الشام باستثناء ما كان بيد ابن نور الدين اسماعيل (ـ٥٧٧) الذي كان يحكم حلب وأعمالها (٤) ، وقد كتب ابن التعاويذي اليه قصيدة أرسلها من بغداد مطلعها :

إن كان دينك في الصبابة ديني   فقف المطيّ برملتي يبرين **

ومنها :

أضحت دمشق وقد حللت بجوها   مأوى الطريد وموئل المسكين

---

* جاء في معجم البلدان ، مادة بيت " بلد بين دمشق والساحل .. وكان الافرنج عمروها ،وبنوا به حصنا حصينا،قال النشوبن نقادة فيه :

هلاك الفرنج أتى عاجلا   وقد آن تكسير صلبانها

ولو لم يكن قد أتى حينها   لما عمرت بيت أحزانها

(١) محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الايوبي ،مضمار الحقائق وسر الخلائق دار الهناء ، القاهرة ، سنة١٩٦٨ ، تـ:حسن حبشي ، ص٦

(٢) الروضتين ٢/ ١١ ، ٢/ ٢ ، ٢/ ١٠

(٣) الروضتين ٢/ ١١ــ١٣ ،ابن الوردي ٢/ ٨٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٣٠٣/١٢

(٤) السيوطي ، حسن المحاضرة ٢/ ٢٧

(٥) الروضتين ٢/ ١٠ ، مضمار الحقائق ٢٢

** في الروضتين (٢/ ١٠) بيرين ولم يذكر هذا الموضع في معجم البلدان ، وفي الضمار (بيرين) ولعل الصحيح (يبرين) لان الشاعر قصد الارض الكثيرة الرمل وهذا المكان هو يبرين وليس بيرين ، وهو من أصقاع البحرين ، (معجم البلدان مادة بيرين ، يبرين)

وأزاء هذه الانتصارات المتتابعة ، طلب بلدوين الرابع عقد هدنة ، فوافق صلاح الدين سنة ٥٧٦ / ١١٨٠ وبذلك تفرغ لمهاجمة طرابلس ، فاضطر صاحبها (ريموند الثالث) الى عقد هدنة في العام نفسه ، مما أتاح له فرصة طيبة لتوحيد العالم الاسلامي ، إذ بدأ أنتباهه واضحا بحلب لأنها مركز الحكم وقاعدته (١) ، لكن خطرا جديدا أخذ يهدد قلب مملكته ، اذ اتخذ أرناط (رينودي شاتيون) حصني الكرك والشوبك مركزين لمهاجمة قوافل الحجاج والتجار بين مصر والشام والحجاز ، وكان أرناط قد تولى الاردن بعد فكاكه من أسر مكث فيه مدة طويلة تغيرت فيها أحوال المسلمين نحو الافضل ، ولكنه بقي على لؤمه وغدره ، فخرق هدنة صلاح الدين مع ملك بيت المقدس ، وقام بالهجوم على قافلة ذاهبة الى مكة سنة ٥٧٧ / ١١٨١ ، فارسل صلاح الدين الى ملك بيت المقدس يطلب منه أعادة ما نهب ولكن أرناط تمادى في غيه ولم يذعن لأحد (٢) ، وقد حاول صلاح الدين أن يضغط عليه بالاسرى الحجاج الذين تقذفهم البحر عند دمياط — رغم كثرتهم — فلم يرتدع (٣) ، وفي هذه الاثناء شاع الخبر بغارة فرنج أنطاكية على حارم ، اذ نهبوا وسبوا عددا كبيرا ، بينما رسول حلب يقوم بالتفاوض مع الفرنج ويستنجد بهم ويغريهم (٤) ، وما كان "المواصلة" بأحسن حالا منهم ، وأما الخليفة فمشغول بأن لا تكون السفينة المعروفة (بالزبزب) بجملة أزاء التاج الشريف لترقب من يموت ... لأنه كلما رآها تكدرت عليه الحياة (٥) .

واستغل صلاح الدين الهدنة المعقودة بينه وبين الفرنج في أستكمال الوحدة الاسلامية ، فعاد لمحاصرة حلب ، ولكنه لم يستطع السيطرة عليها ، فذهب الى الموصل ، وحاصرها أياما ، لكن لم يفلح في فتحها ، اذ كانت محصنة ومحاطة بقلاع لا سبيل اليها إلا بأخذ هذه القلاع وما حولها من البلاد (٦) ، فعاد الى حلب حيث أرسل الخليفة يأمره بترك أمر الموصل وحلب ، فرد عليه صلاح الدين بأنه لا يمكنه الجهاد والتفرغ للعدو دون حماية وطمأنينة وإلا فالأولى أن يتنازل عن أملاكه لهؤلاء على أن يقوموا بواجب الجهاد ، ثم حاول أن يقنعه ويغريه بأن حكام حلب والموصل أعاقوا متابعته للجهاد ، وبين له أن الهدنة ما عقدها مع الفرنج إلا بسببهم (٧) .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٣ / ٢٠ — ٢٥ ، الكامل ١١ / ٤٩٦

(٢) Stanley Lane Pool, A History of Egypt in the Middle Ages p. 207

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ٢٥ / ١٤ ويذكر ان عددهم ألف وستمائة وتسعون .

(٤) الروضتين ٢ / ٢٣

(٥) الايوبي ، مضمار الحقائق وسر الخلائق ، ت حسن حبشي ، دار الهنا ، القاهرة ، ١٩٦٨ ص ٥٩

(٦) ابن شداد ، النوادر السلطانية ٥٧

(٧) الروضتين ٢ / ٢٣

وعاد السلطان الى الجزيرة الفراتية ، وعمل على ضم كثير من البلاد اليه(١) ثم عبر الفرات سنة ٥٧٩ وسير العسكر الى حلب ، فناجزها وحين علم صاحبها (عماد الدين زنكي) أن لا قبل له به ، أتصل به على أن يسلمه البلد مقابل أعطائه سنجار وبذلك قضى على معظم الممالك الضعيفة والملوك الذين يقول فيهم ابن اسعد الموصلي :

ملوك جلهم مغرى بظلم — ومشغول بلهو أو مزاح

أو ما قاله فيهم ابن سناء الملك :

ممالك لم يدبرها مدبرها — الا برأي خصي أو بعقل صبي
حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت — من الفساد كما صحت من الوصب (٢)

وبذلك أيضا ضمن قوة كبيرة يقف بها أمام الفرنج ، فكان فتح حلب بداية فتح القدس كما أشار الى ذلك أبن الزكي قاضي دمشق قبل فتح القدس :

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر — مبشر بفتوح القدس في رجب[٣]

* * *

وكان أن اقدم أرناط على مشروع خطير ــ دون أن يفكر بالعواقب ــ وهو أنه جهز اسطولا وأوكل له مهمتين : الاولى : نهب السفن الاسلامية التجارية ، والثانية : أحتلال المدينة المنورة ونقل جسد الرسول الكريم الى بلادهم ليدفنوه عندهم ، ولا يمكنوا المسلمين من زيارته الا بجعل (٤) .

ولذا عمر العادل أخو صلاح الدين أسطولا ارسله مع حسام الدين لؤلؤ ، وأوقع بمحاصري أيلة هزيمة نكراء ، ثم طلب الفرقة الثانية وقد عزموا على دخول المدينة ومكة ، فأدركهم بساحل حوراء ، فقتل أكثرهم وأسر الباقين (٥) ، ولم يكتف أرناط بهذا بل غدر بالمسلمين ، بعد ان أمنهم ، فهاجم قافلة قادمة من مصر الى الشام ، وحين ذكره صلاح الدين بالعهد ، وطلب منه اطلاق الاسرى والقافلة رد بقوله " قولوا لمحمد يخلصكم " (٦)

زالت العوائق التي أعترضت صلاح الدين في تأديبه لارناط على أعماله ، وبالأضافة الى ذلك تدهورت أوضاع مملكة بيت المقدس ، اذ توفي بلدوين الرابع ، وخلفه " جاي لوزجنان " فراسل صلاح الدين وطلب منه المساعدة على أهل ملته (٧) .

---

(١) أنظر مضمار الحقائق ص ١٠٤ ــ ١٠٥ ، ١١٠ ــ ١١٥ والكامل ١١ / ٤٨٢ ــ ٤٨٨ ، وزبدة الحلب ٣ / ٢٠ ــ ٢٥
(٢) الروضتين ٢ / ص ١٧ ، ٤٣ ، ٤٤
(٣) الانس الجليل ٣١٧ ، وأنظر مضمار الحقائق ٩٢ ، تاريخ ابن الوردي ٢ / ٩٣
(٤) ابن الاثير ، الكامل ١١ / ٤٩١ ، ١٠٩ ، الانس الجليل ٣١٦
(٥) تاريخ ابن الوردي ٢ / ٩٢
(٦) مفرج الكروب ٢ / ١٩٤ ، ابن شداد ٧٨
(٧) الروضتين ٢ / ٧٤

وهنا أمر صلاح الدين بتعبئة العساكر من حلب ومصر والجزيرة ، ووكل أبنه الأفضل باستقبالها في منطقة تجمعها بدمشق ، بينما قام بغارة على الكرك والشوبك دمر خلالها أرباضها وقطع أشجارها (١) ثم عاد الى الشام فوجد أمورها مهيأة ومنظمة فجهز الجيوش وسيرها يريد دخول الساحل ، وعندما سمع الفرنج باجتماع كلمة المسلمين ، أجتمعوا وتصالحوا ثم أقاموا في صفورية بجيش قوامه خمسون ألفا ، فاستهدف صلاح الدين أزاحتهم عن مراكزهم حتى يصلوا اليه متعبين ، فضلا عن أنه بهذا العمل يحرمهم من الماء بأحاطته ببحيرة طبرية ، ولكنهم بقوا حيث هم ، فاحتل طبرية لعلمه أنهم لن يهدأوا لذلك ، فلما وصلهم الخبر ثارت ثائرتهم ، فخرج السلطان ، وقال : " جاءنا ما نريد ، ونحن لهم بالمرصاد ، فلا قبل لهم بنا ، فاذا هزمناهم مناخذ طبرية وجميع الساحل" (٢) ،

عسكر الفرنج على سطح جبل طبرية بعيدين عن الماء ، فاشتد بهم العطش وأندفعوا الى ماء طبرية غير مرة ، ولكن المسلمين كانوا يردونهم ، ولم تزل الحرب تستعر ويشتد أوارها حتى دارت الدائرة على أهل الشرك ، إذ ان المسلمين قد أشعلوا النيران في الاعشاب فازدادت عليهم الحرارة اللاهبة ، حرارة النور وحرارة النار والحديد الذي به يتخوفون ويدرعون إضافة الى العطش الشديد ، فكانت الغلبة للمسلمين بفضل الخطة الحكيمة لقائدهم صلاح الدين ، ولما رأى صاحب طرابلس أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه بادر الى الهرب ثم أصابته ذات الجنب ، فكانت سببا في هلاكه بمشيئة الله (٣) .

أما بقية الجيش فقد أشتد قتالهم حين أيقنوا بالهلاك ، لكنهم لم يستطيعوا الاستمرار فقتل منهم عدد كبيرا ، كما أسر الكثير ، وقد عامل المسلمون الاسرى معاملة كريمة ، وأحضر السلطان الماء المثلج لملكهم ، أما أرناط فقد تم قتله وفاء بنذر السلطان (٤) .

تابع صلاح الدين فتوحاته ، فتوجه نحو عكا ، بغية القضاء على قواعدهم البحرية بينما قامت بعض الفرق باحتلال الناصرة ، وقيسارية وحيفا وصفورية ... وغيرها كما أحتل بيروت وجبيل ، ثم سار نحو عسقلان ، وفي طريقه الى القدس تسلم مواضع كثيرة كالرملة ، ويبنا والداروم ، كما تسلم أصحابه غزة وبيت جبريل والنطرون بغير قتال (٥) ، ثم أتجه الى بيت المقدس ولم يلبث من فيها أن استسلموا ، وسمح لهم بمغادرة القدس بسلام مقابل فدية بسيطة (٦) وهنا نلاحظ الفرق الشاسع بين معاملة المسلمين ومعاملة الفرنج .

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٧٤ ، ٧٥ ، الروضتين ٢ / ٧٥

(٢) المصدر السابق ٧٦ ، ٧٧ ، وابن الاثير ، الكامل ١١ / ٣٥

(٣) النوادر السلطانية ٧٨

(٤) مفرج الكروب ٢ / ١٠٢ ، حسن المحاضرة ١ / ٢٤ ، النوادر السلطانية ٨٠

(٥) ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٨٠ ، الكامل ١١ / ٥٤٠ ، ٥٤١

(٦) ابن الاثير ، رسائل ابن الاثير ، ت أنيس المقدسي ، دار العلم للملايين ، بيروت سنة ١٩٥٩ ص ١٥٤

بهذا الفتح العظيم تحسنت أحوال المسلمين ، بينما انحسر ظل الصليبيين، وقد مجد الشعراء والكتاب هذه الفتوحات ، وطالبوا باستكمال الفتح ، كما عملوا على تحريك الهمم لطرد الغزاة ، ولم يبق أمام المسلمين الا صور ، وطرابلس ، وأنطاكية ، وبهناء السويدية ، وحصن المرقب ، وقد حاول صلاح الدين احتلال صور ولكنها امتنعت عليه لحصانتها الطبيعية ، وكثرة من فيها من الفرنج الذين جاءوا من المناطق التي احتلها المسلمون (١) .

* * *

أحدث سقوط القدس صدى هائلا في أوروبا ، لا سيما بعد أن وصل بعض الرهبان يحملون صورة المسيح وقد أدماه العرب ، فهرع الفرنج الى فلسطين بأعداد هائلة ، اذ خرج ملك الالمان بمائتي ألف وقيل مائتين وستين ألفا (٢) ، وقد وصلت هذه الجموع الغفيرة الى القسطنطينية ، تريد البلاد الاسلامية ، بالاضافة عمن جاء عن طريق قبرص أو من صور .

واذ ذاك أرسل صلاح الدين ابن شداد الى الخليفة ببغداد ، وصاحب سنجار ، وصاحب الجزيرة ، وصاحب الموصل ، وصاحب اربل ، يطلب منهم الخروج الى الجهاد (٣) ، فوعده كل منهم خيرا ، كما قام بطلب الجند من مصر والشام للوقوف في وجه الهجوم القادم .

وقد كان لتحسن العلاقات بين المسلمين والروم أثر مهم في وقوف صلاح الدين على أخبار الحملة الالمانية ، فقد بعث ملك القسطنطينية له برسالة أخبره فيها عن اقترابهم من القسطنطينية ووعده بأن لا يمكنهم من العبور (٤) ، وحين وصلت الحملة أرض القسطنطينية وضع العراقيل أمامها ، لكن كثرتهم أرغمته على تخلية سبيلهم أمام قد رسم المجهول عبر الاناضول ، كما أرسل الى صلاح الدين يخبره عن خسائرهم (٥) ، وقد تابع الالمان زحفهم عبر آسيا الصغرى يخربون وينشرون الرعب ، فخافهم السلطان السلجوقي (قلج أرسلان) ، فقدم لهم الادلاء حتى وصلوا أرض الارمن ، فاستقبلهم ابن لاون (لاون) وزودهم بالمؤن والادلاء حتى وصلوا الى طرسوس ، فأقاموا على نهر ، أصيب ملكهم عنده بمرض بعد أن سبح فيه فكانت نهايته (٦) .

ضاق الخناق على المسلمين ، اذ أصبحت الحملة الالمانية على مشارف الشام ، والحملة الفرنسية والانجليزية ترابط في صقلية تنتظر هدوء البحر ، تحفزا للهجوم ، وفرنج صور يهاجمون عكا والمسلمون يقتلون منهم العدد الكثير ، لكن ما إن يقضى على مجموعة حتى تظهر مجموعات آتية من البحر (٧) .

---

(١) الاعلام الزاهرة ٢٤٣ ، العبر والسلعة ٢/٨٣٧ ، الكامل ٢١/١٢

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ١١٥

(٣) لاحظ قول د . بدري محمد فهد ، أنه لم يطلب العون من الخليفة ، وانظر ابن شداد ١١٥

(٤) الروضتين ٢/١٥١

(٥) النوادر السلطانية ١٢٢

(٦) النوادر السلطانية ١٢٤ — ابن العديم ٢/١١٤

(٧) الروضتين ٢/١٥٧

لكن الاخبار وصلت بموت ملك الالمان ومعظم جيشه بسبب الامراض التي فتكت بهم (١) ولذلك طلب السلطان من أمراء الجند منعهم من وصول عكا ، ولم ينتظر وصول أمدادات القوات الاسلاميه ، وانما قام بهجوم على الجيش الصليبي قتل فيه عددا كبيرا منه ، فانتشر الوباء بينهم مما أضطر صلاح الدين الى الرحيل عنهم ، بينما اتيح لهم المجال لمزيد من الاستمدادات ، وفي هذه الاثناء وصلت الحملة الفرنسية والانجليزية ، وأحكم الفرنج الحصار على عكا ولم تنجح محاولات صلاح الدين لامدادهم بالميرة والسلاح (٢) ، فخرج حامي المدينة الى الفرنج ، وتفاوض معهم بالتسليم ، ولكن الفرنج ككعادتهم غدروا بالمسلمين ، وقتلوا الاسرى البالغ عددهم زهاء ثلاثة آلاف مسلم ، صبرا ، ثم احتلوا حيفا وقيسارية بعد أن أخلتها الحامية الاسلامية ، ثم ساروا نحو أرسوف ، وهزموا المسلمين فيها ، فأسرع صلاح الدين الى عسقلان وخربها وسط جو غامر بالحزن والبكاء (٣) .

لكن الفرنج توقفوا بسبب ما نشب بينهم من نزاع على ملكية الاراضي المفتوحه والقدس بعد احتلالها ، مما أتاح لصلاح الدين ان يحصن القدس ، وان يسمم الابار على الطرقات وحين وصلت الحملة مشارف القدس ، ورأت ما فعله صلاح الدين فضل ريشارد التوقف عن مهاجمة القدس ، والدخول معه في مفاوضات ، لا سيما بعد ما علمه من ثورة أخيه ضده في أنجلترا (٤) فاقترح على صلاح الدين تزويج أخته بالعادل أخي صلاح الدين ، وقد دامت المحادثات طويلا ولكن دون جدوى ، وأخيرا عقد صلح الرملة سنة ٥٨٧ / ١١٩١ ، ونودي في الناس : " ان الصلح قد أنتظم ، من يشاء (هكذا) من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل (٥) .

وتوفي المجاهد الكبير صلاح الدين سنة ٥٨٩/١١٩٣ تاركا مملكة واسعة وأمانة ثقيلة تحملها أبناؤه من بعده ، بالاضافة الى أخيه " العادل " ، وقد تولى أبنه الافضل على" دمشق والساحل وبيت المقدس ، ، وأخذ " العزيز عثمان " مصر ثم أخذ "الظاهر غازي" حلب أما أخوه العادل فقد تولى أمارة الاردن والكرك ، ولم يلبث الخلاف أن دب بين ورثة صلاح الدين الايوبي وأستمر فترة من الزمن (٦) .

---

(١) مفرج الكروب ٢ / ٣٢٦ ، النوادر السلطانية ١١٨
(٢) النوادر السلطانية ١٥٦ ـ ١٥٧ ، ١٦١
(٣) الروضتين ٢ / ١٩٢
(٤) مفرج الكروب ٢ / ٣٧٥ ، الروضتين ٢ / ١٩٦ ، وأنظر سعيد عاشور الحركة الصليبية ٢ / ٨٨٥ .
(٥) تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٤ ج ٢ / ٣٢ ـ ٣٣ ، ٨٦ ، الروضتين ٢ / ٢٠٤
(٦) ابو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ٣ / ٨٧ ، الروضتين ٢ / ٢٢٨

وبعد أن هدأت الأمور في البيت الأيوبي وانتهت مدة الهدنة ، أرسل الفرنج حملة جديدة ، فانتشروا في الساحل وكثروا فيه وأعتدوا على بعض المسلمين في منطقة القدس وأسروا وغنموا (١) ، فتصدى لهم العادل من أمراء بني أيوب وكسرهم بمرج عكا ثم احتل ياغا بالسيف ، لكن الفرنج احتلوا بيروت بعد أن هرب عنها واليها عز الدين أسامه ، ثم عقد صلح بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات ، عمل العادل خلالها على توحيد الدولة الأيوبية تحت زعامته ، وقد تمكن من بسط سيطرته على مصر فأصبح سلطان المسلمين في مصر والشام ، واعتمد في تصريف أمور الولايات على أبنائه بينما يتنقل هو بين هذه الولايات (٢) .

* * *

وبعد أن فشلت الحملة الصليبية السابعة في استرداد بيت المقدس رأت البابوية أن تضرب مصر أولا ، باعتبارها السبب الاكبر في سقوط مملكة بيت المقدس (٣) ، وقد تقرر ذلك فعلا ، وبقي أمر نقل الجند اليها ، فتعاقد الفرنج مع أسطول البندقية لنقلهم ، ولكن استنجاد الكسيوس الثاني البيزنطي بهم لاخماد الثورة الداخلية ، أطمعهم في السيطرة على الطريق الذي عانى منه الفرنج قديما ، كما أطمعهم في أخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية (٤) . ولذا فقد أستولى الفرنج على القسطنطينية سنة ٦٠٠ / ١٢٠٤ ، وأعملوا السيف في أهلها ثلاثة أيام ، وقتلوا الاساقفة والرهبان الذين خرجوا اليهم وبأيديهم الأناجيل والصلبان ، يتوسلون بها ليُبقوا على حياتهم ، فلم يلتفتوا اليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة (٥) .

ثم وصلت بعض جموع الفرنج الى الشام ، وقاموا بعدة عمليات لم تكن حاسمة كان منها هجومهم على حماة ، وقد هزموا فيها ، يقول بهاء الدين أسعد بن يحيى النجاري في ذلك (٦) .

عاجلتَهم بالمنايا والحتوف فلم	تترك لهم أجلاً يُبقى الى أجل
فاكسر صليبهمُ عن صلب جمعهم	وأرض لجدك أعلا على هبل

---

(١) مفرج الكروب ٣ / ٧٤
(٢) لمزيد من التفاصيل أنظر مفرج الكروب ٣ / ٧٨ ، واورونشتين ٢ / ٢٢٥ ، ٢٣٣ وتاريخ ابن الوردي ٢ / ١١٣ وابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ٢٢٥ ، وسعيد عاشور الحركة الصليبية ١ / ٩٦٦ .
(٣) Stanley Lane Pool, A History of Egypt in the Middle Ages p. 217, 241
(٤) فشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ق ١ ص ٢٤١
(٥) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ٢٢٨ ، ابن الساعي ، الجامع المختصر نشر مصطفى جواد ، المطبعة السريانية الكاثوليكية ، بغداد سنة ١٩٣٤ ص ٤٧ — ٥٠
(٦) تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ٢ ص ٢٥٢ وانظر ص ٢٥٥ — ٢٥٧ ومجلد ٥ ج ١ ص ١٢٤

وازاء هذا الفشل ، اجتمع عقلاؤهم واشاروا بقصد مصر أيضا ، وهكذا وصلت الحملة الى عكا ، وانتشر افرادها في الساحل يقتلون وينهبون حتى اذا استراحوا ، انطلقوا الى مصر مخلفين وراءهم الرعب والتدمير (١) .

وأخيرا وصلت الحملة الى دمياط سنة ٦١٤ بعد مشقة بالغة بسبب ما أتخذه الكامل من احتياطات في مدخل النيل ولكنهم حطموا تلك السلاسل ، وصنعوا مركبا عظيما شحنوه بالرجال والسلاح وأجروه في البحر ، ومنه وثبوا الى سور دمياط (٢) ، وتوفي العادل ، وبقي ابنه الكامل يرقب الموقف ، ولكن أحد قادته حاول الثورة وأحدث الفوضى ، مما أضطر الكامل أن يتراجع عن المدينة ، وبذا انفتحت أمامهم (٣) ، وأرسل الملك الكامل الى أخيه يحثه على سرعة الحضور ، وصدّر الكتابة بقوله :

يا مسعدي إنّ كنت حقا مسعفي	فانهض بغير تلبث وتوقف
واحثث قلوصك مرقلا أو موجفا	بتجشم في سيرها وتعسّف

وقبل أن ينجده أحد من أخوته تمكن الفرنج من الاستيلاء على دمياط ، وارتكبوا فيها الجرائم، إذ غدروا بأهلها بعد أن أمنوا من بقي منهم (٤) ، ثم أتجهوا مع النيل داخل مصر ، والمسلمون لا يلوون على شيء ، فاتخذ الكامل المنصورة مركزا للدفاع ، وعرض عليهم كل ما فتحه صلاح الدين بما في ذلك القدس ، على أن يغادروا الاراضي المصرية ، فلم يقبلوا بذلك وطلبوا أموالا طائلة لبناء أسوار القدس .

ثم تجمع لدى الكامل جيش عظيم ، وأخذت الأمدادات تصله تباعا من أخوته الاشرف موسى والمعظم عيسى ، وتمكنت البحرية الاسلامية من تطهير النيل عنهم ، وأغرقت سفنا فرنجية محملة بالسلاح والميرة ، وكان أن فاض النيل ، ففتح المسلمون السدود والقنوات ، وأصبح الفرنج محاصرين ، يقيّد الطين حركتهم ، بالاضافة الى محاصرة الجند المسلمين لهم .. فوقعوا بين أسير وقتيل بعد أن وصلوا الى المنصورة (٥) .

واجتمع الكامل محمد وأخوانه بعد هزيمة الفرنج في ليلة سمر ، قال فيها الشعراء شعرا وغنوا فيما لحملة وأعمالها ثم هزيمتها ومن جميل شعرهم قول الشاعر راجح الحلبي :

أعباد عيسى أن عيسى وحزبه	وموسى جميعا ينصران محمدا *

---

(١) الشذرات ٦٥/٥ - ٦٦

(٢) القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، دار بيروت سنة ١٩٦٠ ، ص ١٩٤

(٣) تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٥ ج ١ ص ١٤٦ - ٢٤٩ ، المختصر في أخبار البشر ١١٧/٣

(٤) الشذرات ٦٦/٥

(٥) المختصر في أخبار البشر ١٢٥/٣ ، ابن الفرات مجلد ٥ ج ١ ص ٢٤٩ تاريخ ابن الوردي ١٤٢/٢

* في البيت تورية باسم عيسى وهو المعظم أخو المليك الكامل وموسى هو الاشرف ومحمد هو الكامل . للمزيد من التفاصيل انظر الذيل على الروضتين ١١٩ - ١٢٠

ونشب النزاع ثانية بين الأخوة من البيت الأيوبي ، بل وصلت الأمور الى حد استنجاد بعضهم بأعداء المسلمين في عهد ، اذ استنجد بعضهم بالخوارزميين وبعضهم الآخر بالملك فردريك ملك صقلية(١) وقد قدم الجيش الفرنجي بالتوالي الى عكا سنة ٦٢٥ / ١١٢٨ ، وأخذ يبني التحصينات في عكا وغيرها استعدادا للهجوم ، ريثما يصل الامبراطور ، وكان أن مات الملك المعظم فاحتل الكامل القدس ونابلس ، واتفق مع أخيه الاشرف على أخذ دمشق من الناصر داود بن المعظم الذي كان مقيما بنابلس ثم رحل الى دمشق سنة ٦٢٦ / ١١٢٩ ،(٢)

ووصل فردريك الى الشام في وقت لم يعد فيها الكامل الذي كان قد استنجد به في حاجة اليه ، فطلب الامبراطور من الكامل أن يسلمه ما كان وعده به من التنازل عن كل ما احتله صلاح الدين مقابل القضاء على المعظم ، فراسله الكامل ولاطفه ، فلجأ فردريك الى الحكمة والدهاء ، وانتهى الامر بتسلمه القدس وبيت لحم والناصرة وغيرها على أن تضع الحرب أوزارها مدة عشر سنين ابتداء من ٦١٦ / ١١٢٩ (٣) .

وقد استاء المسلمون لهذه الهدنة ، فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل ، وكان نتيجة ذلك ان ازداد تمزق البيت الايوبي ، اذ اتجه الكامل والاشرف الى دمشق لاخذها من الناصر ، فكرهما الناس وأوغرت عليهما الصدور ، وقد تولى الكامل حصار دمشق ، وقطعا الانهار ونهب البساتين(٤) ، ثم أخذاها صلحا .

وحين أوشكت الهدنة التي عقدت بين الكامل وفردريك على الانتهاء خشيت البابوية على بيت المقدس ، فدعت الى حملة صليبية جديدة ، هدفها حماية القدس ، وترميم الاسوار ، وبذلك تكون قد خرقت الهدنة التي تقضي بعدم تجديد البناء ، فاستغل الناصر داود الفرصة وهجم على الفرنج وطردهم منها ، وردا على ذلك ، نظم الفرنج حملة أخرى بقيادة ملك فرنسا (لويس التاسع) الذي أرسى بعكا وانبث أصحابه في بلاد الساحل ، فعاد الذعر وخاف الناس على القدس والاماكن الاخرى ، وقد قال الناصر داود في ذلك * :

أيا ليت أمي أيّمٌ طول عمرها ... فلم يقضها ربي لمولى ولا بعل

ويا ليتها لما ولدت وأصبحت ... تعدّ الى الغد قميات بالرجل

لحقت بأملاكي فكنت ضجيعهم ... ولم أر في الاسلام ما فيه من خبل(٥)

---

(١) للمزيد من التفاصيل أنظر الحركة الصليبية ١ / ٦٦٨

(٢) تاريخ ابن الوردي ٢ / ١٥٠ ، مفرج الكروب ٤ / ٢٣١ ، الشذرات ٥ / ١١٨

(٣) السلوك ق ١ جـ١ ص ٢٢٨ تاريخ ابن الوردي ٢ / ١٥٠

(٤) ابن الاثير ١٢ / ٤٨٣ وانظر : الذيل على الروضتين ١٥٤ ومفرج الكروب ٤ / ٢٥٩ ، ٢٦٤

* ذكر ابن الوردي في تاريخه أن هذه الابيات للمعز بن عبد السلام ، وهي للملك الناصر داود وقد رواها ابنه الملك الامجد في كتابه " الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية (أو رسائل الملك الناصر ورقة ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

(٥) الملك الامجد ، الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية مخط ، ورقة ٢٠٤ ـ ٢٠٥

الا أن الحملة أتجهت الى مصر ، لانها القاعدة الحربية الهامة للمسلمين ، فأرسل لويس التاسع الى ملك مصر يتهدده بكثرة جيشه وقوة فتكه ، فرد عليه الملك الصالح نجم الدين ملك مصر بأنه لا يخاف الكثرة ولا القوة ، لان المسلمين هم أرباب السيوف ، وهم أصحاب الارض وليسوا طارئين وقد أخذ يتوعده بقوله" ... فلو رأت عيناك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا .. لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولا بد أن تزل بك القدم ، في يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسوء الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون(١) " .

وأشرف الملك الصالح رغم مرضه على تحصين دمياط ، وعززها بالمقاتلين من قبيلة كنانة لكن الحملة كانت في غاية القوة والاستعداد فحطمت العوائق التي تعرقل مرور السفن في نهر النيل ، مما أثار الخوف في نفوس بعض أمراء دمياط ، فولوا الادبار وتبعهم كثير من الناس ، فقبض الصالح عليهم ، وأعدم منهم خمسين أميرا شنقا (٢) ، ولكنه توفي ، فقامت زوجته " شجرة الدر " مقامه ، وأرسلت الى ولده تورانشاه ليتولى أمر مصر ، في حين وقع الفرنج في الخطأ الذي وقع فيه أسلافهم ، وقد استطاع تورانشاه أن يأسر الملك الفرنسي وأخاه ، كما أستولى على عساكر الفرنج ، وقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف فارس ، وأسر من الخيالة والرجالة ما يناهز مائة ألف ثم جيء بالملك الفرنسي وأخيه الى المنصورة وأعتقلا في دار فخر الدين بن لقمان(٣) ، وقد قال الشاعر بن الصيرصري من بغداد يصف كثرة قتلاهم :

تركنا من الأعلاج بالسيف مطعمــا	ثلاثين ألفا للقشاعم والأسْـد
ومنهم الوفا آخرون بأسرنــا	فكم ملك في قبضنا صار كالعبد(*)

وقد أطلق سراح ملكهم وباقي الجند على شرط أن لا يعودوا الى مصر ، وأن يدفعوا فدية كبيرة وحين عزم لويس على مهاجمة مصر مرة ثانية ، قال ابن مطروح :

قل للفرنسيس إذا جئتــه	مقال صدق عن قؤول نصيح
آجرك الله على ما جــرى	من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغي ملكهــا	حسبت أن الزمر يا طبــل ريح

وآخرها :

دار ابن لقمان على حالهــا	والقيد باق والطواشي صبيح

---

(١) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٨ ، المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ق ٢ ص ٣٤٧

(٢) نهاية الأرب ج ٢٧ ورقه ١٠٠

(٣) تاريخ ابن الوردي ١٨٧/٢ ، القديس لويس جوانفيل ، ترجمة حسن حبشي ١٤٠–١٤٢ ، نهاية الارب ج ٢٧ ، ١٠١ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ٢٥٩ ، رنسيمان ٤٦٥/٣

(٤) حسن المحاضرة ٣٩/٢

* في البيت الاول " مطعما " لعلها " مطمعا " والثاني ورد مكسورا " قبضتنا "

(٥) النويري ، الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية في وقعة الاسكندرية ج١ ص ١٧٤

وهكذا فشلت جميع محاولات الفرنج للاستيلاء على مصر ، فوجهوا أنظارهم نحـــو التتار ، لعلهم يجدون فيهم سندا لهم في تحقيق أهدافهم ، وقد كان من الممكن لهم ضرب المسلمين لولا التفاني فيما بينهم بحروب داخلية كان أشدها ما حدث بين البنادقة والجنوية (١) واستغل المسلمون فرصة هذا النزاع المؤقت أمام الغزو المغولي الذي اكتسح العراق وحمص، بلاد الشام وهدد مصر (٢) ، اذ أرسل هولاكو الى قطز يطلب منه الاستسلام ، فجمع قطـــز جيشا قويا ، والتقى مع المغول في عين جالوت وهزمهم سنة ٦٥٨/١٢٥٩ * ثم تبع الظاهـــر بيبرس فلولهم بينما سار قطز الى دمشق ، فاستقبله أهلها استقبال المخلص من أعمال التتـــار الوحشية .

* * *

وبعد ذلك تولى بيبرس حكم مصر والشام ، فهيأ الأمة للجهاد ، ثم انتقل من مصر الى الشام ، وقام بهجوم على أنطاكية لمحالفة حكامها للمغول ، ثم هاجم مملكة بيت المقدس ، فاستولى على قيسارية وأرسوف وقلعة صفد قاعدة الفرسان الداوية ، مما أضعف من شوكتهم وحطـــم معنوياتهم ، فعقدوا معه هدنة (٤) ، وفي سنة ٦٦٦/١٢٦٧ استولى على يافا ، وحصـــن الاكراد ، ونازل حصن عكا وملكه بالامان ، وقد حث الشعراء على القضاء على عاصمة الصليبيـــين (عكا) ، فقال أحدهم (٥) :

يا مليك الارض بشـــــــرا   لك فقد نلـــــــت الارادة
إن عكـــا ر يقيـــــــنا   هو عكا وزيـــــــــادة

وبعد وفاة بيبرس تابع قلاوون عمله في القضاء على المغول والفرنج ، فبعد أن أنـــزل بالمغول هزيمة حاسمة رغم كثرتهم في حمص سنة ٦٨٠/١٢٨١ ، بدأ يوجه اهتمامه نحو الفرنـــج فاحتل حصن المرقب سنة ٦٨٤/١٢٨٥ ، وهو حصين منيع ، ولم يبق للفرنج سوى عكـــا وطرابلس وصيدا وصور وعتليت وما حولها (٦) .

---

(١) الحركة الصليبية ٢/١٠٧١ (١٠٨٠ ، رنسيمان ٣/٤٨٧ ، أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك ١٧٠ ، عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ٢٦٦

(٢) المختصر في أخبار البشر ٣/١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، وتاريخ ابن الوردي ٢/٢٠٧

* يزعم رنسيمان (الحروب الصليبية ٣/٥٧٨) ان قطز تحالف مع الفرنج لمقاتلة العـــدو المشترك ، والحقيقة أنهم عرضوا عليه المساعدة ، فرفضها لأنه لا يستعين بكافر على كافر وسبب العرض هو أن المغول قربوا النصارى الشرقيين ، وعاملوهم بخلاف معاملة الفرنج الغربيين مما أثار تخوفهم (الحركة الصليبية ٢/١١٢٣) .

(٣) بدائع الزهور ١/١٠٥

(٤) شذرات الذهب ٥/٣١١ ، وانظر أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك ١٦٣

(٥) تاريخ ابن الوردي ٢/٢١٥

(٦) عقد الجمان ج٢٠ ق ٤ ص ٦٧٢ ، ٧٦٦ تاريخ ابن الفرات مجلد ٨ ص ١٧ ، تشريف الايام والعصور ص ٤٣

في سنة ٦٨٨/١١٨٩ ، احتل قلاوون طرابلس ، وبذلك انحصر وجود الفرنج في الساحل فاستنجدوا بأوروبا ، فجاءت حملة أيطالية ، أنتهت بالفشل وانقلبت عليهم بالوبال ، فقد هاجم رجالها المسلمين ، التجار منهم والمزارعين في منطقة عكا ، دون أن يقيموا للهدنة المعقودة بين قومهم وبين المسلمين وزنا ، فطالب السلطان قلاوون بتسليمه المجرمين ، فاعتذروا له عن أعمالهم وأنهم ليسوا من رعايا المملكة ، فلم يجد عذرهم قبولا ، وجهز جيشا لمهاجمة عكا (١) ، ولم يكد السلطان يفرغ من أعداد الجيش حتى وافته المنية ، فتولى الامر من بعده ابنه الأشرف خليل ، وأمر أن يستمد المقاتلون في دمشق ليلتقوا مع أخوانهم من مصر للتوجه نحو عكا ، فخرج أهل دمشق يمدون الجيش بما يستطيعون ، وقد أشترك في ذلك كل فئات الاهالي اذ خرج الناس من فقهاء ومدرسين وعلماء وصلحاء يحملون ويجرون الالات والمجانيق ... وحاصر السلطان عكا ، ورغم تفاني الفرنج الذين بلغوا ما بين ثلاثين وأربعين ألفا في الدفاع عنها إلا أن الاشرف خليل تمكن من أحتلال المدينة ، ففر الفرنج وقتل منهم خلق كثير ، والسعيد منهم من أتيحت له فرصة الوصول الى المراكب للهرب (٢) .

وقد جاء سقوط عكا زلزالا دمّر الكيان الصليبي في بلاد الشام ، فاستسلمت معاقلهم الواحدة بعد الاخرى صور ، وصيدا ، وأنطرطوس ، وعتليت (٣) ، وبذلك تكاملت فتوحات جميع البلدان الساحلية للاسلام ، وقد وصف الشعراء هذا الفتح العظيم ، وقال القاضي شهاب الدين محمود (٤) :

الحمد لله زالت دولة الصلب	وعز بالترك دين المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت	رؤياه في النوم لاستحيت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها	في البحر للشرك عند البر من أرب

*   *   *   *

وهكذا أنتهى الوجود الصليبي في ديار الاسلام بعد صراع مرير دام قرابة قرنين من الزمان ، أحرزت في بدايته جيوش الفرنج نصرا مؤقتا ، في ظروف مواتية لها ولكن تبدل الظروف في بلاد الاسلام ، ثم نضوب الامدادات التي كانت تأتي من أوروبا للإبقاء على الجسم الغريب في المنطقة آلا بهذا الجسم الغريب الى الموت المقدر المحتوم .

---

(١)   تاريخ ابن الفرات مجلد ٨ ص ١١٠ ، رنسيمان ٣ / ٦٩١ ، تشريف الايام والعصور ١٦٧

(٢)   محمد ابراهيم الجزري ، جواهر السلوك في الخلفاء والملوك ، ورقه ٤٠ ، ٤٢٦ ، مخطوط وانظر وصفهم في حصن التوسل الى صناعة الترسل ص ٤٦ وانظر الحركة الصليبية ٢ / ١١٨١

(٣)   المختصر في أخبار البشر ٤ / ٥ ، تاريخ ابن الفرات مجلد ٨ ، ١٢٥ ، تاريخ ابن الوردي ٢ / ٢٢٦

(٤)   المختصر في أخبار البشر ٤ / ٥ ، تاريخ ابن الفرات ٨ / ١١٥ ، البداية والنهاية ١٣ / ٣١٣ ، البصائر ج١ ص ٣ ، ص ٧٦٧

(٥)   غوستاف لوبون ، حضارة العرب ٣١٩ — ٣٢٠

الباب الثاني

الفصل الاول : النظرة الاسلامية للصراع

القسم الاول : صراع بين عقيدتين

القسم الثاني : صراع بين حضارتين

القسم الثالث : الصراع العسكري

أولا : الجيش الصليبي

ثانيا : الاسلحة والمعدات العسكرية

ثالثا : التحصينات

رابعا : التخطيط العسكري

خامسا : الحرب النفسية

سادسا : المعارك البرية والبحرية

القسم الرابع : الخطر الصليبي

أولا : على الارض الإسلامية

ثانيا : على المسلمين

ثالثا : على الاسلام والتراث الاسلامي

الفصل الثاني : أضواء على حياة الصليبيين

أولا : الحياة الاجتماعية

ثانيا : الحياة الاقتصادية

ثالثا : الحياة السياسية

الفصـــل الاول

النظرة الاسلامية للصراع في الأدب العربـــي

القسم الأول : صراع بين عقيدتين :

اتخذ الصراع بين المسلمين والصليبين طيلة القرنين اللذين دارت خلالهما الحـــروب الصليبية أشكالا مختلفة ، منها الصراع العسكري ، وذلك أمر طبيعي منتظر ، لأن أحد الجانبين كان غازيا ، في حين كان الجانب الآخر مغزوا في بلاده ، مهددا في كيانه ، ومنها صراع العقائد الذي يعتبر المحرك المعلن للصراع كله ، ولذا فانه يستحق من الباحث اهتماما خاصا ، ويستوجب القاء الاضواء عليه ، والجدير بالذكر أن صراع العقائد بين دولة الاسلام والدول النصرانية تمتد ابتدأ منذ معركة مؤته ، ثم بعد أن افتتح المسلمون بلاد الشام ، وقد مرت فترات كان الصراع فيها على نطاق واسع ،ولكنه كان أحيانا يتخذ طابعا محليا ، كما كانت الحال زمن الحمدانيـــين ، فالحمدانيون يهاجمون الثغور البيزنطية ،والبيزنطيون يردون على الهجوم ، ويهاجمون الثغـــور الاسلامية وبلاد الشام من ورائها ،

اما في هذه الفترة ، فقد اختلفت طبيعة الصراع ومداه ، إذ اشترك فيه من جانـــب مجموعة من الدول الاوروبية بالاضافة الى الدولة البيزنطية ، ومن جانب آخر مجموعة من الأمـارات الاسلامية قبل أن تتوحد هذه الامارات زمن نور الدين ثم زمن صلاح الدين .

وقد هـــدفت الجموع الفرنجية والبيزنطية الى احتلال القدس وطرد المسلمين من المنطقـة وهذا ما أدركه ابن الاثير في معرض حديثه عن متابعة الفرنج لحرب المسلمين في أفريقيا ، اذ قال لهم ملك صقلية " اذا عزمتم على جهاد المسلمين ، فأفضل ذلك فتح بيت المقدس ، تخلصونه من أيديهم ، ويكون لكم الفخر " (١) .

وهذا ما أشار اليه الادباء في شعرهم ونثرهم ، فهم كانوا يرون أن الحرب دينية هدفها احتلال الارض المقدسة وما حولها من بلاد ، ولذلك نبهوا الى خطورة الوضع وحثوا على الوقوف في وجه المحتلين ،وتمثلوا الرسول يستصرخ كل مسلم وعربي لكي يدافع عن الدين لانه بسقوط الارض المقدسة ، اصبح الدين واهي الدعائم ، يقول ابو المظفر الابيوردي في ذلك :

يكاد لهن المستجن بطيبـــة *	ينادي باعلى الصوت يا آل هاشـــــم
أرى أمتي لا يشرعون الى العدى	رماحهم ، والدين واهي الدعائـــم (٢)

---

(١) الكامل ١٠/١٤٧

(٢) نهاية الارب ٥/٢٢٦ ، ابن الاثير ، الكامل ١٠/٥٨٥ ، النجوم الزاهره ٥/١٥١

* المستجن بطيبة : أي المدفون في المدينة ، وهو الرسول محمد عليه الصلاة والسلام

وقال شاعر آخر (١) ، يصف ما أحدثه الكفار (الفرنج) بالاسلام والمسلمين من قتل وتشريد وهتك للاعراض :

أحل الكفر بالاسلام ضيما ... يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح ... وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليبا ... ومسلمة لها حرم سليب

ويقول ابن الخياط (٢) محذرا ومنذرا :

الى م وقد زخر المشركون ... بسيل يهال له السيل مدا
تراخون من يجتري شدة ... وتنسون من يجعل الحرب نقدا *
أنوما على مثل حد الظباة ... ونزلا وقد أصبح الامر جدا **

وقد تجاوزت أطماع الغزاة بلاد الشام ، فاحتاوا الرها ، وتطلعوا الى غيرها من ديار الاسلام فيما وراء بلاد الشام ، من أجل الاحتلال والاستيطان ، وتغيير صبغة البلاد الحضارية والدينية ، وما دام هذا هو هدفهم ، فمن الطبيعي أن يغضبوا اذا سمعوا الاذان ، وأن يضربوا الناقوس غيظا ، حتى عندما يكونون في أحرج الاوقات ، فحين أستولى صلاح الدين على القدس جمعهم ليخلي سبيلهم بعد دفع الفدية ، فحان وقت صلاة الجمعة ، فلما سمعوا الاذان ازدادوا غيظا الى غيظهم (٣) ، وبعد أن تم نقلهم الى صور ، وظهرت البلاد منهم ، وأقيم الاذان ، ثارت ثائرتهم ، وأوفدوا الى الغرب من يحرضهم على القتال (٤) .

وقد أعتبر المسلمون غزو الفرنج لديارهم حربا دينية منذ البداية ، فطالبوا بالوحدة والجهاد ، وظهرت ردة الفعل هذه في الادب العربي ، فهذا عرقلة الكلبي يمدح حاكم دمشق (مجير الدين ابق بن محمد بن بوري من طغتكين) ويعتبره المقاتل الوحيد عن الدين ضد الفرنج الغزاة (٥) ، :

من قاتل الافرنج دينا غيره ... والخيل مثل السيل عند المشهد

فقتال المسلمين للفرنج أتخذ طابعا اسلاميا شاملا ولم يعد قتالا محليا ، وقد اشترك فيه مسلمون من البلاد المختلفة ، وها هو طلائع بن رزيك الوزير الفاطمي يفتخر من مصر بقتال الفرنج فيقول (٦) ، :

وما نحن بالاسلام المشرك هازم ... ولكننا الايمان للكفر هادم

---

(١) النجوم الزاهرة ٥ / ١٥١ ـ ١٥٦ ، لم تذكر المصادر اسمه

(٢) ابن الخياط ، ديوانه ص ١٨٤

(*) تنسون : من نسا بمعنى أجل ، النقد : الغنم الصغيرة .

** قال خليل مردم في هذه القصيدة لعلها أول قصيدة قيلت في الحروب الصليبية ، وقد قيلت سنة ٥٠٠ كما جاء في الديوان ص ١٨٢ وأرى أن قصيدة الابيوردي وقصيدة الشاعر المجهول قد قيلتا قبلها : اذ قيلتا بعد سقوط القدس ٤٩٢ هـ .

(٣) الروضتين جا ق ١ ص ٩٧ (٤) رسائل ابن الاثير ، جمع أنيس المقدسي ص ٥٤

(٥) صبح الاعشى ٦ / ٥٢٨ (٦) ديوان عرقلة الكلبي ص ٣٦

كما وقف ابن منير في دمشق يمدح نور الدين ويفخر باعماله ضد الفرنج مرات كثيرة ، ومن هذه المواقف قوله :

أخلى ديار الشرك من أوثانهـــا . حتى غدا ثالوثهن كسيرا

وفي بغداد امتدح ابن التعاويذي صلاح الدين الذي هب ينافح عن الدين حتى غادر الاعداء ما بين قتيل وجريح وخائف يترقب الموت يقول :

وغضبت للدين الحنيف ولم تـزل / في الله ترضى منذ كنت وتغضب

غادرت أهل البغي بين مجـدل / لقى الحسام وخائف يترقب (١)

وترددت هذه الاصوات على مر السنين معلنة ان الشام للاسلام ، ومهما ظهر للباطل من سطوة وغلبة فان الحق يدفعهما ، يقول ابن سناء الملك :

الشام للاسلام دار القـرار / وكان من قبل طريق الفرار

فيا أمان الكفر لا تأمنـوا / بالدار فالشام لكفر بـدار (٤)

وفي الفترة الاخيرة من قتال الفرنج حين تم النصر المؤزر للمسلمين ، يقول شمس الدين محمد بن الحسن الغزاري مخاطبا الاشرف خليل بن قلاوون في فتح عكا :

واعدتها للمسلمين ولم يكـن / منهم ترى التطهير الا بالـدم (٥)

وفي طرد آخر جندي صليبي من ديار الشام يقول شهاب الدين محمود :

الحمد لله زالت دولة الصلـب / وعز بالترك دين المصطفى العربي (٦)

هذه مجرد أمثلة توضيحية ، تدل على أن الصراع كان دينيا لدى الطرفين ، وان تشكك بعض الادباء والمؤرخين في ادعاءات الفرنج فيما يتعلق باهدافهم الدينية في المنطقة ، لانهم باسم المسيح دمروا البلاد وخربوها ، وباسم الصليب ذبحوا الالاف في كل بلدة دخلوها ، مما أثار الشكوك حول تمثلهم لمبادئ دينهم ، يقول ابن القيسراني :

سروا لينتهبوا الاعمار فانتُهِبـوا / قتلا ، وينتهبوا الاموال فاغتُنِمـوا (٧)

ويذكر ابن الاثير (٨) انهم اجتمعوا لقصد مدينة حماة طمعا في النهب والغارة ، فخربوا القرى ونهبوها واحرقوا واسروا ..

---

(١) ديوان طلائع بن رزيك ص ١٤١ (٢) الروضتين جـ١ ق ١ ص ٢٠٦

(٣) ديوان سبط بن التعاويذي ص ٢٤ (٤) ديوان ابن سناء الملك ص ٢٨٢

(٥) جواهر السلوك في الخلفاء والملوك ، ورقة ٤٨ مخطوط

(٦) المصدر السابق ورقة ٥٩

(٧) الروضتين جـ١ ق ١ ص ١٤١

(٨) ابن الاثير ، الكامل ١٠ / ٤٥٠

هذه الاعمال وغيرها لو قدّر للمسيح عليه السلام أن يراها لما رضي عنها ، كما يقـــول طلائع بن رزيك في أعمالهم في المسجد الاقصى :

نزلت وسطه الخنازير والخمـــــر ويباري الناقوس فيها الصليـــــب (م)
لو رآه المسيح لم يرض فعـــــلا زعموا أنه له منســـــــــــــوب (١)

ويقول جوانفيل أحد مرافقي الملك لويس التاسع الذي غزا مصر سنة ٦٤٧ عن بعض رجاله بأنهـــم ذهبوا الى أرمينية للمشاركة في الاسلاب والاسهام في القتال (٢)

الا ان ذلك كله ، لا يعني غياب الروح الدينية بين الصليبيين وقد أبرز الادباء معتقدات هؤلاء الغزاة ، وأحاطوا بها لطول الفترة التي استغرقتها الحروب وما تخللها من مهادنـــات أتاحت للمسلمين فرصة للتعرف على أحوالهم ومما رساتهم (٣) ، يقول الملك الامجـــــد : " ورفع الكفار الصليب على رؤوس الاشهاد والمشاهد ، وأعلنوا بما يفترونه من التثليث الـــذي تنزه عنه الله الاحد الواحد (٤) " .

وقد تعرض الادباء لفكرة الاقانيم الثلاثة لاسيما الاقنوم الثاني وهو الابن ، لأنه ميبـــب الخلاف ، فالمسلمون يعتقدون أن المسيح عبد لله ، بينما يعتقد النصارى أنه ابن لله ، ومن ذلك ما رواه أسامة بن منقذ حين كان من الامير معين الدين أنر (وصي دمشق) عند الصخرة فجاءه فرنجي وسأله : " تريد تبصر الله صغيرا " (هكذا) ؟ قال نعم ، فمشى بين أيدينا حـــتى أرانا صورة مريم والمسيح عليه السلام صغير في حجرها ، فقال : " هذا الله صغير (هكذا) (٥) .

ويقول العماد في معرض حديثه عن صفد : " وطالما مكث فيها المشركون ، وقالـــــوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا ، تكاد السموات يتفطرن وتنشق الارض وتخــــر الجبال هدا " (٦) .

وهم يعتقدون أن عيسى عليه السلام — قد صلب في كنيسة القمامة ، ودفن بعد الصلب ، ثم قام بعد ثلاث من القبر ، وصعد الى السماء ، وقد مثلوه على خشبة مصلبة ، وأخذوا يعبدونه ويتقربون به الى الله ، يقول ابن الاثير في رسائله " ولطالما أبتهلوا عنده أيام الحصار ، واستنصروه فليحظوا منه في معرفة الانتصار (٧) " وفي معركة حطين ، وقع الصليب الذي كان الفرنـــج

---

(١) ديوان طلائع بن رزيك ٦٣
(٢) جوانفيل ، القديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام ص ٨٩ ، ترجمة حسن حبشي
(٣) صبح الاعشى ١٣ / ٣١٣ ، وابن الفرات ٧ / ١ / ٢٢
(٤) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ورقة ٩١ مخطوط
(٥) اسامه بن منقذ ، الاعتبار ص ١٣٥
(٦) العماد ، الفتح القدسي ص ٢٦٩ ، وأنظر المغني ٢ / ٢١١ ، العماد في الفتح ١١٨ — ١١٩ وعقد الجمان ق ١ ج ١٧ ص ٩٣
(٧) ابن الاثير ، رسائله ص ١٥٢

يرون أنه الصليب الحقيقي ، في أيدي المسلمين وفي ذلك يقول ابن سناء الملك (١) :

ظلّ معبودهم لديك أسيرا ، مستضاما ، فأجعل له النار سجنا
صلبوا ربهم فلم يغن عنهم ، مَن رئي بعد صلبه قط أغنى

بل لقد تحداهم ابن مطروح بأن يعودوا الى مصر ، فيلقوا مصيرهم المحتوم ، ومصير قائدهم لويس التاسع ، واذ ذاك سيسر عيسى عليه السلام :

ردّك الله الى مثلها ، لعل عيسى منكم يستريح
ان كان باباكم بذا راضيا ، فرب غبن قد أتى من نصيح (٢)

وقد ذكر ابن منير (٣) ، قبل ذلك أن عيسى عليه السلام يستنجد بنور الدين ليخلصه من شرور الغزاة :

حتى نرى عيسى من القدس قد ، لجا الى سيفك مستنصرا

وكثيرا ما يعرض الشعراء المسلمون لموقف الصليبيين من السيد المسيح وعقيدتهم منه ، ومن ذلك قول طلائع بن رزيك (٤) : ابعد الناس عن عبادة ربّ الناس قوم إلههم مصلوب (٥)

ويقول راجح الحلي في تسميتهم بعباد عيسى :

أعباد عيسى ، ان عيسى وحزبه ، وموسى جميعا يخدمون محمدا (٦)

والجدير بالذكر ، أن عيسى وموسى المشار اليهما هما أخوا الملك الكامل محمد ، المذكور في نهاية البيت ، ويقول ابن مطروح مخاطبا الملك الفرنسي لويس التاسع :

آجرك الله على ما مضى ، من قتل عباد يسوع المسيح

ويقول الشهاب محمود (٧) :

أغضبت عباد عيسى اذ أبدتهم ، لله أي رضى في ذلك الغضب

وأما تسميتهم بعبدة الصليب ، فقد جاءت عند العماد في معرض كنيسة اللاذقية يقول " : " وزينت لاخوان الشيطان ، وعينت لعبدة الصلبان (٨) " ، كما جاء في عقد الجمان في معرض حديثه عن ملك فرنسا ، حيث وصل الى عكا في ست بطس ملعونة ، بعبدة الصلب مشحونة (٩) " وجاءت في كتاب الفاضل الى صلاح الدين يحثه على قتالهم " والى أن يعرضهم على الجذوع صلبا فيكونوا عبدة صلبان كالصلبان والى أن يعرقهم في دمائهم في طوفان (١٠) " .

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ٨١٦ (٢) ديوان ابن مطروح ص ١٨١
(٣) مفرج الكروب ٢ / ١١١ ، الكامل ١١ / ٢٠٦ (٤) ديوان طلائع بن رزيك ٦٢
(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ١٢ / ٩٥ ، وفي السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٠٦
(٦) ديوان ابن مطروح ص ١٨١
(٧) جواهر السلوك ورقة ٦٠ مخطوط ابن الفرات ٨ / ١١٦
(٨) الفتح القسي ص ٢٢٨ ، وانظر الروضتين ٢ / ١٨٣ ، ٢١٥
(٩) العيني ، عقد الجمان ق ٨ ج ١٧ ، ق ١ ورقه ١٠٦ مخطوط
(١٠) ابن نباته ، الفاضل من كلام القاضي الفاضل ورقه ٦٦ مخطوط

وقد وردت هذه التسمية في الشعر ــ أيضا ، يقول فتيان الشاغوري في معرض مدحه صلاح الدين :

لله يوسف كم أغاث وغاثـــــا   وأباد من عبدالصليب وعاثـــا (١)

وقد وصفوهم أيضا عباد الأصنام ، ومن ذلك ما جاء في تقليد العادل أخي صلاح الدين حكم مصر والشام وحثه على قتال المشركين " إن في ذلك حسم لمادة الأطماع في بلاد الاســلام ، ورد لكيد المعاندين من عبدة الاصنام (١) .

وقد أبرز الادباء المسلمون تعظيم الفرنج لكل ما يتعلق بالسيد المسيح كما يعتقدون فيه حسب رأيهم ، وكذلك تعظيمهم للصليب ، والاماكن التي ترتبط بعقيدتهم .

أما تعظيم للصليب ، فقد أطال الأدباء الوقوف عنده ، لأنه مرتبط بعقيدة النصارى عامة ، فهو رمز للخشبة التي صلب عليها السيد المسيح ، كما يرون ، وله عندهم قيمة كبيرة فاذا كانوا في معركة ، التجأوا اليه يستنزلون النصر من عنده ويرجون منه الفوز .

يقول الفاضل في معرض حديثه عن أسر ملك القدس " .. وبيده أوثق وثائقه ، وآكد وصلة بالدين وعلائقه ، وهو صليب الصلبوت ، وقائد أهل الجبروت (٢) " ، ثم يذكر أهميته لديهم في المعركة فيقول " .. فيقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عقد وأوثقه ، ويعدونه سورا تحفر حوافر الخيل خندقه " (٣) .

وقد أورد العماد هذا المعنى في معرض حديثه عن معركة عكا وذلك حين يقول " وأصبح الفرنج ... وقد رفعوا الصلبان ، وزحف أسودهم في غاب المران ، ودارت فيه أعلامهم عقبانا على عقبان " فيحفون حول الصليب " .. ويطوفون دونه القسوس ، ويطالبون به النصر " (٤) ولهذا فلا غرابة في اعتنائهم به ، واعظامهم لحامله ، وكأنه الملك ، بل إن مصابهم به أعظم ، يقول العماد : " وهو الذي اذا نصب وأقيم ورفع ، سجد له كل نصراني وركع ، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، فهو معبودهم ومسجودهم ، وقد غلفوه بالذهب الأحمر ، وكللوه بالدر والجوهر ... فاذا أخرجته القسوس ، وحملته الرؤوس ، تبادروا اليه وانثالوا عليه ، ولا يسع لاحد منهم عنه التخلف ، ولا يسوغ للمتخلف عن أتباعه في نفسه التصرف وأخذه أعظم عندهم من أسر الملك ، وهو أشد مصاب لهم في ذلك المعترك (٥) .

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري ٦٩

(١) صبح الاعشى ١٠/١١١

(٣) صبح الاعشى ٦/٤٩٩ ــ ٥٠٠ و ٨/٢٨٤ وانظر الروضتين ٢/٧٩ ، ٨٩ ، ١٨٦ وانظر الانس الجليل ١/٣٤٧

(٤) الفتح القسي ، ٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٨٤

(٥) الفتح القسي ، ٣٨٨ ، ٣٩٧ ، ٨٤ ، وانظر حملهم الصليب في الروضتين ج١ ق ١ ، ١٥١ وانظر الكامل ١١/٥٣٥

وأما رفعه على الأماكن، فقد كانوا يختارون المكان المشرف ليشاهد فيه ، وفي هذا تعظيم له ، وقد ذكر ابن شداد في فتح القدس أنهم وجدوا الصليب على قبة الصخرة وكان شكله عاليا (١)، وهذا ما حدث فعلا حين دخلوا مدينة الجسر ، فسلم كل واحد منهم صليبه على دار ، وركز عليها رايته ، والراية عندهم قطعة قماش بيضاء ملصقة بالصلبان الحمراء ، ومن دلائل تعظيمهم للصليب ، أيضا ، أنهم يحلفون به بعد الله والمسيح ، ثم يكررون الحلفة بعد الاقانيم الثلاثة ، وقد جاء ما يثبت ذلك في نسخة يمين حلف عليها الفرنج وهي " والله ، والله والله ، وبالله ، وبالله ، وبالله ، وتالله ، وتالله وحق المسيح ... وحق الصليب وحق الصليب ، وحق الصليب ، وحق الاقانيم الثلاثة من جوهر واحد ،(٢) ، المكنى بها عن الاب والابن والروح القدس ، اله واحد ، وحق الصليب الكرم الحال في الناسوت ... " .

وقد أشار الشعراء الى هذا التعظيم ، ومنهم ابن القيسراني الذي عاش بينهم فترة من الزمن ، خبرهم خلالها ، وتبين بعض عاداتهم ، ومنها تعظيم الصليب ، يقول (٤) :

أمعظمة الصليب ودت أنني	ودين الله عندكم صليب
إذا أتيلت تبلني حبيب	أسرته وعانقني حبيب

وقد عظموا كذلك المكان الذي اعتقدوا أنه صلب به ، وهو كنيسة القيامة ، لأنهم يعتقدون ان المسيح صلب فيها ، وحل اللاهوت بالناسوت فيها أيضا ، يقول العماد نقلا لما كانوا يعتقدونه في تلك الكنيسة " وفيها صلب المسيح ، وقرب الذبيح ، وتجسد اللاهوت ، وتأله الناسوت ، واستقام التركيب ، وقام الصليب ، ونزل النور ، وزال الديجور ، وازدوجت الماهية بالأقنوم ، وامتزج الموجود بالمعدوم (٥)

ومن الأسباب التي جعلتهم يعظمونها ، اعتقادهم بان النور ينزل من السماء فيها ، وقد روى ابن واصل أنه شاهد هذه " الشاذلة " في كنيسة القيامة بعد يوم الفصح ، ويقول " ويزعمون أنها تقع في كل سنة في هذا المكان ، وفي كل سنة في اليوم الذي يليه يوم فصحهم (٦) " وكذلك اعتقادهم أنها مكان القبر ، يقول العماد على ألسنتهم " ... فهذه قمامتنا فيها قامتنا ، ومنها تقوم قيامتنا ، وتصح ندامتنا ... "(٧)

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ٨٢
(٢) الاعتبار ص ١٨٤
(٣) صبح الاعشى ١٣/ ٢١٣ ، وأنظر الفتح ٥٥٦
(٤) ديوان ابن القيسراني ، ورقه ٦٤ مخطوط
(٥) الفتح القسي ١١٨
(٦) مفرج الكروب ٢ / ٢٣١
(٧) الفتح القسي ١١٨

ومما جعلهم يعظمونها أيضا ، احتواؤها على مجموعة من الصور الدينية " ففيها صور الحواريين في حوارهم ، والأحبار في أخبارهم ، والرّهابين في صوامعهم ، والاقساء في مجامعهم"[1] ، وقد أضافوا اليها بعض التماثيل ، وملؤوها بصور ومنها صور الشام الموسومة في الرخام .

لذا لم يكن مستغربا أن يبذل الافرنج ما بذلوه للمحافظة عليها ، والدفاع عنها ، لأنهم يعتقدون أن كرامتهم من كرامتها ، وسلامتهم من سلامتها ، واذا ما تخلوا عنها " لزمت لأمتنا ، ووجبت ملامتنا "[2] بل لم تطب نفوسهم بفراقها حين استعادها صلاح الدين وقالوا " دون مقبرة ربنا نموت وعلى خوف فوتها منا تفوت (٣) " .

ومن الطبيعي بعد هذا التعظيم أن يقدسوا ترابها ، ويستنصروه في أوقات المحن ، يقول ابن الأثير ، " فمن حب ذلك التراب تقوم قيامتهم ، وتشيل نعامتهم ، ولطالما ابتهلوا عنده أيام الحصار ، واستنصروه فلم يحظوا منه بمعونة الانتصار (٤) "

وقد أضفى الفرنج هذه القدسية على بيت المقدس عامة ، لأنه " بيت معبودهم ، ومحل تجسد ناموسهم كما زعموا بلاهوتهم (٥) " وفيه كنيسة القيامة التي يعتقدون أن المسيح دفن فيها بعد صلبه ..

ولم يكن تقديس الفرنج للقدس وقفا على من تقدم منهم ، بل لقد عظمها الفرنج في صقلية وفي أوروبا ، واشتروا قطعا من صخرتها بوزنها ذهبا كما قيل (٦) .

وقد استنصر الفرنج بالقدس وكنيسة القيامة ، واعتصموا بها بعد أن كسرهم صلاح الدين في موقعة حطين ، فالتجأوا اليها " كل شريد منهم وطريد ، واعتصم بعصمتها كل قريب منهم وبعيد وظنوا أنها من الله مانعتهم ، وأن كنيستها من الله شافعتهم (٧) " .

وهم لهذا يفدونها بأنفسهم ، بل يرون أن الموت أيسر عليهم من أن تقع في قبضة المسلمين ، مما جعل صلاح الدين يدور حول المدينة خمسة أيام لاختياره المكان المناسب للهجوم ، ولكنه لم يجد ثغرة يدخل من خلالها ، وأخيرا جاءه وفد من الفرنج يطلب منه السماح لهم بمغادرتها بسلام ، وهددوه ان لم يجب دعوتهم ، وقالوا كل واحد منا بعشرين وكل عشرة بمئتين "(٨) .

---

(١) الفتح القسي ١١٩
(٢) الفتح القسي ١١٨ ، الروضتين ٩٢/٢
(٣) الفتح القسي ١١٩
(٤) ابن الاثير ، رسائله جمعها أنيس المقدسي ، ١٥٦
(٥) مفرج الكروب ٢١١/٢ ، الكامل ٥٤٧/١١
(٦) الانس الجليل ٣٣٩/١ ، الروضتين ١١٣/٢
(٧) صبح الاعشى ٥١/٦ ، ٢٨٤/٨ ، وأنظر الانس الجليل ٣٤٢/١
(٨) الروضتين ٩٤/٢ ، وأنظر مفرج الكروب ٢١١/٢ ، الكامل ٥٤٧/١١ ، الانس الجليل ٣٣٩/١

وقد عظّم الفرنج بعض المدن الاخرى مثل : عكا والرها ، يقول القاضي الفاضل عن عكا " وهي قسطنطينية الفرنج ، ودار كفرهم ، أبدلها الله أسلاما ، وخلع عنها الشرك البالي، وخلع عليها من التوحيد أعلاما (١) " ووصفها العماد بأنها مركز ملكهم ، ومحور تجمعهم من البر ومن البحر .

وأما الرها فهي من أشرف المدن عند النصارى ، وأحدى المراكز الهامة عندهم ، وقد قاتلوا فيها قتالا شديدا وما أستطاع عماد الدين فتحها الا بنارين الحرب والخدعة كما يقول ابن القيسراني :

فأضرمها نارين : حربا وخدعة   فما راع إلا سورها وأنهداده (١)

وحين سقطت بيد عماد الدين ثم بيد أبنه من بعده ، كانت مفتاحا لفتح البلاد الأخرى يقول أبن القيسراني :

وقل لملوك الكفر تسلم بعدها   ممالكها إن البلاد بلاده (٢)

ويقول الشهرزوري :

فتح الفتوح مبشرا بتمامه   كالفجر في صدر النهار الأيسر (٣)

ويقول ابن منير :

وغداً يلقي على القدس لها   كلكل يدرسها درس الدرين (٤)

وما يتصل بمعتقداتهم تعظيمهم لرجال الدين : البابا ، والبطرك ، والقس ، والرهبان وقد بين الادب أهمية بعضهم ، فالبابا يخطط لغزو البلاد الاسلامية في الشرق ولو أزهقت الارواح وأنفقت الاموال . .

ورام بابا هم أمورا   فما خلقت لها المقادر (٥)

وأما البطرك فله شأن خاص لأنه مرافق للجيوش ، ومطبق للدين ، فهو معلم أيامهم عقيدتهم ، كما يروى ابن واصل (٦) ، فقد ذكر أنه شاهد مجموعة من الفرنج تعكف على القبة الصغيرة التي فيها القبر .. حتى كان وقت الظهر أو بعده ، فوصل البطرك القبة وأخرج شمعة موقدة ، وزعم أنها من القنديل الذى أشتعل بالنور المنزل من السماء ، وقام الموجودون بأشعال الشموع الهارن من تلك الشمعة ، دون أن يسمحوا لانفسهم بالتفكير في النور النازل من السماء ، دون أن يروه وكيف يسمحون لانفسهم بذلك وهو عندهم بمنزلة تفوق منزلة الملك (٧) .

---

(١) الروضتين ٢ / ١٤

(٢) الروضتين ج١ ق ١ ص ٩٧

(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٩٨

(٤) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٠٦

(٥) فوات الوفيات ١ / ٨٤

(٦) مفرج الكروب ٢ / ٢٣١

(٧) المصدر السابق ٢ / ٢١١ ، الكامل ١١ / ٥٤٧

ويلتقي دور البطاركة مع دور القساوسة في التحريض على القتال والسير أمام المسلمين ، وقد ظهر هذا الدور بجلاء في حصار عكا سنة ٥٨٦ ، اذ قام المصورون برسم صورة قبر المسيح وعليه فارس مسلم يطؤه ، وعمد رجال الدين الى أظهار هذه الصورة " وراء البحر في الاسواق والجامع ورؤوسهم مكشوفة وعليهم المسوح " (١) وقد أثرت هذه الصورة في نفوس النـــاس تأثيرا كبيرا ، فهاج بذلك خلائق كثيرة ،وتجهزوا في جميع مناطقهم بالمراكب والكتائـــب ، وخرج الاساقفة طاعة لقسيسهم ، وأمثالا لأمر مركيسهم ، وغيرة لمتعبدهم ، وحمية لمعتقدهم وتهالكا على مقبرتهم وتحرقا على قمامتهم"(٢) "

ومما قدمه رجال الدين للحركة الصليبية ، ما قام به أحدهم في أنطاكية سنة ٤٩٢ هـ والمسلمون محدقون بهم ، اذ اخفى حربة وأخبرهم ان الحربة المقدسة مدفونة قرب أنطاكية وأنهم ان وجدوها فسيكون النصر لهم ،وحين وجدوا تلك الحربة ، عادت اليهم ثقتهـــم ، وحاربوا المسلمين وهزموهم ٠ (٣) ٠

وحين أسر صاحب شقيف أرنون مع من أسر من الملوك في معركة حطين ، قام صــلاح الدين بمحاصرة بلده ، وأصطحبه معه ليأمر من بها فيسلمها الى صلاح الدين مقابل اطـلاق سراحه " فخرج اليه قس قامه باسر عن باس ، فحادثه بلغته ، وناقشه في كارثه بخلـــه وتحاوروا في السر ، وتشاوروا في الشر ، وكأنما أمره بالتجلد ، وصبره على التشدد (٤)

وأما الرهبان فقد قام بعضهم بدور عسكري ،وانقطع آخرون الى الرهبنة ، ويصــف ابن الاثير في رسائله جماعة منهم فيقول " ومنهم طائفة استشعرت حبس نفوسها ٠ - وقصصت الشعر عن أوساط رؤوسها ، وتوحشت بالرهبانية حتى أرتاعت من أشكالها ولبوسها (٥)

هكذا وصف الأدب العربي معتقداتهم ، فهم يعتقدون بالأقانيم الثلاثـــــة ويعظمون ما يتصل بها من أشياء وأماكن وأشخاص ، ولهذا وصفهم الادباء العرب بالشرك في مواطن كثيرة جدا حتى لا يكاد يوجد ديوان يخلو من هذا الوصف تصريحا أو تلميحـا ، يقول ابن الخياط في معرض مدحه أحد مقدمي دمشق

الى م وقد زخر المشركـــــون	بسيل يهال له السيل مــــدّا(٦)

ويقول ظافر الحداد في مدح الامام الآمر (٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ)

لا بد للشرك من يوم تميد لـه	فيه سيوفك فعل الريح في عاد (٧)

---

(١) الروضتين ١٧٢/٢ (٢) المصدر السابق ١٦١/٢
(٣) الكامل ٢٧٧/١٠ ، من تاريخ الحروب المقدسة ١٢٢/١
(٤) الفتح القسي ٢٨٨
(٥) رسائل ابن الاثير ، جمع انيس المقدسي ص ١٥٤
(٦) ديوان ابن الخياط ١٨٤ وانظر ٢٢٩
(٧) ديوان ظافر الحداد ١١٣

يقول ابن القيسراني :

حتى اذا ما احاط المشركون بنـا ... كالليل يلتهم الدنيا له ظلـم
وأقبلوا لا من الأقيال في عـدد ... يؤد حاسبه الاعياء والسأم (١)

ويطول المقام لو توقفنا عند كل مثل *، وكما وصفوهم بالشرك وصفوهم بالكفر، وقد جاء هذا الوصف في مواطن كثيرة أيضا ، منها قول ابن دنينير :

بدد ت جمع الكفر وهو مؤثـل ... منهم بحزم في الأمور رشيد (٢)

وقوله :

وأمحق الكفر حتى ذل جانبـه ... والأرض قد آذنت منه بإلحـاد (٣)

وقول ابن سناء الملك مادحا صلاح الدين :

أقام بدار الكفر تجبى له الجـزا ... وتودى له القتلى وتسبى لها الجنى (٤)

وقوله :

لقد أصبح الاسلام والكفر كلمـا ... بنيت لذا ركنا هدمت لذا ركنـا (٥)

ويقول أسامة مخاطبا طلائع على لسان نور الدين ، ذاكرا فتوحاته ، وانتصاراته على الفرنج :

فلما استمددناها من الكفر عنـوة ... ولم يبق في أقطارها لهم أثـر
رددنا على أهل الشآم رباعهـم ... وأملاكهم فانزاح عنهم بها الفقر (٦)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤١

* وانظر ما يلي عقد الجمان ج ٢٢، ق ١ ، ص ١١٦ ، وديوان ابن القيسراني ورقة ٧١ مخطوط ، والروضتين ٢ / ١١٦ ، والخريدة قسم مصر ج٢ ، ١٧١ وديوان ابن دنينير ص ٢٠ ، ١٥ ، ١٧٤ وانظر ديوان ابن التعاويذي ٢٤ ، وديوان علم الدين ايدمسر المحيوي ، ١٥ ، وديوان الصاحب شرف الدين الانصارى ، ص ٣٩٦ وديوان ابن فتيان الشاغوري ٦٩ ، ٢١٨ ، ٤٢٨ ، وديوان ابن الدهان ٢٢ ، وانظر الروضتين ج١ ق ١ ص ١٤١ ، ١٨٠ ، ٢١٦ ، ج١ ق ٢ : ٣٥٧ ، ٣٧٢ ، ٤٠٤ ، ٥٢٩ ، ٦٤٣ ، ٦٩١ ، ٧٠٣ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٣٢ وانظر الخريدة قسم شعراء دمشق ٢٨ : ٤٠ ، ٥٩ ، شعراء الشام ج١ ، ١٧٩ ، ٢٧٧ ، ج ٢ / ٢٨٣ وانظر قسم مصر ٢ / ٢٣٢ ، وانظر ابن الفرات ، مجلد ٤ ج ١ ، ٣٩٢ ، ٤٥ ، مجلد ٤ ج ٢ ، ٢٥٧ وانظر الفتح ٢٥٣ ، ٢٦٩ ، ابن الاثير ١١ / ٤٥٥

(٢) ديوان ابن دنينير ورقة ٢٠

(٣) المصدر السابق ورقة ٨ وأنظر ١٧٦٥

(٤) ديوان ابن سناء الملك ٧٥٨

(٥) المصدر السابق ص ٧٥٩ ، انظر ٢٨٣ ، ٢٥ ، ٥٤٦

(٦) ديوان اسامة بن منقذ ٢٠٥ وانظر ٢٠٣

وقول طلائع من رسالة شعرية يمثها الى أسامة طالبا منه حث نور الدين على الجهاد :

وأهم الأمور أمر جهاد الكفر فاسمع فعندنا التحقيق
واصلتهم منا السرايا فأشجاهم بكور منا لهم وطروق (١)

وقول ابن عنين في رثاء الملك المعظم عيسى :

أجليت ليل الكفر عنها فانطوى — وأنرت في عرصاتها فجر الهدى
ولقد شهدتك يوم قيساريّة — والشمس قد نسج القتام لها ردا
والكفر معتصم بسور مشرف الأبراج — أحكم بالصفيح وشيّدا
فجعلت عاليها مكان أساسها — وألنت للأخشاب فيها الجلمدا (٢)

ويقول بهاء الدين زهير :

بكم اهتز عطف الدين في حلل النصر — وردت على أعقابها ملة الكفر (٣)

ويقول شهاب الدين محمود في فتح آخر معقل لهم وهو عكا :

لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت — في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب (٤)

ويقول البوصيري في المنصور قلاوون :

لقد جهلت داوية الكفر بأسه — وغيرهم بالمسلمين غرور (٥)

وقوله :

قد أخذ المسلمون عكا — وأشبعوا الكافرين صكّا (٦)

ويقول شرف الدين الأنصاري :

من بعد ما حاد أملاك الطوائف عن — حفظ البلاد وألقوا بالمقاليد
رجا بنو الأحد الكفار عودهم — بالفوز عن ربّ إخلاص وتوحيد (٧)

وأما في النثر فثمة أمثلة كثيرة أيضا ، ومنها قول العماد " وبات الاسلام للكفر محاربا ، والتوحيد للتثليث مقاتلا ، والهدى للضلال مراقبا ، والايمان للشرك محاربا " وقوله أيضا عن رتشارد " ولما حضر الكافر عقر وكفر ، وتروى ساعة وتفكر ... " وقوله في فرنج جبلة ، وتحصن الكفرة من الحين ، ولجأوا في الحين الى التحصين ... " (٨) ، والأمثلة كثيرة يصعب احصاؤها (٩) .

---

(١) ديوان طلائع ١٠٣ ، وأنظر ١١٦ ، ١٣٥ ، ١٤١
(٢) ديوان ابن عنين ص ٦١
(٣) ديوان بهاء الدين زهير ص ١٢١
(٤) جواهر السلوك ص ٩٥ ، ٢٢١
(٥) ديوان البوصيري ص ٦٦
(٦) ديوانه ص ٢٢١
(٧) مفرج الكروب ٤/٢٠٥
(٨) الفتح القسي ٧٨ ، ٢٢٩ ، ٢٢٣
(٩) انظر على سبيل المثال المصادر التاليه : ديوان ابن النبيه ٦٦ وديوان ابن مطروح ١٨٢ وديوان ظافر الحداد ٣٦ ، ١١٧ ، ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري ٥٠ ، ٢٨٢

وما دام شأنهم كذلك ، فقد تبرأ الادب من عقيدتهم هذه بألفاظ التنزيه لله عز وجل (١) ، واستخف آراءهم ، وبين أخطاءهم بالحجة الدامغة والأدلة المقنعة ، وطالبهم بإثبات الأدلة على أقوالهم ، لأنه بإمكان كل فرد أن يقول ما يشاء ، ولكن هذا القول لا يصدق إلا بدليل مقنع ، يقول البوصيري :

والدعاوى ما لم تقيموا عليهـــا بيّنات أبناؤها أدعيـــاء
ليت شعري ذكر الثلاثة والـــوا حد نقصٌ في عدكم أم نمـــاء
كيف وحدتم إلهاً نفى التوحـــيد عنه الآباء والابنـــاء
أ إلهٌ مركب ما سمعنـــا بإله لذاته أجـــزاء (٢)

فهو يستند الى تاريخ عقيدتهم حيث كان آباؤهم يؤمنون بأن الله تعالى مكوّن من أجزاء بينما هم يوحّدون هذه الاجزاء ، ثم يستند الى دليل منطقي في أثبات خطئهم ، وهو أن الله لا يجزأ ، ولا يجوز عليها النقص ، وبذلك لا يكون إلهاً ، ثم يجادلهم في قولهم ، ليرى الى أي حد ينتهون ، فيسألهم بأسلوب شعري سهل ، عن توزيع الملك بين أصحابه ، إن كانوا صادقين ، يقول :

ألكلٍّ منهم نصيب من الملـــك فهلّا تميّز الأنصبـــاء
أم هم حللوا بها شركــة الأشـ......... وإن أم هم لبعضهم كفـــاء
أتراهم لحاجة واضطـــرار خلطوها وما بغى الخلطـــاء
أم هو ابن لله ما شاركتـــه في معاني النبوة الانبيـــاء

ثم يبين تناقضهم بين أمرين ، فهم يقولون إن السيد المسيح إله ويقولون في الوقت نفسه إنه قتل ، فكيف يجوز هذا ؟ .

قتلته اليهود فيما زعمتـــم ولأمواتكم به أحيـــاء

← وأنظر ديوان ابن الساعاتي ١/١٤٥ ، وعقد الجمان ج٢٠ ق ٤ ، ورقة ٧١١ مخطط الخريدة : (شعراء دمشق ٤١٤ ، ٩٥ ، شعراء الشام ٢٣٥ ، ٤٩٥ ، شعراء مصر ١/٦٩ ، ١٠٥ ، ٢٤٣ ، شعراء العراق ٢/١٤٧) ، الروضتين ج١ ق ١/١٥١ ، ١٨٦ ، ٢٧٢ ، وج١ ق ٢ ، ٣٦٩ ، ٤٠٤ ، ٤٤٤ ، ٤٦٩ ، ٤٦٦ ، ٥١٩ ، ٥٧٩ ، ٦٦٥
مفرج الكروب ٢/٥٧ ، ٣/٧٧ ، ٤/٢٢١
الكامل ١٠/٦٣ ، ١١/١٣٤ ، ١٨٦ ، ٣٠٤ ، ٥٣٢
الباهر ٢ ، تاريخ ابن الفرات مج٨/١١٤ ، ١١٨ ، النوادر السلطانية ٢٢
السلوك ج١ ق ٣ ، ٦٦ ، ٧٦٦ ، الاعتبار : ٣٦ ، ١٢٥
النكت العصرية ٢٦٩ ، ٣٠٠ ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ٦٧
تاريخ ابن القلانسي ٣٤٣ ، الصاد ، الفتح القسي ، ٥١ ، ٧٨ ، ١٠٩ ، ١٧٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٩ ، ٣٠٨ ، ٣٧١

(١) الاعتبار ١٢٥
(٢) ديوان البوصيري ١٥ ، ١٢١ ، ١٢٢

ويتابع البوصيري حجاجهم فيسأل إن كان المسيح قد قتل حقا ، فمن ذا الذي يدبر الوجود ؟

يا ليت شعري حين مات بزعمهم — من كان بالتدبير عنه كفيلا
هل كان هذا الكون دبر نفسه — من بعده أم آثر التعطيلا ؟

والملاحظ أن البوصيري قد استند الى أدلة عقلية وتاريخية ودينية في جدله ومحاوراته . وفي المقابل أتهم الفرنج المسلمين بأنهم وثنيون ، ويلاحظ ذلك من قصة التاجر نور الدين علي ومريم الزنارية (١) ومع ذلك فقد وردت أوصاف لهم بأنهم يتسترون بالدين بل يتلاعبون بالنصرانية ، ومن ذلك ما يورده العيني عن الملك فردريك بأنه كان دهريا يتلاعب بالنصرانية (٢) ، ويؤكد هذا القول وصف فيشر له بأنه شخصية ملؤها التقلب والحيلة ، اذ كان يصطنع المسلم واليهودي وكان يظهر بمظهر الرجل الشرقي ، علما بأنه ألف كتابا أسمه : الادعياء الثلاثة (٣) ، وقصد بهم الانبياء موسى وعيسى ومحمدا صلوات الله عليهم .

ولم يتوقف أدب هذه الفترة الخاص بصراع العقائد عن الوصف المجرد ، بل تعدى ذلك الى السخرية والاستهزاء ، لا سيما بعد أن توالت الهزائم على الفرنج ، كما وصفهم الادباء بالحمق والكذب في تعاملهم مع الناس في شؤون العقيدة ، وقد عقب ابن واصل على اعتقادهم بنزول النور من السماء بقوله " ولقد كذبوا وافتروا ، وإنما هو تدليس وتلبيس مع بطاركهم ، يغوي به ضعاف العقول ، ويستدرجهم الى ضلالتهم وغيهم " (٤) * ، ومن هذا القبيل تعليل العماد لاستجابتهم للرهبان والقساوسة الذين يحملون صورة قبر المسيح عليه فارس عربي يقول " وللصور عمل في قلوبهم ، فانها أصل دينهم (٥) .

على أن النظرة الى معتقداتهم تبرز بشكل واضح حين تقارن مع العقيدة الاسلامية ، وهذا ما حرص عليه الادباء في شعرهم ونثرهم ، فقد علل العماد سبب فظاظتهم وشناعتهم بأن الشيطان تولاهم " فلا ينزع الحديد لوضوء ولا مسح ، واستشعروا لبوس البوس ، فلم يلبسوا وجها الا مزوود الشفاه على القطوب بلا بشر ولا فرح .. قد نزع الله الرقة من قلوبهم ونقلها الى غروبهم (٦) .

---

(١) ألف ليلة وليلة ج ٦ ، ص ٢٣٣ ، والقصة في ج ٦ / ١٩٩ ـ ٢٥٣ ، ج ٧ ص ١ ـ ٣٠
(٢) عقد الجمان ج ١٨ ق ١ ورقه ٨٣ (٣) فيشر ، تاريخ اوربا ج ١ ص ٢٥٠
(٤) مفرج الكروب ٢ / ٢٣١ ، ٢١١
* لمزيد من الامثلة أنظر الخريدة (شعراء مصر) ٢ / ١٧١ ، ديوان ابن سناء الملك ٢٥ الكامل ١١ / ٤٤٧ ، ١٢ / ٣٣٠ ، الروضتين ٢ / ٧٢ ، ١٠٣ ، ١١١ ، ١١٦ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٥١ ، ١٦٠ ، ١٧٢ ، ١٩٤ ، ج ١ ق ١ / ١٤١ ، ١٩٢ ، ٢٠٦ ، ٢٢٩ ، الفتح ٣٧١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٥ ، ٥٨٠ ، مفرج الكروب ٤ / ٩٧
(٥) الروضتين ٢ / ١٦٠
(٦) الفتح القسي ٥١

ومن المقارنات بين العقيدتين قول العماد في بشرى الى الديوان العزيز ببغداد " فالحمد لله الذي أعاد القدس الى القدس ، وأعاده من الرجس ، وحقق من فتحه ما كان في النفس ، وبدل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالأنس ، وجعل غد يومه ماحياً ذل أمس ، وأمكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهال والضلال ... "(١) * . ومن ضلالهم وجهلهم اتخاذ المسجد الاقصى اسطبلاً للخنازير ، ومأوى للخنا والقذارة ، يقول العماد في ذلك " وكان الاقصى لا سيما محرابه مشغولا بالخنازير والخنا ، مملوءا بما أحدثوا من البناء "(٢) . في حين إنه لم ينقل عن المسلمين أعمال مقابلة بالنسبة الى أماكن المسيحيين المقدسة بعد أن استعادوا القدس ، فلا غرابة اذن في أن يصف الادباء العرب الفرنج بالأمم الطاغية ، وأن يتلمسوا علاقات مشابهة كثيرة بينهم وبين الامم الطاغية القديمة ، مثل قوم فرعون وقوم ثمود ، وقد جاءت المقارنة بين الفرنج وهذه الامم من ناحية الطغيان والتعدي على الآخرين ، وعدم الاتعاظ بما سبق من أحوال الماضيين ، وكذلك في النتيجة ، فكما أن أتباع فرعون وثمود كانت نتيجتهم التدمير فان الفرنج كانت نتيجة أعمالهم الدمار ، وكما أن نتيجة الانبياء النصر فان نتيجة أعمال القادة المسلمين مثل نور الدين وصلاح الدين وغيرهما هي النصر أيضا .

ومن أمثلة تشبيههم بفرعون قول ابن دنينير ، وقد أنتصر المسلمون في دمياط :

فرعون كفرهم طغى فأتاهم   موسى الاغراق ببحر جنود (٣)*

وقول ست الفخر مغنية الاشرف ، تمدحه وتذكر كسرة الفرنج :

ولما طغى فرعون عكا وقومه   وجاء الى مصر ليفسد في الأرض
أتى نحوهم موسى وفي يده العصا   فغرقهم في اليم بعضا على بعض (٤)

---

(١) الروضتين ١/٩٧   (٢) الروضتين ١/٩٦

* لمزيد من الأمثلة أنظر : ديوان ابن دنينير : ورقه ١٠ ، ١١ ، ٤٠ ، ٤١ ديوان ظافر الحداد ص ٦٢ ، ديوان ابن الخياط ٢٥٩ ، ديوان فتيان الشاغوري ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ديوان ابن عنين ٦١ ، الخريدة (قسم الشام ١/١٥٥ ، ١٨٧ ، ٤٢٢ ، الفتح القسي : ٥١ ، ٩٦ ، ١٠٨ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ قسم شعراء دمشق ٥٩/١٩ ، قسم مصر ١٠٦ ، الروضتين ١/١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١١ عقد الجمان ج ٢١ ، ق ١ ورقه ١١٦ ، الذيل على الروضتين ١٢٩ ، ١٣٠ الروضتين ج ١ ق ١ ، ٥٤٦ ، ج ١ ق ٢ ، ٧٠٣ تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ١ ص ٦٣٩

(٣) ديوان ابن دنينير ورقه ٢٠

(٤) مفرج الكروب ٤/١٠٥ ـ المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ١٠٩

وهنا نلاحظ علاقة مشابهة أخرى وهي المكان ، فالمعروف أن فرعون هو حاكم مصر الذي بنى على قومه وأضلهم ، وحارب نبي الله موسى عليه السلام ، فجعله الله عبرة للناس إذ أغرقه وقومه ثم قذفه البحر وحده .

وتشير الأبيات السابقة الى هذا المعنى تقريبا ، فقد شن الفرنج من عكا الى دمياط وقاتلوا المسلمين وحولوا المساجد كنائس ، ثم عرض عليهم الكامل تنازلات كثيرة فأبى فرعونهم قبول تلك التنازلات فكانت نتيجته الهزيمة الساحقة .

وهناك علاقة أخرى وهي التشابه في الاسماء ، فالمنتصر زمن فرعون هو النبي موسى عليه السلام ، والمنتصر زمن فرعون عكا هو الملك الاشرف موسى ، ولعل هذا التشابه سوغ للشعراء المصريين ذكر كلمة فرعون ، في حين لم أجد في شعر الشام من يشير الى فرعون وانما شبهوا الفرنج بثمود ، وشبهوا قائدهم بالرجل الذي عقر الناقة ، ومن ذلك قول ابن منير في مدح نور الدين بعد انتصاره على جوسلين :

ما زلت تنعم وهو يكفر عاتيـــــا	والله يهدم ما بنى الكفـــار
حتى أتاح لقومه ما جـــــــره	لثمود من عقر الفصيل قــدار (١)*

وبعد أن وصف الادباء الفرنج بالشراك وبالكفر وشبهوهم بالأمم الطاغية ، بينوا جزاءهم في الآخرة ، فهم مطرودون من رحمة الله ، مستحقون لعذابه ، ويصفهم العماد بأنهم ملاعين، يقول : " وهؤلاء — يشير الى الفرنج الذين احتلوا عكا سنة ٥٨٧ ثم ساروا الى القدس — الملاعين قد أنفذوا القصد ، وأعدوا لورود ورده (٢) واللعنة تعني الطرد من رحمة الله ، والمطرود من رحمة الله مصيرها النار . وقد تحدث الشعراء والكتاب عن مصير الفرنج الى النار ، ومن ذلك قول العماد فيما فعله نور الدين بالفرنج :

وملأت بالنيران أرضا أهلهـــــا	فتعجلوا الاحراق بالنـــــيران (٣)

---

* ورد في شعر ابن منير تشبيه نور الدين بموسى عليه السلام ، وذلك في معرض مدحه سنة ٥٤٧ حيث فتح انطرطوس يقول :

ان الالى أمنوا وتاعـاه بعدها	غروا وقد ركبوا الاغر غـــــــرورا
القى العصا فيهن أدالج ومن عصى	منهم وهو أرضهم قد صـــــيرا
لا يلمهم ان قد عنت وشنتهـــا	شعواء تصلي الكافرين سعـــــيرا

فالمقصود هنا القاء موسى عصاه على حيات السحرة ، ودلالة ذلك أن الفرنج على باطل كما ان السحرة على باطل ويشتركون في الهزيمة (الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢١٧) .

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ / ١٩٠

** لمزيد من الأمثلة أنظر الروضتين جـ١ ق ١ ص ١٨٦ ، ٢١٧ جـ٢ / ١٦٦ ، الخريدة ٤٩

(٢) الفتح القسي ٥٧٨ وأنظر ايضا ص ٢٩٠ ، ٥٦٨

(٣) الخريدة (شعراء الشام) ٥٩

وقوله أيضا في وصف ملك الالمان " فأنه عام في الماء البارد ، وتورط منه في أصعب الموارد ، وخرج وبقي مريضا الى أن خرج من ثوب البقاء ، وتحول الى فناء الفناء ، وتلقاه مالك بالزبانية ، وحملوه الى نار الله الحامية " (١) . ويقول في ابنه " وأدرك أباه في الدرك الأسفل من النار ، وأبصر في جهنم مصاير أمثاله من الكفار (١) " .

ومنه أيضا قول علاء الدين علي بن القاضي محي الدين الزكي في فتح صفد سنة ٦٦٤ هـ على يد الظاهر بيبرس " ووافاها والحصن وقد تزعزعت أركانه ، والكفر قد أنهدم بنيانه ، وشمر عن ساق الهزيمة شيطانه .. والمجانيق تزور حماهم ، وتلك الزيارة لشقائهم ، وتدمر بحجارتهما عليهم تدميرا ، وترميهم من بأسها يوما عبوسا قمطريرا ، وتصير بهم الى الهلاك ، وتعدّ لهم جهنم وساءت مصيرا " (٢) .

كما وصفوهم بالرجس لأنهم مشركون ، والمشرك نجس ، كما جاء في قوله تعالى : " إنما المشركون نجس " (٤) .

وقد جاءت هذه الصفة في الشعر والنثر * ومن ذلك ما وجد مكتوبا على عضادة محراب في مسجد بعد فتح الرها :

أصبحت صفرا من بني الأصفر ... أختال بالاعلام والمنبر
دان من المعروف حاني بمن ... ناء عن الفحشاء والمنكر
مطهر الرحب على أنني ... لولا جمال الدين لم أطهر (٥)

وجمال الدين هذا هو وزير حران ، وقد حثّ عماد الدين زنكي على فتح الرها وتم له ذلك سنة ٥٣٩ هـ ومنه أيضا وصف ابن جبير لعكا بأنها " تستعر كفرا وطغيانا ، وتفور خنازير وصلبانا ، زفرة قذرة ، مملوءة كلها رجسا وغدرة " (٦)

ومنه كذلك وصف العماد للفرنج القادمين من أوروبا عن طريق البحر .. " وألقى على تياره بسط البطس ، وحملوا على البحر أوزار النجس ، وتبا لهم وتعسا ، فأنهم زادوا على رجسهم رجسا " (٧) .

---

(١) الفتح القسي ، ٢٩٠ (٢) الفتح القسي ، ٤٦
(٣) ابن جبير ، رحلة ٢٧٦ (٤) سورة التوبة ٢٨

* لمزيد من الامثلة أنظر تاريخ ابن الوردي ٢ / ١٧٠ ، الفاضل من كلام القاضي الفاضل مخطوط ورقة ٣٦ — صبح الأعشى ٧ / ٢٦ — الفتح القسي ٥١ ، ١٥٤ ، ٢٠٦ ، ٤٠٣ ، ٤٦٠ ، ٥٠٠ ، ٥٨٩ ، ٦٠٨ — الروضتين ١ / ٨٧ — نهاية الارب ٥ / ١٥١ ومن أن جهنم مصير الكفار والمشركين كما جاء في آيات كثيرة ومنها " إنّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها " ، إلا أنهم دعوا الله أن يجعل عظامهم وقودا لها ، يقول القاضي الفاضل " وكان الكفر مفقودا والاسلام مولودا وجعل الله ضلوع الكافرين لنار جهنم وقودا " . صبح الأعشى ٦ / ٢٤٩

(٥) زبدة الحلب ج ٢ / ٢٧٥ (٦) رحلة ابن جبير ، ٢٧٦
(٧) الفتح القسي ٢٦٨ ، وأنظر ٥٨٠

من أجل ذلك طالب الادباء بتطهير المناطق من رجس المحتلين ، منذ أن بدأت ردة الفعل الاسلامية ، يقول ابن منير محرضا نور الدين على تطهير القدس :

آثارهم تجرأن آل المسجد الأ (م) قضى فضن ما دنسوه وطهر (١)

وقال الحافظ ابن عساكر مهنئا نور الدين سنة ٥٦٤ ومحرضا أياه على فتح القدس :

تطهر المسجد الأقصى وحوزته من النجاسات والاشراك والصلب (٢)

وقد رأى بعض الشعراء أن تطهير القدس من رجس الغزاة لا يكون الا بدماء الاعداء أنفسهم يقول العماد :

فسروا فتح القدس واسفك به دماء متى تجرها ينظف (٣)

وبعد أن تم ذلك فعلا تنفس المسلمون الصعداء ، وكأنه حلم تحقق ، يقول الشريف النسابة الجواني :

أترى مناما ما بعيني أبصر القدس يفتح والفرنجة تكسر
وقمامة قمت من الرجس الذي بزواله وزوالها يتطهر (٤)

ويقول القاضي الفاضل " وأضحت الارض المقدسة الطاهرة ، وكانت الطامث والرب المعبود الواحد ، وكان الثالث (٥) ، ويقول ابن النبيه في مدح صلاح الدين :

طهرت بيت القدس من رجسهم وكان مأوى للخنازير (٦)

وفي فتح دمياط يقول ابن عنين مادحا المعظم عيسى :

وطهرها من رجسهم بحسامه همام يرى كسب الثنا المغنم الاسنى (٧)

ولما أخذ الملك الناصر داود القدس من الفرنج قال ابن مطروح :

فناصر طهره أولا وناصر طهره آخرا (٨)

وفي طرد آخر جندي صليبي من عكا قال شمس الدين الفزاري :

وأعدتها للمسلمين ولم يكن منهم ترى التطهير الا بالمدى (٩) *

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ، ١٦٦ وانظر ج ١ ق ١ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤

(٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٠٥ ، الخريدة /قسم شعراء الشام ١/ ٢٧٧ ولمزيد من الامثلة أنظر الروضتين ج ١ ق ٢ ، ٤٤٤ ، ٤٥٣ ديوان فتيان الشاغوري ١٤ مفرج الكروب ٢/ ٢٢٢

(٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ، ٦٩١ (٤) مفرج الكروب ٢/ ٢٢٢

(٥) صبح الاعشى ٦/ ٤٤٩

(٦) تاريخ ابن الفرات مج ٥ ج ١ ، ١٢٥ مفرج الكروب ٢/ ٢١٧ وانظر ديوان ابن النبيه ٦٦

(٧) ديوان ابن عنين ٣١

(٨) ديوان ابن مطروح ٤٨ (٩) جواهر السلوك ، ورقة ٤٨

* لمزيد من الامثلة أنظر ديوان ابن سناء الملك ٣٥٨ ، ٥٦٧ ، جواهر السلوك ٦١ ديوان البهاء زهير ١٢١ ، الروضتين ج ٢ ، ٤٩ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ١٥٠

القسم الثاني : صراع بين حضارتين :

أدى الاختلاف بين الحضارتين : الاسلامية والاوروبية الى تناقض ظاهر بين السلوكين الاسلامي والفرنجي ، وسنسلط فيما يلي أضواء الادب العربي في هذه الفترة على الغزاة القادمين من أوروبا ، لنرى تصويره لاخلاقهم وعقليتهم وسلوكهم .

أما اخلاقهم فقد كانت تختلف عن أخلاق المسلمين في طبيعتها ، لاختلاف الثقافة والتنشئة في كل من المجتمعين ، ومما استرعى أنظار الادباء المسلمين في هذه الفترة ، المرأة الفرنجية ، باعتبارها عنصرا مهما في حياة المجتمع .

فالمرأة الفرنجية كانت سافرة فاتنة ، بخلاف المرأة المسلمة المتنقبة التي تخفي محاسنها إلا ما ظهر منها ، والتي تبتعد عن مواطن الفتنة ، بينما كانت المرأة الفرنجية تبرز محاسنها للرجال سواء أكانوا من قومها أم من غيرهم ، يقول ابن القيسراني ، وقد خالطهم وعرف طباعهم :

سمحن بمن سكنّ بيوت شعر
فأبرزن المحاسن في الشعور

وأرخين النواظر في وجوه
منزهة الخدود عن الخدور

ترينا الحسن غير مرقعات
ألا ما في البراقع من غرور (١)

فهو ـ بغض النظر عن أعجابه بالفرنجيات يسجل أنطلاق المرأة الفرنجية وعدم تحرزها في أظهار محاسنها ، فأن كانت العربية تسكن بيت الشعر ، وتحتجب عن الرجال متنقبة بالبرقع ، فالفرنجية تفتخر باظهار شعرها وجمال وجهها ، وتمشي الى حيث الرجال ، بل تتعمد أن تخرج اليهم ، دون أن تخفي شيئا من جمالها ، مما جعل الشاعر يفتتن بها ويظهر أعجابه بهذا الجمال ، وحين تبرز الفرنجية الجميلة معطرة ، يقول ابن القيسراني فيها :

لقد فتنتني فرنجية
نسيم العبير بها يعبق

ففي ثوبها غصن ناعم
وفي تاجها قمر مشرق (٢)

ومثل هذه المعاني وردت في النثر ، ففي حكاية الصعيدي وزوجته الفرنجية ، وصف الفرنجيات بأن من عادتهن الخروج والمشي في الاسواق بلا نقاب (٣) ، واما العماد فقد أفرد للمرأة الفرنجية فصلا تحدث فيه عن جوانب متعددة فيها ، ومنها تبرجها ، يقول " وترافدن على الارفاد والارتاد وتلهين على ... من كل ... مغنية متغنجة ، متبرزة متبرجة ، نارية ملتهبة ، منقشة مخضبة ، تائقة شائقة فائقة رائقة ..." (٤) ، ويقول مبينا لباسها وتأنقها " تسحب غضارتها وتسحر بنضارتها نظارتها وتتثنى كأنها غصن وتتجلى كأنها حصن ، وتتهدى كأنها قضيب ..." (٥)

---

(١) ديوان ابن القيسراني ، مخط ورقه ٦٦

(٢) ديوان ابن القيسراني ، مخط ورقه ٦٦ .

(٣) ألف ليلة وليلة جـ ٧ ص ٤ وأنظر رحلة ابن جبير ص ١٧٨

(٤) الفتح القسي ، الباب ص ص ٣٤٧ ـ ٣٤٩ ، والاقتباس من ص ٣٤٧

(٥) الفتح القسي ص ٣٤٧ ، وأنظر إنجيوب الطلبيات جـ ٢ ص ٥٩

واذا كانت الفتاة الفرنجية تخرج سافرة فاتنة من بلاد الى بلاد دون أذن واستئذان ، فأن نظام الاسرة سيختل وينحل ويؤذن بالنهاية .. كما يتضح من حكاية الصعيدي وزوجته الفرنجية(١)
واذا كان هذا السلوك غريبا ، فان الاغرب منه أن تخرج المرأة الفرنجية من بلادها الى الشرق الاسلامي لتقدم نفسها للفرنج ، معتقدة أن هذا العمل هو عبادة لله ، يقول العماد " وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية ، وعجبوا كيف تَعَبّدوا بترك النخوة والحمية" (٢) .

ومثل هذا السلوك ، جعل أسامة بن منقذ (من قبل) يحكم أن ليس للفرنج غيرة جنسية يقول " يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته ، يلقاه رجل آخر ، يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث" (٣) ، ثم يروى مشاهدات عديدة عن مثل هذا السلوك (٤). ولم يكن هذا الوضع إلا لاختلاف أنماط الحياة بين المجتمعين: الاسلامي والفرنجي ، وقد كان التحلل في العلاقات الأسرية في المجتمع الفرنجي من أسباب ضياع مملكة الفرنج في الشرق الاسلامي ، وهذا ما تقرره أحد الكتاب المحدثين حين قال " ان رذائل المسيحيين(يقصد الفرنج) في الأراضي المقدسة لها أثر كبير في ضياع مملكتهم في فلسطين إن لم يكن السبب بعينه (٥) ، وهذا ما لاحظه أبان الحروب الصليبية نفسها أحد مرافقي الحملة الفرنسية على دمياط وهو جوانفيل في مذكراته عن القديس لويس التاسع يقول " أما العامة فراحوا يراقصون النسوة الخليعات حتى لقد حدث بعد عودتنا من الاسر ان عزل الملك الكثير من رجاله(٦) .

ويعضد هذا الرأى ما ذكره أمبرواز (*Ambroise*) ، عن المرأة الفرنجية "وهن يجررن أذيال الفجور في تصرفهن الشائن ، ثم يقول " رحماك اللهم ، أبمثل هذا السلاح يسترد ميراث الرب (٧) .

وأما تصوير الادب لعقليتهم ، فقد أبرز تخلفهم الحضاري عن المسلمين وذلك بالحديث عن سذاجتهم الى الامور ، او عن غبائهم وحمقهم ، او عن خشونتهم وفظاظة سلوكهم .

فمن مظاهر سذاجتهم إحراقهم كنيسة أتخذوها من خيش حين عسكروا على بانياس ، وفرشوها بالحلفاء والحشيش ، فلما كثرت فيها البراغيث ، فكر الشماس بحرق الحشيش ليتخلص من البراغيث ، فأرتفعت السنة اللهب ، وعلقت بالخيمة فتركتها رمادا (٨) .

---

(١) ألف ليلة وليلة ج ٧ ص ٤
(٢) الفتح القسي ص ٣٤٨
(٣) الاعتبار ص ١٣٥
(٤) لمزيد من التفاصيل أنظر الاعتبار ص ١٣٦
(٥) أحمد بيلي المصري ، حياة صلاح الدين ص ١٦ ،
(٦) جوانفيل ، القديس لويس التاسع ص ٩٩ وانظر ٢٤٤
(٧) انظر زكي النقاش ، العلاقات الاجتماعيه ص ١٥٢
(٨) الاعتبار ٨٦ .

ومنها ما حدث من أسامة حين طلب فرنجي منه أن يأخذ ابنه معه الى أوروبا ، وهو ابن أربع عشرة سنة ، كي يتعلم " العقل والفروسية" ويعقب أسامة على ذلك بقوله " ما يخرج (أي ذلك الكلام) من رأس عاقل ، إذ لو أسر ما بلغ به الأمر أكثر من أن يذهب الى بلاد الفرنج (١)" .

وأما غباؤهم وحمقهم فيتمثلان في تأخر طبهم ، وعدم الاقتناع بطب العرب من أنه كان يستند على التشخيص والعلاج ، ودليل ذلك ما يذكره أسامه من أن صاحب المنيطرة الفرنجي طلب من صاحب شيزر طبيبا يداوي مرضى من أصحابه ، .. فلما غاب الطبيب العربي عنده عشرة أيام ثم عاد ، فسأله أهلها عن سبب عودته مبكرا ، فقال : " أحضروا فارسا قد طلعت في رجله دملة ، وامرأة قد لحقها نشاف ، فعملت للفارس لبيخة ، ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطبت مزاجها ... " ، ولكن طبيبهم الفرنجي خيّر صاحب الدملة بين أن يموت برجلين أو يشفى على أن تقطع رجله ، ففضل المريض أن يشفى ويعيش برجل واحدة ....

فأحضره وأحضر فارسا وحط ساقه على قرمة خشب ، وقال للفارس اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، فضربها فما انقطعت ، فضربها ثانية فسال مخ الساق ، ومات من ساعته ، وأما المرأة فقال: إنّ في رأسها شيطانا قد عشقها، ثم أمر بحلق شعرها ، وسمح لها أن تأكل ما تشاء كالثوم والخردل ، فزاد بها المرض ، فأحضر موس ، وشق رأسها صليبا ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس ، وحكّه بالملح ، فماتت في وقتها (٢) .

ويعقب الطبيب العربي على هذه الزيارة بقوله "وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه " ومن ذلك ما رواه أسامة عن صاحب طبرية ، أن قسا كبيرا أحضر ليداوي فارسا كبير القدر ، فلما رآه طلب شمعا ثم أذابه وصنع منه مثل عقد الإصبع ، ووضعها في جيوب أنفه ، فمات الفارس ، فقال له الحضور ، قد مات ، قال : نعم ، كان يتعذب ، سددت أنفه حتى يموت ويستريح (٣) .

وأما خشونتهم وجفاء خلقهم ، فيبدوان في كثير من أعمالهم ، منذ أن دخلوا أرض الشام وفعلوا بأهلها ما فعلوه من ذبح وتشريد ، وانتهاك للحرمات ، وتدنيس لدور العبادة فمن ذلك ما أقدم عليه الفرنج الذين هاجموا حلب سنة ٥١٨ هـ ، إذ نبشوا قبور موتى المسلمين ، وسلبوهم أكفانهم ، وعمدوا الى الموتى الذين لم تنقطع أوصالهم بعد ، وربطوها بالحبال وجعلوا يصيحون " هذا نبيكم محمد ، وهذا عليكم " ، وأخذوا مصحفا من بعض المشاهد بظاهر المدينة وقالوا ، وقد جعلوه ثفرا للبرذون : " يا مسلم أبصر كتابكم " ثم جعلوا يتضاحكون (٤).

---

(١) الاعتبار ١٣٢
(٢) الاعتبار ١٣٧
(٣) الاعتبار ١٣٧
(٤) زبدة الحلب ٢/ ٢١٤ وانظر تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٥ وابن كثير البداية والنهاية ١٨٤/١٢

ومن مظاهر خشونتهم وقسوتهم وسذاجتهم ، تلك المحاكم التي كانت تتكون من عدة أشخاص ، لكن أحدا منهم لم يكن يهتدي الى أبسط قواعد القضاء ، إذ اعتمدوا في أدانة المتهم على اشياء لا تمت بصلة الى التهمة ، ومن ذلك ما حاكموا به متهما بقتل الفرنج في القدس ، فاحضروا بقينة عظيمة وملأوها ماء ، وعرضوا عليها دفة خشب وربطوه على الخشبة ورموه في البقية لاثبات الجرم عليه ، فإن كان بريئا غاص في الماء ، وإلا فلن يغوص فيه ، وقد حاول المتهم أن يغوص في الماء فما قدر ، فوجب عليه حكمهم وقلعوا عينيه (١)

ومن هذه المحاكمات تلك المبارزة بين الشيخ المتهم والشاب الحداد ، وقد أعتقدوا ان الشيخ سينتصر على الشاب إن كان بريئا ، وإلا فسيلقى جزاءه ، وهو الموت ، ومات الشيخ في هذه المبارزة فعلا[١].

وقد سجل الادب هذا السلوك الفظ لا سيما عند الذين خرجوا حديثا من بلادهم كما يقول أسامة " فهم أجفى أخلاقا من الذين قد تبلدوا (صاروا بلديين) وعاشروا المسلمين"(٢) .

وقد جاء ما يثبت ذلك في تسجيل التاريخ لسلوكهم ، ومن ذلك ما جاء في الكامل والأنس الجليل ، وزبدة الحلب ، وذيل تاريخ دمشق ، وزبدة كشف الممالك وغيرها . عن الإجرام الدموي في إنطاكية ومعرة النعمان والقدس وعكا وعسقلان (٣) .

ويؤكد ذلك أيضا، ما رواه مؤرخ مجهول عن أعمال الفرنج في القدس يقول " واشتد سرور رجالنا حتى بكوا من فرحتهم ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع ... وفي اليوم التالي ، تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على الشرقيين رجالا ونساءً ، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل ... وطرحت جثثهم أمام الابواب وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا (٤) " .

كما أكد ذلك بعض المؤرخين الاوروبيين بما أعتمدوه من أخبار المؤرخين الفرنسيين أنفسهم ومنهم غوستاف لوبون ، الذي يقول " ويدل سلوك الصليبيين في جميع المعارك على أنهم من أشد الوحوش حماقة ، فقد كانوا لا يفرقون بين الحلفاء والاعداء والأهلين العزل والمحاربين والنساء والشيوخ والاطفال (٥) ، ثم يستند في حكمه هذا على أقوال المؤرخين المعاصرين للحروب الصليبية مثل الراهب روبرت الذي يقول " كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل ، وذلك كاللبوات التي خطفت صغارها ، وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ، ويقطعونهم إربا إربا ، وكانوا لا يستبقون انسانا ، ويشنقون اناسا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة ... وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية "ثم يعقب على ذلك بقوله: "فيا للعجب ويا للغرابة ... فيا للشره وحب الذهب (٥)" .

---

(١) الاعتبار : ١٣٩ ، ١٣٨   (٢) الاعتبار ١٣٤

(٣) أنظر الكامل ١٠/٢٧٣ ، الانس الجليل ١/٣٠٧ ، زبدة كشف الممالك ١٩٠ ذيل تاريخ دمشق ١٣٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ١/١٣٠ ، تاريخ مختصر الدول ١٦٧

(٤) أعمال الفرنجة ١١٩   (٥) حضارة العرب ٣٢٥ وانظر ٣٢٦

ولم تبعد هذه الاقوال عما قرره الأدباء العرب في شعرهم ونثرهم ، ونذكر فيما يلي ما كتبه الملك الأمجد عن أبيه الملك الناصر حين هاجم الفرنج مدينة نابلس " تتلت فيها المشايخ والشبان ، وسبيت الحلائل والصبيان ، واستولت يد الكفار على ما كان مدخرا من الاموال والغلال وما جمعه المسلمون لأزمنتهم في السنين الطوال" (١).

وما يرتبط بذلك معاملة الاسرى من المسلمين ، والسكان الذين كانوا يقعون تحت قهر الاحتلال ، وقد لاحظ هذه المعاملة الخشنة ابن جبير في رحلته وهو في عكا ، يقول : " ومن الفجائع التي يعانيها من حلّ بلادهم ، اسرى المسلمين يرسفون في القيود ، ويصرّفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والأسيرات المسلمات كذلك ، في أسواقهن خلاخيل الحديد" (٢) .

ويوضح الادب جانبا آخر من هذه الفجائع التي يعانيها الاسير ، وهو ان الفرنج يقيدون الأسير ثم يرمونه في غياهب السجون التي تكون إما منارة او جُبّا عميقا ، فهذا أسامه ابن منقذ يستعطف ابن عمه الامير تاج الدوله ليفدي ابن عمّه أخا اسامة ، فيبين تلك الحالة المهينة التي يعيشها في الأسر ، يقول :

هذا ابن عمك في أسر الفرنج لــــه حول تجرّم في الاغلال والظُلَــــم (٣)

وقد تفنن الفرنج في ايقاع العذاب بالاسرى ، ومن ذلك ما يذكره أسامة بن منقذ عن أحد الأسرى المسلمين يقول " وعذبوه أنواع العذاب ، وأرادوا قلع عينه اليسرى ، فقال لهم دنكري لعنه الله أقلعوا عينه اليمنى ، حتى إذا حمل الترس ، استترت عينه اليسار ، فلا يبقى يبصر شيئا ، فقلعوها (٤) " .

ومن أنواع التعذيب عندهم ما فعلوه مع ابن والي الطور الذي خرج للصيد حيث حبسوه في جب وحده ، وطالبوه بألفي دينار فدية ، دون أن يسمحوا له بالاتصال مع أحد حتى مر عليه عام كامل ، يقول " فانا في بعض الأيام في الجب ، واذا قد رفع عنه (الجب) الغطاء ، ودلي الي رجل بدوي ، فقلت من أين أخذوك ، قال : من الطريق ، علما بان للمسلمين والتجار حقا متعارفا عليه آنذاك ، ومن ذلك أسر البدوي مع ابن والي الطور ، وقد طلب الاكثر من الفرنج ان يخلوا سبيل البدوي ليخبر أهله فيدفعوا فدية للفرنج (٥)

هذا وقد تميزت معاملة الاسرى المغاربة بشدة أكثر من أسرى المشارقة لانهم تركوا أوطانهم وجاءوا يحاربون مع المسلمين في الشرق كما يبين ذلك ابن جبير (٦) .

وأما معاملة السكان المسلمين ، فقد تمثلت بها الشدة والإهانة ، ويقول ابن جبير عن معاملة الفرنج لأهل عكا " إنّ المسلمين يعانون أهوالا ومشقات منها الذلة والمسكنة ، ومنها سماع ما يفجع الافئدة من ذكر من قدس الله ذكره ، وأعلى خطره ، لا سيما من أراذلهم وأسافلهم ، ومنها عدم الطهارة ، والتصرف بين الخنازير (٦) .

---

(١) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ورقة ٩٥
(٢) رحلة ابن جبير ٢٨٠
(٣) ديوان اسامه بن منقذ ١٤٩
(٤) الاعتبار ٦٦
(٥) الاعتبار ٨٠ ، ٨١
(٦) رحلة ابن جبير ٢٨٠ ، ٢٧٤

ويتضح الفرق في المعاملة ، حين نقف على معاملة المسلمين للفرنج سواء الأسرى منهم أو السكان في المدن التي استعيدت ، ولا يسع المرء حين يرى سلوك المسلمين وترفعهم عن القتل او الثأر ، او ضبطهم لأنفسهم في جو نشوة النصر ، إلا أن يعجب بمسلكهم ، ويتبدى هذا الامر في كثير من المواقف ، منها يوم فتح الرها ، إذ أمر زنكي العساكر برد ما غنموه مما وقع في أيديهم من نساء وأطفال ، فردوها عن آخرها (١) ، ومنها يوم فتح المهدية ، اذ أمنهم صلاح الدين على أنفسهم ، وخيرهم بين الاقامة والظعن (٢) ، أما معاملة المسلمين للاسرى ، فقد كانت تدل على رقي حضاري ، فابن شداد يذكر أن مجموعة من الفرسان المسلمين أسرت مجموعة من الفرنج ، وكان منهم مقدم العسكر ، فخلع عليه صلاح الدين فروة خاصة ، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة خرجية ، لان البرد كان شديدا ، وأحضر لهم طعاما أكلوه ، وأمر لهم بخيمة نصبت قريبا من خيمته ... وأذن لهم ان يراسلوا أصحابهم ، وان يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون اليه (٣) .

ومن هذه المعاملة ، معاملة أسير فرنجي طاعن في السن لم يبق في فمه ضرس ... فرق له السلطان وأطلقه الى معسكره (٣) .

وقد شعر الفرنج أنفسهم بهذه المعاملة ، فأسنا من خلق عظيم منهم بسبب الجوع زمن حصار عكا ، فأمنهم وأعانهم[*] كما شعروا برحمة صلاح الدين ، فنصحوا المرأة التي فقدت ابنتها ان تذهب اليه في معسكر المسلمين ، فرق لها وأمر برد ابنتها وعيناه تدمعان (٣) ، ويعقب ابن شداد على القصة بقوله " فانظر الى شهادة الاعداء له بالرقة والكرم والرأفة والرحمة " :

ومليحة شهدت لها ضراتهـــــا	والحسن ما شهدت به الضراتـــــر (٤)

هذا الفرق الواضح بين المعاملة الانسانية والمعاملة الوحشية لم يكن خافيا على الفرنج ، كما أسلفنا ، ولم يكن أيضا خافيا على المسلمين ولا على أدباء المسلمين ، يقول الشاعر ابن عنين :

لقوا الموت من زرق الأسنّة أحمـــرا	فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنـــا
وما برح الاحسان منا سجيـــة	نورثها عن صيد آبائنا الأبنـــا

---

(١) الكامل ١٠ / ٩٩ ، النجوم الزاهرة ، سنة ٥٣٩
(٢) الكامل ١١ / ٥٣٩ ، وانظر ١١ / ٥٥٠ - ٥٥١
(٣) ابن شداد ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٥٤ ، ٣٦ على الترتيب
* ورد في النوادر ص ١٥٩ أن المفقود طفل ذكر بينما ورد في صفحة ٣٦ منه أنهـا طفلة (بنت)
(٤) النوادر ١٥٩ ، ١٥٦

منحنا بقاياهم حياة جديدة — فعاشوا بأعناق مقلدة منّنا
ولو ملكوا لم يأتوا في دمائنا — ولوغا ، ولكنا ملكنا فأسجحنا (١)

هذا وقد لجأ الفرنج الى المكر والغدر ليشفوا غليلهم من الدماء البريئة ويرووا حقدهم بالدم المسفوح ، ولهذا أكثر الادباء عن التحدث عن غدر الفرنج ، وبينوا أنهم مغلورون عليه ، قال الامير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان السراقي في انتصار صلاح الدين سنة ٥٧٥هـ وتحطيم حصن بيت الاحزان :

فلا ترضى منهم بعدها بذلَ طاعة — فما خلقوا إلا على شيمة الغدر (٢)

وقال ابن منير في مدح نور الدين سنة ٥٤٧ ، حين فتح أنطرطوس وهزم جوسلين :

ما زال يغدر ثم يغدر قادرا — حتى أتاه بجامع أصحابه (٣)

وقد لاحظ العماد ذلك بقوله " ... فان الغدر في طباعهم مركوز ، والسوء في غرائزهم مغروز " (٤) ، ووصفهم بأنهم أناس لا يفون بعهدهم ولا يبرون بوعدهم .

وحين حاول صلاح الدين اقتحام القدس هدد بقتل الأسرى ، وكان الصرف يقضي بالمحافظة على الأسير ، فاضطر صلاح الدين الى الدخول في مفاوضات معهم انتهت بتسليم المدينة ، وخروجهم منها ، وفي هذا الوقت يقول العماد " وعرف أن جهلهم يحملهم على كل مكر شنيع ، وأنهم تدعوهم فظاظتهم الى كل أمر فظيع (٥) " ، كما يتحدث عن أعمالهم في موضع آخر فيقول " فوعوا بقتل أسارى المسلمين وهم الالوف ، وعرفنا أنهم لا يقصرون في الشرعان جهلهم معروف (٤) " .

ولم تكن ملاحظات العماد هذه من باب التزيد ، وتضخيم الصغائر ، اذ ان الحديث عن غدرهم حديث متواتر ، ردده كتاب المسلمين وشعراؤهم على السواء ومن ذلك قول طلائع بن رزيك :

فقولوا لنور الدين : ليس لجائف الجراحات إلا الكي في الطب والبسط
تأمل فكم شرط شرطت عليهم — قديما وكم غدر به نقض الشرط (٦)

وقول العماد في ملك الالمان " ولما وصل الى بلاد الارمن غدر بالرهائن وساقهم محمولين مع الثقافة (٧) ، وفي حصار عكا سنة ٥٨٦ ، ضعفت البلد ، وضاق أهلها المتفاوضون مع الفرنج فأمنوهم ، ولكنهم حين تسلموها لم يلتزموا بما تعهدوا به من شروط ، بل احتاطوا عليهم وعلى أموالهم وحبسوهم في المعتقلات ، ولم يكتفوا بذلك الغدر وانما أوثقوا أسرى المسلمين بالحبال وقتلوهم بأجمعهم (٨)

---

(١) ديوان ابن عنين ، ٣٠ ـ ٣١
(٢) الروضتين ١/١٢
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢١٩
(٤) الفتح القسي ٦٠٨
(٥) الروضتين ٢/٩٧ ، ٩٨
(٦) ديوان اسامة بن منقذ ١٧٧
(٧) الفتح القسي ٣٩٠
(٨) الروضتين ٢/١٨٨

وقد غدر الفرنج بالمصريين في بلبيس ودمياط ، وتكرر هذا الغدر مرات ومرات * مما أوحى الى أذهان الشعراء تشبيههم بالذئاب لا سيما في شعر ابن القيسراني ، فمن ذلك قوله مخاطباً عماد الدين زنكي :

فلا تحفلن بصول الذئـــاب ... وقد زأر الأسد الباســل (١)

ويقول في جوسلين أحد أمرائهم :

أخو الليث لولا غدرة نزعت بـــه ... الى الذئب ، إن الذئب شيمته الغدر (٢)

وهناك فرق بين الغدر والخدعة ، إذ إن الاول نكث بالعهد ، وفي هذا المعنى يقول العماد في وصف الحال بعد موت صلاح الدين " وقد أستمرت الحال الى الان على الهدنة ، وهم لا يؤمنون اذا أحسوا بالمكنة (٣) " .

ويقول أسامه بن منقذ في وصف جوسلين :

دعته الى نكث اليمين وغـــدره ... بذمته النفس الخسيسة والمكـــر (٤)

وأما الخدعة فهي مفاجأة العدو دون ان يكون عهد بين الطرفين ، ولذلك فقد أمتدح الاسلام الخدعة الحربية ، بل جعل قوام الحرب الخدعة ، كما جاء في قول الرسول صلى الله عليه وسلم " الحرب خدعة " .

هذا وقد أمتدح الادب تخطيط الفرنج الحربي وأمثلة ذلك كثيرة * ، وأما الغدر فهو مذموم ينحرف بصاحبه الى الخيانة والكذب والنفاق كما ذكر الشعراء ، ومنهم أسامة بن منقذ الذي رد على طلائع بن رزيك على لسان نور الدين زنكي بقوله :

ونحن كسرنا " البغدوين " وما لمـــن ... كسرناه أيام يُرَجّى ولا جَبْـــر
غسله اللعين الحائن الخائن الـــذي ... له الغدر دين : ما به عنه الغـــدر
وقد ضاقت الدنيا عليه برحبهـــا ... فلم ينجه برٌ ، ولم يحمه بحـــر
أفي غدره بالخيل بعد يمينـــه ... بإنجيله بين الأنام له عـــذر
دعته الى نكث اليمين وغـــدره ... بذمته ، النفس الخسيسة والمكـــر (٤)

---

* أنظر الروضتين ج ١ ق ١ : ١٥٣ـ١٧٦ـ١٩٠ـ٢١٧ ، الروضتين ج ٢ : ١٠٢ ـ ١٨٨ـ١٨٩ـ٢٠٥ ، الذيل على الروضتين ١١٧ ، النوادر السلطانية ٣٨ ، ١٢٤ ، الاعتبار ٣٤ ، ٣٥ ـ ٦٦ـ١٠٨ ، ديوان أسامه : ١٧٩ـ١٨٠ـ١٨١ـ١٨٣ـ١٨٧ـ١٩٢ـ١٦٩ وأنظر ابن الاثير ١٠ / ٢٧٢ ، الكامل ١١ / ٢٧٢ـ٢٦٦ـ٤٩٠ـ٥٠٨ ، الكامل ١٦ ـ ٦٧ـ٦٨ ، ابن القلانسي ١٣٦ وأنظر الف ليلة وليله ج ٦ + ج ٧ حكاية نور الدين علي ومريم الزنارية .

(١) الخريدة ، قسم الشام ١ / ١٠٨
(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ، ١٨٦ وانظر ١ / ٦٨ وانظر ٢ / ١٠٢
(٣) الفتح ٦٠٨ (٤) ديوان اسامة ٢٠٣

* أنظر لمزيد من الامثلة الاعتبار ٦٤ ، الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ورقة ١٩ وأنظر عقد الجمان ج ٢ ق ١ ورقة ١٩٩ ، الكامل ١٠ / ٤٦٠ ، ١١ / ١٥٤ ، ٥٥٥

وبالرغم عن المواثيق التي قدمها ملك القدس (بلدوين ـ بغدوين) إلا أنه غدر مثلما غدر أمير أنطاكية الذي تنكر للسنين على حد قول ابن القيسراني :

خان الصنيعة غير محقوق بهـــــا	والخير يهدم ما بقى الشتـــمار
ذئب اذا ما غبت أقدم عاتيـــــا	إقدام من لم يدن منه تـــــرار
أمضى السائح على عدواه بغيضـــه	بالغدر يطعن في الوغى الغـــدار (١)

ويلاحظ أقتران الوصف بالاستهزاء في الابيات السابقة ، لكن شعراء العرب بينوا في معرض الاستهزاء ما يلاقيه الفرنج من عقاب رادع جزاء غدرهم ، يقول الامير نجم الدين محمـــود بن الحسن بن نبهان السراتي في صلاح الدين :

فما تبنت منهم يد الغدر قطعـــت	أناملها الا على صفقة الخســـــر
فلا ترض منهم بعدها بذل طاعـــة	فما خلقوا إلا على شيمة الغـــدر (١)

ويقول أسامة بن منقذ :

فتى ينصر على الكفار إنهـــــم	يرديهم المهلكان : الغدر والأشر (٢)

ويقول فتيان الشاغوري :

حشدوا وكان الغدر بذرهم فقـــد	درسوا وذروا بأوشم بيـــــدر
ما إن ترى الا مساكنهم ومـــــم	صرعى الصوارم بالهياب المقفـــر (٤)

والشواهد على ذلك كثيرة * .

ونلاحظ من خلال الشعراء رد المسلمين على غدر الفرنج كان يأتي قويا ، كما في قول ابن تسيم الحموي :

أيلتمس الفرنج لديك عفـــــوا	وأنت بقطع دابرها زعـــــيم
وكم جرعتها غصص المنايـــــا	بيوم فيه يكتهل الفطيـــــم (٥)

أما قائدهم فلا يستطيع المواجهة فيولي هاربا :

أراد بقاء مهجته فولـــــــى	وليس سوى الحمام له حميـــم (٥)

وهذا القائد كأي قائد آخر خاتمته إما الموت أو الذلة جزاء غدره ، يقول ابن منير في مدح نور الدين يوم أنب سنة ٥٤٤ (٦) :

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٧٦ (٣) الخريدة قسم شعراء الشام ١ / ٥٤٦

(١) الروضتين ٢ / ١٢ (٤) ديوان فتيان الشاغوري ١٤٥

* لمزيد من الأمثلة أنظر الخريدة شعراء الشام ٢٨ والروضتين ٢ / ٨٢ ، ديوان الصاحب شرف الدين الانصاري ٤٠١ والروضتين جـ ١ ق ١ / ١٥١ وعقد الجمان جـ ١٦ ق ١ ص ١٩٩

(٥) الخريدة / الشام ١ / ٤٧٠

(٦) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢ / ١٨ ـ ١٩

وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة — بالروح مما قد جنت غدراته
وطأت أطراف السنابك هامه — فتفانت بسيوفها قد فاته

ويقول العماد في مدح نور الدين وقد هزم الفرنج في حوران سنة ٥٦٨ :

تمّت لقومهم رداء من ردى — وقرنت رأس برنسهم بسنان
وملكت رق ملوكهم وتركتهم — بالذل في الاقياد والاسجان
وجعلت في أعناقهم أغلالهم — وكببتهم هونا على الاذقان (١)

ثم يسخر منهم ، ويبين ان ظنهم قد باء بالفشل لانهم واجهوا قائدا متيقظا (١)، يقول :

يا خيبة الافرنج حين تجمعوا — في حيرة وأتوا الى حوران
جاءوا وظنهم يعجل ربحهم — فأعدتهم بالخزي والخسران
وظنونهم وقلوبهم قد أيقنت — للرعب بالاخفاق والخفقان
وجلوت نور الدين ظلمة كفرهم — لما صرعت بواضح البرهان
وعزمتهم بالرأي قبل لقائهم — والرأي قبل شجاعة الشجعان
راحوا ثباتوا تحت كل مذلة — وضربت منهم فوق كل بنان *

* * * *

ومن المعالم التي سجلها الادب عن الصليبيين طرائق تحريضهم للقتال ، وغالبا ما يكون ذلك في وقت الملمات ، كسقوط مدينة ، أو التعرض لهزيمة ساحقة ، ويمكن حصر طرق التحريض عندهم بأربع طرق .

١. الصور : فقد رسموا صورة القدس في ورقة عظيمة ، وأظهروا فيها صورة القيامة وقبر المسيح بزعمهم ، وصوروا فارسا مسلما يطأ قبر المسيح بفرسه وقد بال الفرس على القبر (٢) كما صوروا المسيح عليه السلام ، وجعلوا معه صورة عربي يضربه بالعصا ، والدماء تنزف منه (٣) وقد كان لهذه الصور أثر بالغ في نفوس الفرنج لان الصور مرتبطة بدينهم ، ويبين ابن شداد انه هاج لذلك خلائق لاتحصى ، وأرسلوا الامدادات المتواليه الى عكا ... (٤).

٢. الرؤى والاحلام : وكان لها أثر في نفوسهم ، كما حصل خلال محاصرتهم أنطاكية بعد أن أشرفوا على الهلاك المحقق جوعا وقتلا بسبب حصار المسلمين لهم ، كما كان لهما أثرها في تسيير الحملة الاولى ، فمن المعروف ان بطرس الناسك كان عاملا أساسيا في تحريك الفرنج ، وكان هذا العمل من بطرس ، بناء على رؤيا أدعى أنه سمع خلالها صوتا سماويـا

---

(١) الخريدة ، شعراء دمشق والشعراء الامراء من بني أيوب ص ٥٥
* لمزيد من الأمثلة أنظر الروضتين جـ ١ ق ١ ، ٢٠٦ ، ١٥٥ ، ٢٧٢ ، ٨٨ ، ٦٨ ، ٩٩ ، ١٥٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، الكامل ١١ / ٣٣٠ ، رسائل ابن الاثير ١٥٤
(٢) النوادر السلطانية ١٢٦ ، الروضتين ٢ / ١٦٠ ، مفرج الكروب ١ / ٣٣٦
(٣) مفرج الكروب ٢ / ٨٨ ، الكامل ١٢ / ٣٢
(٤) النوادر السلطانية ١٢٦

يخاطبه بقوله " انهض يا بطرس، وأسرع منذرا عن شقاء شعبي ، فقد آن الحين الذي فيــــه خدامي يحصلون على الاماكن المقدسة(١)•

وأما أثرها في معركة أنطاكية سنة ٤٩١ هـ ، فقد أدعى بعضهم أنه رأى كتيبة من السماء وعليها هالات قدسية من النور تقدمت صفوفهم، وتسلقت السلالم والاسوار المحيطة بمدينـــة أنطاكية ورمت المسلمين(٢)•

ولئن كان لهذه الرؤيا المدعاة أثر في تقوية معنويات الجند ، فإن الحربة المقدســة التي أدعاها أحد الرهبان ، كان لها هي الاخرى أثر كبير في تحقيق النصر لهم يومئـــذ ، وتفصيلها أن راهبا داهية مطاعا رأى حصار المسلمين الشديد لأنطاكية ، وما نتج عنه من انعدام الاقوات وتحطم قوتهم المعنوية ، فلجأ الى حيلة دينية ، إذ بشرهم بأن المسيح لن يتخلى عنهم ان وجدوا الحربة المقدسة المدفونة بالقسيان (وهو بناء ديني عظيم) ، ثم أمرهم أن يصومـــوا ويكون بذلك قد جمل الجوع الذي يتضورون منه صوما يؤجرون عليه ، بينما قام بعضهم بالبحث عن الحربة ، فوجدوها فعلا ، لانه كان قد دفن حربة صدئة في المبنى المذكور (٣) وتصادف أنه فــي هذا الوقت ، دب النزاع بين الفرق الاسلامية ، التي توافدت للقتال ، بينما قام الفرنج بهجــوم يائس أنتصروا فيه على المسلمين •

٢• قرارات الحرمان وصكوك الغفران : وقد لجأ اليها البابا في روما بعد سقوط القدس رغم كل الامدادات التي تدفعها أوربا للمحافظة على ممتلكات الصليبيين ، وقد قصد البابا بهـــذه القرارات أمرين : الاول أخذ الاموال لتمويل الجيش الصليبي والثاني ، دعم الجيش الصليبـــي بالمقاتلين ، يقول القاضي الفاضل : " وقد حرم باباهم كل مباح ، واستخرج منهم كل مذخـــور وأغلق دونهم الكنائس، ولبسوا لبسهم الحداد ، وحكم عليهم أن لا يزالوا كذلك أو يستخلصــوا المقبرة(٤) " ويقول العماد من كتاب الى بغداد : ان البابا الذي برومية قد حرم عليهـــم مطاعمهم ومشاربهم ، وقال " من لا يتوجه الى القدس مستخلصا فهو عندي محرم لا منكح لـــه ولا مطعم " •

والحرمان عندهم كاللعنة عند المسلمين – يعني الطرد من مغفرة الله وكل عمل يعمله المحرم لا يقبل منه ، ولذلك فهم يتهافتون على الورود ويتهالكون على يومهم الموعود (٥)•

---

(١) مونروند ، من تاريخ الحروب المقدسة ١ /٣
(٢) حسن حبشي ، الحرب الصليبية الاولى ١٥٠
(٣) الكامل ١٠ /٢٧٧ ومونروند ١ /١٢٢
(٤) الروضتين، ١ /١٥٧ ، صبح الأعشى ٧ /١١٨
(٥) الروضتين ٢ /١٦٢

وأما الغفران فهو دافع مهم للحروب ، لأنه بمقتضاه تُغفر الذنوب مهما كانت ، وقد أعتمدت عليه البابوية في إرسال الحملة الأولى ، وما تبعها من حملات ، وحين خمد هذا الدافع في نفوس الفرنج ، وعرفوا أن صكوك الغفران لا تسمن ولا تغني من جوع ، فشلت الحملات لقلة المشتركين فيها ، رغم النداء المستمر الذى كان يرسله أعالي عكا ، يقول العماد عن تحريض الأماقفة ، بأنهم "نادوا في نواديهم أنه من شخص من بيته مهاجروا لحرب الإسلام ، وُهِبَتْ له ذنوبه وغُفِرت عنه عيوبه ، ومن عجز عن السفر ، سفر بعدته وثروته إن قدر . فجاءوا لايسمين العديد بعد ان كانوا لايسمين العداد" (١) ، وجاء منهم المدد للحرب ، وهذا المدد أنما كان بعد سقوط القدس ، وأما بعد أن سيطر المسلمون على معظم الساحل ، وقضوا على الجموع الوافدة ، ولم تفلح البابوية في مد الفرنج الذين بعكا بجموع كبيرة فقد سقطت في أيدي المسلمين .

٤ . الاثارة العاطفية : لجأت البابوية الى كل الوسائل التي من شأنها أن تلهب حماس الحكام والناس لمد الكيان الفرنجي في الشرق الاسلامي بما يحفظه من الذوبان في المجتمع المسلم ، فأثارت عاطفة الابوة عند الابناء ، كما أثار غريزة حب المال والطمع ، ويتجلى ذلك مما حدث مع ملك الالمان حين أنحصر الوجود الصليبي في صور ، فكاتبه أهلها بأن عظام أبيه التي الآن في صور في تابوت مكلل بالديباج ، وكأنه أسير ينتظر أن يفرج عنه ، فأنه لا يقبر إلا بالبيت المقدس اذا استخلص ، والآن ما كان غلا منه أسترخص ، فان المسلمين قد أشتغل بعضهم ببعض ، وا لتهوا عن كل واجب (١) ، وفي هذا اشارة الى أنفراط عقد الدولة الايوبية بعد وفاة صلاح الدين ، ونيقه أنّ الطمع حركهم للاستيلاء على البلاد المقدسة مرة أخرى .

كما أثاروا عواطف الجماهير بليس الحداد حزنا على سقوط القدس ، يقول القاضي الفاضل عن البابا بأنه قد لبس الحداد وطلب منهم لبس الحداد وحكم عليهم ان يستمروا كذلك أو يستخلصوا المقبرة (٣) .

ومن وسائل أثارة الجماهير أيضا ، خروج القسس والرهبان يحملون صورة قبر المسيح ورؤوسهم مكشفة ، وعليهم المسوح ، وينادون بالويل والثبور .

ويقول العماد بأنهم قد "نادوا في نواديهم بأن البلاد ملك بلادهم ، وأن اخوانهم بالقدس أبادهم الاسلام وأبادهم" (٥) ، وفعلوا ذلك في غير بلد أوروبي .

---

(١) الروضتين ٢ / ١٤٩ والفتح القسي ٢٢٨

(٢) الروضتين ٢ / ١٢٢ وانظر ص ١٦٠

(٣) المصدر السابق وصبح الاعشى ٧ / ١٢٨

(٤) الروضتين ٢ / ١٦٠ وابن شداد ١٢٦ والطرف ١ / ٢٢٦

(٥) الكامل ١١ / ٣٧ مفرج الكروب ٢ / ٢٨٨

ومن وسائل اثارة المقاتلين عندهم رفع الصليب الذي يرمز عندهم الى التضحية ويظهر ذلك في مواقف عديدة منها حين نزلوا على دمشق سنة ٥٤٣ ، اذ خرج أمامهم قسيس كبير طويل اللحية ، يعتقدون به ، فركب حماره ، وجعل في يده صليبين وفي عنقه ثالث ، وعلق في عنق حماره صليبا رابعا ، وحمل الاناجيل والصلبان ، فلم يتخلف عنه أحد (١) ، كما ان العجائز تجيد دور التحريض في المعركة بما كنّ ينشدنه من أشعار ، وبما كن ينخين بها الرجال (٢) .

هذه طرق التحريض عندهم ، وهي تختلف عن طرق التحريض عند المسلمين في معظمها لأن التحريض مرتبط بنوع العقيدة ، فبينما كان الفرنج يعتقدون بالمسيح والصليب ، أعتقد المسلمون بالله إلها واحدا طالبهم بالجهاد والدفاع عن الارض والنساء والاطفال ، ومن هنا نجد حرص الادباء على وضع الاستنهاض في قالب ديني ، فمن ذلك قول الامير جمال الدين الكناني مخاطبا الملك الكامل حين حاصر الفرنج دمياط :

وأذخر ليوم البعث فعلا صالحـــا ... الله ضامن أجره وكفيلـــه (٣)

ويقول طلائع مخاطبا نور الدين :

فاغتنم الجهاد أجرك كسي تلـــ ... ـقى رفيقا له ونعم الرفيـــق (٤)

ويقول ابن سناء الملك في مدح الملك العزيز :

أرضيت ربك في حراسة دينـــه ... وسررت عيسى إذ نصرت محمـــدا (٥)

وقد بين الشعراء أنّ الله يمدّ المجاهدين بعونه ونصرته ، إذ إن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ، يقول طلائع بن رزيك ، مخاطبا نور الدين قلج ارسلان صاحب الروم :

أما فيكم من يتقي الله وحـــده ... أما في رعاياكم من الناس مسلـــم ؟
تعالوا لعل الله ينصر دينـــه ... إذا ما نصرنا الدين نحن وأنتـــم
وننهض نحو الكافرين بعزمـــة ... بأمثالها تحوى البلاد وتقســـم (٦)

ويقول ابن دنينير في حث الامراء والاجناد على القتال حين نزل الفرنج على دمياط سنة ٦١٥ :

أقيموا عمود الدين لله تسعـــدوا ... فقد جاءكم عيسى وهذا محمـــد *
فريق الهدى ، والله يظهر دينـــه ... على دين من قد أشركوا وتمـــردوا (٧)

ونلاحظ أن هذه المعاني قد وردت في القرآن الكريم " وإذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا " (٨) .

---

(١) تاريخ ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق) ٣٠٠

(٢) الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ١ / ٣٦٢

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ق ١ ، ١٩٩

(٤) ديوان طلائع بن رزيك ١٠٣

(٥) ديوان ابن سناء الملك ١٥٦ وانظر عقد الجمان جـ ١٦ ق ١ ورقه ٥٨ مخط جواهر السلوك ورقه ٦٠ مخط

(٦) ديوان طلائع بن رزيك ١٢٣ وانظر المزيد من الأمثلة الروضتين ٢ / ١٩٠ ، ٢٣٣

* المقصود بعيسى ومحمد أبناء الملك العادل أخي صلاح الدين

(٧) ديوان ابن دنينير ورقة ٤ .

(٨) سورة الانفال ١٢

ومن طرق التحريض عند المسلمين تهوين أمر الفرنج ، وبيان ضعفهم ، وقد كان ذلك بعد بدء الانتصارات عليهم ، وبعد الاتجاه نحو الوحدة الاسلامية ، يقول ابن القيسراني محرضا نور الدين زنكي :

تسر وأملاك الدنيا ضياء وبهجـــة   فبالأفق الداني الى ذا السنا تقصـــر
كأني بهذا العزم لافل حـــده   واقصاه بالاقصى وقد قضي الأمـــر
وقد أصبح البيت المقدس طاهـــرا   وليس سوى جاري الدماء له طهـــر (١)

ويقول ابن منير محرضا نور الدين أيضا :

رد الكنائس كنسا للهدى نخبـــت   نار الضلال ، ووارتها أثافيهـــا (٢)

ومنها ما كتبه القاضي الفاضل الى صلاح الدين " فشمر عن ساق من القنا ، وخضـــر فيه بحرا من الظبا ، وأحلل عقدة كلمات الله سبحانه وثيقات الحبى ، وأسل الوهاد بدمـــاء العدا (٣) .

ومنه قول ابن التعاويذي محرضا صلاح الدين سنة ٥٨٠ :

ورمح الهدى منها بأدهم رائـــع   يعنو لعزته الصباح الاشهـــب
وراية سودا تقلب الشرك مـــذ   عقدت لملكك مستطار مرعـــب (٤)

وقول القاضي رشيد الدين بن النابلسي محرضا صلاح الدين بعد فتح القدس :

يا مالك الارض مهدها فما احـــد   سواك من قائم للهدي ينتظـــر
أضحى بنو الاصفر الانكاس موعظـــة   فيها لأعدائك الآيات والنـــذر (٥)

وقول شهاب الدين محمود في فتح عكا وطرد آخر صليبي :

ما بعد عكا وقد لانت عريكتهـــا   لديك شيء تلاقيه على تعـــب
فانهض الى الارض فالدنيا باجمعها   مدت اليك نواصيها بلا نصـــب (٦)

وهكذا استمر الأدب محرضا على قتال الغزاة ، منذ أن وطئت أقدامهم أرض المسلمين في المشرق الاسلامي حتى طرد آخر جندي صليبي ، لا كما يقول محمد سيد كيلاني من أن التحريض كان مرتبطا بالقدس فقط ، حتى اذا ما فتحت القدس فتر التحريض (٧) ، والصحيح أن ادباء العرب قد نظروا الى الفرنج على أنهم طارئون مغتصبون يجب طردهم واستئصالهم حتى تم ذلك فعلا .

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ، ١٤٦   (٢) الروضتين ج١ ق ١ ، ٢٣٠
(٣) صبح الاعشى ١٠ / ٩٧ وانظر ١٠ / ١٤٩ ونهاية الارب ٨ / ٤
(٤) ديوان ابن التعاويذي ٢٤
(٥) الروضتين ١ / ١٠٢ ، عقد الجمان ج ١٧ ، ق ١ ورقة ١٨٠ مخط
(٦) جواهر السلوك ، ورقة ١٤٦ ، ابن الفرات مجلد ٨ ص ١١٧ ـ ١١٨
(٧) الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي ص ٢٠٥ ، ٢١٦ وانظر صبح الأعشى ج ٨ ص ٢٥٠

وفي كل خطوة نحو الوحدة الاسلامية كان الادباء يحرضون على طرد الفرنج ، يقــــول العماد في تهنئة أسد الدين شيركوه :

فتحت مصر وأرجو أن تصير بهــــــا ... ميسرا فتح بيت القدس عن كثـــــب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة مــــن ... فتح البلاد فبادر نحوها وثـــــب
أنت الذي هو فرد في بسالتــــــه ... والدين من عزمه في جحفل لجـــــب (١)

ويقول ابن الزكي محرضا صلاح الدين على فتح القدس حين فتح حلب :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفـــــر ... مبشر بفتوح القدس في رجـــــب (٢)

ونلاحظ ان كل فتح قبل استعادة القدس كان يذكّر الشعراء بفتح القدس ، سواء كان الفتح في صورة توحيد للبلاد الاسلامية ، كما يظهر مما سبق أم في صورة استعادة المدن التي وقعت تحت الاحتلال الصليبي ، يقول القيسراني :

فان يك فتح الرها لجـــــــة ... فساحلها القدس والساحـــــل
فهل علمت علم تلـــــــك الديـا ... ر أن المقيم بها راحـــــل * (٣)

وقد استغل الادباء المناسبات الخاصة والعامة أفضل استغلال ، فنفذوا الى قلـــوب الحكام ، وحرضوهم على تحرير الارض وتطهيرها من دنس الغزاة ، ومن ذلك قول طلائع بن رزيك في رسائله التي بعثها الى الشاعر أسامه بن منقذ ، وفيها يطلب منه أن يحث نور الدين علــى قتال الفرنج :

ألق منا رسالـــة عند نور الــــد ... ين ما في إلقائها ما يريـــــب
قـل لـه دام ملكـــه وعليـــــه ... من لباس الاقبال برد قشيـــــب
أيها العادل الذي هــو للـــــد ... ين شباب وللحروب شبيـــــب (٤)
والذي لم يزل قديما عن الاســـــ ... لام يلقى بنفسه ويحامي ويحـــوب
وغدا منه للفرنج اذا لاقـــــو ... ه يوم من الزمان عصيـــــب
ان يَوْمُ نزت حقد هــــم فلا ... قناه في كل قلب قليـــــب (٥)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ، ٤٠٣ ـ ٤٠٤ ، ابن الفرات ، تاريخه مجلد ٤ ج ١ ٥٦
(٢) الروضتين ٢ / ٤٦ ، وانظر الروضتين ٢ / ١٧٠ ، وديوان عرقلة الكلبي ٢٠ وديوان طلائع ١٢٢
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٢٧
* لمزيد من الامثلة انظر الروضتين ج ١ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧
(٤) ديوان طلائع ٦٤ ـ ٦٥
(٥) ديوان طلائع بن رزيك ٦٤ ـ ٦٥

ومنه قول العماد في تهنئة نور الدين بالعيد وظهور ابنه محرضا اياه على تقليم أظافر الفرنج :

يا أعظم الناس قدرا … وقل لنصيرك ندر
ما أعقبت الأوفاء … وعادة القوم غدر
وفعلك الدهر غزو … للمشركين وقهر
وفعل غيرك ظلم … للمسلمين وقسر
يفتر من كل ثغر … الى ابتسامك ثغر
روم بمصر وفرنج … في شغلهم لك وتر
حرب عوان وفتح … على مرادك بكر
بنو الأصفر من خشية انتقامك صفر
لم يبق للكفر ظفر … لا كان للكفر ظفر (١)

وقول الحافظ أبي القاسم ابن عساكر حين أعفى نور الدين أهل دمشق من المطالبة بالخشب :

لما سمحت لأهل الشام بالخشب … عوضت مصر بما فيها من النشب
وإن بذلت لفتح القدس محتسبا … للأجر ، جوزيت أجرا غير محتسب
والأجر في ذاك عند الله مرتقب … فيما يثيبك عليه خير مرتقب
فالجد والجد مقرونان في قرن … والحزم في العزم والإدراك بالطلب
ولست تعذر في ترك الجهاد وقد … أصبحت تملك من مصر الى حلب
فطهر المسجد الأقصى وحوزته … من النجاسات والأشراك والصلب (٢)

ونلاحظ أن الادباء قد استغلوا المدح الشخصية بالاضافة الى المناسبات للمطالبة بتطهير المقدسات من دنس الغزاة ، كما شخصوا الاماكن المحتلة وأنطقوها وبثوا فيها الحياة في مثل قول أحد الشعراء على لسان المسجد الاقصى :

يا أيها الملك الذي … لمعالم الصلبان نكس
جاءت اليك ظلامة … تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت … وأنا على شرفي مدنس (٣)

ومن ذلك قول عمارة اليمني محرضا على فتح القدس :

وهيجت للبيت المقدس لوعة … يطول بها منه اليك التشوق
وغزوك هذا سلم نحو فتحه … قريبا والا رائد ومطرق
هو البيت أن تفتحه والله فاعل … فما بعده باب من الشام مغلق (٤)

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٥٧٨
(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٠٥
(٣) الانس الجليل ١/ ٣١٨ ، وانظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ٢٩
(٤) الروضتين جـ ١ ، ق ٢ ، ٤٦٩

وقول ابن النبيه محرضا الأشرف موسى :

فما وصور الى رؤياك عاطشة ... فانهض فقد أمكنت منهن خلوات

واستخبر الريح عنها اذ تسيره ... إليك فهو سلام أو تحيات (١)

وقول الأمير جمال الدين الكناني في حصار دمياط :

والثغر ناظره اليك محدق ... ما إن يمل من الدموع همولة

واشن قعدت عن القيام بنصره ... جففت نضارته وبان ذبوله (٢)

ومن مظاهر التحريض والاستحثاث ، وشن الصراع بين المسلمين والفرنج في حرجه المتيقي وبيان أن حسمه لا يكون إلا بالقوة .

يقول ابن النبيه محرضا السلطان الاشرف موسى على قتال الفرنج حين اتحدوا مع الروم وهاجموا المسلمين في حلب ومصر :

الق العدا تتلاقف كلما سنحوا ... ولا تخف ما حبال القوم حيات

فأنتم بجيوشك لا تحفل بكثرتهم ... فإنهم لبغاث الطير أقوات

أنت السباع فحزن لين كفرهم ... والسيور ورايات للأعداء نيات

زلزلز بغارتك الشعواء دارهم ... تقيدة النجب الغر الاغارات

بواد روضوا من مدمع تقهم ... فكيف لو قد أتت منها النهايات

ثق يا أبا الفتح بالفتح المبين فلم ... تنسب لغير أبيها الفتوحات (٣)

ويقول ابن دنينير مخاطبا الجند والامراء في حصار دمياط :

فلا تجزعوا من حادث جاء قاصدا ... فذا الدين للرحمن في نصره يسد

فصونوا لدين الكفر ثارات مشعر ... لهم في الهدى فرع زكي ومحتد

وشبوا لهم نار الجهاد فانكم ... متى تتركوها آن للنار تخمد

فذا الدين ما أرسى قواعد حقه ... لدى الناس الا ذايد ومهند

فحزبكم حزب الإله وأنتم ... هم الغالبون الشراة والجود أحمد (٤)

---

(١) ديوان ابن النبيه ٦٧

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ق ١ / ١٦٦ وأنظر الروضتين ٢/ ٨٥ ،
جـ ١ ق ١ / ١٦٦

(٣) ديوان ابن النبيه ص ٦٦

(٤) ديوان ابن دنينير ورقه ٤

وقد تراوحت دعوات الاستثارة هذه بين الشدة والشعور بالثقة حين يكون المسلمون في مركز القوة ، وبين التفجع والتألم حين يكونون في حالة ضعف ، ولكن الادباء حتى في الحالة الاخيرة ، لم تضعف ثقتهم وإيمانهم بان النصر النهائي سيكون للمسلمين ، وبإمكاننا ملاحظة نوعي الاستثارة في كثير من الادلة الشعرية السالفة ولا بأس من أن نذكر مثلا واحدا هنا على كل منهما ، يقول ابن دنينير في مدح الملك قلج أرسلان بن الملك المنصور بن شاهنشاه أيوب

فانهض الى نصر دين الله في جذل   في جحفل شرق بالخيل ذي زجل
جيش يجيش بأبطال اذا برزوا   قال الردى للعدى موتوا على عجل
من كل أغلب في عرنينة شمم   نغم الدسيعة مرد غير متفشل (١)

ويقول جمال الدين الكناني في حصار الفرنج دمياط مخاطبا الكامل :

ولئن قعدت عن القيام بنصرة   جفت نضارته وبان ذبوله
ووهت قوى القرآن فيه ورفعت   صلبانه وتلى به أنجيله
وعلا صدى الناقوس في أرجائه   وخفى على سمع الورى تهليله (٢)

وقد تبين بوضوح مما سبق أن التحريض عند المسلمين أتخذ طابعا مرتبطا بعقيدتهم مثلما كان للتحريض الفرنجي طابع مرتبط بعقيدتهم .

ومن الصور التي قدمها الادب العربي للوجود الفرنجي في المشرق الاسلامي ، صورة المدن المدمرة بعد الاحتلال ، يقول قُحية بن عبدالله بن نصر في المعرة حين خربها الفرنج :

هذه صاح بلدة قد قضى اللـ   ـه عليها كما ترى بالخراب
فقف العيس وابك من كا   ن بها من شيوخها والشباب
واعتبر إن دخلت يوما اليها   فهي كانت منازل الاحباب (٣)

ويؤكد قول قُحية هذا قول أبي بشر بن الحوارى ، وقد وقف على داره بالمعرّة بعد هجوم الفرنج عليها فقال :

أهذه بين أنكاري وعرفانـي   مسارب الوحش أم داري وأوطاني
جهلتها ولقد أبدت ملامحها   عهد الصبا بين إخواني وخلاني
فعجبت أسألها والدمع منسكب   والقلب في لوعة من وجده عان
يا دار مالي أرى الايام قد حكمت   فينا وفيك بحكم الجائر الجاني (٤)

ومثله قول أبي سلامة محمود بن علوي :

أنا من بلدة قضى اللـه بها صا   ح عليها كما ترى بالخراب
قتلوا أهلها وبادوا جميعا   من شيوخ وصبية وشباب (٥)

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقه ٢٣   (٢) السلوك جـ ١ ق١ص١٩٦

(٤) الخريدة ، قسم الشام ٢ / ٨٧   (٥) الخريدة ،قسم الشام ٢ / ١٠١

ولم تكن المعرة بالطبع البلد الوحيد الذي تعرض لهذا التخريب والإفساد بل إن بلدانا أخرى في الشام قد تعرضت لما تعرضت له المعرة ، يقول العماد في تدمير الفرنج للاذقية " ولقد كثر أسفي على تلك العمارات كيف زالت ، وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت " (١)
ويقول ابو المعالي بن المهذب في وصف العدو والوباء الذي انتشر في الشام نتيجة التسلط وانصراف الناس عن شؤونهم الخاصة :

ولقد حللت من الشام بقعة	أعذر بساكن ربعها المسكين
وبئت وجاورها العدو فأهلها	شهداء بين الطعن والطاعون (٢)

وكيف بعد ذلك ينصرف الناس الى أعمالهم بطمأنينة ، والفرنج يهددونهم في معيشتهم وممتلكاتهم يقول ابو الحكم الجلياني :

أتانا ماتثنا الف	تديدا أو يزيد ونصا
فبعضهم من أنطاكية	وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور	ومن صيدا وتبنينا
اذا أبصرتهم أبصر	ت أتوا ما مجانينا
ولكن حرقوا عني	جل الحال البساتينا (٣)

وبعد وفاة صلاح الدين عاد النزاع بين الحكام المسلمين من جديد ، وعادت بعض السيطرة للأعداء ، فعاثوا في الديار وخربوا القدس بعد أصلاحها (٤) ، وخربوا بعض المناطق الاخرى القريبة من حصونهم ، إذ قام الاسبتاريون من حصن المرقب بأفساد المناطق المجاورة وتهديد أصحابها ، حتى ضاقت على أهلها فأصبحوا كأنهم يعيشون داخل قبور أو سجون ، كما يقول صاحب تشريف الايام والعصور (٥) .

ولو قارنا بين المدن قبل أن دخلها الفرنج وبينها بعد أن خرجوا منها ، لوقفنا على حقيقة أفسادهم ، فهذا الرحالة الفارسي (ناصر خسرو) زار بلاد الشام قبل نصف قرن من الغزو الصليبي ، ووصف عدة مدن زارها ، منها طرابلس ، وقد قال في وصفها " ... وحول المدينة المزارع والبساتين ، وكثير من قصب السكر وأشجار النارنج والترنج ، والموز والليمون ... وشوارعها وأسواقها جميلة ، ونظيفة حتى لتظن كل سوق قصر مزين ، وفي وسط المدينة جامع عظيم نظيف جميل النقش حصين ، وفي ساحته قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام وفي وسطه فوارة من النحاس الاصفر" (٦) وقد أحدث الفرنج في هذه المدن تدميرا غيّر معالمها ، كما غيّر معالم غيرها من المدن ، فأصبحت الآثار تنبئ عما كانت عليه من عمران (٧) .

---

(١) الروضتين ١٢٨/٢ (٢) الخريدة ، قسم الشام ٢٦٦/٢
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ / ١٣٩ ، عقد الجمان ج ١٢ ق ١ ورقة ١٨٠
(٤) الشذرات ٦٥/٥
(٥) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ٦٧
(٦) سفرنامة ، ترجمة يحيى الخشاب ص ١٣
(٧) أحمد بدوي ، الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية ص ٩٦ نقلا عن :
Barker, The Crusades p. 28.

وقد فرض الفرنج إبان سيطرتهم الضرائب على البلدان المجاورة ، فضاقت أحوال الناس حتى أعتبر القاضي الفاضل أن من شهد في هذه الايام فطاوس المؤمنين ، ومن نام ملء عينيه فما هو من أخوة المؤمنين(١) .

ويقول الملك الناصر داود من كتاب الى عز الدين بن عبد السلام حين هاجم الفرنسيس مدينة نابلس واستولوا على ما كان مدخرا من الاموال والذخائل فيها ، وما جمعه المسلمون لأزمنتهم في السنين الطوال " فيا لها من فجيعة أبكت العيون وأبكت الجفون وسجعت على القلوب من أسماعها ، فودت لو أنها سبقت بالمنون ، فيا ليتني نبذت قبل سماعها مكانا قصيا ... أو ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا (٢) " .

وقد ران على المسلمين حزن عميق بعد سقوط القدس ثانية في أيدي الفرنسيس ، لأن سقوطه في المرة الأولى كان في وقت عصيب حين كانت الأمة الإسلامية مجزأة ضعيفة ، أما في المرة الثانية فان العالم الاسلامي كان في وضع أفضل ، فكيف تسلم المدينة المقدسة بهذه السهولة ؟ ، ولهذا أمتزجت الدموع بالنقمة على الذين فرطوا في القدس ، يقول قاضي الطور الشيخ مجد الدين :

مررت على القدس الشريف مسلما ... على ما تبقى من ربوع وأنجم
ففاضت دموع العين مني صبابة ... على ما مضى من عصره المتقدم
وقد رام علج أن يعفي رسومه ... وشمر عن كفي لئيم مذمم *
فقلت له شلت يمينك خلها ... لمعتبر او سائل أو مسلم
فلو كان يفدى بالنفوس فديته ... بنفسي وهذا الظن في كل مسلم (٣)

ويقول ابن المجاور :

أعيني لاترقي من العبرات ... صلي في البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفىء فيضها ... توقد ما في القلب من جمرات
لتبك على القدس البلاد بأسرها ... وتعلن بالأحزان والترحات
لتبك عليها مكة فهي أختها ... وتشكو الذي لاقت الى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة ... وتشرحه في أكرم الحجرات (٤)

* * * *

هذه صورة عن الصراع الحضاري بين الوافدين من الغرب ، وأهل هذه المنطقة من الشرق الاسلامي .

---

(١) الدر الثمين ، لابن قاضي شهبة ورقه ٦١ مخط وأنظر الروضتين ١/٦٦٢
(٢) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ، ورقة ٩٥ مخط
* المقصود بالعلج الملك المعظم عيسى بن العادل
(٣) الشذرات ٥/٦٦ ، ذيل الروضتين ١١٦
(٤) الروضتين ٢/٢٠٥ ـ ٢٠٦

القسم الثالث : الصراع العسكري :

نوجئت الدويلات الأسلامية بالحروب الصليبية ، فأستيقظت من سباتها العميق علــى تهاوي المدن الواحدة تلو الأخرى بيد الفرنج ، وقد صور الأدب حزن المسلمين وتفجعهم ... ولكنهم ـ كما قلنا ـ لم ييأسوا وانما تقبلوا التحدي منذ أول لحظة وحرضوا القادة على صد الغزاة وطردهم، وعلى الرغم من الانتصارات الكبيرة التي أحرزها الصليبيون الا ان الشعراء يتلمسوا ان النصر ممكن اذا اتحدت الأمة ، فهذا ابن الخياط يستهزئ بالفرنج ويجعل أنتصارهم غـــي غفلة من الزمان ويبين أن غضب الدولة أمير دمشق سيوقفهم عند حدهم فيقول :

أغركم أن الزمان أجزكـــــم	طولا بنيلكم الوخيم المرتـــــع
لا تأمنن صريمــــة غضبيـــــة	من أن تقيم الحـــق عند المقطـــع
يثنا لنير رداكـــم لم تمتقـــــل	ولظى لنير بواركـــم لم تلـــع (١)

وقد بقي التحدي قائما بسبب استمرار الغزو الصليبي ، وبقي معه الصراع الحربي مستمرا لــم يتوقف حتى في وقت الهدن ، لأن الهدنة كانت تقتضي ترك الحرب موقتا مما يتيح المجال أمام الفريقين لان يعملا على تعزيز الجهود للجولات المقبلة، وقد ظهر هذا التحدي حتى بعـــد المعارك التي هزم فيها المسلمون ، كما ظهر بطبيعة الحال بعد المعارك التي هزم فيهـــا الفرنج ، وقد أتاح هذا الصراع الطويل للشعراء أن يعطوا صورة واضحة عن التجهيـــزات العسكرية عند الفرنج ، وهي صورة تناولت الجيش وأسلحته وقلاعه وحصونه وتخطيطه ومعاركه، وعقد مقارنة بينه وبين الجيش الاسلامي ، وسنتابع فيما يلي أجزاء هذه الصورة كما رسمها الادباء

أولا : الجيش الصليبـــي :

كان هدف الفرنج أحتلال أراض واسعة في بلاد الشام منها القدس، ولذلك تحركـــت الجيوش الهائلة لتغطي عملية المد الواسعة ، كما تغطي عملية الانتشار في الاراضي المحتلـة ، وقد شاركت فيها دول أوروبا واهمها فرنسا والمانيا وانجلترا كما شارك فيها الرجال والنساء حتى الاطفال (١) ، يقول ابن منير :

فكــم أمرد خط الحســـام عــــذاره	وكم أشيب كان النجيع خضابـــــه (٢)

وبعد أن استقرت لهم الامور في مملكة بيت المقدس ، وجه الفرنج أنظارهم الى البلاد المجـــاورة، مما دعاهم الى طلب المزيد من النجدات وأنشاء فرق دينية عسكرية كان لها أثر فعال في الحروب الصليبية وأشهرها كما أسلفنا ، الاستبارية Hospitalers وهم فرسان المستشفـــى ، والداوية Templars فرسان المعبد *.

---

(١) ديوان ابن الخياط ص ٢١٨

(١) النوادر ١٠٨ ، الفتح القسي ٣٠٦ ، الحركة الصليبية ١ / ٤٥٦

(٢) أحمد بدوي ، طمون بني أيوب المعظم عيسى ص ٧٦

* أنظر رفيق التميمي ، الحروب الصليبية ٧٨ ، عارف العارف ، تاريخ القدس ص ٧٥

وقد قام فرسان المعبد بأعمال كثيرة أقضت مضاجع المسلمين، حتى أصبح الظفر بهم من الأعمال العظيمة التي يفتخر بها ، وقد كان لاعتداءاتها على المسلمين أثر في أثارة حفيظة السلطان الرحيم صلاح الدين إذ جعل جائزة قيمة لكل من يسلمه فارسا من هؤلاء ليقتله من أنه تحفظ كثيرا في قتل الاسرى ، ولذلك علل سلوكه هذا بقوله على لسان ابن شداد "... لما جرت عادتهما بالمفادات ولا يقلمان عن المعاداة ، ولا يخدمان في الأسر ، وهما أخبث أهل الكفر "(١).

وقد كثرت الفرق المحاربة بسبب طول فترة الحروب وبسبب كثرة المشتركين فيها ، ومنها فرق البيازنة والجنوية وفرق أخرى ألمانية وفرنسية ، والفرقتان الاوليان فرقتان تجاريتان أخذتا الطابع الحربي لحماية القوافل ، ثم ما لبثتا أن اشتركتا مع الفرنج في قتالهم من المسلمين ، يقول العماد في وصف سفن صلاح الدين التي هاجمت صور : " فانشقت مرائر الفرنج ، وأزاحت سفنها عن النهج ، وقرنصت بزاة البيزانية ، وتقلصت جفاة الجنوية ، وكرثت أدواء الداوية ، وكثرت أسواء الاستبارية ، وزادت آلام الالمانية ، وعادت أسقام الافرنسيسية ..." (٢)

وقد أنضاف اليهم عدد آخر في حصار عكا سنة ٥٨٧ هـ حيث جاءت الامدادات الكثيرة من أوروبا " في كل ذئب أمعط ، وسيد قد تورط ... وبارونى طالب للبوار ، وأستبارى راغب في التبار وداوي معضل الداء ، وتركبولي غير تارك للبلاء ، وسرجندي كرار ، وفريري غير فرار ، وفارس يفرس الرجال ، وراجل يرجل الفرسان الابطال ...."(٣)، ولكن كثرة هذه الفرق وتنوعها على نفسها ، وخروجها عن العهود المعقودة مع المسلمين ، جعلها وبالا على الفرنج أنفسهم بعد أن كانت جمرة لهم ، ولم يفت مؤرخي هذا العصر ذلك ، فهذا ابن عبد الظاهر يصف الاستبارية وأعمالهم التخريبية من حصن المرقب فيقول : " وكان بيت الاستبار الذين فيه قد زاد بغيهم وعدوانهم وكثر فسادهم ، حتى بقيت أهل القلاع المجاورة لهم كأنهم في حبس بل في رمس " (٤) ، ولم يعد بوسع المسلمين السكوت عن هذا التعدى ، لا سيما أن المماليك قد سيطروا على المراكز المهمة للفرنج ، فقام المنصور قلاوون بتحطيم هذه الحصون وتاقبهم لنكثهم وأعتدائهم ثم تلاه ابنه في طردهم نهائيا من بلاد الشام (٥) .

هذا وقد دخلت المرأة الفرنجية المعركة ، فشجعت المقاتلين ، وقاتلت معهم ، وقد لاحظ الادباء ثلاثة أنواع من النساء هي : المرأة الحاكمة ، والمرأة المقاتلة ، والعجائز ، وقد قام كل نوع منهن بدور في الحروب .

أما المرأة الحاكمة فقد أصطحبت معها الفرسان وأمدتهم بالسلاح والمال ، وقاتلت معهم في الميدان ، يقول العماد الاصفهاني : " ووصلت في البحر امرأة كبيرة القدر ، وافرة الوفر وهي في بلدها مالكة الامر ، وفي جملتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم وغلمانهم وأشياعهم وهي كافلة بكل ما يحتاجون اليه من المؤونة ، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة وهم يركبون بركباتها ويحملون بحملاتها ، ويثبون لوثباتها وتثبت ثباتها لثباتهم ... (٦)

---

(١) الروضتين ٢ / ٧٩ (٢) الفتح القسي ١٦١

(٣) الفتح القسي ٣٠٢ (٤) تشريف الايام والعصور ٧٧

(٥) أنظر القديس لويس ، ترجمة حسن حبشي ٢١٦ ـ ٢٢٧

(٦) الفتح القسي ٣٤٩ ، وأنظر الروضتين ٢ / ١٦٦ ، ١ / ١٨٣

وأما المرأة العادية المقاتلة فقد لفتت أنظار المسلمين بشجاعتها وقوة بأسها ، وكأنها رجل في هيئتها ولباسها ، يقول العماد في وصف هذا النوع " وفي الفرنج نساء فوارس ، لهن دروع وتوانس ، ولكن في زي الرجال ، ويبرزن في حومة القتال ، ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات حجال ٠٠٠ " (١) ، ويصف مجموعة أخرى بأنهن تمكن المسلمون من تقتلهن في حصار عكا فيقول : وفي يوم الوقعة قلعت منهن نسوة لهن بالفرسان أسوة ، وفيهن من لينهن قسوة ، وليس لهن سوى السوابغ كسوة "(٢)، ويقدم العماد وصفا آخر لهيئة المرأة المقاتلة وهي صورة لا تختلف عن صورة المقاتل الفرنجي يقول : وذوات المقانع من الفرنج مقنعات مقارعات يحملن الى الطعان الطوارق والقنطاريات " (٣)،

ويوضح ابن شداد هذه الصورة فيقول : " ورؤيت امرأة عليها ملوطة خضراء ، فما زالت ترمي بقوس من خشب حتى جرحت جماعة ثم قتلت وحملت الى السلطان فعجب من ذلك(٤)، ويؤكد ابن الاثير ما ورد عند العماد وابن شداد فيقول : فانهم (الفرنج) كان معهم على عكا عدة من النساء يبارزن الأقران "(٥)، أما العجائز فقد كن يدور يناسب وضعهن ، فهن لا يقوين على القتال الا اذا استدعى الأمر ذلك ، وغالبا ما كن يحرضن الفرسان على القتال ، يقول العماد : وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز ، وهن يشددن تارة ويرخين ويحرضن وينخين ٠٠٠(٦)٠

تلك هي أهم الجماعات الصليبية التي تحدث عنها الادباء وكان الغرض منها اظهار اندفاع جميع قطاعات المجتمع الفرنجي للمشاركة في الحروب ، وفيما يلي صور قدمها الادب العربي عن الجيش الصليبي :

أ ٠ <u>وصف الامدادات الكبيرة :</u>

قاد بطرس الناسك أعدادا ضخمة من المتحمسين في أول عملية للاستيلاء على بلاد الشام ، ولكن السلاجقة حطموا حملته وأفشلوا مخططاتها ، ولم تكد فلول العائدين تصل الى القسطنطينية ، حتى التقت بحملة الامراء التي تميزت بالنظام ، فانضم هؤلاء الفارون الى الحملة الجديدة ، وساروا جميعا الى بلاد الشام ليؤسسوا مملكة بيت المقدس ، وقد تهيأ لهم ذلك كما تهيأ لهم تأسيس امارات أخرى ٠

وما ان نجح الفرنج في تأسيس هذه الامارات حتى عاد بعض الحجاج مشيدين أمام قومهم بالفتوح العظيمة التي حققتها الجيوش الفرنجية ، فتوالت الامدادات بدافع المشاركة في الغنائم والمشاركة في اعلاء راية الصليب على البلاد المقدسة ، على أنّ ما يلفت النظر في أمر هذه الامدادات ارتباطها بأوضاع الصليبيين ، فإذا ما تعرض هؤلاء لضغط قوي من المسلمين فان الامدادات كانت تتوافد عليهم من كل جانب ٠

---

(١) الفتح القسي ٣٤٩ (٢) الفتح القسي ٣٤٩ وأنظر الروضتين ٢ / ١٦٦
(٣) الروضتين ٢ / ١٦٦ (٤) الروضتين ٢ / ١٨٦ (٥) الكامل ١٢ / ٣٥
(٦) الفتح القسي ٣٤٩ ، وأنظر الفتح القسي ص ٣٢٩ ، ٤٠٦ ، والأنس الجليل ص ٣٦٦ والروضتين ٢ / ١٥٨

أما وصف الادباء لهذه الامدادات فيظهر جليا في عدد من الاحداث التاريخية الهامة : ففي سنة ٥٦٩ هـ اجتمع عدد من دعاة الدولة الفاطمية وكاتبوا الفرنج بالقدوم للقضاء على صلاح الدين ، فجاءوا بأسطول يحمل المدد العظيم للمتآمرين ، فـ"كانت خيلهم ألفا وخمسمائة رأس وكانت عدتهم ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ، وكان عدد الطرايد * ستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل ، وكان معهم مائتا شيني * وفي كل شيني مائة وخمسون راجلا ، وكان عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الاخشاب الكبار وغيرها ست سفن ، وكان عدة المراكب برسم حمل الازواد والرجال أربعين مركبا ، وفيها من الرجال المتفرقة وغلمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته ما يتم خمسين ألف راجل ..." (١)، وقد توقع المسلمون حين هزموا الفرنج في حطين قدوم الامدادات الكثيرة ، فهذا القاضي الفاضل يخبر سيف الاسلام اخا صلاح الدين في اليمن بالفتوحات وتوقفها عند صور فيقول : ولم يبق في هذا الجانب إلا صور ولولا أن البحر ينجدها والمراكب تردها لكان قيادها قد أمكن وجماحها قد أذعن ... ثم يقول : " وأنهم — لعنهم الله — أمم لا تحصى وجيوش لا تستقصى ... وقد كتب المستخدمون بالاسكندرية وصاحب قسطنطينية والثغور المغربية ينذرون بأن العدو قد أجمع أمرا وحاول نكرا ..." (٢) ، وقد صدقت توقعات قادة المسلمين ، فقد جاءت أمم لا تحصى من كل حدب وصوب :

فكم عليك لهم شق البحار سرى ... لينصر الصبر والأقدار تخذله
وكم ترحّل منهم فيلق بغلا ... الى الصوامع ألقاه ترحّله
استصرخوا الأهل والمدوى تمزقهم ... واستكثروا المال والهيجا تقلّله
كم قد أعدوا ، وكم قد فلّ جمعهم ... من غير ضرب ولا طعن يزيله
وإنما اسم صلاح الدين يذكر في ... جيش العدو فيسبيهم تخيّله (٣)

ومع ذلك فقد تدفقوا الى عكا بأعداد وصفها العماد الاصفهاني والقاضي الفاضل أبلغ وصف ، يقول العماد في وصف تدفقهم على عكا بالرغم عن خسائرهم : " فما أثر ذلك في نقصهم ، ولا أرث إلا نار حرصهم ، وليس هذا العدو بواحد فينجح فيه التدبير ويأتي عليه التدمير ، وإنما هو كل من وراء البحر وجميع من ديار الكفر ... " (٤) ، ويقول القاضي الفاضل في وصف تكالبهم على عكا : " ومن خبر الكفار أنهم الى الآن على عكا ، يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ، ويخرج للمسلمين منهم أمرّ من أجاجه ، وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا اليهم من كل فرقة طائفة ، ويقلدوا لهم من كل قرن يعتز بالكفر واصفه ، فاذا قتل المسلمون واحدا في البر بعث البحر عوضه ألفا ، واذا ذهب بالقتل صنف منهم أخلف بدله صنفا ، فالزرع أكثر من الجراد ، والثمرة أنمى من الحصاد ..." (٥).

---

* الطريدة هي سفينة برسم حمل الخيل   * الشيني : السفينة الحربية الكبيرة

(١) مفرج الكروب ١/ ١٧
(٢) صبح الأعشى ٧/ ٢٥ ، الروضتين ٢/ ١٢٦
(٣) الروضتين ٢/ ١٥١
(٤) الروضتين ٢/ ١٤٩
(٥) صبح الأعشى ٧/ ١٢٧ ـ ١٢٨

ثم يقول في وصف الاجناس المختلفة التي أجتمعت في جيشهم "وأجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغريبة ،والالسنة الاعجمية ،من لا يحصر معدوده ولا يصور في الدنيا وجوده ،فما أحقهم بقول أبي الطيب:

تجمع فيه كل لسن وأمـــــــة فما يفهم الحداث الا التراجـــم

حتى أنه اذا أسر الاسير واستأ من المستأمن أجتيج في فهم لغته الى عدة تراجم ، ينقل أحد عن آخر ،ويقول ثان ما يقول أول وثالث ما يقول ثان ... (١) ،وفي وصف الامدادات البحرية يقـول القاضي : " فلهيق طاغية من طواغيتهم ولا أثفية من أثافيهم الا الجم وأسرج ، وأجلب وأرعـــج ، وخب وأشخص ، وجاد بنفسه أو بولده وبمدده وبمدده وبذات صدره وبذات يده ، وبكتائبه بـرا ومراكبه بحرا ... كل خف متطوعا وأهطع مسرعا ، وأتى متبرعا ودعا نفسه قبل أن يستدعى ، وسعى الى حتفها قبل أن تستسمى ، حتى ظننا أن في البحر طريقا يبسا وحتى تيقنا أن البحر قـد خلا وعسا ... " (٢) ،ويقول :فانبرى ملكا افرنسيس وانجليتره وملوك آخرون في مراكب بحرية وحمالة حملوا فيها الخيول والخيالة والمقاتلة والالة ، ووصلت كل سفينة تحمل كل مدينة ... " (٣) ، هـذه أمثلة قليلة من شواهد كثيرة* ، نلحظ من خلالها اعجاب الادباء بحماس الفرنج وجلدهم رغـم باطلهم ، ومن هنا اتخذوا مواقفهم هذه أداة تحريض للمسلمين : القادة منهم والرعية ، يقـول العماد : "فأين حمية المسلمين ونخوة أهل الدين ، وغيرة أهل اليقين ؟ وما ينقضي عجبنا مـن تضافر المشرك على شركه ، وتظاهره في اتساع ملكه ،واتساق سلكه ،وقعود المسلمين عن المسلمين وتقاعدهم ، وتمتضلهم في تعاضدهم ،وانحلال عقود تعاقدهم ، فلا ملبي فيهم لمناد ولا مثقف لمناد ولا موري ملهم في اجابة قدح لزناد ، فانظروا الى الفرنج أي مورد وردوا وأي حشد حشدوا ، وأية ضالة نشدوا وأية جدة أنجدوا ، وأية أموال هزموها وأنفقوها ، وجدات جمعوها ، وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها ... " (٤) ،ولا يتبادر الى الذهن ان هذه دعوات يائسة ، وتسليم بالواقـع ، وانما هو نوع من الاثارة ، فعبارات العماد تعني أن الفرنج مجتمعون بالرغم عن كونهم على باطـل ، وأن المسلمين متفرقون بالرغم عن كونهم أصحاب حق وكان الاجدر بهم أن يجتمعوا ،وهذا ما ذكره القاضي الفاضل بعد كسرة المسلمين في عكا : يقول : "وما وهنا لما أصابنا في سبيل الله ، وما ضعفنا ولا رجعنا وراءنا ولا انصرفنا ، بل نحن بمكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم ويخرجـــون فنناجزهم ... " (٥) .

---

(١) الروضتين ٢/ ١٨٥ ، وانظر النوادر السلطانية ١٢٦

(٢) صبح الاعشى ٦/ ٥٢٨ (٣) الروضتين ٢/ ١٨٨ ـ ١٨٩

* للمزيد من الامثلة أنظر: الفتح القسي ٢٩٨، ٣٠٧، ٤٧٨، ٥٩٣، صبح الاعشى ٧/ ٣٦٨، ١٣/ ٨٨، ١٤/ ٦٠، النوادر السلطانية ١١٤، ١١٨، الانس الجليل ١/ ٣٥٩، الروضتين ١/ ٢٣٤، ٢/ ١١٧، ١٤٣، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٤، ١٦٠، ١٦٤، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٦، ١٨٣، ١٨٤، مفرج الكروب ٢/ ٢٨٨، ٣/ ٢٤٥، زبدة الحلب ٢/ ١١٣، ١٣٠، الكامل ١٠/ ٢٧٩، ١٢/ ٧، ٥٢، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ١٧١، الاعتبار ٣٣٠، ابن الفرات ٤/ ٨٣، النويري الالمام بالاعلام ١٦٣، موزون تاريخ الحروب المقدسة ٦٧، مذكرات جوانفيل ٨٣، ١٤٢

(٤) الفتح القسي ٣١٦ (٥) الروضتين ١/ ١٨٩

ب. وصف المتعاونين من العدو :

من الطبيعي أن يفكر الفرنج في طريقة تضمن بقاءهم في منطقة غريبة عنهم ، فاستغلوا الظروف السائدة في الدويلات الإسلامية وتحالفوا مع بعض قادتها ، ومنهم أتابك دمشق معين الدين أنر ووزير مصر شاور السعدي ، يضاف اليها بعض القبائل البدوية التي كانت تعيش في منطقة الحدود ، كما أنهم اعتمدوا على الأرمن والتتار والروم من سكان المنطقة .

ومن الغريب أنّ أحد الشعراء وقف موقف المادح لهؤلاء الغزاة وأتباعهم ، بالرغم عن كل الافعال الوحشية التي ارتكبوها ، فقد قال هذا الشاعر في مدح القائد الصليبي حين كسر الافضل بن بدر الجمالي : نصرت بسيفك دين المسيح فلله درك من صنجل
وما سمع الناس فيما روي بأقبح من كسرة الأفضل (١)

ويأتي العرقلة الكلبي بعده بخمسة عقود تقريبا فيمدح الفرنج حين استعان بهم الامير معين الدين أنر ضد صلاح الدين الياغسياني صاحب حماة بقوله :

غدا تطلع الشام الفرنج بخيلهم	مسوّدة أبطاله المصائب
رجال اذا قام الصليب تصابت	رماحهم في كل طاعن وراكب
لها الليل نقع والأسنة أنجم	فما غير أبطال وغير جنائب (٢)

وفي مصر مدح عمارة اليمني شاور ويذكر الفرنج حين اتحدوا مع جيشه ضد أسد الدين شيركوه ، فيقول :

تولوا عن الافرنج فادح ثقلها	ودارت رحاها منهم بهضاب
أقامت دروع الجند تحمين ليلة	ثيابا لهم ما بدّلت بثياب (٣)

على أنه لم يمدح الفرنج الا قبل وحدة مصر مع الشام تحت حكم نور الدين ، هذا وقد لقي الشاعر الذي شمت بهزيمة الافضل جزاءه المحقّ إذ توصل الافضل الى قتله ، وأما العرقلة فقد مدح أمير دمشق المتخاذل في زمن كانت الأمة فيه مفككة ، ولكن ما لبث ان عاد الى الصف حين توحدت الامة ويشهد على ذلك مواقفه الكثيرة التي يشيد فيها بأعمال القادة المسلمين وجهادهم ضد الفرنج (٤) وأما عمارة اليمني فانه لم يمدح الفرنج في شعره بل وجه مدحه للجيش الفاطمي وعزم على تعاون الفرنج مع الفاطميين (٥) ، وقد عقد الشعراء مقارنة بين الحكام المخلصين الذين يتصدون للغزاة واولئك الذين انصرفوا الى اللهو ، يقول المهذب بن اسعد الموصلي في مدح صلاح الدين وقد غزا حلب سنة ٥٧٦ :

ملوك جلهم مغرى بظلم	ومشغول بلهو أو مزاج
اذا ما جالت الابطال ولى	ويقدم نحو جائلة الوشاح (٦)

---

(١) الانس الجليل ١ / ٣٠٨ (٢) ديوان عرقلة الكلبي ص ٥ ، الروضتين ١ / ٩٥
(٣) الروضتين ١ / ١٣٢ ط دار الجيل (٤) أنظر ديوان العرقلة ص ٢٦ ص ٣٠
(٥) الروضتين ١ / ١٣٢ (٦) مضمار الحقائق ٤٧

ويقول ابن سناء الملك في هذا المعنى :

ممالك لم يدبرها مدبرهـــــــا	الا برأى خصي أو بعقـــل صبــــي
حتى أتاها صلاح الدين فانصلحـــت	من الفساد كما صحت من الوصـــب (١)

ويقول العماد مادحا صلاح الدين يوم حطين :

قرع الظبى بالظبى في الحروب يطربـــه	لا قينة صنجها باللحن مطــــــربة (٢)

وقد مدح بهاء الدين اسعد بن يحي السنجارى صاحب حماة بهذا المعنى فقال : *

جاهدت في الله طوعا والملوك غـــدوا	يستهترون بذات الحلي والحلـــل (٣)

هذا وقد تعاون الفرنج مع بعض الاشخاص الاعراب الذين اتخذوهم أدوات يستخدمونها للقيام بأعمال النهب والتخريب ، ومن ذلك مساعدتهم لعمارة اليمني حين حاول اعادة الحكم الفاطمي في مصر ، يقول القاضي الفاضل في وصف جماعة عمارة : " ... وكان أكثر ما يتصلون بـــه ويستريحون اليه المكاتبات المتواترة ، والدراسات المتقاطرة الى الفرنج — خذلهم الله — التي يوصفون لهم فيها سبل المرام ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع ، ويزينون لهم الاقدام والقدوم ، ويخلعون فيها ربقة الاسلام خلع المرتد المخصوم ، ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن اجابتهم ، الا انهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم ... " (٤) ، وقد لقي عمارة جزاءه وفي ذلك يقول تاج الدين الكندى :

عمارة في الاسلام أبدى جنايـــة	وبايع فيها بيعة وصليبـــــــا
وأمسى شريك الشرك في بغض أحمـــد	فأصبح في حب الصليب صليبـــا
وكان خبيث الملتقى ان عجمتـــه	تجد منه عودا في النفاق صليبـــا
سيلقى غدا ما كان يسعى لاجلـــه	ويسقى صديدا في لظى وصليبـــا (٥)

وقد استغل الفرنج بدو الاراك لأهمية المنطقة التي يعيشون فيها اذ تقع في طريق المواصلات بين مصر والشام ، وكذلك بين الديار المقدسة والشام ومصر ، ولذا فقد طالب القاضي الفاضـــل صلاح الدين بترحيلهم ، وجعل ذلك من وسائل قص اجنحة الأعداء فيقول : " علم المملوك بما يؤثره المولى بان يقصد الكفار بما يقص أجنحتهم ويفلل أسلحتهم ويقطع موادهم ويخـــرب بلادهم ، وأكبر الاسباب المسنية على ما يرومه من هذه المصلحة أن لا يبقى في بلادهم أحدا من العربان ،، وأن ينقلوا من ذل الكفر الى عز الايمان ، وما أجتهد فيه غاية لاجتهاد وعده

---

(١) الروضتين ١/ ٤٤ (٢) الروضتين ٢/ ١٠٢

(٣) مفرج الكروب ٣/ ١٤٤

* للمزيد من الامثلة أنظر : ديوان أسامة بن منقذ ١٠٠ ، ومفرج الكروب ٤/ ٢٠٢ ، الروضتين ٢/ ٤٤ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، عقد الجمان جـ ١٨ ق ١ ورقه ١١٦ ، ديـــوان ابن عنين ص ٣٣

(٤) الروضتين ١/ ٢٠٢ — ٢٢١ (٥) الروضتين ١/ ٢٢٦

من أعظم أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنصارهم ، والحرص في تبديل دارهم ، الى أن صار العدو اليوم اذا نهض لا يجد بين يديه دليلا ولا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلا ...(١)

هذا فيما يتعلق بتعاون الفرنج مع المنحرفين من المسلمين ، أما تعاونهم مع سكان المنطقة من غير العرب ، فقد أشرأبت نفوسهم للتعامل أولا مع الأرمن ، ثم فيما بعد مع التتار حين غزا هؤلاء بلاد المسلمين ، وقد كاد الفرنج يوقعون المسلمين بين فكي (كماشة) باتحادهم مع التتار ، ولكن الوقفة الشجاعة التي وقفها قطز هدمت هذه الامال ، وقربت نهاية الطرفين .

ومن الادلة على تعاون الارمن مع الفرنج ضد المسلمين ، ما أورده العماد بشأن ملك الالمان الذى جاء بجيش عرمرم لانقاذ القدس وغيرها ، فما كان من الارمن الا أن أتصلوا بصلاح الدين يخبرونه بالجيش الجرار ، وكان قصدهم من ذلك اثارة الفزع في نفوس المسلمين ، يقول العماد : " ولا شك أنه الى جنسه النجس مائل وبملاءة أهل ملته قائل ..." (٢) وهذا ما جعل الشاعر الجمال الواسطي بن الخطاب المقرى يهاجم في شعره ملك الارمن " ابن لاون " وذلك اذ يقول :

أزرت ابن لاون لاواءه ... فأضحى به خبرا من عيان
ودان من الذل لا يرعوى ... حذارا من الراعفات اللدان
فلا قدم عنده للثبات ... وليس له بسطاكم يدان (٣)

وقد تعاون التتار مع الارمن لنصرة الفرنج في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادى) ، وأجتمعت قوات هذه الاحلاف بأعداد هائلة وهاجموا حمص ، ويصف ابن عبد الظاهر تعاون تلك الاحلاف فيقول عن ملك الارمن أنه " كان يحمي سرحهم ويمرد صرخهم ، ويستنطق هتف التتار ويسترجع مدحهم ، وتمتز طرابلس الشام بأنه خال ابرنسها الكافر ، ولسان مشورته السفير ، ووجه تدبيره السافر ، وطالما غر وأغرى ، وجر وأجرى ، وضر وأضرى ..." (٤)
وقد عبر عن ذلك شعرا بقوله :

وأستجمع المغل والتكفور وأتفقوا ... مع الفرنج ومن أردى به الكفر
جاءت ثمانون ألفا من بعوثهم ... لأرض حمص فكان البعث والنشر (٥)

ولكن أتحاد مصر والشام ثانية زمن المماليك مكن المنصور قلاوون من ايقاع الهزيمة بهم ، فكانت بداية لطردهم من الشام كما يقول أحد شعراء دمشق :

هلك الكفر في الشام جميعا ... وأستجد الاسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفر الملك الار ... وع سيف الاسلام عند نهوضه (٦)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٢٦ ـ ٥٢٧ (٢) الروضتين ٢/١٥٠
(٣) الروضتين ٢/١٦
(٤) نهاية الارب جـ ٥/ ١٥٧ ، وللمزيد من الامثلة أنظر الروضتين ١ ق ٢ ، ٣٧١ وأحمد بدوي في صلاح الدين الايوبي بين شعراء عصره وكتابه ص ٥١
(٥) عقد الجمان ج ٢٠ ق ٤ ورقه ٦٧٨ مخطـ ، وانظر عقد الجمان ٢٠/ ٣ ورقه ٤٨٥ ، ٤٩٧ والقديس لويس ص ١١١
(٦) الروضتين ١/١/١٢٩

جـ- وصف قوتهـــــم :

أبرز الادباء تكالب الفرنج على احتلال الشام واعادة الوسائل لذلك ، ومن هذه الوسائل ضخامة الجيوش ، اذ لم يدخلوا معركة كبيرة في عدد يسير قط منذ ان دخلوا بلاد المشـــرق الاسلامي ، يقول ابن الخياط ، وقد عاصر الاحداث الاولى للحروب الصليبية :

إلا م وقد زخر المشركـــــــون	بسيل يهال لما لسيل حـــــدا
وقد جاش من أرض افرنجـــــــة ،	جيوش كمثل جبال تـــــردى (١)

وحين هاجموا دمشق زمن مجير الدين ابق كانت الخيل مثل السيل كما يصفها العرقلة الكلبي :

من قاتل الافرنج دينا غـــــيره	والخيل مثل السيل عند المشهـــر (٢)

ويقول أبو الحكم الاندلسي في ذلك :

أتانا مائتـــــــــا ألـف	عديـــدا او يزيدونـــــــا
فبعضهمُ من أندلـــــس	وبعض من فلسطينــــــا (٣)

وحين حاصروا دمياط سنة ٥٦٥ جاءوا بألوف مؤلفة لم يعرف للبحر ساحل لكثرتها ، ويقـــول فتيان الشاغوري في ذلك :

ولما أتوا دمياط كالبحر طاميـــــا	وليس له من كثرة القوم ساحـــل
يزيد عن الإحصاء والعد جمعهــم	ألوف ألوف خيلهم والرواجــــل
رأوا دونها أسدا بأيديهم القنـــا	وبيضا رقاقا أحكمتها الصياقـــل (٤)

وفي وقعة حطين الفاصلة ، زمن صلاح الدين يقول العماد : "وخرجوا عن العدد والاحصاء وكانوا عدد الرمل والحصا ، وصاروا في زهاء خمسين ألفا أو يزيدون ، ويكيدون وما يكيدون ، قد توافوا على صعيد ووافوا من قريب وبعيد ، وهم هناك مقيمون ، لا يريمون ..." (٥)

وفيهم يقول ابن سناء الملك :

جمعوا كيدهمْ وجاءوك أركـــــانا	فمن قدّ فارسا شدّ ركنـــــا
لم تلاق الجيوش منهم ولكنـــــ	ـك لاقيتهم بلاداً ومدنـــا
كل من يجعل الحديد له ثوبـا وتاجـــــا	وطيلسانا وردنـــــا (٦)

---

(١) ديوان ابن الخياط ١٨٤ (٢) الروضتين ١/١/١٣٦ عقد الجمان ١٢ ق ١ ورقة ١٨١

(٣) الروضتين ١/١/١٣٩

(٤) ديوان فتيان الشاغوري ٣١٨

(٥) الروضتين ٢/٧٦

(٦) ديوان ابن سناء الملك ٨١٤

وحين فتح صلاح الدين القدس بعد ذلك " رأى بلداً كبلاد وجمعاً كيوم التناد ، وعزائم تـــد تألفت وتألبت على الموت فنزلت بعرصته ، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بمنصته ... " (١) وفي حصار عكا سنة ٥٨٦ هـ جاءت الجيوش الفرنجية من كل صوب " تدبوا بواقي راجل كرجل الدبا وخيل أغثت الوهاد والربى ... " (٢) ويقول القاضي في وصفهم : " فإنهم ـ خذلهم الله ـ أمم لا تحصى وجيوش لا تستقصى ، وراءهم من ملوك البحر من يأخذ كل سفينة غصبا ، ويطمع في كل مدينة كسبا ... " (٣) ، وحين هاجموا دمياط زمن الملك الكامل بن العادل جاءوا بأعـــداد لا تقل عن الاعداد التي جاءوا بها في المرة الاولى ، يقول قاضي غزة هبة الله بن محاسن في ذلك :

ولما طغى البحر الخضم بأهله الطـــ(م)ـــغاة وأضحى بالمراكب مزبـــدا
أقام لهذا الدين من سلّ عزمـــه صقيلاً كما سل الحسام مجـــردا (٤)

ويقول ابن دنينير في ذلك :

إلا م التمادي والفرنج بجمعهـــم على جيد دمياط كما انتظم العقـــد (٥)

ويقول ابن عنين في وصف الجموع الفرنجية :

قد أتفقوا رأيا وعزما وهمّـــــة وديناً وإن كانوا قد اختلفوا لسنـــا
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلـــت جموع كأن الموج كان لهم سفنـــا
عليهم من الماذيّ كل مفاضـــة كلاص كترون الشمس قد أحكمت وضنـــا (٦)

وحين هاجموا مصر في المرة الثالثة سنة ٦٤٧ زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب وابنه المعظم توران شاه كانوا في عدد عظيم ، يئس معه أهلها وظنوا أنهم قد أحيط بهم ، ولكن توران شاه استغل فيضان النيل وهاجمهم هجوما شل قدرتهم وأوقف تقدمهم بل جعلهم يتراجعون ثم يستسلمون ، تقول رسالة صدرت عن المعظم توران شاه الى نائبه في دمشق : " فإن كان قد استغل أمـــره (أمر لويس التاسع) واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد ، والأهل والاولاد ، فنـــودوا لا تيأسوا من روح الله ... " (٧) ، وفي معركة حمص زمن المنصور تكون أحلاف الفرنج والارمن والتتار فكونوا جيشا جرارا يذكر عدده ابن عبد الظاهر فيقول :

جاءت ثمانون ألفا من بحوثهـــم لأنهم ملكان البحث والنشـــر (٨)

---

(١) صبح الأعشى ٦/٥٠٥
(٢) الروضتين ١٦١/١/٦
(٣) صبح الأعشى ٢٤/٧
(٤) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ١ / ٢٠٩
(٥) ديوان ابن دنينير ورقة ٤
(٦) ديوان ابن عنين ص ٢٠
(٧) نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ١٠١ مخطوط
(٨) عقد الجمان جـ ٢٠ ق ٤ ورقة ٦٧٨

واخيرا في معركة عكا سنة ٦٩٠ تجمع الفرنج من جميع المناطق ودافعوا الملك الاشرف عنها ولولا تصفه لها وحصاره المستمر لما أستطاع استعادتها (١)٠

هذه أمثلة سريعة * تلمح من خلالها بيان الادب لاستعدادهم وتشددهم واحتمالهم المشقات من أجل الوصول الى الهدف ، واذا كان أدباء الحروب قد نوهوا بصبر الفرنج وشجاعتهم ** فانما أرادوا بذلك استنهاض همم المسلمين ، وكان الادباء أرادوا المقارنة بين موقف الصليبيين الذي يثير الاعجاب وموقف المسلمين الذين لم يتذرعوا بقوتهم كلها في الميدان ، وليستنفذوا الطاقة في دفع العدو عن بلادهم ، على أن لتعظيم العدو شر لا يخلو من هدف آخر وهو تعظيم نصر المسلمين ، فكلما كان العدو قويا ٠٠ كانت قيمة النصر أعظم ، وهذا ما أشار اليه الشاعر عمارة اليمني حين خاطب شاور السعدي بقوله :

وما قصدت بتعظيمي عداك سوى   تعظيم شأنك ، فاعذرني ولا تلم (٢)

صورة الجيش الصليبي وحركته :

أسترعى الجيش الصليبي المنظم أنظار الادباء ، فوصفوه كلا متكاملا في حالة الثبات والحركة والهجوم ، وهو في هذه الحالات كلها لا يخرج بعضه عن بعض ولا يتأخر فريق عن فريق ، وبذلك يحمون أنفسهم من أي هجوم اسلامي على جزء منفصل منه٠

---

(١) أنظر جواهر السلوك ورقة ٤٠ وما بعدها

* لمزيد من الأمثلة أنظر : الروضتين ١/١/ ٥٣ ، ٢ /١١٧ ــ ١١٨ ، ديوان أسامة بن منقذ ٢٠١ ديوان البهاء زهير ١٢٢ ، عقد الجمان ج٢١ ق ٢ ورقة ٤٦ ، ٤٥٧ ، ج١٧ ق ١ ورقة ١٨٠ ، الباهر ٢٣ ، ٥٦ الفتح القسي ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٣٩٠ ، ٤٣٩ ، ٥١١ ــ ٥٢٢ ، ٥٧٨ ، الكامل ١١ /٥٩ ، ٤٥٦ ، ١٢ / ٦٩ ، مفرج الكروب ٢ / ١٤٨ ، ٣٠٠ ، ٣ /١٤٥

** أنظر الروضتين ١/١/ ٣٩ ، ٢ /١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٩٠ ، الاعتبار ٤٨ ، صبح الاعشى ٧ /١٢٨ ، النوادر السلطانية ٩٧ ، ١٦٤ ، ١٩٩ ، مفرج الكروب ٢ / ٢٨٣ ، الكامل ١٠ /٦٢٢

(٢) الروضتين ١/ ٢ /٥٧٧ ، وفيات الاعيان ٢ /١٥٩

ونجد هذه الظاهرة عندهم منذ بداية الحروب الصليبية حتى منتهاها ، فحين حاصر عماد الدين زنكي حصن الاثارب " اهتموا بجمع الفرسان والاجناد وأحضروا من أطراف البلاد وجمعوا الداني والقاصي ، والمطيع والعاصي ، وأقبلوا في جموعهم المحشورة وعساكرهم المجرورة وأعلامهم المنشورة ، وصلبانهم وبنودهم وكنودهم ، وجاء اليه وقد غص بهم من الارض جنوبها وأخذت منهم شمالها وجنوبها ..." (١) ونشاهد مثل هذا التحرك الجماعي زمن نور الدين ، يقول ابن منير :

اجاثر الارماء لهم شهبـــــــــــا	بصيدَ النَّوْر ملتطم العبـــــــــاب
مشوا متساندين الى صليـــــــــب	يبرقع شهوة الصم الصـــــــــلاب (٢)

وقد ظهرت هذه الصورة بشكل أوضح في معارك عكا لأنَّ الفترة التي استغرقتها دامت سنتين ، تعرف المسلمون الفرنج عن كثب ، يقول العماد في وصف هجوم فرنجي على المسلمين : " خرجوا يوما قبل العصر ، في عدة كالليل خارجة عن الحصر ، قد التأموا واستلأموا وانضموا وانتظموا ، وتقدموا واقدموا للطوارق حاملين وللسيوف مجردين ، ... " (٣) ، ويصف وصول جيشهم الى أرض المعركة في " جمع شاك ، وجمر ذاك ، وقنطاريات طائرات ، وسابريات سابغات ... " (٤) .

هكذا ركز الأدب على اظهار حركتهم بشكل جماعي إذْ يخرج فارسهم وراجلهم بشكل جماعي اذ يخرج فارسهم وراجلهم وملوكهم وقماصتهم وكنودهم ، ويشكلون في أرض المعركة مقدمة وميمنة وميسرة وقلبا ، وفي هذا الاطار تجد التنسيق الدقيق ، فالرجالة محدقون بالفرسان والفرسان يحيطون بالعلم المرتفع ، فان كانوا في حالة انتقال من مكان الى مكان ، سار الجيش دون أن يستجيب لاستفزازات المسلمين الا حين الضرورة ، بل إنه يتحمل السهام الغزيرة ولا يقدم على معركة لا تناسبه ، حتى اذا ما أحس جانب من الجيش بالارهاق جاء جنود من الجانب الآخر وحلوا محلَّ الجنود المحاذين للمسلمين ، حتى يصلوا المكانَ المقصود ، يقول ابن شداد : "وثم قسم آخر من الرجالة مستريح ، يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فاذا تعب هؤلاء المقاتلة أو اثخنتهم الجراح ، قام مقامهم القسم المستريح واستراح القسم المقاتل هذا والخيالة في وسطهم لا يخرجون عن الرجالة الا في وقت الحملة لا غير ... وفي وسط القوم برج على عجلة ، وعلمهم يسير أيضا في وسطهم كالمنارة العظيمة ، وساروا على هذا المثال ..." (٥)

---

(١) الباهر ٤٠ وأنظر الكامل ١١ / ٢٠١
(٢) الروضتين ١ / ١ / ٢٢٩
(٣) الفتح القسي ١٦٤
(٤) نفسه ٦٢
(٥) الروضتين ٢ / ١٩٠

وان كانوا في حالة هجوم فانهم يهجمون بشكل منظم وبأقصى قوة مستطاعة ، يقول العماد : " وللداوي دوي وللاستباري هوى ، والهاروني يقدم على البوار ، والتركبوني يلقي نفسه على النار (١)
وأما إن كانوا في حالة سكون فمن الصعب استثارتهم ، بل يبقى تركيبهم كما هو : الرجالة تحمي الخيالة ، والخيالة تحيط بالعلم ، يقول العماد : " ووقفوا على صهوات الخيول الى ضحوة النهار والراجل محدق بهم كالاسوار ، وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم ... وهم ثابتون ثابتون ، وعلى مواطئهم نابتون ، كالبنيان المرصوص ما فيه خلل والحلقة المفرغة ما اليها مدخل وكالسور المحيط ما عليه متسلق ، وكالجبل الاشم ما فيه متعلق ..." (٢) ، ويقول أيضا فإنهم إذا نزلوا صعب نزالهم ، وأتعب قتالهم ، وإذا انبثوا تعذر حصدهم ، وإذا اثبتوا تعسر تصدهم ، وإذا التصقوا ببطن الارض صاروا كالقراد ، وإذا حلقوا في جو الدو طاروا كالجراد ، فعند الانتشار يمكن التقاطهم ، وعند الانحصار يمكن احتياطهم ..." (٣) .
هذه أمثلة عن صورة الجيش المتكامل* ، أما الفارس الصليبي ، فهو يتصف بالشجاعة والإقدام ، ويضحي بنفسه ليكون سورا للاخرين ، ومما يدل على ذلك ما يرويه ابن شداد عن شاهد عيان " أن فارسا وقع فيه زهاء خمسين سهما وحجرا وهو يتلقاها ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال " (٤) وما يقوله العماد في وصفهم بأنهم " قد التأموا واستلأموا وأنفسوا وانتظموا وتقدموا وأقدموا ... " (٥) وما يقوله في وصف أفرنجي " كأنه جني مستشيط ، للشيطان نجي ، وهو يداني ويمانع ويكافح عن تلك الثغرة ويقارع ... " (٦) .
ولم تقل شجاعة نسائهم عن شجاعتهم ، فقد وجد عند عدة نساء مقتولات وكأنها فوارس في هيئتها وشجاعتها ، ولم يكن بالامكان المسلمين تبين هويتها الا بعد تعريتها من الدروع ، مما جعل العماد يقول : " وفي الفرنج فوارس لهن دروع وقوانس ، وكن في زي الرجال ، ويبرزن في حومة القتال ، ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات حجال ... " (٧)** .
ويظهر من الادلة السابقة صفة أخرى هي الصبر وتحمل المصاعب ، يقول ابن عنين :

لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا	طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
لقوا الموت من زرق الاسنة أحمرا	فألقوا بأيديهم الينا فأحسنا
أسود وغى لولا قراع سيوفنا	لما ركبوا قيدا ولا سكنوا سجنا (٨)

---

(١) الفتح القسي ٦٢ (٢) نفسه ٢٩٩ (٣) نفسه ٢٩٦
* للمزيد من الامثلة أنظر : الفتح القسي ٢٩٨ ، ٢٩٥ ، ٣٠٣ ، الخريدة قسم الشام ١/ ٣٣٥ ، ديوان ظافر الحداد ٣٧٥ ، الروضتين ٢/ ١٧٩ ، ١٩٠ ، النوادر ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١٠٦ ، الكامل ١١/ ٥٠١ ، ٥٠٣ ، ٥٤٨ ، ٥٠٦ ، ١٢/ ٣٣ ، ٣٧
(٤) النوادر السلطانية ١٦٧ ، وأنظر ١٦٦ ، والفتح القسي ٣١٢
(٥) الفتح القسي ١٦٤ (٦) نفسه ٥٠٤ (٧) نفسه ٣٤٩
** لمزيد من الامثلة عن الشجاعة انظر : الاعتبار ٦٤ ، النوادر السلطانية ٢٢٣ ، عقد الجمان جـ١٢ ق ١ ورقة ١٩٩ ، الكامل ١١/ ٣٥٤ ، ٥٥٥ ، الباهر ٤١
(٨) ديوان ابن عنين ٢٠٥

ومن الصفات الاخرى التي وصف بها الجيش الفرنجي اغتنام الفرص ، سواء باستغلال التمزق السياسي عند المسلمين أو باستغلال الظروف الطارئة ، فحين استنجد بهم شاور من مصر ضد أسد الدين شيركوه ، أتوه على الصعب والذلول طمعا في ملكها (١) ويظهر هذا الطمع في قول مري لاصحابه : " ان نور الدين بحلب ، وعساكره متفرقة ، ومتى وصلنا الى مصر لم يكن لنا من يصدنا عنها فاجابوه الى مراده " (٢) ، ويبدو من قوله هذا أهتمام الفرنج بعزل مصر عن العالم الاسلامي لاهميتها في تقديم الاموال والرجال ، ولانها تشكل مع الشام فكي (كماشة) تحبط تطلعاتهم التوسعية •

هذا وقد وصف الادب لباسهم في المعركة وأشكالهم ، فهذا العماد يصف لباس فارس بقوله : " قد أتخذ طارقته لجسمه صدفا ، وصار لسهام المنية هدفا ، وهو كانه مما نشب فيه من النشاب القنفذ ، وتلك السهام من لبس الحديد لا تنفذ (٣) ، وقد أتكأ الشاعر المصري ابن سارة الاشبيلي على هذه الصورة في معرض وصفه لبركة فيها سلاحف ، اذ شبهها بالجيش الفرنجي على رؤوس جنده الخوذ وعلى أكتافهم الطوارق يقول :

لله مسجورة في شكل ناظرة	من الأزاهير أهداب لها وطف
فيها سلاحف ألهاني تقاسمها	في مائها ، ولها من عرمض لحف
تنافر الشط الا حين يحضرها	برد الشتي فتستدني وتنصرف
كأنها حين يبديها تصرفها	جيش النصارى على أكتافها الحجف

ويعقب الرشيد بن الزبير على قوله هذا بقوله : هذا معنى بديع لا يفطن لحسنه الا من رأى فرسان الفرنج في طوارقها ورؤوسهم أشبه الاشياء برؤوس السلاحف لما عليها من التشائيق (٤)

ويصفهم ابن شداد بقوله : " وعليهم الكبورة الثخينة والزرديات السابغة المحكمة بحيث يقع فيها النشاب ولا يتأثرون •••" (٥) ، ثم يقول : " ولقد شاهدتهم وينشزون في ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة وهو يسير على هيئته من غير أنزعاج •••" (٦) •

هذه هي هيئة المقاتل الفرنجي ، الراجل منهم أو الفارس ، وقد وصف ابن شداد صورة الفرس التي يركبها الفارس ومقدار تأنقهم في تزيينها بالزرد حتى الحوافر يقول : " وكان عليه لبس لم ير مثله (٧) •

---

(١) الكامل ١١/٣١٤ — (٢) ابن الفرات مج٤ ج١ ص١٩

(٣) الفتح القسي ٥٠٤

(٤) الخريدة / قسم شعراء مصر ج ٢ ق ٤ ص ٢٧٨ وأنظر ابن القلانسي ص ٣٢٨

(٥) النوادر ١٧٩ ، ذيل تاريخ دمشق ٣٤٣

(٦) النوادر ١٧٩

(٧) نفسه ١٥٠

ومع أن تلك الصفات استأثرت بإعجاب الادباء بهم إلا أنها كانت تنطمر أو تكاد لافتقار الفرنج الى النزعة الانسانية، إذ إن الشجاعة العظيمة ترتبط عادة بسمات انسان كريم ، كالتسامح ونبل الاخلاق والتواضع عند النصر ، ولكن الفرنج لم يتحلّوا بهذه الصفات ، مما جعل أسامة بن منقذ يقول فيهم : " اذا خبر الانسان أمور الفرنج سبّح الله تعالى وقدّسه ، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل " (١) ، فلا عجب إذن أن يُصْدِرَ أدباء العرب أحكاما قاسية عليهم ، حتى وان أشادوا بشجاعتهم وحماستهم وصبرهم ، وبما وسم به الفرنج على ألسنة أدباء العرب ، الغرور والغدر ، والوحشية والحقد والجهل والتحدي على الآخرين ... وقد ذكرنا أدلة كثيرة مضت في معرض الحديث عن الصراع الحضاري ، لكن لا بأس أن نذكر مثلا جامعا للصفات في وصف المركيس صاحب صور يقول : " وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر ، وأغوى شياطينه وأضرى سراحينه ، وأخبث ذئابه ، وأنبح كلابه ، وأعوى أعوانه ، وأخون اخوانه ، وأبغض بغاته ، وأجفى جفاته ، وأرعى حماته ، وأحمى رعاته ، وشر شراره ، وأنكر نكاره ، وأفجر فجاره ، وأروغ ثعالبه ، وأصب عقاربه ، وأحنث معاهديه ، وأنكث معاقديه ... " (٢) *

وقد قدم الادباء في مقابل ذلك صورة للبطل المسلم بعيدا عن الطيش والغرور شجاعا تقيا عادلا متواضعا ، يقظا كريما ، مرعبا للظالمين ، قريبا الى قلوب الناس الذين يحكمهم ** .

---

(١) الاعتبار ٦٤ ، ٩٧
(٢) الفتح القسي ١٠٦
* لمزيد من الامثلة : النوادر ١٦٩ ، الروضتين ١/١/١٨٣ ، ٢/١١٧ ، الفتح ١٠٦ ، ١١٠ ، ديوان أسامة ٢٠٣ ، الكامل ١١/١٢٩
** انظر أمثلة على هذه الصفات : الروضتين ١/ق/٤٣ ، ٥٠ ، ١٠٥ جـ ق ٢/١٣ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ .

ثانيا : الأسلحة والمعدات العسكرية :

ميز الادب بين نوعين من الاسلحة التي أستعملها الصليبيون ، وهما الاسلحة الخفيفة ، وهي غالبا ما تكون أسلحة فردية يحملها الجندي الصليبي ، والأسلحة الثقيلة وهي التي يعتمد عليها الجيش الصليبي في مجموعه ، وتستعمل في الهجوم والدفاع .

أما الاسلحة الخفيفة فهي الاسلحة الضرورية لكل مقاتل كالترس والدرع والسيف والقـوس، والسهام والرماح ، يقول ابن سناء الملك واصفا الجندي الصليبي (المدرع) :

حملوا كالجبال عظما ولكـــن ... جعلتها حمامنا كالعهـــن
جمعوا كيدهم وجاءوك أركـــا ... نا ومن هدّ قارسا هدّ ركنـا
لم تلاق الجيوش منهم ولكنـ ... ـك لاقيتهم جبالا ومدنـا
كل مَنْ يجعل الحديد له ثـو ... با وتاجا وطيلسانا وردنـا (١)

وقد ذكر العرقلة صورة طريفة لأتراس الفرنج وطوارقهم ، فشبه الطلطاج المصنوع من العجين (نوع من الحلوى يصنع من طبقات رقيقة جدا من العجين) وفيها السيخات بالطوارق (الاتراس) الفرنجية التي علقت فيها السهام التركية يقول :

الارب طاه جاءنا بعد فتـرة ... بأطباق طلطاج أشف من الثلـج
وقد غارت السيخات فيها كأنها ... يقال ترك في طوارق أفرنـج (٢)

وقد جاء ذكر الطوارق عند ابن القيسراني قبل ذلك في معرض حديثه عن أنتصار نور الدين على الفرنج في موقعة أنب ، وقد وهم محقق الروضتين اذ ظنها رماحا (٣) ، والمعنى بها لا يستقيم ، فابن القيسراني يصف انقلاب السلاح الذي بأيديهم من سلاح قتال بالمسلمين الى سلاح قتال بهم ، حتى إن الاتراس (الطوارق) التي كانت تقيهم الرماح والسهام أصبحت تثور تحتها المصائب وذلك بأن تسمح للسهام والرماح بأن تنفذ منها حاملة الموت للأعداء فيقول :

كانت سيوفهم أوحى حتوفهـم ... يا رب حائنة منجاتها العطـب
حتى الطوارق كانت من طوارقهـم ... ثارت عليهم بها من تحتها النـوب (٤)

وجاء في ذيل تاريخ دمشق أن نور الدين زين قلعة دمشق بالطوارق الفرنجية وأنواع الاسلحة(٥) كما جاء في الخريدة (قسم شعراء مصر) أن الشاعر ابن سارة الاشبيلي وصف بركة ماء وفيهـا سلاحف بصورة الجيش الصليبي الذي يلبس أفراده الخوذ ويضع كل منهم الترس على كتفه (٦) .

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ٨١٤

(٢) الخريدة / شعراء الشام ١ / ١٩٠

(٣) أنظر الروضتين ١ / ١ / ١٥٣ ـ ١٥٤ وقد ذكرت الطوارق بمعنى الترس في هامش رقم (٥) من كتاب النوادر السلطانية ص ١٢٧

(٤) الروضتين ١ / ١ / ١٥٣ ـ ١٥٤

(٥) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٨

(٦) الخريدة / قسم شعراء مصر / ٢ ق ٤ / ٣٧٨

وبالاضافة الى الترس والسيف فقد أستعملوا الدروع الحديدية الواقية لهم ولخيلهم ، يقول ابن شداد عن ابن ملك الالمان إنه " عرض عسكره في أثنين وأربعين مجفجفا ..." (١) وجاء في المعجم الوسيط أن التجفاف آلة للحرب من حديد وغيره يلبسه الفرس أو الانسان ليقيه في الحرب ، كما أستعملوا النشاب والجرخ * وقد ذكر ذلك أبن الوردي الذي شارك في معركة عكا الاخيرة سنة ٦٩٠ هـ (٢) .

وأما الآلات الثقيلة ، فقد أظهر الادب أنواعها وصورها بشكل مفصل ، وذلك لتصوير قوة الجيش الفرنجي وكثرة عدده ، وقد كان بعض هذه الآلات يصنعها الفرنج في أرض المعركة مثل الأبراج والدبابات والمجانيق والجسور ، وكان بعضها يأتي مصنوعا من بلادهم ، وأخصها القطع البحرية .

وقد أستخدمت القطع البحرية ، في نقل الجنود والسلاح والميرة من أوربا الى المشرق الاسلامي ، كما كانت تستعمل أيضا في عمليات الهجوم ضد المدن الساحلية . يقول ابن الفرات في تاريخه " إن الفرنج نزلوا على دمياط سنة ٥٦٥ هـ في عالم عظيم .. وكان وصولهم في ألف ومئة مركب ما بين شيني ومسطح وطريدة " (٣) ، ويقول العماد في حديثه عن ملك الانجليز " وكان معه من الشواني خمس وعشرون قطعة كل واحدة منها تضاهي قلعة وتوازي قلعة ، واحدث في القلوب روعة وأورث في النفوس لوعة " (٤) ، وفي حصار دمياط سنة ٦١٥ هـ ، وصل للفرنج مركب عظيم " يسمى " مرمة وحوله عدة حراقات يحمونه ، والجميع مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون اليه" (٥) ، ولكن ذلك لا يعني أنهم لم يصنعوا مراكب في الأرض التي أحتلوها ، فقد ذكر ابن الأثير ان البرنس أرناط عمل أسطولا فأنزله في بحر أيله ، وأفترقوا فرقتين الاولى على حصن ايله وهو للمسلمين والثانيه على عيذاب" (٦) .

والأمثلة على استعمال السفن في الهجوم على المدن المحصنة كثيرة ، ومنها ما ذكره ابن الفرات أيضا من " ان الفرنج أتخذوا مركبا يعلو سور دمياط وشحنوه من الرجال والسلاح وأجروه في البحر الى أن وصل سور دمياط فوثبوا منه الى السور وفتحوها (٧) .

---

(١) النوادر ١٢٦ ، وأنظر الكامل ١٢ / ٤٦

* الجرخ : نوع من الاقواس الرامية التي يرمى عنها النشاب أو النفط .

(٢) تاريخ ابن الوردي ٢ / ٢٢٥ ، ابو الفداء / المختصر في تاريخ البشر ٤ / ٢٥

(٣) تاريخ ابن الفرات مج ٤ ، ج ١ ، ص ٨٣ ، وانظر المراكب في ابن القلانسي ١٧١

(٤) الفتح القسي ، ٤٨٤ .

(٥) مفرج الكروب ٤ / ٩٥ .

(٦) الكامل ١١ / ٤٩٠ .

(٧) تاريخ ابن الفرات مج ٤ ، ج ١ / ٨٢ وانظر آثار البلاد للقزويني ١٩٤ ، ٢٢٢ وتاريخ ابن الفرات مج ٥ ، ج ١ ، ص ٢٢٠

ومن المدن الساحلية التي تعرضت لهجوم بالمراكب مدينة عكا ، فقد ذكر ابن شداد أن الفرنج " أعدوا في البحر بطسة هائلة وضعوا فيها برجا بخرطوم اذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات ، ويبقى طريقا الى المكان الذى ينقلب عليه فتمشي عليه المقاتلة " (١) ، كما وصف العماد أحد المراكب التي هاجمت عكا فقال : " وأخذ تلك المراكب قد ركب بين على رأس صارية لا يطاوله طود ولا يباريه ، وقد حشي بالنفط والحطب وضيق عطنه لسعة المطلب " (٢) ، وقد اعتمد الفرنج على مثل هذه المراكب في حربهم للمسلمين في عكا سنة ٦٩٠ ، فيروى ابن الوردى وقد اشترك في المعركة ، أنه شاهد " مراكب مقبية بالخشب الملبس بجلود الجواميس ، ويرمي الفرنج منها بالنشاب والجروخ والقتال من قدامهم من جهة المدينة ومن يمينهم من البحر ، وأحضروا بطسة فيها منجنيق يرمي على الحويين ... " (٣) .

ومن الآلات الثقيلة التي صنعوها ، الابراج ، ونلاحظ أنهم اعتمدوا عليها في وقت مبكر من الحروب الصليبية ، اذ استخدموها في حصار صيدا سنة ٥٠٤ هـ ، فعملوا برجا وزحفوا به على سورها ، ويذكر ابن القلانسي هيئته بأنه " ملبس بحطب الكرم والبسط وجلود البقر الطرية ليمنع من الحجارة والنفط ، وكانوا اذا أحكموه على هذه الصورة نقلوه على بكر تركب تحته في عدة أيام متفرقة " (٤) . وقد زاد اعتمادهم على الابراج في حصار عكا ، وذلك حتى يصلوا الى سورها فينقبوه أو يرتقوه ، ولما احتاجوا الى المواد الاولية استوردوها من أوروبا ، وتحملوا في نقلها المصاعب الكثيرة ، يروى ابن واصل أن " الفرنج قد شرعوا في بناء ثلاثة أبراج عالية عظام ونقلوا في البحر آلاتها ، وأخشابها الجافية وقطع الحديد ، وتمموا فيها سبعة أشهر ، فعملت كأنها أطواد ، ونصبت في ثلاثة مواضع من أقطار البلد ، وملئت طبقاتها بالعدة والعدد وكل برج منها في أركانه أربع أسطوانات عاليا استقلالا ، طول كل واحدة خمسون ذراعا لتشرف على ارتفاع سور البلد وبسطوها على دوائر العجل ، ثم كسوها بجلود البقر ، وسقوها بالخل والخمر " (٥) ، ويصف ابن شداد مساحتها وسعتها فيقول : يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ما قيل ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق " (٦) .

ويلخص العماد بلغته المؤنقة ما ذكره ابن شداد وغيره مبينا أن البرج يتكون من عدة طبقات فيقول : " ... وركبّوها من الاخشاب الطوال الأطوال ، والعُمُد الثقال ، ونوّضوها وقذفوها ، ونصبوها وأحكموها ، وسقفوها طباقا ، وسمّروها بالحديد وجعلوا لها منه أطواقا ، ووثقوها شدا وشدوها وثاقا ، ولبّسوها بالسلوخ وملأوها بالجروخ ، وزحفوا بها الى السور وكشفوا بالرمي منها بعض سقوف الدور " (٧) .

---

(١) النوادر ١٤١ (٢) الفتح القسي ٤٦٧
(٣) تاريخ ابن الوردي ٢ / ٢٣٥ ، ابو الفداء تاريخ مختصر البشر ٤ / ٢٥
(٤) ذيل تاريخ دمشق ١٧١ ، وأنظر زبدة الحلب ١ / ١٤٦
(٥) مفرج الكروب ٢ / ٣١٥ (٦) النوادر السلطانية ١٢٠
(٧) الفتح القسي ٣٦٧ ، وأنظر ص ٣٧٠ ، لوصف الدبابات ، أنظر تحقيق الشيال للنوادر السلطانية هامش ص ٤٢

والآلة الثالثة الثقيلة التي استخدمها الفرنج هي الدبابة ، وقد جعلها القاضي الفاضل شبيهة للبرج ، مع أن هناك فروقا بين الآلتين يقول أنها " تشبه الابراج في جفاء أشخاصها وارتفاعها ، وكثرة مقاتليها واتساعها " (١) ، والحقيقة أنها أقصر منها لأن من أعمالها هدم الاسوار عن طريق دفعها بالكبش ولذلك يجب أن تكون أقصر من السور أو أعلى منه قليلا ، بينما يكون البرج كما ظهر من الادلة السابقة أعلى من السور . أما أنها تشبه البرج في الصنعة ، فربما كان ذلك صحيحا ، لان البرج يتكون من طبقات يعلو بعضها بعضا ، وأما الدبابة فهي مقسمة ولا تتكون من طبقات مرتفعة ، على أن هناك فرقين آخرين بين الدبابة والبرج هما :

أولا : ـ أن الدبابة تتكون من عدة طبقات متداخلة مما يجعلها أقوى من البرج (٢) ،
ثانيا : ـ أن البرج يختلف عن الدبابة في الشكل وفي المحتويات كما سيتضح من وصف الدبابة فيما يلي ، وقد تفنن الفرنج في صنع هذه الدبابات مع مرور الايام لا سيما حين تمكن المسلمون من حرق بعضها في عكا ، فجعلوها " بأربع طبقات : الاولى من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد والرابعة من النحاس وكانت تعلو على السور* ، وتركب فيها المقاتلة "(٣) ويصفها العماد بقوله : وكان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائلة ، قد أظهرت لها في الشر غائلة ، ولها أربع طباق ، شدها على الارتباط باق ، ولها من الاحكام بارزواياء ، وهي خشب ورصاص وحديد ونحاس " (٤) ثم يصف أثرها في إثارة الرعب لدى المسلمين يقول : " وبلي البلد منها بكل بلية ، ورزئ بكل رزية ، وكانت هذه الدبابة على العجل ، ليقربوا بتقريبها أسباب الاجل ، فباتت القلوب منها على الوجل ، وكاد أصحابنا يطلبون الأمان ، وخضع كل أبي واستكان ، فقارعوا عندها أشد قراع وما صحوا أشد صحاح "(٥) .

ولما كان سور عكا مانعا ، والدفاع الاسلامي عنها شديدا ، فقد أضاف الفرنج الى الدبابات اضافات أخرى ، مما جعل شاهد العيان ابن شداد يسميها " بالالات العجيبة والصنائع الغريبة " (٦) ، ومن هذه الاضافات رأس عظيم طويل مدبب لهدم الاسوار ، يقول ابن شداد في ذلك : فاتخذ الفرنج من الالات العجيبة والصنائع الغريبة ما أهال الناظر اليه من شدة الخوف على البلد (عكا) .. فمما أحدثوه آلة عظيمة تسمى دبابة ، ويدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ، ملبسة بصفائح الحديد ، ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل ، وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور ولها رأس عظيم ، برقبة شديدة من حديد ، وهي تسمى كبشا ينطح بها السور بشدة عظيمة ، لأنه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها " (٦) .

---

(١) الالمام بالاعلام ، ١٦٥ (٢) أنظر الكامل ١١ / ٤٥
* يعني هذا القول أن الأصل فيها أدنى من السور ولكن هذه الدبابة ركب عليها برج خشبي جعلوها تعلو السور ، أنظر النوادر السلطانية ص ٤٥ هامش رقم (١)
(٣) النوادر السلطانية ص ١١١ (٤) الفتح القسي ٤٨٧
(٥) نفسه ٤٨٧ (٦) النوادر السلطانية ١٤٠

ويصف العماد هذا الكبش وعمله فيقول : " واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة ، وآلة للغوائل غائلة ، في شكلها رأس عظيم يقال له الكبش ، وله قرنان في طول رمحين كالعمود يسمن الفيلين ، أقفال الاسوار بها تفض ، فكم سور اذا نطحته طحنته ، وكم معقل حصنه الدهر حصنه ومحنته ... " (١) ، وحتى تنقلع هذه الدبابة في أضعاف ضم المسلمين من جهة وتقاوم القدور النفطية التي كانت تقذف عليها أخذوا بنائها ، وألبسوا كبشها الحديد والنحاس ، يقول العماد : " ... وقد سقفوها مكبشها بأعمدة الحديد ، وكملوا لها أسباب الاحكام الشديد ، ولبسوا رأس الكبش بصفد الحديد النحاس ، وكسوها حذرا عليها من النار سائر لباس البأس ، فلم يبق للنار اليها سبيل ولا للطالب عليها دليل (٢) .

وقد أحدث الفرنج آلة أخرى تشبه الدبابة أو القبو سماها ابن شداد بالسنور ، إلا أن رأسها محدد على شكل السكة التي يحرث بها ، ورأس الكبش مدور وهذا يهدم بثقله ، وتلك تهدم بحدتها وثقلها .. " (٣) .

والالة الرابعة الثقيلة هي المنجنيق* ، وهو آلة من آلات الحصار والهجوم في قلعة الحصر ، وقذائفه من الحجارة جلبها الفرنج معهم مرة من صقلية وقذفوا بها الاسكندرية ، يقول القاضي الفاضل : ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها وثلاثة مجانيق كبار المقادير ، تضرب بحجارة استصحبوها من صقلية ، وتعجب الناس من أثرها وعظم حجرها ... " (٤) .

ومما يلفت النظر في هذا الجانب أن الادباء أمعنوا في وصف الدبابات والأبراج ولكنهم لم يقدموا صورة دقيقة للمجانيق الفرنجية ، وإنما وصفوا المجانيق الاسلامية ، يقول شهاب الدين محمود : ونصبت المجانيق (الاسلامية) فلم ترع حق جنسها (الفرنجية) وسطت عليها ، فأصبح غدها في التحامل أبعد من أمسها ، واستنهضتها العدا فأعلمتهم أنها لا تطيق الدفاع عن غيرها بعد أن عجزت عن نفسها ، وسطت أنفسها امارة على الاذعان ورنت أحاجها : إما إجابة ان تذل للتشهد وإما إنابة الى طلب الامان "(٥)

ويقول أيضا :

كأن المجانيق التي قمن حولها رواعد سخط وبلها النار والصخر (٦)

---

(١) الفتح القسي ٤٣٢

(٢) المصدر السابق ٤٣٦

(٣) النوادر السلطانية ١٤١

* عن المنجنيق أنظر النوادر السلطانية هامش ٤ ص ٦٦ وصبح الأعشى ٢ / ١٤٤

(٤) الإلمام بالأعلام ١٦٥ ، وأنظر تفاصيل الحصار في الكامل ١١ / ٤١٣ ، ابن شداد النوادر السلطانية ٤١ - ٤٦

(٥) صبح الاعشى ٨ / ٢٦٦ ، حُسْن التوسل ١٤٥

(٦) البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٩ .

وما يرتبط بالاسلحة الثقيلة بعض الادوات المساعدة في الحروب في الجيشين الفرنجي والاسلامي مثل أدوات اطفاء الحريق، او اتقاء النفط ، فقد كانوا يستعملون الستائر التي يتخذونها من الجلود واللبود المبلولة بالخل والخمر ، يقول العماد في وصف عملية اطفاء الحريق " وجاء الفرنج تلك الليلة فباتوا بالاوتهات (براميل صغيرة) يطفئون بالخل والخمر تلك الشعل المستوليات " (١)،

ومن هذه الادوات السلالم والجسور ، ففي حصار عكا سنة ٥٨٦ هـ استعملوا السلالم الكبيرة الهائلة ، كما استعملوها في التسلق على قلعة الطور ، لولا أن رماهم المسلمون بالنفط (٢)، وأما الجسور فقد ذكرها عمارة اليمني في معرض مدحه لأسد الدين شيركوه :

لئن نصبوا في البر جسرا فأنكم عبرتم ببحر من حديد على الجسر (٣)

وفي سنة ٦٠٥ هـ أغار الفرنج على باب تدمر من حمص بعد أن مدوا على نهر العاصي جسرا خشبيا (٤) ، صنعوه من الاخشاب القوية التي تتحمل مرور جيش كبير عليه ، وقد أشار الادباء الى طول المدة التي يقضيها الفرنج في عمل هذه الالات ، كما ذكروا تكاليفها الباهظة ، يقول العماد : " ولهم منذ تسعة أشهر يجمعون هذه الالات ويستسهلون عليها الغرامات ، حتى أقاموا أبراجا أعلى من أبراج السور بضعف سمكها ، وتربوها ناكية في الثغر المحروس بفتكها " (٥)، كما يذكر أن الكندهرى أنفق على أحد المنجنيقات ألفا وخمسمائة دينار (٦)٠

---

(١) الفتح القسي ٣٢٢ ، وانظر النوادر ١٤١ ، ومفرج الكروب ٢/ ٣٠٣ ، ٣١٥
(٢) الذيل على الروضتين ١٠٧
(٣) الكامل ١١/ ٣٠٠
(٤) الذيل على الروضتين ٦٧
(٥) الفتح القسي ٢٧٢ ، وانظر ٢٧٧، وابن القلانسي ١٧٩
(٦) الفتح القسي ٤١٦

ثالثا : التحصينــــــات :

اتخذ الصليبيون التحصينات الدفاعية ، تحسبا لأى هجوم اسلامي عليهم لأنهم يعلمون أنهم طارئون على أرض المسلمين ، ولذلك أعتمدوا في حياتهم على عاملين أساسين : الأول الامدادات الخارجية ، وقد مر ذكرها : والثاني : التحصينات .

وقد صور الادب ، ولا سيما النثر ، أنواع هذه التحصينات ، فذكر أربعة أنواع لها :
(١) الحصون (٢) القلاع (٣) الثغور (٤) الاســـوار .

أما الحصون فهي كثيرة ومنتشرة في الأماكن ذات التجمع السكاني أو ذات الموقع " الاستراتيجي " ولذلك ذكر الادباء نوعين من الحصون : برية وبحرية ، ومن الحصون البرية حصن كوكب وبيت الأحزان والكرك والشوبك والمرقب وبرزية ، وأما الحصون البحرية فمنها : مرقية والاذقيــة ، ومما يدخل في ذلك أيضا ، المدن الحصينة كالرها والقدس وعكا وصور .

وتشترك هذه الحصون سواء في ذلك البرية منها أو البحرية ، أو المدن الحصينة في صفات القوة والمنعة ، يقول العماد في وصف كوكب : " وجئنا الى كوكب فوجدناها في مناط الكوكب ، كأنها وكر العنقاء ، ومنزل الهواء ، وقد نزلتها كلاب عاوية ، ونزعت بها ذئــــاب عاوية " (١) .

وفي بيت الأحزان تجمع الفرنج لمراقبة تحركات صلاح الدين ، فجهز جيشا لمحاربتهم فاحتموا فيه لاعتقادهم أنه يحميهم ، لكن صلاح الدين خيب ظنهم ، ودمر حصنهم ، وفي ذلك يقول عمادة الضرير الحمصي :

فناهيك من جيش نهضت بجيشـــــه	فأقعدت ، لما أن نهضت به ، العـدى
وزرت بما الحصن الذى لو تحصنــت	فوارسه بالنجم أوردته الــــردى
تحصنت به سلب الصليب ورهنـــــه	وشهدته لما غفا فتشهــــدا
هبت اليه هبة يوسفيـــــــة	تعيد هباء كل ما كان جلمدا (٢)

وقد أتخذ الفرنج حصني الكرك والشوبك مركزا مهما لمهاجمة القوافل الاسلامية ، ولمنع أي اتصال بين الشام ومصر ، فضلا عن تهديد الاماكن المقدسة ، ولذلك وصفه القاضي الفاضل بأنه " شجا في الحناجر ، وقذى في المحاجر ، قد أخذ الآمال بمخنقها ، وقعد بارصاد العزائم وطرقها ، ورصد الطرقات المسلوكة ، وصير في السبل المسكوكة ، وصار ذئبا للدهر في ذلك الفج ، وعذرا لتارك فريضة الله من الحج ... وجلس من هام الاسلام فكان عاتقــه ، وجثم على أنفاس الحجاز فلم يدع نفسا يصعد من تهايمه ، فواديه من مسائل المسائل بمرجعها وظله من نجوم الأسنة بمطلعها ، وهو والشوبك ، يسر الله الآخر (فتحه) كبيت الواصف للأسدين :

ما مر يوم إلا وعند همـــــــا	لحم رجال أو يولغـــــان دما (٣)

---

(١) الروضتين ٢ / ١٣٦ (٢) الروضتين ٢ / ١٢

(٣) ابن نباتة المصرى : الفاضل من كلام القاضي الفاضل ورقه ٢٥ ط

وكفى إشارة إلى أنه مكان الغزاة ومقرها ومستودع الفريضة ومستقرها ... "

وقد قصد القاضي بهذا الوصف تحريض صلاح الدين ، وبالفعل حرك صلاح الدين جيشه لتأديب صاحبه ، وقد تراءى له أن من اليسير عليه امتلاكه ، لبعده عن أمدادات الفرنج ، ولكن موقعه الحصين جعل صلاح الدين يتريث ويحتال لامتلاكه . يقول العماد : " ولولا الخندق المانع من الإرادة ، وأنه ليس من الخنادق المعتادة ، بل هو واد من الأودية ، واسع الأفنيــة ، لسهل المشرع ، وهجم الموضع ، فليس الا تدبير طم الخندق ، والاخذ بعد ذلك من العدو بالمخنق " (١) ، وينقل القاضي الفاضل صورة امتلاكه ، ومن خلالها نلمح منعة هذا الحصن وقوته ، يقول : " وأما الكرك فكفات المنجنيقات عليه متظافرة ، وحجارتها على من فيه متجبرة وقد جدعت أنوف الابرجلية ، وأسلبت قناع الستائر ووجوهها المتبرجة ... " (٢) ، ونتيجـة لهذا القصف العنيف انهدم الجزء المقابل للمنجنيقات مما سهل السيطرة عليه ، يقول العماد : " فالسور المقابل للمنجنيقات قد انهدمت أبراجه وأبدانه ، وانهدمت قواعده وأركانه ... (٣)

إلا أن هذا الحصن لا يقارن بحصن المرقب ، وقد قدم شهاب الدين محمود صورتين طريفتين له ، إحداهما شعرية والأخرى نثرية ، يقول في الأولى مادحا المنصور قلاوون :

أوردتها المرقب العالي وليس ســـوى	ماء المجرة في أرجائها نهـــــــــر
كأنه وكأن الجو يكنفـــــــــــــه	ونم تمثله في طيها الفكـــــــــــر
يختال كالغادة العذراء قد نظمـــت	منه مكان اللآلي الانجم الزهـــــر
لها الهلال سوار والسها شنــــف	والقلب قلب وعقود الدجى طـــــرر
تعلو الرياح إليه كي تحيط بــــــه	خبرا ، وتدنو وما في ضمنها خبـــر
وليس يروى بماء السحب معـــدة	إليه من فيه إلا وهو منحـــــــدر
وأضرمت حوله نار لها لهــــــب	من السيوف ومن نبل الوغى شـــرر
وللنقوب دبيب في مفاصلــــــه	تثير سقما ولا يبدو له أثـــــــــر
أضحى به مثل صب لا تبين بـــه	نار الهوى وهي في الاحشاء تستعر (٤)

ويقول في الثانية : " وحوله من الجبال الشم كل شامخ ، تتهيب عقاب الجو قطع عقابــه ، وتقف السريع خدما دون التوقل في هضابه ... قد تقرط بالنجوم ، وتقرطق بالغيوم ، وسما فرعــه الى السماء ، ورسا أصله في التخوم ، تخال الشمس اذا علت أنها تنتقل في أبراجــــه ،

---

(١) الروضتين ٢ / ٥٦

(٢) المصدر السابق ٢ / ٥٥

(٣) المصدر السابق ٢ / ٥٥

(٤) النجوم الزاهرة ٧ / ٣١٧ ، ٣١٩

وظن من سما الى السمسها أنه ذبالة في سراجه ، فكم من ذي جيوش تدمات بنصته ، وذي سطوات أعمل الحيل فلم يخز من نظره على البعد بفرصته ، لا يصلوه من ممسس الطير سوى نسر الفلك ورزمه ، ولا يرمق متبرجات أبراجه غير عين شمسه والدقل التي تدارك من أنجمه ... " (١)

ولئن كان في هذا الوصف مبالغة ، فان ابن عبدالظاهر يصفه وصفا واقعيا بسيطا فيقول :

حصن عظيم القدر في سيره ... لمن مضى قبلك لم يكتسب
اذ بدا والنجم من حوله ... تقول : نجم لاح في غيهب
وان تلح للعين أبراجه ... يقال هذا موكب الكوكب (٢)

ويطول بنا المقام لو استعرضنا بقية الحصون البرية * ، ولذلك ننتقل الى النوع الثاني منها وهو الحصون البحرية :

تفنن الصليبيون في صنع هذه الحصون ، كما تفننوا في صنع الابراج والدبابات ، فأقاموها في البحر ، دون أن ينظروا للصعوبات التي تواجههم ، مما يدل على تقدمهم في فن الحروب ، يقول ابن عبدالظاهر في وصف حصن مرقية : " ... عرضه قريب من طوله ، كل جانب منه خمسة وعشرون ذراعا ونصف بالعمل ، وعرض سوره سبعة أذرع ، وهو سبع طباق ، وبني على مراكب غرقت في وسط البحر ، فيها أحمال كثيرة من الحجارة تحت كل قطر منه مخرق تسع مائة مركب فيها حجارة ، وبين كل حجرين في أسوارها قضيبان من الحديد متصلان (في الأصل قضيبين من الحديد متصلين) وعليها شبك الرصاص ، وداخله صهريج عظيم ، وفوق الصهريج قبو ، وفوق القبو أخشاب ، وفوق الأخشاب حصى صغار ، وفوق الحصى خيش ، وفوق الخيش حبال قنب مشددة ، حتى اذا نصب المنجنيق من البر ورمي به لا يبلى ما يرمى فيه ، ويقع الحجر من أعاليه في الماء ، وفيه مائة مقاتل ، ولا يؤخذ هذا الحصن بحصار ولا بمضايقة ... " (٣)

ويظهر مما مضى مقدار المهارة وحسن التأني في صنعه ليكون حاميا لهم في الملمات ومركزا دفاعيا اذا هاجمهم المسلمون ، ولكن الرعب خرّب هذا الحصن كما خرّب الزلزال حصنا آخر هو برج اللاذقية ، ويصف ابن عبدالظاهر هذا البرج البحري لا من حيث طريقة البناء ، وانما يسلط الاضواء على أثره في المسلمين ، وأهميته للفرنج ، يقول : " وهذا البرج شمم في أنف تلك الجهات ، وآفة عليها من أكبر الآفات ، طالما أصبح وأمسى حسرة في قلوب المسلمين ، وذخيرة لاعداء الدين ، وذلك أنه في وسط البحر لا تسلك اليه طريقة من بر ، ولا ينقب له سور وكيف وخندقه البحر وكان يتحصل به للفرنج مال كثير من ميناء اللاذقية التي هي مثل ميناء الاسكندرية " (٤) .

---

(١) حسن التوسل ١٤٥ ، صبح الاعشى ٨/٢٦٤ - ٢٦٥
(٢) تشريف الايام والعصور ٨١ ، تاريخ ابن الفرات مج ٨ ، ١٧٥
* لمزيد من الامثلة أنظر : الروضتين ٢/٥٦ ، ٨٧ ، ١٢٤ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، صبح الاعشى ٧/٢٨ ، ابن جبير ٢٧٦ ، الفتح ٢٢٣ ، البداية والنهاية ١٢/٣٠٢ ، تاريخ ابن الوردي ١/١٧ ، ٤٣ ، الكامل ١١/٣٤ ، ٣٠٨ ، ٢٢٨ ، ٤٥٣
(٣) تشريف الايام والعصور ٨٨ (٤) المصدر السابق ١٥١

هذا ما بناه الصليبيون ليحافظوا على أنفسهم ، ولكنهم حين احتلوا بعض المـــدن الاسلامية أضافوا اليها التحصينات الكثيرة ، وأضافوا الى حصانتها السابقة مزيدا من الحصانـة ، فها هو ذا ابن القيسراني يصف مدينة الرها بأنها مدينة افك تعجز السيوف عن اقتحامها كما عجز الملوك عن افتتاحها ، حتى جاء عماد الدين زنكي، يقول :

لقد كان في فتح الرهاء دلالــــــة ... على غير ما عنــد الملوك اعتقـــــاده
مدينـةُ إفكٍ منذ خمســـين حجــــة ... يفلّ حديد الهنـــد عنها حـــداده
تفوت مدى الابصار حتى لو أنهـــا ... ترقّت إليه خان طرفاً ســــــواده
وجامحة عز الملوك قيادهــــــا ... الى أن ثناها من يعــــز قيـــاده (١)

ويؤكد ابن منير الطرابلسي مناعة المدينة وإباءها ، ويشبهها بالنجم البعيد الذي لا ينالــه انسان ، ولكنها من ذلك هي نجم دان لعماد الدين زنكي ، كما ان النجم يبصره المبصرون بسهولة يقول :

ولكم من مَلِكٍ حاولهـــــــا ... فتحلّى الحين وشمساً غي الجبــــين
هي أخت النجـــم إلا انهـــا ... منه كالنجم لرأي المبصريـــــن (٢)

ومن هذه المدن أيضا طبرية ، التي بقيت بيد الفرنج حوالي تسعين عاما ، تتمنع على كل من يريد امترجاعها ، حتى جاء صلاح الدين فلانت من بعد قسوة ، يقول ابن الساعاتي :

وما طبريــةٌ الا هــــــديٌ ... ترفّع عن أكف اللامسينـــــا
حصـــان الذيل لم تقذف بســوءٍ ... وسل عنها الليالـــــي والسنينـــا
تسمّت حتى رأت كفوءاً فلانـــت ... وغاية كل قاسٍ أن يلينــــــا (٣)

وقد أضاف الفرنج الى المدن الساحلية تحصينات عظيمة ، بالاضافة الى موقعها الطبيعي الحصين يقول شهاب الدين محمود في عكا :

كانـت تخيلهـــا آمالنا فتـــرى ... أن التفكّــر فيها أعجـــبُ العجــب
سوران : برٌ وبحـــر حول ساحتهـــا ... دارا وأدناهما أنأى من القُطُـــب (٤)

ويقول بدر الدين محمد بن أحمد المنبجي مادحا الملك الاشرف :

وكم فتحت حصونـا طالما رجعـــت ... لبأسها عنها الملوك الصيد في خجـــل
حررت من عكــة الغراء مـــا عجــزتْ ... عنه الملوك بعزم غير منتقـــــل
عقيلة المدن أمســت من حصانتهـــا ... وصونها من ليالي الدهر في عقـــل (٥)

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٩٧
(٢) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٩٩
(٣) الروضتين ٢ / ٨٤
(٤) جواهر السلوك ورقة ٥٩
(٥) تاريخ ابن الفرات ٨ / ١١٤

ومن هذه المدن البحرية مدينة صور ، ويقول العماد في وصفها " هذا بلد حصين ، ومكانه في الارض مكين ، في البحر ثلاثة أرباعه ، وفي السماء أرتفاع يفاعه ، والطريق المسدن يسلك من البر اليه ، قد أحاط بها البحر من جانبيه ، وقد قطعوه بخندق في عرضه ، ومقسوه ونزلوا في أرضه " (١)

ومنها طرابلس التي يصفها ابن عبد الظاهر بقوله : " لها خطار وليس لها من البر الا بمقدار ساحة الباب من الدار ، كأنها في سيف ذلك البحر جبل قد انحط ، أو مهل استسواء قد شق عن الشط ... " (٢) .

ويلاحظ أن الادباء قد عمدوا الى اظهار مصير هذه الحصون بعد المبالغة في وصفها أحيانا ، وغالبا ما يصفون سيادة المسلمين عليها ، أو هروب الفرنج منها ، أو تهدمها بسبب الزلازل التي كانت تضرب المنطقة ، يقول سبط ابن التعاويذي مهنئا صلاح الدين بانتصاره على الفرنج في موقعة مرج عيون سنة ٥٧٥ هـ :

قذفت أهلهـــا الحصون المنيعـا	ت حتى غوظتهـــم بالسجـــون
وأراهم رب الصفـــا باسيـــا	فه ما لم يخل لهم في ظنـــون (٣)

ويقول الامير نجم الدين محمود بن نبهان العراقي :

ظنـوا بناء الحصن صونا لملكهـــم	فأضحى بالشمـــواء مُنتهكَ الستـر (٤)

وحين فتح الاشرف خليل قلعة الروم مدحه شهاب الدين محمود بقوله :

فان رمت حصنا سابقتك كتائـــب	من الرعب أو جيش تقدمه النصـــر
ففي كل قطـر للعـــدا وحصونهـــم	من الخوف أسياف تجرد أو حصـــر
فلا حصن الا وهـو حصن لاهلـــه	ولا خُجُبٌ الا لارواحهـــم قبـــر (٥) *

---

(١) الفتح القسي ١٥٧

(٢) الاعشى ٣٦٨/٧ ، نهاية الارب ١٥٨/٥ - ١٥٩

(٣) الروضتين ٩/٢

(٤) المصدر السابق ١٢/٢

(٥) البداية والنهاية ٣٢٦/١٣

* لمزيد من الامثلة أنظر : الروضتين ١/١/١٠٠ ، ١٢/١ ، ١٣١ ، ١٦٦ ، ١٥٧ ، صبح الاعشى ١١٢/٧ ، الكامل ٤٥٥/١١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٥٧ ، ٣٣١/١٢ النوادر ٩٠ ، ديوان أسامة ابن منقذ ١٠٣ ، ابن حبيب ، درة الاسلاك في دولة الاتراك ١٢٥/١ مخطوط ، عقد الجمان ج ٢٠ ق ٢٢٢ ، ج ١٢ ق ١ ، ١٨٠ مذكرات جوانفيل ١٠٦/١ ، ١١١ ، ١١٢

وهكذا يصور الادب العربي هذه الحصون وقد تحولت الى سجون ، ويصور الخنادق وقد تحولت الى قبور ، يقول البوصيري في مدح المنصور قلاوون :

لقد جهلت داوية الكفر بأسه — وغرهم بالمسلمين غرور

فلا يركنوا من اخوة فإن أمهم — وان كثرت فيها البنون نزور

يظنون خيل المسلمين بعيدة — عن الغدو في أرض العدو دثور

أما زلزلت بالعاديات وجاءها — من الترك جم لا يعد غفير

فذاقوا به مر الحصار فأصبحوا — لهم ذلك الحصن الحصين حصير

يصيحون أعلى السور خوفا كأنهم — نفى عنه نوم القلتين صفير

وماذا يرد السور عنهم وخلفه — من الخيل سور والصوارم سور (١)

وفي فتح عكا يقول شهاب الدين محمود :

ظنوا بروج البيوت الشم تعقلهم — فاستمتلتهم ولم تنطق ولم تهب (٢)

ويقول فتيان الشاغوري مخاطبا صلاح الدين :

ليحفروا تلك الخنادق حولهم — إلا لتجعلها لهم أجداثا (٣)

هذه هي حصونهم . أما قلاعهم ، فهي أبنية عالية قد تكون داخل الحصن ، لتشرف على تحركات أعدائهم ، وقد بالغ ابن عبد الظاهر في وصف قلعة حصن المرقب ، فجعلها تستظل بسدرة المنتهى لعلوها ، فيقول : " وهذه القلعة لها بالنجم مناط ، وبالسحاب ارتباط ، ولها على الدهر اشتراط ، ولبروجها ببروج السماء اختلاط واختلاط ، كم يسمو اليها السهى ، ولولا المغالاة ـ واستغفر الله ـ لقلت تكاد تستظل بسدرة المنتهى ، كأنما الرياح لجيدها منطقة والنجوم لخصرها منطقة ، ... " (٤) ، وليست هذه القلعة هي القلعة الوحيدة التي تتصف بهذه الصفات ، فهذا العماد يصف قلعة الشقر بأنها مرتفعة لا تصل اليها المشاة ولا يستطيع الذر أن يتسلقها لوعورتها ، فكأنها تملصت من الجبل ، يقول : " وهي قلعة شامخة ، حصينة ، أعلى القلال ، على ذروة منقطعة ، عالية مرتفعة ، ومن نواحيها واد ، شائك من العمق غير باد ، في أعماق ووهاد ، وقد تملصت من الجبل حتى أتصل بالوادي خندقها ، وأخذ من السواد طوقها ، فما اليها طريق ، ولا عليها طروق ، ولا فيها للمتطلع طلوع ، ولا للسهم اليها مروق ولا للزحف فيها مطمع ، ولا الذر نحوها مسلك ... " (٥) ، وقد رماها صلاح الدين بالمنجنيقات فلم يؤثر فيها ، لولا أن دب الرعب في قلوب أهلها فجاؤه يطلبون الامان . ومثل هذه القلعة قلعة غزة ، التي هي كرسي " الداوية " ، ومهبط رؤوسهم ، ومحط نفوسهم .

---

(١) ديوان البوصيري ٩٧ ، وانظر القصيدة من ص ٩٦ ـ ٩٨

(٢) جواهر السلوك ١٦١

(٣) ديوان فتيان الشاغوري ٦٩

(٤) تشريف الايام والعصور ٨٥

(٥) الفتح القسي ٢٤٥

وقد جاء في وصفها أنها " قلعة أنفها شامخ في الهوا ، وعنانها جامح عن عطفة اللواء ، قد أوغلت في الجو مرتفعة ، وأومضت في الليل ملتمعة ، وبرداء السحاب ملتفعة ، قد عافتها أيدي الانام بالسلامة من قوارعها ، وهادنتها حوادث الايام من روائعها ، الى ان أتيح لهما من أتاح لها الحَيْن ، وقيض لها من أقتضى منها الدين " (١) * .

وأما النوع الثالث من التحصينات فهو الاسوار والابراج ، فقد اعتمد الصليبيون عليها أشد اعتماد ، لانها تحميهم من الهجوم المباغت ، وأما الابراج المنتشرة في جهات معينة من الاسوار فهي تكشف تحركات أعدائهم ، ولذلك فقد اهتموا ببنائها ، وأنفقوا عليها الاموال الطائلة ، يقول القاضي الفاضل في وصف سور حصن بيت الاحزان " وقد عرض حائطه الى أن زاد على عشرة أذرع ، وقطعت له عظام الحجارة ، كل فص منها من سبع أذرع الى ما فوقها وما دونها ، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر ، لا يستقر الحجر في مكانه ، ولا يستقل في بنيانه ، الا بأربعة دنانير فما فوقها ، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم ، المرغم بها أنوف الجبال الشم وقد جعلت سقيته بالكلس ، الذي اذا أحاطت قبضته بالحجر ما زجه بمثل جسمه ، وصار جسمه وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه ، وأوعز الى خصمه من الحديد بأن لا يتعرض لهدمه " (٢)

وقد أستخدم الفرنج هذه الخبرات في بناء الاسوار حول المدن المهمة ، رغم حصانتها الطبيعية مثل عكا ، فأنشأوا سورا من الحجارة والصخر ، بالاضافة الى السور البحري الذي كانت تنعم به مدينة عكا ، ولذلك بقيت آخر معقل للفرنج في فلسطين ، ولم يستطع قلاوون ولا من قبله أن يفتحوها ، حتى جاء الاشرف خليل بن قلاوون وجمع الجيوش من مصر والشام وحاصرها حصارا شديدا وقصفها بالمجانيق قصفا حطم بعض الاسوار ، فأستسلمت المدينة ، وأستسلم على أثرها مدينتا صور وصيدا ، وبذلك أنتهى الوجود الصليبي في المشرق الاسلامي ، يقول شهاب الدين محمود :

ما بعد عكا وقد هُدّت قواعدها	في البحر للشرك عند البر من أرب
لم يبق من بعدها للكفر اذ خربت	في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب (٣)

وقد وصف شهاب الدين في قصيدته هذه سور عكا وصفا دقيقا مبينا مادة بنائه ، وعلوه وأرتفاعه وقوته وثقة أصحابه فيقول :

---

(١) صبح الاعشى ٢٣/٧

* لمزيد من الامثلة عن القلاع أنظر ابن شداد ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٥ ، صبح الاعشى ٤٠١/٨ ، ٤٠٦ ، الروضتين ١٦٨/٢

(٢) الروضتين ١٣/٢

(٣) ابن الفرات مج ١١٦/٨ ، جواهر السلوك ورقه ٥٩ ، فوات الوفيات ١٥٣/١

كانت تخيلنا آمالنا عسرى   أن التفكر فيهما أعجب المجب
سوران : بر وبحر طول ساحتهما   دارا وأدناهما أنأى من القطب
خرقاء أمنع سوريها وأحصنه   غلب الكماة وأقواه على النوب
مضفح بصفيح حولها أكم   من الرماح وأبراج من اليلب
مثل الغمامة تهدى من صواعقها   بالنبل أضعاف ما تهدى من السحب
كأنما كل برج حوله فلك   من المجانيق ، يرمي الارض بالشهب
فاجأتها جنود الله يقدمها   غضبان لله ، لا للملك والنشب
كم رامها ورماها قبله ملك   جم الجيوش فلم يظفر ولم يصب (١)

ومما ساعد في أهمية الاسوار وسور عكا خاصة ، تلك الابراج التي أشار اليها شهاب الدين محمود والتي أضطلعت بمهمتين : الاولى قصف الجيش الاسلامي ، والثانية الاشراف من خلالها على تحركات جند المسلمين ،وفي المهمة الثالثة للابراج يقول ابن عنين في معرض رثائه للمعظم عيسى بن الملك العادل :

ولقد شهدتك يوم تيساريه   والشمس قد نسج القتام لها ردا
والكفر معتصم بسور مشرف الا   بيران أحكم بالصفيح وشيدا (٢)

وأما النوع الرابع والاخير من هذه التحصينات فهو الخنادق ، وقد استفاد الفرنج من طبيعة المنطقة فحصنوها بالمباني العالية ثم حفروا حولها الخنادق وعمقوا الاودية ان كانت محاطة بأودية .

وقد احتوى النثر الادبي على وصف هذين النوعين من الخنادق : الصناعية المحفورة والطبيعية المعمقة ، يقول العماد : " وشرع الفرنج في حفر خندق على معسكرهم حوالي عكا من البحر الى البحر ،وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحصر ،وكان من قضاء الله أنا أغفلناهم ، وأمهلناهم بل أهملناهم ، حتى عمقوا الحفور ، ووثقوا من ترابها السور ، وملأوه بالستائر ، ومنعوه من الطير الطائر ، وبنوه وأسسوه ،وستروه وترسوه ، ورتبوا عليه رجالا ، ولم يتركوا اليه لسواهم مجالا ،وتركوا فيه أبوابا وفروجا ، ليظهروا منها اذا أرادوا خروجا ... " (٣)، ويقول شهاب الدين محمود في وصف الخندق المحيط بحصن المرقب : وحوله خنادق لا تعلم منهما الشهور الا بأسمائها ، ولا تعرف فيها الأهلة الا بأوصافها ..." (٤)، ونلاحظ أهتمامهم بالخنادق في الفترة المتأخرة أكثر من أهتمامهم بها في الفترة الاولى من وجودهم في المشرق الاسلامي ، ويلاحظ ذلك من وصف شهاب الدين محمود السابق لسور عكا * .

---

(١) جواهر السلوك ص ٥٩ ، ابن الفرات ٨/١١٦ ، فوات الوفيات ١/١٥٣
(٢) ديوان ابن عنين ٦١   (٣) الفتح القسي ٣٢٥
(٤) صبح الاعشى ٨/٣٩٤ ، حسن التوسل ١٤٥
* لمزيد من الامثلة أنظر : الفتح القسي ١٥٧ ، الروضتين ٢/٥٥ ، ١٤٤ ، ١٧٠ ، زبدة الحلب ٢/١٣٢ ، صبح الاعشى ٦/٥٢٦ ، مفرج الكروب ٤/١٨

رابعا : التخطيط العسكري :

والمقصود بالتخطيط العسكري ، وضع الخطط المدروسة قبل وقوع المشكلات ، ومواجهة المشكلات لدى وقوعها ، وقد صور الادب تخطيط الفرنج من الناحية الحربية في حالتي الضعف والقوة عندهم ، والوسائل التي اعتمدوها في التخطيط .

أما مواجهتهم للمواقف القتالية في حالة ضعفهم فهي تتسم بالحذر والتحرز من جهة ، والمكر والمخادعة من جهة أخرى ، فها هو ذا أسامة بن منقذ يصفهم وصف مباشر لهم بأنهم " أكبر الناس احترازا في الحرب " (١) ، وقد ذكر العماد ما يؤكد هذا المعنى حين قال : " وعرف الفرنج مشاق طريقهم ، واشفاق سعيهم ، فاحترزوا من المهلكة ، وما عادوا الى مثل تلك الحركة ... " (٢) ، ويقول : " وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم ، وأرادوا يباسطونهم ... وهم ثابتون ثابتون ، ساكنون ساكتون ، ونحن نقول لعلهم يحملون ، ويغضبون فيجهلون ، فنتمكن من تحصيل جملتهم بحملتهم ، وتفريق جماعتهم ... " (٣) ، ولم يبتعد ابن شداد عن هذا المعنى حين قال : " وكانوا قد جعلوا رجالهم سورا لهم ، يضرب الناس بالزنبورك + والنشاب حتى لا يترك أحدا يصل اليهم ... فانه كان يطير عليهم كالجراد ، وخيالتهم يسيرون في وسطهم ولم يظهر منهم أحد ... " (٤) .

ومن المواقف التي تسترعي الانتباه ، موقف الملك فردريك الذي طلب الملك الكامل مساعدته ضد أخيه صاحب دمشق ، وحين جاء الى الشرق ، وجد المواقف قد تغيرت اذ كان صاحب دمشق قد توفي ، فلجأ الملك فردريك الى السياسة والدهاء ، والتمس الكامل بأن يفي بوعده ويعطيه القدس ، وكان من جملة ما كاتبه به قوله : " أنا عتيقك ، وتعلم أني أكبر ملوك الفرنج ، وأنت كاتبتني بالمجيء ، وقد علم البابا والملوك بانتصاري ، فان رجعت خائبا انكسرت حرمتي ... " (٥) فتنازل له عنها .

هذه أمثلة تدل على تخطيطهم ومواجهتهم المشاكل ، وكانوا دائما يغتنمون الفرصة للايقاع بالمسلمين ، لا سيما اذا علموا بتفرق المسلمين أو ضعفهم ، فهذا ابن شداد يقول : " علم عدو الله أن العساكر قد تفرقت في أطراف البلاد وأن الميمنة قد خفت لان معظم من كان بها يحكم قرب بلادهم من طريق العدو ، فأجمعوا رأيهم ، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ، ويهجمون على طرف الميمنة فجأة ، فخرجوا ... " (٦) ، ومن هذا الجانب تقربهم للجياع حين حصلت المجاعة سنة ٥٩٧ هـ ، يقول العماد : " ومراكب الفرنج على ساحل البحر على القسم ، تسترق الجياع باللقم " (٧) .

---

(١) الاعتبار ١٧ ، وأنظر ٥٨ ، ٦٧ ، ١٥١ (٢) الروضتين ٢ / ١٧٩

(٣) المصدر السابق ٢ / ١٧٩

\+ الزنبورك هو : نوع من القسي ترمى عنها السهام

(٤) نفسه ١ / ١٧٦ ، ١٦٠ (٥) الشذرات ٥ / ١١٨

(٦) الروضتين ٢ / ١٥٨ ، النوادر ١٤٨

(٧) الروضتين ٢ / ٢٤٤ ، ولمزيد من الامثلة أنظر : الروضتين ٢ / ١٢٨ ، ١٤٤ ، ١٩٠ ، الفتح القسي ٤٤٣ ، عقد الجمان جـ ١٨ ق ١ ، ٢٨٦ ، ابن الفرات مجـ ٤ جـ ٢ / ٢٥٥

وحين يكون المسلمون أقوياء ، كان الفرنج يسلكون طرائق الحيطة والحذر ، فحين اجتمع لديهم عدد ضخم سنة ٥٨٦ في عكا " أقاموا في وسط خيامهم حائطا مستطيلا يشبه السور من التراب ، وتلالا تشبه الأبرجة مدورة ورفعوها بالأخشاب ، وتالوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ، ورموه قدامها ، وهم يتقدمون أول أول ، وترتفع حالا بعد حال ، حتى صارت منه كنصف غلوة سهم ..." (١).

ومن مظاهر تخطيطهم البارع للقتال ما أتخذوه من آلات تناسب ظروف المعركة ، كما فعلوا وهم محاصرون لعكا اذ " عمدوا الى أكبر بطسة واتخذوا فيها صقالا كأنه سلم ، وهو غير متقدمها مركب مقدم ، وقد جعلوها بحيث اذا قرب الى البرج ركب رأس السلم على شراريفه ، وصعد الرجال اليه في تجاويفه ، وتعبوا في ذلك أياما ، وأشبعوه توثيقا واحكاما ، حتى اذا التصق بالبرج ألصقت به قوارير النفط ، وتوالت أمطار البلايا من الجروح والمنجنيقات على أولئك الرهط ثم عمل الفرنج برجا ثانيا في أكبر مركب ، وحشوه بالحطب ، وعملوا على رأس صاريه مكانا يقصد فيه الزراق ، وقدموه الى برج الذبان ، وسلطوا على جوانبه النيران ، فأذهب الله من صهب لظاه ... " (٢) ، وقد نكباء نكبت الناس عن البرج المحروس ، وكتب الفرنج على الوجوه والرؤوس ... " (٢) ، وقد عمدوا الى الهجوم المفاجئ على المسلمين ما وسعهم ذلك ، فقد أنشأ البرنس أرناط اسطولا في بحر أيلة ، ونهبوا ما وجدوه من المراكب ، ومن فيها من التجار ، وبغتوا الناس ، لانهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا قط ... " (٣) ، وحين مروا بنابلس زمن الناصر داود بن المعظم عيسى " وجدوا فيها فرصة فانتهزوها ، وجهزوا اليها خيلهم ورجلهم من كل أوب فأجهزوها ... " (٤).

ومن المعروف أن الحرب لا تنتظر الفرص العارضة ، ولذلك هيأوا هم الظروف المواتية لانجاح أعمالهم العسكرية ، اما بالكمائن التي تعترض جيشا صغيرا للمسلمين ، واما بإيهام المسلمين بابتعادهم عن الميدان ، واما بكبسهم في ساعة غفلة ونوم ، والامثلة على ذلك كثيرة ، اما عن الكمائن فيروى أسامة أن غدرا من الفرنج جاء على شيزر وسألوا البواب من خلال الباب " ما اسم هذا البلد ؟ " فأخبرهم عنه ، فعادوا .. وأراد أسامة اللحاق بهم فنهاه عمه وقال : " هذه مكيدة " وأثبت له وجود كمين لهم .." (٥)

---

(١) الروضتين ٢/١٨٥
(٢) الروضتين ٢/١٦٣ ، وأنظر الفتح ٢٧٧ ، والنوادر ١٣٩
(٣) الكامل ١١/٤٩٠ .
(٤) الفوائد الجليةفي الفرائد الناصرية ورقة ٦٣
(٥) الاعتبار ٥٦ ــ ٥٧ .

ويصف سبط بن التعاويذى مكائد الفرنج في محاولتهم ايقاع صلاح الدين وجيشه في كمين ، ولكنهم فشلوا وخسروا حصنهم الذي كان مركز انطلاقهم ، يقول :

كاد الاعادى أن يصيبك كيدهــا   لو لم تكدك برأيها المأفــــون
كمنوا ، وكم لك من كمين سعــادة   في الغيب يظهر من وراء كمـــين
فهوت نجوم سعودهم وتنى لهــــم   بالنحس طائر جدك الميمـــون (١)

وقد ذكر العماد أن الفرنج أوهموا المسلمين أنهم بعيدون عن طريقهم ، بل أشاعوا أنهم تحركوا الى منطقة بعيدة ، فركن الجيش الاسلامي الى الراحة ، ولما كان وقت الغروب هاجموهم ونالوا منهم ، يقول : رحل الفرنج على سمت عسقلان ، وأشاعوا أنهم يعيدون بها الى عمران ، وهم نازلون بمظاهرها ، جائلون في مواردها ومصادرها ، فرأى الانكليترى دخانا على بعد فقصده ، وكان ثم جماعة من الاسدية ... وهم غارون عما دهمهم ، فوصل اللعين اليهم وقت المغرب فوقع عليهم ..." (٢)، وفي صور ، كبد الفرنج سفن المسلمين القادمة من عكا ، وكان الفرنج يرقبونهم ، حتى اذا ناموا هاجموهم وهزموهم ، يقول العماد : " وأمن أصحابنا بعلو الامر وخلو البحر ، وأمنوا من الخوف ، وأدمنوا على الطوف ، ... وسهروا الى أن شارفوا الملل ، وكل منهم لما أستأنس نعس ، وقاس في النوم ما تنفس ، فما أنتبهوا الا وسفن الفرنج بهم محدقة ، ونيرانهم محرقة ..." (٣).

وقد استقى الفرنج المعلومات عن المسلمين بعدة طرق : منها عن طريق البدو والجواسيس المندسين في المعسكر الاسلامي * ، وقد سبق بيان ذلك ، أو عن طريق الرسل الذين كانوا يرسلونهم للتفاوض مع المسلمين بشأن الصلح أو غيره ، يقول ابن شداد : " وكان غرضهم بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها ، وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ما عندهم من ذلك أيضا ..." (٤)، ويقول القاضي الفاضل عن عدوهم من الرسائل : " وتعددوا نظرة من شدة وأنتظارا لنجدة" (٥) **، وهذا يدل على خبرتهم في شؤون الحرب وحسن رأيهم فيها ولا عجب بعد ذلك أن نجد الادب يثني عليهم بهذه الصفة ، فيصف الهنفرى بأنه " يضرب المثل به في الشجاعة والرأى في الحرب "(٦) ، وكذلك جوسلين(٧) وغيرهما .

---

(١) ديوان سبط بن التعاويذى ٤٢٢   (٢) الروضتين ٢ /١٩٦

(٣) الفتح ١٦١ ، وأنظر الفتح ١٧٨ ، والنوادر ٢١٤

* أنظر جوانفيل في مذكرات عن القديس لويس ١٢٢ ، ١٢٩ ، وتاريخ مختصر الدول ٢٠٢ ــ ٢٠٣

(٤) النوادر السلطانية ١٦٦ ، ١٨٦ ، ١٩٦

(٥) صبح الاعشى ٦/ ٥٠٢

** المزيد من الامثلة أنظر : الروضتين ٢ /١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ابن الفرات مج ٤ ج ٢ / ٢٥٥

(٦) الكامل ١١ /٤٥٣

(٧) عقد الجمان ج ١٢ ق ١ ورقه ٢٠٦ ــ ٢٠٧

ومما يدل على حسن رأيهم في الحرب ، أيضا ، تلك الخطط التي قصدوا منها فتح عدة جبهات عسكرية لتشتيت عساكر المسلمين ، ومن ذلك ما ذكره العماد عن " الانكتير الذى تعذر عليه أخذ القدس ، ففكر في حصار بيروت " لان أخذ هذا البلد هين ، وقصده متعين ، واذا حاصرناه جذبنا السلطان وعساكره الى جانبه ، وخلا القدس من جمة كتائبه وجمرة مضاربه " (١) ، ومنها أيضا ، ذلك القصف المستمر للمدن التي يريدون فتحها ، وقد عمدوا — لتحقيق ذلك — الى تقسيم الجيش الى فرق تعمل بالتناوب ، يقول ابن شداد : " ولما أحس العدو في نفسه بقوة بسبب توالي النجد عليهم ، أشتد طمعهم ، وسلطوا عليه سورها " المنجنيقات من كل جانب ، وتناوبوا عليها بحيث لا يتعطل ليلا ولا نهارا " (٢) ويقول : " وأنقسموا أقساما وتناوبوا فرقا ، كلما تعبت قسم أستراح ، وأقام غيره مقامه " (٣) ، ومن هذا القصف المركز المستمر ، لجأوا الى خطة أخرى ، وهي أنهم أطبقوا الحصار على البلد اطباق الشفاه على الثغور ، فمنعوا الداخل اليها والخارج ، حتى تسنى لهم السيطرة عليها ، وثمة أدلة تشير الى أن الفرنج لجأوا الى هذه الخطة منذ وقت مبكر ، ومنها ما جاء في وصف فتيان الشاغوري للفرنج الذين أحاطوا بدمياط سنة ٥٦٥ :

دار وا بها في البحر من كل جانب ومن دونها ستر من الموت حايل (٤)

ويؤكد ابن شداد هذا المعنى في حصار الفرنج لعكا سنة ٥٨٦ اذ يقول : أدار الفرنج مراكبهم حول عكا حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين ، وكانت قد أشتدت حاجة من فيها الى الطعام والميرة ... " (٥) ، ويسوغ العماد هذا القول بألفاظ مؤنقة فيقول : " وأستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز ، وزادوا من جانبنا في التمرس والتحرز ، ومنعوا من الدخول والخروج ولج أولئك العلوج في ضبط طريق الولوج " (٦) ، وبعد هذا التخطيط ، وهذا العمل الدؤوب ، أستعدوا خطة مناسبة للهجوم ، فطموا الخنادق المحيطة بالبلد ، وأستعملوا من أجل ذلك جثث موتاهم مع أنهم يحرصون على دفنهم ، بالاضافة الى جثث الحيوانات ، يقول العماد في حصارهم لعكا : " وداموا يرمون فيه جثث الاموات وجيف الخنازير والدواب النافقات ، حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ويحملون اليه موتاهم " (٧) .

---

(١) الفتح ٥٩٧ ، ٦٠١ ، الكامل ١١ / ١٨٥ ، ومضمار الحقائق ٢٤
(٢) النوادر السلطانية ١٣٤ ، ١٢٦
(٣) المصدر السابق ١٦٧ وينظر ١٧٩
(٤) ديوان فتيان الشاغوري ٢١٨ ، عقد الجمان ١٢ ق ٢ / ٤٥٧
(٥) النوادر السلطانية ١٣٤
(٦) الفتح القسي ٢٦٩ ، وينظر المثل السائر ١ / ٤٠٧
(٧) الفتح القسي ٤٨٣ ، وانظر للمزيد ابن الوردي ٢ / ٢٥ ، ابن الفرات مج ٤ ج ١ / ٢٨

خامسا : الحرب النفسية :

اعتمد الصليبيون في حربهم للمسلمين على الجيش والحصون ، كما اعتمدوا على الحرب النفسية التي من شأنها اضعاف عزيمة المسلمين ، وتشكيكهم بقوتهم بأنفسهم وبقادتهم ، وقد اتبعوا في ذلك سبلا عدة منها :

١ ـ التهديد بالكثرة : ويتضح ذلك بعد الانتصارات العظيمة التي حققها صلاح الدين في أرض فلسطين ، اذ توجه الى اللاذقية واحتلها ، فجاءتها نجدات من عقلية ، فطالب مقدمهم من صلاح الدين ارجاع هذه المنطقة للفرنج ، ثم هدده قائلا ما مؤداه : " والا جاءك من وراء البحار في عدد الامواج أمواج بعد أمواج ، وسار اليك ملوك ذوي الاقاليم من سائر الاقاليم ، وهؤلاء أهون منهم ، فاتركهم وأصفح عنهم ..."(١) ويقول العماد في ذلك على لسان قائد الفرنج : " وان أبيت غير الغيرة والاباء ، ودمت على ارهاق الدهماء ، واهراق الدماء ، جاء من وراء البحر البحار من يعيد فضاء السبل المضائق ، وأفاق للتناصر على دفع هذا الخطب نصارى الافاق ..." (٢) وعلى أثر استعادة صلاح الدين للقدس هب الغرب الاوروبي لنجدة قومهم في فلسطين ، وجاء ملك الالمان بأعداد هائلة ، وبعث مقدم الارمن يخبر صلاح الدين بهم ، ولم يكن دافعه في ذلك الحرص على مصلحة المسلمين ، وانما اضعاف نفوس المسلمين ، ويقرر العماد هذا المعنى فيقول : "ولا شك أنه الى جنسه النصراني مائل ، وبمساءة أهل ملته قائل ، ولما وصل هذا النبأ ، وقيل انه عظيم ، وورد هذا الخبر ، وقيل انه أليم ، كان الناس يضطربون ، على انهم يصدقون ويكذبون ، ومن ضعف كل مختل من الرأي يجذبون ..." (٣) واستمر هذا الاسلوب في الحروب بعد وفاة صلاح الدين ، مع صاحب حلب الملك المنصور ، اذ جاءه رسول الداوية ، وأخبره بكثرة الفرنج المتجهين الى اللاذقية وجبلة ، ويعقب الراوي على هذه الحادثة بقوله : " وانما قصدت الداوية بهذه الاخبار الارهاب ليصالح الملك المنصور بيت الاستبار ، فانهم سألوا الداوية التوسط بينه وبينهم ..." (٤) وقد تكرر هذا السلوك زمن الكامل بن العادل (٥) ثم زمن الصالح نجم الدين أيوب (٦) ، ولكن ما مدى نجاح الفرنج في هذه الحرب؟ وهل أدت الى اضعاف همم المسلمين ؟ ، ان تلك الروايات نفسها تحمل الجواب ، فبعد كل حادثة يعقب الكاتب موضحا نفسية المسلمين ، وهي في جميع الحالات نفسية مؤمنة بالنصر قوية لا تخشى الكثرة ، ولا تخاف الهزيمة ، فها هو ذا صلاح الدين يرد على

---

(١) الروضتين ٢ / ١٢٩
(٢) الفتح القسي ٢٤٠ ، وانظر الحادثة في الكامل ١٢ / ١٠
(٣) الفتح القسي ٣٢٢ والروضتين ٢ / ١٥٠
(٤) مفرج الكروب ٤ / ١٤٦ ، ابن الفرات مج٤ ج٢ / ٢٥٥
(٥) مفرج الكروب ٤ / ٩٨ ـ ٩٩
(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ق٢ ، ٣٤٧

مقدم جيش الفرنج بقوله : " قد أمرنا الله بتمهيد الارض ، ونحن قائمون في طاعته بالفرض ، وعلينا الاجتهاد في الجهاد ، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد ، ولو اجتمع علينا أهل الارض ، ذات الطول والعرض ، لتوكلنا على الله في اللقاء ولم نبال بأعداد الاعداء " (١) .

أما جواب الملك المنصور الايوبي لرسول الداوية فهو " انا لا نجزع بما تقول ولا نكترث، ولو أنهم أضعاف ذلك لناجزتهم " (٢) وأما جواب الكامل فكان رغم تهديدات الملك فردريك ، رغم ضعف الدولة الايوبية حينذاك وانقسامها ... " (٣) .

١ . اثارة الفتن : وقصد الفرنج بذلك اختلاق الشائعات واظهار ضعف القائد المسلم، يقول العماد في مدح صلاح الدين ، وقد هزم الفرنج في الاسكندرية :

ولكم أرجف الاعادي فقلنـــــا	ما لما تذكرونـــــه تأثيــــــر
ورأينا كالعيد عودة الليـــــــو	م به الانام عيد كبيــــــــــر (٤)

وقد قال ابن القلانسي قبل هذا حين مرض نور الدين وأرجف بموته :

تروعت القلوب من البرايـــــــا	وصار شجاعها مثل الجبـــــــان
وثارت فتنة يخشى أذاهـــــــا	على الاسلام في قاص ودان (٥)

٢ . التهديد بالقتل وسفك الدماء ، واظهار القوة والآلات : ويتجلى ذلك في رسالة الملك لويس التاسع للصالح نجم الدين أيوب التي يقول فيها ما معناه : أما بعد ، فانه لم يخف أني أمير الامة العيسوية ، كما اني أقول انك أمير الامة المحمدية ، وانه غير خاف عنك أن أهل جزائر الاندلس يحملون الينا الاموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ، ونرمل النساء والبنات ، ونخلي منهم الديار .... وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل ، وعدد هم كعدد الحصى ، وهم مرسلون اليك ... " (٦) وقد كان جواب الملك الصالح على الرسالة يتضح بالثقة بالنفس اذ قال : " أما بعد ، فانه وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك ، فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منا قرن الا جددناه ، ولا بغى علينا باغ الا دمرناه ، فلو رأت عيناك ، أيها المغرور ، حد سيوفنا وعظم حروبنا ... لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولا بد أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا ، وآخره عليك فهنالك تسوء بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون "(٧) .

٤ . اخفاء الخسائر : ومن مظاهر الحرب النفسية اخفاء الفرنج قتلاهم عن المسلمين ، حتى اذا رأى المسلمون ما قتله الفرنج منهم استكثروا ذلك ، ولم يجدوا ما يعزون به أنفسهم من قتلى الفرنج ، يقول العماد :" وكلما جرح منهم قتيل حملوه وشدوه ، وطموا عليه وطمروه ، حتى يخفى أمرهم ، ولا يصح لدينا كسرهم ... " (٨)

---

(١) الروضتين ١ / ٢٦ (٢) ابن الفرات مج ٤ ج٢ ، ٢٥٥ ، وأنظر مفرج الكروب ٤ / ١٢٦

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ١ / ٢٢٨ (٤) الروضتين ج١ ق ٢ / ٢٢٢

(٥) ذيل تاريخ دمشق ٣٥٠ ، الروضتين ١ / ١٤٦ ط دار الجيل وأنظر مثلا آخر الباهر ١٢

(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ٢ / ٣٤٧ وانظر أدب الحروب الصليبية لعبد اللطيف حمزة ١٥٤

(٧) السلوك ج١ ق ٢ ص ٣٤٧ (٨) الفتح القسي ص ٤٤٤ وأنظر النوادر السلطانية ٢٥

سادسا : المعارك البرية والبحرية :

تجلى الصراع واضحا بين المسلمين والفرنج منذ أن احتل الصليبيون الاراضي الاسلامية ، ولئن كانت ردود الفعل من جانب المسلمين ضعيفة أول الامر ، الا أنهم لم ييأسوا من استرداد البلاد المحتلة في يوم من الايام ، وهذا يعني امتداد الحرب بين الفريقين ، اذ انه كلما استعاد المسلمون مدينة ، كان الغرب الاوربي يمد الفرنج بالمال والرجال حتى كانت وقعة حطين ، حين استعاد المسلمون معظم البلدان المحتلة ، وهددوا ما تبقى منها .

وقد تعرض الادب لوصف المعارك المتطاولة بين الطرفين ، وأظهر قوة الفرنج في حالتي النصر والهزيمة ، ولكنه هون نصرهم حين ينتصرون ، واستهزأ بهم حين تكون الغلبة للمسلمين ولهذا نجد الادب يركز على نتيجة المعركة لا على تفاصيل الاحداث الجارية فيها ، وان أراد التفصيل ، فلا يكون في الاحداث ، وانما في قوة الجيش أو كثرته ، أو وصف الآلات أو وصف القتلى والنصوص المرتبطة بالمعارك في هذه الفترة كثيرة ، وان كان ينقص معظمها دقة الوصف والواقعية ، ومن هذه النصوص ، وصف العماد لوقائع معركة حطين نثرا كما يلي :

" وسهر السلطان تلك الليلة ، حتى عين الجاليشية * (١) من كل طلب ، وملأ جعابها وكنائنها بالنبال ، .. حتى اذا اسفر الصباح خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار ورنت القسي وغنت الاوتار ، ... واليوم ذاك ، والجيش شاك ، وللقيظ عليهم فيض ، وما للغيظ منهم غيض ، وقد وقد الحر ، واستشرى الشر ووقع الكر والفر ، والسراب طافح والظمأ لافح ، والجو محرق ، والجوى مقلق ، ولاولئك الكلاب من اللهث لهث ، وبالحيث عيث ، وفي ظنهم أنهم يردون الماء ، فاستقبلتهم جهنم بشرارها ، واستظهرت عليهم الظهيرة بنارها ... وقد قطعت على الفرنج طريق الورود ، وبلوا من المطر بالنار ذات الوقود ، فوقفوا صابرين صابرين ، كافرين ضابرين ، فغلبوا على ضرواتهم ، وشربوا ما في أدواتهم ، وشفهوا ما حولهم من موارد المصانع ، واستنزفوا حتى ماء المدامع ، وأشرفوا على المصير السيء الصارع ، ودخل الليل وسكن السيل ، وباتوا حيارى ، ومن العطش سكارى ، وهم على شفا البحيرة بحيرة ، وقووا أنفسهم على الشدة ، واستعدوا بالعزائم المحتدة ، وقالوا غدا نصب عليهم ماء المواضي ، ونقاضيهم الى القواضب التواضي ، فأجدوا عزم البلاء وطلبوا البقاء بالتورط في الفناء ، وأما عساكرنا فانها اجترأت ، ومن كل ما يصوتها برئت ، فهذا لعنانه شاحذ ، وهذا لعنانه آخذ ، وهذا سهم مفوق ، وهذا شهم موفق ، وهذا مكثر للتكبير ، وهذا تائق للسعادة ، وهذا راغ للشهادة ، فيالله تلك من ليلة حراسها الملائكة ، ومن سحر أنفاسها ألطاف الله المتداركة ، والسلطان قد وثق بنصر الله فهو يمضي بنفسه على الصفوف ويحضهم ويعدهم من الله بنصره المألوف ، ويغري المئين بالالوف ... وكان للسلطان مملوك أسمه منكورس ، حمل في أول الناس ، وكان حصانه قوي الراس ، فأبعد عن اقرانه ، ولم يتابعه أحد من أقرانه ، فانفرد به الفرنج ، فاثبت في مستنقع الموت رجله ، وقاتل الى أن بلغوا قتله ، فلما أخذوا رأسه ظنوا انه أحد أولاد السلطان ، وأنتقل الشهيد الى جوار

---

* الجاليش : مقدمة القلب في الجيش أو الطليعة منه

(١) ديوان فتيان الشاغوري

الرحمن ، ولما شاهد المسلمون استشهاده وتجلده وجلاده ، حميت حميتهم ، وخلصت للــه نيتهم ، وأسبح الجيش على تعبئته ، والنصر على تلبيته ... وبرز بالفرنج المصاف وأبيت عثرتها أن تنتعش ، وكان النسيم من أمامها ، والحشيش تحت أقدامها ، فرمى بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش ، فتأجج عليهم استعارها ، وتوهج أوارها ، فعلمــوا وهم أهل التثليث من نار الدنيا بثلاثة أقسام في الاصطلاء والاصطلام في نار الضرام ونار الأوام ونار السهام ...". (١).

وقد عرض ضياء الدين بن الأثير وصف هذه المعركة بصورة موجزة فقال : " وبرزت خيل القوم ولها زي فرسانها ، وهي مشتبقة الى طرادها ، كاستباقها الى ميدانها ، وما منهم الا تتأود القناة من يده طرباً ، وتشتعل الروع منه ومن جواده بين ملتهبين ، فجرت المغاوير الى المغاوير ، وتلاقت الرياح بالأعاصير ، وكان الطعن منهم عناقاً واللهث وناقاً ، وسبق ألسنَ الموت ألمُ الجراح ، ونفذت مختضبة لسرعتها أسنة الرماح ...". (٢).

ومن المعارك الأخرى التي وصفها الأدب معركة دمياط سنة ٦١٩ ، حين رأى الفرنج ان خير سبيل لاسترجاع القدس هو فصل مصر عن بلاد الشام ، فوجهوا قواتهم الى دمياط واحتلوها ، ثم جاءت الامدادات الاسلامية فاسترجعتها ، يقول ابن عنين في ذلك :

تداعوا بأنصار الصليب فأقبلـــت	جموع كأن الموج كان لهم سفنــــا
عليهم من الماذيّ كل مفاضـــة	دلاص كقرن الشمس قد أحكمت وضنــا
وأطمعهم فينا غرور فأرقلـــوا	الينا سراعاً بالجياد فأرقلنـــــا
فما برحت سمر الرماح تنوشهـم	بأطرافها حتى استجاروا بنا منـــا
سقيناهم كأساً نفت عنهم الكـرى	وكيف ينام الليل من عدم الأمنـــا
لقد صبروا صبراً جميلاً ودافعـــوا	طويلاً فما أجدت دفاع ولا أغنـــى
لقوا الموت من زرق الأسنة أحمـرا	فألقوا بأيديهم الينا فأحسنّـــا (٣)

ومنها في وصف معركة زمن السلطان قلاوون ، كانت نتيجتها فتح حصن صافيثا ، يقول ابـــن عبدالظاهر : " واشتد الامر على الكفار ، فقاتلوا قتالاً أقض مضاجع الاسلحة ، وأطار حجـارة مجانيقهم بغير أجنحة ، وأضحى يشجو النصول المترنمة على غصون السهام المترنحة ... هـذا وأهل الايمان يتلقون ذلك كله بصبر يستطعمون منه شهداً ، وأقدام يتلقى الحديد بأكبـار ما زالت الى موارده تمدا ... والبلاد الفرنجية قد غضت منها الابصار ، وشخصت القلـوب واعتقد كل منها في نفسه أنه بعد هذا الحصن المطلوب ، فهده تود لو أكنتها البحار تحـت جناح أمواجها ، وهذه لو أسبلت الريح المواصف عليها ذيول عجاجها ...". (٤).

---

(١) الروضتين ج ٢ ص ٧٦ - ٧٧ وأنظر الكامل ١١ / ٥٣٤ - ٥٣٥

(٢) محمد زغلول سلام ، ضياء الدين بن الأثير ص ٧٥

(٣) ديوان ابن عنين ص ٣٠

(٤) صبح الأعشى ٧ / ٢٥٥

ويصف ابن عبد الظاهر معركة حمص، شعرا ، فيقول :

جاءت ثمانون ألفا من بعوثهم ... لا يرتضي غير ثكان البحث والنظر
وأتى الضيعان في يوم النفوس بحمص ... وأمتدت الحرب حتى أذن العصر
والصيف يركعوا لاعلام رافعة ... والروس تسجد لا عجب ولا كبر
والخيل لا تهتدى الا على جثث ... والسهل من أرؤس القتلى به وعر
والبيض تنغمد في الاجفان من مهج ... والسمر ، تناهيك ، يا ما يفعل السمر (١)

ولدى الوقوف عند هذه النصوص يلحظ المرء أنها تصف المعارك البرية وصفا سريعا تظهر من خلاله الحركة ، اما سريعة فتسجل نتيجة المعركة ، واما بطيئة مثقلة بالزخرف اللفظي فتطفو حرارة الجو وقد تمثلت هذه الحركة في اشكال مختلفة : اما بحركة الجيش في الكر والفر ، أو باظهار حركات الخيل ، أو بالتمثيل والتشبيه والمقارنة ، كتشبيه انطلاق الرمح بومض النجوم أو تمثيل حركة الجيش بحركة موج البحر ٠٠ وحدد بعض الادباء ، كابن عبد الظاهر مكان المعركة وزمانها بشكل تقريري ، وأنتهى الى وصف القتلى ، فجعل السهل وعرا من رؤوسهم .

ذلك وصف الادب للمعركة البرية ، أما وصفه للمعارك البحرية ، فلا يختلف كثيرا في الاطار العام من حيث الاهتمام بالنتائج ٠٠٠ ولكن أدوات المعركة تختلف باختلاف ساحة المعركة وظروفها ، يقول العماد في وصف معركة بحرية بين الاسطول المصري والفرنجي ، " وصدمت شوانية شواني الغناة ، فغادت مراكبهم وهي نواكص ، وطارت غربانا بين أجنحة الكفر اعداء الاسلام ناعبة ، وأطردت على طرائد الفرنج فطردتها غالبة لاغبة ، وظفرت أول يوم الورود بسفن للعدو معمرة ، والهبت في الماء على أهل النار كل نار للنكال مستعرة ، وأنقطعت طرق الافرنج البحرية ، فأستطالت اساطيلنا فذهبت وجاءت ، وعملت ما شاءت ، وتبعتهم مرارا وبالغنائم فاءت ، فضاقت بها العداة ذرعا ، ولم تجد من بعدها مطمعا ولا مرعى ٠٠٠ " (٢) .

وبعد أن خلا الجو للمسلمين بعد الانتصارات التي حققها صلاح الدين ، انحصر الفرنج في صور ، فتحركت السفن المصرية لامداد بيروت بعد أخذها من الفرنج ، فقامت سفن الفرنج بالتصدى للمصريين ، ونشبت معركة بحرية بين الطرفين ، يقول العماد في وصفها : فأبصر ملحوها شواني الفرنج لمبارزتها مبرزة ، وللاجهاز وراءها مجهزة ، وكانوا رجالا من بحرية مصر مجمعة ، وأصبحت قلوبهم بما جرى على أنظارهم مروعة ، فتواقعوا الى المساء ، وشافوا على دمائهم في الدأماء ، وخرجوا الى البر على وجوههم ، وخافوا مكرهم في مكروههم ، وكروا وفاروا وطاروا وثاروا ٠٠٠ هذا والمنجنيقات ترميهم ، والمفوقات الموفقات تصميهم وتصمهم ، والقتال قائم ، والنزال دائم ، والصخور تفلق ، والصدور تقلق ، والاحجار تتقلقل ، والاسوار تتخلخل ، والاوداج شاخبة كالعيون البواكي ، والابصار دامية من الزنبوركات والنوكسات النواكي ٠٠ " (٣) .

---

(١) عقد الجمان جـ ٢٠ ق ٤ ورقه ٦٧٨ (٢) الفتح القسي ١٨١ ـ ١٨٢
(٣) . المصدر السابق ١٦١ ـ ١٦٢

ومن وصف الشعراء لمعركة بحرية ما قدمه أسامة بن منقذ في وصف لمعركة بين المصريين بقيادة طلائع بن رزيك والفرنج ، يقول :

غزوتهم في البحر حتى كأنما الا | ساطيل فيه موجه المتلاطم
بفرسان بحر ، فوق دهم كأنها | على الماء طير ما لهن قوادم
يصرفها فرسانها بأعنة | جرت ، حيث لم توصل بهن الشكائم
اذا دفعوها قلت : فرسان غارة | سروا بجياد ما لهن قوائم
يسوق أساطيل الفرنج اليهم | حمام ، وطير للفرنج أشائم
دماؤهم في البحر حمر سوائم | وهامهم في البر سحم جواثم
فلم يخل في فج من الارض هارب | ولم ينج في لج من الماء عائم
وعاد الاسارى مردفين وشملهم | تقاد ، كما قاد المهاري الخزائم (١)

هذه الصورة الكثيرة من نصوص كثيرة لتكون شاهدا على وصف المعركة ، ولكن مع أنها مختارة لم نجد فيها الوصف الدقيق للمعركة ، من حيث تطور الاحداث وتفصيلها ، ولو اتخذنا نصوصا أخرى لوجدنا اشتراك كثير من الادباء في نقل جو المعركة ، بل قد يجمع بعضهم فيقدم المعركة في صور لا ترتبط عادة بالجو القتالي ، وذلك سعيا منهم وراء الزخرف البياني ، يقول ابن الساعاتي مثلا :

اذا ما تغنى السيف في الهام والطلى | ففينا تثنى رمحه وهو نشوان
تثنى القنا بعضه راقصا بلا ئه | وكم مر دهر دونه وهو غضبان (٢)

ويقول العماد : " ورقصت قدود السمر على غناء الصواهل ، وحركت رياح السوابق ذوائب الذوابل " (٣) ، ويقول شهاب الدين محمود :

وغنت البيض في الاعناق فارتقصت | أبراجها اسفا منهن بالقضب (٤)

وقد يقال أن بين الاعراس والمعارك بعض مشابهة بما في كليهما من حركة واضطراب ، وما ... ولكن وصف الحرب يتطلب كل ما يوحي بالقوة والشدة والعنف ، يستوي في ذلك الالفاظ والاصوات والاخيلة والصور . وقد حد من دقة وصف الادباء للمعارك ، وأعطاء صورة واقعية عنها ، ما انصرفوا اليه من زخرف لفظي ولغوي قد يصل الى حد الحذلقة ، ومثال ذلك قول النسابة المصري الجواني :

نثر ونظم طعنة وضرابه | فالرمح ينظم والمهند ينثر (٥)

---

(١) ديوان أسامة ٢١٦ وأنظر أيضا ص ٢١٧
(٢) ديوان ابن الساعاتي ١ / ١٢٩
(٣) الفتح القسي ٥٠٨
(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ / ١١٧ – ١١٨ ، وأنظر جواهر السلوك ورقه ٦٠
(٥) الروضتين ١ / ١٠٥

وقول العماد :

تنثر الهام كالحروف فما أشبه هذى السيوف بالاقلام
في محاريب حرية البيض صلت وركوع الظبى سجود الهام(١)

وقول شهاب الدين محمود في فتح عكا :

وحطتها بالمجانيق التي وقفت ازاء جدرانها في جحفل لجب
درنوعة تنبوا أضعافها غضبا للكسر والحطم منها كل منتصب (٢)

ومن النثر قول شهاب الدين محمود يصف مجانيق الفرنج التي عجزت عن الصمود أمام مجانيق المسلمين : " فاعلمتهم أنها لا تطيق الدفاع عن غيرها بعد أن عجزت عن نفسها ، بسطت أنفها المارة على الاذعان ، ورفعت أصابعها الى الاجابة أن تذل للتشهد ، واما انابة الى طلب الامان " (٣) ، فهذه الاخيلة تبعد عن الجو الواقعي للقتال ، وان احتوت على أنماط جديدة غير مألوفة من التشبيهات والاستعارات ، ومن عوامل الافتقار الى الوصف الواقعي الدقيق للمعركة ، التركيز كما أسلفنا على النتائج ، دون تتبع مجريات الاحداث ، ففي حديث القاضي الفاضل عن حصار الفرنج لعكا ، يركز على انتصار المسلمين في مرحلة من مراحل الحصار ، على النحو التالي : " فنازلت الفرنج تغر عكا في اسطول ملك بحره ، وبحر سلك بره ، فنهضنا اليه ، ونزلنا عليهم وعليه ، فضرب معنا مصافا ، تقلت فيه فرسانه وشجعانه ، وخذلت صلبانه (٤)

وقد يتبادر الى الذهن أن الادباء الذين تحدثوا عن المعارك كانوا بعيدين عن ساحة القتال ، ولكن هذا الامر لا يمكن تعميمه على أدباء العصر جميعهم ، لان بعضهم شاهد المعارك غير مرة ، ومن هؤلاء العماد الذى شاهد هجوم الفرنج على المسلمين في عكا ، وانهزم من الهجوم ، يقول : " وكنت في جماعة من أهل الفضل ، وقد ركبنا في ذلك اليوم ، ووقفنا على التل نشاهد الوقعة ، وننتظر ما يكون من القوم ، وما ظننا أن القوة تهي ، وأن الوقعة الينا تنتهي ، فلما خالطونا في المخيم ، وباسطونا في المجثم ، وكنا على بغال بغير أهبة قتال ، أعددنا أمرنا وأخذنا حذرنا ، ورأينا العسكر موليا والمنهزم عما تركه من ثيابه ورحله متخليا ، فوافقنا في الاندفاع وألفينا الاستضرار في المال عين الانتفاع " (٥) ، على أنه يطفن فهم رواية العماد هذه ، على أنها دليل على أن الادباء ، أو معظمهم على الاقل ، لم يمارسوا المعاناة الحقيقية التي مارسها المقاتل ، ولذلك وصفوا المعركة وصفا جزئيا ، وهذا ما يفهم من قول العماد " وكنا على بغال بغير أهبة قتال " فهم كالصحفيين الذين يراقبون المعركة ويصفونها وصفا ظاهريا ، ولكنهم يعجزون عن وصف دقائقها ومعاناة المقاتلين فيها ،

---

(١) الروضتين ٢ / ١٦١
(٢) جواهر السلوك ورقه ٦٠ وأنظر تاريخ ابن الفرات ٨ / ١١٧
(٣) صبح الاعشى ٨ / ٣٩٦ ، وأنظر حسن التوسل ١٤٥
(٤) صبح الاعشى ٦ / ٥٢٩
(٥) الفتح القسي ٢٠٩ وأنظر ص ٧٨ ـ ٨٣ ، ١٦٥

وبذلك يتغلب الوعي والعقل على الشعور والاحساس، فيكون وصف المعركة من الخارج ، لا من الداخل .

وقد يعود انصراف الادباء عن وصف تسلسل الاحداث الى أنهم اهتموا باعلان أنباء المعركة على الملأ في وقت قلت فيه وسائل الاعلام . ويضيف الدكتور محمود ابراهيم سببا آخر في مجال حديثه عن ابن القيسراني ، يمكن تعميمه على أدب هذه الفترة وهو اتكاء الشعراء في وصف معارك زمنهم على التراث الشعري السابق (١) ، وخاصة قصائد أبي تمام وقصائد المتنبي الحربية .

ومع ذلك ، فان الادباء لم يغفلوا وصف المعركة كلية ، بل تناولوا أجزاء منها ، كوصف قوة الاعداء ، وقوة المسلمين ، وأدوات المعركة ، والجو العام لها ، ثم التركيز على النتيجة ... ، وفيما يلي تفصيل ذلك ..

١ . وصف قوة الاعداء : أهتم الادباء باظهار قوة العدو ، وكثرة عدته ، قبل الدخول في المعركة ، لكي يفسحوا لخيال السامع حتى يكون صورة ضخمة عن قوة العدو ، وكثرة عدده ، وبالتالي عن عظمة الانتصار عليه ، يقول القاضي الفاضل في حصار دمياط زمن صلاح الدين : " فانهم نازلوها بحرا في ألف مركب مقاتل وحامل ، وبرا في مائتي ألف فارس وراجل ، وحاصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها ، ويماسونها ويصابحونها القتال الذي يصليه الصليب ، والقراع الذي ينادي به من مكان قريب ..(٢)، وفي ذلك يقول فتيان الشاغوري :

ولما أتوا دمياط كالبحر طاميا ... وليس له من كثرة القوم ساحل
يزيد عن الاحصاء والعد جمعهم ... ألوف ألوف خيلهم والرواحل (٣)

وفي زمن الكامل بن العادل ، حاصر الفرنج دمياط بقوات هائلة ، فقال علم الدين أيدمر المحيوي في ذلك :

وأتى بملء البسيطة كثرة ... والله ربك عادم ما شيدوا
جيش اذا مسحت يداه بقعة ... جف المياه بها وذاب الجلمد
كالسيل الا أنه لا ينقضي ... والليل الا انه يتوقد (٤)

---

(١) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ١٢٧
(٢) صبح الاعشى ٨٣/١٢
(٣) ديوان فتيان الشاغوري ٣١٩
(٤) ديوان علم الدين أيدمر المحيوي ص١٥

وفي وصف قوتهم البحرية يقول العماد : " فسمّر الفرنج اسطولا ، وصفّ شوانيه على البحر عرضا وطولا ، وقدّر أنه يلاقي الاسطول المنصور ، ويحظر بسد الطرق عليه وصدها ، العبور ... (١) ، ويقول ابن دنينير في وصف قوات الفرنج البحرية التي حاصرت دمياط :

فالبحر من تحتهم آذيه وعلـــى	رؤوسهم مثله نار الحرب تستعـــر
وزعتهم بين بيض الهند مصلتـة	وبين سمر القنا ، والموت معتكـــر
فللرماح قلوب منهم أبـــــدا	وللسيوف الطلى والهام والقصـــر
أمّوا العبور الى دمياط تحصنهم	وما دروا أنه عبرٌ به العبـــر (٢) *

٢ - وصف قوة المسلمين : وقد قصد الادباء من ذلك اظهار قوة المسلمين أمام قوة الفرنج للدلالة على شدة المعركة ، ولرفع معنويات المقاتلين ، فان كان النصر لهم أظهروهم بمظهر القوي الذي تغلب على ند قوي ، وأن كان النصر عليهم قدموا بين أيديهم عذرا مقبولا وهو أنهم أعدوا ما أستطاعوا ، فان خسروا معركة فما خسروا المصابرة ، ولا خسروا الأمل بالنصر ، وأدلة ذلك كثيرة ** ، فمن أمثلة انتصار المسلمين الاقوياء على الفرنج الأنداد لهم ما جاء في الروضتين تحت باب القدسيات (٣) ومنها قول ابن دنينير في مدح الاشرف موسى يوم دمياط :

أتيت دمياط إذ أعيت رياضتهـــا	كلّ الورى وتناءى البدو والحضـــر
فكنت إذ رُمتها مفتاح مقفلهـــا	فالحق منتصر والشرك منذعـــر
صدمته بخميس لو صدمْتَ بـــه	وجهَ البسيطة كادت منه تنفطـــر
من بعد ما كانَ في آمالهم طـــول	يوم الكفاح وفي أعطارهم قصـــر
أوردت أنفسهمُ خوض الردى فغـدا	ورودهم بارتواءٍ ما له صـــدر (٤)

---

(١) الفتح القسي ٣٨٥ (٢) ديوان ابن دنينير ورقة ١٥

* لمزيد من الامثلة أنظر : ديوان أسامة بن منقذ ٢٠٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، الروضتين ج١ ق١ ص٥٣ ، ٢٧ ، ٢٧١ ، البداية والنهاية ١٢ / ٢٢٨ – ٢٢٩ ، تاريخ ابن الفرات ٨ / ١١٢ ، ومجلد ٥ ج ١ ص٢٣٠ ، تشريف الايام والعصور ٧٨ عقد الجمان ج ٢٠ ق ٤ ورقة ٧٨ ، ٧١١ ، ج ١٨ ق ١ ورقة ٥٨ ، ج ٢ ق ١ ورقة ١٨٢ ، الفتح القسي ١٧٤ ، ٢٨٩ ، ٢١١ ، ٢١٤

** لمزيد من الأمثلة أنظر : ديوان أسامة بن منقذ ١٧٦ ، ٢٠١ ، تاريخ ابن الفرات ٨ / ١١٦ ، الفتح القسي ٢٧١ ، الروضتين ١ / ١٧٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦١ ، خريدة القصر قسم شعراء الشام ١ / ١٥٥ ، ٢١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٧٠ ، ٢ / ٣٨٩ ، قسم شعراء العراق ١٤٧ ، مفرج الكروب ٢ / ١١٢ ، عبد اللطيف حمزة ، الادب المصري ٦٨ .

(٣) الروضتين ٢ / ١٠٣ – ١٠٧ ، ١١٥ – ١١٩

(٤) ديوان ابن دنينير ورقة ٢٢

ويقول ابن النبيه في مدح الاشرف موسى يوم دمياط :

لله من ثغر دمياط وبرزخهـــا ... فتح له تفتح السبع السمـــوات
يوم على الروم يمشي ريحه سحبـا ... أمطارهن مصيبات مصيبـــات
رأوا جيوش بني أيوب يقدمهـــا ... ليث له في جيوش الشرك هجمـات
فللرماح كلاهم أوصدورهـــم ... وللصوارم أعناق وهامـــات (١)

ويقول الرشيد النابلسي ، في فتح العادل لحصن كوكب سنة ٦٠٩ هـ :

لقد رأى كوكب في نفسه عجبـــا ... وكاد كوكبه الدري ينكـــدر
أضرمت جذوة بأس في جوانبـــه ... أنفاسهـا في نفوس الشرك تزدفـر
طوقته بمجانيق يلين لهـــا ... قلب الحديد ولا يستمسك الحجـر
(موت) عليه بمثل الشهب قاذفة ... فشده بصعيد الارض منفطـر (٢)

ومن النثر قول العماد في وصف المصاف يوم عكا : " ... ووافى الانجاد عسكرُ الشرق ماشي الشرب ، وصرنا محاصرين للمحاصرين ، مكابرين للمكابرين ، قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط ، واستضعفنا منه وهو مستشيط ، وأحدقنا بأولئك الكفرة احاطة النار بأهلهـا ، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها ... وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يحملوها ، وأثخنا لهم مطايا المنايا فهان عليهم أن يمتطوها ... " (٣) ،

والأمثلة على انتصار الفرنج على المسلمين أقل من أمثلة انتصار المسلمين على الفرنج ، وذلك لأن الادب كان يصمت منتظرا النصر ، وإن كان لا بد من القول ، فالتعزيـة والتهديد بالثار وغرس الأمل في النفوس ، مع الاستعانة بالنصوص الدينية ، وأحداث التاريخ الاسلامي ، هذا العماد يعزي صلاح الدين بسقوط عكا فيقول له : " ... ه بلدة ما فتحه الله ، قد استعادها أعداه ... وان ذهبت مدينة فما ذهب الديـن ، ولا ضعف في نصر الطالبين " (٤) ، ويقول القاضي الفاضل : " فلا تمطر ... ه الفتوق على مولانا فتبهر صبره ، وتملأ صدره ، فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتـم الاعلون والله معكـم ، وهذا الدين ما غلب بكثرة ولا نصر بثروة ، انما اختار اللـه تعالى له أرباب النيات ، وذوي قلوب معه وحالات ، فليكن المولى نعم الخلـف لذلك السلف ، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، وأشتدي أزمة تنفرجـي ، والغمرات تذهب ثم لا تجي ... " (٥)

---

(١) ديوان ابن النبيه ص ٦٦
(٢) عقد الجمان ج ١٧ ق ٢ ورقة ٣٢٨
(٣) الفتح القسي ٢٦٩
(٤) الروضتين ٢/١٨٨
(٥) المصدر السابق ٢/١٦٧

ويقول ابن دنينير عقيب هزيمة دمياط ، وقد وصل المعظم عيسى لنجدة أخيه الكامل محمد :

أقيموا عمود الدين لله تسعدوا ... فقد جاءكم عيسى وهذا محمد
أرى الآية الكبرى من النسر قد جرى ... بها الفأل فالأفراح فيها تجدد
عسى الله أن يأتي بموسى فإنني ... أرى كبدي شوقا إليه توقد
ليظهر أن الحق حق محمد ... وكل نبي بالذي قلت يشهد
فلا تجزعوا من حادث جاء قادحا ... فذا الدين للرحمن في نصره يد
فمنوا لدين الكفر غارات محشر ... لهم في الهدى فرع زكي ومحتد
وشبوا لهم نار الجهاد فإنكم ... متى تتركوها آن للنار تخمد
فذا الدين ما أرسى قواعد حقه ... لدى الناس إلا ذابل ومهند
هل الدين مليوق جميل وشبهة ... ينيلكموها اليوم أو يسعف الغد ؟ (١) *

٣ - وصف الجو العام للمعركة وذكر النتيجة : وقد اعتمد الأدب في اظهار الجو العام للمعركة على تقديم صور خاطفة لالتقاء الجيشين ، ثم ما تلبث المعركة أن تنتهي بإعلان هزيمة الفرنجة ، يقول عمارة اليمني في مدح الملك الناصر بن الصالح :

نهدت إلى الافرنج تزجي كتائبا ... تغل بها أعناقهم وتشال
تولوا وقد أبقت عليهم نفوسهم ... سباسب حالت دونهم ورمال
وأتبعتهم ركضا على كل سابح ... اذا الريح كلت لم يصبه كلال (٢)

ويقول في مدح صلاح الدين يوم دمياط :

لئن نصبوا في البر جسرا فإنكم ... عبرتم ببحر من حديد على الجسر
طريق تقارعتم عليها مع العدا ... ففزتم بها والصخر يقرع بالصخر
أخذتم على الافرنج كل ثنية ... وقلتم لأيدي الخيل مري على (مري) **
وأزعجه من مصر خوف يلزه ... كما لز مهزوم من الليل بالفجر (٣)

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ٤

* لمزيد من الأمثلة أنظر : الروضتين ١/٥٨ ، ٢/١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٨٨ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ديوان ابن سناء الملك ٥٦٦ ، صبح الأعشى ٧/٢٥٥ ، ديوان علم الدين آيدمر ص ١٥ ، وانظر محمد كامل حسين في أدب مصر الفاطمية ص ٢٢٠ الخريدة قسم الشام ٢/٢٢١ ، ديوان ابن الخياط ١٨٤ .

(٢) النكت العصرية ٢٠٧

** مري هو ملك القدس الافرنجي

(٣) المصدر السابق ٢٦٩ ، الروضتين ١/١/٢١٤

وثمة أمثلة كثيرة تصور لقاء الجيشين بأعداد كثيرة وعدد متنوعة ، وقد اتكأ الادباء لاظهار هذا الجو على الجرس الموسيقي القوي المرتبط بجو الحروب ، فكثرت الألفاظ التي تشير الى الضرب والحركة ، واستعملت البحور الطويلة التي تتناسب مع جدية الموقف .

ومما يتعلق بوصف الجو العام وصف نتائج القصف ، وقد قدم القاضي الفاضل وصفا دقيقا لتهديم سور القدس بعد قصفه بالمنجنيقات يقول : " فأخلى السور من السيارة ، والحرب من النظارة ، وأمكن النقاب أن يسفر للحرب النقاب ، وأن يعيد الحجر الى سيرته من التراب ، فتقدم الى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله ، وحل عقده بضربة الاحراق الدائم على لطاقة أنمله ، وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الارض ... " (١) ، كما وصف ابن دنينير نهار المعركة فلا يرى من خلالها سوى وجه المدوح (المعظم عيسى) أو لمع الأسنة والسيوف ، يقول :

عاد النهار لهم ليلا بقسطلة ... دجت ، ووجهك في ظلمائها قمر (٢)

وصور الأدب في معرض وصف الجو العام للمعركة حالة الفرنج النفسية في موقفي الضعف والقوة ، وقد سبقت الاشارات الى مواطن القوة عندهم حين تصلهم الامدادات أو بعد النصر ، وأما ضعف نفوسهم فيكون بعد الفرار من هزيمة أو حين يشعرون بقوة المسلمين ، وأمثلة ذلك وافرة ، منها ما حدث زمن عماد الدين زنكي حين حاصر حصن الأثارب ، فاجتمع الفرنج من كل مكان ، ولكنهم مع كثرة عددهم أحسوا بقوة عماد الدين ، فلم يقدروا على الهجوم بل زهقت نفوسهم وهم ينظرون ، يقول ابن الاثير : " هذا ، والرعب قد ألقاه الله في قلوبهم فهم منه وجلون ، والخوف قد عم رئيسهم ومرؤوسهم فهم منه خائفون ، ويقدمون في سيرهم رجلا ويؤخرون أخرى ، ويعتقدون أن القامهم أولى وأجرى ، ولكن آجالهم تسوقهم الى مصارعهم ، فهم نحوها يبرزون ، وكأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون ... " (٣) ، ويصف أسامة بن منقذ حالة الفرنج لا سيما بغدوين وقد انتصر عليهم نور الدين :

وقد ضاقت الدنيا عليهم برحبها ... فلم ينجه بر ولم يحمه بحر (٤)

وينفي المهذب بن الزبير أن تكون الارض قد زلزلت ، وانما شعر الفرنج بحركة الارض نتيجة خوفهم فيقول :

ما زلزلت أرض العدا بل ذاك ما ... بقلوب أهليها من الخفقان (٥)

---

(١) الروضتين ٢ / ١٠٠

(٢) ديوان ابن دنينير ٢٢ ، وأنظر مثلا آخر في الروضتين ١ / ٥٤

(٣) الباهر ٤٠

(٤) ديوان أسامة بن منقذ ٢٠٢

(٥) الروضتين ١ / ٢ / ٣٧٦ والخريدة قسم شعراء مصر ١ / ٢١٠

وقد صوّر ابن سناء الملك حالتهم النفسية بعد سقوط القدس حين قال :

غدا بادويل وهو يلعن نفســــه	وحق لتلك النفس أن تريع اللعنـــــا
يروعه الصبح المنير اذا بـــــدا	ويوحشه الليل البهيم اذا جنــــا (١)

ويؤكد الرشيد النابلسي هذا المعنى فيجعلهم كالوحش لشدة الخوف والحسرة يقول :

تراهم في التشاؤل كالوحــــــــم وكانوا تلك المناكب ضــــــكا (٢)

كما نجد هذا المعنى عند ابن عبد الظاهر زمن المنصور قلاوون حين فتح حصن المرقب ، يقول :

حصن به الكفار قالوا تُســـــرى	من بعد هذا أي شيء بقـــــــى
وقال كل منهمُ ليتنـــــــا	لمثل هذا اليوم لم نخلـــــــق (٣)

ويقول العماد في وصف حالة الفرنج الذين تحصنوا بحصن الاكراد " وخاف الكفــر وطاف الذعر ، وقال تفرُّ الشرك نفرّ ولا تستقر ، .. فكأنهم في حصونهم أموات ، لا ترتفع لهم من الوهل والوله أصوات .. "(٤) ، ويقول علاء الدين بن القاضي محيي الدين بن الزكي في وصف فرنج صفد، وقد هاجمهم بيبرس سنة ٦٦٤ : "ووافانا والحصن قد تزعزعت أركانه ، والكفر قد انهدم بنيانه ، وشمر عن ساق الهزيمة شيطانه .. "(٥) *

وقد كان للاحداث الجارية ورجحان كفة المسلمين أثر في شعور الفرنج بأن مصيرهم الموت بعيدين عن مواطنهم الاصلية ، يقول القاضي الفاضل : " والفرنج يعرفون منـا خصما لا يمل الشر حتى يملوا ، وقرنا لا يزال يحرم السيف حتى يحلوا ، حتى أنا لما جاوزناهم في الأمر القريب (دمياط سنة ٥٦٤) وعلموا أن المصحف قد جاء بأيدينا يخاصم الصليب استشعروا بفراق بلادهم ، وتهادوا التعازي لأرواحهم بأجسادهم .. "(٦)

ولقد وفق الادباء حين قدموا لنا صورتين للافرنج ، إحداهما خلال فترة تمــوة واستعلاء ، ما لبثت أن انقضت ، والأخرى خلال مواجهة طويلة مع جيوش الاسلام ، انتهت بخروجهم من المشرق الاسلامي ، ولعل الابيات التالية التي قيلت بعد أن انتصر نور الدين على الفرنج قرب طبرية سنة ٥٥٢ تعطي فكرة عما كان عليه الفرنج في فترة القوة

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ٧٥٩ (٢) عقد الجمان ج١٧ / ق/ ١٢٦

(٣) تشريف الايام والعصور ٨٢ (٤) الفتح القسي ٢٢٥

(٥) نهاية الارب ٥ / ١٥٢

* لمزيد من الامثلة أنظر : الروضتين ١ / ٢ / ٢٧٦ ، ٢٧٤ ، ٤١٢ ، ج ١ / ٢٨ و ١٥٦ ، ٢٢٠ ، ٢٧٤ ، ج٢ / ١٢ ، ١٣ ، ٢٨ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ١٠٦ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٨١ ، والفتح القسي ١٥٦ ، ٢٤٥ ، ٣٠٠ ، ٣١٢ ، ٣٧١ ، ٣١٧ ، ٤٠٣ ، صبح الأعشى ٧ / ٢٥٦ ، ٨ / ٢٩٨ نهاية الارب ٥ / ١٥٧ـ١٥٨ ، ١٩٢ الكامل ١١ / ١٢ ، ٤٥٧ تشريف الايام ٧٩ رسائل ابن الاثير ١٥٢ ، ديوان فتيان الشاغوري ١٤٧ ، ٣١٨ النوادر ٧٧ ، ديوان ابن سناء الملك ٥٦٦ ، ١٤٨ .

(٦) صبح الاعشى ١٣ / ٩٠

والاستعلاء ، وما آلوا اليه بعد ردة الفعل الاسلامية القويـــة :

ما رأينا فيما تقدم يومـــا كامل الحسن غاية في البهـــاء
مثل يوم الفرنج حين علتهـم ذلة الاسر والبلا والفنـــاء
ورماياتهم على السيس رفعـوا بين ذل وحسرة وعنـــاء
بعد عزكم وهيبة ذكـــر في مصاف الحروب والهيجـاء (١)

وفي عهد صلاح الدين ، بعد أن اتحدت البلاد الاسلامية ، أصبحت أرض الفرنج كما صورها الشاعر العربي سبيلا سهلا لكل سالك رغم كثرتهم ، بعد أن كانت حمى لا يضام ، يقـول ابن الدهان الموصلي :

وكانت حمى أرض الفرنج فأصبحت سبيلا لابناء السبيل مذلـلا
خشوا أن يلاقوا جحفلا كل فــارس يعدونه منه خميسا وجحفـلا
وهابوك حتى الفارس الشهم من رأى بجيشك نارا أو تأمل قسطـلا
ولو أنهم كالرمل أو عدد الحصـى لما بينوا اذ عاينوك كلا ولا (٢)

ويشير ابن عبد الظاهر الى تحول خطير في نفسية الفرنج ، ساعد على استئصالهم ، وهو تكالبهم على الحياة ، بعد أن كانوا لا يخافون الموت ، فخيل لهم الرعب أشياء لا واقع لها رغم حصانة الموقع الذي يعيشون فيه ، وذلك حين حاصر المسلمون حصن المرقب الحصين ، وبعد جهد كبير لم يستطع المسلمون السيادة على الحصن ، ففضلوا الرجوع على اضاعة الوقت ، واذا رسولهم يأتي يطلب الامان ، يقول : " فسقط في أيديهم وحل الخذلان في ناديهـم ، وتحققوا أنهم تقتل بغير شك ، وأن أسيرهم لا يفك ، وطلبوا الحديث في الامان ، والمعاملة بالعفو والاحسان ، وبعد أن كانوا يؤثرون الموت على الحياة ، صاروا يؤثرون الحياة على الموت ، وتحققوا أنهم ان تخلوا عن أنفسهم فاتهم الفوت" (٣) ، ومما اعتمده الادباء في وصف المعركة وصفا مجزأ ، تقسيم جيش الفرنج بعد الهزيمة الى هاربين أو أسرى أو قتلى *.

---

(١) الروضتين ١/١/٢٧٢ ، وانظر ذيل تاريخ دمشق ٣٤٢ ، وعقد الجمان ج٢١ ق٢ ورقة ٢٨٣

(٢) ديوان ابن الدهان الموصلي ٤٣

(٣) تشريف الايام والعصور ٧٩ ، وللمزيد انظر الروضتين ١/٢/٥١٠ ، ٤٤٥ ، ٦٩٥ ، صبح الاعشى ٦/٢٩٩ ، ديوان ابن الدهان ٤٣ ، ديوان شرف الدين الانصاري ٢٨٣ ، ٤٠١ ، الخريدة قسم الشام ٢/٢٨٣

* يقول الرشيد النابلسي :
فقتيل معفر ليس يودى وأسير مكبل لن يفكا (عقد الجمان ج١٧ ق١ ورقه ١٨٠)

ويقول الصاحب شرف الدين الانصاري :
فالقوم بين قتيـــل وبين عاف وهارب (ديوانه ٩٦ وأنظر ص ٤٠١)

ويقول ابن مطروح :
خمسون ألفا لا يرى منهم غير قتيل أو أسير جريح (المختصر في أخبار البشر ٢/١٨٦ ديوان ابن مطروح ١٦٦ ، ديوان ابن دنينير ١٧٤)

وقد أعطوا صورة واضحة لكل نوع من هؤلاء ، حسب نتيجة المعركة ، فهذا ابن القيسراني يقدم صورة الهاربين أمام تاج الدولة بوري سنة ٥٢٣ ، اذ لم يستطيعوا التفريق بين وقع حبات المطر على أجسامهم ووقع السهام لشدة خوفهم ، يقول :

حتى اذا ما أحاط المشركون بنا ... كالليل يلتهم الدنيا ، له ظُلَمُ
والنصر دان وخيل الله مقبلة ... ترجو الشهادة في الهيجا ، وتغتنم
صابَ الغمام عليهم والسهام معا ... فما دروا أيما الهطالة الديم (١)

ويقول ابن دنينير :

خافوا بأنفسهم مما ألم بهم ... فهم يظنون رعبا أنها رصد (٢)

ويلاحظ أن الادباء ربطوا هزيمة الفرنج بعقيدتهم وشعائرهم الدينية ، بالاضافة الى وصف بلادهم بأنها خراب ، يقول ابن عبد الظاهر في رسالة أرسلها الى البولمز بيمند ملك طرابلس وانطاكية "... فلو رأيت خيالتك وهي صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهابة فيها تصول ، والكسابة فيها تجول ، وأموالك وهي توزن بالقنطار ، والماءت وكل أربع منها تباع وتشترى من مالك بدينار ، ... ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تحترق ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق .. لكنت تقول : يا ليتني كنت ترابا ، ويا ليتني لم أوت بهذا الخبر كتابا ...(٣) * .

أما الأسرى فقد قدم لهم الادب صورة ممتزجة الاطياف ، من حزن وخوف وحسرة واستهزاء يقول ابن القيسراني في فتح الرها :

لا أين يا أسرى المهالك بعدها ... ضاق الفضاء على نجاة الهارب (٤)

ويقول :

الى أين يا أسرى الضلالة بعدها ... لقد ذل غاويكم وعز رشاده (٥)

---

(١) الروضتين ١/١/١٤١
(٢) ديوان ابن دنينير ورقة ١٧ وأنظر ورقة ١٤
(٣) صبح الاعشى ٨/٣٠١ ، وأنظر ٦/٥١٩
* للمزيد من الامثلة على التشفي أنظر : الروضتين ج١/٣٨ ، ٤٩ ، ٢/١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٩ ، وعن الاذلال والتحقير ، أنظر الروضتين ٢/١٢ ، ١٦ ، ٤٨ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٤ ، وعن ارتباط الهزيمة بالعقيدة أنظر ديوان ابن عنين ص٢٢ ، وديوان ابن الساعاتي ٢/٢٢٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ديوان ابن الدهان ص٤٥ والروضتين ١/١/٥٣ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١/٢/٣٥٧ ، ٣٧٢ ، ٤١٢ ، ٥٢٩ وأنظر : الكامل ١١/١٤٥ ، ٣٠٠ ، ٤٥٧ ، ديوان ابن سناء الملك ٧٥٩ ، ديوان شرف الدين الانصاري ٢٧ ، ٢٨٣ ، ٤٠١ ، ديوان فتيان الشاغوري ٣١٦ الخريدة قسم الشام ١/٤٢٧ ، ٤٧٠ ، الفتح ٣٧١ ، ٣٩٠ ، صبح الاعشى ٦/٥١٩ ، ٥٢٧ ، ٧/٢٥ ، ٨/٢٥٠ تاريخ ابن الفرات مج٤ ج٢/ ٢٥٢ ، مفرج الكروب ٤/٩٢
(٤) الروضتين ١/١/٩٩ (٥) الروضتين ج١ ق١/٩٨

ويصف ابن القلانسي وصول الاسرى الى دمشق ، وقد رتبوا على كل جمل فارسان من أبطالهم ، ومعها راية من راياتهم منشورة ، ويذكر قول بعض الشعراء :

ما رأينا فيما تقدم يومـــا	كامل الحسن غاية في البهـــاء
مثل يوم الفرنج حين علتهم	ذلة الاسر والبلا والشقـــاء
وراياتهم على العيس زفوا	بين ذل وحسرة وعنـــاء (١)

ويقدم القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني وابن الاثير مثل هذه الصورة يوم حطين إذ صفد الاسرى بحبال الخيام ، وجيء بهم بين يدي السلطان ، يقول القاضي الفاضل : " فلو رأيت أطناب الخيم في أعناق الاسارى يساقون بها مقرنين ، لحمدت الذى سخر لنا هذا وما كنا لمقرنين ... " (٢) .

ويقول العماد : " وجاءوا بالاسارى بين يديه مقرنين في الأصفاد ، مقودين في الاقياد ، مسوقين الى السوق ، والحديد منهم في الاعناق والسوق ..." (٣)

ويقول ضياء الدين بن الاثير : " وجيء بالاسرى مقرنين في الاصفاد ، موقنيـن ان رؤوسهم عوار عن تلك الاجساد ، ولو استطاع رأس أحدهم أن ينكر عنقه لأنكره ، ولا يود وهو المعظم أن يقال ما أعظمه بل يقال ما أحقره ..." (٤)

ولم يكن هذا المآل للجنود فقط ، وإنما شاركهم فيه ملوكهم ، يقول ابن سناء الملك :

وحوى الأسر كل ملك يظـــن الد (م)	هر يفنى وملكه ليس يفنى
والمليك العظيم فيهم أسـيـــر	يتثنى في أدهم يتثنى
يحسب النوم يقظة ويظـــن الشـــ	ــخص طودا ويبصر الشمس دجنا
كم تمنى اللقاء حتى رآه	فتمنى لهنه أنه ما تمنى (٥)

ومن الواضح أن ذكر الملوك الاسرى جاء ليظهر عظامة النصر ، وقدرة الاسر ، فصحيح أن الاسير مليك عظيم إلا انه وقع في أسر المسلمين ، ولولا قوة القائد المسلم لما تمكن من أسر هذا الملك العظيم ، يقول ابن القيسراني في مدح نور الدين :

من باتت الأسد أسرى في سلاسله	هل يأسر الغلب إلا من له الغلب (٦)

---

(١) تاريخ ابن القلانسي ٣٤٣ ، وانظر الروضتين ١/١/٢٧٢ ، ومفرج الكروب ١٤٩/٣ ، وعقد الجمان جـ١٢ ق ٢ ورقة ٢٨٣

(٢) الفاضل من كلام القاضي الفاضل ورقة ١٠٠

(٣) الفتح القسي ٩٣

(٤) ضياء الدين ابن الاثير ٧٥

(٥) ديوان ابن سناء الملك ٨١٩

(٦) الروضتين ١/١/١٥٤

وقد سلط أدباء العرب سياط السخرية والاستهزاء على قادة الفرنج الأسرى ، يقول ابن دنينير :

يمشون همسا ، وإيماءٌ حديثهمُ فيها لخوفك إن قالوا وإن ذكروا
نهاهمُ الرعب عن عَوْد لمنقصة إن قيل عودوا ، نَعُدْ بالسيف ننتصر (١)

ويقول ابن مطروح :

قل للفرنسيس إذا جئته مقال صدق عن لسان فصيح
آجرك الله على ما جرى من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغي ملكها حسبت أن الزمر يا طبل ريح (٢)

وكثر عدد الأسرى حتى أصبح القيد غاليا لشدة حاجة المسلمين إليه ، يقول الشاغوري :

أغلى الأداهمَ مَنْ أسَرْتَ وأرخصتْ بيض الصوارم من نسهاب المعسكر (٣)

ويقول العماد :

يباعون أسرابا شرائح أحبل كشلة عصفور من الريش جُرّدا (٤)

ويقول :

سبايا بلاد الله مملوءة بهسا وقد شريت بخسا وقد عرضت نخسا
يطاف بها الأسواق لا راغب لها لكثرتها ، كم كثرة توجب الوكسا (٥) *

هذا ، وقد صور الأدب القتلى ودماءهم ، ومصير تلك الجثث المنتشرة هنا وهناك لكثرتها ، كما رسم صورة رهيبة لرأس الجندي الصليبي القتيل وهو يعلو الرمح ، وكأنه ثمرة من ثماره مع أن الرمح لا يثمر ، يقول ابن القيسراني :

عجبت للصعدة السمراء مثمرة برأسه ، إن إثمار القنا عجب
سما عليها سموّ الماء أرهقه أنبوبه في صعود أصلها صبب
إذا القناة ابتغت في رأسه نفقا بدا لثعلبها من نحره سرب (٦)

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ١٥
(٢) ديوان ابن مطروح ١٨١ ، والإلمام ١٦٩/١
(٣) ديوان فتيان الشاغوري ١٦ ، والروضتين ٨٤/٢
(٤) الروضتين ١١٨/٢ (٥) المصدر السابق ٨٣/٢
* للمزيد من الأمثلة عن الأسرى أنظر : الروضتين ٢٠٦/١/١ ، ٤٤٤/٢/١ ، ج٢/ ٤٨ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١١٧ ، ١٢٩ ، حسن المحاضرة ٣٩ تاريخ ابن الوردي ٥١/٢ ، فوات الوفيات ١٥٧/١ ، المواعظ والاعتبار ط . بولاق ٢١٣
(٦) الروضتين ١٥٤/١/١

ولم يكن رأس القائد هو الرأس الوحيد الذى رفع على رمح ، وإنما استطالت رؤوس الفرنج كأنما هي زرع قد أخصب ، وحين شهدها السيف الاسلامي أغرته بقطفها ، فنادى سيف المسلمين لتشارك في حصاد الزرع البشري ، يقول ابن القيسراني أيضا :

وطالت أرؤس الأعلاج خصبا	فنادى السيف قد وقع الحصاد
أحاط بهم فكان القتل صبرا	ولا طعن هناك ولا طراد
وللإبرنز فوق الرمح رأس	توسد والسنان له وساد (١)

ويقول القاضي الفاضل في فتوح صلاح الدين : " وعاد المسلمون برؤوس عدوهم في رؤوس القنا ، وقد أجتنوا ثمراتها ، وبأرواحهم في صدر الذابل ، وقد أطفأوا بمائها جمراتها ... " (٢) ، وفي معركة دمياط سنة ٦١٥ يقول ابن دنينير :

ما أنبت الخط طول الدهر من أسل غادرته وله من هامهم ثمر (٣)

وقد فصّل الشعراء صورة أنفصال الرأس عن الجسد ، فجعلوه يركض نحو البطل المسلم ليقدم الطاعة والتحية إليه ، أو يطير الى السماء من القناة ثم يهبط الى الارض لشدة الضربة ، يقول ابن القيسراني :

أتى رأسه ركضا وغودر شلوه وليس سوى عافي النسور له قبر (٤)

ويقول ابن منير :

تمشي القناة برأسه وهو الذى	نظمت مدار النيرين قناته
لو عانق العيوق يوم رفعته	لأراك هامد خفضه إخباته (٥)

بل قد تبلغ الضربة لشدتها حداً ترفع معها جثة القائد الصليبي فتلقيه مسبل الحينين لا من نعاس ، وغائرها لا من سهاد ، يقول ابن القيسراني :

ترجل للسّلام ففرسوه	وليس سوى القناة له جواد
غضيضَ المقلتين ولا نعاس	وغائرها وليس به سهاد (٦)

---

(١) الروضتين ١/١/١٤٦

(٢) الفاضل من كلام القاضي الفاضل ٩٨

(٣) ديوان ابن دنينير ورقة ٢٢

(٤) الروضتين ١/١/١٨٦

(٥) المصدر السابق ١٥٨

(٦) المصدر السابق ١٤٦

وقد تصل الضربة الى رأسه فتحطمه بحد أن تكون قد حطمت التاج الذى عليـــه ، يقول ابن منير :

حللت التاج عنه وعل تاجـــا نكانَ المتد من عقد الكعـاب (١)

وفي مقابل ارتفاع الرأس في الجو ، فان الضربة تغرس الجسم في الأرض/ حيـــث تجرى وكأنها أشجار والرماح تحمل الثمر ، يقول العماد :

لقد بغت فئة الافرنج فأنتصفتْ منها بأقدامك الهندية البتـــر
غرست في أرض مصر من جسومهمُ أشجارَ خط لها من هامهم ثمر (٢)

وبالاضافة الى هذه الصورة ، فقد قدم الادب صورا أخرى لجثة القتيل الفرنجـــي ، فهي إما ملقاة على الأرض تعلوها الدماء كما يقول ابن الصياد في مدح طلائع بـــن رزيك حين تمكن من قتل مقدم خيل الفرنج :

هو ملبس جثث العدا في الحرب من حلل النجيع مجاسدا وبياطـــا
فجياده تشكو مزاحمة القنـــــا وترد خرصان الرماح سياطا (٣) *

وإما ملقاة بالعراء ، يقول ابن منير في صاحب إنداكيـــة :

والآن ملقى بالعرا يقتاتـــه ما كان قبل بصيده يقتاتـــه
أوطأت أطراف السنابك هامه فتقاذفت بمنيفها قد فاتـــه (٤)

ويقول ابن شداد في وصف قتلى الفرنج يوم عكا : " وقامت سوق الحرب ، فلم يكن الا ساعة حتى رأينا القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وامتدوا مطرحـــين ، على التلال والوهاد ، وشربت السيوف من دمائهم حتى رويت ، وأكلت أسد الوغـــى بأسنان الظفر بهم حتى شبعت ... " (٥) ، ويقول راجح الحلي في قتلـــى دمياط سنة ٦١٥ هـ :

فلم ينج إلا كل شلو مجدل ثوى منهم أو من تراه مقيـــدا (٦)

---

(١) الروضتين ١/١/٢٢٩
(٢) المصدر السابق ٣٧١
(٣) الخريدة / قسم شعراء مصر ١/٢٤٣
* الابيات منسوبة خطأ الى ظافر الحداد ، انظر ديوان ظافر ص ٢٧٥ والرياط الاثواب الرقيقة
(٤) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٨
(٥) النوادر السلطانية ١٣٠
(٦) ابن كثير / البداية والنهاية ٩٥

وفي قتلى معركة حمص زمن قلاوون يقول بدر الدين المنبجي :

أجريت فيها بحارا من نجيعهم ... فكل سابحة سبحا الى اللبب
لم تطلع الشمس فيها بعد ذاك على ... غير الشلايا من القتلى ولم تغب (١)

وهذه الجثث المتناثرة على الأرض كثيرةُ العدد ، لأن الجيش الفرنجي يضم أعدادا كبيرة ، يقول ابن الاثير في وصف قتلى حطين : " فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم (المسلمين) أسروا واحدا ، ومن يرى الاسرى لا يظن أنهم قتلوا واحدا ... ولقد اجتزت بموضع الوقعة بعدها بنحو سنة ، فرأيت الارض ملأى من عظامهم تبين على البعد ، منها المجتمع ومنها المفترق ، هذا سوى ما جرفته السيول وأكلته السباع ... " (٢) ، ويقول نتيان الشاغوري :

فالخيل لا تمشي بها إلا على ... هام منضدة وشعر أشقر (٣)

وقد أعطى الأدب صورة لاعداد القتلى، ربما كان مبالغا فيها ، يقول العماد في قتلى الفرنج أثناء حصار عكا : " ولم يفلت من الاعداء الا أعداد ، ولم ينج من الآلاف إلا آحاد ، وأمست (تلك الاجساد) لنار الحرب فَراشا ، ولارض المعركة فِراشا ... " (٤) ، ويقول ابن النبيه في مدح الملك العادل :

كم لك في يافا وفي المرج من ... وقائع غرّ مشاهير
عشرون ألفا غير أتباعهم ... ما بين مقتول ومأسور (٥)

ويقول ابن مطروح في وصف قتلى الفرنج في موقعة دمياط سنة ٦٤٧ هـ :

خمسون ألفا لا يرى منهم ... غير قتيل أو أسير جريح (٦)

ويقدر الملك تورانشاه عدد القتلى في الموقعة السابقة بثلاثين ألفا ، يقول في كتاب الى نائبه في دمشق : " ولما كان الليل ، تركوا خيامهم وأثقالهم وأموالهم وقصدوا دمياط هاربين ، فسرنا في أثرهم طالبين ، وما زال السيف يعمل في

---

(١) عقد الجمان ٢٠ ق ٤ / ٧٢٢
(٢) الكامل ١١/ ٥٣٧ ــ ٥٣٨
(٣) ديوان نتيان الشاغوري ١٤٥
(٤) الفتح القسي ٢١١
(٥) ديوان ابن النبيه ١٢
(٦) ديوان ابن مطروح ١٨١ ، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٨٦

أدبارهم عامة الليل ، ويحل فيهم الخزى والويل ، فلما أصبحنا نهار الاربعاء ، قتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى نفسه في اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج ..." (١) *.

هذا وقد صور الأدب مآل هذه الجثث ، وتسمّوها بين بطون الوحوش وحواصل الطير ، لا إكراما لهم ، وإنما لان الارض رفضت احتواء جثثهم لرجسهم ، يقول العماد في وقعة حطين مادحا صلاح الدين :

كسرتهم إذ صح عزمك فيهم ونكستهم اذ صار سهمهم نكسا
بواقعة رجت بها الارض جيشهم دمارا كما بست جبالهم بسا
بطون ذئاب الارض صارت قبورهم ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا (٢)

ولهذا أكثر الادباء من وصف جيوش الطير فوق الجيش الاسلامي ، متوقعة سقوط القتلى من الفرنج ، يقول فتيان الشاغورى :

خميس له الرايات ظل ، وفوقه من الطير ظل يحجب الشمس سادل (٣)

ولكثرة الطيور فوق الجيش الاسلامي أخذ بعضها يصطدم ببعض ، يقول العماد في مدح صلاح الدين :

تركت مصارع للمشركين يطاون القشاعم فيه قبور
تزاحم فرسانها الضاريات فتصدم فيها النسور النسور (٤)

وقد قاسمت الطيور الجارحة في فرائسها الوحوش الضارية ، واشتركت جميعا في أكل تلك الجثث ، مع أن الطيور تنفر عادة من الوحوش ، يقول فتيان الشاغوري :

فالقوم نهب للسباع تنوشهم من كل ذى ناب وصاحب منسر (٥) **

---

(١) نهاية الارب ج ٢٧ ورقة ١٠١ ، النجوم الزاهرة ٣٦٧/٧

* لمزيد من الأمثلة عن القتلى أنظر : الخريدة قسم شعراء مصر ٢١٢/١ ، صبح الاعشى ١٢٧/٧ ، مفرج الكروب ١٥٠/٣ ، ديوان فتيان الشاغوري ٤٥٧ ، ٥٠٩ ابن الاثير الكامل ٥٢ ، ١١١ ، ١٧٤ ، الروضتين ٤٦٦/٢/١ ، الروضتين ٧٨/١٠/٢ ، ٨٧ ، ١٠٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ديوان أسامة بن منقذ ٢٠٢

(٢) الروضتين ٨٣/٢

(٣) ديوان فتيان الشاغورى ٣١٧

(٤) الخريدة/ قسم شعراء دمشق والشعراء الامراء من بني أيوب ص ٢٨

(٥) ديوان فتيان الشاغورى ١٤٤ ، وأنظر ١٤٥

** للمزيد عن مآل الجثث للطيور والسباع أنظر : ديوان ظافر الحداد ٢٥٤ ، ديوان فتيان الشاغوري ١٤٥ ، ٢٢٣ ، ديوان ابن النبيه ٧٦ ، أعلام النبلاء ١٦/٢ ، الفتح ٢٩٠ ، الخريدة قسم الشام ١٥٧/١ ، قسم العراق ١٤٧/٢ ، قسم مصر ١١/١ ، الروضتين ١٨٦/١/١

هذه حالة جثث القتلى ، أما دماء القتلى فقد جاء وصفها في الادب لتدل على ما دلت عليه متابعة الطير للجيش الاسلامي من كثرة قتلاهم سواء في البحر أو البر ، فها هوذا شهاب الدين محمود يصف الخيل الإسلامية تخوض في دمائهم في البر ويصف الرماح تنثر دمهم على الاسوار ، وتمد البحر بحر من الدماء ، يقول :

وخاضت البيض في بحر الدماء فما — أبدت من البيض إلا ساق مختضب
وغاص زرق القنا في زرق أعينهم — كأنما شطأن تهوى الى قلب
أجرت الى البحر بحرا من دمائهم — فراح كالراح ، اذ غرقاه كالحبب (١)

ويبالغ ابن القيسراني في كثرة قتلاهم ، اذ يجعل مياه نهر العاصي حمراء لكثرة الدماء التي أهرقت فيه يقول :

غداة كأنما العاصي احمرارا — من الدم عبرة الجفن القريح (٢)

ويقول فتيان الشاغوري في مدح الملك الأشرف موسى الذى قتل من الفرنج يوم دمياط ما قتل :

فبسيفه مج الفرنج دماءهم — في البحر حتى الماء منه أشكل (٣) *

وقد نظر الادباء الى هذا الدم على أنه ماء مطهر للأرض التي دنسها الفرنج ، فدماؤهم المطهر الوحيد لرجسهم ، يقول ابن القيسراني :

وقد أصبح البيت المقدس طاهرا — وليس سوى جاري الدماء له طُهر (٤)

ويقول ابن سناء الملك :

وكانت بهم تلك البلاد تنجست — فناب دم منهم عن الماء في الغسل (٥)

ويقول العماد في نكوص الفرنج عن عكا والقدس سنة ٥٨٣ هـ " ... بل ليس من أيام الكفر يوم فيه خير ، وقد غسل عن بلاد السلام بدماء الشرك ما كان يتخللها ، فلا ضرر ولا ضير ... " (٦) ، ويقول القاضي الفاضل في ذلك أيضا : " فلله الحمد أن أخرمت الصخرة بذلك البنيان المحيط ، وطهر ما طهر من دم الكفر وما كان ليطهرها البحر المحيط ... " (٧) ، وحين تم طرد الفرنج نهائيا من بلاد الشام قال شمس الدين الفزارى :

وأعدتها للمسلمين ولم يكن — منهم ترى التطهير الا بالدم (٨) **

---

(١) جواهر السلوك ٦٠ ، ابن الفرات ٨/١١٧–١١٨ (٢) أعلام النبلاء ٢/١٦
(٣) ديوان فتيان الشاغورى ٣١٤
* لمزيد من الأمثلة عن صورة الدماء أنظر : ديوان ابن سناء الملك ٨١٤ ، ٥٦٦ ، ديوان ابن النبيه ٦٧ ، الروضتين ١/١٤٧ ، ١/٢/٢٧١ ، الخريدة قسم شعراء الشام ١/١٥٨ قسم شعراء مصر ١/٢١١ ، عقد الجمان ٢٠/٤/٧٢٢
(٤) الروضتين ١/١/١٨٦ (٥) ديوان ابن سناء الملك ٥٦٦ (٦) صبح الأعشى ٦/٥١٩
(٧) المصدر السابق ٦/٥٢٨ (٨) جواهر السلوك ورقه ٤٨
** ذكر محمود سليم هذا البيت من قصيدة ابن الصائغ في فتح عكا ولم يشر الى المصدر وهي للفزاري / أنظر عصر سلاطين المماليك جـ٨/٥٧

وبالاضافة الى كون دمائهم المطهر الوحيد للارض ، فان لها فائدة أخرى وهي أنها تروي الارض والبطاح والسيوف العطشى ، وقد تفنن الشعراء في تقديم هذه الصور للتشفي بالعدو المنهزم ...

* * *

تلك هي صورة الصراع العسكري الذي أنتهى بعد عناء مرير أستمر مدة قرنين من الزمان ، ولكن ما الوظيفة التي أضطلع بها الادب خلال هذا الصراع ، وما الغاية التي استهدفها الادباء ؟ .

لقد أضطلع الادب بمهمة جليلة كان لها الأثر البعيد في مسيرة الصراع ، وفي حفز قادة المسلمين على القتال ، والسير به الى أن انتهى الوجود الصليبي في المشرق الأسلامي وذلك أن الأدب نظر الى الفرنج على أنهم غرباء طارئون على البلاد الاسلامية وعلى أهلها ، ومن ثم فقد حرضوا على مقاومتهم والتصدي لهم ، مهما بلغت التضحيات ، ومهما طال الزمان ، ولم يخل ديوان من دواوين الشعراء الذين عاشوا خلال أحداث الحروب الصليبية من التحريض على قتال الغزاة ، ويستطيع الباحث أن يتبين ذلك بوضوح في الاحداث التي سجلها الادب ، وقد استغل الادباء لاسيما الشعراء انتصار القادة المسلمين ، وأوضحوا للناس أن الفرنج طارئون وهم ينتظرون أحد المصيرين : الرحيل أو القتل والتدمير ، كما استغلوا المدح الشخصية وأضفوا على الممدوحين صفات ترتبط بمعظمهم من أجل طرد الغزاة ، ويتجلى هذا الموقف بصورة أكثر وضوحا في فتوح صلاح الدين ، اذ أجمع الادباء على أن القدس وغيرها من البلاد الاسلامية قد أحتلت في حالة ضعف المسلمين ، وأن قادة المسلمين يعملون الآن لاسترجاعها لتعود الى سابق عهدها بما فيه من طهر وفرح وأمن ، يقول العماد : "وكان الاسلام غريبا فرجع الى وطنه ، وسكن فيه التوطن في مسكنه ، وزالت مخاوفه ، وعاد الى مأمنه ..." (١) ويقول : " ورد الاسلام الغريب الى بيته القدس ، ونفى الكافر عنه كاسف البال راغم المعطس" (٢) ولم تغب فكرة الطروء عن أذهان القادة ، فهذا صلاح الدين يخطب في الجيش الاسلامي وهو قبالة العدو في عكا ، ويعلمهم أن هذا العدو الطارئ قد وطئ أرض الاسلام ، فيجب قتاله يقول : " أعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد وطئ أرض المسلمين ، وقد لاحت لوائح النصر عليه ، ... والرأي عندي مناجزته ، فليخبرنا كل منكم بما عنده " (٣) .

وحين حاول الملك رتشارد قلب الأسد مفاوضة صلاح الدين رد عليه بقوله : القدس لنا ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فلا يتصور أن ننزل عليه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف ما كان بها من المسلمين في ذلك الوقت " (٤) .

---

(١) الروضتين ٢ / ٩٨
(٢) الروضتين ٢ / ١٠٠ وأنظر أيضا ٢ / ٨٩ أوصبح الاعشى ٦ / ٥١٧ (٣) الروضتين ٢ / ١٤٦
(٤) ابن شداد / النوادر السلطانية ١٩٤ ، وأنظر ديوان ابن مطروح ١٨٢ ومحمد زغلول سلام / ضياء الدين بن الاثير ٨٠ ، الخريدة / الشام ١ / ١٥٨

وهكذا نجد حصوص الأدباء والقادة على إظهار العدو بهذا المظهر عبر تاريخ الصراع معه ، وحتى قضي عليه نهائيا ، وأخرج من ديار الإسلام .

* * *

وقد حاول الفرنج نيل الأعتراف بهم من المسلمين ، باللين تارة ، وبالشدة تارة أخرى ، وعن طريق المفاوضات أو المهادنات ، ولكن ذلك كله لم ينته الى ما يريدون ، ويظهر ذلك من رد صلاح الدين الأنف الذكر ، ولذا فقد لجأوا الى القوة ، وهددوه كما روى العماد ما مضمونه " وأن أبيحت غير الذخيرة والإباء ، ودمت على إرماق الدهماء وإهراق الدماء ، جاء من وراء السبعة أبحار من يسد فضاء السبع الطباق ، وأطاق للتناصر على دفع هذا الطلب نصارى الآفاق ، وثار الروم لروم الثأر ، وخرج الفرنج أنفارا للاستنفار(١) ولكنه لم يكترث لهذا التهديد ، ورد عليهم بالعزم الذي لا يعرفون سواه ، فقال للترجمان " أمرنا الله بتمهيد الأرض ، ونحن قائمون في طاعته بالفرض ، وعلينا الاجتهاد في الجهاد ، وامتثال أمره فيه بالانقياد ، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد ، ولا تكثرث الآحاد بكثرة النقاد *..(١) .

وقد لجأوا الى الخديعة وصرف الناس عن الحرب ، وذلك بالمراسلات المتكررة من أجل الصلح لتستمرئ نفوس المسلمين الراحة ، وتكره القتال ، فأرسل ملك الانجليز عدة رسائل يطلب في بعضها من السلطان الكف عن القتال ، وأنه لا يجوز أن يُهلك المسلمين في القتال ، كما لا يجوز له أن يُهلك الفرنج ، ثم تودد اليه بأن يتنازل السلطان عن القدس والساحل وعسقلان (٢) ، فرفض السلطان ، فأعاد الكرة ثانية وبطريقة جديدة ، إذ طلب من السلطان أن يزوج أخاه العادل بأخته ، ثم يتنازل كل منهما للزوجين عن الساحل والقدس ... وطالت السفارات ، ولم تسفر عن شيء ، ومع ذلك بقي السلطان وجنده متهيئين للقتال (٣) ، ولما شعر بالحاح ملك الانجليز ، وقد ضجر العسكر الإسلامي من ملازمة القتال عدة سنوات قبل المهادنة ، لأنه خشي أن يستمر الضجر في حين أزداد الضجر في الجيش الاسلامي ، فتكون العاقبة وخيمة .

---

(١) الفتح القسي ٢٤٠ .

(*) النقاد جنس من الغنم الصغيرة الأرجل .

(٢) النوادر السلطانية ٢١٩ ــ ٢١١ وللمراسلات أنظر ابن شداد / النوادر ٢٠١ ــ ٢٠٣ ، ٢١٨ ــ ٢٢٠ ، ٢٢٧ ــ ٢٣٠

(٣) الروضتين ٢/١٠١ ، ٢٠٣

وهذا ما يؤكده ابن شداد حين قال : " إن الصلح لم يكن من إيثاره " (١) ، وكأنه أحس بأن الهدنة بالرغم عن مدتها القصيرة تشكل خطرا على القضية ، فيصرح ابن شداد بقوله : " أخاف أن أصالح ، وما أدري أي شيء يكون مني ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقي لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة " المسلمين " قد قعد في رأس تلة ، وقال لا أنزل ، ويهلك المسلمون " (١)

وإن الناظر في بنود الصلح يدرك أنه كان لصالح المسلمين ، لأن سأم الجند الاسلامي بلغ حدا كاد يصل الى حد التمرد على أوامر صلاح الدين ، فكان هذا الصلح تجديدا لنشاطهم ، ومن ناحية أخرى فإن خوف صلاح الدين من المستقبل قد تحققت فعلا ، إذ توفي بعد الصلح بفترة تقل عن السنة ، ولو أنه مات والقتال مستمر لتحققت مخاوفه من أن يكتسح العدو البلاد وقادة المسلمين متفرقون ، كل في البلد الذي يحكمه ، وهذا ما عبر عنه ابن شداد في تعقيبه على قول صلاح الدين بقوله : " وكان كما قال " (١) ثم إن مدة الصلح تشعر بأن الحرب مستمرة ، اذ قد تجدد القتال سنة ٥٩٣ هـ أي بعد انتهاء الصلح بسنتين (٢) .

ولو سرنا مع التاريخ الى عصر بيبرس وقلاوون لوجدنا الهدنة في صالح المسلمين بشكل واضح ، إذ كان من شروطها مقاسمة الفرنج في انتاج الأرض ، ومنعهم من استعمال الامدادات كما منعوهم من تعمير الأسوار والقلاع ، وهذا يدل على أن الهدن لم يصاحبها شعور بانتهاء حالة الحرب ، وقد ساعد هذا العامل النفسي المسلمين على استرجاع الاراضي المحتلة (٣) .

والدارس لتاريخ هذه الفترة وأدبها يجد فيها تركيزا على غرس الكره في نفوس المسلمين ضد الفرنج ، لأنهم محتلون ، وقد أفلح هذا الكره في تصميم المسلمين على تحرير الأرض ، ومن الادلة التي تثبت شعور المسلمين الدائم بالكره للمحتلين ما سبقت الاشارة اليه هذا الكلام من تحريض المسلمين ضدهم ، وما ورد في النثر من دعاء بتدمير المدن التي يسكنونها واستنزال اللعنة والخذلان عليهم (٤)

---

(١) النوادر السلطانية ٢٣٥

(٢) الذيل على الروضتين ١٠

(٣) صبح الاعشى ١٤/٣٣ ، ٣٩ ـ ٤١ ، ٤٢ ، ٥١ ، ٦٠

(٤) انظر الاعتبار : ١٠ ، ١٧ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٦٦ ، ابن شداد ٢٩ ، ٣٣ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٩٨ ، الكامل ١٠/٣١٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٣٩٤ ، ١١/١٠٦ ، ١٥٤ ، ٤٥٣ ، ١٢/٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٨ ، ١٢٦ ، رحلة ابن جبير ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، الروضتين ٢/١٧٣ ... الخ

وقد أبرز الادباء هذا الشعور بطريقة قوية مؤثرة حين بحاولوا بين كراهتهم للغزاة ، وكره الله لهم ، ورفض البلاد المحتلة لوجودهم ، يقول القاضي الفاضل في وصف فتوح صلاح الدين : " وقد أظفر الله بالعدو الذي تشذبت قنلته شفقا ، وطارت فرقه فرقا ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصا ، فكلت حملاته ، وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالحيان عقوبة من الله ليس لصاحبها يد بها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الارض لها حليفة ، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ... " (١) .

أما بالنسبة الى الأرض فقد صورها الادباء تتململ تحت الاعداء ، بل صوروها تلفظهم وتذمهم ، يقول ابن منير في فتح فامية :

فاليوم أضحت تستذم مجيرها ... من جوره ، وغدت تذم جوارها (٢)

ويقول أحد الشعراء على لسان المسجد الاقصى شاكيا الظالم الذي يحيا فيه :

يا أيها الملك الذي ... لمعالم الصلبان نكس

جاءت اليك ظلامة ... تسعى من البيت المقدس

كل المساجد طهرت ... وأنا على شرفي منجس (٣)

وقد صور الشعراء العوامل الطبيعية وكأنها تعمل على استئصال الزنج ، يقول العماد في وصف زلزلة :

سطوة زلزلت بسكانها الأر ... ض وهدت قواعد الأطواد

أخذتهم بالحق رجفة بأس ... تركتهم صرعى صروف العوادي

آية آثرت ذوي الشرك بالهلـ ... ك وأهل الايمان بالارشاد (٤)

---

(١) صبح الاعشى ٦ / ٤٩٩

(٢) الروضتين ١ / ٦٣

(٣) الانس الجليل ٣١٨ ، وزبدة كشف الممالك لابن شاهين الظاهري ٢٠

(٤) الخريدة بداية قسم الشام وشعراء دمشق ص ٤٩

في حين حرص الأدب على تقديم الصورة المقابلة لهذه الصورة ، فصوروا الأرض تطيع القادة المسلمين وتلقي بأيديهم حصون الاعداء ، يقول ابن القيسراني في مدح نور الدين حين تمكن من قتل أمير أنطاكية :

وألقت بأيديها إليك حصونها ... ولو لم تجب طوعا لجاء بها القسر (١)

ويقول شهاب الدين محمود مخاطبا الأشرف :

فسر حيث ما تختار فالأرض كلها ... تطيعك والأمصار أجمعها مصر (٢)*

والحل الذي طرحه الأدباء دائما لتحقيق النصر هو الوحدة الحقيقية بين البلاد الإسلامية ، والجهاد المستمر ، وقد أسهمت الحرب نفسها في ايجاد الوحدة وتقوية عزائم المجاهدين ، يقول ابن القيسراني مخاطبا نور الدين حين حاول أن يوحد إمارة دمشق مع البلاد التي كان يحكمها :

إذا ما دمشقُ ملكتك عنانها ... تيقّن من في إيليّا انه الذبح (٣)

وفي هذا البيت إشارة واضحة الى أن اتحاد الاقطار الاسلامية يطبني عليها القضاء على الفرنج الذين كانوا يحتلون القدس آنذاك ، ويقول العماد في مدح أسد الدين شيركوه وصلاح الدين :

غداً يشبان في الكفّار ناراً وغضبى ... بلفحها يصبح الشبان كالشيب

بمُلك مصرَ ونصرُ المؤمنين غداً ... تحظى النفوس بتأنيس وتطييب (٤)

---

(١) الروضتين ١/١/١٨٦ ، الخريدة قسم الشام ١/١٥٨

(٢) البداية والنهاية ١٣/٣٢٩

* صبح الاعشى ٧/٣٥٤ ، ٦/٥١٨ ، الروضتين ٢/٨٩ ، ١٠٠ ، ديوان ابن مطروح ١٨٢ ، ديوان بهاء الدين زهير ١٢١ ، النجوم الزاهرة ٧/٢٧٠ ضياء الدين بن الاثير ٨١

(٣) الروضتين ١/١/١٨٠

(٤) الروضتين ١/٢/٣٦٩

ويقول في مدح أسد الدين شيركوه حين وزر في مصـــر :

فتحت مصر وأرجو أن تصير بهـــا ميسرا فتح بيت القدس عن كثب (١)

وبعد أن ضم صلاح الدين حلب والموصل قال العماد مهنئا إياه :

فكأنني بالساحل الاقصى وقـــد ساخت ببحر دم الفرنجة ساحــه

فأمر الى القوم الفرات ليشربـــوا الموت الاجاج فقد طما طماحه (٢) *

وهكذا إنتهى الوجود الصليبي في المشرق الاسلامي بعد جهود مضنية متواصلـة دامت قرابة قرنين من الزمن ، وقد شارك في هذه الجهود المقاتل بسلاحه ، والشاعر بشعره والكاتب بنثره ، فكان الادب في المعركة طاقة امتدادها يستخدم عن وعي ومعرفة لاحـراز النصر ، ويترك أثره في نفوس تهتز للكلمة البليغة ، وتتوق الذكر الحسن ، وتخشى أن يقال فيها ما يسـوء .

---

(١) الروضتين ١/٢/٤٠٣

(٢) مفرج الكروب ٢/٤١

* لمزيد من الأمثلة على أثر الوحدة أنظر ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٢ ، ديـوان طلائع ١٢٦ ، ديوان أسامة ٢١٧ ، الروضتين ١/٤٩ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٢٠٧ ، ٢٥٧ ، ٢/٦ ، ١٣ ، ١٧٠ ، تاريخ ابن الفرات ٨/١١٠ ، تاريخ ابن العديم ٣/٢٠ ـ ٢٥ ، الكامل ١١/٣١٨ ، دونروند ، تاريخ الحروب المقدسة ١/١٨١ أحمد بيلي المصري حياة صلاح الدين ، مطبعة السعادة سنة ١٩٢٦ ص ٦٨ ، لمزيد من الامثلة على الاستئصال ، أنظر ديوان الشاغوري ٥٣ ، ابن النبيه ٦٦ ، ابن سناء الملك ٢٨٣ ، ٧٥٨ ، ابن الساعاتي ١/١٧٢ ، ديوان طلائع ١٠٣ ، ١٤٢ ، ١٧٢ ، ديوان البوصيري ٨٨ ، ديوان شرف الدين الأنصـاري ٢٠٥ ٤٠١ ، ديوان ظافر الحداد ٢٥٤ ، وأنظر الروضتين ١/١٥٦ ، ١/٢/٣٩٦ ٦٩١ ، ٢/١١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١٦ ، ١٥٠ ، ١٩٤ ، ١/١/٩٩ ، ٢١٦ جواهر السلوك ٤٩ ، ٥١/٥٩ ، ٤٢ ، نهاية الأرب ٥/١٩٢ ، ٨/١٤ ، صبح الأعشى ٦/٥١٨ ، ٨/٢٥٠ ، ١٠/١٤٢ ، مفرج الكروب ٢٢٢

القسم الرابع : الخطر الصليبـــــــــي :

شكل الصليبيون بغزوهم المشرق الاسلامي خطرا على البلاد الإسلامية وأهلهـــا ومعتقداتها ، وقد أظهر الأدباء هذا الخطر ونتائجه القريبة والبعيدة ، لكون ذلـك استنهاضا للهمم من أجل الوقوف في وجه الخطر أولا ، ثم القضاء عليه في النهاية .

وقد تابع الأدب في مجاليْ الشعر والنثر الاحداث الكبار التي شهدها المشـرق الإسلامي إبّان الوجود الصليبي فيه وأحسن الادباء العرب تصوير هذا الخطر وعرضه ، فلم يقدموه الى الناس بصورة تدعو الى تجاهله وعدم التفكير فيه ، وهذا يفسر تركيزهم علـى إظهار الخطر في مناسبات النصر أو المدح أو قبيل المعركة ، حين تكون همم المقاتلـين عالية ، وأن يتحفزوا للقتال بأعتبارهالسبيل الوحيد لدفع الخطر عن الأمة والبلاد .

ولم يجد الباحث في أدب هذه الفترة ــ على طولها ــ سوى موقف واحد ظهر فيـه اليأس وعدم الاكتراث ، وذلك حين قام الفرنج بالهجوم على دمياط سنة ٦١٥ وأعلن الملك الكامل النفير العام ، في القاهرة ومصر ، وبين مخاطر الغزو الصليبي لمصر ، وأنّ ملِـكَ الفرنج قد أقطع مصر لأصحابه فقال أحدهم :

يهدّدونا بأهل عكـــــا	أن يملكونا وأهل يافــــا
ومن لنا أن يلوا علينـــا	فالروم خير من الريافـا (١) *

ويلاحظ أن سبب هذه الدعوة اليائسة هو عدم اظهار الخطر الصليبي اذ ذاك بالحكمة التي أظهرها الادب طيلة الحروب الصليبية ، مما نشأ عنه نتائج سيئة ، فقد أظهـر الافرنج بصورة الاقوياء القادرين على الاستيلاء على مصر دون شك ، مما أوهن عزائم الناس

(١) السلوك جـ ١ ق ٢٠٢/١

* في البيت الأول الاصل : يهددوننا حذفت النون خلافا لقواعد اللغـــة ، وفي البيت الثاني الريافا : أهل الريف .

وأدخل في قلوبهم الرعب ، ولو قابلنا هذه الصورة من صورة حصارهم لعكا سنة ٥٨٦ لوجدنـا أن قوات الفرنج كانت تزيد أو تقارب أعداد الفرنج الذين حاصروا دمياط ، ولكن طريقـة اظهار الخطر اختلفت ، فمنذ حصار عكا ارتبط الخطر باستثارة عزيمة المسلمين ، بالرغم عن كثرة الفرنج والحاحهم لاقتحام عكا ، يقول القاضي الفاضل من كتاب الى سيف الاسلام أخي صلاح الدين في اليمن : " ... فالبدار البدار ، فإن لم يكن الشام له بدار فمـا اليمن له بدار ، والجنة الجنة ، فانها لا تُنال الا بايقاد الحرب على أهل النـار ، والهمّة الهمة فإن البحار لا تلقى إلا بالبحار ، والملوك الكبار لا يقف في وجوههـا الا الملوك الكبار ... " (١) ، هذا ويمكن تقسيم صورة الخطر الى ثلاثة أجزاء :

أ . الخطر على الأرض الإسلاميـة

ب. الخطر على جماعة المسلميـن

جـ. الخطر على الاسلام والتراث الاسلامي

* * *

الخطر على الأرض الإسلاميـة :

أقام الصليبيون إماراتهم على حساب البلاد الاسلامية ، فكانت الامارات الأربـع ، وأولاها الرها ، وهي في الجزيرة الفراتية ، أي في عمق البلاد الاسلامية ، مما جعل لها أثرا كبيرا في اعاقة الوحدة الاسلامية ، وتهديد العراق والشام معا ، وأما الامارات الثلاث الاخرى فقد كانت ممتدة على ساحل البحر الابيض المتوسط من شماله الى جنوبه متوغلـة توغلا عميقا في بعض المناطق الاسلامية ، حتى أصبح بوسعها تهديد حلب ودمشـق ومصر غير مرة .

وقد يميز الادباء في مجال الحديث عن خطر الفرنج على الارض الاسلامية نوعين من البلاد : تلك التي تعرضت للغزو وأثر الغزو عليها وعلى ما وراءها ، وتلك التي لم تتعـرض للغزو ، ولكنها كانت مهددة به إن لم يقف المسلمون جميعا لصدّه .

---

(١) الروضتين ٢ / ١٣٦

وأما عن البلاد التي تعرضت للغزو ، فيمكن تحديدها ببلاد الشام والجزيرة ومصر ، وقد أوضح الأدب خطورة الفرنج عليها عامة ، وعلى بعض البلدان المهمة خاصة ، كالقدس ودمياط والرّها ، فهذا ابن الأثير يصف خطر الفرنج الذين في منطقة الرها فيقول : " وكانت سراياهم تبلغ ديار بكر الى آمد ، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد ، ومن ديار الجزيرة الى نصيبين ورأس العين ، فاستأصلوا ما لأهلها من أثاث وعين ، وأما الرقة وحران فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار ، واستضعاف واقتسار ، كل يوم قد أذاقوهم البوار ... وانقطعت الطرق الى دمشق إلا على الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب المفازة تعبا ومشقة ونصبا ، ثم زاد الأمر وعظم الشر ، حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجا واتاوه ، ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا الى دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن ، وسائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود الى أوطانهم ، فمن اختار المقام تركوه ، ومن آثر العود الى أهله أخذوه ، ... وناهيك بهذه الحال ذلة للمسلمين وأما أهل حلب فإنهم أخذوا مناصفة أعمالهم حتى الرحى التي على باب الجنان ، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة ، وأما باقي بلاد الشام فكان حالها أشد من هذين البلدين " (١) .

ويبين طلائع بن رزيك في رسالة بعثها الى أسامة بن منقذ حسرته لخلو القدس من أهلها فيقول :

لهف نفسي على ديار من السكـ (م) ن أقوت فليس فيها عريب (٢)

ولم تقف الخطورة عند هذا الحد ، بل وصل الأمر بالفرنج أن غيروا معالم المدينة ، فبنوا على الصخرة كنيسة ومذبحا وجعلوا فيها الصور والتماثيل (٣) ، ولذلك صور العماد القدس مخاطبة طيبة حين خلصها صلاح الدين من هذه الخطورة يقول : "

الآن ثاب الى البيت المقدس كال بيت المحرم إحرام ومعتمر (٣)

---

(١) الباهر ٣٤ ، وانظر ابن قاضي شهبة : الدر الثمين في سيرة نور الدين ورقة ٦١

(٢) ديوان طلائع بن رزيك ٦٣

(٣) الأنس الجليل ٣٣٩/١

ويؤكد ابن الساعاتي قول العماد ، لأن صيانة القدس تعني صيانة الحجاز ثم يبين عمل المعظم عيسى بن العادل في حماية القدس وأهلها من خطر الفرنج فيقول :

حمى القدس من زرق الأعادي بسمرها فما تجد الخطيّ الا تحطّما
شكا أهلها دائي محول وخيفة فأجرى على اعطافها الماء والدما
سقى ربّها ماء النجيع سيوفه ففي غيرها لا يستجيز التيمّما
فلم يبق في ساحاتها غير مسلم ولولاه لم يُبق الفرنجة مسلما
وما صانها دارا تحلّ وأختها ولكنه صان الحطيم وزمزما (١)

واهتم الادباء كذلك بدمياط ، وركزوا على أهميتها من جميع النواحي (٢) ، فهي مفتاح مصر ، وقد احتلها الفرنج عد مرات للعبور منها الى داخل مصر ، ولكنهم كانوا يفشلون في النهاية ، وفي حصار الفرنج لها سنة ٦١٥ كتب الامير جمال الدين الكناني الى الكامل رسالة شعرية ، ورماها اليه في نشاب ، وقد جاء في تلك الرسالة :

هذا كتاب موضح من حالتي ما ليس يكتمني لديك أقوله
أشكو اليك عدوّ سوء أحدقت بجميعه فرسانه وخيوله
فالبرّ قد ضمت اليه طريقه والبحر عزّ لنصره أسطوله
فخضوعه باد على أبراجه وحنينه وبكاؤه وعويله
ولو استطاع لأمّ بابك لائذا لكنه سُدّ عليه سبيله
ورسوله في أن تجيب دعاءه دينُ الاله وخلقه ورسوله
فقد انتهت أدواؤه وتحكمت علاته ونحا عليه نحوله (٣)

ولكنه مع هذه الحالة الحزينة لم ينقطع أمله ولا رجاؤه بل هو يستثير همة الكامل لتحقيق رجاء البلد الحزين فيقول :

وبقي له رمق يسير يرتجي أو يشتفي لما دهاه عليله
فاعرس حماك بحزم مشتفي بها داء لمثلك يرتجى تعليله
فالله أعطاك الكثير بفضله ورجاه من هذا الكثير قليله
فالعذر في نصر الاله ودينه ما ساغ عند المسلمين قبوله
والثغر ناظره اليه محدّق ما إن يمل من الدموع همولِه (٤)

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ١/ ١٧٨
(٢) انظر ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٢ ص ٨٠ و ٧٨ عن تنيس
(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك ١/١/ ١٩٩
(٤) المصدر السابق ١/١/ ١٩٩

وحين جاءت الامدادات من الأشرف موسى والمعظم عيسى ، انتصرت القوى الإسلامية الموحدة على الفرنج ، فقال ابن دنينير مخاطبا الاشرف موسى ومبينا خطورة وجود الفرنج على عقيدة أهل دمياط :

وطريدة الاسلام أنت أعدتهـــا من بعد طول تشرُّد ونـدود (١)

ومع أن الخطورة كانت بصورة خاصة على بعض المدن الهامة ، إلا إنها كانت تعني أن البلاد كلها كانت مهددة بالخطر ، وقد بين الشعراء بالفعل خطورة الفرنج على جميع أرض مصر والشام ، فيقول العماد مثلا في تعاون شاور مع الفرنج مبينا خطورة هذا العمل على مصر بلد الاسلام :

هو الذى أطمع الافرنج في بلد الا (م) سلام حتى سموا للقصد والطالب (٢)

ولما تكررت هجمات الفرنج لاحتلال مصر ، والمسلمون في حالة لا تمكنهم على التصدى للفرنج تضرع الشاعر عمارة اليمني لله أن يحفظ مصر من المصير السيء والفتن التي تتوهج كالجمر فقال :

يا ربّ إني أرى مصرا قد انتهبــت	لها عيون الليالي بعد رقدتهـا
فاجعل بها ملة الاسلام باقيــة	واحرس عقود الهدى من حل عقدتها
وهب لنا منك عونا نستجير بـه	من فتنة يتلظّى جَمْرُ وقدتِهـا (٣)

ويقول وحيش الأسدي مبينا خطورة الفرنج على الشام لولا صلاح الدين :

والشام لو لم يدارك أهله اندرست آثاره وَعَفَتْ آياته حقبـا (٤)

ويقول ابن عبد الظاهر في مدح قلاوون بعد انتصاره في معركة حمص سنة ٦٨١ :

هذا المقام الذى لو لم تحلّ بـه لم يبق والله لا شامٌ ولا مصر (٥)

وقد وفق الأدباء في ربط هذه البلاد التي تعرضت للخطر الصليبي بالبلاد الإسلامية البعيدة لاقناع البعيدين عن أرض المعركة بأن وقوع بلد من بلاد الاسلام في أيدي الاعداء يعني وجوب الجهاد على كل فرد وان ابتعد وطنه ، وإلا فإن تلك البلاد البعيدة معرضة للمصير نفسه ، ولذا حرص الادب على ربط البلاد المعرضة للخطر بالبلاد الاخرى ، وهذا يدل على بعد نظر وعمق تفكير ، كان من أهم آثاره انجاح العمل من أجل الوحدة والجهاد لطرد الغزاة .

---

(١) ديوان ابن دنينير ٢٠

(٢) عقد الجمان ١٢/٢/٤٢٣

(٣) خريدة القصر : قسم الشام ٢/١٤٠ والنكت العصرية ١٩٠

(٤) الخريدة/ قسم الشام/١/٢٤٣ وانظر مثلا آخر في عقد الجمان ١٢/٢/٤٢٣

(٥) عقد الجمان ٢٠/٤ ورقة ٦٧٧

وأول ما يلاحظه المرء في هذا الصدد ربط البلاد المغزوة بالأماكن الدينية في مكة والمدينة المنورة ، وقد كان هذا الارتباط ماثلاً في تفكير نور الدين محمود ، حتى تمثلت له رؤيا في نومه أكثر من مرة واحدة ، فقد روى ابن قاضي شهبة ، أن نور الدين رأى النبي صلى الله عليه وسلم سنة ٥٥٧ يقول له : " يا محمود أنقذني من هذين الشخصين ، يشير الى رجلين تجاهه ، وقد تكررت هذه الرؤيا ثلاث مرات في ليلة واحدة . . . "(١) .

وبعد سنة ٥٥٧ هـ بعشرين عاما جمع الفرنج خيلهم ورجلهم وقصدوا تيماء التي يقول فيها العماد : " وهي دهليز المدينة " (٢) ثم قام أرناط في السنة التالية بتجهيز جيش بري وبحري لغزو الحجاز وأيلة من الكرك ، يقول القاضي الفاضل : " وكان للفرنج مقصدان : أحدهما قلعة أيلة التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله ، والآخر: الخوض في هذا البحر الذي تجاوزه بلادهم من ساحله "(٣) . وقد نجحوا في الوصول الى أعماق الجزيرة ، ولكن صلاح الدين علم بذلك فأرسل الى أخيه العادل بتحريك الاسطول المصري بقيادة حسام الدين لؤلؤ ، وتمكن منهم وهم على بعد ليلة من المدينة فقتل من قتل وساق الاسرى الى القاهرة ، فكتب صلاح الدين الى العادل " بضرب رقابهم ، وقطع أسبابهم بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف . . . " (٤)

ومن المواقع التي اتخذها الفرنج لتهديد الأراضي المقدسة في الحجاز حصن الكرك ، وقد سبق الحديث عنه ، وأما خطورته فقد تحدث عنها القاضي الفاضل بقوله : " وجلس (حصن الكرك) من هام الإسلام مكان عمامته ، وجثم على أنفاس الحجاز ، فلم يدع نفسا يصعد من تهامته . . . " (٥) ، ويقول عن قلعة الكرك : " وكانت على الاسلام آية مضرة ، بل كانت لكعبة الله (زادها الله شرفا) أيتضرة . . . " (٦) .

ومن هنا نجد إشارة الادباء الى اطمئنان البيت الحرام بعد امتلاك المسلمين للكرك ، أو حتى حين يهزمون الفرنج هزيمة تقص أجنحتهم وتفل شوكتهم ، يقول العماد : واضطر الكفر في اسلامه الى الاسلام ، وتيمم بمحل هذا البيت (حصن الكرك) أمن البيت الحرام " (٧) .

---

(١) ابن قاضي شهبة ، الدر الثمين في سيرة نور الدين ٤٨ ـ ٤٩
(٢) الروضتين ٢/ ٢٣
(٣) المصدر السابق ٢/ ٣٧
(٤) المصدر السابق ٢/ ٣٦
(٥) ابن نباتة المصري ، الفاضل من كلام القاضي الفاضل ورقة ٢٥
(٦) المصدر السابق ورقة ١٠١
(٧) الفتح القسي ٢٢٦

ويقول أيضا في انتصارات صلاح الدين :

الآن قرت جنوب في مضاجعها ونام من لم يزل حلفا له السهر
الآن ثاب الى البيت المقدس كال بيت المحرم إحرام ومعتمر (١)

ويقول أبو الحسن الذروي في حسام الدين لؤلؤ :

كفيت أهل الحرمين العدا وذدت عن أحمد والكعبة (٢)

وحين جاء ملك الانجليز ، أراد احتلال القدس ، فقام صلاح الدين بتحصينها وتسميم الآبار التي في طريقها ، فصاد الفرنج عنها ، ولجأ ملكهم الى المفاوضات والصلح على صلاح الدين ، حتى عقد صلح الرملة سنة ٥٨٨ ، ويقول ابن الساعاتي مبينا خطورة الفرنج على البلاد المقدسة :

لولاك أم البيت غير مدافع ولسال سيل نداه في بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دما لترنم الناقوس في أثنائه (٣)

ولئن كان للحجاز من القيمة الدينية ما جعل الادباء يصورون خطر الفرنج عليها ، فان الأدب أبرز خطورة الفرنج على العالم الاسلامي كله ، فقد بعث الملك المعظم عيسى كتابا ختمه ببيتين من الشعر الى الخليفة العباسي يطلب منه التدخل الفعلي في المعركة ضد الفرنج ، وبين له خطأ الظن بأن أرض بغداد بعيدة عن ميدان المعركة ، فان انفتاح الطريق من الشام يعني سقوط بغداد أو تهديدها ، والبيتان للأمير عبد المحسن الكاتب الحلبي وهما :

قل للخليفة لا زالت عزائمه لها على الكفر ابراق وارعاد
إن الفرنج بحصن الطور قد نزلوا لا تغفلن ، فأرض الطور بغداد (٤)*x

وقد تنبه ابن منير الى خطورة الفرنج على البلاد الاسلامية قبل ذلك بكثير ففي سنة ٥٤٧ هـ افتتح نور الدين حصن انطرسوس ، فأنشده ابن منير قصيدة بحلب منها :

ولو لم تمترق** وتشم لأمسى وأصبح لا عراق ولا شآم (٥)

---

(١) عقد الجمان ١٧/١/١٨٠
(٢) الروضتين ٢/٣٦
(٣) تاريخ ابن الفرات مج ٤ ج٢ / ٨٦
(٤) نهاية الارب ج٢٧ ورقة ٢٢ والذيل على الروضتين ١٠٣
* في نهاية الارب :
إن الفرنج بأرض القدس قد نزلت لا تغفلن ، فأرض القدس بغداد
وهو غير متفق مع الأحداث التاريخية اذ ان القدس سنة ٦١٤ لم تكن قد أعطيت للفرنج .
** في الاصل تعترف ، ولا معنى لها هنا ، فالمقصود الدخول في العراق والدخول في الشام
(٥) الروضتين ١/١/٢٢٠ وانظر ج١ ص ٩٣ ــ ٩٤ ط دار الجيل

كما تنبّه الى ذلك عمارة اليمني سنة ٥٦٤ الى جعل حكم صلاح الدين لمصر تأمينـــا لقبر الرسول عليه الصلاة والسلام من خطر الفرنج ، يقول :

بكم آمّن الرحمن أعظُمَ يـــثرب ... وآمن أركان الثنية والحجـــر
ولـو رجعت مصرٌ الى الكفر لانطوى ... بساط الهدى من ساحة البر والبحر
ولكن شد د تم أزره بـــوزارة ... غدا لفضلها يشتق من شدّة الازر (١)

وقد ربط الشعر البلاد الاسلامية بعضها ببعض ، لتقف في وجه الخطر الصليبـي فهذا العماد يجعل حماية مصر حماية لبلاد الاسلام ، فيقول في مدح أسد الديـن شيركوه سنة ٥٦٣ :

وبلاد الاسلام أنقذ تهـــا أنـ ... ـت من الشرك أيما أنقـــاذ (٢)

ويقول البهاء زهير في مدح الملك الكامل محمد بعد أن طرد عدو وأخواه الفرنج مـن دمياط سنة ٦١٥ :

ولو لم يقم بالله حق قيامـــه ... لما سلمت دار السلام من الذعـر
وأقسم لولا همة كاملية ... لخافت رجال بالمقام وبالحجـر
فمَنْ مبلغٌ هذا الهناءَ لمكـــة ... ويثربَ تنهيهِ الى صاحب القبـر
فقل لرسول الله إن سميّـــه ... حمى بيضة الاسلام من نوب الدهر (٣) *

* * *

ثانيا : الخطر على المسلمـين :

أظهر الادباء الخطر الصليبي على المسلمين أفرادا وجماعات كما سبق أن بينا ، وفي هذا الباب نبين مظاهر أخرى للخطر تحدث عنها الادباء ، أما الخطر على الافراد فقد صوره عرقلة الكلبي أصدق تصوير ، وبيان ذلك أن صلاح الدين كان قد وعده بألف دينار إن ملك مصر ، فلما ملكها كتب اليه قصيدتين يطالبه بتحقيق وعده بارسال الدنانير والا فانه لن يستطيع الذهاب الى مصر ، لأن الفرنج في طريقه كالسياج المانع الـذي يلاقي من يجتازه الموت أو الاسر . يقول في الاولى :

---

(١) الروضتين ١/٢/٤١٢
(٢) المصدر السابق ١/٢/٣٨٤
(٣) ديوان البهاء زهير ١٢١ ومفرج الكروب ٤/١٠٣
* للمزيد من الأمثلة أنظر : الروضتين ٢/١٣٥ ، ١٤٦ ، ١٦٦ ، ٢١٦ ، خريدة القصر وجريدة العصر / قسم شعراء مصر ١/٦٩ ، زبدة الحلب ٢/ ٩٦ ، ١٥٠-١٥١ تاريخ ابن الوردي ٢/ ٥٥

قل للصلاح معيني عند إعساري | يا ألف مولاي أين الألف دينار
أخشى من الأسر إن حاولت أرضكم | وما تفي جنة الفردوس بالنار (١)

ويقول في الثانية :

إليك صلاح الدين مولاي أشتكي | زمانا على الحر الكريم يجور
ترى أبصر الالف التي كنت واعدي | بها في يدي قبل الممات تصير
وهيهات والإفرنج بيني وبينكم | سياج ، قتيل دونه وأسير (٢)

ويصف سبط بن الجوزي حالة الذعر التي نشرها الفرنج ، وما نتج عنه تقطع المواصلات بين المدن الاسلامية ، يقول : " وجئنا الى عقبة أفيق ، والطير لا تقدر أن تطير من خوف الفرنج " (٣) ، وقد ظهر هذا الخطر العام على المسلمين منذ أن وطئ العدو الفرنجي أرضهم ، اذ احتل البلاد وشتت العباد ، وأشاع الفساد ، وأهلك الحرث والنسل ، وقتل الفتيات والاطفال ، دون أن يرعى حرمة أو يحفظ عهدا ، يقول ابن الخياط :

بنو الشرك لا ينكرون الفساد | ولا يعرفون مع الجور قصدا
ولا يردعون عن القتل نفسا | ولا يتركون من الفتك جهدا
فكم من فتاة بهم أصبحت | تدق من الخوف نحرا وخدا (٤)

وقد نتج عن هذا الإهلاك والتشتيت أن عاش الناس في ظروف قاسية ، كانت سببا في تحرك نور الدين لانقاذ دمشق ، ولكن صاحبها مجير الدين استنجد بالفرنج ، فكتب إليه نور الدين معللا سبب نزوله في منطقة دمشق ، وميينا له الاخطار المحدقة بها من الفرنج ، يقول : " انني ما قصدت بنزولي هنا طلبا لمحاربتكم ، وانما دعاني الى هذا الأمر كثرة شكاية أهل حوران بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج ، وعدم الناصر لهم ، ولا يسعني مع ما أعطاني الله ـ تعالى ـ أن أقعد عن نصرة المسلمين مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها ... " (٥) ، وقد تكرر هذا الخطر عندما كان الصف الاسلامي يصاب بالضعف أو التصدع ، فهذا ابن عنين يرثي المعظم عيسى مشيدا بأعماله التي كان منها حفظ البلاد والعباد من الفرنج ، يقول :

وديار مصر لو ونت عزماته | عن نصرها لتحكمت فيها العدا
ولأمست البيض الحرائر أسهما | فيها سبايا ، والموالي أعبدا
ولأصبحت خيل الفرنج مغيرة | تجتاب ما بين المقيع الى كدى (٦)*

---

(١) الخريدة/ قسم شعراء الشام ١/ ١٧٨

(٢) الروضتين ١/ ٢/ ٤٤٩ الخريدة قسم الشام ١/ ٢٠٨ (وفيها : وأسير) وعقد الجمان ١٢/ ٦/ ١

(٣) الذيل على الروضتين ٧٠ (٤) ديوان ابن الخياط ١٨٤

(٥) الدر الثمين في سيرة نور الدين ٩٧ (٦) ديوان ابن عنين ٦١

* كدى / بلد قرب مكة

وينكر ابن دنينير على المسلمين أن يعيشوا في حياة مرفّهة ، وهم لا يأمنون على حياتهم والموت يتربص بهم ، فيقول :

أيطمع أقوام بنعمة عيشة ... متى عطشوا فالموت دونهم ورد (١)

وسبب هذه الحياة القاسية عدم استقرار الناس في ديارهم ، لا في بدو ولا في حضر ، ولذلك يمدح ابن دنينير الملك الصالح الذى أعاد الى دمياط أهلها :

أتيت دمياط اذ أعيت ربا بتهسا ... كل الورى وتناءى البدو والحضر (٢)

ويذكر الملك الامجد سببا آخر هو النهب الذى يقوم به الفرنج على حين غفلة من أهلها ، يقول عن عمل جماعة من الفرنج في نابلس بأنها : قتلت فيها المشايخ والشبان ، وسبيت الحلائل والصبيان ، واستولت يد الكفار على ما كان مدخرا من الاموال والغلال ، وما جمعه المسلمون لأزمتهم في السنين الدوال " (٣) ، وقد أشار ابن أسعد الموصلي الى خطر آخر يتهدد الاخلاق الاسلامية ، إذ إن الفرنج حاولوا تمزيق المسلمين أو زيادة شقة الخلاف بينهم ، ولذلك فان من صفات القائد الاسلامي أن يقوم على نصرة أحلافه وانجادهم مهما كانت مخاطر العون والانجاد ، يقول في مدح صلاح الدين :

لم يثنه عن نصره حلفاءه ... عددُ العدو ولا بعاد الموضع
بجحافل مثل السيول تدافعت ... واذا السيول تدافعتْ لم تدفع (٤) *

* * *

ثالثا : الخطر على الاسلام والتراث الاسلامي

كان من أهداف الوجود الصليبي في المشرق الاسلامي القضاء على عقيدة الاسلام وهذا ما سبق ذكره في الصراع العقائدي ، والجدير بالذكر هنا أن نشر مبادئ الغزاة شكل خطرا على الاسلام ، لا لأن هذه المبادئ تمثل فكرا يشكل خطرا على الفكر الاسلامي ، بل لأن القوة في بعض الفترات كانت الى جانب الغزاة ، فتراءى لهم أن القوة العسكرية وقوة العقيدة الدينية صنوان ، يقول الملك الامجد : "ورفع الكفار الصليب على رؤوس الاشهاد والمشاهد ، وأعلنوا بما يفترونه من التثليث الذى تنزه عنه الله الأحد الواحد ، فاستفحل الشر وأعضل الداء ، وعز على اللديغ الشفاء ، وأقاموا بها (نابلس)

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ٣ . (٢) المصدر السابق ورقة ٢٢
(٣) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ورقة ٩٥
(٤) مضمار الحقائق ص ١٠٠

* للمزيد من الامثلة أنظر : صبح الأعشى ٧ / ٤٤ ، ديوان ابن الساعاتي ١ / ١٧٨ ، ديوان ابن دنينير ١٧٤ ، عقد الجمان ١٢ / ٣ / ٣٢٨ ، ٤٥٧ ، السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ١ / ١٩٩ ، الاعتبار ١٢ ، ٣٤ ، تاريخ ابن الوردى ٢ / ٨٧ ،

ثلاثا لاكمال فتكهم وإظهار إنكهم ... " (١)، وقد أدرك الأدباء هذه الخطورة، وبينوا تضايق الاسلام وحرجه من اعلان شعائر الفرنج، يقول حيص بيص في مدح سيف الدين غازى أخي نور الدين :

أثابك ان سميت في المهد غازيا	فسابقةً ممدودة في الهشائر
وقيت بها والدين قد مال روقه	وصدتها والكفر بادى الشعائر (٢)

ويقول عمارة في مدح شاور :

أقسمت لولا حسن رأيك لاغتدى ال	ناقوس في بلبيس وهو أذانها (٣)

وكتب القاضي الفاضل الى العادل سنة ٥٩٣ يخبره بوصول نجدات الفرنج الى بيروت، وخطورة ذلك على البلاد والدين يقول " ...و للاسلام اليوم قدم ان زلت زل، وهمة إن ملت فان النصر منمل ... " (٤)، ويقول الصاحب شرف الدين الأنصاري :

فكاد يقضي على الاسلام جاهلهم	ما ليس يطمع في ابطاله قاض (٥)

وحين حاصر الفرنج دمياط كتب الأمير جمال الدين الكناني الى الملك الكامل :

ولئن قعدت عن القيام بنصره	جفت نضارته وبان ذبوله (٦)

ويقول ابن عنين في المعظم :

لولا دفاعك بالصوارم والقنا	عن حوزة الاسلام عاد كما بدا (٧)

ويقول في الأشرف موسى :

لولاك لانفصمت عرى الاسلام في	مصر وأخمل ذكره وتبدلا
وتحكمت منها الفرنج وغادرت	أعلاجها محراب عمرو هيكلا (٨)

وفي زمن تورانشاه نزل الفرنج على دمياط وحاولوا تغيير صبغة المدينة لولا صمود تورانشاه، يقول علي بن عرام :

وقد كاد دين الله يخفت نوره	ويرمى بتبديل وشيك وتقليب
فحصنتموه بالأسنة والظبا	وتصحيح آراء كنته وتصويب (٩)

ويلاحظ من الأدلة السابقة تركيز الادباء على أن الاسلام يواجه عدوا متسلحا بالقوة والعتاد،

---

(١) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ورقة ٩٣

(٢) عقد الجمان ١٢/١/١٩٢

(٣) النكت المصرية ٣٦٩

(٤) الروضتين ٢/٢٣٢

(٥) ديوان الصاحب شرف الدين الانصارى ٢٨٣

(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ١/١/١٩٩

(٧) ديوان ابن عنين ٦١ ومفرج الكروب ٤/٢٠٦

(٨) ديوان ابن عنين ١١، ومفرج الكروب ٤/١٠٦، وعقد الجمان ١٧/٢/٤٢٠

(٩) خريدة القصر وجريدة العصر / قسم شعراء مصر ٢/١٧١

يريد أن يقضي عليه ، ولم يقل أحد منهم إن الاسلام يواجه دينا أو تكرا يشكل خطرا عليه ، ولذلك أحس الادباء بعودة الحياة الى الاسلام ، بعد كسر الفرنج في حطين وغيرها ، لأن القوة التي تشكّل خطراً على الإسلام قد خضدت شوكتها ، يقول ابن سناء الملك في صلاح الدين :

أنت أحييته وقد كان ميتـــا ثم أعتقته وقد كان قنّـــا (١)

وهذا ما أدركه القادة المسلمون ، فهذا الكامل بن شاور يقول لأبيه الذي أراد الاستنجاد بالفرنج حين جاء شيركوه ... " ولئن نقتل ونحن مسلمون ، والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، فليس بينك وبين عود الفرنج الا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ... " (٢) ، وهذا صلاح الدين يصارح ابن شداد بأنه ان ترك الجهاد وبقيت مع الكفر حصون ... " اختل أمرنا الحصون لا سيما صفد وكوكب فانهما للداوية والاستبارية في وسط البلاد ، والثغور الاسلامية بهما واهية السداد ... " (٣) ، وقد كنّى الادباء عن خطورة الفرنج على الاسلام بخطورتهم على القرآن ، فهذا الأمير جمال الدين يصف حالة القرآن لصد نهوض المسلمين في الدفاع عن دمياط سنة ٦١٥ بينما يرتفع الصليب ويُتلى الإنجيل يقول :

ووهت قوى القرآن فيمو قّمت صلبانه وتلي به إنجليــــه
وعلا صدى الناقوس في أرجائه وخفي على سمع الورى تهليله (٤)

ويقول ابن النبيه في ذلك :

الله أكبر أن تمسي مزامرهم تتلى وتنسى من القرآن آيات (٥)

كما بينوا خطورة الفرنج على الاسلام باظهار خطرهم على الصلاة ، ولذا مدح الشعراء القائد الاسلامي الذى خلص المدن من الفرنج وأقام الصلاة فيها ، يقول ابن دنينير في مدح أسد الدين المهراني الذي فتح يافا سنة ٦٠٨ :

وأقمت الصلاة في ذلك الـدر ب وقد كانت الصلاة مكـــاء (٦)

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ٨١٤
(٢) الروضتين ١ / ١٥٦ ـ ١٥٧ مطبعة دار الجيل
(٣) الروضتين ٢ / ١٢٢
(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ١ / ١٩٩
(٥) ديوان ابن النبيه ٦٧
(٦) ديوان ابن دنينير ورقة ١٢٢

وقد تحدث الأدباء العرب بحرقة عن تحويل المساجد الى كنائس ، ومن ذلك ما ذكره الرحالة ابن جبير عن عكا بقوله : " فعادت مساجدها كنائس ، وصوامعها مضارب للنواقيس ... " (١) ويقول ابن عنين في جهاد الصليبيين الذين اتخذوا المساجد بيعا يعبدون فيها الصليب :

وبثغر دمياط فكم من بيعة — عُبِدَ الصليبُ بها وكانت مسجدا (٢)

ويقول في الاشرف موسى الذي أبعد خطر الفرنج عن دمياط :

وتحكمت فيها الفرنج وغادرت — أعلاجها محراب عمرو هيكلا (٣)

ويقول فيه :

لو لم يقم موسى بنصر محمد — لعلا على دين الخطيب الأسقف (٤)

وقد مدح الأدب القائد الاسلامي في مدافعته عن المساجد حتى لايدنسها الغزاة ، يقول ابن القيسراني في مدح تاج الملوك بوري :

وحاولوا المسجد الاقصى فما عبرت — عن مسجد القدم الاقصى لهم قدم (٥)

كما أعلنوا فرحتهم بفرحة الاسلام بتخلصه من الاعداء ، يقول ابن دنينير :

فثم ترى الاسلام يسفر وجهه — سرورا ونجم الحق في أفقه يبدو (٦)

ويقول :

تهلل الدين والدنيا به فرحا — واستبشرت مكة والحِجْر والحَجَر
لما غدا يثرب تثريبا لقادمة — من بعده اذ سرت في ذكرها السور (٧)

ويقول آخر :

بحيث غدا الثغر للاسلام مبتسما — بعد العبوس وفيه الله مذكور
بعد الاناجيل آيات القرآن به — تتلى وقد نسخ الناقوس تكبير
يقول محرابه لو كان مستمعا — محمد ناصر والشرع منصور (٨) *

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٦ (٢) ديوان ابن عنين ٦١
(٣) المصدر السابق ١١ (٤) المصدر السابق ١٥
* للمزيد أنظر : الروضتين ٢/ ٨٣ ، ٨٨ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١١٣ : الكامل ١١/ ٥٣٩ رسائل ابن الاثير ١٥٥ ، الاعتبار ١٥٥ ، مفرج الكروب ٤/ ١٨ ، القديس لويس حياته وحملاته على الشام ومصر (مذكرات جوانفيل ص ١٠٢)
(٥) عقد الجمان ١٢/ ١/ ١٨٦ (٦) ديوان ابن دنينير ورقة ٢
(٧) المصدر السابق ورقة ١٤ (٨) عقد الجمان ١٧/ ٢/ ٤٢٠
* للمزيد عن فرحة البلاد أنظر : ديوان البهاء زهير ١٢١ ، ديوان ابن دنينير ٥ ، ١٤ عقد الجمان ١٢/ ١/ ١٨٦ ، ديوان ابن النبيه ٧٦

وكما شكل الفرنج خطرا على الاسلام ، شكلوا خطرا على التراث الاسلامي والقيم الاسلامية ، مما جعل الشعراء يمتدحون القائد الذى يحافظ على هذه الفضائل ، يقول ابن دنينير في المعظم :

فَلْتَشْكُرَنْك بنو العباس بعدهم ... لابلْ قريشٌ تؤدي الشكر بل مضر
ألبستهمْ عزّهمْ ساءدهرَهُم ... من بعد ما قد طووا ما كان قد نشروا (١)

ومما امتُدح به القادة المجاهدون ، محافظتهم على الخلافة باعتبارها الوعاء السياسي الذى حوى الاسلام ، يقول عمارة اليمني في مدح صلاح الدين سنة ٥٦٤هـ :

حميتم من الافرنج سرب خلافة ... جريتم إليها مجرى الأمن من الذعر
حمى الله فيكم عزمة أسديـة ... [illegible] الاسلام [illegible] الأسر (٢)

ويقول ابن دنينير في مدح الأشرف :

حفظت ملك بني العباس وانحفظت ... بك الشريعة اذ غيرت بك الغير (٣)

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ١٥
(٢) الروضتين ١/ ٢/ ٤١٢
(٣) ديوان ابن دنينير ورقة ٢٣

الفصل الثاني

أضواء على حياة الصليبيين

أولا : الحياة الاجتماعية :

اطّلع المسلمون بسبب الاحتكاك على ألوان من حياة الصليبيين الاجتماعية ، ولمسوا بشكل عام تركيب المجتمع الصليبي ، فتحدثوا عن الملك بأعتباره الرئيس الأعلى ، ثم عن الامراء وكبار الفرسان وطبقة التجار الاغنياء (١) ، وأخيرا طبقة الفلاحين (٢) ، وبذلك ميزوا بين ثلاث طبقات في الكيان الصليبي ، هي : طبقة النبلاء ، وطبقة التجار ، وطبقة الفلاحين .

وبالرغم عن أن الادباء المسلمين لم يفهموا لغة الفرنج " لأنهم لا يتكلمون الا بالافرنجي " (٣) ، الا انهم سجلوا ما رأوه وما سمعوه عن طريق التراجمة ، أو عن طريق الاختلاط بالفرنج الذين تعلموا العربية ، يقول العماد : " وأحضرنا الترجمان وأدى عنا البيان " (٤) .

وقد جاءت ملاحظاتهم عن المجتمع الصليبي متفقة مع ملاحظات المؤرخين الصليبيين أو المؤرخين المحدثين من الاوروبيين ، ويمكننا معالجة الحياة الاجتماعية الصليبية في اطار مجالات ثلاثة : ما يتعلق بالمعتقدات ، وما يتعلق بالحياة وقت الحرب ، وما يتعلق بالحياة العامة .

ما يتعلق بالمعتقدات :

وأول ما يسترعي النظر في عاداتهم الدينية الحرص على بناء الكنائس والاهتمام بها ولو كان ذلك خارج المدن ، فحين خرج الفرنج لحصار بانياس نصبوا خيمة كبيرة ، وجعلوها كنيسة يصلّون فيها ، ثم فرشوا أرضها بالحلفاء والحشيش (٥) ، أما الكنائس التي في المدن فقد تأنقوا في بنائها ، وأقاموا فيها التماثيل ، وعلقوا على جدرانها الصور ، فكانت مثار

---

(١) أنظر أسامة بن منقذ ، الاعتبار ١١٤
(٢) انظر عبد الحفيظ محمد علي ، الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين ٩٥-١١٢ (ستانسل) القاهرة ١٩٧٥
(٣) الاعتبار ٦٦ وأنظر ١٤٠ وديوان فتيان الشاغوري ٣١٨
(٤) الفتح القسي ٢٣٩ ، وأنظر النوادر السلطانية ٣٢ ، ٣٣
(٥) الاعتبار ٨٦

اعجاب الادباء ،يقول العماد في وصف كنيسة بنوها على الصخرة : " وأما الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيسة ومذبحا ، ولم يتركوا فيها للأيدي المتبركة ولا للعيون المدركة ملمسا ولا مطمحا ، وقد زينوها بالصور والتماثيل ، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الانجيل وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل ، وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة ، بأعمدة الرخام منقبة ، وقالوا محل قدم المسيح ، وهو مقام التقديس والتسبيح ، وكانت فيها صور الأنعام مثبتة في الرخام ، ورأيت فيها التصاوير وأشباه الخنازير (١) " ، ويروي الجزري عن الشهاب أحمد الحقيلي أنه رأى بعد خراب عكا على بعض أبواب كنائسها مكتوبا :

أدسي الكنائس ان يكن عبثت بكم	أيدي الحوادث أو تغيّر حالُ
فلطال ما سجدت على أبوابكم	شم الانوف جحاجحٌ أبطال (٢)

ويصف النص عادة السجود بالانحناء حين دخول أبواب الكنائس ، وذلك تعظيما للصليب *. وللقيسراني في خمرياته تجربة فريدة من نوعها ، وصف خلالها الكنائس وما يجرى فيها من قداس ديني ، وهو بذلك يؤكد ما وصفه العماد وغيره ، ويضيف صورا جديدة عما يجري داخل الكنيسة ، أما حديثه عن الصور في الكنائس ، فيظهر في وصفه للراهبة الساجدة لصورة معلقة ، يقول :

كم بالكنائس من مبتّلة	مثل المهاة يزينها الخَفَر
من كل ساجدة لصورتها	لو أنصفت سجدت لها الصور (٣)

كما يظهر في مناجاته لاحدى الراهبات ، إذ يطلب منها أن تعامله كالصورة المعلقة في الكنيسة ، يقول :

هبيني صورة يحنى عليها	أجيبُ اذا دُعيتُ ولا تُجيب
فلم يسمح بأظرف من فتاة	من الرهبان قونتها أديب (٤)

ويقول :

فيا ليتني عندها دمية	تراني ولا ريبَ في ملمسي
فأقسم لو أنني استطيع	تحولت صورة مرجرجس (٥)

وأما الصورة الجديدة التي قدمها من خلال تجربته الشخصية ، فهي ما رآه في كنيسة بربارة وهي للفرنج خاصة دون غيرهم ، اذ رأى القس فيها يتلو قداسا في الليل ، وحوله الراهبات الجميلات يرتدين الملابس الثمينة يقول :

بدينك يا قس بربارة	وما بت تتلوه في الحندس

---

(١) الفتح القسي ١٤١ ، وأنظر ص ٩٥ و ٢٢٨

(٢) جواهر السلوك ورقة ٤٨ ، وأنظر ٤٩

* تبين فيما مضى أنهم يعظمون الصليب ويعتقدون به ، ومن الأمثلة الأخرى قول ابن القيسراني في راهبة :

أعظمت الصليب وددت أني ودين الله عندكم صليب (ديوانه ورقة ٦٤)

(٣) مخطوطة ديوان ابن القيسراني ورقة ٦٢ (٤) المصدر السابق ورقة ٦٤

(٥) المصدر السابق ورقة ٧١

أجرني من الصور الناطقـــــات متى قمن حولك في مــــــدرس
اذا هن أقبلن وقت الصــــلاة في كل لون من الاطلـــس
وجالت مناطق أوساطهــا وضاقت بها حلل السنــدس
وأجلسها ثقل أردافهــا فيالي من ذلك المجلـــس
فلولا التحرج في ملتـــي طلعت عليهن في برنـــس
وقمت ألحن قداسهـــن (م) غير بليد ولا أخـــرس (١)

فهو لولا تحرجه الديني لقام مقام الأسقف في تلاوة القداس ، وارتدى برنسا كبرنسه.
ومن المعلوم أن لباس الأسقف يختلف عن لباس الآخرين من الفرنج ، كما أن لباس الفرنج عامة يختلف عن لباس المسلمين * ، ويظهر ذلك من الخطة التي اتبعها المسلمون للدخول الى عكا وهي محاصرة ، اذ تزيوا بزي الفرنج ٠٠ (٢) " وتصوروا رهبانا ومسحوا لحاهم ومسحوا حلاهم ، وتملطوا وتكوفوا ، وتشبهوا بهم في كل بزة لئلا يتخوفوا ، وشدوا زنانيـــر ، واستصحبوا خنازير " (٣) .

وفي هذا النص بيان لعادة أخرى غير اللباس ، وهي حلق اللحى ، ففي قــول العماد السابق " ومسحوا لحاهم ، و ٠٠٠ وتملطوا " ما يؤكد اختلاف الفرنج عن المسلمين في هذا الجانب ، وثمة أدلة أخرى تثبت ذلك ، منها قول ابن شداد عن الهنفري : " إنه شاب حسن ، إلا انه محلوق اللحية ، على ما هو شعارهم " (٤) .

ولكن توجد أوصاف لبعض ملوكهم تشير الى أنهم أطلقوا لحاهم ، كما أن القساوســة كانوا يطلقون لحاهم كذلك ، وليس في هذا من تناقض مع قول ابن شداد ، اذ ان عامــة الفرنج يحلقون لحاهم ، وأما الملوك فقد أطلقها بعضهم ، كما جاء في وصف ملك الالمان بأنه صاحب اللحية الحمراء " (٥) ، وحلقها آخرون كما جاء في وصف ملك الانكتير أنــــه " قد أشفى من المرض ، وأشرف على الحفض ، حتى حلق رأسه ، حلق لحيته ، واستلقـــى لانتظار منيته ٠٠٠ " (٦) . وأما القساوسة فلم يرد نص يشير الى أنهم حلقوا لحاهم (٧)

---

(١) مخطوطة ديوان ابن القيسراني ورقة ٧١

* يقول ابن عنين في وصف لباس المقاتلين :
عليهم من الماذي كل مفاضة ۔ دلاص كقرن الشمس قد احكمت وضنا (ديوان ص ٣٠)

ويقول نجم الدين محمد بن الخضر بن اسرائيل يصف لباس الملك ترنسيس الذي ... ره تورنشاه وأهدى لباسه الى النائب بدمشق :

ان غارة الفرنس الذي جا ت حباء لسيد الامـــراء
كبياض القرطاس لونا ولكن صبغتها سيوفنا بالدماء

نهاية الارب ٢٧ / ١٩١ وانظر الذيل على الروضتين ١٨٤ والبيت الأول فيها مكسور

(٢) زبدة الحلب ٣ / ١١٨ ، مفرج الكروب ٢ / ٣٣١ (٣) الفتح القسي ٤١٧

(٤) النوادر السلطانية ١٨٢ (٥) الاعتبار ٢٣٠ وأنظار ١٣٦ (٦) الفتح القسي ٤٩٧

(٧) تاريخ ابن القلانسي ٣٠٠

ومن عاداتهم الدينية اعتقادهم في رجال الدين ، كما اعتقدوا بنصرة الصليب لهم، يقول ابن القلانسي في نزول الفرنج على دمشق سنة ٥٤٣ " وكان معهم قسيس كبير طويل اللحية يعتقدون به " (١) ويؤكد ذلك قول أسامة عن صاحب طبرية وجماعة : أنهم جاءوا بقسيس ليطبب فارسا كبير القدر مع أنه لا يفقه بالطب شيئا ، ولكنهم كانوا يؤمنون بأنه " اذا حط يده عليه عوفي " (٢) . وبعد هذا ليس من الغريب أن يذكر ابن الاثير أن قول البابا عندهم كقول النبيين (٣) .

التصليب على الوجه :

ويعني ذلك أن يرسم الفرنجي علامة الصليب على وجهه ، حين يسمع أو يرى شيئا مروعا ، وإنما يفعل ذلك التماسا لمساعدة روح القدس، يقول ابن القيسراني :

فيا حُسْنَ ذاك الوجه إذْ ريع روعةً فَعُوِّذَ فيها بتصليبة اليد (٤)

ومن المواقف التي صلّب فرنجي فيها على وجهه ، حين عقد شيركوه الصلح مع الفرنج والمصريين ، فجاء أحد الفرنجة الغرباء فقال له: " أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج قد أحاطوا بك وبأصحابك ، ولا يبقى لك بقية ، فقال شيركوه : يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله ، كنت والله أضع السيف فلا يُقتل منا رجل حتى يُقتلَ منهم رجال ... والله لو أطاعوني لخرجت اليكم من أول يوم ، ولكنهم امتنعوا "، فصلّب على وجهه وقال : "كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ، ومبالغتهم في صفتك ، وخوفهم منك ، والآن قد عذرناهم" (٥)

وحين أظهر صلاح الدين القوة والاستبسال بمقدم أسطول صقلية الذى هدده بمجيء قواته بأن قال له : " وإنهم إن خرجوا أذقناهم ما أذقنا أصحابهم من القتل والأسر " صلّب مقدم الاسطول على وجهه (٦) .

وفي زمن الملك المعظم عيسى ، استمال نساءً خيالة الفرنج بالهدايا ، وكان أن اكتشف أحدهم الأمر ، وسأل زوجته عمن أرسلها ، فقالت :(الكريدي)، فصلّب على وجهه (٧) .

---

(١) تاريخ ابن القلانسي ٣٠٠ (٢) الاعتبار ١٣٧
(٣) الكامل ٥٣/١١
(٤) ديوان ابن القيسراني ٧٥ ،وأنظر مذكرات جوانفيل ص ١٩٦ ، ٢٣٣
(٥) الكامل ٣٠٠/١١
(٦) الكامل ١٠/١٢ ، وأنظر الفتح القسي ص ٢٤٠ ، الروضتين ١٢٩/٢
(٧) نهاية الارب جـ٢٧ ورقة ٣٨

عدم الاختتـــــان :

ارتبط هذا الوصف بنوع من الشماتة والاستهزاء ، لأن الوصف جاء في جو حربي نيمد انتصار المسلمين على أعدائهم الفرنج ، أظهر الادباء شماتتهم ، وتقليل أهميتهم يقول ابن منير في فتح الرها :

يا لها هتّكت أضحكـــــتْ من بني القُلْفِ ثغورَ الشّامتـــين (١)

ويقدم ابن المجاور صورة طريفة ، إذ إن رؤوس الفرنج تختتن بالسيف في حين إن نفوسهم تزهق وهم قلف غير طاهرين ، يقول :

سَنّتْ سيوفُك في الرؤوس ختانةً ذهبتْ بمهجة كلّ علجٍ أقلـــف (٢)

الأعيـــــاد :

لم يتحدث الأدب عن أعيادهم ، أسمائها وأنواعها ، وإنما وصفوا أفراحهم في بعضها ، وقد اشتهر من الادباء في تسجيل ما شاهدوه من أعيادهم اثنان هما أسامة بن منقذ وابن جبير ، وأما الاول فيصف عيدا في طبرية ، حيث أجريت مسابقة بين عجوزين في ميدان كبير ، وفي نهاية الميدان خنزير جعلوه جائزة لمن تسبق أولا (٣) بينما يصف ابن جبير عيدا حل على الفرنج وهم مسافرون ، فاجتمعوا في المركب صغيرا وكبيرا وحملوا الشمع المضيء (٤) .

الـــــزواج :

ظهرت المرأة الفرنجية في الأدب العربي سافرة منطلقة غير منضبطة ، تخرج دون إذن زوجها ، وتتزوج دون إذن وليها ، ومن ذلك أن زوجة ملك الفرنج بالشام أحبت رجلا من الفرنج الذين قدموا من اوربا فتزوجته ونقلت الملك اليه (٥) .

وقد كانت تجرى مراسيم الزواج بحضور البطارك والقسوس ، وقد يحضرها جمع غفير من الفرسان ، إذ كان للزوجة مكانة خاصة ، كما يحضرها النساء ، وقد نقل ابن جبير صورة حية لعرس افرنجي في صور ، يقول : " ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها ، وقد احتفل لذلك جميع النصارى (يقصد الفرنج) رجالا ونساء ، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير ، وجميع الالات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ، كأنهما من ذوي أرحامها ، وهي في أبهى زي ، وأفخر لبــــاس ،

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٠١

(٢) الروضتين ٢/ ١٠٤ وانظر الروضتين ١/ ١/ ١٩٦ ، ومذكرات جوانفيل ١٤٥

(٣) الاعتبار ١٣٨ (٤) رحلة ابن جبير ٢٨٦

(٥) الكامل ١١/ ٤٩٠

تسحب أذيال الحرير الذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم ، وهي رافلة في حليها وحللها ، تمشي فترا في فتر مشي الحمامة أو سير الغمامة ، وأمامها جلة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهية ، تسحب أذيالها خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات ، يتهادين في أنفس الملابس ، ويرفلن في أرفل الحلى ، والالات اللهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ، ولا ينكرون عليهم ذلك ، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها ... " (١) .

ولا يملك ابن جبير الا أن يستعيذ بالله من فتنة المناظر ، ومن تلك الزخارف .

ومما أنكره الأدباء العرب على المرأة الفرنجية استهانتها بالعشرة الزوجية ، فهي لم تكن تعتد بعد وفاة زوجها ، وإنما تتزوج بعد وفاته بأيام قليلة حتى لو كانت حاملا يقول العماد عن الكندهرى بأنه " دخل بالملكة زوجة المركيس في ليلته ، وادعى انه أحق بزوجته ، وكانت حاملا ، فما منع الحمل من نكاحها ، وذلك أفظع من سفاحها " (٢) ويقول في أخرى : " وقيل إنها كانت حبلى ولم تخل من حبالة الحبل ، فما شغلهم حرمة الرحم المشتغل " (٣) ثم يعقب على ذلك بقوله : "فأنظر الى استباحة هذه الطائفة المشركة "(٢).

ولم يكن هذا الأمر افتراء عليهم ، فهذا المؤرخ الصليبي جوانفيل يروى في مذكراته ما يؤكد وجود هذه الظاهرة ، اذ يقول إن امرأة منهم قد تزوجت ولما يمض على موت زوجها وقت طويل (٤) .

هذا فيما يتعلق بالزواج فيما بينهم ، وأما التزاوج مع المسلمين ، فقد كان ممنوعا ومستهجنا الا اذا تنصر المسلم أو هربت هي من عندهم ، ويظهر ذلك مما جرى من مفاوضات بين ملك الانكليز والعادل ، حين عرض الاول أخته على الثاني ، شريطة أن يتنازل صلاح الدين لاخيه العادل عن القدس وغيرها ، وهو يتنازل لاخته عن مناطق الساحل ، وحين علمت بالخبر " تسخطت من ذلك وأنكرته انكارا عظيما وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أنها لا تفعل ذلك " (٥) ، ويصف العماد الرأي العام الفرنجي في ذلك فيقول : فجبهوها بالعذل واللذع ، وأتجهوها بالقدح والقذع ، وقالوا لها كيف تفجئينا بأفجع ملم مؤلم ، وتسلمين بضعك لمباضعة مسلم ، فان تنصر تمصر ، وان تسرع فما تعسر ، وان أبى أبيناه وان أتى أتيناه ، فرهبت من بعد ما رغبت ، وطلت من بعد ما طلبت " (٦)

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٨ ـ ٢٧٩ (٢) الفتح القسي ٥٩٠

(٣) المصدر السابق ٤٩٤ ، وأنظر الكامل ١٢٨/١٢

(٤) القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام ١٤٣

(٥) النوادر السلطانية ١٩٦

(٦) الفتح القسي ٥٥٦ ، وأنظر الاعتبار ٩٦ ، والروضتين ١٩٣/٢ ، ١٩٦

ويؤكد هذا ما جاء في قصة مريم الزنارية التي تزوجت من مسلم في مصر ، فلما اختطفها الفرنج وعادوا بها الى أوروبا سألتها أمها عن زواجها ، فبينت لها أنها أجبرت على الزواج من المسلم (١) • وأما اذا رغبت الفرنجية في الزواج من مسلم فإنها تهجر أهلها كما دلت على ذلك قصة الصعيدي وزوجته الافرنجية (٢)

دفن القتلى :

ليس المقصود بدفن الموتى المراسيم التي كانت تتبع عند دفنهم ، وانما المقصود اهتمام الفرنج بدفن موتاهم حتى في أحرج الاوقات ، يقول ابن شداد : "وكلما قتل منهم شخص دفنوه وكلما جرح رجل حملوه" (٣) ، ويظهر أن هذا العمل كان يتم في المعركة أما إن كانوا في حالة هجوم وابتعدوا عن مواقعهم فانهم يحملون قتلاهم ، أو يدفنونهم قبل أن يغادروا أماكنهم ومن ذلك ما رواه أسامة بن منقذ أن الفرنج كسروا على أبواب دمشق وقتل منهم خلق كثير ، فقطعوا رؤوسهم وحملوها في سموط الخيل (٤) ، وقد تم دفن القادة الاموات في القدس تكريما لهم ، ولو كان مكان موتهم بعيدا جدا عنها ، ولذلك عمدوا الى خطة يتم بها نقل الجثة أو العظام الى القدس ، وتدل هذه الخطة على ما عهدناه عندهم من وحشية وغلظة • فحين مات الملك بلدوين ملك القدس في طريق غزوه الى مصر شق أصحابه بطنه ، ورموا حشوته في منطقة ما تزال تحمل أسمه حتى اليوم ، وحملوا جثته ودفنوها في قمامة (٥) ، وحين مات ملك الالمان في شمال الشام وهو في طريقه الى القدس سلقوه في خل وجمعت عظامه لتدفن في كنيسة القيامة ، يقول العماد : "وقيل إنهم سلقوا ذلك الهالك في قدر حتى تخلص عظامه ، وتهرى لحمه ، ثم جمعوا في كيس عظامه ، وراموا بذلك اكرامه واعظامه ، ليحملوه الى كنيستهم بالقدس قمامة ، ويدفنوه على ما كان أوصى به أو رامه ..." (٦) •

---

(١) ألف ليلة وليلة ٦/ ٢٢٣
(٢) المصدر السابق ٧/ ٤
(٣) النوادر السلطانية ٢٥ وأنذار ١٤٨ ، والروضتين ٢/ ١٧٩
(٤) الاعتبار ١١٦
(٥) تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠ والأنس الجليل ١/ ٣٠٩
(٦) الفتح القسي ٣٩٣ ، وأنذار الحادثة في النوادر ١٢٤ ، وزبدة الحلب ٣/ ١١٤ ، ويؤكد جوانفيل ما ذكره الادباء العرب عن دفن موتاهم في مذكراته ص ١٤٥ .

زيارة الاماكن المقدسة :

رأينا حرص الفرنج على دفن قادتهم في بيت المقدس ، كما رأينا حرص القادة على زيارة القدس وان لم يُنسأ في أجلهم فأنهم يوصون بدفنهم فيها ، كما قال العماد "..ويدفنوه على ما كان أوصى به أو رامه " . ولم يكن قادتهم بأكثر تحمسا من عامتهم للزيارة ، فقد أرسل صاحب انطاكية الى أسامة كتابا يقول فيه : " هذا فارس محتشم من الافرنج وصل وحج ويريد الرجوع الى بلاده ، وسألني أن أسيّره اليكم يبصر فرسانكم وقد نفذته فاستوصوا به . " (١) وذكر العماد أن صلاح الدين أسر شيخا طاعنا في السن فسأله عن سبب مجيئه وهو في هذا السن فقال : انما كان مجيئي للحج الى القيامة (٢) .

وقد كان لهم مواسم معينة يزورون خلالها الاماكن المقدسة في القدس وغيرها ، وقد استلزم ذلك تعيين فرقة للاشراف على هذه المواسم ، يقول العماد في معرض حديثه عن زيارة الفرنج لمشهد زكريا عليه السلام في سبسطاية : " وهو متعبدهم المعظم ، والمشهد المكرم ، وقد حجبوه بالاستار ، وحلوه بالفضة والنضار ، وعينوا له مواسم الزوار ، وقومه من الرهابين فيمقيمة ، ولا يؤذن في الزيارة الا لمن معه هدية لها قيمة ... " (٣) .

الحياة الإجتماعية خلال الحروب :

تقدير الفارس :

لقد كان لتركيب المجتمع الصليبي أثر في ايثار الفارس والاهتمام به ، وقد لاحظ ذلك أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار ، فأفرد فصلا خاصا سمّاه " منزلة الفارس عندهم " وذكر أن الفرسان تميزوا بمنزلة عالية ويصفهم بأنهم " أصحاب الرأى وأصحاب القضاء والحكم " (٤) ويثبت ذلك بأدلة يوردها ، منها أن جماعة الفرسان حكموا في قضية جنائية فقضي بقضائهم ، ثم يعقب على ذلك بقوله : وهذا الحكم ... ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الافرنج يغيره ولا ينقضه ... (٤) .

كما أن الاحداث التاريخية نفسها تثبت ما ذهب اليه أسامة ، فما من فارس له قيمة أسر أو قتل في أرض المعركة الا تجد التعقيب على مقتله أو أسره يوحي بأهميته ، ومن ذلك التعقيب على أسر جوسلين بأنه " كان من أعظم الفتوح على المسلمين ... وأصيبت النصرانية كافة بأسره ، وعظمت المصيبة عليهم بفقده ، وخلت بلادهم من حاميها ، وثغورهم من حافظها وسهل أمرهم على المسلمين بعده ... " (٥) .

---

(١) الاعتبار ٦٩
(٢) الفتح القسي ١٥٦
(٣) الروضتين ٢/٨٨
(٤) الاعتبار ٦٤
(٥) الروضتين ١/١/١٨٣

الحزن والحـــداد :

وهما من المظاهر الاجتماعية المرتبطة بالحروب ، ويمكن أجمال أسبابهما بموت كبير أو فقد عزيز أو سقوط بلد أو تحطيم شعار ديني أو التعرض لهزيمة ... وقد أضفى الأدباء صوراً عديدة على مظاهر حزنهم ، ومنها النوح والندب ولبس الحداد ، وحث التراب علـى وجوههم ، فهذا ابن الدهان يمدح طلائع بن رزيك ويبين ما أنزله بالفرنج من هزائم حتى خيم الحزن والنواح على كل صقع من ديارهم ، يقول :

وبات في كل صقع من ديارهـــم   نوح على بطل لولاك ما شيكـــا (١)*

بل ادعى الادباء أن الحزن خيم على كل بيت فرنجي حين أفشل أسد الدين شيركـــوه مخططات الفرنج في التعاون مع وزير مصر شاور ، يقول العماد :

في كل دار من الافرنج نادبـة   بما دهاهم فقد باتوا على نـــدب (٢)

وقد برح الحزن بهم ، حين عادوا الى بيوتهم فوجدوها خاوية من أهلها بسبب ما أحدثه صلاح الدين بهم من هزيمة وقتل في حصن الاحزان ، يقول العماد :

عادوا ، وحين رأوا خراب بيوتهم   يئسوا من الأوطار والأوطـــــان
باءوا بأحزان وخافوا هولهـــا   مما لقوا بمخافة الاحـــــزان (٣)

أما طرق تعبيرهم عن الحزن فهي البكاء ، وحث التراب ، ولبس السواد ، وتحريم الصلاة، ومن ذلك وصف العماد لصاحبة الكرك التي أسر ابنها فخرجت الى السلطان " متعرضـــة للخضوع ، متضرعة بالخشوع ، وبرزت مسكينة مستكينة ، مستعطفة مراحم السلطان مستلينة ، رافعة عقيرتها بالابتهال ، شاقة في فك ولدها من الاعتقال ، معفرة خداً شأنـــه التصعر ، سافرة عن وجه من عادته التخدر ، حاسرة حسرى ، باسرة لحزنها بأسرى ." (٤)
ومن وصف ابن شداد لحزنهم حين علموا بمقتل رجل كبير منهم ، يقول : " فضربوا بنفوسهم الارض ، وحثوا على وجوههم التراب ، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة ... " (٥)

---

(١) ديوان ابن الدهان ٢٢٢
* شيكا : الشوكة : حمرة ترقى الجسد ، وقد شيك الرجل : أصابته هذه العلـــة (اللسان : شوك)
(٢) تاريخ ابن الفرات مج ٤/ ١/ ٤٦
(٣) خريدة القصر وجريدة العصر / بداية قسم شعراء الشام ص ٥٩ ، وانظر الروضتين ١/ ١/ ١٨٠
(٤) الفتح القسي ٢٠٥ ، وانظر ٢٠٦ ، والذيل على الروضتين ١٠٢
(٥) النوادر السلطانية ١٣٤ ، وأنظر ١٤٣ والروضتين ٢/ ١٥٩

والطريقة الثانية للتعبير عن حزنهم هي لبس السواد ، ففي زمن نور الدين سنة ٥٦٥ ضرب زلزال مناطق كثيرة في الشام ، فأنزلت خسائر فادحة ، فقال العماد في ذلك :

جل رزء الفرنج فاستبدلوا منه بلبس الحديد لبس الحداد (١)

وفي سقوط القدس لبس الرهبان والقسوس وخلق كثير من الفرسان المشهورين السواد وحرموا الملاذ ، وقاطعوا كل من خرج عن هذا المرسم ، يقول ابن شداد : " قد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى إن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه ، كل ذلك حزنا على بيت المقدس " (٢) وقد نهج جماعة منهم طريقة ثالثة وهي خلع الثياب ولبس الحديد ، كناية عن الحزن ، وتلهفا للقتال لاسترجاع القدس ، يقول العماد : وقد لبسوا الحديد للحداد على البيت المقدس وهجروا الثياب ولزموا المصاب وداوموا الاكتئاب ... " (٣)

ومن طرقهم في التعبير عن حزنهم اشعال النار العظيمة ، فحين مرض ابن ملك الالمان حزنوا عليه حزنا شديدا " فأشعلوا نيرانا هائلة ، بحيث لم تبق خيمة الا اشتعل فيها النار ان والثلاثة ، بحيث بقي عسكرهم كله نارا تتقد " (٤) *

المهادنات :

وتكون بعد اتفاق الطرفين على وقف القتال ، لمدة تختلف حسب الواقع ، ولها مراسيم خاصة يحضرها ممثلون عن الطرفين والأسقف ، وتؤدى فيها الايمان والمواثيق أما المسلمون فكانوا يقسمون بالله ثلاث مرات ، وأما الفرنج فيقسمون بالله ثلاث مرات وبالصليب كذلك ، وبالمسيح ... وبالاقانيم الثلاثة ... ثم تؤخذ خطوطهم عليهما بالفرنجي (٥) .

ويلاحظ أن المهادنات كانت في صالح المسلمين ، وقد اعتبر القلقشندي مصلحة المسلمين من شروط شرعيتها (٦) .

---

(١) الروضتين ١/٢/٤٦٩
(٢) النوادر السلطانية ١٢٦
(٣) الفتح القسي ٣٩٣
(٤) الروضتين ٢/١٨١
* لمزيد من الأمثلة على حزنهم أنظر : الفتح ٢٠٥ ، ٤١٥ ، ٤٧٤ ، ٤٨٠ الروضتين ١/١/١٨٠ ، ٢/١٨٦ ، ديوان ابن عنين ٢١ ، ديوان ابن سناء الملك ٥٦٦
(٥) تشريف الايام والعصور ٩٢ ، صبح الاعشى ١٣/٣١٢ ـ ٣١٤ ، الفتح ٥٥٦
(٦) صبح الاعشى ١٤/٧

الرياضة والفرنـــج :

ان وجود الصليبيين في أرض بعيدة عن بلادهم ، وما تبع ذلك من صراع عنيف ، لم يجعلهم يقلعون عن عاداتهم في المرح واللهو ، بل لقد اتخذوا من بعض ألوان لهوهـــم تدريبا على قتال خصومهم من المسلمين ، فلا عجب أن يتخذ هذا اللهو أحيانا طابعـــا حماسيا عنيفا ، فهذا ابن جبير يصف ميدان عكا بأنه لا يوجد شبهه في المنطقة ، وقـــد اتخذه الفرنج ملعبا يتدربون فيه على ركوب الخيل ، بما فيهم صاحب البلد الذي يركب كـــل بكرة وعشية (١) .

ويصف أسامة بن منقذ عيدا للفرنج حضره في طبرية ، وكانت وسائل الترفيه فيه لعبة قام بها الفرسان بالرماح وخرج معهم عجوزان فانيتان ، ومع كل واحدة منهما سرية من الخيالة يحثونهما ، ثم وضعوا في نهاية الميدان خنزيرا لمن وصله أولا أخذه ، فجرت المسابقـــة بينهما وهم يضحكون لانهمـــا كانتا تقومان وتقعان كل خطوة (٢) .

وقد يدخل في لهوهم تلك المبارزة التي جرت بين صبيين مسلمين وآخرين مـــن فرنجيين ، وكان ذلك في وقت السلم ، فتغلب الصبيان المسلمان على الافرنجيين ، فأخذ اجائزه (٣)

ومن أنـــواع الرياضة التي اتبعوها للترفيه عن أنفسهم الصيد ، وقد مارســـــوا هذه الهواية في أوقات السلم ، فكانوا يتبادلون الرخص للصيد في الاراضي المجاورة لكـــل منهم (٤) ، هذا وقد اتخذوا البزة والصقور والشواهين والكلاب لتساعدهم في القبض علـــى الصيد (٥) ، ومن الادلة الشعرية التي تشير الى ممارستهم الصيد ، قول ابن منير متشفيـــا بمقتل صاحب انطاكية :

والآن ملقىً بالعرا يقتاتـــــه   ما كان قبلُ بصيدِه يقتاتـــــــه (٦)

المرأة الصليبية :

سبق الحديث عن مشاركة المرأة الفرنجية في الحرب ، ولم يكن هذا هو الشـــيء الوحيد الذي استرعى انظار الادباء بالنسبة اليها ، فقد لفتهمْ جمالها وبعض عاداتهـــا .

(١) رحلة ابن جبير ٢٨٣   (٢) الاعتبار ١٣٨
(٣) الروضتين ٢/١٤٣
(٤) زكي النقاش ، العلاقات الاجتماعية ١٤٨ ــ ١٤٩
(٥) انظر النوادر السلطانية ١٥٧ ، الفتح ٤٧٤ ، الروضتين ٢/١٨٣ ، الاعتبار ٢١٠ ، ٢٢٣
(٦) اعلام النبلاء ٢/١٩ ، الروضتين جـ١ ق ١ ص ١٥٩

وقد تميز ابن القيسراني عن غيره في تجسيد محاسن المرأة الفرنجية ، وكان في تجسيده ينحو منحى الشاعر أبي نواس ، ولذلك سنترك الكثير من الامثلة التي تجرح الحياء ، ونذكر مثلا دالا على جمالها ، يقول :

وفي ذلك الزنار تمثال فضة ... تنقل خديه العيون بمسجد
وقد غلب المصباح فيه على الدجى ... سنا قمر في جنح ليل مجمد
فيا لي من وجه كقنديل هيكل ... عليه من الصدغين محراب مسجد
لقد أسرتني حيث لا ابتغي الفدا ... نقل في أسير لا يمن بمفتد (١)

ويصف العماد المرأة الفرنجية بأنها : ... حمراء مرحاء ، نجلاء كحلاء ، عجزاء هيفاء غناء لفاء ، زرقاء ورقاء .. (٢) .

وقد تحدث الادب عن انصراف بعضهن عن مناهج الحياة الى اقامة الصلوات ، يقول ابن القيسراني :

كم بالكنائس من مبتلة ... مثل المهاة يزينها الخفر (٣)

ويقول :

يا هل سمعت بديرسمعان ... وما به للعيون من عان
أموقف للصلاة هيكله ... أم نبت من منابت البان ؟ (٤)

ويقول :

إذا هن أقبلن وقت الصلاة ... في كل لون من الاطلس
وجالت مناطق أوساطهن ... وناقت بها حلل السندس
وأجلسها ثقل أردافهن ... فيا لي من ذلك المجلس (٥)

عادات مستنكرة :

تحدث الادب عن كثير من صفاتهم وعاداتهم السيئة ، وقد ورد بعضها في مجال الحديث عن الصراع الحضاري ، ويضاف اليها هاهنا ما يلي :

الدعارة والفجور :

كان لتكوين المجتمع الصليبي العربي أثر في اشاعة الفاحشة بينهم ، فكثيرون منهم تركوا أوطانهم وأولادهم وجاءوا تلبية لنداء الكنيسة ، مما جعلهم يعانون مرارة العزوبة فندبت أوروبا مجموعات من النساء لاشباع حاجات الفرسان ، ثم تطور الأمر الى أن أنشئت أسواق للنسوة الساقطات في بعض المدن (٦) .

---

(١) ديوان ابن القيسراني ورقة ٧٥ وانظر ورقة : ٦١ ، ٦٦ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩
(٢) الفتح القسي ٣٤٧ (٣) ديوان ابن القيسراني ورقة ٦٢ (٤) المصدر السابق ٧٣
(٥) المصدر السابق ورقة ٧٠ (٦) الفتح القسي ص ٣٤٥

وقد عقد العماد فصلا خاصا ذكر فيه حال نساء الفرنج ، وتحدث عن هذا الجانب حديثا مفصلا ، وفيما يلي مقتطفات منه ، يقول " ... قد اجتمعن من الجزائر ، وانتدبن للجرائر ، واغترين لاسعاف الغرباء ، وتأهبن لإسعاد الاشقياء ، ترافدن على الارفاق والارفاد وتلهبن على السفاح والسفاد ، من كل زانية نازية ، زاهية سازية ، عاطية متعاطية ، حاذية خاطية ، متغنية متغنجة ، متبرجة ... فوصلن وقد سلهن أنفسهن ، وقدمن للتبذل أعوضهن وأنفسهن ... وتفردن بما ضربنه من الخيم والقباب ، وانضمت اليهن أترابهن من الحسان الشواب ، وفتحن أبواب الملاذ ، وسهلن ما بين ... ونفقن سوق الفسوق ، ولفقن رتوق الفتوق ... وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة ، لاسيما فيمن اجتمعت عند مغربة وعزبة ... (١) .

وقد كان لانتشار هذه الفاحشة أن انغمس فيها القسوس ، يقول العماد : وما عند الفرنج على الزناء اذا أمكنت من الاعزب حرج ، وما أزكاها عند القسوس اذا كان للمزمان المضيقين من ... فرج " (٢) .

ولم يتوقف هذا الداء عند الزناء ، بل ان المتزوجات كن يخُنَّ أزواجهن ، (٣) ولو جاز لنا أن نتخذ حكايات ألف ليلة وليلة دليلا يعتمد عليه لوجدنا في حكاية الصعيدي وزوجته الفرنجية ما يؤكد ذلك (٤) .

وقد استرعى انظار الادباء العرب عدم غيرة الفرنج على نسائهم ، ومن ذلك ما رواه أسامة بن منقذ في الاعتبار عن فرنجي في نابلس كان يبيع الخمر ، وجد رجلا غريبا في حجرة نوم زوجته ، فما زاد بعد حوار عجيب له مع ذلك الرجل على أن قال له : وحق ديني ان عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت ، فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته (٥) وفي المعرة دخل فرنجي عند حمامي من أهل المعرة ، ولم يخجل من أن يعرض زوجته لتجربة غريبة ، تنبئ عن انعدام الغيرة والحياء معا ، (٦) .

ويروي أسامة كذلك قصة وقعت في صور ، يبين عدم غيرة الاباء على بناتهم (٧) ، لا عجب اذن أن يقول أسامة عن الفرنج انه " ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى"(٨)

---

(١) الفتح القسي ٣٤٧ ــ ٣٤٨ (٢) المصدر السابق ٣٤٩

(٣) انظر نهاية الارب ٢٧ ورقه ٣٨ ، وانظر المقري : نفح الطيب ٢/ ٢٩٧ والروضتين ٢/ ١١

(٤) ألف ليلة وليلة ٤/٧ وانظر الفتح القسي ٥٩٠

(٥) الاعتبار ١٣٦ (٦) المصدر السابق ١٣٦

(٧) المصدر السابق ١٣٧ (٨) المصدر السابق ١٣٥

ولا غرابة والحالة هذه أن يتخذ القوم من الاماكن المقدسة مكانا لممارسة فجورهم وفحشائهم ، فجعلوا من المسجد الاقصى المبارك موضعا يقضون فيه أوطارهم ٠٠ (١) *

الخمـــر :

اتخذ الفرنج للخمر أسواقا ، وباعوها بأثمان باهظة لأنها أصبحت سلعة تجارية تستورد من وراء البحر ، وقد وصف أسامة عملية بيعها بالجملة في نابلس إذ يقـــول : " يأخذ (السمسار) الخمر في قنينة من النبيذ وينادى عليه ، ويقول : فلان التاجر فتح بتية من هذا الخمر ، من أراد منها شيئا فهو في موضع كذا وكذا "، وأجرته على ندائه ، النبيذ الذى في تلك القنينة (٢) ٠

وقد انتشرت الخمارات في أماكن كثيرة ٠ ويصف ابن القيسراني إحداها وهي خمارة جسر الحديد في منطقة انطاكية فيقول :

ان كان لا بد من السكـــــر ... فمن يدي خمارة الجســـــر
خمارة تطلع من نحرهـــــا ... جمارة بيضاء من نحـــــر (٣)

وقد أشتركت المرأة الفرنجية في تقديم الخمر ، ولذلك ربط العماد بين الخمر والنساء الفرنجيات في حديثه السابق ، يقول : " وسقين الخمر ، وطلبن بعين الوزر الأجر " (٤) هذا ، وقد سجل الشعر هذه الصور ، وسخر من خلالها من الفرنج ومن ذلك قول الرشيد بن النابلسي يمدح صلاح الدين بعد الفتوحات :

كم قد سقيتهم لا فلا عجــب ... إن عربدوا سفها ، فالقوم قد سكروا (٥)

جفاء أخلاقهم وقسوتهم:

سبق الحديث عن وحشيتهم وقتلهم للمسلمين العزل ، مما يدل على اعتيادهم المناظر الدموية ، حتى ولو كانت مخالفة للطبائع الانسانية ، فحين حاصر المسلمون كفر طاب رفضوا التسليم ، وقتلوا أولادهم ونساءهم وأحرقوا أموالهم (٦) ٠

---

(١) الفتح القسي ١٣٧
* للتأكد من صدق المصادر العربية أنظر مذكرات جوانفيل ٩٩ ، ٢٤٤ وغوستاف لوبون / حضارة العرب ٣٢٨ ، وزكي النقاش / العلاقات الاجتماعية ١٥٢
(٢) الاعتبار ١٣٦ ، وانظر جوانفيل في مذكراته ص ٨٣ ، ١٤٢
(٣) ديوان ابن القيسراني ورقة ٧٧
(٤) الفتح القسي ٣٤٨
(٥) الروضتين ٢/١٩٤
(٦) الكامل ١٠ / ٥١٠

وقد لاحظ أسامة ذلك حين اعتبر قريبي العهد بالبلاد الفرنجية أجفى أخلاقـــا من الذين تبلدوا وعاشروا المسلمين (١) ، ثم يذكر دليلا على ذلك ، ملخصه أن أسامة كان يصلي في الأقصى فهجم عليه فرنجي ورد وجهه نحو الشرق ، وقال : كذا صلِّ ، فانتهره قومه وأخرجوه ، لكنه غافلهم ثانية ورد وجه أسامة ثانية ، فعاد الداوية وأخرجوه واعتذروا الـــى أسامة بأنه " غريب وَصَلَ من بلاد الفرنج في هذه الايام ... " (٢) .

ويمدح عمارة اليمني الوزير المصري شاور بأنه هذب أخلاق الفرنج الجفاة فيقول :

وعصابة روميّة عاشرتهـــــــــا فتأنّستْ وتهذّبتْ أذهانهـــــا (٣)

وقد ظهر هذا الجفاء وهذه القسوة في محاكماتهم ، فكانوا يُنزِلون العقاب الاليم الذي يصل الى درجة الموت دون التأكد من صحة التهمة ، كما يتضح من رواية أسامة عن محاكمتهـــم شيخا كبيراً بتهمة التعاون مع المسلمين ، وذلك باجباره على مبارزة حداد شاب ، انتهت بموت الشيخ المتهم بصورة بشعة قاسية ، وسط هتاف القوم واستحسانهم (٤) .. ومتهـــم آخر اتهموه وأمه بقتل الحجاج الفرنج ، ففقأوا عينيه دون أن تجرى له محاكمة تقدّم فيهــا الأدلة والشهود .. (٥) .

ويروى ابن شداد محاكمة أخرى لمتهم فرنجـي ، والتهمة هي أنه ضرب غلامه ضربــا جاوز فيه الحد ، فاجتمعت القسوس للحكم ، فقضوا بذبحه وتشفع بعضهم فيه لدى الملـــك ، فلم يلتفت الى ذلك وذبحه (٦) .

النهب والسرقة :

تميزت عمليات الصليبيين في بداية الحروب الصليبية بالنهب والسرقة ، فقد نهبوا ما في طرابلس من أموال (٧) وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضـــة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنورا من فضة ، ومن الذهب نيفـــا وعشرين قنديلا (٨) وفي اللاذقية هجموا على مينائها ، ونهبوا اثنتين وعشرين قطعة فـي البحر (٩) وفي جبيل أعطى الفرنج الامان للمسلمين ، ولكنهم لم يفوا لهم بعهدهـــم .

---

(١) الاعتبار ١٣٤ (٢) المصدر السابق ١٣٤
(٣) شرح الكروب ١/ ١٤٢ (٤) الاعتبار ١٣٨
(٥) المصدر السابق ١٣٩
(٦) النوادر السلطانية ١٢٦ ، وانظر تشريف الايام والعصور ١٧٧
(٧) الكامل ١٠/ ٤٧٦
(٨) المصدر السابق ١٠/ ٢٨٤
(٩) زبدة الحلب ٢/ ١٣٠

وأخذوا أموالهم ، واستنفذوها بالعقوبات وأنواع العذاب (١) ، وبعد أن استقروا في بلاد الشام عملت نجداتهم لصوصا احترفوا مهنة السلب ، ومن ذلك أن جماعة من "الحرامية أخذوا قافلة للمسلمين وهم عند بحلباك ٠٠٠" (٢) وحين غادر أسامة مصر عائدا الى الشام عن طريق البحر ، نهب الفرنج مركبه والمراكب الاخرى بحجة أنها كسرت ، فكتب الى طلائع ابن رزيك يشكو أمره :

أذهبت تالدى وطار مسنى	الطاري فضاع الموروث والمكسوب
فهو شطران بين مصر وعصر	ذا غريق ، فيء وذا منهوب (٣)

ويصف ابن جبير شجرة عظيمة هي حد بين الامن والخوف لوجود حرامية للفرنج (٤)
وكان من شروط الناصر قلاوون على الفرنج ، وقد رجحت كفة المسلمين ، أن لا يمكنوا
" حرامية البحر من الزوادة من عندهم ولا من حمل الماء ٠٠٠ " (٥) *

صفات خلقية :

نظر المسلمون الى صفات الفرنج الخلقية فلاحظوا أنهم شقر غريبون عن البلاد التي احتلوها ، تمش كالافاعي الخبيثة ، زرق أشداء ، ومن ذلك فهم مثار استهزاء ، يقول العماد : " خرجوا الى عكا من كل ٠٠٠ أزرق ، زرقة الموت الاحمر ، وأنمشي يمشي واليوم أغبر ، وأشقر وهو أشقى ، وأبقع اذا غوى في الوغى ما ترك ولا أبقى " (٦) ويقول أيضا " شقرا كأنما لفحت النار وجوههم " وهم فيها كالحون " زرقا كأنما عيونهم من حديد فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون" (٧) ٠ ويقول في ملك الالمان : وأنه خرج في ثلاثمائة ألف مقاتل ، فمن كل سالب باسل ، وطالب للباطل ، وجهم جهنمي ، وأشقر سقري ، وأنمش أفعواني " (٨) ، ومن مواطن استهزاء الادباء العرب بالفرنج وصفهم لملك الانجليز بأنه "أشقر أمعط ، في عينية ضعف ، لو كان عبدا ما يساوى مائتي درهم " (٩) ٠

---

(١) الكامل ١٠/٢٧٢ ، وانظر : الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ٦٢

(٢) الاعتبار ١٤٠

(٣) ديوان أسامة ٢٦٦ ، وأنظر ٢٦٤ والروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٤٨

(٤) رحلة ابن جبير ٢٧٣

(٥) صبح الاعشى ٤/٦٠/٦٢

* للمزيد أنظر الخريدة/ الشام ١/٦٩ ، ٢٠٢ ، ٢٢٦ ، والاعتبار ٤٤ ، ٤٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ١٨٣ ، ١٥٤ ، ٢٢٠ ، ٢٤٥ ، ومذكرات جوانفيل ١٨٦

(٦) الفتح القسي ٤٠٣ — (٧) المصدر السابق ٥١

(٨) المصدر السابق ٢٢٩ — (٩) عقد الجمان ١٨/١ ورقة ٨٣

وقد ركز الشعراء على وصف عيونهم الزرق، التي يشمئز منها العربي ، بل يتطير بها ، يقول المهذب بن الزبير في الهرنس صاحب انطاكية :

وتعجّبوا من زرقةٍ في دارفـــه ... وكأنّ فوق الرمح نصلا ثانـــي (١)

ويصور فتيان الشاغوري الخيل تمشي على جثثهم ، والطيور تنقر عيونهم الزرقاء ، ولا يخلو هذا الوصف من التشفي والاستهزاء ، يقول في مدح صلاح الدين سنة ٥٨٣ :

فالخيلُ لا تمشي بها الا علـــى ... هامٍ منضّدةٍ وشعر أشقـــر
نهبتْ عفاة الطير من حدقٍ بهـا ... زرقٍ فصوصاً من نفيس الجوهـر (٢)

وقريب من هذا المعنى ما ذكره شهاب الدين محمود في فتح عكا سنة ٦٩٠ هـ يقول :

وغاص زرق القنا في زرق أعينهـم ... كأنها شطن تهوى الى قلـب (٣)

عادات أخرى :

ومن عاداتهم أنهم ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمـــام (٤)
ومنها كشف الرأس عند الفرح (٥) ٠

اقتباس ٠٠٠ واعجاب :

أدى استقرار الصليبيين في المشرق الاسلامي الى تأثر بالفن الاسلامي بأنواعه ومن ذلك الفن المعماري وقد وصف بعض الادباء أبنيتهم ، ومن هؤلاء القيسراني الذى قال في وصف انطاكية حين كانت تحت الاحتلال الصليبي :

واحربا في الثغور من بلـــد ... يضحك حسنا كأنه ثغــر
به قصور كأنها بيـــع ... ناطقة في خلالها الصـور
هالاتٌ طاقا تُهن آهلـــة ... يسفر عن كل هالة قمـر (٦)

---

* قيل في هجاء خالد الفهرى :

فألفيته يهوى فـــترده ... عروق الى أخواله الزرق تنتمـي
اذا ايقظته نخوة عربيـــة ... الى المجد قالت أرمنيته نـــم

(ديوان ابن عنين ١٢٦)

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٧٦ ، وأنظر الخريدة قسم شعراء مصر ١/ ٣٨
(٢) ديوان فتيان الشاغورى ١٤٥ (٣) جواهر السلوك ورقة ٦٠
(٤) الاعتبار ١٣٦ (٥) تاريخ ابن الفرات ٤/ ٢/ ٢٥٥
(٦) ديوان ابن القيسراني ٦٣ ، وأنظر الخريدة/ قسم الشام ١/ ١٠٠

ويصف ابن جبير عكا المحتلة بأنها " قاعدة مدن الافرنج بالشام ، ومحط الجواري ... وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الافاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام ، وتضيق فيها مواطئ الاقدام " (١) ، ولكن الاحتلال شوه المدينة في نظر ابن جبير ، اذ يقول فيها بعد ذلك : " زفرة قذرة مملوءة كلها رجسا وعذرة " (١) ولذلك فضل عليها صور التي تنعم بالهدوء ، ويقل فيها التعصب ضد المسلمين .. (٢) .

وقد أتخذ البناء في المدن المحتلة طابعا فنيا من الجمال ما يتفق مع تاريخ المعمار الاسلامي قبل غزو بلاد الشام ، كما يظهر من كتابة الرحالة الفارسي ناصر خسرو . وقد أضاف الفرنج الى الاماكن الدينية زخرفا لم يكن فيها من قبل ، واستنبتوا الاشجار حولها ، يقول العماد في وصف اللاذقية : " ورأيتها بلدة واسعة الافنية ، جامعة الابنية متناسبة المباني ، متناسقة المغاني ، قريبة المجاني ، رحيبة المواني ، في كل دار بستان وفي كل قطر بنيان ، أمكنتها مخرمة ، وأروقتها مرخمة ، وعقودها محكمة ، ومعالمها معلمة ودعائمها منظمة ، ومساكنها مهندسة مهندمة ، وأماكنها ممكنة ، ومحاسنها مبينة ، ومراتبها معنية ... " (٣) ، ويقول في كنيستها : " بأجزاء الاجزاع مرصعة وبألون الرخام مجزعة ... " (٤) .

وقد أفرغ الصليبيون جهدهم في تزيين القدس وكنائسها ، حتى أصبحت مثار اعجاب لكل من رآها ، يقول القاضي الفاضل " فانهم - خذلهم الله - عموها بالأسل والصفاح ، وبنوها بالعمد والصفاح ، وأودعوا الكنائس بها وبيوت الدمية والاستبارية ، فيها كل غريبة من الرخام ، الذي يطّرد ماؤه ، ولا يطّرد لألاؤه ، قد لطف الحديد في تجزيعه ، وتفنن في توشيعه ، الى أن صار الحديد الذي فيه بأس شديد ، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد ، فما ترى الا مقاعد للرياض لها من بياض الترخيم رقراق ، وعمدا كالاشجار لها من التنبيت أوراق ... " (٥) .

ويتحدث ضياء الدين بن الاثير عن مشاهداته في القدس بعد أن استعادها صلاح الدين ، كما شاهد ذلك القاضي الفاضل ، ولكن ابن الاثير يسلط الاضواء على جوانب أخرى ، فيذكر تفنن الفرنج في الابنية التي أتخذوها من الحجارة ، بينما ذكر الفاضل تفننهم في زخرفة الحديد ، يقول ضياء الدين بن الاثير " ولا ينتهي الوصف الى ما شوهد بالبلد من الآثار العجيبة التي تستوقف العجلان ، وتستجلب الاذهان ، وتستنطق الألسنة بالتسبيح لله الذي فطر الانسان ، ومن جملة ذلك تنوعهم في حسنه من الوضع

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٦ (٢) المصدر السابق ٢٧٧
(٣) الفتح القسي ٢٢٨
(٤) المصدر السابق ٢٢٨ ، وأنظر الفتح القسي ١٤١
(٥) صبح الاعشى ٦/٥٠٢ـ٥٠٣

والصوامع ، ذوات الأبنية الروائع ، التي روّضت بالزخارف ترويض الأزهار ، ورفعت معاقدها حتى كادت النجوم توحي اليها بالأسرار ، وما فيها إلا ما يقال إنه إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، ولقد ألان الله لهم الحجارة حتى تحيروا في توشيمها بضروب الاختيار ، وجعلوها أعاجيب الاسماع والابصار ، وقيل فيها هذه روضات جنان لا أفنية ديار ... " (١) .

التأثر بالحضارة الإسلامية :

لم تتسم العلاقات الاسلامية الفرنجية دائما بالجفاف ، بالرغم عن الحروب الطويلة المستمرة ، فقد كانت العلاقات التجارية أحيانا طبيعية ، مما لفت نظر ابن جبير فقال : " ومن أعجب ما يحدّث به في الدنيا ، أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين " (٢) ويقول في عكا : " مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق " (٣) ثم يقول : وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة " (٤) .

هذا ما كان وسوق الحرب قائمة ، أما حين وضعت الحرب أوزارها ، فقد نادى المنادي في أسواق العسكر أن الصلح قد انتظم ، من يشاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل " (٥)

وقد نتج عن هذا الاختلاط تعلم بعض الفرنج لغة العرب ، مما جعل التأثر بالحضارة الاسلامية أكبر ، ومن الادلة التي تثبت معرفة بعضهم اللغة العربية ما ذكره ابن جبير من أنهم " يكتبون بالعربية ويتكلمون بها " (٦) ، وما ذكره ابن شداد عن صاحب شقيف أرنون بأنه عارف بالعربية ، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والاحاديث (٧) * وروى أسامة بن منقذ عدة مشاهدات في أماكن مختلفة يتكلم فيها الفرنج العربية ، منها أن

---

(١) أنيس المقدسي ، رسائل ابن الاثير ص ١٥٥ ، دار العلم للملايين ط بيروت ١٩٥٩

(٢) رحلة ابن جبير ٢٧١ (٣) المصدر السابق ٢٧٦

(٤) المصدر السابق ٧٣ (٥) تاريخ ابن الفرات ٨٦/٢/٤

(٦) رحلة ابن جبير ٢٧٥

(٧) النوادر السلطانية ٩٧ ، ومفرج الكروب ٢٨١/٢

* انظر الاعتبار ٦٧ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٩٠

مجموعة منهم جاءت الى شيزر ، وسألوا البواب عن اسم البلد ، فقالوا : ايش اسم هذا البلد ؟ فقال شيزر (١) ... وحين دخل فردريك الى القدس زمن الكامل سأل قوّام الصخرة عدة أسئلة بالعربية (٢) .. وفي حكاية الصعيدي وزوجته الفرنجية ما يؤكد معرفة المرأة الفرنجية للعربية ، فحين خيرها السلطان بين زوجها المسلم والفرنجي قالت : أنا قد أسلمت وتزوجت وحملت كما ترون (٣) ..

ومن الأدلة الأخرى التي تثبت معرفتهم للعربية ، ما كان يجرى من مناظرات بين بعض المسلمين والفرنج ، ومثال ذلك قول ابن القيسراني في التناظر بينه وبين فرنجي في تحريم الخمر :

وغدا يناظرني بها عن دينه فقلت لها بالجدال مكيشبا (٤)

ويقول ابن شداد في صاحب شقيف أرنون " وكان يناظرنا في دينه ، ونناظره في بطلانه ، وكان حسن المحاورة متأدبا في كلامه " (٥)

ومن الطبيعي الا يكون التناظر والتحاور الا باللغة العربية ، لأنه لم يعهد عن العرب آنذاك أنهم تعلموا اللغة الفرنجية ، بل كانوا يصفونها بأوصاف لا تخلو من الطعن مثل البربرة (٦). ومن المتوقع بعد هذا أن الجماعات الصليبية لم تستطع أن تحتفظ بعاداتها ومظاهر حياتها سليمة كما جاءت بها ، وإنما اضطرت بحكم انحطاط مستواها الحضاري الى ان تكتسب الكثير من صفات المجتمع الاسلامي وعاداته ، حتى بلغ الاكتساب حدا شكا منه المؤرخون الصليبيون ، فهذا فوشيه Foucher كتب بعد انقضاء نصف قرن تقريبا يقول : "واحسرتاه ! بعد أن كنا غربيين صرنا الآن شرقيين تماما في هذه البلاد (الشام) وغدا الايطالي أو الفرنسي الذى يعيش في هذه البلاد جليليا أو فلسطينيا لقد نسينا أوطاننا ، وصار معظمنا لا يعرف عنشيئا (٧).

أما مجالات التأثر فهي كثيرة منها :

١. <u>الاسلام :</u>

فالبرغم من تعصب الفرنج الشديد لمعتقداتهم ، إلا أن بعضهم اقتنع بالدين الاسلامي وأسلم ، يقول العماد مشيرا الى اسلام بعض الفرنج بعد حطين :

---

(١) الاعتبار ٥٦ وأنظر ١٣٥ و ١٣٧
(٢) عقد الجمان ١٨/١/٨٣ ، ومفرج الكروب ٤/٢٤٤
(٣) ألف ليلة وليلة ٧/٤ وأنظر ألف ليلة وليلة ٦/٢٢٢
(٤) ديوان ابن القيسراني ٧١ (٥) النوادر السلطانية ص ٩٧
(٦) الاعتبار ١٤٠ وانظر ١٠٤
(٧) نقلا عن المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام مقالة الدكتور سعيد عاشور/عمان سنة ١٩٧٤ ص ٢٤٠

" وما أسلم إلا آحاد حسن إسلامهم ، وتأكد بالدين عزامهم " (١) ويقول : وهرب خادمان من عند الفرنج ، وذكر أنهما لأخت ملك الانكتير ، وأنهما كان يكتمان الايمان في سر الضمير ... " (٢) .

ويلاحظ المرء من حكاية الصعيدي وزوجته الافرنجية اذا اعتبرناها مصدرا يعتمد عليه ، أن هذه المرأة أسلمت عن قناعة كما يبدو من قولها : " وهذا سر دينك الصحيح ، وأشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ... " (٣)

٢ . اللباس :

تأثرت المرأة الفرنجية بزي المرأة المسلمة ، وراحت تقلدها في اتخاذ الحجاب لا احتشاما ، وانما رغبة في التجمل ، وفي محاكاة المرأة المسلمة التي تفوقها حضارة فلبست الفرنجيات الحرير والسترات الشرقية الموشاة بخيوط الذهب والفضة ، ومن ذلك وصف العماد لصاحبة الكرك التي اتخذت الحجاب فيقول : وخرجت مصفرة غدا شأنه التصمر ، مسفرة عن وجه من عادته التخدر ... " (٤)
ويقول ابن جبير في وصف عروس : تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ... ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات (الفرنجيات) يتهادين في أنفس الملابس ، ويرفلن في أرفل الحلى ... (٥) .
وقد لبس الرجال اللباس العربي ، وهو القباء والشربوش ، فقد أرسل الكندهري الى صلاح الدين يقول : أنت تعلم أن لباس القباء والشربوش عندنا عيب ، وأنا ألبسهما منك محبة لك ، فأنفذ اليه السلطان خلعة ... فلبسها بعكا " (٦) .
ولنا أن نستند في تصديق ذلك على ما يذكره ستيفن رنسيمان عن ملابس الرجال والنساء فيقول : يرتدي الفارس في عدته وسلاحه برنسا من الحرير ويتخذ عمامة ، وعند القتال يرتدي فوق درعه سترة من الكتان لوقاية الزرد من حرارة الشمس كما يجعل خوذته كوفيه على نحو ما يفعل العرب . أما السيدات فاتخذن الزي الشرقي التقليدي فيما اتخذنه من قميص طويل وسترة قصيرة أو رداء بكمين ، وكلها موشاة بخيوط الذهب وأحيانا بالجواهر ، فاذا خرجن من بيوتهن اتخذن الحجاب شأن النساء المسلمات ، لا من قبيل الاحتشام ، بل لوقاية الطلاء الذي غطى وجوههن " (٧)

---

(١) الروضتين ٢ / ٨٠ وانظر ٢ / ١٦٥ (٢) الفتح القسي ٤٩٣ وأنظر ٤٤٠ و ٤٦١
(٣) ألف ليلة وليلة ٧ / ٤ (٤) الفتح القسي ٢٠٥ وأنظر ٢٠٦
(٥) رحلة ابن جبير ٢٧٨ (٦) الكامل ١٢ / ٧٩
(٧) الحروب الصليبية ٢ / ٥٠٩

٣ـ تذوق الأطعمة العربية :

روى أسامة عن أحد الفرنج الذين بأنطاكية أنه " أحضر مائدة حسنة ، وطعاما في غاية النظافة والجودة ، ورآني متوقفا عن الاكل فقال : كل ، طيب النفس ، فأنا ما آكل من طعام الفرنج ، ولي طباخات مصريات ، ما آكل إلا من طبيخهن ، ولا يدخل داري لحم خنزير " (١)

٤ـ اتخاذ الموسيقى العربية وسيلة للترفيه :

وقد استعملت في الغناء والأفراح ، ومن ذلك ما جاء في ديوان ابن القيسراني من أن جارية من مولدات انطاكية المحتلة تغني بالدف وتستميل قلوب المسلمين بقولها :

علقت بحبل من حبال محمد أمنت به من طارق الحدثان (٢)

وهناك أداة أخرى غير الدف ، وهي العود استعملها الفرنج ، يقول ابن القيسراني :

اذا بدا أذعنت له حدق وان شدا ملكته أسماع
يحمي أوتار عوده ببد ايقاعها بالنفوس ايقاع (٣)

ويصف ابن جبير عرسا افرنجيا في صور ، استعملت فيه جميع الالات اللهوية يقول : " وقد احتفل لذلك (العرس) جميع النصارى رجالا ونساء ، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها " (٤).

٥ـ الأبنية والفنادق والقلاع والحصون واستعمال النار ليلا والحمام الهادي نهارا لنقل الاخبار (٥).

٦ـ الاشياء الادارية ، فقد اعتمدوا على المسلمين أو من تدرب عندهم لإدارة الديوان والنظر في شؤون القوافل ، يقول ابن جبير " ورئيسها (ضيعة ترب كا) الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الفرنج .." ويقول " .. وحملنا الى الديوان وهو خان معد لنزول القافلة ، وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الابنوس المذهبة الحلي ، وهم يكتبون بالعربية ، ويتكلمون بها "(٦)

---

(١) الاعتبار ١٤٠ ، وانظر رحلة ابن جبير ٢٧٥
(٢) ديوان ابن القيسراني ورقة ٧٤ (٣) المصدر السابق ورقة ٧٩
(٤) رحلة ابن جبير ٢٧٨
(٥) انظر رحلة ابن جبير ٢٧٥ ، الفتح ٤٨٤ ، مفرج الكروب ٢/٣٠٢ ، وزكي النقاش في العلاقات الاجتماعية ١٦٢ ، واحمد عبد الجواد الدومي : صلاح الدين الايوبي ١٠٢
(٦) انظر العلاقات الاجتماعية ١٥٧

ثانيا : الحياة الإقتصاديــة :

حظيت حياة الافرنج الاجتماعية باهتمام أكبر عند الأدباء العرب من الحيـــاة الاقتصادية ، وسبب ذلك يعود الى خطورة النواحي الاجتماعية على بناء المجتمع الاسلامي فبرزت هذه النواحي في الأدب مرتبطة بالتنفير والاستغراب، وثمة سبب آخر ، هو أن الحياة الاجتماعية ممارسات يومية معروفة ، في حين ان الحياة الاقتصادية قد تغيب ملاحظتهـــا عن غير المهتم بها ، ولذلك جاءت ملاحظات أدباء العرب عن الحياة الاقتصادية غـــير وافية ، ومعظمها مرتبط بالاشياء الظاهرة ، وتنقصها سمة التعمق والاستقصاء .

موارد الافرنج :

تبين لنا فيما مضى أن الفرنج استمدوا مقومات وجودهم من دول وراء البحار ، وهذا يعني أنهم اعتمدوا في حياتهم الاقتصادية على الامدادات الخارجية ، فكانت كـــل حملة تأتي الى المشرق الاسلامي تتخذ اجراءات تكفل لها الامداد الاقتصادي ، إما عن طريق ما تحمله سفن تابعة للحملة أو عن طريق امدادات متوالية من سفن المدن التجاريـة كالبندقية وجنوا وبيزا .
ويظهر هذا الامداد في مواقف كثيرة ، فحين غزا الفرنج الاسكندرية رافقهم اسطول يحمـــل كل ما يحتاجه العسكر ، وبعد سقوط القدس بيد صلاح الدين جاء الجيش الالماني بعدته وعتاده ، وفي حصار عكا جاءت افرنجية متنفذة ، ومعها ثلاثمائة فارس ، معهم كل ما يحتاجون اليه .

الا انه كان للفرنج مصادر دخل أخرى منها :

١ . الضرائب :

وتشمل ما يؤخذ من البلاد الاسلامية التي تغلب عليها الفرنج ، وما يدفعـــه الافراد من المسلمين للفرنج بسبب بقائهم في بلادهم ، وما تدفعه القوافل لقـــاء دخولها في الاراضي التي يحتلها الفرنج .
ويتضح من تنوع الضرائب أنها كانت تشكل دخلا كبيرا للفرنج ، فعلى سبيـــل المثال قرر الفرنج على أهل صيدا نيفا وعشرين ألف دينار ، وكذلك على عسقلان وصور (١) .
وهذه البلاد لم تكن وحدها التي تدفع الغزاة مثل هذه الضرائب الكبيرة ، كما أن الضرائب النقدية لم تكن الضرائب الوحيدة التي تقدم لهم ، اذ كانوا يأخـــذون من المسلمين ضرائب عينية كذلك ، كما أوضح ابن جبير حين قال : " وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم " (٢)

---

(١) انظر ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ١٧١
(٢) رحلة ابن جبير ٢٦٠

أما الضريبة التي كانت تدفع على القوافل ومن معها من مسافرين عدا التجار ، فقد كانت على أساس أن يدفع المسافر دينارا وقيراطا ، ويدفع التجار عن البضائع العشر في مواضع معينة ، منها حصن تبنين الذى يقول ابن جبير فيه : " موضع تمكيس القوافل ،والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ، ولا اعتراض على التجار فيه ، لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون ، وهو محل التعشير والضريبة فيه قيراط من الدينار " (١) .

وقد فرض الفرنج ، في عصر قوتهم وسيادتهم ، على المناطق التي يسكنها المسلمون ضريبة على الانتاج ، مقدارها نصف الغلة ، مقابل السماح لهم بمزاولة أعمالهم بسلام ، وقد لاحظ ذلك الرحالة ابن جبير ، حين أجتاز بطحاء بانياس، وتبنين فيقول في بطحاء بانياس،ان الفرنج " يتشاطرون الغلة على السواء ، ومواشيهم مختلطة ،ولا حيف يجرى بينهم " (٢) ، ويقول في الثانية : " وسكانها (وهم من المسلمين) مع الفرنج على حالة ترفيه ـ نعوذ بالله من الفتنة ـ وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة ، عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولهم على الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها ، وكل ما بأيدى المسلمين على هذه السبيل " (٣) .

ثم فرضوا على المناطق الزراعية البعيدة عنهم فضلا عن القريبة ضريبة المشاطرة بسبب مواقعها ، فيذكر ابن شداد أن طبرية شاطرت المناطق القريبة منها ، بل التي تبعد عنها ما يقارب مائة كيلو متر غلاتها الزراعية ، وهذا يؤكد ما ذكره ابن جبير سابقا ، ويقول ابن شداد : " وكانت طبرية في عهد الفرنج تقاسم نصف غل البلاد من الصلت والبلقاء وجبل عوف والحيانية والسواد ، وتناصف الجولان وما يقربها الى بلد حوران (٤) . وقد توقف هذا المعين حين رجحت الكفة الاسلامية .

٢ . **التجارة :**

ارتبطت الحركة الصليبية منذ توجهها الى المشرق الاسلامي ، بالمدن التجارية الايطالية ، وكان لهذا الامر آثار خطيرة على الحركة الصليبية نفسها ، فقد غيرت اتجاه حملة كان من المقرر أن تتجه الى مصر باعتبارها العامل المهم في هزيمة الفرنج في حطين ، ولكن العلاقات التجارية بين هذه المدن ومصر كانت طيبة ، فأقنع التجار الفرنج بأن يهاجموا القسطنطينية التي تخلت عن الفرنج في بعض معاركهم في مصر والشام ، ولكن الحملة فشلت ، ويدل هذا على تأثير المدن التجارية في سير الحملات الصليبية .

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٤
(٢) المصدر السابق ٢٧٣
(٣) المصدر السابق ٢٧٥
(٤) الروضتين ٢/٧٩

على أن الصليبيين ومن خلفهم من الاوروبيين اتخذوا بعض المدن التجاريه في الساحل الشامي مركزا لهم للبيع والشراء . ومن المدن التي اتخذوها لهذه الغاية مدينة عكا التي كانت محط القوافل وملتقى التجار من المسلمين والفرنج . يقول ابن جبير فيها : " قاعدة مدن الافرنج بالشام ومحط الجوارى ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الافاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطن الاقدام (١) ومثلها مدينة صور (٢) .

ولم تكن عكا أو غيرها لتغص بالزحام لولا كثرة التجار ، فقد اجتمعوا بيها من جميع الافاق ، وتوضح ذلك ، أن القوافل كانت تختلف من مصر الى دمشق ، ومنها الى بلاد الفرنج ، كل ذلك دون انقطاع (٢) وكذلك كان تجار الفرنج يدخلون البلاد الاسلامية ، لا يمنع أحد منهم ولا يعترض (٣) حتى في أوقات المعارك ، وهذا ما يتضح من حكاية الصعيدى وزوجته الافرنجية ، حيث ذهب الى عكا ليبيع الكتان فيها وهي مع الفرنج (٤) ويتضح كذلك ، اذا أخذنا بالرواية ، من حكاية مريم الزنارية أن الفرنج دخلوا الاسكندرية ، واشتروا ما يريدون ، ثم عادوا الى بلادهم ومعهم مريم الزنارية الفرنجية (٥) .

وفي عهد بيبرس عقدت هدنة بينه وبين بيت الاستبار ، نصت على أن يكون التجار والسفار المترددون من جميع الجهات المذكورة آمنين من الجهتين (٦) .

ويظهر من النص الاخير أن التجار تميزوا بمعاملة خاصة من كلا الطرفين ، منذ وقت مبكر ، اذ يروى أسامة بن منقذ أنه اجتاز سوق عكا ، واذا امرأة فرنجية ، تعلقت به ظنا منها أنه قاتل أخيها ، فأجتمع عليه رجال الفرنج ، ولم يتخلص أسامة منهم إلا حين جاء أحدهم وقال : هذا رجل برجاسي (أى تاجر) لا يقاتل ولا يحضر القتال ، فتفرقوا عنه (٧) .

وقد عين الفرنج نقاطا للحراسة على مداخل البلد التي تمر منها القافلة ، ونقاطا أخرى داخل المدينة ، وسبب هذه الحراسة فحص المواد المنقولة ومعرفة أصحاب السلع من غيرهم منعا للسرقات ، وكان يتم ذلك كله بالمعاملة الحسنة . يقول ابن جبير : "وطلب رحل من لا سلعة له لئلا يحتوى على سلعة مخبوءة فيه ، وأطلق سبيله حيث شاء ، وكل ذلك برفق وتؤدة ، دون تعنيف ولا حمل .. " (٨) .

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٦ (٢) المصدر السابق ٢٧٧
(٣) المصدر السابق ٢٦٠
(٤) ألف ليلة وليلة ٧/٤ وأنظر الكامل ١١/٥٣٩
(٥) المصدر السابق ٦/١٩٩
(٦) صبح الاعشى ١٤/٣٧ ، وأنظر محمد زغلول سلام/ ضياء الدين بن الاثير ١٥
(٧) الاعتبار ١٤٠ (٨) رحلة ابن جبير ٢٧٦

أما ان حدثت سرقة أو أخيذة ، فتغرّم الجهة التي سرقت عندها ، أو تحلف اليمين ، وقد جاء ذلك في الهدنة التي عقدت بين بيبرس وبين بيت الاستبار اذ نصت على أنه ان تعدى أحد من أصحابه (الاستبار) بأذية ، أو تعدى أحد من الفرنجة في بلاده بأذية ، كانت المهلة في ذلك خمسة عشر يوما ، فان تكشفت الاخيذة ، أعيدت ، والا تحلف الجهة المدعى عليها أنها ما علمت وما أحست ...." (١) .

ويبدو أن التجار اتخذوا زيا خاصا بهم . ففي زمن الصالح أيوب تحرك ملك فرنسا يريد مصر ، فعلم ملك صقلية بذلك ، فأرسل ابنه يخبر الصالح بعزم لويس التاسع على قصد مصر ، وكان ذهابه الى مصر في زي تاجر خوفا من الفرنج أن يعلموا ممالاة الانبرطور للمسلمين ..." (٢) ، هذا ، وقد وردت اشارات عابرة عن المواد التي تاجر بها الفرنج ، وأهمها الفضة والاشياء الأثرية ، فقد ظفر المسلمون بمراكب لتجار العدو في حصار عكا ، يحمل معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة .. (٣) وأما الاشياء الأثرية ، فقد أخذوها من القدس ، وباعوها في صقلية (٤) .

أما التجارة الداخلية ، فقد كانت تتعلق بحاجات الجيش من ميرة وسلاح ، كما حدث مع ملك الألمان الذي فنيت أقوات جيشه وأسلحتهم بسبب ما لاقوه من مصاعب وقتال في طريقهم الطويل ، فاتفق مع ملك التركمان أن يتزود عسكره من أسواق السلاجقة .. ليعوضوا ما فقدوه ، يقول العماد : وأقاموا لهم الاسواق ، وعرض عليهم الأمتعة والاعلاق ، فساروا في رفعة ورفق ، وتقوبلا توق .." (٥) وكان أرناط يحصن حصنه في الكرك بما يشتريه من سوق العسكر (٦) ، هذا ، وقد استعمل الفرنج العملة الذهبية للبيع والشراء ، وكانت الوحدة المستعملة التي تحدث عنها الادب ، هي الدينار الصوري ، والدينار أربعة وعشرون قيراطا (٧) ويصف القلقشندي الدينار الصوري فيقول : " دنانير يؤتى بها من البلاد الفرنجية والروم ، وهي معلومة الوزن ، على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه ، وعلى الوجه الاخر صورتا بطرس وبولس الحواريين (٨) .

ومن الأدلة التي تثبت استعمالهم للدنانير الصورية ، ما ذكره ابن جبير عن التمكيس حيث يقول : " والتمكيس بالدنانير الصورية " (٩) وما جاء في مضمار الحقائق من أن ابن بارزان الفرنجي بذل في نفسه مائة وخمسين ألف دينار .. وابن القومصية افتكته أمه بخمسة وخمسين ألف دينار صورية (١٠) .

---

(١) صبح الاعشى ٣٤/١٤ وأنذار ٢٨ (٢) مفرج الكروب ٢٤٧/٤
(٣) الروضتين ١٨١/٢ (٤) الفتح القسي ١٤٢ (٥) المصدر السابق ٣٩٠
(٦) مفرج الكروب ٢٨٣/٢ (٧) رحلة ابن جبير ٢٧٤ (٨) صبح الاعشى ٤٣٧/٣
(٩) رحلة ابن جبير ٢٧٤
(١٠) مضمار الحقائق ١٧ ، والكامل ٤٥٦/١١ ، وصبح الاعشى ٣٤/١٤

٣- الزراعة :

أشار الادباء الى بعض مزروعات الصليبيين في معرض حديثهم عن سيطرة المسلمين عليهم وتدمير زروعهم ، وقطف ثمار أشجارهم ، وهم لا يستطيعون دفعا ولا صدا ، يقول صاحب مضمار الحقائق في نزول صلاح الدين سنة ٥٧٨ على الكرك : "ووجد فيها جمعا عظيما من الفرنج ، فنزل قريبا منهم ، فأذللناهم وضايقناهم ، حتى لاذوا بالجدار ، فاستولينا عليهم ، فقطعنا أشجارهم ورعينا زروعهم ، وجعلنا نَشُنّ الغارات عليهم مدة عشرة أيام " (١) . وكتب محيي الدين بن عبد الظاهر الى ملك الفرنج في طرابلس وأنطاكية : " قد علم القومص كيف فارقنا بلادك ، وما بقيت فيها ماشية الا لدينا ماشية ، ... ولا زرع الا وهو محصود ، ولا موجود الا وهو منك مفقود ... " (٢) ويقول سبط بن التعاويذي :

جيوشهم بالرعب مفلولة وزرعهم بالسيف محصود (٣)

ولكن المزارعين - مع هذا - أعطوا حرية التنقل لتصريف منتوجاتهم ، ولعلهم نالوا هذه الميزة لأنهم اشتركوا مع التجار في النشاط الاقتصادى ، بل أصبحت حرية التنقل اتفاقا معمولا به زمن الظاهر بيبرس ، فقد نصت الهدنة التي عقدها مع بيت الاسبتار على " أن يكون فلاحو بيت الاسبتار رائحين وغادين ومتصرفين في بيعهم وشرائهم لا يتعدى عليهم أحد ، وكذلك جميع فلاحي بلاد الاسماعيلية (٤)

٤- الحيوانات :

وقد أعتمد الفرنج عليها في غذائهم وتنقلهم ، فكانوا يستوردونها من الغرب ، أو يشترونها من المنطقة ، ثم يحافظون عليها ، ويقدمون لها ما تحتاجه من أعلاف وقد ورد ذكر الأدب للحيوانات في مجال سيطرة المسلمين على الفرنج . يقول صاحب مضمار الحقائق عن صلاح الدين : " وساق أغنامهم وأبقارهم ، وخرب عليهم بل أحرق ديارهم " (٥) . ويقول العماد : " وأنتهى الينا أن الفرنج ينتشرون في الارض وينبسطون في موضع القبض ، ولا يحتفظون في الرفع والخفض ويحتطبون ولا يحتاطون ، ويحتشون ولا يختشون " (٦)
وقد اعتمد الفرنج على الإسماك مصدرا آخر من مصادر الغذاء ، ولكن قوة المسلمين المتصاعدة جعلت الفرنج يقدمون نصف أنتاجها اليهم ، كما نصت على ذلك الاتفاقية التي عقدت بين الطرفين سنة ٦٦٥ هـ وقد جاء فيها " وتكون صيدة السمك الرومية مهما تحصل منها يكون النصف منها للملك الظاهر بيبرس والنصف الثاني لبيت الاسبتار ... " (٧)

---

(١) مضمار الحقائق ٩٢ (٢) صبح الاعشى ٨/ ٢٩٩
(٣) ديوان ابن التعاويذي ١١١ (٤) صبح الاعشى ١٤/ ٣٥
(٥) مضمار الحقائق ٣٣ (٦) الفتح القسي ٢٩٣ وأنظر النوادر ٢٠٠ والروضتين ٢/ ١٤١
(٧) صبح الاعشى ١٤/ ٣٢

هذا ، وقد ذكر الأدب بعض صناعتهم ، وهي صناعة حربية كصناعة الأبراج والأسلحة الخفيفة ، وقد سبقت الإشارة الى ذلك .

ويلاحظ مما مضى أن دخل الفرد الفرنجي في بداية الحروب الصليبية كان عاليا لتنوع مصادر الدخل ، مما جعل أحد امرائهم يمن فرسانه لضعفهم أمام المسلمين ، مع أن دخل الفرنجي يعادل دخل مائة مسلم ، قال لهم : " انتم فرساني ، وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم ، وهؤلاء سرجند(Sergeant) (يعني رجالة) ما تقدرون تقلعونهم من موضعهم ؟ ... " (١) .

ولكن هذا الدخل تناقص تدريجا ، بل حدثت أزمات اقتصادية خانقة فيما بعد ، بسبب تدهور الاحوال السياسية ، اذ انحصر ملك الفرنج في صور وأنطاكية ، فاجتمع الفرنج كلهم في هذه المناطق ، وباعوا ما لا يمكنهم حمله بأرخص ثمن كما قضى بذلك الاتفاق (٢) ، ثم قدمت الجيوش الفرنجية بأعداد هائلة عن طريق القسطنطينية ، وحين وصلوا انطاكية استهلكوا بضاعتها ، فارتفعت الاسعار ارتفاعا فاحشا حتى بلغ سعر غرارة القمح اثني عشر دينارا . يقول العماد : " وكانت حينئذ انطاكية قد أسعر غلتها غلاء سعر الغلة ، وقل ساكنوها لما كانوا فيه من القلة ، والغرارة تساوى اثني عشر دينارا ، والقوم قد شارفوا فيها تبارا وبوارا " (٣) . بل ان ابن شداد يذكر أن سعر الغرارة بلغ ستا وتسعين دينارا صورية (٤) .

وأما في عكا حيث اجتمعت الجيوش الصليبية ، فقد ازدادت الاسعار أكثر مما كانت عليه في انطاكية ، اذ بلغ ثمن الغرارة أكثر من مائة دينار . يقول العماد : "وكانت الغرارة من الغلة قد بلغت أكثر من مائة دينار ، والسعر من الزيادة لديهم في استعار" (٥) وبسبب هذا الغلاء التجأت جماعة منهم الى المسلمين ، وماتت جماعات يقدرها ابن شداد بمائة ومئتين يوميا (٦) ، ويصور العماد حالتهم تلك فيقول : " وغلت الاسعار عند الفرنج ، واستمرت العلل ، وأعلتهم ما عراهم ، وترتهم العلل ، وباءوا بالوباء وبلوا من البلاء ، وغلوا من الغلاء ، وتضوروا من الضراء ، وشقوا من استمرار الشقاء ، وعمت المجاعة الجماعة وعدموا الطاعة والاستطاعة ، وزاد جوعهم ، وزال هجوعهم ، وقصرت عن الفرار بوعهم ، وأمحلت ربوعهم ، واستحال رتوعهم ، وبعث الرعب على الهرب ، أو القحط على الشحط ، لكنهم أقاموا على الموت ، واستناموا الى الفوت ، وبلوا بأمور صعبة ، وهرب الينا منهم عصبة بعد عصبة " (٧) . ولم تكن حالتهم زمن بيبرس وقلاوون والاشرف بأحسن مما كانت زمن صلاح الدين ، بل ان حالتهم ازدادت سوءا ، لانهم زمن صلاح الدين وجدوا الحماس الاوربي يمدهم بما يحتاجونه من ميرة وأموال وسلاح ، ولكن هذا الحماس تضاءل زمن بيبرس حتى قضى عليهم نهائيا زمن الاشرف ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

---

(١) الاعتبار ٦٧ (٢) الكامل ٥٥٣/١١ (٣) الفتح القسي ٢٥٩
(٤) النوادر السلطانية ١٤٦ (٥) الفتح القسي ٤٤ والروضتين ١٦٥/٢ والكامل ٥٤/١٢
(٦) النوادر السلطانية ١٥٤ (٧) الفتح القسي ٤٣٩

ثالثا : الحياة السياسية :

أقام الصليبيون كيانهم السياسي في المشرق الاسلامي على شكل امارات منفصلة ، هي الرها وانطاكية والقدس وطرابلس ، وتشكل منها الاطار العام للحكم السياسي ، إذ كان الأدباء يعرفون الفرنج كلا متماسكا ، في بداية تأسيس تلك الامارات ، وربما خلط بعضهم بين الروم والفرنج ، ثم اتضحت الرؤية تدريجيا ، وصار الأدباء ينسبون الفرنج الى مناطق وجودهم ، فيقولون فرنج انطاكية ، وفرنج الرها ، وهكذا ، ولكنهم مع هذا نظروا الى إمارة القدس نظرة خاصة ، لانهم أدركوا أن من اسباب الحروب الصليبية ، العامل الديني ، يضاف الى ذلك توجه كثير من الفرنج الى القدس للحج ، وتوسع الفرنج الذين فيها في أرض الشام ومصر .

ولكن هذه الامارات ، وعلى رأسها القدس ، لم ترتكز على أساس متين ، فهي كانت قائمة على أساس الاتكاء على قوة الغرب الاوروبي ، مع أنهم جهدوا في بناء كيان سياسي منفصل عن الغرب ، ومقبول في الشرق الاسلامي ، فعملوا من أجل ذلك على التوسع السريع لتكون البقعة الجغرافية صالحة لاقامة كيان مكتف متكامل ، يدر أنتاجا يضمن لهم الاستغناء عن الجهات الاخرى ، كما أن الفرنج حاولوا الإستفادة من الاوضاع الداخلية للبلاد الاسلامية ، فتوسعوا في الارض الاسلامية ، وأمدوا أعداء الامة ، ولكن مسيرة الوحدة والجهاد كانت أسرع من عملياتهم ، فأوقعت نشاطهم اولا ثم حولت فيما بعد الى مرحلة الهجوم ، مما اضطر الفرنج الى المطالبة بوقف القتال على أن يعترف المسلمون بهم بوصفهم جيرانا لهم . وراسلوا صلاح الدين في ذلك مرات ومرات (١) ، كما راسلوا قطز وبيبرس وقلاوون وغيرهم (٢) وكان جوابهم أن الارض ليست لهم ، ولكنها للمسلمين ، فلا يستطيعون المفاوضة عليها ، حتى اكتملت التعبئة النفسية والعسكرية عند المسلمين ، مما مكّنهم في النهاية من اجتثاث الغزاة من المشرق الاسلامي .

ولقد كان للتكوين الاجتماعي في المجتمع الصليبي أثر في نظمهم السياسية ، فهم من طبقات شتى وأجناس مختلفة ، جمعتهم المطامع الخارجية والاستثارة الدينية ، فجاءوا معا من أجل أن يقاتلوا ويبنوا كيانا لهم في المشرق ، فجاء هذا الكيان صورة عن الانظمة السياسية الغربية ، وأنتخبوا في القدس ملكا على الطريقة الغربية .

وقد اتخذ ملك الفرنج القدس عاصمة لهم منذ احتلالهم لها والى حين استعادة المسلمين لها سنة ٥٨٣ هـ ، ثم اتخذوا عكا قاعدة لهم ، وقد تبعهم في ذلك أمراء المناطق التابعة للقدس ، وتبع الامراء الفرسان والفلاحون وبذا كان النظام المتبع نظاما اقطاعيا ، يكون الملك بموجبه على رأس الحكومة (٣) ، وهو الذي يصدر القوانين والتشريعات

---

(١) انظر الروضتين ٢ / ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٩ ، ١٩٣ ، ٢٠٣ ، والحركة الصليبية ٤٦٥

(٢) انظر النجوم الزاهرة ٦ / ٣٦٧ ونهاية الأرب ٥ / ١٥٣

(٣) الحروب الصليبية ٢ / ٤٨٠

بمساعدة مجلس الفرسان والقساوسة ... ويدل على ذلك ما فعله الملك فولك حين سرقت الداوية أغنام المسلمين ، فأمر الملك أن تعقد محكمة من الفرسان ، وأصدر حكم التنفيذ بعد المشاورة بالغرامة (١) ، دون الرجوع الى سلطات أخرى .

ولكن الملك لم يكن دكتاتوريا ، يتفرد بإصدار القرارات أو التشريعات ، وانما كان يطالب بعقد مجلس شورى ، وله حق المصادقة على القرار . وأما تشكيل المجلس فقد كان يختلف من موقف الى آخر ، وقد كان أعضاؤه اما من الفرسان أو القسوس أو منهما معا ، وقد يكون من الامراء . وعدد الاعضاء قد يزيد عن الثلاثة ليصل الى عشرة ، ومن ذلك أن (مرّي) جمع أمراءه واستشارهم بعد الذهاب الى مصر لأنه يتيح المجال لنور الدين " يتنفذ فيها لان أهلها يميلون اليه دون الفرنج (٢) .

وحين هاجم صلاح الدين طبرية ، اجتمع أمراء الفرنج ، وأشار ملك طرابلس بعدم التعرض له ، ولكنهم رفضوا اقتراحه وكان بينهم خلاف فاصطلحوا " وتآمروا فيما بينهم وتشاوروا " (٣) ، ويقول ابن شداد في قصد الفرنج الى القدس بعد سقوط عكا سنة ٥٨٧ هـ : " وانهم قد نصوا على عشرة أنفس منهم وحكموهم ، فأي شيء أشاروا به لا يخالفونهم (٤) .. " ويقول : " فانفصل الحال على أنهم حكّموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكّم الثلاثمائة اثني عشر منهم ، وحكّم الاثنا عشر ثلاثة منهم ، وقد باتوا على حُكم الثلاثة فما يأمرونهم به يُفعل " (٥) .

ومع أن الملك مصدر السلطات القضائية والتشريع ، إلا ان حكم الفرسان نهائي ولا يرده الملك . وهذا ما يفهم من تعقيب أسامة على الحادثة السابقة : " وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الافرنج يغيره أو ينقضه " (٦) ويؤكد ذلك ماذكره ابن شداد من أن القسوس قضوا بذبح أحد الجناة فتشفع بعضهم لدى الملك فلم يلتفت الى ذلك وذبحه (٧) .

تقدير الحكم :

نظر الصليبيون الى ملوكهم وأمرائهم نظرة تقدير واعجاب لما كانوا يتميزون به من فروسية وتضحية ، ولما كانوا يبذلونه من أموال ، لا سيما انهم الاقطاعيون الكبار . يقول ابن جبير في صاحب طرابلس وطبرية : " وهو ذو قدر ومنزلة عندهم ، وهو المؤهل للملك ، والمرشح له ، وهو موصوف بالدهاء والمكر " (٨) ، ويصف ابن شداد نظرتهم لملك فرنسا فيقول : " وكان عظيما عندهم مقدما محترما ، من كبار ملوكهم ينقاد اليه الموجودون في العسكر بأسرهم ، بحيث اذا حضر حكم على الجميع ... " (٩) ويقول العماد : " وما زال

(١) الاعتبار ٦٤ (٢) الكامل ١١/ ٣٣٥-٣٣٦

(٣) الفتح القسي ٦٥ ، وانظر ٦٦ ، والكامل ١١/ ٥٣٤ ، من تاريخ الحرب المقدسة

(٤) النوادر السلطانية ١٢ (٥) المصدر السابق ٢١٨ ، وانظر مذكرات جوا:

(٦) الاعتبار ٣٥ (٧) النوادر ١٢٦

(٨) رحلة ابن جبير ٢٨٢ (٩) النوادر السلطانية ١٥٦-١٥٧ وانظر ١٣٤

الفرنج في وهن وضعف ، وتوزن وخُلْف ، حتى وصل في البحر كند يقال له هري ، وهو عندهم عظيم القدر ، فكمل بمن وصل معه نقصهم ، وأحيا بعد موت نفوسهم حرصهم ، وأفاض عليهم الاموال ، وحلّى بهم عاطلها الاحوال ... " (١) .

ومن مظاهر تقديرهم للحاكم بذلهم أرواحهم دونه ، ففي معركة حطين نصبوا لملكهم خيمة ، على تل بناحية حطين ، وأحاط به نحو من مائة وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين ... " (٢) ويقول العماد في آخر : " وقاتل دونه جماعة من المقدمين فما قتل حتى قتلوا ، ولا بذل روحه حتى بذلوا ... " (٣) .

أما إن قتل أو أسر أو انهزم ، فإن ذلك يفت في أعضادهم ، ويثير حزنهم ، فحين أسر جوسلين "أصيبت النصرانية كافة بأسره ، وعظمت المصيبة عليهم بفقده ، وخلت بلادهم من حاميها ، وثغورهم من حافظها ، وسهل أمرهم على المسلمين من بعده" (٤) . وحين قتل الكندهري " أكثر الفرنج عليه من التعويل عويلا ، وباتوا يندبونه نوحا ، ويذيعون سر تقدمه بوحا ... " (٥) وحين انهزم ملك طرابلس في معركة حطين قبل انتهائها " سقط في أيديهم وكادوا يستسلمون " (٦) .

ولكن تقديرهم للحاكم ، وطاعتهم له لم يكونا مطلقين بلا حدود ، ودون اعتبار للمصلحة العامة ، فحين أسر ابن صاحبة الكرك اشترط عليها صلاح الدين أن تسلّمه الحصن مقابل اخلاء سبيل ابنها ، فعادت الى سكان الحصن وتوسلت اليهم أن يرحلوا عن الحصن لتسلمه الى صلاح الدين ، فكان موقفهم قاسيا معها ، لأنها تجاوزت ما اعتبروه مصلحتهم العامة ، وخرجت عن المعهود في البذل والتضحية ، ولذلك عصوها ونسبوها الى موافقة الاسلام ، يقول العماد :" فلما وصلت قاطعوها ، ودافعوها عن حصونها ومانعوها ، وأغلظوا لها وخالفوها ، حيث ما ألفوها كما ألفوها ، وجنحوا وجمحوا ، واجترأوا عليها واجترحوا ، وعصوها وأقصوها ، وعددوا عليها الذنوب وأحصوها ، وأفحشوا لها في الخطاب ، وأوحشوها بالتنحي عن صوب الصواب ، وسبوها وسبوها ، والى موافقة الاسلام نسبوها " (٧) * .

---

(١) الفتح القسي ٤١٣

(٢) الكامل ١١/ ٥٣٦ ، وانظر الروضتين ٢/ ٨٧ ، ١٩٢

(٣) الروضتين ٢/ ١٩١

(٤) الروضتين ١/ ١/ ١٨٣

(٥) الفتح القسي ٤١٥

(٦) الكامل ١١/ ٥٣٥

(٧) الفتح القسي ٢٠٧

* للمزيد من الأمثلة عن تقدير الحكام أنظر الفتح ١١٠ ، الروضتين ٢/ ١٦١ مذكرات جوانفيل ١٩٠ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤

الحكم الوراثي وحكم المرأة :

لاحظ الادباء بعض مظاهر الحياة السياسية ، ومنها الحكم ، وقرروا أنه كان حكما وراثيا ، لا فرق فيمن يتولاه بين ذكر وأنثى ، وهم في هذا ينطلقون من النظام الاقطاعي ، فقد ولوا أمرهم ولدا مجذوما ، وما كانوا ليولوه لولا النظام الوراثي ، يقول العماد : " لما هلك الملك أماري (سنة ٥٦٩) خلف ولدا مجذوما ، وكان مع الموجود معدوما ، قد أعضل داؤه ، وأيس شفاؤه ، وسقطت أعضاؤه ، وطال بأذاؤه ، فوضع الفرنج التاج على رأسه ، وتمسكوا مع أمراضه بأمراسه ... " (١) .

وما داموا قد ولوا أمرهم ولدا مريضا فلا غرو أن يولوا أمرهم امرأة ، وقد أجاز قانونهم ذلك ، ومارسوه فعليا بشكل لافت للنظر ، يقول العماد : وعادتهم أنه اذا مات ملك ينتقل ملكه الى ولده ، وسواء في هذا الميراث ، بين الذكور والاناث ، ويكون الملك بعد الابن ، اذا لم يخلف ابنا ، للكبرى ، فان توفيت من غير عقب ، كانت للصغرى " (٢) وجاء في الروضتين أن صاحب انطاكية خلف ابنا بعد مقتله ، فتزوجت أمه ببرنس آخر ليدبر الجيش حتى يكبر بوهمند الثالث (٣) .

وقد أحصى أحد الدارسين البيوت التي انتقل عن طريقها الملك ، فذكر أنه عندما تزوج فولك ميليند انتقل العرش الى بيت انجو (١١٣١ ـ ١١٨٦ م) ثم انتقل العرش بزواج ايزابيلا للمرة الثالثة الى بيت مونتفرات (١١٩٠ ـ ١١٩٢) ودى شامبان (١١٩٢ ـ ١١٩٧) ثم عاد العرش الى بيت لوزيجنان (١١٩٧ ـ ١٢٠٥) ثم انتقل بعد ذلك الى بيت بريين (١٢٠٥ ـ ١٢٢٥) ثم أخذ ينتقل العرش بواسطة الاناث الى أن استقر في عام ١٢٦٩ في بيت لوزيجنان (٤) .

وقد كان هذا مثار انتقاد الامبراطور فردريك الذى تأثر بالثقافة الاسلامية فيروى ابن واصل أن الامبراطور سأل الامير فخر الدين عن الخليفة ، ما أصله ، فقال : هو ابن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أخذ الخلافة عن أبيه وأخذها أبوه عن أبيه ... وهكذا ، فقال ما أحسن هذا ، لكن هؤلاء القليلي العقول ـ يعني الفرنج ـ يأخذون رجلا من المزبلة ليس بينه وبين المسيح نسبة ولا سبب ، جاهلا فما يجعلونه خليفة عليهم ؟ (٥)

---

(١) الفتح القسي ٦٧ ، وأنظر ابن جبير ٢٨٢
(٢) الفتح القسي ٤٩٤
(٣) الروضتين ١/١/١٥٢ ـ ١٥٣ وانظر رنسيمان ، الحروب الصليبية ٢/ ٦٦٨
(٤) عبد الحفيظ محمد علي ، الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين ورقة ٣١ رسالة ماجستير القاهرة ١٩٧٥
(٥) مفرج الكروب ٤/ ٢٥١

الخلاف بينهم :

أدى الصراع الى تماسك الصليبيين على اختلاف مشاربهم ، حتى تحققت لهم الانتصارات العظيمة التي أقاموا بها كيانهم السياسي . ولكن هذا الكيان حمل في طياته بذور فنائه ، ومن هذه البذور ، الحكم الوراثي الاقطاعي ، ومنها وجود عدة أجناس وفرق دينية ، ولئن قدمت هذه الفرق جهداً عظيماً في بناء الكيان السياسي للفرنج ، الا انها ظلت تنقسم على نفسها ، وأصبحت فيما بعد دولا داخل دولة ، تعمل كل فرقة دون التنسيق مع غيرها مما سهل القضاء عليها فرقة فرقة (١) .

وقد رصد الادباء بعض الحالات التي وقع الخلاف فيها بين الفرنج أنفسهم ، ومنهم من أشار الى الخلاف فيما بينهم ، فقد ظهر في أول حملة وصلت الى انطاكية ، اذ كان لها تسعة أمراء ، وأراد كل أمير أن تكون المدينة له ، فاختلفوا (٢) .. لكن هذا الخلاف في هذه الفترة كان قليلا ، يتلاشى بسرعة ، ولذلك يقول ابن القلانسي حين اختلفوا وهم على أبواب دمشق : " ونشبت المحاربة وقتل منهم جماعة من غير عادة جارية لهم بذلك (٣) " .

ولما استقرت الأمور ، وامتد الغزو الى مناطق واسعة ، وصل الخلاف بهم الى حد الاستنجاد ، صاحب طرابلس بصلاح الدين . ويصف العماد هذا الخلاف بقوله : " وقد كان بينهم خلاف محتدم ، وخلاف محتكم ، ووقوع نفار بين الانفار ، ووقود شرار بين الشرار " (٤) ثم جاء ملك الالمان ، فخاف الفرنج على ملكهم منه ، فعملوا على اشهار أنفسهم قبل وصوله حتى لا يكون له الملك ، يقول العماد : " كان الفرنج لما صح عندهم وصول ملك الالمان الى البلاد ، وأنه ملأ احشاء البلاد بالوهاد والأوهاد ، قالوا : إنه اذا جاء لا يبقى لنا سلطان ، والصواب أن نشيع لنا قبل شيوع اسمه ... " (٥) ويقول : " وما زال الفرنج في بحر ضعف ، وتنوع بينهم وخلف " (٦) .

وبعد أن احتلوا عكا ، توجهوا الى القدس ، فسبقهم اليها صلاح الدين وحصنها بخرب آبارها القريبة منها ، فلما وصلوا المنطقة اختلفوا في الصعود الى القدس ... (٧)

ثم أقامت الامور زمن قلاوون وابنه حتى تواترت الاخبار بغزو الفرنج بعضهم بعضا ، وأنهم قد بقيت تعصبهم أرضهم ، وأنهم تفانوا بالحروب والملاحم ، وما بقي لهم مزاحم " (٨)

---

(١) الفتح القسي ١٦١ ، وانظر تشريف الايام والعصور ١٧٧ ، ومذكرات جوانفيل ٢٢٦/٢٢٧
(٢) زبدة الحلب ٢/١٣٢ وانظر ص ٢١٥ ، ص ٢٤٧ ، ج ٣/٩٣
(٣) ذيل تاريخ دمشق ٣٣٦
(٤) الفتح ٦٥ وانظر ص ٦٢ والكامل ١١/٢٧ ،
(٥) الفتح القسي ٣٠٤ والروضتين ٢/١٦٠
(٦) الفتح القسي ٣١٣
(٧) النوادر السلطانية ٢١٧ ، وانظر أحمد بيلي المصري / حياة صلاح الدين ١٧٥ ، وانظر الروضتين ٢/١٩٦ (٨) تشريف الايام والعصور ٥٨

أما خلافهم مع الروم ، فيظهر من رسالة كتبها القاضي الفاضل الى الديوان ببغداد سنة ٥٧٨ يخبره بكتاب ورد من مصر بأن المسلمين كسبوا بطشة فرنجية كانت قد خرجت من القسطنطينية " لفتنة وقعت بين روما وفرنجها ، فقتل منهم خمسون ألف فرنجي وأفلتت منهم بطش منها هذه البطشة ، وفيها رجال أكابر ومقدمون لهم ذكر سائر ..."(١)

وقد حدث خلاف آخر بين الروم والفرنج حين حاصروا دمياط ، ثم ما لبث أن عاد الروم ، ففشلت الخطة على مصر ، مما قطع العلاقات بينهم .

وبذلك أمن صلاح الدين من خطرين من جهة الروم : الاول أنه أنه حالفهم وصرف جهده لمقاومة الفرنج ، والثاني : أنهم كانوا يخبرونه بتحركات الفرنج التي كانت تنطلق من القسطنطينية الى بلاد الشام (٢) .

ونلاحظ أن هذا الخلاف كان سببا من أسباب نهايتهم في بلاد الشام ، وثمة أسباب سياسية أخرى للخلاف ، منها أن الفرق الكثيرة التي أنتسب اليها الكيان السياسي جعل بعض الفرنج يميل الى السلم دون اعلام الفرق الاخرى ، مما ساعد على التهيؤ النفسي لترك القتال ، بينما كان المسلمون يقبلون السلم ، ولكنهم يعدون العدة للجهاد والتخلص من الغزاة .

---

(١) الروضتين ٢ / ٣٢

(٢) النوادر ١٢٤ ـ ١٢٦ ، ١٣٢ ـ ١٣٣

الباب الثالث

التقويم الفني

الفصل الأول : الشعر

الفصل الثاني : النثر

موازنة بينهما

الفصل الأول

أدب هـــادف :

يقتصر التقويم الفني للشعر ، على ذلك النوع من الشعر الذي تصدى للأحـــداث التي جرت خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ، وهذا يعني أن نسلط الأضواء على أدب التزم بالدفاع عن وجود الامة الاسلامية ، خلال هجمة عاتية عليها ، وهو بذلك يمثل ظاهرة الشعر الجماعي في الادب العربي على نحو ممتاز ، وذلك لان الشاعر العربي فـــي هذه الفترة ، نفذ من الدائرة الذاتية الضيقة ، الى الدائرة الإسلامية ، عبر الدائـــرة الوطنية ، فهو في مقاومته للمحتلين الصليبيين صور ما فعلوه في البلاد المحتلة من قتل وتشريد وتخريب وتدمير ، وناشد كل مسلم أن يهب للذود عن المحارم ، يقول الأبيوردي :

فأيهاً بني الإسلام إنّ وراءكـــم ... وقائع يلحقن الذُرى بالمناســـم
أتهويمة في ظل أمن وغبطـــة ... وعيش كنوار الخميلة ناعــــم
وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهـم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعـم
يسومهم الروم الهوان وأنتـــمُ ... تجرّون ذيل الخفض فعل المسالـم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى ... تواري حياء حسنها بالمعاصـــم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبى ... وسمر العوالي داميات اللهـــاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ... تظل لها الولدان شيب القـــوادم

الى أن يقول :

أترضى صناديد الأعاريب بالاذى ... وتغضى على ذل كماة الأعاجـــم
فليتهمُ ان لم يذودوا حميـــة ... عن الدين ضنّوا غيْرة بالمحـــارم (١)

ويقول آخر فيما أحدثه الفرنج من مجازر ، مناشدا ذوى البصائر أن يهبوا للتصدي لها :

أمور لو تأملهن طفـــــل ... لطفّل في عوارضه المشيـــب
أتسبى المسلمات بكل ثغـــر ... وعيش المسلمين اذاً يطيـــب
أما لله والإسلام حـــــق ... يدافع عنه شبان وشيـــب؟
فقل لذوى البصائر حيث كانـوا ... أجيبوا الله ـ ويحكمُ ـ أجيبوا (٢)

وهم في انتصارهم ، انما يمثلون انتصار الحق على الباطل ، يقول ابن دنينير في اســـترداد دمياط سنة ٦١٨ هـ :

الله أكبر جاء الحق يقدمـــه ... نصر المليك فلاوان ولا جحـــد
كم موقف لك ليس الله ناسيـــه ... والدين مهتضم ، والملك مضطهـــد

---

(١) الكامل ١٠/٢٨٥ ، نهاية الارب ٥/٢٢٦ ، النجوم الزاهرة ٥/١٥١
(٢) النجوم الزاهرة ٥/١٥١

جلوت وجه العلى فيبدى شطبه ماء المنية في متنهمطـــرد (١)

ويقول العماد في صلاح الدين :

بعودك عاد الحق واتضح الهدى وهب نسيم النصر وانفرج الضغط (٢)

وهو انتصار المكارم والمناقب الحسنة ، يقول ابن القيسراني في عماد الدين زنكي :

نشرت الفضائل بعد الخمــول ألا ربّما نبّهَ الخامـــل (٣)

ويقول ابن الدهان في صلاح الدين :

ولولاك مات الفضل هزلا وأصبحت رياض الاماني ذاويا عوطّـــلا (٤)

وهو طرد للغزاة عن أرض يملكها أصحابها ، يقول ابن سناء الملك في مدح العزيـــز عثمان سنة ٥٩٤ هـ :

الشام للاسلام دار القـــرار وكان من قبل طريق الفـــرار
وكان في ظلمة ليل دجـــت فجاء عثمان معا والنهـــار
وجاءه بالبرء بعد الضـــنى وجاءه بالأمن بعد الحــذار
فيا أمان الكفر لا تأمنـــوا بدار ما الشام لكفر بــدار (٥)

وأخيرا ، هو انتصار التوحيد على من لا يؤمنون بالتوحيد ، يقول ابن سناء الملك فـــي صلاح الدين :

أقمت بها التوحيد لله وحـده وأنسيت فيها الروح والابّ والابنا (٦)

تلك أمثلة سريعة نفذ الشاعر من خلالها الى الدائرة الواسعة في مقاومة الغـــزاة للمشرق الاسلامي .

اما التعبير عن روح الجماعة ، فيظهر في اهتمام الشعراء بقضية الامة المصيريـــة ، والتفافهم حول القادة المسلمين ، لا في منطقة العراق فقط ، بل حيثما كانوا في ديـــار الاسلام (٧) ، اذ راح الشعراء يخففون من أثر الهزيمة حين تقع ويشيعون انبـــاء الانتصارات بطريقة مثيرة ، ويبشرون بالمزيد منها ، بل ، ويرسمون طريقة الخلاص مـــن

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ١٧ (٢) الخريدة ، قسم شعراء مصر ١/ ٢٩
(٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام ١/ ١٠٩ (٤) ديوان ابن الدهان ص ٤٥
(٥) ديوان ابن سناء الملك ص ٢٨٣ (٦) المصدر السابق ص ٧٥٨
(٧) انظر كتاب د . عبد الكريم توفيق العبود ، الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ص ١٣٥ ـ ١٣٩

الاحتلال الاجنبي ، فيدعون للوحدة والجهاد معا ، ويربطون بينهما وبين النصر .

وتظهر الروح الجماعية في استعمال الشعراء لضمير المتكلمين ، ولفخرهم بالقوة الجماعية ، يبرزونها دون تفريق بين الافراد ، يقول ابن عنين :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا	اذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا	من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة	ودينا ، وان كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الصليب ، فأقبلت	جموع كأن الموج كان لهم سفنا
وأطمعهم فينا غرور ، فأرقلوا	الينا سراعا بالجياد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم	بأطرافها حتى استجاروا بنا منا (١)

ويقول ابن القيسراني حين كسر الفرنج على أبواب دمشق سنة ٥٢٣ ، مصورا خطر الفرنج على السكان جميعا ، ودفع صاحب دمشق لهذا الخطر :

حتى اذا ما أحاط المشركون بنا	كالليل يلتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا لا من الاقبال في عدد	يؤود حاسبه الاعياء والسأم
أجريت بحرا من الماذي معتكرا	أمواجه بأواسي اليأس تلتطم (٢)

وقد أضفى هذا الشعور الجماعي على الشعر العربي في تلك الفترة قيمة فنية ، تجلت في القوة اللفظية والمعنوية ، الناتجة عن الانتماء الجماعي ، وذلك بالاضافة الى القيمة التاريخية لما قدمه من تصوير المجتمع الاسلامي وعلاقاته الداخلية والخارجية مع الفرنج خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ، كما أعطى صورة جيدة عن الحياة الاجتماعية والسياسية عند الطرفين المتصارعين .

وهذه القيم لا تعني أن الشعر أو الادب وثيقة اجتماعية أو سياسية أو تاريخية ، وانما هو فن أو رؤية خاصة للاحداث ، يمكن للدارس من خلالها أن يستخلص استنتاجات متعددة ، ويستفيد معلومات قيمة ، وان كانت هذه كلها ملونة بلون شعوري معين ، يخفيه موقف الشاعر من الأحداث التي يواجهها ويتفاعل معها .

شكل القصيدة :

من نافلة القول أن نتحدث عن شكل القصيدة العربية التقليدي : من وقوف على الاطلال أو ذكر المرأة أو ما يتعلق بها من رحيل وبكاء ، ومن نافلة القول كذلك أن نحاول تفسير هذه الظاهرة ، فقد تصدى لتفسيرها القدماء والمحدثون على السواء (٣) .

---

(١) ديوان ابن عنين ٢٩ ـ ٣٠ (٢) الروضتين جـ١ ق ١ ص ١٤١

(٣) انظر على سبيل المثال كتاب د . حسين عطوان : مقدمة القصيدة العربية

وبالرغم عن ثورة بعض الشعراء ، مثل أبي نواس وبشار والمتنبي ، على المقدمات التقليدية ، إلا انهم لم يستطيعوا الاستغناء عنها كلية ... وفي هذا العصر ، نجد ثلاثة أشكال لاستهلال القصائد : أولها : البدء بمقدمات تقليدية ، وثانيها : البدء بمقدمات غير المقدمات التقليدية ، وثالثها : البدء دونما مقدمات ، وسنفصل فيما يلي الحديث عن كل منها ، ثم نتحدث عن اجزاء القصيدة وترابطها :

أولا : المقدمات التقليدية :

لم يقتصر الشعر العربي خلال الحروب الصليبية على وصف الحروب فقط ، وانما قيلت قصائد في سائر أغراض الشعر المعروفة ، وبهمنا من هذه القصائد ما تصدى لوصف الصراع بين المسلمين والفرنج ، أو الشعر الحربي بشكل عام .

ولدى دراسة شعر الحرب ، نجد قصائد معدودات استهلها قائلوها بمقدمات غزلية ، في حين نجد كثيرا من القصائد تدخل في الموضوع مباشرة دون مقدمات ، أو بمقدمات مرتبطة بجو الحرب .

وبما أن القصائد التي تبدأ بمقدمات غزلية قليلة ، فلا بد أن يكون لذلك تفسير ما ، وخير ما نفصل في البحث عن هذا التفسير ، هو أن ندرس جو القصيدة العام والمناسبة التي قيلت فيها ، ولنبدأ هنا بقصيدة لاسامة بن منقذ أرسلها من مصر الى معين الدين أنر حاكم دمشق ، يبيّن له فيها خطورة انقياده الى وزرائه الذين يزينون له التقرب من الفرنج ، يقول :

ولوا ، فلما رجونا عدلهم ظلموا	فليتهم حكموا فينا بما علموا
. . . .	. . . .
يا راكبا تقطع البيداء همته	والعيس تعجز عما تدرك الهمم
بلّغ أميري معين الدين مألكة	من نازح الدار ، لكن وده أمم *
وقل له أنت خير الترك فضلك ال	حياء والدين والاقدام والكرم
. . . .	. . . .
لكن ثقاتك ما زالوا بغشهم	حتى استوت عندك الانوار والظلم
باعوك بالبخس يبغون الغنى ولهم	لو أنهم عدموك ، الويل والعدم
والله ما نصحوا لما استشرتهم	وكلهم ذو هوى في الرأي متهم .. (١)

(*) مألكة : رسالة ، أمم : قريب

(١) ديوان أسامة بن منقذ ص ١٤٦

ويتضح من القصيدة أن الشاعر بعيد عن معين الدين أنر ، فالأول في مصر والثاني في دمشق ، ولذلك جاء النداء التقليدي " ياراكبا " مرتبطا مع نص القصيدة وجو الشام ، فهو يطالب من المسافر الى دمشق عبر صحراء واسعة أن يبلغ صاحبها أمرا بالغ الخطورة ، وهو نصح حاكم دمشق بأن يبتعد عن أولئك النفعيين الذين يحسنون له التفاوض مع الفرنج . وقد عبّر عن خطورة الموضوع وأهميته بعدة أمور منها ، الرحلة من مصر الى دمشق عبر الصحراء الواسعة ، ثم المسافر الجلد ، والعيس القوية ... ومن هنا يحس القارئ أن المقدمة لها دلالة خاصة ، تستثير القارئ الى أهمية ما يأتي بعدها ، وهو :

بلغ أميري معين الدين : مألكة من نازح الدار ، لكن وده أمـــم
هلا أنفت حياء أو محافظـــة من فعل ما أنكرته العرب والعجم
أسلمتنا وسيوف الهند مغمدة ولم يروِّ سنان السمهري دم ...

فهو اخبار للأمير معين الدين أنر برسالة مهمة حملت اليه من مكان بعيد ، وهذا البعد يستبعد معه الحسد والبغض لاولئك المعيابين بالامير ، ولذا ، فالرسالة رسالة ناصح ودود في نفسه تحنان الى وطنه الشام ، ومودة قريبة لصاحبهـا .

وبعد هذا التقديم الموجز البليغ ، يمدح أسامة " معين الدين أنر " ويضفي عليه صفات البطولة والدين والشجاعة والكرم ، ويحمل بطانته مسؤولية تزيين الاعمال السيئة له ، ويتهمهم بأنهم باعوه بالبخس ، لينالوا الغنى من الفرنج على حسابه .

وهاهنا قصيدة أخرى تبدأ بمقدمة غزلية في قصيد لعرقلة الكلبي في مدح مجير الدين أبق صاحب دمشق أيضا ، ومطلعها :

عرج على نجد لعلك منجـــدي بنسيمها ، وبذكر سعدى مسعدي (١)

ونلاحظ أن القصيدة في مدح صاحب دمشق ، والمدح تناسبه المقدمة الغزلية التقليدية ، وكأنها أمر متعارف عليه ، وهذا ما يؤكده أبو الطيب المتنبي في ثورته على هذا النظـام يقول :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل بليغ قال شعرا متيـــم ؟

وبعد أن يبدأ عرقلة بمقدمة يتغزل فيها بأمرأة بدوية في جنان الشام ينتقل في البيت الثاني عشر من القصيدة الى الاشادة بالممدوح ، ويثني على أفعاله التي يحق لفاعلها الفخر حقا ، فقد أبلى في حرب الفرنج ـ الذين قصدوا دمشق بأعداد هائلة ـ بلاء حسنا ، وأظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره " (٢) . يقول عرقلة الكلبي :

ما نشرت راياته يوم الوغـــى الا انطوى جيش العدو المعتـــدي
من قاتل الافرنج دينا غيـــره والنبل مثل السيل عند المشهـــد

---

(١) ديوان عرقلة الكلبي ص ٢٥ ـ ٢٦
(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٢٨

ردّ الامان بكل ندب باســـل ۝ ومن الجياد بكل نهد أجـــرد
ومن السيوف بكل عضب أبيــض ۝ ومن العجاج بكل نقع أســـود
حتى لوى الاسلام تحت لوائــه ۝ وغدا بجند من شريعة أحمــــد
طلق المحيا ، واضح ، متهلل ۝ مثل الصبا في الحمى ، طلق اليد ...

ويتضح مما مضى أن الشاعر لم يجعل موضوع القصيدة هجوم الفرنج على دمشق وبلاء مجير الدين في صدهم ، وانما كان موضوعها المدح ، ومن خلال المدح عرض شجاعته ودفاعه عن الاسلام ، وكرمه ، وبشاشة وجهه ...

ولو كان الموضوع هو الحادثة نفسها لوجدنا الامر يختلف ، ولنا من ابـــن القيسراني مثل على ذلك ، فقد جعل موضوع قصيدته موقعة شبيهة بهذه ، فدخل فـي الموضوع دون مقدمة غزلية ، يقول :

الحق مبتهج ، والسيف مبتسـم ۝ وبال أعدا مجير الدين مقتســم
قدت الجياد ، وجبت البلاد وأبعـدت المعاد ، فأنت الحل والحـرم
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها ۝ معاقد الحزم في أوساطها الحـزم
حتى اذا ما أحاط المشركون بنا ۝ كالليل يلتهم الدنيا له ظلـــم
وأقبلوا لا من من الاقبال في عدد ۝ يؤوده حاسبة الاعياء والســأم
أجريت بحرا من الماذي معتكرا ۝ أمواجه بأواسي البأس تلتطم (١)

ولدى قراءة القصيدتين نحس بالفرق بينهما ، فقد اختلفتا في البناء والموسيقى لاختلاف طريقة التناول عند كل من الشاعرين .

ومن استقرائنا لعدد من القصائد التي قيلت في المدح ، نستطيع القـــول إن معظمها يبدأ بمقدمات غزلية .

ومن هذه القصائد المدحية التي ابتدئت بمقدمة غزلية كذلك القصيدة التاليـــة التي مدح بها ابن القيسراني نور الدين ، فقال في أولها :

يا ليت أن الصدّ مصـــدود ۝ أو لا ، فليت النوم مـــردود
الى متى تعرض عن مغـــرم ۝ في خدّه للدمع أخــــدود
قالوا: عيون البيض بيض الظبى ۝ قلت: ولكن هذه ســـود
يخاف منها وهي في جفنها ۝ والسيف يخشى وهو مغمـود (٢)

وبعد هذه المقدمة القصيرة ، يخرج الشاعر الى المدح ، فيصف نور الدين محمـــودا بالعدل والحفاظ على الاسلام ، والشجاعة في القتال ، ثم يذكر وقعته مع الفرنج في يغرى*

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٤١
(٢) المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٤١
* وهم أبو شامة أنها بصرى .

وكانت الدائرة فيها على الافرنج ، فيقول :

واما الافرنج من بغيهـــا	عاد وقد عاد لهم حسود
قد حصحص الحق فما جاحد	في قلبه بأسك مجحود
فكل مصر بك مستفتح	وكل ثغر بك مسدود

ويلاحظ القارئ لهذه الابيات أن الوقعة جاءت دليلا على شجاعة نور الدين ولم تكن موضوع القصيدة الاساسي .

أما قصائده الحربية التي تكون الوقعة فيها موضوع القصيدة ، فلم يبدأها بمقدمات غزلية ، ولهذا جاءت خالية من المقدمات ، إلا هذه وقصيدة أخرى سنقف عندها بعد قليل ، وقد لاحظ الدكتور محمود ابراهيم ذلك ، وعدّ قصيدته السابقة خروجا عن عادته في الاستغناء عن المقدمات الغزلية في قصائد القتال (١) .

وفي القصيدة التالية لابن القيسراني ، ورد ذكر الوقعة دليلا على شجاعة نور الدين كذلك ، كما في قصيدته السابقة ، بل ذكر الشاعر في هذه القصيدة عدة وقعات ، لا وقعة واحدة ، وقد جاء في مقدمة القصيدة قوله :

اما وخيال زار من أحبه	لقد هاج من ذكراه مالا أغبه
اذا ما صبا قلب المحب الى الصبا	ذكرت نسيما بالثغور مهبه
فيا نفحات الشام رفقا بمهجة	يحامي عليها مدنف القلب صبه
فلا تسألن الصب : أين فؤاده	فان فؤاد المرء مع من يحبه
وفي شعب الاكوار من هو عالم	غداة استطار البرق من طار لبه
يشيم ثغور المزن تهمي كأنها	سنا بشر نور الدين تنهل سحبه

ثم يتخلص الى مدح نور الدين بالكرم وجودة الرأي ، والحفاظ على الاسلام ، ويقدم الادلة على ذلك ، فيقول :

كيوم الرها الوسماء والها يانسي	على برعي الهند واني خصبه
وشهباء هاجتها وفي صرخديسة	ثناها ، وليل الحرب ينقض شهبه
وحارم يوما بالهريمة فانتسدت	كوادى ثمود اذ رغا فيه سقبه
وعاصي على العاصي بأرعن حاطب	دم الافك حتى انكم النصل خطبه
بأنب لما اكسب النال وانثنى	بصاحب انطاكية وهو كسبه .. (٢) .. الخ

ويستمر في ذكر الادلة على شجاعته وما قبله بالاعداء ، وكلها ترتبط بشخصية القائد نور الدين الذي يستحق الثناء فعلا .

---

(١) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ص ١٠٧

(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٨٨

ويداول بنا المقام لو حللنا بقية القصائد التي تبدأ بمقدمات غزلية ، ولذلك نذكر مطالعها وموضوعاتها ، للاحاطة بها ثم مقارنة عددها بصورة تقريبية بعدد القصائد الحربية التي يمكن أخذ صورة عامة عنها من مطالعة الملحق الشعرى .

يقول ابن رواحة الحموى ، وهو من شعراء الشام في مدح صلاح الدين بعد أن رد الفرنج عن دمياط ثم الاسكندرية سنة ٥٧٢ :

أقمت الموت لي رصدا فأخشى زيارته وان يك لم يزرني
كما رصد العدى في كل يوم صلاح الدين في سهل وحزن
يرون خياله كالطيف يسرى فلو هجعوا أتاهم بعد وهن
أبادهم تخوفه فأمسى منامهم ، لو يبيتهم بأمن (١)

ونلاحظ من هذه الابيات حسن تخلصه ويسر انتقاله .

وارسل ابن التعاويذي قصيدة الى صلاح الدين من بغداد يمدحه فيها ، ويهنئه بانتصاره على الفرنج في وقعة مرج عيون مطلعها :

إن كان دينك في الصبابة ديني فقف المطي برملتي يبرين

ومقدمتها الغزلية طويلة ، ينتقل بعدها الى الوقعة ، فيقول :

كمنوا وكم لك من كمين ، صادق في الغيب تظهر من وراء كمين (٢)

ولعل بعد الشاعر عن الحادثة مكانيا وزمانيا جعله ينهج هذا المنهج .

ولما انتهى صلاح الدين من بعض العمليات العسكرية في منطقة انطاكية ، رجع الى حماة ومنها الى حمص ، فأتاه الفقيه مهذب الدين عبد الله بن أسعد الموصلي ، وأنشده :

أما وجفونك المرضى الصحاح وسكر مقلتيك وأنت صاحي
لقد أصبحت في المشاق فردا كما أصبحت فردا في الملاح

ثم يذكر اخضاعه للفرنج ، فيقول :

وما خضع الفرنج لديك حتى رأوا مالا يطاق من الكفاح (٣)

وقد مدح العماد الاصفهاني الامير تقي الدين عمر سنة ٥٨٢ بقصيدة مطلعها :

عفا الله عنك ، عن ذوى الشوق نفسوا فقد تلفت منا قلوب وأنفس (٤)

ثم يذكر ذهابه الى تونس ، ووقوفه في وجه الفرنج من هناك ، ثم يتمنى عليه أن يفتح القدس ويطهر البلاد من الرجس .

وقال في مدح حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين (ابن أخت صلاح الدين) يوم فتح القدس :

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا وأظلم اليوم مذ بنتم فما شمسا (٥)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ١/ ٤٩٢ (٢) الروضتين ٢/ ١٠
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٦ـ١٧ (٤) المصدر السابق ٢/ ٧١
(٥) المصدر السابق ٢/ ٨٨

وهنأ السلطان صلاح الدين بفتوحاته ، فقال :

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسـا — وتعتاض من ذكراكمُ وحشتي أنسا (١)

ومن الشعراء الذين استهلوا قصائدهم الحربية بمقدمات غزلية ابن دنينير ، ففي ديوانه عشر قصائد حربية ، ذكر بعضها نور انتهاء المعركة ، فتخلصت من المقدمات ، وقال ستة منها في مدح بعض الحكام والقادة تابتدأت بمقدمات تقليدية .

أما الاولى فهي في العزيز عثمان بن صلاح الدين سنة ٥٩٤ وهي من شعره في الصبا ، ومطلعها :

إن كان أضمر قلبي عنك سلوانـا — لا كنت من مغرمٍ صبٍّ ولا كانـا (٢)

والثانية في الأمير أسد الدين أحمد بن عبد الله المهراني ، ومطلعها :

راح يخشى في حبه الرقبـاء — ويسر الغرام والبرحـاء (٣)

والثالثة في مظفر الدين كوكبرى بن علي بن بكتكين ، ومطلعها :

أشاقتك من أطلال ليلى معالـم — فأبدت شؤون الدمع ما أنت كاتم (٤)

والرابعة في الملك الناصر قلج أرسلان بن الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه الأيوبي ومطلعها :

بما بجفنيك من غنج ومن كحـل — صل مغرما ليس يصغي فيك للعذل (٥)

والخامسة في الملك الكامل بن العادل ، ومطلعها :

لهم حب قلبي ان تدانوا وان صدوا — وان قربوا أو حال دونهم البعد (٦)

والسادسة في الاشرف موسى عند منصرفه من الجزيرة الى الشام ثم الى مصر ، ومطلعها :

أرأيت ما صنعت لحاظ الغيـد — ما بين منعرج اللوى فزرود ؟ (٧)

ومن هؤلاء الشعراء : ابن سناء الملك (٨) ، وفتيان الشاغوري (٩) ، ومهذب الدين سالم بن سعادة (١٠)

* * *

(١) الروضتين ١٠١/٢
(٢) ديوان ابن دنينير ورقة ٣٨
(٣) المصدر السابق ورقة ١٢٢
(٤) المصدر السابق ورقة ٥٦
(٥) المصدر السابق ورقة ٢٤
(٦) المصدر السابق ورقة ١
(٧) المصدر السابق ورقة ٢٠
(٨) انظر ديوانه ص : ٢٥٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧٨ ، ٥٦١ ، ٥٤٥ ، ٧٥٨
(٩) انظر ديوانه ص : ١٤٨ ، ٢٥٧
(١٠) انظر تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ جـ ٢ ص ١٥٧

المقدمات التي تخلصت من الغزل :

تلك هي المقدمات التقليدية في القصائد الحربية ، وهي وان بدت كثيرة (اذ بلغت خمسا وعشرين قصيدة) ، فانها تقل بكثير عن عدد القصائد التي تخلصت من المقدمات التقليدية .

وأما سبب تخلص الشعراء من هذه المقدمات التقليدية بأنواعها ، فلأنهم وصفوا أحداثا مهمة في جو حرارة تلك الاحداث ، فلم يشعروا بالحاجة الى التقديم لها ، لأن هذا التقديم من شأنه أن يضيع حرارة الانفعال ، ويبدد الاندفاع الشعوري ، ولهذا تعدد تبدايات هذه القصائد عند الشاعر الواحد ، وعند الشعراء المختلفين على السواء .

ولنأخذ مثالا على هذه القصائد ، قصيدة أبي المظفر الابيوردي ، التي قالها اثر سقوط القدس بيد الفرنجة سنة ٤٩٢ ، وفيها يتفجع ، ويقرع ، ويدعو الى الاستيقاظ ، ويأمل في الانتقام من المعتدين ، يقول :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... اذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فايها بني الاسلام ، ان وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
أتهويمة في ظل أمن وغبطة ... وعيش كنوار الخميلة ناعم ؟
واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعم (١)

وهكذا تمضي بقية القصيدة : انفعالات متأججة صادرة عن نفس متحرقة متحسرة تعتب على الضياع ، وتدعو الى دفع الاضطرار قبل تفاقمها ، ولذا جاءت القصيدة في موضوع واحد ، وابتدأت باستهلال حزين مؤثر ، يعبر عن مشاعر أمة أضعفتها الخلافات وأوهنها التمزق .

ولعل القصيدة الثانية التي لم يذكر اسم قائلها ، تعبر عن مثل هذه العواطف ، وقد جاء فيها :

أحل الكفر بالاسلام ضيما ... يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح ... وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليبا ... ومسلمة لها حرم سليب

الى أن يقول :

أتسبى المسلمات بكل ثغر ... وعيش المسلمين اذن يطيب
أما لله والاسلام حق ... يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا ... أجيبوا الله ويحكم أجيبوا (٢)

---

(١) نهاية الارب ٥/ ٢٢٦ ، الكامل ١٠/ ٢٨٥ ، النجوم الزاهرة ٥/ ١٥١

(٢) النجوم الزاهرة ٥/ ١٥١

ولم يكن هذا الحزن والبكاء مرتبطا ببداية المد الصليبي فقط ، إذ إنه بعد أن انفرط عقد الدولة الايوبية ، وتحارب الاخوة ، واستنجد بعضهم بالفرنج مقابل التنازل عن القدس ، فعادت رنة الحزن والالم ، كما كانت أو أشد ، لأن من الصعب على الانسان أن يتحمل الضياع والهزيمة بعد القوة والنصر ، ولذلك كانت قصيدة ابن المجاور في تسليم القدس زمن الملك الكامل الايوبي ، أشد وقعا وتأثيرا على النفس من القصائد التي قيلت بعد سقوط القدس بيد الفرنج للمرة الاولى ، يقول ابن المجاور :

أعينيّ لا ترقيْ من العبــــــرات   صلي في البكا الآصال بالبكــــرات
لعل سيول الدمع يطفئ فيضهــــا   توقد ما في القلب من جمـــرات
ويا قلب أسعر نار وجدك كلمــــا   خبت بادكار يبعث الحســـرات
ويا فم بح بالشجو منك لملمـــه   يروح ما ألقى من الكربـــات
على المسجد الاقصى الذى جل قدره   على موطن الاخبات والصلـوات (١)

وتستمر القصيدة في هذا التدفق العاطفي الحار ، الصادر عن نفس متألمة حزينـــة

وفي غمرة الاحزان والضياع ، في بداية الحروب ، وقف بعض الامراء في الثغـــور موقفا مشرفا ، ومنهم الامير مجد الدين عضب الدولة زعيم الجيوش في دمشق ، كما وقـف الادب مع هؤلاء يحضهم ، ويقوى من عزيمتهم ، فهذا ابن الخياط يحرض الامير المذكور على الجهاد ، فيقول في مطلع قصيدته :

تدتك الصواهل قبا وجـــــردا   وشم القبائل شيبا ومـــــردا
وذلت لاسيافك البيض قضبــــا   ودانت لأرماحك السمر ملــــدا
وقل لمن قام في ذا الزمـــان   مقامك أن بات بالخلق يفــدى
ألست أبر البرايا يــــدا   وأندى من المزن كفا وأجـــدى
وأمضى حساما وأوفى ذمامــــا   وأهمى غماما اذا الغيث أكدى (٢)

والمتتبع لنص القصيدة يلاحظ أن موضوعها واحد ، وهو في استعراض أحـــوال المسلمين على ضوء الخطر الصليبي ، وتحريض البطل كي يقف في وجه الغزاة ، ولذا جاء مطلع القصيدة حماسيا في معانيه وألفاظه وموسيقاه ، ثم أخذت النبرات الحماسية تتحـول الى تعداد صفات القائد ، وما لبثت أن عادت مرة ثانية حين نبه الشاعر الى الاخطـار المحدقة بالمسلمين ، واستحثهم على العمل ، وحرضهم على الجهاد .

وقد وفق الشعراء باستهلال القصائد الحربية بما يتفق والجو الحربي الحماسي ، وقد اختلفت المقدمات من قصيدة الى اخرى ، ومن شاعر الى آخر ، ولكن ذلك لا ينفـي أن يكون لهذه المقدمات صفات مشتركة تلتقي عندها ، ومن هذه الصفات ابتداؤها بضمير الشأن ، وهو من الضمائر التي تفيد التفخيم الذى يتناسب والجو الحماســـي .

---

(١) الروضتين ٢/ ٢٠٥
(٢) ديوان ابن الخياط ١٨٢ ـــ ١٨٤

ومن ذلك قول أمية بن أبي الصلت في الافضل مقدم الجيش المصري :

هي العزائم من أنصارها القـدر — وهي الكتائب من أشياعها الظفـر
جردت للدين والاسياف متمدة — سيفا تفل به الاحداث والغيـر
وقمت اذ قعد الاملاك كلهـم — تذب عنه وتحميه وتنتصـر
بالبيض يسقط فوق البيض أنجمها — والسمر تحت ظلال النقع تشتجر (١)

ومنه أيضا قول ابن القيسراني في فتح الرها سنة ٥٣٩ هـ :

هو السيف لا يغنيك الا جـلاده — وهل طوق الاملاك الا نجـاده
ومن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبي — سناها وان فاتت العيون اتقـاده
سمت قبة الاسلام فخرا بطوله — ولم يك يسمو الدين لولا عماده (٢)

وقد يبتدأوها بأسماء الاشارة : وهي تفيد جلب الانتباه لامر جليل ، ومن ذلك قول ابن القيسراني في انتصار نور الدين على الفرنج في مناقة انطاكية :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب — وذي المكارم لا ما قالت الكتـب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت — تعثرت خلفها الاشعار والخطب (٣)

وقول الرشيد بن بدر النابلسي في فتح القدس :

هذا الذي كانت الآمال تنتظـر — فليوف لله أقوام بما نـذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت — في سالف الدهر أخبار ولا سير (٤)

وقد يبتدأوها بأدوات الاستفتاح والتنبيه والتساؤل ، وهي تفيد ما تفيده اسماء الاشارة من جلب الانتباه لامور ذات خطر ، يقول طلائع بن رزيك مفتخرا بأعماله ضد الفرنج ومحرضا نور الدين على قتالهم :

ألا هكذا في الله تمضي العزائـم — وتمضي لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستنزل الاعداء من طود عزهـم — وليس سوى سمر الرماح سلالـم
وتغزى جيوش الكفر في عقر دارها — ويوطا حماها والانوف رواغـم
ويلقى الكرام الناذرون بنذرهـم — وان بذلت فيها النفوس الكرائـم (٥)

ويقول ابن القيسراني في فتح الرها :

أما آن ان يزهق الباطـل — وأن ينجز العدة الماطـل
الى كم يغب طول الصـلا — ل سيف بأعناقها كافـل
فلا تحفلن بصوت الذبـا — ب ، وقد زأر الاسد الباسل (٦)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ١/ ١٦٥ (٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٩٧
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٢ ، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٢٦
(٤) " نفسه ٢/ ١١٨
(٥) ديوان طلائع بن رزيك ١٢٥ ، والروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٨٩
(٦) الخريدة ، قسم شعراء الشام ١/ ١٠٨ ، والروضتين ج ١ ق ١ ص ١٢٦

ويقول ابن دنينير في تخليص دمياط من الفرنج بعد اجتماع الجيوش الشامية والمصرية بقيادة الاخوة ابناء العادل ورئاسة الكامل :

ها قد بلغت الذى قد كان ينتظـر ... الله أكبر هذا النصر والظفـــر
قد صرح الخبر منك اليوم عن خبـر ... قد كان أنظار فيه نفسه النظـر (١)

وقد يكون التساؤل لعظم النصر ، الذى يبهر العقول ، ويأخذ النفوس ، ويبعث الحيرة في النفس ، حتى ليتحير الشاعر ، وهو يتلمس الشيء الذى ينبغي أن يهنىء به ، يقول الجواني :

أترى مناما ما بعيني أبصــر ... القدس تفتح والفرنجة تكسـر؟
وقمامة قمّت من الرجس الــذي ... بزواله وزوالها يتطهــر
ومليكهم في القيد مصفود ولـم ... ير قبل ذاك لهم مليك يؤسـر
قد جاء نصر الله والفتح الـذي ... وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشام وطهر القدس الـذي ... هو في القيامة للأنام المحشـر (٢)

ويحس المرء حين قراءة الابيات أنها تعبر عن فرحة غامرة استولت على المشاعر والالباب ، فجاءت الحيرة ممزوجة بالفرحة ، ومعبرة عن هذا الشعور الدافق ، يقول ابن سناء الملك مخاطبا صلاح الدين بعد الفتوحات الكبرى :

لست أدرى بأى فتح تهنـى ... يا منيل الاسلام ما قد تمنـى
كل فتح يقول اني أولـى ... وهو أولى لانه كان أهنـى
أنهنيك اذ تملكت شامـا ... أم نهنيك اذ تملكت عدنـا ؟ (٣)

ومنها ابتداؤها ب "كم " الخبرية ، وقد قصد بها التكثير ، وذلك للمبالغة في عدد الضربات التي أنزلها القادة المسلمون بالفرنج ، يقول العماد في هزيمة الفرنج على أبواب دمشق على يد نور الدين :

كم وقعة لك في الفرنج حديثهـا ... قد سار في الافاق والبلـدان
....
قمصت قومصهم رداء مـن ردى ... وقرنت رأس برنسهم بسنـان
وملكت رق ملوكهم وتركتهـم ... بالذل في الاقياد والاشجـان (٤)

ويقول ابن عبد الظاهر في فتح حصن المرقب زمن المنصور قلاوون :

كم لك فتح غير هذا خبـي ... فاستوف فتح الارض واستوعـب

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ١٤
(٢) الروضتين ٢/١٠٥
(٣) ديوان ابن سناء الملك ٨١٤
(٤) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ص ٥٥

يا فاتح الحصن الذى نفعه … يأتي به شكرك من يشرب
حصن عظيم القدر في سيرة … لمن مضى قبلك لم يكتب (١)

ويقول شهاب الدين محمود في فتح الحصن المذكور :

كم رام قبلك هذا الحصن من ملك … فطال عنه وما في باعه قصر
فزّ الاعادى حلم تحته همم … لا شفر البرق من تجحيلها غرر
أوردتها الرقب العالي وليس سوى … ماء المجرة في أرجائها نهر (٢)

ومنها ابتداؤها بالاستهزاء والتشفي ، والمستهزئ يكون عادة في مركز القوة ، حتى يستطيع أن يهزأ بالعدو ويزري بقوته ، وهذا من مستلزمات الحرب النفسية ، التي كانت وما تزال ترافق حرب السلاح ، يقول ابن منير في انتصار نور الدين على الفرنج في حصن فامية :

خنس الثعالب حين زمجر مصحر … ملأ البلاد همائما وزئيرا
تركوا مشاجرة الرماح لحاذق … جعلت مخافته القصور قبورا
لربيب حرب لم تزل فلاته … كالراء يلزم لفظها التكريرا (٣)

ويقول ابن مطروح في كسرة ملك فرنسا على دمياط :

قل للفرنسيس اذا جئته … مقال صدق من قؤول نصيح
آجرك الله على ما مضى … من قتل عباد يسوع المسيح
قد جئت مصرا تبتغي أخذها … تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين الى أدهم … ضاق به عن ناظريك الفسيح (٤)

ومن التشفي قول العماد في ملك الفرنج :

في باطن الغيب ما لا تدرك الفكر … فذو البصيرة في الأحداث يعتبر
مالي أرى ملك الافرنج في قفص … أين القواضب والعسالة السمر ؟ (٥)

ومنها ابتداؤها بذكر السلاح وأدوات القتال : وهي مرتبطة بجو المعركة أشد ارتباط ، لانها عنصر أساسي من عناصر القوة في الحرب ، كما أنها تثير مكامن القوة عند تصورها ، وادراك مفعولها . يقول ابن القيسراني في هزيمة الفرنج امام نور الدين فيغرا :

تفي بضمانها البيض الحداد … وتقضي دينها السمر الصعاد
وتدرك ثأرها من كل باغ … فوارس من عزائمها الجلاد (٦)

---

(١) تشريف الايام والعصور ٨٢
(٢) ابن حبيب ، درة الاسلاك في دولة الاتراك ورقة ١٢٥ ، وانظر مثلا آخر من ديوان علم الدين ابن محمد الصحيوى ص ١٥
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٦٢
(٤) ديوان ابن مطروح ١٨١
(٥) الروضتين ٢ / ١١٦
(٦) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٦

ويقول ابن منير في هزيمة الفرنج في حصن فامية على يد نور الدين :

أسنى الممالك ما أطلت منارها ... وجعلت مرهفة الشفار دثارها (١)

ويقول ابن أسعد الموصلي في مباغتة الفرنج للمسلمين قرب حصن الاكراد ، وسيطرتهم على الموقف ، واصرار نور الدين على الأخذ بالثأر :

ذابى المواضي وأطراف القنا الذبل ... ضوا من لك ما حازوه من نفل
وكافل لك كاف ما تحاوله ... عز وعزم وبأس غير منتحل (٢)

ونلاحظ أن هذه القصيدة في معركة خسرها المسلمون ، ومع ذلك فهي تتفجر قوة ، لان الشاعر يتهدد هؤلاء المنتصرين ويتوعدهم في يوم قريب ، فنور الدين لن ينام عن ثأر ، وقد حقق ثأره من الفرنج فعلا ، اذ هاجمهم بعد وصول الامدادات اليه ، وانتصر عليهم ، فعقب العماد على هذه القصيدة بقوله : " وهذا أحسن ما سمعته من مدح من كسر وعذر ، ولقد وافق العذر ما ذكر ، وانتصف بعد ذلك وانتصر " (٣)

ويقول ابن عنين في هزيمة الفرنج على دمياط سنة ٦١٨ :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا ... اذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا ... من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا (٤)

ومنها ابتداؤها بالدعوة الى الوحدة والجهاد : ويتطلب ذلك قوة في التعبير ، وقدرة على التأثير ، اذ ان الصياغة الفنية هي التي تكسب الكلام سمات القوة والتأثير ، ومن ذلك طلب المهذب بن الزبير من طلائع بن رزيك أن يعمل للجهاد بالتعاون مع نور الدين ، يقول :

أعلمت حين تجاور الحيان ... أن القلوب مواقد النيران
يا كاسر الاصنام ، قم فانهض بنا ... حتى تصير مكسر الصلبان
فالشام ملكك قد ورثت بلاده ... عن قومك الماضين من غسان
واذا شككت بأنها أوطانهم ... قدما ، فسل عن حارث الجولان

الى أن يقول :

وأعد ترسل ابن القسيم اليه في ... شعبان كي يتلاءم الشعبان
والفأل يشهد في اسمه أنه سوف يغدو الشام وهو عليكما قسمان (٥)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٦٠
(٢) الخريدة ، قسم شعراء الشام ٢٨٩/٢ ، الروضتين ج ١ ق ١ ص ٣٢٠
(٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام ٢٨٩/٢
(٤) ديوان ابن عنين ص ٣٠
(٥) الروضتين ١٤٧/١

ومنه أيضا ، تحريض ابن دنينير لامراء العسكر والاجناد على القتال عقيب هزيمتهم عن دمياط ، وقد وصل الملك المعظم عيسى من دمشق لنجدة أخيه الكامل محمد ، يقول ابن دنينير :

أقيموا عمود الدين لله تسعدوا ... فقد جاءكم عيسى وهذا محمد
فريق الهدى ، والله يظهر دينه ... على دين من قد أشركوا وتمردوا

ثم يقول :

فلا تجزعوا من حادث جاء قادحا ... فذا الدين للرحمن في نصره يد
فشنوا لدين الكفر غارات معشر ... لهم في الهدى فرع زكي ومحتد
وشبوا لهم نار الجهاد فانكم ... متى تتركوها آن للنار تخمد (١)

ومما يدخل في هذا كذلك ، ابتداء القصائد بالتحذير والتهديد ، كقول ابن القيسراني :

حذارِ منا ، وأنى ينفع الحذر ... وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملك ... من خيله النصر ، لا بل جنده القدر (٢)

ويلاحظ القارئ لهذه القصيدة الحرارة الوجدانية الشديدة ، وتزاحم الانفعالات فيها ، وامتزاج التحذير بالتهديد ، والاستحثاث والفخر ... ومنها ابتداؤها بذكر نتيجة المعركة ، أو باستبشار الشعراء بالنتيجة التي يتمنونها ، وبيان أن النصر لا يحقق بيسر وسهولة ، وانما يحتاج الى جهد كبير ، والى صبر وعمل ، اضافة الى ارتقاب عون الله لمن يجاهدون في سبيله . يقول العماد في امتلاك أسد الدين شيركوه مصر وطرد الفرنج عنها :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب ... كم راحة جنيت من دوحة التعب
هذى العلى التي تزهى الملوك بها ... وهي المآثر لا المأثور في الكتب
فتحت مصر ، وأرجو أن تصير بها ... ميسرا فتح بيت القدس عن كثب (٣)

وفي زمن قلاوون ، قال بدر الدين المنبجي البزاز في فتح طرابلس :

أدركت بالجد أقصى غاية الطلب ... ونلت بالجد أعلى منتهى الرتب
أبا المظفر لا زالت مظفرة ... منك الجيوش على الاعداء بالرعب
فالله جارك أنى سرت من ملك ... وناصر لك من ناء ومقترب (٤)

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ٤
(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٨
(٣) الروضتين ١٥٩/١ ، تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ١ ص ٤٥
(٤) عقد الجمان ج ٢٠ ق ٤ ص ٣٦٦

وقد قرن الشعراء في شعرهم الجد الانساني بالعون الالهي ، وافتتحوا بعض قصائدهم بهذا المعنى ، يقول الجويني في فتح القدس :

لك رب السماء خير معيـــــن وكفاه بما تحب ضمـــــين
فلـه الحمد أي نصر عزيـــز قد حبانا به وفتح مبـــين (١)

ويقول أيضا :

جند السماء لهذا الملك أعوان من شك فيهم فهذا الفتح برهان (٢)

ويقول ابن عبد الظاهر في معركة حمص التي دارت بين المسلمين بقيادة المنصور قلاوون من جهة وبين الفرنج والتتار من جهة أخرى :

الله أعطاك لا زيد ولا عمـــرو هذا العطاء وهذا الفتح والنصر
هذا المقام الذى لو لم تحل به لم يبق ، والله ، لا شام ولا مصر (٣)

وقد بدأ بعض الشعراء قصائدهم بالحديث عن النصر بلفظه المباشر، ومن هؤلاء ابن دنينير اذ يقول في استرداد دمياط :

نصر من الله واتانا به الخبـــر فلتهنك العزة القعساء والظفر (٤)

ويقول علم الدين بن الشاتاني في صلاح الدين :

أرى النصر معقودا برايتك الصفرا نسر واملك الدنيا فأنت بها أحرى
يمينك فيها اليمن ، ويسراك في اليسرى فبشرى لمن يرجو الندى بهما بشرى (٥)

وقد حمد بعض الشعراء في مقدماتهم القادة ، وبينوا للناس أن طاعتهم واجبـــة ، لانهم دافعوا عنهم ، وعن معتقداتهم ، يقول شهاب الدين محمود في المنصور قلاوون حين فتح طرابلس :

علينا لمن أولاك نعمته الشكـــر لأنك للاسلام يأسيفه ذخـــر
ومنا لك الاخلاص في صالح الدعا الى من له في أمر نصرتك الامـــر
ولله في اعلاء ملكك في الـــورى مراد وفي التأييد يوم الوغى ســـر
نهضت الى عليا طرابلس الـــتي أقل عناها أن خندقها البحـــر (٦)

---

(١) الروضتين جـ٢ ص ٩
(٢) المصدر السابق ٢ / ١٠٤
(٣) عقد الجمان جـ ٢٠ ق ٤ ص ٦٧٧
(٤) ديوان ابن دنينير ورقة ٢١
(٥) مرآة الجنان ٣ / ٤٩٦
(٦) درة الاسلاك ورقة ١٤٥ ، النجوم الزاهرة ٧ / ٣٢٣ ــ ٣٢٤

ومنها المقارنة بين حالة المسلمين وحالة الفرنج ، ويكون ذلك عادة حين تكون كفة المسلمين هي الراجحة ، وهذا يجعل المقدمة مرتبطة بموضوع القصيدة .

يقول ابن القيسراني في كسرة الفرنج على أبواب دمشـــق :

الحق مبتهج والسيف مبتسـم ... ومال أعدا مجير الدين مقتسـم
قدت الجياد ، وحصنت البلاد وأمضـت المهاد فأنت الحل والحـرم
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها ... معاقد الحزم في أوساطها الحزم (١)

ويقول ابن منير في انتصار نور الدين على صاحب انطاكية :

أقوى الضلال وأقفرت عرصاتـه ... وعلا الهدى وتبلجت قسماتـه
وانتاش دين محمد محمـوده ... من بعد ما غلبت دما عبراتـه (٢)

ويقول ابن سناء الملك في صلاح الدين :

بدولة الترك عزت دولة العـرب ... وابن أيوب ذلت بيعة الصلب (٣)

ومنها التهنئة والدعاء : وهو نوع من أنواع المقدمات التي ترتبط بالموضوع ارتباطا وثيقا ، فكان الشعراء يقدمون التهنئة بعد انجلاء الحرب عن النصر ، بأسلوب يختلف عن تقديمهم لقصيدة في ذكر الاحداث الحربية . ومن هذا الاختلاف ، نجد قوة التعبير ماثلة في القصيدة ، وهذا أمر طبيعي ، لان التهنئة مرتبطة بالنصر ، والنصر يحمل معاني القوة ، يقول الامير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان المراقي في تهنئة صلاح الدين بالنصر على الفرنج في بيت الاحزان :

هنيئا صلاح الدين بالفتح والنصر ... ونيل الاماني الغر والفتكة البكـر
وما حزت فيها من فخار ومن عـلا ... وحسن ثناء يبقى الى آخر الدهـر
سموت لها بالمشرفية والقنـا ... سمو أبيّ لا ينام على وتـر (٤)

وقد افتتح راجح الحلي قصيدته باللفظة نفسها ، والتي ابتدأ بها ابن نبهان المراقي ، وذلك حين انتصر الملك الاشرف موسى ، وأخوته على الفرنج في دمياط ، ولعل جو الفرح أملى عليه كما أملى على سابقه هذه المقدمة ، يقول :

هنيئا ، فان السعد راح مخلـدا ... وقد انجز الرحمن بالنصر موعـدا
حبانا اله الخلق فتحا بدا لنـا ... مبينا ، وانعاما وعزا مؤيـدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبـه ... وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا (٥)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤١ ... (٢) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٥٦
(٣) الروضتين ٢ / ٤٣ ... (٤) المصدر السابق ٢ / ١٢
(٥) الذيل على الروضتين ١٣٠ ، البداية والنهاية ١٣ / ٩٥ ، النجوم الزاهرة ٦ / ٢٤١

وما يتصل بهذا الجانب البدء بالبشرى ، يقول شرف الدين الانصارى مبشرا الملك المظفر تقي الدين بن المنصور صاحب حماة بانتصاره على الفرنج في منطقة حصن الاكراد :

أبشر بما شئت من نصر وتأييد ... نسناك يروى حديث البأس والجود (١)

وهناك صور أخرى ابتدأ بها الشعراء قصائدهم بمقدمات تتفق مع موضوع القصيدة الحربي كأن تبدأ بالتكبير أو بالجمل الاخبارية القوية الالفاظ ، ومن ذلك قول العماد في فتوح صلاح الدين :

أسباط يوسف من مصر أتوا ولهم ... من غير تيه بها سلوى وامتنان
لهم فلسطين هان يخرج عداتهم ... عنها والا عدت بيض وخرصان (٢)

ومنه قول شهاب الدين محمود في فتح حصن المرقب :

الله أكبر ، هذا النصر والظفر ... هذا هو الفتح لا ما تزعم السير
هذا الذى كانت الامال ان طمحت ... الى الكواكب ترجوه وتنتظر
فانهض ، وسر ، والملك الدنيا فقد نحلت شوقا منابرها وارتاحت السور (٣)

وأما الجمل الخبرية القوية ، التي بدأت بها القصائد الحربية فهي كثيرة منها قول ابن قسيم الحموى في عماد الدين زنكي :

بعزمك أيها الملك العظيم ... تذل لك الصعاب وتستقيم
اذا خطرت سيوفك في نفوس ... فأول ما يفارقها الجسوم (٤)

ومنها قول أسامة بن منقذ الموجه الى طلائع بن رزيك على لسان نور الدين :

أبى الله الا أن يكون لنا الامر ... لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصر
وتخدمنا الايام فيما نرومه ... وينقاد طوعا في أزمتنا الدهر (٥)

وقد يقول قائل : إن هذه القصائد قد خلت من المقدمات الغزلية ، ومع ذلك فان فيها مدحا للقائد ، وهذا صحيح ، ولكن المدقق في موضوع القصيدة يجد أن موضوعها يدور حول حادثة أو حوادث ، بطلها القائد الممدوح فهو عنصر هام فيها ، ولكن الحادثة هي محور القصيدة ، بينما لاحظنا في القصائد ذات المقدمات التقليدية أن القائد هو موضوع القصيدة ، والحادثة أو الحوادث فيها إنما أوردت باعتبارها أدلة على شجاعته .

---

(١) ديوان الصاحب شرف الدين الانصارى ص ١٧٨
(٢) الروضتين ٢/١١٦ (٣) النجوم الزاهرة ٧/٢١٧ ـ ٢١٨
(٤) خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ١/٤٧٠ ، والروضتين ١/٢٢
(٥) ديوان أسامة بن منقذ ٢٠١

ثالثاً : المقطعات الشعرية :

تدور المقطعات الشعرية حول حادثة واحدة ، وموضوع واحد ، وقد تستوعب عشرة أبيات أو أقل ، أو أكثر من ذلك بقليل . ولهذه المقطوعات دلالات خاصة بها ، اذ ان الوقت الذي نظمت فيه لا يسمح بإنشاء قصيدة طويلة ، فتكون المقطوعة الشعرية كالخاطرة أو كالدفقة الشعورية الحارة ، لان موضوعها واحد مثير ، والاستثارة تتباين أشكالها بتباين الموضوعات ، فالحزن غير الفرح ، والفرح غير المدح ... وهكذا .

وفيما يلي أمثلة منوعة على المقطعات الشعرية ، حسب نوع الانفعال المضمن فيها :

١ . سجلت المقطعات الشعرية الحزن الذي عاشه المسلمون ، لسقوط البلاد الاسلامية بيد الفرنج ، ومن ذلك المقطوعة التي نسبت الى مجهول في سقوط القدس ، والتي مطلعها :

أحل الكفر بالاسلام ضيماً ... يطول عليه للدين النحيب (١)

والقارئ لهذه المقطوعة يلاحظ أنها نفثة شعرية صادقة ، تنبعث من نفس حزينة لما أصاب المسلمين من ذل وخسارة وهوان ، وفي روح ثائرة تستصرخ المسلمين جميعا لكي يدافعوا عن دينهم وأعراضهم .

ومن هذه الخواطر الشعرية قول المعري أبي بشر بن الحواري في خراب معرة النعمان ، وقد استوحى الصورة من خراب داره بعد هجوم الفرنج على مدينة المعرة :

أهذي بيين انكاري وعرفاني ... مسارب الوحش أم داري وأوطاني ؟
جهاتها ولقد أبدت ملاعبها ... عهد الصبا بين أخواني وخلاني
فسحت أسألها والدمع منسكب ... والقلب في لوعة من وجده عان
يا دار مالي أرى الأيام قد حكمت ... فينا وفيك بحكم الجائر الجاني
فلو أجبت لقالت هكذا فعلت ... قدما بجيرة نعمان ونعمان
وفي مدائن ذو شيبان معتبر ... للسائلين وفي سيف وغمدان
فإن هب لهلكه فالدنيا لها دول ... تمضي وتأتي وكل بينها فان (٢)

إن القارئ لهذه الابيات ليحس وكأنها كتبت بدموع الشاعر لا بمداده ، وهذا الحزن الذي تعبر عنه أبيات المقطوعة ، هو حزن جماعة الناس من البلد المنكوب لاحزن شاعر فرد فحسب ، ويؤكد ذلك ما وجدناه من مقطعات أخرى لشعراء المعرة ، ومنهم أبو سلامة محمود بن داوي الذي يقول :

أنا من بلدة قضى الله بالله ... ح عليها كما ترى بالخراب
قتلوا أهلها ولاذوا جميعاً ... من شيوخ وصبية وشباب (٣)

---

(٢) الخريدة ، قسم شعراء الشام ٢/٨٧

(٣) المصدر السابق ٢/١٠١

ومنهم دحية بن عبد الله بن نصر الذي يقول :

هذه صاح بلدة قد قضى اللـ ـه عليها كما ترى بالخراب
وقف العيس وقفة وابك من كا ن بها من شيوخها والشباب
واعتبر ان دخلت يوما اليها فهي كانت منازل الأحباب (١)

ولو تجاوزنا هذه الفترة التاريخية الى زمن الكامل بن العادل لوجدنا النفحة الحزينة تنبعث ثانية ، لسقوط القدس بأيدي الفرنج ، وفي هذه الحادثة المؤلمة يقول قاضي الطور :

مررت على القدس الشريف مسلما على ما تبقى من ربوع وأنجم
ففاضت دموع العين مني صبابة على ما مضى من عصره المتقدم
وقد رام علج أن يعفي رسومه وشمر عن كفي لئيم مذمم
فقلت له شلت يمينك خلها لمعتبر أو سائل أو مسلم
فلو كان يفدى بالنفوس فديته بنفسي ، وهذا الظن في كل مسلم (٢)

٢ - وقد شارك الشعراء بمقطعاتهم الشعرية في تقريب وجهات النظر ، ورأب الصدع ، فحين تأكدت الوحشة بين نور الدين وقلج أرسلان السلجوقي ، أرسل طلائع الى نور الدين يقول :

نقول ولكن أين من يتفهم ويعلم وجه الرأي ، والرأي مبهم
وما كل من قاس الأمور وساسها يوفق للأمر الذي هو أحزم
وما أحد في الملك يبقى مخلدا وما أحد مما قضى الله يسلم
أمن بعد ما ذاق العدى طعم حربكم بفيهم ، وكانت وهي صاب وعلقم
رجعتم الى حكم التنافس بينكم وفيكم من الشحناء نار تضرم
أما عندكم من يتقي الله وحده أما في رعاياكم من الناس مسلم
تعالوا لعل الله ينصر دينه اذا ما نصرنا الدين نحن وأنتم
وننهض نحو الكافرين بعزمة بأمثالها تحوى البلاد وتقسم (٣)

٣ - وقد تطرق الشعراء في مقطوعاتهم الى الموضوعات العامة من فخر ومدح ووصف ، ولكن الفرق بين القصائد والمقطوعات ، أن الاولى أطول من الثانية ، ولذا فقد يتراوح الانفعال فيها بين القوة والضمور ، فضلا عن أن القصائد قد تحتوى عدة موضوعات ، في حين أن المقطعات تنبثق عادة عن انفعال شديد يصاغ في أبيات قليلة ، فلا تجد فيها الذبذبة الشعورية التي قد نجدها في القصيدة الطويلة .

---

(١) النجوم الزاهرة ٥/٢٠٠
(٢) شذرات الذهب ٥/٦٦
(٣) ديوان طلائع بن رزيك ١٢٣ ، والكامل ١١/٢١٨

٥٤ وقد عبرت بعض المقطوعات عن الأماني الكامنة في النفوس ، فقد احتوت كتب الأدب عدة روايات تذكر أن بعضهم قد رأى في المنام قائلاً يقول شعراً أو يبشر بالفتح وانتهاء العسر ، كتلك التي سمعها أحدهم في منامه تبين استرداد دمياط :

لا تيأسن لعسرة فوراءها ... يسران وعد ليس فيه خلاف
كم كربة قلق الفتى لنزولها ... لله في أعطافها ألطاف (١)

ومنها ما قيل عما سمعه البوصيري في منامه من نشيد قبل فتح عكا ، جاء فيه :

قد أخذ المسلمون عكا ... وأشبعوا الكافرين صكا
وساق سلطاننا اليهم ... خيلاً تدك الجبال دكا
وأقسم الترك منذ سارت ... لا تركوا للفرنج ملكا (٢)

ومما يندرج تحت هذا ، تلك المقطعات التي كانت تكتب على الجدران ، ومنها ما وجد مكتوباً على عضادة محراب المسجد في الرها :

أصبحت صفراً من بني الأصفر ... أختال بالأعلام والمنبر
دان من المعروف حال بصحبه ... ناء عن الفحشاء والمنكر
مطهر الرحب على أنني ... لولا جمال الدين لم أطهر (٣)

وجمال الدين هذا هو الذي شجع عماد الدين زنكي على فتح الرها ، وشبيه بهذا ما وجد مكتوباً على باب كنيسة في عكا :

أدمى الكنائس إن تكنْ عبثت بكم ... أيدي الحوادث أو تغيَّرَ حالُ
فلطالما سجدت على أبوابكم ... شم الانوف جحاجحٌ أبطال
صبراً على هذا المصاب فإنه ... يوم بيوم والحروب سجال (٤)

ولا بد أن القارئ لاحظ أن معظم هذه المقطعات لم يعرف اسم قائلها ، وهذا يعني أن الشاعر غير مشهور ، وأنه قد انفعل مع الاحداث التي عبرت به ، فعبر عنها بلفظ موجز ملتهب ، فحفظ القول ونُسي القائل ..

ولا بد كذلك أن يلاحظ في هذه المقطعات سهولة الألفاظ ، وقرب المعاني وخلوها من التقليد الذي قد يذهب بحرارة القول .

---

(١) الذيل على الروضتين ١٢٩
(٢) ديوان البوصيري ٢٣١
(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب ٢٧٥
(٥) درة الاسلاك ورقة ١٦١ ، وجواهر السلوك ورقة ٤٨

بناء القصيدة :

اتضح من خلال الحديث عن مقدمة القصيدة أنها أتخذت ثلاثة أشكال عامة . فالقصيدة التي تبدأ بالغزل يتحدث فيها قائلها عن المرأة ، ثم ينتقل الى الممدوح ، ويذكر صفاته ، ويدلل على شجاعته بأمثلة عملية مرتبطة بالتصدي للفرنج ، ثم يختم قصيدته بالمدح ، وقد يبين للممدوح قيمة قصيدته بأن يمجد فنه الشعري .

وغالبا ما تكون القصيدة التي من هذا النوع طويلة ، وقد تصل أحيانا الى مائتي بيت كما عند العماد ... ولنأخذ مثلا شعريا واحدا على هذا النمط من القصائد ولتكن للشاعر ابن دنينير (١) ، يقول هذا الشاعر في مدح الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل ، ويذكر نزول الفرنج على دمياط :

لهم حبّ قلبي إن تدانوا وإن صدوا ... وإن قربوا أو حال دونهم البعد
صبابة قلب قد تفرد بالأسى ... بهم حين أقوى منهم العلم الفرد
أقم مأتم الأشواق ان كنت ذا هوى ... يرنحه بان ويذكره رند
فقد هب من أرض العراق نسيمة ... تضوع في أرجائها الطلك والند
فقوا بالحمى النجدي نُزجي طلائحا ... من الشوق يحدوها من الوجد ما يحدو
وان رمتم وردا فسها فيض عبرتي ... لميسكمُ إن مسها ظمأ ورد
فلي بين هاتيك القباب خريدة ... يطالبني في كل وقت بها الوجد
أحن اليها ما تألق بارقٌ ... حنينا يُرى للنار من حره برد
ويطربني أن قام بالدوح نائح ... على عذبات البان من شجوه يشدو
سقى الله نجدا ما حللتم بأرضها ... فان غبتمُ عنها فلا سقيت نجد
جحدت الهوى خوف الوشاة فأعربت ... دموعي بما ألقى ولم ينفع الجحد
وإني وان قامت قيامة عذلي ... على كل حال لهم، لي منكمُ بد
أرى كبدي مصدوعةً بعد بعدكمُ ... وفي كل عضو من فراقكمُ كبْد
وما أنا بالباغي سواكم لخلة ... وان أسعدت سعدى وإن وصلت هند

فهو يبدأها بالغزل التقليدي ، اذ يبكي على فراق الأحبة كلما هب النسيم ، أو لاح بارق من أرض العراق ، ثم يأتي بالصورة التقليدية : صورة الظعائن ، وما يكتنف الرحيل من حزن وحنين ، ثم ينتقل الى مدح الملك الكامل ، فيقول :

وركب تداعوْا للسرى ثمّ انبرى ... ليبغي القرى بعد الهدى، ذلك الوفد
فقلت لهم والليل طلق جرانه ... وقد ستر الآفاق من جنحه برد
قفوا حيث أنوار الهدى كامنة ... ونار الوغى والمشركون لها وَقْد
فثم ترى الاسلام يسفر وجهه ... سرورا ونجم الحق في أفقه يبدو
فلولا سميّ المصطفى ووليّه ... وَهَى الدين بل كادت قوى الحق تنهد

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقه ١ – ٣

فما صافحت بيض الصفاح كفه	ولا حملت ذاك الطمرة الجرد

ويستمر الشاعر في مدحه ، ثم يذكر ما قام به في الذود عن الاسلام ... وقد يكون من المفيد أن نتلمس علاقة المقدمة بالموضوع ، فابن دنينير كما يلحظ من قصيدته ترك العراق، وجاء الى أرض الشام ، ثم الى مصر ليجد حظوة يتخلص بها من الفقر الذى لازمه ، فهو لم يعرض في حديثه عن الحب والشوق إلا للاسى والالم والدموع ، (الابيات : ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٨ ، ١١ ، ١٣) ثم ينتقل الى الممدوح فتذهب نبرة الحزن ، وتحل محلها نبرة القسوة ، ويستبدل بالصوت العاطفي الشجي ، صوتا هادرا قويا ،ويتصاعد هذا الصوت حتى يبلغ الذروة في الابيات التالية :

فقل لملوك الخافقين اليكم	عن الملك أو سدوا من الأمر ما سدوا
مليك الورى أين الملوك عن الذى	تصديت فيه للندى حين ما صدوا
أيطمع أقوام بنعمة عيشة	متى عطشوا ،فالموت دونهم ورد
إلا م التمادى والفرنج بجمعهم	على جيد دمياط كما أنتظم العقد
فوالله ثم الله حلفة صادق	حشاه حشايا ملؤها الغيظ والحقد
لما طاب سكنى طيبة ، ولقد نبا	بجنب النبي المصطفى ذلك اللحد

ثم تلين النبرات عندما ينتقل الشاعر الى طلب الرعاية من الممدوح ، فيقول :

ولست أرجّي غير خدمتك التي	يتم بها بين الورى عند السعد
تركت بلادى ، وارتحلت أريدكم	فدونك فضلا حال عن جزره المد

ثم يختم القصيدة بمدح شعره ،فيقول :

فخذ ،واستمع مدحا تمد لسواه	يد الدهر يرويه لرونقة الضد

ويلاحظ أن القصيدة تدور حول محور واحد ،وان تعددت جزئياتها ، فالبكاء والحزن ناشئان عن فقر الشاعر ،وذكر الظعائن يمثل الارتحال الى الممدوح للتخلص من الفقر ، اذ ان الممدوح يتصف بالكرم الى جانب الشجاعة وصفات عظيمة أخرى من أعمال الجهاد ومقارعة العدو ...

أما القصيدة التي تخلصت من المقدمات الغزلية فنجد طابع القوة فيها من البداية حتى النهاية ،وهي تدور حول بطل المعركة وحوادثها ، فتمجد القائد ، وتضفي عليه صفات القوة والعظمة ،أو تتحدث عن وقائع المعركة وجوها وأسلحتها ،أو تشيد بالنصر وتندد بهزيمة الفرنج .

ولنأخذ مثلا غير منتقى على هذا الجانب وهو قصيدة ابن الساعاتي في فتح طبرية ، يقول :

جلت عزماتك الفتح المبينا	لقد قرّت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الاسلام لما	غدا عرف القضاء بها ضنينا
وهان بك الصليب وكان قدما	يعزّ على العوالي أن يهونا

يقاتل كلّ ذي مُلْك رِيـــاءً ... وأنت تقاتل الاعداء دينـــا
غدت في وجنة الأيام خالا ... وفي جيد العلى عقدا ثمينــا
فيالله كم سرّت قلوبـــا ... ويا لله كم أبكت عيونا ... (١)

تبدأ القصيدة بذكر النتيجة وهي الفتح ، واستقرار نفوس المسلمين باسترداد ما سلب من حقهم ، فهم في تلهف لرؤية المدينة المستردة ، واستنشاق هوائها . اذ ان للنصر عذوبة خاصة ، لأن استرجاع المدينة لم يكن أمرا سهلا ، أو بلا ثمن ، فالمدينة حصينة ، تردّ المهاجمين ، وكأنها المرأة العفيفة المحصنة ، التي تتأبى على الرجال فهل تترفع عن أكف اللامسين . ومع ذلك فان الإعداد السليم ، والتضحية ، جعلا هذه المدينة تلين ، وتفتح ذراعيها للقائد المجاهد ، إعجابا به ، وتقديرا له :

وما طبريّة الا هــــــديٌّ ... ترفّع عن أكف اللامسينـــا
حصانُ الذيل لم تقذف بســـوء ... وسل عنها الليالي والسنينـــا
فضضت ختامها قسرا ومـــن ذا ... يصدّ الليث أن يلج العرينـــا
لقد انكحتها صمّ العوالـــي ... فكان نتاجها الحرب الزبونـــا
هناك ندىً أهل الارض طـــرّا ... سواك ومعقل أعيا القرونـــا
قست حتى رأت كفّا فلانــــت ... وغاية كل قاس أن يلينـــا

ثم ينتقل الشاعر الى ذكر أهمية الفتح للمسلمين ، وخطورته على الفرنج ، فتستولي عليه الفرحة ، ويطير من بلد مفتتح الى آخر ثم يختمها بالثناء على هذا البطل القائد ، فيرى فيه أعظم الابطال ، وان كان آخرهم زمنا ، مثلما أن محمدا عليه الصلاة والسلام أعظم الانبياء وان كان خاتمهم :

وان تك آخرا وخســـاك ذم ... فإن محمدا في الآخرينـــا

وهي خاتمة رائعة لحادثة رائعة ...

* * *

أما المقطعات الشعرية ، فهي ومضات سريعة تحمل قوة الانفعال ، وسرعة العرض ، فأبياتها أقل من النوعين السابقين عددا ، وحرارتها متأججة ، وصورها قليلة مركزة

العواطـــف :

تكسب العواطفُ التي تكتنف النص الادبي مادةَ النص حرارة تتناسب مع درجـــة انفعال الأديب . فاذا لم ترتفع درجة الانفعال في النص الادبي عن درجة الانفعـــال المادية التي يحس بها كل فرد ، فان هذا النص سيخفق كل الاخفاق (٢) .

---

(١) الروضتين ٢ / ٨٤

(٢) انظر حول هذا الموضوع كتاب سيد قطب ، النقد الادبي ص ٦٥

ويرى د • أحمد الشايب أن العواطف نوعان : ذاتية تقع في دائرة ضيقة • وانسانية تستقطب مشاعر أبناء اللغة أو من يتفهمها • لأنها تقدم الافكار بطريقة مؤثرة تستهوي النفس وتسرب المعاني الى الذهن (١) •

ومن المسلم به أن نوع الانفعال يرتبط بمادة النص • فالقصيدة الحربية التي تتحدث عن موقعة فاصلة • تثير انفعالا حماسيا شديدا • بينما القصائد الغزلية أو المقطعات الشعرية كتلك التي نظمها ابن القيسراني في الفرنجيات • تثير نوعا مختلفا من الانفعالات يغيب فيها الاندفاع والعنف •

وبين قصائد الحرب وقصائد الغزل أنماط من القصائد تثير أنماطا مختلفة من الانفعالات ••• ويصاحب هذه الانفعالات جرس موسيقي يتناسب عادة مع مادة النص كذلك ولنأخذ أمثلة على أنواع العواطف والانفعالات في شعر هذه الفترة • وبين ارتباطها بالجرس الموسيقي الخارجي المتمثل في الوزن الشعري • والجرس الداخلي المتمثل في موسيقى الالفاظ والحروف •••

١ • العاطفة الدينية :

تبرز هذه العاطفة في القصائد الحربية بشكل واضح • فما من قصيدة تخلو من ربط الحادثة أو بطلها بالشعور الديني • وهذا أمر طبيعي • لان الحروب الصليبية أتخذت في كثير من جوانبها شكل صراع عقائدي • وقد أكسبت هذه العاطفة الشعر عنصر اثارة • وحرارة • نحس لفحها في قصائد كثيرة • منها قصيدة ابن منير الطرابلسي • التي نأخذ بعضها شاهدا على ما نذهب اليه • يقول هذا الشاعر :

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته	وعلا الهدى وتبلجت قسماته
وانتاش دين محمد محموده	من بعد ما علّت دما عبراته
ردت على الاسلام عصر شبابه	وثباته من دونه • وثباته

ويبدو من المقدمة أنها تحمل انفعالا دينيا قويا • يتخذ شكل المقارنة بين الفرنج والمسلمين • فأولئك أهل ضلال اندثر • ولم يبق منه سوى رسوم تدل عليه • وهؤلاء أهل الهدى الذي أهلّ وابتسم • وفي هذا الاطار من الاصطراع العقائدي • يوضح الشاعر عمل نور الدين في تعزيز هذا الدين • ويحرص الشاعر على أن يقدم هذه العاطفة في ظلال التحنان الى الماضي المجيد • والمقابلة بين قوة في عهد نور الدين • وضعف في عهد الحكام المتخاذلين الذين سبقوه •

ولو تابعنا ابن منير في قصيدته الطويلة هذه • لوجدناه يلح على فكرة المقابلة بين المسلمين والفرنج • مستعينا بالحركات السريعة لمقاطع البحر الكامل ليضع القارئ في جو لشدل متحرك :

---

(١) انظر كتاب د • أحمد الشايب • أصول النقد الادبي • فصل العواطف •

حطّ القوامص فيه بعد قماصها ... حرب يصلصل في الطلى صمقاتـه
نبذوا السلاح لخيفهم ، عاداته ... ترس الفوارس ، والقنا غايلتـه
لمجرّب عمرية غضباتـه ... لله معتصمية غزواتـه ...

ثم يقول :

صدم الصليب على صلابة عوده ... فتفرّقت أيدي سبا خشباتـه (١)

(٢) عاطفة الكراهية :

وهي عاطفة لا يكاد يخلو منها شعر قيل في الحروب ، وذلك من أجل استثارة الجند والناس ، للوقوف في وجه العدو ، ومحاولة القضاء عليه .
فلا عجب ، إذن أن نرى الشعراء العرب في هذه الفترة يحفزون بكراهية الغزاة حين ينظمون شعرا يرتبط بالوجود الصليبي في البلاد . ومن خلال شعور الكراهية يحرضون قادة المسلمين ضد العدو ، ويشمتون به حين تلحق به الهزائم . يقول العماد محرضا صلاح الدين على استرداد ما تبقى من الارض المحتلة ، بعد ان استرد القدس :

من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى ... صور فإنْ فُتحت فاقصد طرابلسا
أثِرْ على يوم انطرسوس ذا لجب ... وابعث الى ليل انطاكية العسسا
وأخلِ ساحل هذا الشام أجمعه ... من العداة ومَنْ في دينه وكسا
ولا تدع منهم نَفَسا ولا نفسا ... فإنّهم يأخذون النّفس والنفَسا (٢)

وقبل ذلك قال ابن منير في تحريض نور الدين على الغزاة :

أن الأُلى أمنوا وقاعك بعد ما ... غزّوا ، وقد ركبوا الأغرّ غرورا
ألق العصا فيمن أطاع ومن عصى ... منهم ، ودمّر أرضهم تدميرا
لا يلههم أن قد منت ، وشنّها ... شعواء تصلي الكافرين سعيرا
باكر بركز قنا لتنسف أسها ... والخيل صوركي تزيرك صورا
وتريك لامة التريك بساحة الأ (م) قصى مطهرة لها تطهيرا (٣)

وتظهر هذه العاطفة في مواطن التحدي بدرجة أكبر ، ومن خير ما يمثل هذا الجانب قصيدة ابن عنين في فتح دمياط التي مطلعها :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا ... إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا

فمن أول بيت نحس بالشدة والصلابة والاعتداد بالنفس ، ولعل تتابع الاصوات المتشابهة في البيت يوحي بالتحدي والاعتداد معا .

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٦ (٢) المصدر السابق ٢/١٠٢
(٣) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢١٧

٣٠ عواطف الحزن والحسرة :

وقد تجلت هذه العواطف في أوقات المحنة التي مر بها المشرق الاسلامي كفترة سقوط القدس والمعرة ودمياط وغيرها .
ومن القصائد التي تمثلت فيها هذه العواطف قصيدة ابن المجاور في تسليم القدس للفرنج سنة ٦١٠ ، اذ يبدأها بالبكاء والنداء الحزين لعينيه ، بأن تذرف الدموع وتواصل البكاء ، لعل الدمع يكون سبيلا لان يطفيء ما في القلب من حرقة ، يقول :

أعيني لا ترقيْ من العبرات ... صلي في البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفيء فيضها ... توقّد ما في القلب من جمرات
ويا قلب أسعرْ نار وجدك كلما ... خبت بادكار يبعث الحسرات
ويا فم بحْ بالشجو منك لعله ... يروّح ما ألقى من الكربات - (١)

ان النداء المتكرر ليوحي بالحسرة والتلهف ، كما أن القافية المكسورة المسبوقة بالمد يتناسب وقعها مع الجو الحزين ، وليس من العجيب أن تشترك قصيدة العماد في رثاء صلاح الدين مع هذه القصيدة في كثير من أدوات الحزن فيها ، يقول العماد في رثائه للبطل المسلم الراحل :

شمل الهدى ، والملك عمّ شتاته ... والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذي مذ لم يزل مخشية ... مرجوة رهباته وهباته
أين الذي كانت له طاعاتنا ... مبذولة ، ولربه طاعاته
بالله ، أين الناصر الملك الذي ... لله خالصة صفت نياته (٢)

أما الحزن والحسرة على سقوط المعرة فتمثلة مقطعة أبي بشر بن الحواري ، التي يبدأها أيضا بالاستفهام والبكاء والنداء ، ويتكرر فيها حرف المد وتنتهي برويّ مكسور

أهذه بين إنكاري وعرفاني ... مسارب الوحش أم داري وأوطاني
جهلتها ، ولقد أبدت ملاعبها ... عهد الصبا بين إخواني وخلاني
فجئت أسألها ، والدمع منسكب ... والقلب في لوعة من وجده عان (٣)

أما الحزن على دمياط ، فقد امتزجت فيه الشكوى بالتعريض ، وجاءت أدوات الحزن متكررة متنوعة . يقول الأمير جمال الدين الكناني في رسالة شعرية بعث بها من داخل دمياط المحاصرة :

يا مالكي ! دمياط ثغر هدّمت ... شرفاته ، كادت تجتّ أصوله
يقريك من أزكى السلام تحية ... كالمسك ، طاب دقيقه وجليله

---

(١) الروضتين ٢/٢٠٥ (٢) المصدر السابق ٢/٢١٥
(٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام ٢/٨٧ .

ويقول عن بعد ، وإنك سامع ... حتى كأنك جاره ونزيلـــــه
يا أيها الملك الذي ما إنْ يُرى ... بين الملوك شبيهه وعديلـــه
أشكو إليك عدوَّ سوء أحدقت ... بجميعه فرسانُه وخيولُـــه
فالبر قد ضمت اليه طريقـــه ... والبحر عزّ لنصره أسطولـــه
فغدوهم باد على أبراجـــه ... وحنينُه وبكاؤه وعويلـــه
والثغر ناداه اليك محـــدّق ... ما ان يملّ من الدموع همولـــه
ولو استطاع لأمّ بابك لائـــذا ... لكنه سُدّت عليه سبيلـــه
ورسوله في أن تجيب دعـــاءه ... دين الاله وخلقه ورسولـــه
فقد انتهت ادواؤه وتحكمـــت ... علاته ونحا عليه نحولـــه (١)

ففي الابيات الأولى تأخذ الشاعر الغصة ، ويتهدج صوته ، ثم ينتقل الى مخاطبة الملك الكامل ، ويشكو اليه سوء الحال ، بسبب حصار الفرنج لدمياط ، ثم يعرض صورة مؤثرة تحكي ما يعانيه الثغر من ضيق ، ويكرر هذه المواقف والمعاني لكي تحرك مشاعر الكامل وتدفعه الى العمل ، وقد حصل ما توقعه فعلا ، اذ انه عندما وقف الكامل على هذه الابيات ، أمر أهل القاهرة ومصر بالنفير للجهاد ، وكان قد بعث الى أخيه الأشرف يستحثه على سرعة الحضور بأبيات مثيرة ، قال فيها :

يا مسعدي إن كنت حقا مسعفي ... فانهض بغير تلبث وتوقـــف
واحثث قلوصك مرقلا أو موجفـــا ... بتجشمي سيرها وتعسّـــف
واطو المنازل ما استطعت ولا تُنخ ... الا على باب المليك الاشـــرف
إن تأت عبدك عن قليل تلقـــه ... ما بين كلّ مهنّد ومثقّـــف
أو تُبطِ عن انجاده ، فلقاؤه ... يوم القيامة في عراص الموقف (٢)

وقد سبق الحديث من خلال المقدمات عن أنواع أخرى من العواطف الحافزة على قول الشعر ، ومن هذه : الإعجاب بالقائد ، والاحساس بالنشوة حين النصر ، وشعور الانتماء الى الامة ... الى غير ذلك .

ومن خلال الامثلة التي تقدم تحليلها في هذا القسم يمكننا أن نقول :

إن عواطف الشعراء في قصائدهم الحربية عواطف صادقة ، لانها تنطلق من احساس شديد بالاحداث ، وانتماء قوي الى المجتمع وعقيدته وحضارته ، وارتباط بالوطن ، واعجاب بالبطل ، الى غير ذلك مما سبقت الاشارة اليه ، ولذا فاننا نحس في كثير من الاحيان بتوهج الابيات ، بل اننا نحس بأننا نتفاعل مع الشاعر ، وكأنما ينقل الينا مشاعره بالعدوى واذا نحن وهو في وضع عاطفي واحد .

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ١٩٩
(٢) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٩٧

وهذا الصدق في التعبير هو صدق شعوري ، ولا يستلزم الصدق الشعوري دقـة وصدقا في نقل الوقائع ، إذ إن الشاعر ينقل لنا الوقائع والأحداث ملونة بمشاعره ، ومواقفه الخاصة ، وكذلك بأحاسيس المجتمع الذي ينتمي اليه ، مما يجعل النص أكثر تأثيرا .

وقد عرضنا ألوانا مختلفة من عوامل الشعراء ، فوجدنا أشدها تأثيرا وقوة مـا يرتبط بالتحدي والتحريض ، حتى ليجد الدارس النبرة الخطابية واضحة فيها .

ومن عوامل التأثير في الشعر ، العنصر الموسيقي ، المرتبط بالبحر والقافيـة والموسيقى الداخلية ، وبما أن الشعر الحربي في غالبه يعبر عن القوة فكان من المتوقـع أن تكون موسيقى القصائد الحربية توحي بالقوة ، ولعل الجدولين التاليين ، المرتبطـين بموسيقى الشعر الحربي الذي أخذته من الرومنتين ، يعطيانا فكرة عن أشيع بحـور الشعر والقوافي التي استعملت في القصائد ذات السمة الحربية :

البحـــور	الكامل	الطويل	البسيط	الخفيف	الوافر	المتقارب	السريع	المنسرح	الرجز	الرمل	الهزج
مجموع القصائـــد											
١٢٨.	٣٧	٢٦	٢٥	١٠	٩	٨	٥	٤	٢.	١	١.

وكانت حروف الروي كما يلي :

حروف الـروى	الراء	الدال	الميم	النون	التاء	اللام	الباء	الياء	القاف	السين	العين	التاء	الهمزة	الحاء	الفاء	الجيم	الذال
مجموع القصائـد																	
١٢٨	٢٤	١٦	١٤	١٤	١٢	١٠	٨	٦	٥	٥	٣	٣	٢	٢	١	١	١

ويلاحظ أن البحر الكامل قد تكرر استعماله في هذه القصائد سبعا وثلاثين مـرة ، وهذا أمر طبيعي لأنه يحتوى على ثمانية عشر مقطعا صغيرا واثني عشر مقطعا طويلا ، ولعل ما يوحي به البحر من حركة متصلة ، يتسق مع الانفعالات الشديدة التي ترافق الحـروب في المعتاد ، كما يصور جو المعركة وما فيها من حركة أيضا . أما البحر الطويل ، ففيـه عشرون مقطعا طويلا وثمانية مقاطع قصيرة ، فهو يتسع للموضوعات الجادة والمواقف الخطيرة وقد استعمله قدامى الشعراء في شعر البطولة . (١) .

1- Mahmud Ibrahim, Martial Poetry under the Hamdanids of Aleppo. P.P 461-463 (PH.D 1965)
وانظر كذلك كتاب د . أحمد الشايب ، اصول النقد الادبي ص ٣٢٢ ـ ٣٢٥

أما البحر البسيط الذي يأتي ثالثا ، فهو قريب من البحر الطويل ، إذ إن عـــدد الحركات فيهما يكاد يكون متساويا ، وكثيرا ما استعمل هذا البحر في الموضوعات الرصينـــة الجادة كذلك . على أنه لا بد من القول ، انه لا يوجد رابط حاسم متفق عليه ما بين موضوع القصيدة الشعرية ، وبحرها ، وإنما هي استقراءات تعتمد على مدى شيوع استعمال بحر ما في موضوع من الموضوعات .

وكما أن موسيقى البحور تضفي على الشعر جوا معينا ، فان حروف الروي تضفـــي مثل هذا الأثر كذلك على الشعر ، وقد لوحظ أن حرف الراء قد تكرر في أربع وعشريـــن قصيدة من القصائد التي استقرئت ، ثم يأتي حرف الدال في المرتبة الثانية ، وقد جاء فـي ست عشرة قصيدة ، ثم جرفا : الميم والنون في المرتبة الثالثة ، وقد تكررا في ثمان وعشريـن قصيدة . ولعل هذه الأحرف الاربعة تمثل أصواتا تتناسب في وقعها على الاذن مع أجـواء الحرب ، لا سيما أنها من الحروف التي كثر استعمالها في قوافي القصائد العربية .

التصويـــر :

يختلف الناس بعضهم عن بعض في نقل الأفكار ، فمنهم من ينقل الفكرة مجـــردة ومنهم من يخلفها بالصور الشائقة ، ومنهم من يصب عليها من قلبه ما يشيع الدفء والحرارة فيها ...

ثم ، إن تميز الشاعر عن بقية الناس بشدة الاحساس بالحياة وما يجري فيها ، يجعله أقدر من غيره على التفاعل مع الأحداث وتصويرها تصويرا يحمل طابعه الذاتي ، وهذا التصوير يجعل كل كلمة في الفن الشعري تؤدي وظيفة معينة في نقل الفكرة ، ولذلك فإن للكلمـــة تأثيرا خاصا ...

ولعل الصور التي تثيرها الكلمة هي التي تبعث الحياة في النص الادبي ، وتكسبه القدرة الايحائية ، وهي التي تجعل القارئ يقبل على نوع من العمل الادبي دون نوع آخر .

ومن المسلّم به أن الصور الشعرية مرتبطة بالفكرة أشد ارتباطا ، لأنها تعبر عنهـــا ولكن ذلك لا يعني أن تكون الصور في الشعر الحربي مشتقة من مناظر الحرب فقط ، بل ان مصادر الصور متنوعة ، يلجأ الشاعر في تكوينها الى معطيات البيئة المحلية ، والثقافـــة ، والتجارب الشخصية .

ويطول الحديث لو حللنا عناصر هذه المعطيات ، وضربنا لها الامثلة ، ولذا ، فقد يكون من المجدي اختيار أمثلة معينة ، وتوضيح مصادر الصور من خلالها ...

١ . يقول ابن دنينير في معركة دمياط :

١ .	يا يوم دمياط قد راحت مسوّدة	منك الطروس وقد سارت بك السير
٢ .	تهلل الدين والدنيا به فرحـــا	واستبشرتْ مكة والحِجْر والحَجَـــر
٣ .	لم تخشَ يثرب تثريبًا لفادحـــة	من بعده إذ سَرَتْ في ذكره السّـوَر
٤ .	أنطقتَ خُرْس الاماني وهي صامتةٌ	ورضتَ صعب المعاني فهي تبتـــدر
٥ .	ألبستَ أهل الهدى من نصرةٍ حللا	والشرك قد حلّ منه الأزْر والأزُر

٦ • في يوم ذي رهج لا وصف يدركه ... يكاد منه فؤاد الدهر ينفطر

٧ • يوم تدينُ له الايام اذ خرست ... عن فخرها وهو طول الدهر يفتخر

٨ • في حالة جمع الضدين في قرن ... فالشرك منخذلٌ والحق منتصر

٩ • قد عاد صبحهم ليلا تضيء به ... زرق الأسنة فهي الأنجم الزُّهُر

١٠ • والشمس طالعة فيه وغاربة ... لكنها بظلام النقع تستتر

١١ • والدين قد تليت آياته فرحا ... بنصره ، وعليب الشرك منعفر

١٢ • يا دين عيسى بعيسى قد خذلت ولا ... كسر مدى الدهر منكم ليس ينجبر

١٣ • واتاك في جحفل ضاق الفضاء به ... ذرعا ، فأنت لديه مهل له جزر

١٤ • أتى بجيش وغى في الارض عسكره ... وفي السماء قضاء الله والقدر

١٥ • فالبحر من تحتهم آذيه وعلى ... رؤوسهم منك نار الحرب تستعر

١٦ • وزعتهم بين بيض الهند مصلتة ... وبين سمر القنا والموت ممتكر

١٧ • فللرماح قلوب منهم أبدا ... وللسيوف الطلى والهام والقصر

١٨ • أموا الصبور الى دمياط تحصنهم ... وما دروا أنه عبّر به العبر

١٩ • راموا بحيث اطلخم الأمر سلمهم ... وقد رأوا غارة هالت لها الغير

٢٠ • لم يطلبوا السلم إلا بعد علمهم ... بأن سيفك لا يبقي ولا يذر

٢١ • أضحى لرومية الكبرى بما شهدوا ... ويل طويل وقد وافاهم الخبر

٢٢ • ان لم يكن حوصروا فيها فإن بها ... من بؤس بأسك حصرا ليس ينحصر

٢٣ • يمشون همسا ، وإيماء حديثهم ... فيها لخوفك ، إن قالوا وإن ذكروا

٢٤ • نهاهم الرعب عن عود فمنقصة ... إن قيل عودوا ، نعد بالسيف ننتصر

٢٥ • ما يوم بدر بأعلى منه أو أحد ... ولا حنين ، وإن عدوا وإن شهروا (١)

ففي هذه القصيدة يرسم الشاعر صورة دمياط ، وقد تخلصت من الافرنج بعد حركة طويلة ، فقدم النتيجة على المعركة ، نظرا لأنها كانت معروفة ، ثم أخذ يصف قوة الفرنج ، ولكن هذه القوة لم تغن عنهم شيئا ، ولم تدفع كثرتهم الهزيمة ، بل سقطوا موزعين بين النار والماء ، والسيوف والرماح .

أما مصادر الصور فهي إما مأخوذة من حياة الناس وأقوالهم وممارساتهم كالتهلل والاستبشار (بيت ٢) والنطق (بيت ٤) والهمس والاشاره (بيت ٢٣) واللباس (بيت ٥) والتلاوة (بيت ١١) ، أو مستمدة من الجو الحربي كلمعان النصال ، والسيوف وغبار المعركة ، والجيش ، والمعركة البحرية والنار المحرقة ... (الابيات ٩ ـ ٢٣) ، أو من الحياة الدينية ، كمكة والحِجْر والحَجَر ، والمدينة المنورة (بيت ١ + ٢) والهدى والشرك (بيت ٥ ، ٨) وبدر وأحد وحنين (بيت ٢٥) ...

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ١٤ ـ ١٥

٢ • ويقول فتيان الشاغوري في فتوح صلاح الدين :

أنشأت ملحمة تمل مقاتــل الـ	فرسان بالعدو الذى لم يحصـــر
اعرابها ضرب الحسا ونقطهـــــا	وقع السّهام وخطّها بالسمهـــري
والحبر بحرُ دمٍ تغطمط موجُــــه	إذ ليس ثم سوى الثرى من دفتر
والبيض تنثر وهي غير خواطـــب	والسمر ناظمة وان لم تشعـــر
والخيل طربة كأن صهيلهـــــا	شدو النحيلة في نسيب البحتري
نشوى تميد من السرور كأنمـــــا	صبحت كؤوسا من شراب مسكر (١)

ومصادر الصور في هذه الأبيات متنوعة ، أبرزها الاعتماد على الثقافة اللغوية والادبية ممثلة في : الإعراب والنقط والخط والنثر والنظم ، وأدوات الكتابة من حبر وورق • وقد اشتق بعض الشعراء الصور البيانية من اسماء الفرنج وقادتهم ، كما في أبيـــات العماد التالية :

لما رأى الداويُّ راونـــــــــــداه	ولى يطاعون بغير طعـــــــان
طلب الفريري الفرارَ بطلبـــــــه	متباعدا من هلكه المتدانـــــي
والهنفرى مذ هان فرّ مؤمـــــــلا	لسلامة ، والهون شأن الشاني
باروا فبارو نيّهم بفنائـــــــــه	مود ، وسيرهم أسير عـــــان (٢)

وهذا يمكن تلخيص مصادر الصور الشعرية في شعر الحروب الصليبية ، بما يلي :

١ • الحياة الاجتماعية
٢ • الحياة السياسية
٣ • الحياة الثقافيـــة
٤ • جو الحـــــروب
٥ • البيئة المحليـــة
٦ • الحياة الدينية

الصور التقليدية :

سادت الروح الاتباعية أدب هذا العصر ، فاتكأ شعراء الحروب الصليبية على التراث الأدبي السابق ، وأخذوا منه كثيرا من الصور ، بالإضافة الى التأثر بالجو العام للقصائـــد الحربية في العصور السابقة •

وقد ناقش الدكتور محمود ابراهيم في كتابه : " صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني " هذه الفكرة مناقشة وافية ، استعرض فيها أسباب هذه التهمة ، واستوفـــى أمثلة كثيرة من شعر ابن القيسراني في تأثره بالمتنبي وأبي تمام • (٣) •

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري ص ١٤٢
(٢) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ٥٥ ، ٥٩ ، وانظر الروضتين ١/٢/٥٧٩ و ٥٢٩
(٣) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ص ١٧٢ ــ ١٩٦

وليس من الضروري في هذا المقام استعراض كل صورة اقتبسها شعراء هذه الفترة من الشعراء الاقدمين ، فذلك يحتاج الى دراسة خاصة ، ولذلك فاننا سنعرض بعض الصور التي ترددت في شعر الحروب الصليبية وأخذها أصحابها من الشعراء السابقين ويمكن عرضها كما يلي :

١ - صورة الجيش الاسلامي يظلله جيش من الطيور :

وقد تكررت هذه الصورة في الشعر الحربي غير مرة ، منها قول فتيان الشاغوري في وصف جيش صلاح الدين :

خميسٌ له الرايات ظل وفوقه   من الطير ظلٌ يحجب الشمس سادل (١)

وقوله :

وجيش لهام حلّق الطير فوقه   ستضحي لكم أحشاؤهن نواويسا (٢)

ويصف العماد تزاحم الطيور الجارحة في الجو وكأنها جيوش تتزاحم فرسانها ، فيقع الصدام بينها ، يقول :

تزاحم فرسانها الضاريات   فتصدم فيها النسورَ النسورُ (٣)

ويقول ابن دنينير في مدح الملك كوكبري بن علي بن بكتكين :

وما زلت في جيشين : جيش مقاتل   وجيش على القتلى من الطير حائم (٤)

وقد وردت هذه الصورة في الشعر الجاهلي ، وردّها اسامة بن منقذ إلى الافوه الأودي إذ يقول :

وترى الطير على آثارها   رأي عين ثقة أن ستمار

ثم أخذها النابغة فقال :

اذا ما غزا بالجيش حلق فوقهم   عصائب طير تهتدي بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله   اذا ما التقى الجمعان أول غالب

ثم أخذها الحطيئة ثم حميد بن ثور ، ثم مسلم بن الوليد وأبو نواس ثم أبو تمام والمتنبي ، إذ يقول الاخير :

له عسكرا خيل وطير اذا رمى   بها عسكراً لم تبق الاجماجمه (٥)

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري ٣١٧   (٢) المصدر السابق ٢٦٤
(٣) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ص ٢٩
(٤) ديوان ابن دنينير ورقه ٥٧
(٥) البديع في نقد الشعر ص ٢٦٤

٢ • صورة الجيش الاسلامي الكثيف المدجج بالسلاح :

وقد جاءت هذه الصورة في شعر الحروب العربي ، فاستفاد شعراء هذه الفترة من الصور القديمة وأوردوا في شعرهم وصفا للجيش الاسلامي ، فقالوا إنه يزحف كالجراد ، ويحمل من السلاح اللامع والسهام الكثيرة ما يشبه أغصان الشجر في الغابات ، كما وصفوا انقضاض السهام والرماح بانقضاض الشهب ، يقول سعادة الأعمى في وصف جيش صلاح الدين :

عرمرم كالدَّبى الطيار منتشر — تحصى الرمال ولا يحصى له عدد
اذا انهمرت الى أرض العدوِّ به — لم يبق من مائها غمر ولا ثمد
تسمو عليه سماء من عجاجته — مبنية من قناة تحتها عمد
وفي نواحيه نار من صوارمه — تكاد تقطر ماءً وهي تتقد (١)

ويقول ابن اسعد الموصلي متحديا الفرنج بمُؤيد انتصارهم على نور الدين :

هلا وقد ركب الأسد الصقور وقد — سلّوا الظبى تحت غابات من الأسل (٢)

٣ • صورة جيش العدو المنهزم :

وقد قدّم الشعر لهم صورة طريفة تحمل معنى الاستهزاء ، فهم لا يفرقون بين وخز السلاح ووقع حبات المطر الشديد تضرب أجسامهم ، وقد اعتمد ابن القيسراني في هذه الصورة حين قال :

صابَ الغمامُ عليهم والسهام معا — فما دروا أيما الهطالة الديم (٣)

على صورة المتنبي التي يقول فيها :

يتشامم مطر السحاب مفصلا — بمهند ومثقف وسنان

٤ • التأثر بقصائد الشعراء السابقين عامة :

فقد اعتمد الشعراء على قصيدة أبي تمام الهائيتي وزنها ورويها وصورها ، ومن الشعراء الذين قلدوه ابن القيسراني في قصيدته التي مطلعها :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب — وذي المكارم لا ما قالت الكتب (٤)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ١ / ١٤٤
(٢) المصدر السابق ٢ / ٢٨٩
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤١
(٤) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٥٢

وشهاب الدين محمود في قصيدته التي مطلعها :

الحمد لله زالت دولة الصلب وعز بالترك دين المصطفى العربي (١)

وأخذ ابن دنينير من قصيدة ابي تمام البائية بعض الصور في قصيدته التي يصف فيها فتح دمياط ، ومطلعها :

ها قد بلغت الذى قد كان ينتظر الله أكبر هذا النصر والظفر

وفيها يقول :

هذا هو الفتح فتحٌ لا يقوم به نظم المديح ولا نثرٌ فيتكثر
فتح مبين وقى من كلّ موبقة لم يبق من بعده ذنب فيُغتفر
يا يوم دمياط قد راحت مسودة منك الدارون وقد سارت بك السير (٢)

ومن الشعراء الذين استفادوا من قصائد ابي الطيب المتنبي ابن أسعد الموصلي في قصيدته التي يعتذر فيها عن كسرة نور الدين، ومطلعها :

ظبى المواضي ، وأطراف القنا الذُّبُل ضوامنٌ لك ما حازوه من نفل (٣)

فقد استفاد من قصيدة المتنبي التي يعتذر فيها عن كسرة سيف الدولة ، ومطلعها :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

٥- مقارنة الفتح بالفتوح السابقة ، ومقارنة القادة بالأبطال السابقين في تاريخ الاسلام :

وقد أصبحت هذه المقارنة ظاهرة من ظواهر شعر الحروب الصليبية ، ولعل ذلك يعود الى طبيعة الصراع الديني بين المسلمين والفرنج .

ومن الشعراء الذين اقترنت صورة الفتوح في أذهانهم بالفتوح الإسلامية السابقة ، أبو علي الحسن بن علي الجويني ، يقول :

هذى الفتوح فتوح الانبياء وما لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
....
فأين مسلمة عنها وأخواته بل أين والدهم ، بل أين مروان (٤) ؟

ومنهم العماد الاصفهاني ، إذ يقول في مدح صلاح الدين وتكسيره الصلبان في القدس :

نفى من القدس صلبانا كما نفيت من بيت مكة أزلام وأنصاب (٥)

---

(١) تاريخ ابن الفرات ٨/ ١١٥ ، درة الاسلاك ورقة ١٥٤
(٢)
(٣) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٣٢٠
(٤) المصدر السابق ٢/ ٢٠٥
(٥) المصدر السابق ٢/ ١٠٣

ويقول البهاء زهير في فتح دمياط :

فلله يومُ الفتح ، يومُ دخولها — وقد طارت الاعلام منها على وكر
لقد فاق أيام الزمان بأسرها — وأنسى حديثا عن حنينٍ وعن بدر (١)

ويقول ابن دنينير في فتح دمياط :

ما يوم بدر بأعلى منه أو أحدٍ — ولا حنينَ وإن عُدوا وإن شُهروا (٢)

أما مقارنة القادة بالابطال السابقين أو الانبياء فتظهر في قول ابن الساعاتي اذ أقام علاقة بين صلاح الدين يوسف والنبي يوسف عليه السلام بجامع الاسر والشهرة :

فكنت كيوسف الصديق حقا — له صوت الكواكب ساجدينا (٣)

ويقول الجويني فيه أيضا :

حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقا — ل الناس : داودُ هذا أم سليمان (٤) ؟

ويقول الجواني النسابة المصري في صلاح الدين بعد فتح القدس :

يا يوسف الصديق أنت لفتحها — فاروقها عمرُ الإمام الاطهرُ
ولأنت عثمانُ الشريعةِ بعده — ولأنت في نصر النبوة حيدرُ (٥)

٦• تشبيه المدن والثغور بالنساء المتمنعات :

فقد صور الشعراء تمنع المدينة على الفتح بتمنع الفتاة ، وقد سبق المتنبي الى هذا الباب في استعمال الفاظ الغزل والنسيب في وصف الحرب (٦) •
ومن الشعراء الذين جاءت هذه الصورة في شعرهم ابن القيسراني ، اذ يقول في مدح نور الدين :

ما زفّت الحرب العوان به — الا انجلت عن معقل بكر (٧)

ومنهم الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي ، اذ يقول في فتح صلاح الدين للقدس :

جاءتك أرض القدس تخطب ناكحا — يا كفأها ما العذر عن عذرائها
زفّتْ اليك عروسُ خدرٍ تجتلى — ما بين أعبدها وبين إمائها
ايه صلاح الدين خذها غادة — بكرا ، ملوك الارض من رقبائها
كم خاطب لجمالها قد ردّه — عن نيلها أن ليس من أكفائها (٨)

(١) ديوان البهاء زهير ١٢٣
(٢) ديوان ابن دنينير ورقة ١٥
(٣) الروضتين ٢/ ٨٥
(٤) المصدر السابق ٢/ ١٠٥
(٥) المصدر السابق ٢/ ١٠٥
(٦) يتيمة الدهر ١/ ٢٠٩
(٧) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٤٦
(٨) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ٨٦

نعى كثير من الدارسين لهذه الفترة على الشعراء والكتاب استعمالهم الزائـــد للبديع ، واستقصاءهم لصوره ، وقد غالى بعض الدارسين في نقد هذه الظاهرة حتى وصف العصر الذى ندرسه بالجمود والانحطاط بسببها ، وكأن الصنعة لم توجد الا في أدب هذه الفترة فقط ، أوكأنها قد تمثلت في كل نص من نصوص هذا الادب .

ولا شك أن بعض هذه الاحكام لا يستند الى دراسة مستقصية دقيقة ،وانما هي خطف سريع لأحكام متأثرة بأحكام سريعة سابقة .

ومن المسلّم به أن البديع موجود في الأدب العربي قبل هذه الفترة ، ولكن درجات اهتمام الادباء به تختلف من واحد الى آخر ، ومن نمط من أنماط الأدب الى نمط آخر.

ولسنا معنيين بدراسة تحكّم البديع في الادب العربي عامة ، وفي شعر هـــذه الفترة خاصة ، لان ذلك يحتاج الى دراسة مستقلة ، وقد عالج د . زكي مبارك في كتابه النثر الفني في القرن الرابع الهجري هذه الظاهرة (١) ، كما عالجها د . محمـــود ابراهيم في الشعر من خلال دراسته لابن القيسراني الشاعر (٢) وما نريد تأكيـــده هنا ، هو أن البديع ظهر في الأدب ، شعره ونثره ، بشكل بارز في هذه الفترة ، ولكن مواطنه في المديح والوصف ... أكثر منها في الموضوعات الاخرى .

ويمكننا التدليل على ذلك بملاحظة سريعة ، وهي أنه لو قارنا بين ما فـــي الخريدة من شعر ، وبين ما في الروضتين من شعر ، لوجدنا اختلافا ملموسا مـــن حيث تحكم البديع ،والسبب في هذه الظاهرة هو أن شعر الروضتين يكاد يكون مرتبطـــا بالأحداث السياسية في عهدي نور الدين زنكي وصلاح الدين الايوبي ، وهذا يعني أن الشعراء قد تحرروا بشكل عام من عقال البديع في موضوعات معينة ، فلم يطغَ البديع على شعرهم ، بينما نجد شعر الخريدة تبرز فيه هذه الظاهرة بشكل يسترعي الانتباه ، لأن شعر الخريدة مجموع حسب المناطق الجغرافية ، اذ يعرض العماد شعر الشعراء الذين اختارهم بغضّ النظر عن الموضوع ، وقد تحكم ذوقه بمختاراته الشعرية ، فجاءت ممثلـــة لولعه بألوان المحسنات اللفظية .

وسنذكر فيما يلي بعض القصائد العربية موزعة على فترات حقبة الحروب الصليبية ، ثم نعرض للبديع الذى ورد فيها ، لنرى الى أي مدى كثر استعماله في هذا اللون مـــن الشعر ، فقصيدة ابن الخياط التي مطلعها :

قد تك الصواهل قبا وجـــــردا ... وشم القبائل شيبا ومُـــرْدا (٣)

(١) انظر : النثر الفني في القرن الرابع الهجري ص ٦٤ وما بعدها

(٢) أنظر : صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ص ١٩٨ ـ ٢٠٢

(٣) ديوان ابن الخياط ١٨٢ ، وانظرها في الملحق الشعري

لا يسيطر عليها البديع ، الا بشكل معتدل ، كالطباق في قوله : بيض — سمر ، شرقا — غربا ، غورا — نجدا ، هزلا — جدا ، الحر — عبد ، تامون — اسهرتموهن ، والجناس في قوله : الأسد — الأشدا ، نائل — نائل ، جاعلا — عاجلا ، جدا ، جدا ، والتقسيم في قوله : فدتك الصواهل : قبا وجردا وشم القبائل : شيبا ومردا

أما مقطعة أبي بشر بن الحوارى التي مطلعها :

أهذ مبين إنكارى وعرفانـــي مسارب الوحش أم داري وأوطانـي

فلا يوجد فيها من البديع الا الطباق في البيت المذكور .

وكذلك الحال في قصيدة ابن قسيم الحموي التي يمدح فيها عماد الدين زنكي ، ومطلعها :

بعزمك أيها الملك العظيــم تذل لك الصعاب وتستقيــم

اذ يقل فيها البديع ويمكن حصره في عدد محدود من أمثلة الطباق والمقابلة والمبالغة ...

وأما قصيدة ابن عنين في هزيمة الفرنج على دمياط التي مطلعها :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا اذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا

ومقطعة ابن مطروح في هزيمة الملك لويس التاسع على دمياط سنة ٦٤٧ التي مطلعها :

قل للفرنسيس اذا جئتـــه مقال صدق من قؤول فصيــح
آجرك الله على ما مضـــى من قتل عباد يسوع المسيـــح

فهما بعيدتان عن الصناعة اللفظية ، مع انهما مختلفتان في الاسلوب من حيث القوه واللين كما أنهما قيلتا في وقتين متباعدين نسبيا .

ومع أن قصيدة شهاب الدين محمود في فتح عكا ، التي مطلعها :

الحمد لله زالت دولة الصلــب وعز بالترك دين المصطفى العربي

هي تقليد لقصيدة أبي تمام ، إلا أنها خلت تقريبا من الصناعة اللفظية ، علما بـأن قصيدة أبي تمام فيها من الصنعة الشيء الكثير .

كل هذا يدل على أن الصناعة اللفظية لم تكن متحكمة تحكما كليا في جميع الشعـر ولذا فلا يجوز تعميم الحكم على شعر الحروب الصليبية كله ... ومع هذا ، فأننـــا نجد بعض القصائد تستبد فيها الصنعة ، لا سيما في القصائد التقليدية ، وقد بين د . محمود ابراهيم ذلك في شعر ابن القيسراني (١) ، ولذلك سنعرض فيما يلـي أمثلة أخرى من نظم شعراء آخرين ، فمن ذلك قصيدة ابن منير الطرابلسي التي مطلعها :

أقوى الضلال وأقفرت عرصاتـــه وعلا الهدى وتبلجت قسماتــــه

فان كل بيت فيها لا يخلو من البديع ، لان ابن منير عرف عنه ولعه بالزخرفة اللفظيـــة . وأكثر ما استعمل من أنواع البديع :

المقابلة ومن أمثلتها : أقوى الضلال وأقفرت عرصاته ... البيت ، والبيت الثانـــي ، الجناس : وهو كثير ، ومنه : وثباته — وثباته — شداته شذاته ... التجنيس بالاشتقاق وهو كثير أيضا منه :

---

(١) صدى الغزو الصليبي ص ٢٠٣ — ٢٠٨

* وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا — إصلاته وصلاته وصلاتـــه
* حطـ القوامس فيه بعد قماصها — ضرب يصلصل في الطلى صعقاته
* نبذوا السلاح لضيفهم عاداتـه — قرس الفوارس والقنا غاياتـــه
* يمسي قنانيه بنات قيونـــه — فوق القوانس والقنا قيناتـــه
* ومضى يؤنب تحت إنب همـــة — أمست زوافر غيها زفراته ... الخ .

الطباق : نار ـ ظلماته ، صبوح ـ غبوق ..
المبالغة : ومن أمثلتها :

* صبوحه خمر الطلى وغبوقـــه — تدافى النفوس تديرها نشواتـــه
* لم تنبت الآجام قبل رماحـــه — شجرا أصول فروعه ثمراتـــه
* في كل يوم تستطيل قناتـــه — فوق السماء ، وتعتلي درجاته

ثم قصيدة ابن سناء الملك التي مطلعها :

هل الكرك الثكلى بأولادها انتهت — عن النسل مما جرعته من الثكل

ومنها من أنواع البديع ما يلي :
ايهام التناقض كقوله :

* يكلفهم غزو الفرنج بدارهـــم — ويسهل الا أنه ليس بالسهل
* اذا كنت من قتلاك تملأ سبلها — فكيف يسير الجيش فيها بلا سبل
* وكانت بهم تلك البلاد تنجست — فتاب دم منهم عن الماء في الغسل
* ولم أر أرضا جادها الغيث قبلها — وتصبح تشكو بعده غلة المحل

المبالغة : ومنها :

* عساكر أرواح العساكر شربهـا — وليس لها غير الفوارس من أكـــل
* جيادهم تخشى المثار من القنا الـ — قصيف وتخشى في الدماء من الوحل
* وما شرقوا بالماء والريق اذ رأوا — جيوشك لكن بالفوارس والرجل

المقابلة ، ومنها :

* وصبحت أخرى صبحتك بأهلهـا — ومسّتك إذ أمسيت وهي بلا أهـــل
** أحسوا بطل [3] للخريف فجاءهـــم — ربيع من النبل المدد كالوبـــــل

* * * *

هذه نظرة سريعة في مدى وجود البديع في شعر الحروب الصليبية ، ولنا أن نتساءل : هل أدى البديع الى تضبيب الصورة أو اطفاء الانفعال ؟

قد يكون الجواب بالايجاب بالنسبة الى بعض القصائد التي سعى قائلوها الى تزيين شعرهم بالزخارف اللفظية كيفما اتفق ، ولكن المتصفح للملحق الشعري ، يجد أن البديع لم يكن طاغيا على كل الشعر ولا على اكثره ، ومما يقوم دليلا على ما ذهبنا اليه ، تلك الرسائل الشعرية التي تبادلها الشاعران :

: أسامة بن منقذ وطلائع بن رزيك ، اذ ان الشاعرين لم يحفلا كثيرا بالصنعـــة ، ولنضرب على ذلك مثلا واحدا من شعر كل منهما ، فقد كتب طلائع الى أسامة رسالـــة شعرية قال فيها :

قل لابن منقذ الـــذى … قد حاز في الفضل الكمـــالا

. . . .

كم قد بعثنا نحـوك الا … شعار مسرعة عجـــــــالا (م)

مثل الحسان الغيـد تا … هت في محاسنها دلالا

علا بذلت لنا مقـــا … لا حين لم تبذل فعـــــالا

مع أننا نوليـــك صب … را في المودة واحتمـــالا

ونبئك الاخبـــار ان … أضحت قصارا أو طـــوالا

سارت سرايا لقصـــ … د الشام تعتسف الرمـــالا

تزجي الى الاعداء جر … د الخيل اتباعا توالـــى

تمضي خفافا للمضـــا … ربها وتأتينا ثقـــالا

حتى لقد رام الأعـــا … دى من ديارهم ارتحالا ٠٠٠ الخ (١)

فأجابه أسامة بقوله :

يا أشرف الـــوزراء أخـ … لاقا وأكرمهم فعـــــالا

وأعزهم جارا وأمـــ … نعهم حمى وأجـــل آلا

نبهت عبدا طالمـــا … نبهته قدرا وحـــالا

وعتبته فأنلتـــــه … شرفا ومجدا لن ينـــالا

أما السرايا حين تســـ … جع بعد خفتها ثقـــالا

ومسيرها في كـــل أر … ض تبتغي فيها المجـــالا

فكذاك فضلك مثل عـــد … لك في الدنى سار وجـــالا

فاسلم لنا حتى نـــرى … لك في بني الدنيا مثـــالا

واشدد يديك بود نـــو … ر الدين والقاه الرجـــالا

فهو المحامي عن بـــلا … د الشام جمعا أن يـــذالا

وعبيد أملاك الفـــر … نج ، وجمعهم حالا فحالا ٠٠٠ الخ (٢)

* * *

على أنه يسترعي الانتباه في شعر هذه الفترة عدة أمور أهمها :

أ ـ المبالغة في التصوير ، سواء في وصف الجيش الاسلامي أم الجيش الفرنجي أو في وصف القائد ، ولعل ذلك يعود الى طبيعة الظروف التي نظم فيها هذا الشعر وما يكتنفها من جو انفعالي ٠

---

(١) الروضتين جـ١ ق ١ ص ٢٩٢

(٢) المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٩٤

ب. تركيز الشعراء على ابراز صورة البطل أكثر من ابراز صورة المعركة ، وهذا يرجع الى طبيعة الشعر الذى يبحث دائما عن شخصية محورية تتمثل في البطل ، فضلا عن أن الشعر يضيق بالتفصيلات الواقعية ، يضاف الى ذلك ، ان الشاعر العربي رأى أن تعظيم القائد الاسلامي ، والقائد الفرنجي دلالة على ضراوة القتال المنتظر .

ج. انخفاض مستوى الشعر الحربي زمن المماليك . فلو قارنا الانتاج الشعري في القرن الاول من الصراع الاسلامي الصليبي ، لوجدناه أرقى مستوى ، وأغزر انتاجا ، ولعل ذلك يرجع الى أن الصراع في ذلك القرن كان شديدا وحاسما ، بينما شالت كفة الصليبيين في القرن السابع الهجرى ، وأصبح موقفهم في الغالب موقف الدفاع ، فخفت حدة الصراع في الواقع وفي نفس الشاعر أيضا .

* * *

وبعد هذا العرض السريع ، قد يكون من المفيد التعرض لآراء بعض الدارسين لادب هذه الفترة ، ويمكن تصنيفهم في ثلاث فئات :

أ . فئة تتهم أدب الفترة عامة بأنه سطحي وعقيم .

ب. فئة معجبة به أشد الاعجاب .

ج. فئة وقفت وقفة اعتدال بين الفئتين المتعارضتين ، واتخذت لها موقفا توفيقيا ، فجاءت أحكامها معتدلة .

فمن يمكن أن يصنفوا في الفئة الاولى كل من د . أحمد الجندى ، و د . عبدالعزيز الأهواني ، ود . زكي المحاسني ، وقد وصف د . أحمد الجندى شعر هذا العصر بأنه "سطحي يكرر نفسه في أفكاره وتعبيراته وصناعته ... فقير في صوره وأخيلته ولمحاته الذهنية ..." (١) ، ثم أرجع بدء هذا الانحطاط الى أوائل القرن الخامس الهجري ، والتمس أسبابا لذلك ، فوجدها في ولع الشعراء بالمحسنات اللفظية ، نظرا لان الممدوحين من أصل غير عربي ، مما حدا بالشعراء الى التلاعب بالالفاظ ، لتعجب اولئك الممدوحين (٢) .

أما د . عبدالعزيز الاهواني فقد وصف عصر الايوبيين بالعقم والانحراف ، وقد استند في حكمه هذا على شعر ابن سناء الملك ، ووصفه بأنه عمل عقلي بحت ... ثم عمم حكمه على شعر ابن سناء الملك على شعر العصر الأيوبي كله (٣) .

---

(١) ديوان عرقلة الكلبي ، المقدمة ص : ك

(٢) ديوان فتيان الشاغوري ، المقدمة ص : ٦

(٣) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ص ٢٠٢ وانظر ص ٧ ، ١٠

أما د . زكي محاسني فلم يدرس هذا العصر ، وانما درس شعر الحرب في العصرين الاموى والعباسي الى عهد سيف الدولة ، ومع ذلك فقد قال : " فاذا صح وصف التطور (في شعر الحرب) بأدوار ، فيكون شعر الحرب في العصر الجاهلي في طور التولد والبداوة ، وفي العصر الاموى في طور النمو والتحضر ، وفي العصر العباسي في طريق التكامل ... وفي عصر الحروب الصليبية انحدر شعر الحرب الى درك التقاعس على الرغم من وفرة الاسباب المعنوية ، لان شعراء العرب في عهد هذه الحروب كانوا في دور ضعف وانخذال في اللفظ والاسلوب ، وكان أغلبهم صاحب ركة في القول ، وصناعة تفسح بالكلفة ... " (١) .

ويخشى أن يكون في هذه الأحكام تعميمات جائرة ، انطلاقا من شواهد انتقائية ولنبدأ بقول د . أحمد الجندى : إن الشعر سماعي يكرر نفسه .

فإن الناظر في كتاب الروضتين يصعب عليه أن يحكم بالسماجة على شعر مرتبط بأحداث جسام خطيرة مرت بها الامة الاسلامية ، وقد صور الشعر هذه الاحداث بما احتوت عليه من صراع طويل بين أمتين وحضارتين . ثم ان التكرار الذى يراه الدكتور أحمد الجندى هو ظاهرة لا بد من وجودها على درجة من الدرجات ، في شعر نظم في فترة واحدة ، وفي ظل مؤثرات كبيرة واحدة أيضا ، وحتى مع ذلك ، فإنه يصعب اطلاق هذا الحكم دونما تحفظ على جميع الشعر الذى نظم في هذه الفترة ، لأن التلون موجود فيه مثلما أن قدرا من التماثل والتكرار موجود فيه كذلك .

أما تحديد زمن الضعف بالقرن الذى بدأت فيه الحروب الصليبية ، فهو حكم على النواحي السياسية في المشرق الاسلامي ، ولا يوجد دائما ارتباط بين الضعف السياسي وضعف الادب ، واذا وجد ارتباط بينهما فانه لا يمكن أن يظهر مباشرة في النصوص الادبية ، لان الظواهر الادبية لا تولد بين يوم وليلة ، بل هي تحتاج الى زمن كاف لكي تولد أو لكي تتبدل .

أما تعليله الضعف الادبي بوجود البديع ، فان ظاهرة البديع لم تكن بالظاهرة الطارئة في القرن الخامس الهجري ، بل هي قد وجدت قبل ذلك ، وأصبحت لافتة للانظار بشكل واضح خلال القرن الرابع الهجري .

واما الحديث عن أعجمية الممدوحين ، فان العبرة في الامر ، هو التمكن من اللغة العربية ، وليس العرق ، بدليل أن كلا من ابن العميد ، والصاحب بن عباد في القرن الرابع كانا من غير العرب ، ولكن تمكنهما من العربية وتذوقهما لادبها ، جعلاهما من أعلام الادب العربي في عصرهما ، بل ومن عوامل النهوض بالادب بما كانا يقدمانه

---

(١) زكي مبارك ، شعر الحروب في أدب العرب ص ٣٤٠

من تشجيع ورعاية لادباء عصرهما *.

ولو أننا جارينا د. أحمد الجندي حول كون الممدوحين من أصل غير عربي، مما دفع الشعراء الى تبسيط شعرهم، فان تبسيط الشعر لا يكون بالتلاعب اللفظي، لأن التلاعب اللفظي يعقد المعنى ولا يبسطه، ومعلوم أن البديع يحتوى الكثير من التلاعب اللفظي، فكيف يكون اعجاب الممدوحين من أصل غير عربي بشعر معقد، قد يصعب عليهم فهمه ؟.

أما وصف د. عبد العزيز الأهواني الادب في العصر الايوبي بالعقم والانحراف، فان فيه قسوة حتى على شعر ابن سناء الملك وحده، لوجود قصائد لهذا الشاعر لا ينطبق عليها الحكم القاسي الشامل الذى أصدره عليه الدكتور الاهواني، فكيف بالامر اذا عم هذا الحكم على جميع شعراء عصره، ومنهم من لا يسير في شعره على مدرسته، وبالتالي، فلا يجوز أن يشجب شعرهم بناء على مقاييس لا تنطبق عليهم ؟.

وأما حديث د. زكي المحاسني عن نزول الشعر العربي في هذه الفترة الى درك التقاعس، فان الرد عليه لا يختلف كثيرا عن الرد على الناقدين السابقين ...

ولعل من المناسب هنا أن نذكر أقوال بعض من الدراسين الأخرين لهذه الفترة:

أ. يرى د. عبد اللطيف حمزة أن الشعر الصليبي يمتاز بالقوة والصدق، لأنه شعر الحماسة في محنة الحروب الصليبية، ثم إنه شعر العاطفة الذى يتصل بشعور ديني عميق في نفوس المسلمين (١).

ب. وصف "جب" هذا العصر بأنه العصر الفني للأدب، وأنه يتميز بالابداع والعبقرية تدر امتيازه بالبراعة والصنعة أو المهارة الفنية (٢).

---

* أنظر عن تشجيع حكام العصر للأدب كتاب: الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية ص ٢٥، وكتاب: المدخل في الادب العربي ص ١١٣، وانظر كذلك النجوم الزاهرة ٦/ ٥٨ ـ ٥٩

(١) أدب الحروب الصليبية ص ١٧٤ وانظر ص ١٩، وكتاب الشعر العربي في العراق ص ٣٠٥ وكتاب الادب في مصر والشام ص ٦٩٩

(٢) محمد زغلول سلام، ضياء الدين بن الاثير ص ٢٢ عن:

Gibb, Arbic literature p. 82

جـ• كما وصف جودت الركابي أدب هذا العصر بأنه محافظ على رونقه ، وتماسك في العصر المملوكي بعض الشيء ، ولكنه انحدر انحدارا واضحا في العهد العثماني (١) هذا ، وقد بالغ بعض الدارسين في تقرير شعر الفترة ، فذهبوا الى حد القول : ان الشعر في هذا العصر اتصل بالواقع اتم اتصال ودبت فيه حياة لم تكن تعهد قبل ذلك في الشعر العربي (٢) •

ولا بد أن نتساءل بعد أخيرا : هل تأثر الادب العربي بالفرنج وأدبهم ؟ الجواب على ذلك بالنفي ، وذلك لأنه قد تبين أن الفرنج كانوا أدنى في مستواهم الحضاري من المسلمين ، ولان العداء المستحكم بين الطرفين طيلة هذه الفترة ، وقلة الاحتكاك الثقافي فيما بينهما ، بالاضافة الى اختلاف مصادر الادب العربي وأسسه وركائزه عن مصادر أدب الفرنج وأسسه وركائزه — كل هذه العوامل ، جعلت تأثر الادب العربي بأدب الغزاة يكاد لا يلحظ •

أما تأثير الفرنج عامة بسلوكهم وعاداتهم ولغتهم في الادب العربي ، فهو كذلك تأثير محدود ، وقد يتجلى بدخول بعض الالفاظ الجديدة في الشعر ، كالقومص ، والبرنس ، والسّير ، وبعض الاسماء كالداوية والفريرية والهنغري * •

كما أن بعض الشعراء قد أورد في شعره صورا وألفاظا مأخوذة من حياة الصليبيين ، مثل : هيكل ، قونة ، قديس ، قس ، بربارة ، مَدْرَس ، برنس ، قداس ... الخ • **

---

(١) جودت الركابي ، الأدب العربي من الانحدار الى الازدهار ط١ مط زيد بن ثابت ، نشر دار الفكر دمشق سنة ١٣٩٤ ص ٧

(٢) محمود مصطفى ، الادب العربي في مصر الى نهاية العصر الايوبي ٢٧٧

* انظر على سبيل المثال : الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٥٦ — ١٥٩ ، والخريدة قسم شعراء الشام ١/ ٥٩

** انظر ديوان ابن القيسراني ورقة ٦٢ — ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٠

الفصل الثاني

أولا : النثر الادبي :

شارك النثر الشعر في تقديم صورة الصليبيين ، بما قدمه من أوصاف دقيقة لبعض المشاهد ، أو سرد لبعض الحوادث ، ويمكن عرض الانماط الادبية التي شاركت في رسم صورة الصليبيين على النحو التالي :

١٠ التواليف الأدبية ٢٠ الرسائل ٣٠ الخطب ٤٠ نصوص الهدن

١٠ التواليف الأدبية :

عرف عن هذا العصر كثرة التآليف في مختلف ميادين الحياة الانسانية ، ويهمنا منها كتب الادب أو الكتب التاريخية الادبية ، وهي تتراوح بين الالتزام بالصور البيانية المختلفة والانفكاك عنها . وخير ما يمثل النوع الاول كتاب " الفتح القسي في الفتح القدسي " للعماد الاصفهاني ، وهو مثقل بالسجع وأنواع البديع ، ومن خير ما يمثل النوع الثاني كتاب " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " لابن شداد ، وقد تخلى فيه صاحبه عن البديع إلا ما جاء عفو الخاطر ، ثم كتاب "الاعتبار " لأسامة بن منقذ ، وهو يمثل أسلوب المذكرات الشخصية ، فجاءت لغته ، في معظمها ، عادية ، وربما تنحدر أحيانا الى العامية ، وكتاب " رحلة ابن جبير " ، وهو يمثل كتابة الملاحظات العامة التي يشاهدها الرحالة ، وقد يجنح أحيانا الى استعمال الصور البيانية ،ولكن هذا ليس هو النمط الكتابي الغالب عليه .

أ . الفتح القسي في الفتح القدسي :

لسنا معنيين هنا بتقويم الكتاب الا من حيث الصياغة الفنية ، فهو كما يبدو من العنوان ،يستلهم نفحات قس بن ساعدة كاهن العرب وخطيبها ، ليعرض تاريخ الفتوح العظمى زمن صلاح الدين واهمها فتح القدس ، وهو يقدم مادته بلغة مسجوعة ،وألفاظا منتقاة ، قد تصل الى حد الغرابة ، ان اضطره السجع الى ذلك .

ولكن مقدرته اللغوية سهلت له استعمال ألوان البديع ، فقد يشتق من الالفاظ الاجنبية مفردات تجانسها ، يقول على سبيل المثال في وصف فرق الفرنج التي استعدت لمعركة حطين : " وللداوي دَوي ، وللاسبتاري هوي ، والبارونية يقدم على البوار ،والتركبولي يلقي نفسه على النار ، وقد ثاروا والثار قد وَقَدَ ، والجو قد عقد وقد انصدع زجاج الزجاج ، وارتجز عجاج العجاج ، وانفض الفضاء ،

وأنقض القضاء ، وكادوا يفلون الجمع ، ويجمعون الفل ، ويجلون العقد ، ويعقدون ما انحل ... " (١)

ونلاحظ دقة الوصف في أوصافه مع أن كتابه حفل بأنواع البديع ، فالنص السابق محشو بالسجع ، والطباق ، والجناس ، والتجنيس بالاشتقاق اللغوي ، ويمكن أن نجد ذلك في أية صفحة من صفحات الكتاب .

ومن الأمثلة الأخرى للوصف الدقيق ، وصفه للخلاف الذي نشب بين امراء الفرنج ثم تصافيهم قبيل المعركة ، يقول : " وقد كان بينهم (الفرنج) حينئذ خلف نبعث وحليف منتكث ، ووقود نار بين الانفار ، ووقود شرار بين الشرار ، ولما استدنوا حين حينهم ، سعوا في اصلاح ذات بينهم ، ودخل الملك على القومص ، ليتقضى له بالود الأخلص ، ورمى عليه بنفسه ، واستبدل وحشته بأنسه ... " (٢) .

والذي يتابع نصوص العماد في الفتح القسي ... يلاحظ أنها مستقاة من مصادر مختلفة ، فبعضها مأخوذ من البيئة في انسانها وحيوانها ، كقول العماد عن البركيس : " وكان البركيس من أكبر طواغيت الكفر ، وأغوى شياطينه ، وأضرى سراحينه وأنهش ذئابه ، وأنجس كلابه ... وأعوى أعوانه ، وأخون إخوانه ، وأبشى بغاثه وأرعى حماته ، ... وأروغ ثعالبه وألسب عقاربه ... " (٣) .

وبعضها مأخوذ من الحرب وما يرتبط بها من شؤون القتال وأدواته ونتائجه ، كقول العماد : " ... هذا ، والمنجنيقات ترميهم ، والمفوقات الموفقات تصميهم وتصميهم ، والقتال قائم ، والنزال دائم ، والصخور تفلق والصدور تقلق ، والاحجار تقلق ، والاحجار تقلقل ، والاسوار تحلحل ... والاوداج شاخبة كالعيون البواكي ، والأبصار دامية من الزنبوركات والناوكات النواكي ، وهناك العقل معزول بالتهور ، والرأي مشغول عن التدبر ، والعلم والحلم خالطهما الجهل والسفاه ، والجرخي يبتدئ بسم الله ، والمنجنيقي يختم بلا إله إلا الله ، والزراق بالنار يذيب القارورة ، ويحرق الساتورة ... فلم يسمع الا ضجة الحديد من الحديد ، وعجة الشديد من الشديد ، وجعجعة رحى الحرب ، وقعقعة أداة الطعن والضرب ، وصلصلة الزبر ، وولولة الزمر ، وجمجمة دعاة النصر ، وهيضلة رعاة الكفر ... " (٤) .

---

(١) الفتح القسي ٦٢
(٢) المصدر السابق ٦٥
(٣) المصدر السابق ١٠٢ وانظر ص ٢٤٠
(٤) المصدر السابق ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦

وقد توخذ هذه الصور من الحياة الدينية للمسلمين وخصومهم ، كما يتراءى في النص السابق ، وفي قول الكاتب نفسه : " وبات الاسلام للكفر محاربا ، والتوحيد للتثليث مقاتلا ، والهدى للضلال مراقبا ، والايمان للشرك محاربا ، وعبثت دركات النيران ، وهنئت درجات الجنان ، وانتظر ما لك واستبشر رضوان .. " (١)
وفي قوله : " وهو (الصليب) اذا نصب أقيم ورفع ، سجد له كل نصراني وركع وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، فهو معبود هم ومسجود هم ... " (٢) .
وثمة مصادر أخرى للصور البيانية التي استعملها العماد ، تستبين منها ثقافته الواسعة المتشعبة ، ولا مجال هنا لاستقصائها ... إلا أن أي قارئ لهذه النصوص لا تخفى عليه مقدرة العماد اللغوية ، كما لا تخفى عليه قدرته على استخلاص الصور البيانية من مصادر كثيرة متنوعة ، منها ما هو حسي ، ومنها ما هو ذهني ... وقد يتأتى عن الافراط في الزخرف البياني عند العماد ، أن تجور الصياغة اللفظية على وضوح المعنى وحرارة الانفعال .

ب. النوادر السلطانية :

وهو كتاب عن صلاح الدين كتبه قاضيه ابن شداد مستعينا بمشاهداته ، وما وصله من مشاهدات غيره وسماعهم ، وقد حرص فيها على تحديد الزمان والمكان دون تأنق زائد ، أو تصيد للالفاظ ، فجاءت كتابته سهلة ، تستقي من الوقائع ، وتعتمد على الحقائق في تحريك المشاعر ، دونما افراط في استعمال الصور البيانية .
وباستطاعة القارئ ملاحظة ذلك في معظم ما ورد في الكتاب من نقل للأحداث ، فها هو ذا يصف خروج الفرنج الى التلول المحيطة بعكا وصفا دقيقا ، ثم يصف تصدي المسلمين لهم ، فيقول : " فامتدوا على التلال ، وساروا الهوينى غير مفرطين في أنفسهم ، ولا خارجين من راجلهم ، والرجالة حولهم كالسور المبني ، يتلو بعضهم بعضا ، حتى قاربوا اليزك ، ولما رأى المسلمون ذلك ، واقدام العدو عليهم ، تداعت الشجعان ، وتنازلت الكماة الى الاقران ، وصاح السلطان (قدس الله روحه) بالعساكر الاسلامية : " يا للاسلام " .
فركب الناس بأجمعهم ووافق فارسهم راجلهم ، وشابّهم شيخهم ، وحملوا حملة الرجل الواحد على العدو المخذول ، فعاد ناكصا على عقبيه ، والسيف يعمل

(١) الفتح القسي ص ٧٨
(٢) المصدر السابق ٨٤

فيهم ، والسالم منهم جريح ، والطالب هارب ... يعثر جريحهم بقتيلهم ، ولا تلوي الجماعة منهم على قبيلهم ، حتى لحق الخيام من سلم منهم ، وانكفوا عن القتال أياما ، وكان قصاراهم أن يحفظوا نفوسهم ويحرسوا رؤوسهم ... " (١) .

فهذا النص لوحة ناطقة ، تتضح فيها حركة العدو ، وتصدّي المسلمين لهم ، مع وصف الحالة النفسية عند الطرفين .

كل ذلك بلغة شائقة مأنوسة لا تبعد كثيرا عن الاستعمال اليومي ، وانما فيها من الحرارة ما يمليه الموقف المثير ، وفيه من الفصاحة ما يتطلبه وصف موقف كهذا . وأما ما جاء فيه من سجع ، فلا افراط فيه ، وهو متماسك غير متخلخل ، وألفاظه ذات ايحاءات مثيرة ، اكتسبت من تواتر الاستعمال في سياقات معينة ، مثل قوله : وصاح السلطان : يا للاسلام " و "كان قصاراهم أن يحفظوا نفوسهم ويحرسوا رؤوسهم " .

ولكن ، مع حيوية الوصف وحرارته ، فان الكاتب لم يقدم صورة ذات تسلسل لاحداث المعركة ، شأنه في ذلك شأن العماد ، وذلك لأن الكاتبين يقدّمان صورة المعركة العامة ، بدلا من أن يسيرا مع المعركة خطوة خطوة ، الى أن يصلا الى نتيجتها . وقد يتعجل الواحد منهما في الوصف الى النتيجة كما فعل ابن شداد ، حتى وهو يصف حصار مدينة استمر سنتين كاملتين ، سيطر الفرنج خلالها على مشارف المدينة - عكا - من البر والبحر معا . في حين أن الآخر - العماد - يعرض لنا لوحة زخرفية حافلة بالصور الجزئية المعتمدة على التزويق اللفظي ، وهو يقدم لنا وصفا لوقعة عكا الآنفة الذكر ، يقول :

" وأصبح الفرنج ، يوم الاربعاء العشرين من شعبان ، قد رفعوا الصلبان ، وزحف أسودهم في غاب المران ، وطارت بهم خيولهم عقبانا على عقبان ، وجرت بالجبال منهم رياح ، وجالوا دون التل كأنهم له وشاح ، وخرجوا على التعبية ، وشفعوا نداء الكفر بالتلبية ، وشغفوا بالتربية للتربية ، وتقدموا متزرين ، وعزبوا مصممين ، وثاروا ثورة الشيطان ، وفاروا فورة الطوفان ، وقدموا الراجل أمام الفرسان ، وزحفوا ، أرسالا ، وحفزوا ، طلابا ، ودبوا دبيب الليل الى النهار ، وهبوا هبوب النيل الى المضمار ، وأجروا سيول السوابق الى القرار ... " (٢) .

والمدقق في هذا الوصف ، يجد أنه يتكون من قطع فسيفسائية ، تتعلق أجزاؤها الأولى بوصف لحركة الفرنج السريعة ، وهم مدججون بالسلاح على سوابق الخيل ، وأصواتهم تتردد بالتعريض والاستشارة ، ولكن المشهد

---

(١) النوادر السلطانية ١٠٧

(٢) الفتح القسي ص ٣٠٨ - ٣٠٩

الأول سرعان ما يندغم في المشهد الثاني ، المتعلق بتقدم الفرنج نحو خصومهم : " وتقدموا معتزمين ، وعزموا مصممين ... " ثم يبدأ المشهد الثالث بالحديث عن حركة للجيش الفرنجي سرعان ما تتصاعد ، الى أن تصل قمة السرعة ، وعندها تنهمر الدماء سيولا في ساحة المعركة .
وهذه المشاهد الثلاثتكون معا صورة المعركة ، بما فيها من حركات وأصوات وأدوات قتال .
ولعل عدم توفيق الشعراء والكتاب في رسم صورة متكاملة للمعركة ، تتسلسل فيها المشاهد وتتتابع ، هو عدم وجود الكثير من الوصف الحربي الدقيق في تراثنا الادبي ، وربما كان غياب الاديب كذلك عن مسرح القتال في كثير من الحالات ، عاملا من عوامل فقدان التسلسل والتتابع والتكامل .

جـ . الاعتبـــــار :

وهو كتاب مذكرات ، كتبها أسامة بن منقذ في شيخوخته عن مشاهداته وتجاربه ، وأراد بها تقديم العبرة لغيره ، فهو ــ لذلك ــ ان وصف معركة لم يكتف بروايه أحداثها فقط ، وانما يذكر ، كذلك ، ما يتعلق بروح الاحداث ، وما يمكن استخلاص العبرة منه . يقول في موقعة بيت جبرين التي كان سببها اشمان أسامة وبعض فرسانه النار في بيادر الفرنج : " فاجتمع الفرنج ــ لعنهم الله ــ من تلك الحصون ، وهي كلها متقاربة ، وفيها خيل كثيرة للافرنج ، لمضادة عسقلان ومراوحتها ، وخرجوا على أصحابنا ، فجاءني فارس يركض ، وقال : قد جاء الافرنج ، فسرت الى أصحابنا ، وقد وصلت أوائل الفرنج ، وهم ــ لعنهم الله ــ أكبر الناس احترازا في الحرب ، فصعدوا على رابية ووقفوا عليها وصعدنا نحن على رابية مقابلهم ، وبين الرابيتين فضاء .. لا ينزل منهم فارس خوفا من كمين أو مكيدة ، ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم .. " (١) .
فقد أراد بذلك التدليل على احتراز الفرنج ، بالرغم عن كثرتهم وقلة أعدائهم فلم ينزلوا عن الرابية خوفا من كمين أو مكيدة ، وقد أورد ملاحظات كثيرة في كتابة " الاعتبار " عن تأخر طبهم ، وعدم غيرتهم ... الخ .
ومن العبر التي يقدمها للقارئ أن القتال ودخول المعارك لا يقصر الآجال ، ويذكر على ذلك بعض المشاهدات ، منها : أن شابا فرنجيا جاء الى أسامة ليصير فرسان المسلمين ، ويصفه بحسن الهيئة ، الا أن فيه آثار جراح كثيرة وفي وجهه ضربة سيف قدته من مفرقه الى حكمته ، ومع ذلك ما زال حيا (٢)

---

(١) الاعتبـــار ص ١٧
(٢) المصدر السابق ص ٦٩

أما لغة هذا الكتاب فهي سهلة لا تبتعد عن اللغة المحكية كثيرا ، بل كثيرا ما اتكأ على اللغة المحكية في وصفه ، مثل قوله عن سرعة فرسه بأنها : " مثل الطير " (١) وقوله على لسان الفرنج الذين سألوا بواب مدينة شيزر " ايش اسم هذا البلد " (١) وقوله عن فرنجي أراد اصطحاب ابنه (ابن اسامة) معه الى اوروبا بأن كلامه : " ما يخرج من رأس عاقل " (١) .

د . رحلة ابن جبير :

وهي مذكرات كتبها الرحالة ابن جبير حين مر ببلاد الشام ، فوصف بعض المناطق مثل حصن الكرك ، وبانياس ، وعكا .. ووصف علاقة الفرنج بالمسلمين في بعض المناطق .. كما سجل ما شاهده من سلوك الصليبيين ، وعاداتهم في الافراح ومن ذلك قوله عن معاملة أهل عكا من الفرنج للمسلمين : " ان المسلمين يعانون أهوالا ومشقات ، منها الذلة والمسكنة الذمية ، ومنها سماع ما يفجع الافئدة من ذكر من قدس الله ذكره ، وأعلى خطره ، لا سيما من أراذلهم ، وأسافلهم ومنها عدم الطهارة والتصرف بين الخنازير " (٢) . وعن معاملتهم للأسرى المسلمين ، يقول : " ومن الفجائع التي يعانيها من حل بلادهم ، أسرى المسلمين ، يرسفون في القيود ، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد والاسيرات المسلمات كذلك ، في أسواقهن خلاخيل الحديد " (٢) .

ويلاحظ أن لغة الكتاب ترتفع عن لغة أسامة بن منقذ ، فهي بعيدة عن التعبيرات المحكية ، وقد يتأنق المؤلف أحيانا في بعض الفصول حتى يشيع الزخرف اللفظي والصور البيانية فيما يكتب (٣) .

ويلاحظ الباحث ، أيضا ، أن هذه المذكرات بأنواعها قد غذت الأدب العربي بمادة شائقة وأضافت اليه أبوابا جديدة ، وقد جاء بعضها مثقلا بالزخرف اللفظي ، في حين كان اكثرها بعيدا عن الصنعة والتكلف ، وهي في مجملها سواء منها المثقلة بالزخرف أو الخالية منه - تقدم صورة واضحة عن أوضاع كانت قائمة في تلك الفترة ، وتستمد هذه الصورة قيمتها من أنها وليدة المشاهدة لا السماع ...

---

(١) انظر الاعتبار على الترتيب ص ٤٠ ، ٤٨ ، ١٣٢ ، وأنظر ١٣٦ ، ١٤٨
(٢) رحلة ابن جبير ٢٨٠
(٣) انظر رحلة ابن جبير ص ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ... الخ

٢ ـ الرسائـــــــل :

أدت الحروب المتوالية بين المسلمين والفرنج الى نهضة النثر ، لا سيما نثر الرسائل بما كانت تحمله هذه الرسائل من بشائر بالفتـــح أو تهنئة أو طلب نجدة أو أوامر عسكرية . ومن خلال هذه الاغراض يمكن للقارئ أن يخرج بمادة خصبة عن الفترة التي ندرسها .

وقد يكون من المفيد الوقوف على الرسائل الديوانية والاخوانية لنستشف مـــــن خلالها السمات الفنية لهذا النوع من النثر .

الرسائل الديوانية :

من الصعب على الباحث أن يحصر عدد الرسائل الديوانية لان كثيرا منها لـــــم يصلنا ، ولان الكثير مما وصلنا لم يصل كاملا ، بل جاء نتفا ، نجد الكثير منها في كتاب الروضتين ، وفي مخطوطة " الفاضل من كلام القاضي الفاضل " ، والذى جاء منهـــا كاملا عدد قليل موزع بين صبح الاعشى والروضتين ، ونهاية الارب ، ورسائل ابن الاثير

وسنتناول بالتحليـــل بعض هذه الرسائـل لنقف على سماتها الفنية .

١. رسالة القاضي الفاضل الى الديوان العزيز ببغداد ، بفتح القدس وما معــه ، واقتلاع ذلك من أيدى الفرنج ، واعادته الى ما كان عليه من الاسلام ، وهي :

" أدام الله أيام الديوان العزيز النبوى الناصرى ، ولا زال مظفر الجد بكل جاد ، غني التوفيق عن رأى كل رائد ، موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد ، مستيقـــظ النصر ،والسيف في جفنه راقد ، وارد الجود ، والسحاب على الارض غير وارد ، متعدد مساعي الفضل ، وان كان لا يلقى الا بشكر واحد ، ماضي حكم القول بعزم لا يمضي الا بنيل غوى ، وريش راشد ، ولا زالت غيوث فضله الى الاولياء أنواء الى المرابع وأنوارا الـــى المساجد ، وبعوث رعبه الى الاعداء خيلا الى المراقب وخيالا الى المراقد .

كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجرى مجرى التباشير بصبـــح هذه الخدمة ، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة ، فانها بحر للاقلام فيه سبح طويـــل ، ولطف الحق للشكر فيه عبء ثقيل ، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب ،ويسري للاســـرار في اظهارها مسارب ،ولله في اعادة شكره رضا ، وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه هذا مضى ، وقد صارت أمور الاسلام الى أحسن مصايرها ، واستتبت عقائد أهله على بصائرها ، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط ، وصدق الله أهله دينه فلما وقع الشرط حصل المشـروط ، وكان الدين غريبا فهو الآن في وطنه ، والفوز معروضا فقد بذلت الانفس في ثمنه ، وأمـر أمر الحق وكان مستضعفا ،وأهل ربعه وكان قد عيف حين عفا ، وجاء أمر الله وأنوف أهــــل الشرك راغمة ، فأدلجت السيوف الى الآجال وهي نائمة ، وصدق وعد الله في اظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها حيان الحين ، واســـترد

المسلمون تراثا كان عنهم آبقا ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون بمطيفا على النأي طارقا ، واستقرت على الاعلى أقدامهم ، وخفقت على الاقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها وان كانت صخرة كما تشفى بالماء غللهم .

« ولما قدم الدين عليها عرف منها سويداء قلبه ، وهنأ كفوءها الحجر الاسود ببت عصمتها من الكافر بحربه ، وكان الخادم لا يسعى سعيه الا لهذه العظمى ، ولا يقاسي تلك البؤس الا رجاء هذه النعمى ، ولا يناجز من استمطله في حربه ، ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادى في عتبه ، الا لتكون الكلمة مجموعة ، والدعوة الى سامعها مرفوعة ، فتكون كلمة الله هي العليا ، وليفوز بجوهر الاخرة لا بالعرض الادنى من الدنيا وكانت الالسنة ربما سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار ، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار ، ومن طلب خطيرا خاطر ، ومن رام صفقة رابحة تجاسر ، ومن سما لان يجلي غمرة غامر ، والا فان القعود يلين تحت نيوب الاعداء المعاجم فتعضها ، ويضعف في أيديها مهر القوائم فتقضها ، هذا الى كون القعود لا يقضي فرض الله في الجهاد ، ولا يرعى به حق الله في العباد ، ولا يوفى به واجب التقليد الذى تطوقه الخادم من أئمة قضوا بالحق ، وبه كانوا يعدلون ، وخلفاء الله كانوا في مثل هذا اليوم للمسألون ، لا جرم أنهم أورثوا سرورهم وسريرهم خلفهم الاطهر ونجلهم الاكبر ، وبقيتهم الشريفة ، وطلعتهم المنيفة ، وعنوان صحيفة فضلهم لا عدم سواد العلم وبياض الصحيفة ، فما غابوا لما حضر ، ولا غضبوا لما نظر ، بل وصل الأجر لما كان به موصولا ، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولا ومنه مقبولا ، وخلص اليهم الى المضاجع ما اطمأنت به جنوبها والى الصفائح ما عبقت بجيوبها ، وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميرا والنهار بصيرا ، والشرق يهتدى بأنواره ، بل ان أبدى نورا من ذاته هتف به الغرب بأن واره ، فانه نور لا تكنه أغساق السدف ، وذكر لا تواريه أوراق الصحف .

« وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذى تشظت قناته شفقا ، وطارت فرقه فرقا ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الاكثر عددا وحصا ، فكلت حملاته ، وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان ، عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الارض لها حليفه ، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ونام جفن سيفه ، وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون ، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون ، وأضحت الارض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث ، والرب المعبود الواحد وكان عندهم الثالث ، فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الكفر مهتومة ، وطوائفه المحامية ، مجتمعة على تسليم البلاد الحامية وشجعانه المتوافية ، مذعنة ببذل المطامع الوافية ، لا يروق في ماء الحديد لهم عصره ، ولا في فناء الافنية لهم نصره ، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبدل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أيدى أصحاب المشأمة الى أيدى أصحاب الميمنة .

" وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الاولى نأمده الله بمداركته ، وأنجده بملائكتـــه فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صرعة لا يحييان معها بمشيئة الله كفر وأسر منهم من أسرت به السلاسل ، وقتل منهم من فتكت به المناصل ، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار ، وعن أنصاف مجيل ناته تتلهم بالسيوف الافلاق والرماح الاكسار ، فنيلوا بثار من السلاح ونالوه أيضا بثار ، فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بهـا حتى عادت كالعراجين ، وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين ، وكـم فارسية ركض عليها فارسها السهم الى أجل فاختلسه ، وفغرت تلك القوس فاها فاذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة فافترسه ، وكان اليوم مشهودا ، وكانت الملائكة شهودا ، وكان الكفر مفقودا ، والاسلام مولودا ، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنـم وقودا ، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه ، واكد وصله بالدين وعلائقه : وهو صليب الصلبوت ، وقائد أهل الجبروت ، وما دهموا قط بأمر إلا وقام بين دهمائهـم يبسط لهم باعه ، ويحرضهم وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه ، لاجرم أنهم تهافتت على نارهم فراشهم ، وتجمع في ظل ظلامه خفاشهم ، فيقاتلون تحت ذلك الصليـب أصلب قتال وأصدقه ، ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عقد وأوثقه ، ويعيدونه سورا تحفـر حوافر الخيل خندقه ...

" ولما لم يبق الا القدس ، وقد اجتمع اليها كل شريد منهم وطريد ، واعتصـم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد ، وظنوا أنها من الله مانعتهم ، وأن كنيستها الى اللـه شافعتهم فلما نازلها الخادم رأى بلدا كبلاد ، وجمعا كيوم التناد ، وعزائم قـد تألفت وتألبت على الموت فنزلت بعرصته ، وهان عليه مورد السيف وأن تموت بغصته ، فزاول البلد من جانب فاذا أودية ، ولجج وعرة غريقة (هكذا) ، وسور قد انعطف عطف السوار ، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار ، فعدل الى جهة أخرى، كـان للمطامع عليها معرج ، وللخيل فيها متولج ، فنزل عليها ، وأحاط بها وقرب منها ، وضربت خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ، ويزاحمه السور بأكتافه ، وقابلها ثم قاتلها ، ونزلها ثم نازلها ، وبرز اليها ثم بارزها ، وحاجزها ثم ناجزها ، فضمها ضمة ارتقـب بعدها الفتح ، وصدع أهلها فاذا هم لا يبسرون على عبودية الجد عن عتق الصفـح ، فراسلوه ببذل قطيعة الى مدة ، وقصدوا نظرة من شدة ، وانتظارا لنجدة ، فعرفهم في لحن القول ، وأجابهم بلسان الطول ، وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصـون عصيها ، وحبالها ، وأوتر لهم قسيها التي تضرب فلا تفارقها سهامها ، ولا يفـارق سهامها نصالها ، فصافحت السور باكتافه ، فاذا سهمها في ثنايا شرفاتها سـواك ، وقدم النصر نسرا من المنجنيق يخلد اخلاده الى الارض، ويعلو علوه الى السماك ، فشج مرادع أبراجها ، وأسمع صوت عجيجها ، ورفع مثار عجاجها ، فأخلى السور من السيارة ، والحرب من النظارة ، فأمكن النقاب أن يسفر الحرب النقاب ، وأن يعيد الحجر الـى سيرته من التراب ، فتقدم الى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله ، وحل عقده بضربـه

الاخرق الدال على لطافة أنمله ، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته ، الى أن كادت ترق لمقبله ، وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الارض ، وفتح في السور باب سد من نجاتهم أبوابا ، واخذ نقب في حجره قال عنده الكافر : يا ليتني كنت ترابا ، فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور ...." (١) .

يجدر القول ، قبل الشروع في تحليل هذه الرسالة ، أن القلقشندي صاحب "صبح الاعشى" قد تحدث عن بدايات الرسائل الديوانية ، وحصرها في جملة أساليب ، فوجد أنها تبدأ بذكر الديوان العزيز والدعاء للخليفة (٢) ، وقد تكون البداية في صدر الرسالة ، وقد تكون بعد الآيات التي تستهل بها الرسالة .

وكما هو واضح ، تبدأ هذه الرسالة بالدعاء للديوان العزيز ، ثم تنقل البشرى بالفتوحات ، وما جرى فيها من أحداث انتهت بتسليم الفرنج وطردهم . وخلال ذلك يعرض القاضي الفاضل أحوال المسلمين قبل الفتح وبعده ، لتظهر قيمة الفتح والفاتح . ومن هنا ندرك أن هذه الرسالة ، وغيرها من الرسائل الديوانية ، ملتزمة بطرائق معينة .

والرسالة تدور حول مضمون واحد هو معركة حطين وفتح القدس ، وقد ضمن القاضي الفاضل رسالته عدة أفكار ، هي : الدعاء للديوان ثم شرح حال المسلمين قبل الفتح وبعده ، ثم وصف الاحداث التي أدت الى الفتح ، ووصف خروج الفرنج ... على أن البارز في الرسائل الديوانية عامة ، ومنها هذه الرسالة ، الميل الى التصوير والتشخيص ، والاكثار من البديع ، والجنوح الى التكرار .

أما مصادر الصور في هذه الرسالة فهي :

١ . دينية :

ومن ذلك قوله : وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها وان كانت صخره كما تشفى بالماء غللهم ، وقوله : " وكان اليوم مشهودا ، وكانت الملائكة شهودا ، وكان الكفر مفقودا ، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا .

---

(١) صبح الاعشى ٦/ ٤٩٦ ــ ٥٠٢ .
(٢) المصدر السابق ٦/ ٤٩٦ .

٢• حربية :

وتتجلى في النص التالي : " ••• فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صرعة لا ينهض معها بمشيئة لله كفر ، وأسر منهم من أسرته السلاسل ، وقتل منهم من انتكت به المناصل ، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار ، وعن انصاف مخيل فانه قتلهم بالسيوف الافلاق والرماح الكسار ، فنيلوا بثلو مسن السلاح ونالوه أيضا بثار ، فكم أهله تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين ، وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين ••• النص " • وفي النص صور أخرى يمكن الرجوع اليها •

٣• اجتماعية :

مأخوذة من حياة الناس ، وهي صور متعددة كتعدد مظاهر الحياة الاجتماعية ، فمنها ما هو مأخوذ من البشرى ، ومنها ما هو مأخوذ من البيع والشراء ، ومنها ما هو مأخوذ من العادات الاجتماعية كالسمر واللباس والمصافحة والتأثر ••• ومنها ما هو مأخوذ من الحياة الزراعية •

٤• ثقافية :

وتشمل صور التعلم وأدواته كالاقلام والحبر ، والمعلومات التاريخية والمعلومات العلمية كالحديث عن الانواء والكواكب والشفاء والتداوي •

٥• بيئية :

مأخوذة من الطبيعة كالظل والسحاب والبحر ، والاسد والغابات والرياض •••

وقد مال الكتاب كثيرا الى التشخيص وبث الحياة في الجمادات ، كما فعل القاضي حين صور الصخرة بالقلب الذى حل في جسم الدين ، وهي بذلك تلتقي مع الحجر الاسود ثم صورها بالمرأة المجاهدة التي خلعت نفسها من عصمة الكفر ، كما صور الارض المقدسة كلها بالمرأة الطامث زمن الغزو الصليبي ، وأما بعد استرجاعها فقد تطهرت منهم ، وكذلك صور القومية بالحيوان الشرس الذى يفغر فاه ليفترس عدوه •

على أن جمال التشخيص يتجلى في وصفه لتحصينات القدس ، وما قامت به المجانيق الاسلامية من نقب للأسوار وتحطيمها ، فهو يشبه السور المحيط بالقدس بالسوار المحيط باليد ، وتتخلل هذا السور الابراج المشرفة على المناطق المجاورة ، ثم يذكر نزول صلاح الدين عليها ، وقتاله لها ، ووصفه اياها بالمنجنيقات وأنواع الاسلحة الخفيفة ، فالسهام تصافح السور ، وتدخل في الشرفات كأنها سواك ، والمجانيق تقصف الابراج فتهزها بالصوت وتدمرها بالحجارة ، فيرتفع الغبار ، وتتناثر الحجارة ، ويتبرأ بعضها من بعض ،

ابن الخلال رئيس الديوان ، فسأله : ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات • فرد عليه القاضي — كما يروي ابن الاثير في كتابه الوشي المرقوم — ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن ، وكتاب الحماسة ، فقال : في هذا بلاغ ••• ثم أمره بملازمته ، ••• حتى تدرب بين يديه ثم أمره بحل شعر الحماسة من أوله الى آخره مرتين •• (١) •

وهذا يدل على أن حل الشعر والقرآن والحكم والامثال والحديث أصبح من مستلزمات الكتابة الفنية في العصر الايوبي وما بعده • وفي الرسالة الموردة آنفا اعتمد القاضي على الاقتباس الحرفي والمعنوي ، ومن أمثلة ذلك قوله : " وصدق الله أهل دينه " ، وقوله : " وصدق وعد الله في اظهار دينه على كل دين " (٢) وقوله : " فتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى " (٣) وقوله : وكان اليوم مشهودا وكانت الملائكة شهودا (٤) وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا (٥) وظنوا أنها من الله مانعتهم وان كنيستها الى الله شافعتهم (٦) فقبل منهم البذول عن يد وهم صاغرون (٧) وقال الكافر : يا ليتني كنت ترابا (٨) فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور كما يئس الكفار من أصحاب القبور (٩) ، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور (١٠) •

---

(١) انظر مجلة الهلال ، العدد التاسع — السنة الحادية والثلاثون ، ايلول سنة ١٩٧٣ مقال د • محمد أحمد خلف الله ، عن القاضي الفاضل ص ٤٢

(٢) اشارة الى الآية : "ليُظهِرَه على الدّين كلِّه ولو كَرِهَ المشركون" • الصف ٩

(٣) = = " وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى وكلمةُ الله هي العليا" • التوبه ٤٠

(٤) = = " ذلك يوم مجموعٌ له الناس وذلك يوم مشهود" • هود ١٠٣

(٥) = = " وأولئك هم وقود النار" • آل عمران ١٠

(٦) = = " وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله" • الحشر ٥٩

(٧) = = " حتى يُعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون" • التوبة ٢٩

(٨) = = " ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا" • النبأ ٤٠

(٩) = = " قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفارُ من أصحاب القبور" • الممتحنة ١٣

(١٠) = = " حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغَرور" • الحديد ٥٧

ومن التأثر بالحديث قوله : وكان الدين غريبا فهو الآن في وطنه ، ومن الحكم قوله : ومن طلب خطيرا خاطر ، ومن رام صفقة رابحة تجاسر ، ومن سما لان يجلي غمرة غامر .

٣ - الطباق :

وهو قليل في هذه الرسالة بالنسبة الى السجع ، ومن أمثلته : تقلص - المبسوط البؤسى - النعمى ، الاخرة - الدنيا ، سواد - بياض ، غابوا - حضر ، كسرة - جبر ... الخ .

٤ - الجناس :

وهو قليل أيضا ، ومن أمثلته : أنواء - أنوار - المراقب - المراقد ، العنان - العيان ... الخ .

أما الاطناب وتكرار المعاني فهما سمتان عامتان في الرسائل الديوانية التي تحمل انباء الفتوحات ، اذ يعبر الكاتب عن الفكرة في عدة جمل ، ويكرر المعنى في أشكال مختلفة ، ولو نظرنا في رسالة القاضي السابقة لوجدنا فيها هذه السمة بوضوح ، فهو يقول مثلا : "وكتاب الخادم هذا ، وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شققا ، وطارت فرقه فرقا ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الاكثر عددا وحصى ، وتكلمت حملاته وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان ، عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان ... " فالنص كله يدور حول معنى واحد ، وهو ضعف العدو ، وهذا المعنى تكرر من قبل في الفقرات السابقة أيضا ، كما تكرر في الجمل السابقة ، فتكسر رماحه وطيران فرقه ، وتثلم سيفه ... كلها تعني ضعف العدو .

ومما يتسم به أسلوب هذه الرسالة المبالغة ، فقد بالغ القاضي في كل شيء : وهو يزف البشرى ، وهو يصف الفتح ، وهو يصف اندحار العدو وهزيمته ... ، ويمكن للقارئ أن يرجع الى الرسالة ليجد الشواهد على هذه المبالغة ، ونجتزئ هنا فقط ببعض حديثه عن البشرى : " فانها بحر للاقلام فيه سبح طويل ، ولطف الحق للشكر فيه عبء ثقيل ، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب ، ويسرى للاسرار في اظهارها مسارب ... "

والمبالغة في التعبير مما جنح اليه كتاب الدواوين عامة في هذا العصر ، ولعل حرص القاضي الفاضل على تعظيم النصر والمنتصر ، من الحوافز التي دفعته الى هذه المبالغة ، ولكنه أفرط ، وافراطه هذا لا يرجع الى تحكم السجع والزخرف اللفظي في كتابته ، فقد كان تمكنه من المادة اللغوية كفيلا بأن يخرجه من قيود البيان التي قد يتعثر بها من هو أقل منه معرفة باللغة " .

أما انفعال القاضي بما يكتب ، فأمر لا ريب فيه ، وهو انفعال يبعثه أولا أنه رجل من الأمة التي ابتليت بالغزو والاحتلال ، ثم استطاعت التخلص منهما ، ويوجهه بعد ذلك أن الكاتب لم يكن مجرد رجل عادي من صفوف الناس ، بل كانت له منزلة عند صلاح الدين لا تكاد تدانى ، حتى عده السلطان من صناع النصر في القدس ، والاسلوب الذى اعتمده القاضي في هذه الرسالة ، هو أسلوب شاعرى ينطلق فيه خيال الكاتب ، وتتدفق فيه عواطفه ، كما في أى نص شعرى .

ب. رسالة العماد الاصفهاني الى الديوان العزيز ببغداد بمناسبة فتح طبرية يقول :

" ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون " ، الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد ، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ، وعلى أن اجرى هذه الحسنة التي ما اشتمل على شبهها كرام الصحائف ، ولم يجادل عن مثلها في المواقف ، في الايام الامامية الناصرية زادها الله غررا وأوضاحا ووالى البشائر فيها بالفتوح غدوا ورواحا ، ومكن سيوفها في كل مارق ، من كل كافر ومارق ، ولا أخلاها من سيرة سرية تجمع بين مصلحة مخلوق وطاعة خالق ، وأطال أيدى أوليائها لتحمي بالحقيقة حمى الحقائق ، وأنجزها الحق وقذف به على الباطل الزاهق ، وملكها هوادى المغارب ومرامي المشارق ، ولا زالت آراؤها في الظلمات مصابح ، وسيوفها للبلاد مفاتح ، وأطراف أسنتها لدماء الاعداء نوازح .

والحمد لله الذى نصر سلطان الديوان العزيز وأيده ، وأظفر جنده الغالب وأنجده ، وجلا به جلابيب الظلماء وجدده ، وجعل بعد عسر يسرا ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا ، وهون الامر الذى ما كان الاسلام يستطيع عليه صبرا ، وخوطب الدين بقوله : " ولقد مننا عليك مرة أخرى " : فالأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة ، والاخرى هذه التي عتق فيها من رق الكآبة ، فهو قد أصبح حرا ، فالزمان كهيئته استدار ، والحق بمهجته قد استنار ، والكفر قد رد ما كان عنده من المستعار وغسل ثوب الليل بما فجر الفجر من أنهار النهار ، وأتى الله بنيان الكفر من القواعد ، وشفى غليل صدور المؤمنين برقراق ماء الموردات البوارد ، أنزل ملائكة لم تظهر للعيون اللاحظة ، ولم تخف عن القلوب الحافظة ، عزت سيما الاسلام بمسومها ، وترادف نصره بمردفها ، وأخذت القرى وهي ظالمة فترى مترفيها كأن لم تؤو فيها ، فكم أقدم بها حيزوم ، وركض فانبعث سحاب عجاج مركوم وضرب فاذا ضربه كتاب جراح مرقوم ، ولولا فان الحروب انما عقدت سجالا ، وانما جمعت رجالا وانما دعت خفافا وثقالا ، فاما سيوف تقاتل سيوفا ، أو زحوف تقاتل زحوفا ، فيكون حد الحديد بيد مذكرا وبيد مؤنثا ويكون السيف في اليد الموحدة يغني بالضربة الموحدة وفي اليد المثلثة لا يغني بالضرب مثلثا ، وذلك أنه في فئتين التقتا ، وعدوتين لغير مودة اعتنقتا ، وان هذه النصرة ان رويت عن ملائكة الله جحدت كراماتهم ، وان رويت عن البشر فقد عرفت قبل مقاماتهم ،

فما كان سيف يتيقظ من جفنه قبل أن ينبهه الصريخ ، ولا كان ضرب يطير الهام قبل ضرب يراه الناظر ويسمعه الصيخ ، فكم قرية كأنها هجرة الموت وبها التاريخ ، وكم طمنة تخر لها هضاب الحديد ولها شماريخ .

والحمد الله الذى أعاد الاسلام جديدا ثوبه ، بعد أن كان جديدا جبله ، مبيضا نصره ، مخضرا نصله ، متسعا فضله ، مجتمعا شمله ، والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم ، والنصر الكريم ، ما يشرح صدور المؤمنين ، ويمنح الحبور لكافة المسلمين ، ويكرر البشرى بما أنعم الله به — من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الاخر الى يوم الخميس منسلخه — وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما سخرها الله على الكفار " فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية " ورايتها الى الاسلام ضاحكة كما كانت من الكفر باكية ، فيوم الخميس الاول فتحت طبرية وفاض ري النصر من بحيرتها ، وقضت على جسرها الفرنج فقضت نحبها بحيرتها ، وفي يوم الجمعة والسبت كسر الفرنج الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة ، وأخذ الله أعداءه بأيدى أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة .

وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكا بالامان ، ورفعت بها أعلام الايمان ، وهي أم البلاد واخت إرم ذات العماد ، وقد أصبحت كأن لم تغن بالكفر وكأن لم تفتقر من الاسلام .

وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور ، وقلب ملك الكفر الاسير جيشه المكسور مكسور ، والحديد الكافر الذى كان في الكفر يضرب وجه الاسلام ، قد صار حديدا مسلما يفرق خطوات الكفر عن الاقدام ، وأنصار الصليب وكباره ، وكل من المعمودية عمدته والدير داره ، قد أحاطت به يد القبضة ، وأخذ رهنا فلا تقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وطبرية قد رفعت أعلام الاسلام عليها ، ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبيها وعمرت الى ان شهدت يوم الاسلام وهو خير يوميها ، بل ليس من أيام الكفر يوم فيه خير ، وقد غسل عن بلاد الاسلام بدماء الشرك ما كان يتخللها فلا ضرر ولا ضير ، وقد صارت البيع مساجد هم بها من آمن بالله واليوم الاخر ، وصارت المناصر مواقف لخطباء المنابر واهتزت أرضها لوقوف المسلمين فيها وطالما ارتجت لمواقف الكافر ، والبأس الامامي الناصري قد أضحى مشكاته على يد الخادم حتى بالدني في الكنائس ، وان عز أول الاسلام بحط تاج فارس ، فكم حطت سيوفه في هذا اليوم من تاج فارس ... " (١)

أول ما يلفت النظر في هذه الرسالة أنها تبدأ بآية قرانية ، متلوة بالدعاء للديوان العزيز والسلطان صلاح الدين ، ثم ينتقل الكاتب الى وصف حالة الاسلام قبل الفتح وبعده ، ففتح القدس هو محور الرسالة الذى تدور الاحداث حوله .

وقد انتزع العماد صورة البيانية من الحياة الدينية والاجتماعية ومصادرها ، ومن الطبيعة وأجواء الحرب . ومن السهل على الناظر في الرسالة أن يجد الشواهد على هذه الصور .

---

(١) صبح الاعشى ٦/٥١٧ـ٥٢٠ ، الروضتين ٢/٨٩

والعماد كالقاضي الفاضل ، يعتمد كثيرا على التضمين ،كما في قوله : " وغسل شحوب الليل بما فجر الفجر من أنهار النهار ، وأتى الله بنيان الكفر من القواعد " وفي قوله : "وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور ، وقلب الكفر الأسير جيشه المكسور مكسور ،والحديد الكافر الذي كان في الكفر يضرب وجه الاسلام قد صار حديدا مسلما يفرق خطوات الكفر عن الاقدام ..."

ويطغى البديع على هذه الرسالة كما يطغى على رسائل العماد عموما ، ولو أخذ القارئ أية فقرة لوجد فيها ألوان البديع ، ومنها السجع والاقتباس اللفظي والمعنوي والتضمين ، ومن أمثلة الاقتباس اللفظي قوله : "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون (١) وقوله : "ولقد مننا عليك مرة أخرى" (٢) وقوله : "فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية" (٣) . ومن الامثلة على حمل الايات القرآنية قول الكاتب : الحمد لله على ما أنجز هذا الوعد ، على نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد (٤) وقذف به على الباطل الزاهق (٥) وجعل بعد عسر يسرا (٦) وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا (٧) ما كان الاسلام يستطيع عليه صبرا (٨) ،وأتى بنيان الكفر من القواعد (٩) ، أنزل ملائكة لم تظهر للعيون اللاحظة (١٠) ، وأخذت القرى وهي ظالمة فترى مترفيها كأن لم تو.و فيها (١١) ، في فئتين التقتا (١٢) ... الخ .

---

(١) سورة الانبياء آية ١٠٥ (٢) سورة طه آية ٣٧
(٣) سورة الحاقه آية ٦٩
(٤) اشارة الى قوله تعالى : "لله الامر من قبل ومن بعد" " الروم ٤
(٥) = = = "بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق" الانبياء آية ١٨
(٦) = = = " فان مع العسر يسرا " الشرح آية ٥
(٧) = = = "لا تدري لعلَّ الله يُحْدِثُ بعدَ ذلك أمرا " الطلاق٦٥
(٨) = = = "قال إنك لن تستطيع معي صبرا " الكهف ٦٧
(٩) = = = "قد مكر الذين من قبلهم ،فأتى الله بنيانهم من القواعد " سورة النحل آية ٢٦
(١٠) = = = " ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة الاف من الملائكة منزلين" سورة آل عمران آية ١٢٤
(١١) = = = "وكذلك أَخْذُ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة " هود ١٠٢
(١٢) = = = "قد كان لكم آيةٌ في فئتين التقتا .. " آل عمران ١٣

ومن الأمثلة على حل نصوص الاحاديث النبوية ، قوله : فهو قد أصبح حـــرا فالزمان كهيئته ، استدار ٠٠٠ومن ألوان البديع كذلك ، الطباق ، ويبدو في الالفاظ التالية : مخلوق ـ خالق ، الحق ـ الباطل ، المقارب ـ المشارق ، عسر ـ يســر الليل ـ النهار ، مذكر ـ مؤنث ، الموحد ـ المثلث ـ ضاحكة ـ باكية ، جديــد جديد (البالي)٠٠٠ الخ ٠

ومنه الجناس ، ويتمثل في الكلمات التالية : سيرة ـ سرية ، جدد ـ جدد ، استدار ـ استنار ، بُحَيْرتها ـ بحيرتها ، نصره ـ نصله ٠٠٠ (١)٠

وأما الاطناب والتكرار ، فاننا نجد منهما ما وجدناه من قبل عند القاضي الفاضل كقول العماد : الحمدلله الذى أعاد الاسلام جديدا ثوبه ، بعد أن كان جديدا حبله مبيضا نصره ، مخضرا نصله ، متسعا فضله ، مجتمعا شمله ٠٠٠ فهذه الجمل تؤدى معنى واحدا هو قوة الاسلام بعد الفتح ٠

ورغم هذا التشابه في السمات الفنية بين النصوص إلا أننا نحس ببعض فــوارق في طريقة التناول ، فالعماد قسم الفتح على الأيام ووصف ما جرى في كل يوم ، ثم أن الجمل التي اعتمدها خاصة في نقل البُشرى ، كانت أقصر من جمل القاضي الفاضـل ، وقد يشعر هذا القصر في الجمل بسرعة الحركة ، ثم إن العماد دخل في موضوع البُشرى مباشرة ، إذ قدم آيات الحمد المرتبطة بالفتح ، بينما أبتدا القاضي الفاضل رسالتــه بالدعاء للخليفة العباسي ثم لصلاح الدين ٠

وبعد ، فقد نتساءل : لو سقط اسم كاتب كل من الرسالتين ، هل يمكننــا أن نتعرف عليه من خلال السمات الفنية لرسالته ؟ ٠

أغلب الظن أننا لن نستطيع ذلك ، لأن السمات الفنية مشتركة بين الرسالتـين الى حد بعيد ،والواقع أنني حاولت فعلا ـ حين كنت أقرأ بعض الرسائل في كتــاب الروضتين ـ أن أردّ هذه الرسائل الى أصحابها فلم أستطع ، لأنني لم أجد المميزات الخاصة التي تضع حدا فاصلا بين رسائل أشهر كتاب الدواوين في هذه الفــترة : القاضي الفاضل ، والعماد الاصفهاني ، وابن الاثير ٠

---

(١) انظر وصف العماد لرسالته بمناسبة الفتح ، يقول : وأوردت المعنى البلوغ في اللفظ الوجيز ،ووشحت ووشعت ، وشعبت وأشبعت ، وأطلت وأطلبت ٠٠ وأبدعت وأبدعت ، ورصعت وصرعت ، وطابقت وجانست ، ووافقت وآنست ٠٠٠ الفتح ١٢٣

ويقودنا هذا الى مناقشة آراء الذين ذكروا أن القاضي الفاضل ابتكر الطريقة التي سميت " الفاضلية " باسمه ، وهي التي تعتمد على نثر القرآن ، والتشخيص والاكثار من البديع (١) ، فقد تبين أن هذه المميزات الفنية مشتركة عند عدد من الكتاب الذين عنوا بالبديع زمن الفاضل وقبله ، مما يدل على أن القاضي لم يبتكر طريقة خاصة في الكتابة ،وانما كانت شهرته ومشاركته في الاحداث السياسية ، وارتباطه بشخصية صلاح الدين هي التي ساعدت على نسبة هذه الطريقة اليه دون غيره . ومعلوم أن القاضي الفاضل كان كاتبا زمن الدولة الفاطمية ثم زمن الدولة الايوبية ، وهو الذى كتب العهد لصلاح الدين بالوزارة ، لكنه حتى تلك الفترة لم يكن قد اشتهر بعد ،لانه لم يكن قد اضطلع بدور سياسي كبير ، وبقي الأمر كذلك ، الى أن تمت الوحدة بين الشام ومصر على يد صلاح الدين ، فتولى تصريف الأمور في مصر في غياب صلاح ، وكان على اتصال دائم به ، واعتمد عليه صلاح الدين كثيرا ... واستفاد من قلمه ، حتى قال فيه : "ما فتحت البلاد بالعساكر ، وانما فتحتها بقلم القاضي الفاضل"(٢) .

ويمكننا القول ، إن رسائل القاضي الفاضل رسائل سياسية فكرية وجدانية تتصل بأعمال صلاح الدين وحياته اتصالا وثيقا ، بينما تقتصر رسائل العماد وابن الاثير على مراسلاته الرسمية " دون غيرها .

جـ. رسالة الملك المنصور قلاوون الى اليمن مبشرا بفتح " صافيتا " من انشاء محيي الدين بن عبدالظاهر ، يقول الكاتب :

" أعز الله تعالى نصرة المقام العالي ، المولوى ، السلطان الملكي المظفرى الشمسي ، وأشركه في كل بشرى تشد الرحال لاستماعها ، وتحل الحبى لاستطلاعها وتتهافت التواريخ والسير على استرقاعها ، وتتنافس الاقلام والسيوف على الافهام بأجناسها وأنواعها ، ولا خلا موقف جهاد من اسمه ، ولا مصرف أجر من قسمه ، ولا غرض هناء من سهمه ، ولا أفق ابتهاج من بزوغ شمسه وطلوع نجمه ، سطر الملوك هذه البشرى والسيف والقلم يستمدان : هذا من دم وهذا من نقس ، ويمضيان هذا في رأس وهذا في طرس ، ويتجاوبان : هذا بالصليل ، وهذا بالصرير ، ويتناوبان : هذا يستميل وهذا يستمير ، وكل منهما ينافس الاخر على المشافهة بخبر هذا الفتح الذى

(١) انظر الخريدة ١/ ٣٥ ، خزانة الادب ٢٤٠ ، الروضتين ١/ ٢٤٢ ، الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي ص ١٥٩ ـ ١٦٠ ، أدب الحروب الصليبية ١٨٥ ، أمير شعراء المشرق ، ابن نباته المصري ص ٩١

(٢) مرآة الزمان ٨/ ٤٧٢

سمتْ اليه هم الملوك الاوائل ، ولا وسمت به سيرهم التي بدت أجيادها من حـــلاه عواطل ، ولا دارَ فـي خَلَدٍ أن مثله يتهيأ في المدد الطويلة ، ولا تشكل في ذهن أنه سيدرك بحول ولا حيلة ، وهو النصر المرتب على حركتنا التي طوى الله لركابنا فيهـــا المراحل وألقى بحور عساكرنا من بحر الحديد المالح الى الساحل ، وهجومنا على البلاد الفرنجية : وهي طرابلس وصافيثا وأنطرسوس ومرقية والمرقب ، كما يهجم الشهب وصلدمتنا صدورها كما يصدم الليث ، وسلوكنا منها حيث لم يبق حيث ، وما جرى فـــي هذه الوجهة من اغارات أحسنت متقلب الأعنة ، ومتسلق السيوف ، ومخترق الاسنة ، ومـــا تهيأ منها من فتوح صافيتا التي هي أم البلاد ، ومنتجع الحاضر والباد ، وكونهـــا قدمت نفسها في جملة ما يقرى به الضيف ، وقالت : هذا فتوح حضر على هذا الفتـوح لهذا السيف ، وتلطفت في مسح أطراف الامان ، وطلبت شكرا ومنا شكران ، وأحضرت الينا من أهلها الوقت وهدت السيوف في أعناقهم فتشبهت بها الاغلال ، وأنفت أيمان أهـــل الايمان من مصافحتهم لأنهم أصحاب الشمال ، فأطلقهم سيفنا وأقله يمتد الى من هـــو أعز منهم مالا ، وأكثر احتفالا ، وأبز مالا ، وأهز سيوفا قصارا ورماحا طولا ، واستطار منها شرار نار الحرب الموقدة الى غيرها من القلاع ، واستطال الى سواها من الحصون منهم الباع فلا حصن الا وافترت ثنيته عن نصر مسهل ، وفتح معجل ومؤجل ... الخ (١) .

بدأت هذه الرسالة بالدعاء لمقام المرسل اليه ، كتلك الرسائل السابقة ، ويجـد القارئ في هذه ما وجدناه في تلك من سمات فنية ، فالسجع ملتزم به من أول الرسالة الى آخرها ، والطباق والجناس يشكلان عنصرا مهما من عناصر البيان فيها ، ولكن اعتمـــاد الكاتب على حل القرآن والشعر أقل في هذه الرسالة مما هو في الرسالتين السابقتـــين ، وقد اكثر الكاتب من استعمال التشخيص ، فبعث الحياة في السيف والقلم ، وأنشـــأ مفاضلة بينهما على ما هو معهود في هذا العصر من مناظرات بين السيف والقلم ، ومنهـا مناظرة طويلة بينهما لجمال الدين بن نباته المصري (٢) .

ومن التشخيص كذلك وصفه لحصن الاكراد بأنه انسان متكبر يستطيع أن ينزل ضربته بالشام وقت ما يشاء ، ثم يصوره بأنه مقر للصقور ، ومربض للاسود ، يقول : " فمن ذلك حصن الاكراد الذى تاه بمحلقه على الممالك والحصون ، وشمخ بأنفه عن أن يمتد الى مثله يد الحرب الزبون ، وغدا جاذبا بضبع الشام ، وآخذا بمخانق بلاد الاسلام ، وشللا في يد البلاد ، وشجا في صدر العباد ، تنقض من عشه صقور الاعداء الكاسرة ، وترتاع من سطوتها قلوب الجيوش الطائرة ، وتربض بأرباضه آساد تحمي تلك الاجام ، وتفوق مـــن تسنه سهام تصمي مفوتات السهام ، تعطيه الملوك الجزية عن يد وهم صاغرون ، ويصطفي كرام أموالهم وهم صابرون لا مصابرون .... وله مدن حوله خمس هو كالراحة وهـــي

---

(١) صبح الأعشى ٧/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥

(٢) انظر المناظرة في كتاب : الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي ص ٧٩

كالانامل ، وتكاد بروجه ترى كالمطايا المقطرة وهي منها بمنزلة الزوامل ... الخ

وفي الرسالة أيضا تشخيص لأدوات الحرب من مجانيق ورماح وسهام يقول : "ونصبنا عليها عدة مجانيق حملت في شواهق الجبال ، على رؤوس الأبطال ، فتغيظت السمهرية أن الذى تقوم به هذه ، تلك به لا تقوم ، وأن ما منها إلا له من الأيدي والرؤوس مقام معلوم ، وصار يرمى بها كل كمي مختلس ، وأروع منتهس ، وكل ليث غابة يحميها وتحميه ، فشكرا لأسود حتى غاباتها تفترس ، الى أن جثت أسوارها على الركب ، وكانت سهام مجانيقها تميل من العجب فصارت تميد من التعجب ، وكانت تطلب فصارت تهرب من الطلب ... (١) .

* * *

هذا نمط من الرسائل الديوانية ، وهناك أنماط أخرى تتميز عن هذا النمط بسمة أو أكثر من السمات ، نظرا لاختلاف الموضوع أو اختلاف الكاتب .

أما اختلاف الكتاب فالمقصود فيه انتماؤهم الى كتاب الدواوين أو عدم انتمائهم وذلك لأن كتاب الدواوين تجمع بين رسائلهم سمات عامة مشتركة : كالسجع ، والتشخيص وحل القرآن والشعر ... الخ ، في حين أن الكتاب الآخرين قد لا يقيدون أنفسهم بقيود الزخارف اللفظية ، ولا يعنونها بالبحث عن الالفاظ والصور .

ومن الامثلة على ذلك رسالة السلطان الملك المعظم تورانشاه الى الامير جمال الدين موسى بن يغمور نائبه بدمشق يبشره بهزيمة الفرنج عن دمياط . يقول :

" الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وما النصر الا من عند الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

يبشر المجلس السامي الجمالي ، بل يبشر الاسلام كافة بما منّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين ، فانه كان قد استفحل أمره ، واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد ، والاهل والاولاد ، فنودوا لا تيأسوا من روح الله .

ولما كان يوم الاربعاء مستهل السنة المباركة تمم الله على الاسلام بركاتها فتحنا الخزائن ، وبذلنا الاموال ، وفرقنا السلاح ، وجمعنا العربان والمطوعة ، واجتمع خلق لا يحصيهم الا الله تعالى ، فجاءوا من كل فج عميق ، ومن كل مكان بعيد سحيق ولما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح على ما وقع الاتفاق بينهم وبين الملك الكامل فأبينا .

---

(١) صبح الأعشى ٧/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦ ، وانظر رسالة أخرى زمن الأشرف خليل تحمل السمات نفسها ، صبح الأعشى ٧/ ٣٦٨ .

ولما كان الليل تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم ، وقصدوا دمياط هاربين ، فسرنا في آثارهم طالبين ، وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل ، ويدخل بهم الخزي والويل . فلما أصبحنا نهار الاربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى نفسه في اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج ، والتجأ الفرنسيس الى المنية ، وطلب الامان ، فأمناه وأخذناه ، وأكرمناه ، وتسلمنا دمياط بعون الله تعالى وقوته وجلاله وعظمته ." (١) .

فاذا ما قارنا بين هذه الرسالة والرسائل الديوانية السابقة نجد وجه التشابه اتكاءها جميعا على المادة القرآنية الى حد الاقتباس الحرفي .

فهي تبدأ بجملة آيات من سور مختلفة : " الحمد الله الذى أذهب عنا الحزن"(٢) "وما النصر الا من عند الله"(٣) ، "ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم"(٤) ،"وأما بنعمة ربك فحدث"(٥) ، "وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها" (٦) ، ومن الاقتباسات المعنوى قوله :" فنودوا لا تيأسوا من روح الله"(٧) ، وقوله : "فجاءوا من كل فج عميق ، ومن كل مكان بعيد سحيق"(٨) ..

ولكنّ مع هذا التشابه اختلافا واضحا في نواح أخرى بين هذه الرسائل فالسجع في الرسالة الأخيرة قليل ، ويأتي دونما جهد وطلب شديد ، ويمكن حصره في أماكن محدودة : " ويشى العباد من البلاد والأهل والأولاد "، " فجاءوا من كل فج عميق ، ومن كل مكان بعيد سحيق " .

---

(١) نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ١٠١
(٢) سورة فاطر آية ٣٥
(٣) سورة آل عمران آية ١٢٦ والأنفال آية ١٠
(٤) سورة الروم آية ٥
(٥) سورة الضحى آية ١١
(٦) سورة النحل آية ٧
(٧) اشارة الى قوله تعالى :"ولا تيأسوا من روح الله ،إنه لا ييأسُ من روْح الله إلاّ القوم الكافرون"، سورة يوسف آية ٨٧
(٨) اشارة الى قوله تعالى :"وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر، يأتين من كل فج عميق"،سورة الحج آية ٢٧

• وقصدوا دمياط هاربين ، فصرنا في آثارهم طالبين ، وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل ، ويدخل بهم الخزي والويل " ، " ... غير من ألقى نفسه في اللجج وأما الاسرى فحدث عن البحر ولا حرج ... "

وثمة اختلاف آخر ، وهو ما تتسم به هذه الرسالة من سهولة الألفاظ وبساطة المعاني ، وقلة الصور البيانية ، دون أن ينشأ عن ذلك ضحالة في المعاني • فالرسالة تعرض ما جرى في دمياط من قتال مع الفرنج ، وتصور الحالة النفسية التي كان عليها المسلمون ، من ذعر استشعروه في البداية ، ثم من ثقة ، استطاع السلطان أن يعيدها الى نفوسهم بعد ذلك ، كما تصور حالة الفرنج النفسية قبل المعركة الحاسمة وبعدها ، مع ما رافق هزيمتهم من شعور المسلمين بالتشفي ، والحديث عن العدو بزراية وسخرية وكل ذلك في إطار أسطر قليلة •

وإذ يختلف اسلوب النص باختلاف كاتبه ، فإنه يختلف كذلك باختلاف موضوعه • وقد وضع شهاب الدين محمود نمطا عاما للرسائل ، وطلب من الكتّاب التقيد بـــه • فهو يقول : " ومما يتعين على الكاتب استعماله والمحافظة عليه ، والتمسك به ، اعطاء كل مقام حقه ، فاذا كتب في أوقات الحروب الى نواب الملك عنه والى مقدمي الجيوش والسرايا ، فليتوخ الإيجاز والألفاظ البليغة الدالة على القصد من غير تطويل ولا بسط يضيع المقصد ، ويفصل الكلام بعضه عن بعض ، ولا تهويل لأمر العدو يضعف القلوب ، ولا تهوين لأمر يحصل به الاغترار ... واذا كتب عن الملك في أوقات حركات العدو الى أهل الثغور يعلمهم بالحركة للقاء العدو ، فليبسط القول في وصف العزائم ، وقوة الهمم وشدة الحمية الدين ، وكثرة العساكر والجيوش ، وسرعة الحركة وطي المراحل ... ويبرزه في أمتن كلام وأجله ، وأمكنه وأقربه من القوة والبسالة ، وأبعده من اللين والرقة ... " (١) • وهذا ما لاحظه القلقشندي فيما بعد ، اذ يقول : " واعلم أن الكتابة في فتوحات بلاد الكفر ومعاقلهم والاستيلاء على بلاد البغاة تكاد تكون على نسق واحد إلا ان مجال الكاتب في فتوحات بلاد الكفر أوسع ، من حيث عزة الاسلام على الكفر ، وظهور دينه على سائر الاديان " (٢) •

ومن الموضوعات التي برزت في الرسائل الديوانية التحريض والتوبيخ والرد على التهديد .... •

ومثال التحريض ما كتبه الشيخ بدر الدين حبيب الحلبي الى أصحاب الثغور في طرابلس ، عند ظهور الفرنج في بحر تلك المنطقة ، يقول : " المرسوم بالامر العالي أعلاه الله تعالى ، لا زالت مراسمه النافذة تبلغ أهل العصابة المحمدية غاية الآمال ،

---

(١) نهاية الأرب جـ ٧ ص ١٨٩ ـــ ١٩٠ ، وانظر حسن التوسل الى صناعة الترسل ص ١٣٤

(٢) صبح الأعشى جـ ٨ ص ٢٧٨

وأوامره المطاعة تقضي بكسر اللوسارية وشين الشوال ، أن تتقدم العساكر المنصورة بالمملكة الطرابلسية أيد الله تعالى عزائمهم القاهرة ، وأذل بسيوفهم الطائفة الكافرة ، بارتداء ملابس الجهاد ، والتحلي بحرارة الصبر على اجتلاء الجلاد ، وأن يجيبوا داعي الدين ، ويكفوا أيدى المعتدين ، ويفوقوا سهامهم ويجعلوا التقوى أمامهم ، ويشرعوا رماحهم ، ويحملوا سلاحهم ، ويومضوا بروق السيوف ، ويرسلوا نبال الحتوف ، ويهدموا بنيان الكفار ، ويطلعوا أهلة القسي بمدّ الاوتار ، ويهضموا جانب أهل العناد ، ويقابلوا البحر بحمل بحر من الجياد ، ويناظروا أمواجه بأمواج النصال ، ويقاتلوا الفرقة الفرنجية أشد القتال ، ولا يمهلوهم بالنهار ولا بالليل ، ويعدوا لهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ، وينوروا بمصابيح الرباط في سبيل الله ظلام الدجنّة ، وأن يصابروا ويصبروا فاذا استنفروا فلينفروا ، ويبالغوا في الغدو والرواح ليبلغوا الرعية من الأمن أمانيها ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : " لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها " ويعتمدوا القريب المجيب ، ويجتهدوا في كسر أصلاب أهل الصليب ، وينافسوا في أمر الاخرة ، ويدعوا الدنيا ، ويقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا ، ويشهد المواقف ويبذلوا التالد والطارف ، وليبرز الفارس والراجل ، ويظهر الرامح والنابل ، فان الجهاد سطوة الله تعالى على ذوى الفساد ، ونقمته القائمة على أهل الشرك والعناد ، وهو من الفروض الواجبة ، التي لم تزل سهام أصحابه صائبه ، فواظبوا على فعله ولا تذهبوا عن مذاهبه وسبله ، واطلبوا اعداء الله برا وبحرا ، وقسموا بينهم النكات قتلا وأسرا ، وفاجئوهم بمكروه الحرب ، وناجوهم برسائل الطعن والضرب ، وخذوا من الكفار باليمين ، وجدوا في تحصيل الربح الثمين ، ولازموا النزول بساحل البحر لمنازلة الطغاة المشركين " يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين " وسابقوا الاعنة ، وهزوا أعطاف الأسنة ، وشمروا عن ساق العزائم ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم ، واتخذوا الخيام مساكن ، واجعلوا ظهور الخيل لكم مواطن ، وانصبوا الألوية والأعلام ، واتقوا جمرة الشرذمة الخاذلة للاسلام ، ولا تخشوا من جمعهم الائل الى التفريق ، وحشدهم الذى عوعما قليل إن شاء الله تعالى غريق ، ولا تعبأوا بسفنهم البحرية ، فان سفنكم الخيل المخلوقة من الرياح ، ولا تنظروا الى مجاذيفهم الخشبية ، فان مجاذيفكم السيوف والرماح فاقلعوا قلوبهم ، وشتتوا جموعهم ، وأذهبوا الجنف والحيف ، وخاطبوهم بألسنة السيف ، وأوقدوا في قلوبهم بالتحصين والاحتراز نارا ، وادعو الله أن لا يذر على الارض من الكافرين ديّارا ، ونكسوا صليبهم المنصوب ، وبادروا الى حرب حزبهم المغلوب ، وارفعوا باليقين شك هذه المحنة ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، واهجروا في ذات الله طيب المنام ، وانقلوا الاقدام الى الاقدام ، واكشفوا عنكم أستار الضلال والملام ، واهتموا بما يعلي كلمة الاسلام والسلام ، ليرفعنكم الله الى منازل العز والتمييز ، " ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز " (١)

---

(١) صبح الاعشى ٨/ ٢٥٠ ـ ٢٥١

ويتبين من الرسالة أنها " مرسوم " بالحركة لمواجهة الفرنج الواصلين بالبحر ، ... يض لاستئصال شأفة الفرنج ، فجاءت قوية الجرس شديدة الوقع وكأنها خطبة قائد في جنده قبيل المعركة - وتشترك هذه الرسالة مع الرسائل السابقة في معظم السمات الفنية ، وتتميز عنها بشدة الوقع لاختلاف الموضوع ، فالسجع فيها سمة بارزة تتراءى في الرسالة جميعها ، وكذلك الجناس والاقتباس بنوعيه الحرفي والمعنوي ، ثم التكرار والاطناب ، من أجل زيادة التأثير ، وشحن النفوس بالانفعالات المحركة .

ومع أن هذه الصفات مشتركة في الرسائل الديوانية ، إلا أن هذه الرسالة تتميز بالحرارة الشديدة ، والانفعال القوى ، وقد جاءت عباراتها قصيرة ، وألفاظها قوية موحية بالحركة ، واقتباساتها مرتبطة بموضوع القتال والجهاد .

وقريب من هذه الرسالة رسالة شهاب الدين محمود التي يقول فيها :
" أصدرناها ومنادى النفير قد أعلن : يا خيل الله اركبي ، ويا ملائكة الرحمن اصحبي ما وفود التأييد والظفر اقربي ، والعزائم قد ركضت على سوابق الرعب الى العدى ، والهمم ... الى عدو الاسلام لو كان في ... [illegible] ... ما بينها وبينه من مدى ... " .

فهي رسالة الى مقدم سرية كشف ، يطلب فيها أن يكون خفيفا سريعا ، فجاءت الرسالة قصيرة في حجمها وفي جملها ، مثيرة في أصواتها وايحاءاتها ...

ومثال التهديد والتقريع رسالة القاضي محي الدين بن عبد الظاهر الى ملك الفرنج في طرابلس وانطاكية ، يقول " :

" قد علم القومص الجليل ... ألهمه الله رشده ، وقرن بالخير قصده وجعل النصيحة محفوظة عنده ، ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار ، وما شاهده بعد رحيلنا من اخراب العمائر وهدم الأعمار ، وكيف كنست تلك الكنائس من على بساط الارض ، ودارت الدوائر على كل دائر ، وكيف جعلت تلك الجزائر من الاجساد على ساحل البحر كالجزائر ، وكيف قتلت الرجال واستخدمت الاولاد وتملكت الحرائر ، وكيف قطعت الاشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق - ان شاء الله تعالى - والستائر وكيف نهبت لك ولرعيتك الاموال والحريم والاولاد والمواشي ، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب واستخدم الحريم وركب الماشي ، هذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت ، واذا سمعت صوتا قلت فزعا : علي هذا الصوت ، وكيف رحلنا عنك ... [illegible] ... الا لأجل معدود ، وكيف فارقنا بلادك وما بقيت فيها ماشية إلا وهي لدينا ماشية ... [illegible] ... بجارية ، ولا سارية إلا وهي بين أيدى المعاول سارية ، ولا زرع إلا وهو محصود ، ولا موجود إلا وهو منك مفقود ، وما منعت تلك المغاير التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة ، ولا ... [illegible] ... ولم يمهلنا الى

مدينتك انطاكية خبر ،وكيف وصلنا اليها وأنت لا تصدق أننا نبعد فسنعود على الأثر ، وها نحن نعلمك بما تم ، ونفهمك بالبلاء الذى عم ؛ كان رحيلنا عنك من طرابلس يوم الاربعاء ، ونزولنا انطاكية في شهر رمضان ، وفي حال النزول خرجت عساكرك للمبارزة وتناصروا فما نصروا ،وأسر من بينهم كند اسطبل، فسأل في مراجعة أصحابك ، فدخل الى المدينة ،فخرج هو وجماعة من رهبانك : وان رأيهم في الخير مختلف ، وقولهم في الشر واحد ، فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت ،وأنهم قد قدر الله عليهم الموت ، رددناهم وقلنا : نحن الساعة لكم نحاصر ، وهذا هو الاول في الانذار والاخر ، فرجعوا به متشبهين بفعلك ، ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك ، ففي بعض ساعة مرّ شأن المرشان ، وداخل الرهب الرهبان ، ولان للبلاء القسطلان ، وجاءهم الموت من كل مكان ، وفتحنا بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها ، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا فما بقي أحد منا الا وعنده شيء منهم ومنها ، فلو رأيت خيالتك وهي صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهابة فيها تصول ، والكسابة فيها تجول ، وأموالك وهي توزن بالقنطار، واماءك وكل أربع منها تباع فتشرى من مالك بدينار ... ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق والقتلى بنار الدنيا قبل الاخرة تحترق ، وقصورك وأحوالها قد حالت وكنيسة بونصر وكنيسة القسيان وقد زلت كل منهما وزالت ــ لكنت تقول : يا ليتني كنت ترابا ، ويا ليتني لم أوتَ بهذا الخبر كتابا ، ولكانت نفسك تذهب من حسرتك ، ولكنت تطفيء تلك النيران بماء عبرتك ، ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت ،ومراكبك وقد أخذت في السويدية بمراكبك ، ولصارت شوانيك من شوانيك ، ولتيقنت ان الإله الذى انطاك انطاكية منك استرجعها ،والرب الذى اعطاك قلعتها منك قلعها ومن الارض اقتلعها " (١)

فهي رسالة يقصد منها القضاء على الروح المعنوية عند العدو ،بما احتوت عليه من تهكم وتوبيخ وتقريع ، وتذكير بالهزائم ، وقد اتبع الكاتب في رسالته عدة وسائل لارهاب العدو ، والقضاء على إرادة القتال عنده ، منها تذكيره بالافعال السابقة التي قام بها الجيش الاسلامي في الارض التي كان يسيطر عليها الفرنج ، ومنها الاستهزاء به وبجيشه ، والمن عليه باطلاق سراح الرهبان ، بعد ما ذاقوا الخوف المريع الذى هو أشد من القتل ، ومنها التشفي بما أصابهم من ويلات ،ويرافق ذلك كله اظهار قوة المسلمين ،وسيطرتهم على الاعداء في جميع المجالات .

---

(١) صبح الأعشى ٨/٢٩٩ ــ ٣٠١

ومع ان هذه الرسالة موجهة الى الفرنج الا انها مسجوعة كالرسائل السابقـة ، بل ان فيها من الجناس ما لم يوجد في بعض الرسائل ، وذلك لان السجع قد أصبح سمة فنية استحكمت في الادب عامة في هذه الفترة .

ومن السمات الفنية المشتركة الاخرى ، تكرار المعاني وحل الآيات القرآنية ... على ان الناظر في الرسالة لن تفوته ملاحظة إنها كتلة انفعالات متأججة ، يمتزج فيها الاستهزاء بالتوبيخ والتهكم ، وقد اعتمد الكاتب في اظهار هذه الانفعالات على الاستفهامات الكثيرة ، في جمل تتراوح بين الطول والقصر حسب طبيعة الانفعال ففي التشفي تطول الجمل مثل قوله : قد علم التومص ... ما كان من قصدنـا طرابلس وغزونا له في عقر الدار ، وما شاهده بعد رحيلنا من اخراب العمائر وهـدم الاعمار ،وكيف كنست تلك الكنائس من على بساط الارض ودارت الدوائر على كـل دائر ،وكيف جعلت تلك الجزائر من الاجساد على ساحل البحر كالجزائر ... " وفي التوبيخ والتقريع تقصر الجمل وتشتد حتى تصبح كالسياط الشديدة اللاذعة ، ومن ذلك قوله : وأخرناك وما كان تأخيرك الا لاجل محدود ،وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود وكيف فارقنا بلادك وما أبقيت فيها ماشية إلا وهي لدينا ماشية ، ولا جارية إلا وهي في ملكنا جارية ... الخ .

ويمثل الرد على رسائل العدو رسالة بهاء الدين زهير التي كتبها بناء على طلب الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ردا على رسالة الملك لويس التاسع ملك فرنسـا ، يقول فيها :

" أما بعد ، فانه وصل كتابك ،وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن ارباب السيوف ،وما قتل قرن منا إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ الا دمرنـاه ، فلو رأت عيناك - أيّها المغرور - حدّ سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصـون والسواحل ،وأخرابنا منكم ديار الاواخر والاوائل ،لكان لك أن تَعَضّ على أناملـك بالندم ،ولا بد ان تزل بك القدم ، في يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسوء بـك الظنون ،وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، فاذا قرأت كتابي هذا فكن فيه على أول سورة النحل " أتى أمر الله فلا تستعجلوه " وكن على آخر سورة ص : " ولتعلمـن نبأه بعد حين " ونعود الى قول الله تبارك وتعالى ، وهو أصدق القائلين :" كم مـن فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين " (١)

ويلاحظ أنها رسالة قصيرة ،تحمل قوة التحدي والتهديد ،وقد استلزمت حـرارة الظرف الذي كتبت فيه ان تقل فيها المحسنات نسبيا ، إلا ما كان من سجع واقتبـاس بالرغم من قصر الرسالة ،وقد ساعد هذا القصر على اكتناز الحرارة فيها ، كما ساعد علـى ذلك طبيعة الموضوع ومقتضياته ...

---

(١) السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣٤٧

الرسائل الاخوانية :

تختلف الرسائل الاخوانية عن الديوانية باصطباغها بالصبغة الشخصية ، وهي لذلك تعتمد على التأثير الوجداني على المرسل اليه ، ولا تقتصر على الشؤون العامة للدولة .

ومن أمثلة الرسائل الاخوانية رسائل القاضي الفاضل الى صلاح الدين حين شدد الفرنج حصارهم على عكا سنة ٥٨٦ هـ ، ومنها قوله :

" وما تجدد للعدو من الشروع في آلات الحصار لعكا ، وما أرجف به من النجدتين الفرنجيتين ، الواصلة والبعيدة ، وافتراق العساكر في هذا الوقت للضرورة والتماس العسكر الشرقي الدستور للضجر ، وحاجة المولى من الإنفاق الى ما لا يسعه التدبير ، ويضيق عنه الإمكان ، ومطالبة الغني بالزيادة مع الغنى والضعيف بأكثر مما يحتاج اليه ، وضياع فرصة ، واختلاف رأي بين المتشاورين من الجماعة ، وجود الالسنة بالاراء ، وبخل الايدي بالمعونة ، وانفراد المولى بالتعب ، واشتراك الناس في الراحة ، وما ابتلى به المسلمون من مرض أظهروه ليكون عذرا لهم في القعود ، وكتمه المولى على نفسه لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النفوس ، فهذه الأمور وإن كانت شدائد ، وزائدات على الشدائد ، فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر ، وحسن الصبر ، ليشعره أن صبره يعقبه النصر ، وحسبته يعقبها الاجر ، ولو لم ير الله تعالى أن قوة مولانا أكمل القوى، وعروة عزمه أوثق العرى، لما أهّله لأن ينصر ملة لا يعرف الملوكُ غيرَ الله ينصرُها ، وغير مولانا يباشرُ النصرةَ ويحضرها ، فليس إلا التجرد للدعاء ، والتجلد للقضاء ، فلا بدّ من قدر مفعول ، ودعاء مقبول ، ومن الأمثلة المنظومة :

نحن الذين اذا علوا لم يبطروا يوم الهياج ، وان علوا لم يضجروا

معاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها ، وان يسلم على يدينا القدس ، ثم ينصره ، ثم معاذ الله ان نغلب على الصبر ، واذا كان ما يقدم الله اليه المماليك قبل المولى لا بد منه ، وهو لقاء الله ، فالآن نلقاه والحجة لنا ، خير من أن نلقاه والحجة علينا ، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره ، وتملأ صدره ، فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون ، والله معكم ، وهذا دين ما غلب بكثرة ولا نصر بثروة ، انما اختار الله تعالى له أرباب نيات ، وذوي قلوب معه وحالات ، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف ، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، واشتيدي أزمةُ تنفرجي ، والغمرات تذهب ثم لا تجي ، والله تعالى يُسْمِعُ الأذنَ ما يسرّ القلب ، ويصرف عن الاسلام وأهله غاشية هذا الكرب ، ونستغفر الله العظيم ، فانه ما ابتلى إلا بذنب " (١) .

لقد عرض القاضي الفاضل أسباب ضيق المسلمين ، وتفرقهم ، وتحكم الفرنج وتنفذهم ، ولكنه مع ذلك لم ينس الحرص على رفع الروح المعنوية ، فطلب من السلطان التوجه الى الله بالدعاء ، والتجلد للقضاء ، ليقوي نفسه ونفوس الجند ، وقد راوح

---

(١) الروضتين ٢ / ١٦٦ ـ ١٦٧

الكاتب ما بين الصوت المتعقل الرصين ،ومخاطبة الضمير المؤمن في محاولة التسرية عن صلاح الدين ، فهو يقول : " اذ كيف يفتح الله علينا البلاد ثم يغلقها ، وان يسلم على يدينا القدس ثم ينصره ؟ .. ثم معاذ الله ان نغلب على النصر ، ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر ...

وقد اتبع القاضي في عرضه اسلوبا موفقا ، فانتقل من الواقع المؤلم المتمثل في تعداده المنغصات والمثبطات ، الى غرس الثقة في نفس سيده ، واشاعة الطمأنينة في نفسه : " فهذه الأمور وإن كانت شدائد ، وزائدات على العوائد ، فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر ،وحسن الصبر ، ليشعره أن صبره يعقبه النصر وحسبته يعقبها الأجر ، ولو لم ير الله تعالى أن قوة مولانا اكمل القوى ، وعروة عزمه أوثق العرى، لما أهله لأن ينصر ملة ، لا يعرف المملوك غير الله ينصرها ، وغير مولانا يباشر النصر ويحضرها ... " كل ذلك بعيد عن التواكل والحزن واليأس والدعوة الى الاستسلام ، " فلا تعظم هذه الفتوق على قلب مولانا فتبهر صبره ، تملأ صدره ... "

وبعد أن عمل على إشاعة الأمل في نفس القائد ، وتقوية عزيمته لتحمل الشدائد صارحه بأن هذه البلوى لم تكن إلا بذنب ، وقد أوضح ذلك في رسالة إخوانية أخرى كتبها في المناسبة نفسها - اى خلال حصار عكا - إذ قال : " المملوك ينهي أن الله تعالى لا ينال ما عنده الا بطاعته ، ولا تفرج الشدائد إلا بالرجوع اليه ،والامتثال لأمر شريعته ،والمعاصي في كل مكان بادية ، والمظالم في كل موضع فاشية ، وقد طلع الى الله تعالى منها ما لا يتوقع بعدها إلا ما يستعاذ منه ،وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فتح البيت المقدس ما يكون بمشيئة الله له حجة في رضاه ، ونعوذ بالله ان يكون حجة عليه في غضبه ... ولا يتعرض المملوك لتفصيل ما بلغه من ظهور المنكرات في اتباعه ،وشيوع المظالم في ضياعه ... " (١) .

فهو يشخص الداء ،ويهون البلاء ، ويضع العلاج ، الذى هو ازالة المظالم ، واعادة النظر في مراعاة تطبيق الشريعة الاسلامية ،والزام تابعية بتطبيقها ، كل ذلك دون أن يبعث الغم واليأس في نفس السلطان ،إذ إنه قد أحسن التأني في كل ما عرضه .

ويلاحظ القارئ أن الرسالة تنطلق من الوجدان ، وتعبر عن نفس منفعلة بما تقول ، فلا غرو ان انعتقت من البديع إلا ما جاء عفو الخاطر ، مع أن البديع قد ارتبط بأسلوب القاضي الفاضل الكتابي ارتباطا شديدا خلال هذه الفترة .

---

(١) الروضتين ٢/ ١٦٥ - ١٦٦

والرسالة بعد ذلك تشترك مع الرسائل الاخرى في الاقتباس والتضمين ، ومثاله : " فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الاعلون " (١) ، ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنه " (٢) ومن التضمين قوله : " اشتدي أزمة تنفرجي " ومن الامثال المنظومة قوله :

نحن الذين اذا علوا لم يبطروا   يوم الهياج ،وان علوا لم يضجروا

أما مادة الرسالة ، فمصادرها مأخوذة من التاريخ .. والقرآن .. والشعر والأمثال ... وقد عرضت حالة المسلمين النفسية والاجتماعية ، خلال فترة حرجة من جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين ،ولهذا فهي ذات قيمة أدبية وتاريخية واجتماعية في آن واحد .

ومن الرسائل الاخرى* ذات الصبغة الديوانية الاخوانية المشتركة ، رسالة الملك الناصر داود الى العز بن عبدالسلام يطلب منه فيها أن يحث الملك الصالح نجم الدين أيوب على قتال الفرنج بعد غزوهم لمدينة نابلس . يقول الناصر :

" أحسن الله عزاء المجلس السامي العزي في مصابه بالمسلمين ، وصبّرنا وإياه على ما دهمت به حوزة الدين ، وأثاب الذين استشهدوا بما وعد به الشهداء من رضوانه ، وعوضهم عن منازلهم بمنازل الأمن من قصور جنانه ،وسامحنا وإياه بما أهملناه من حماية الدين وحفظ أركانه ، وما اعتمدناه من إغفاله وخذلانه ، ولا حول ولا قوة الا بالله قول معترف بتقصيره ، عن جهاد اعداء الله واعداء دينه ، ذاكرا جريمته جهرا بلسانه وسرا بيقينه ، وذلك بمصيبة المسلمين بمدينة نابلس التي قتلت فيها المشايخ والشبان ،وسبيت الحلائل والصبيان ،واستولت يد الكفار على ما كان مدخرا من الاموال والغلال ، وما جمعه المسلمون لازمنتهم في السنين الطوال ، فهو يوم ضرب فيه الكفر بجرانه ،وتبختر تيها بين أنصاره وأعوانه ، وزها على الاسلام برونق زمانه ،وهو اليوم الذي تقابلا فيه فأحجم الاسلام ثم تولى ،واقتسما فيه بالسهمان فكان سهم الكفر هو السهم المعلى ، فيا لها من فجيعة أبكت العيون وأبكت الجفون ، وهجمت على القلوب من أسماعها فودت لو أنها سبقت بالمنون ، فيا ليتني نبذت قبل سماعها مكانا قصيا ،أو ليت ربي لم يجعلني بعباده حفيا ، أو ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا :

ألا ليت أمي لم تطل عمرها   فلم يقضها ربي لمولى ولا بعل
ويا ليتها لما قضاها لسيد   لبيب أديب طيب الفرع والأصل
قضاها من اللاتي خلقن عواقرا   فما بشرت يوما بأنثى ولا فحل

---

(١) إشارة الى قوله تعالى : ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين " سورة آل عمران آية ١٣٩

(٢) الآية من سورة الأحزاب آية ٢١

* للمزيد/انظر الروضتين ٢ / ١٦٥ ـ ١٧٣ وصبح الأعشى ٧ / ٢٣ ـ ٢٤ وصبح الاعشى ٦ / ٥٢٨

ويا ليتها لما غدت بي حاملا	أصيبت بما اجتنّت عليه من الحمل
ويا ليتني لما ولدت وأصبحت	تشدّ الي الشدقميات بالرحل
لحقت بأسلافي فكنت ضجيعهم	ولم أرَ في الاسلام ما فيه من خبل

فيا أيها العزّ الذي كنا نظن أن الاسلام يتزيد بسعيه عزا ، وأن رقى عزائمه تكون عليه من سحر الكفار حرزا ، تيقن أنه قد عم بالشام النفير ، ووجبت الغزاة على الحدث الطرير ، والشيخ الكبير ، وجاز للحرة أن تبرز للقتال بغير اشارة بعلها ، وللأمة أن تبارز برمحها ونصلها ، ووجب على المجاورين الاسعاد والانجاد ، وتعين عليهم في طاعة الله الجهاد ، فيا لسان الشريعة ، أين الجدال فيه والجلاد ، وأين مهند لسانك الماضي اذا كلت المهندة الحداد ، أتغمد سيف لسانك في جفنه وقد هجرت سيوف الكفار جفونها ، وأجرت عيون الانام على الاسلام شؤونها الا وان الاسلام بدا غريبا وسيرجع غريبا كما بدا ، وتقاصرت الهمم عن إسعاده حتى لا يرى له مسعدا ، فانا لله قولُ من عزّ عزاؤه في الإسلام وذويه ، وبذل في الدفاع عنه ما تملكه يده وتحتويه ، وصبرا في الله على احتمال الاذى وروية جافيه ، والله سبحانه يتلافى الاسلام بتلافيه ، ويحميه بحمايته وحسن نظره فيه ، إنه قريب مجيب (١) " .

ابتدئت الرسالة بالتعبير عن الحزن الشديد ، في معرض اعتراف الحاكم بالتقصير في الدفاع عن الشيوخ والشبان والنساء والصبيان ، وملك هذا الحزن عليه أقطار نفسه حتى إنه تمنى لو لم يولد ... ، ثم استحث العزّ بن عبد السلام على ان يستثير الناس للجهاد ، بعد أن ابتلي الاسلام بما ابتلي به من عدوان . وغني عن البيان أن في الرسالة من السمات الفنية ما في الرسائل الديوانية من سجع وتكرار واقتباس وتضمين ، وغير ذلك من السمات التي اتسمت بها الرسائل في هذا العصر .

٣ . الخطابة

لم يصلنا من الخطب في عصر الحروب الصليبية الا القليل ، مع أن المتوقع أن تروج الخطابة في جو الحروب ، لانها جو مواتٍ لها ، والجدير بالذكر أنه عندما تم فتح القدس ، اجتمع عدد كبير من الخطباء ، وتمنى كل واحد منهم أن يكون له السبق في القاء أول خطبة بعد الفتح ، يقول العماد : "وانتدى الفضلاء ، وانتدب الخطباء ، وكثر المترشحون للخطابة المتوشحون بالإصابة المعروفون بالفصاحة الموصوفون بالحصافة ..." (٢) . وما هذا الفتح — على أهميته — إلا حدث كبير من أحداث أخرى كبيرة

---

(١) الفوائد الجلية والفرائد الناصرية ورقة ٩٤ — ٩٥

(٢) الروضتين ٢/١٠٨

شهدتها الأمة خلال هذه الفترة .

ومن أشهر الخطب التي وصلتنا في هذه الفترة خطبة ابن الزكي في اول صلاة جمعة أقيمت في القدس بعد استعادة المدينة على يد صلاح الدين . وقد ابتدأها بالآيات التي فيها حمد لله ، ثم قال : " الحمد لله معز الاسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذى قدر الايام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع والحاكم بما يريد فلا يدافع ، أحمده على اظفاره واظهاره واعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربّه ، وأشهد أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) عبده ورسوله رافع الشك ، وداحض الشرك ، وراحض الإفك الذى أسرى به من المسجد الحرام الى هذا المسجد الأقصى ، وعرج به منه الى السموات العلى ، الى سدرة المنتهى " عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى " ، صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق الى الايمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ، وعلى أمير المؤمنين عثمان ذي النورين جامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان .

أيها الناس ، ابشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة ، من الأمة الضالة ، وردها الى مقرها من الاسلام ، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع وان يذكر فيها اسمه ، واماطة الشرك عن طرقه بعد ان امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد فانه بني عليه ، وبالتقوى فانه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه ، فهو موطن أبيكم ابراهيم ومعراج نبيكم محمد عليه السلام ، وقبلتكم التي كنتم تصلون اليها في ابتداء الاسلام ، فهو مقر الانبياء ، ومقصد الاولياء ، ومقر الرسل ومهبط الوحي ومنزل تنزل الأمر والنهي ، وهو في أرض المحشر ، وصعيد المنشر ، وهو في الارض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين ، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذى بعث الله اليه عبده ورسوله ، وكلمته التي ألقاها الى مريم وروحه عيسى الذى شرفه الله برسالته ، وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عن مرتبة عبوديته ، فقال تعالى " لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله وقال : " لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم " ، وهو أول القبلتين

وثاني المسجدين وثالث الحرمين ، لا تشدّ الرحال بعد المسجدين الا اليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، ولولا أنكم ممّن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصّكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم في شرفها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوح العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للاسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجازاكم الله عن نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به من مهراق الدماء ، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء ، فاقدروا رحمكم الله النعمة حق قدرها وقوموا لله تعالى بواجب شكرها ، فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء ، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرّ به عيناً الانبياءُ والمرسلون ، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذى يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان ، والجند الذى تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الايمان ، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء ، اكثر من التهاني به بين أهل الغبراء ، أليس هو البيت الذى ذكره الله في كتابه ، ونص عليه في خطابه ، فقال تعالى : " سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ، الذى باركنا حوله ... " أليس هو البيت الذى عظمته الملوك ، وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من إلهكم عز وجل ؟ ، أليس هو البيت الذى أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب ؟ أليس هو البيت الذى أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان ، وغضب عليهم لأجله فألقاهم في التيه عقوبة للعصيان؟ فاحمدو الله الذى أمضى عزائمكم لِمَا قعد عنه بنو اسرائيل وقد فضلهم على العالمين ، ووفقكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين ، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان وقد ، عن سوف وحتى ، فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنودا لا هويتكم جنده ، وشكركم الملائكة المنزلون على ما أهديتم الى هذا البيت من طيب التوحيد ، ونشر التقديس والتحميد ، وما أطلتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاجر الخبيث ، فالآن يستغفر لكم أملاك السموات ، وتصلي عليكم الصلوات المباركات. فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم ، بتقوى الله التي من تمسك بها سلم ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، وموافقة الردى ، ورجوع القهقرى ، والنكول عن العدى ، وخذوا في انتهاز الفرصة ، وازالة ما بقي من الغصة ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه اذ جعلكم من خير عباده ، واياكم أن يستزلكم الشيطان ، وأن يتداخلكم الطغيان فيخيّل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد ، وبخيولكم الجياد ، وبجلادكم

في مواطن الجلاد ، لا والله ما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم ، واحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل والمنح الجزيل ، وخصكم بهذا الفتح المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقترفوا كبيرا من مناهيه ، وأن تأتوا عظيما من معاصيه فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، والجهاد الجهاد فهو أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم ، انصروا الله ينصركم ، اذكروا أيام الله يذكركم ، اشكروا الله يزدكم ويشكركم ، جدوا في حسم الداء ، وقطع شأفة الاعداء ، وتطهير بقية الارض التي أغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله ، فقد نادت الايام بالثارات الاسلامية ، والملة المحمدية ، الله أكبر فتح ونصر ، غلبَ اللهُ وقهر ، أذلّ اللهُ مَنْ كفر ، واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ، ومهمة فأخرجوا لها هممكم ، وأبرزوها ، وسيّروا اليها عزماتكم وجهّزوها ، فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بذخائرها ، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول ، وهم مثلكم أو يزيدون ، فكيف وقد أضحى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون ؟ ، وقد قال الله تعالى : " إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين" ، أعاننا الله واياكم على اتباع أوامره ، والازدجار بزواجره ، وأيدنا معشرَ المسلمين بنصر من عنده ، إن ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده"(١)

عقد ابن الزكي مقارنة بين حال المسلمين وحالّ الفرنج المشركين ، ثم قاده ذلك الى الحديث عن الخلفاء الراشدين والقادة المسلمين ، لما قدموه من نصرة لهذا الدين ثم بين فضائل المسجد الاقصى ، وارتباطه بالدين الاسلامي والتاريخ الاسلامي ، ونهى عن العدوان والبطر ، وحثهم على متابعة الفتوح وازالة الكيان الغريب .

هذه أفكار الخطابة أما بناؤها فقد ابتدأت بالحمد والثناء ثم الشهادتين ثم الموضوع والخاتمة ...

وأما مادتها فهي مأخوذة من التاريخ الأسلامي ، مثل إشارته الى أعمال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد بن الوليد ، والمعارك التي جرت من أجل اعزاز الاسلام مثل القادسية واليرموك وموقعة خيبر ، ومن التاريخ أيضا قصة الاسراء والمعراج وقصة موسى ودخوله الارض المقدسة ، وعيسى ويوشع عليهم السلام ... وهي معتمدة على القرآن والحديث ولهذا كثرت الصور الدينية في الخطابة كثرةً لافتة .

وتتميز الخطابة بكثرة الاقتباس الحرفي والمعنوي ، فمن الاقتباس الحرفي ، قوله "لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد" (٢) و " عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى " (٣) و " لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله " (٤) و " لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم " (٥) و " سبحان الذى أسرى

---

(١) الروضتين ٢/١١٠ ــ ١١١
(٢) سورة الاخلاص ٣ ــ ٤
(٣) سورة النجم ١٧
(٤) سورة النساء ١٧٢
(٥) سورة المائدة ٧٢

بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله " (١) و " إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين ... " (٢) و " إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده " (٣) .

ومن الاقتباس المعنوي ، وان لم يخل أحيانا من اقتباس حرفي جزئي ، قوله : " وأظهر دينه على كل دين ، القاهر فوق عباده فلا يمانع والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع ... راحض الإفك الذى أسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، وعرج به منه الى السموات العلى ... وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه ... بيعوا أنفسكم في رضاه ... وجاهدوا في الله حق جهاده ... واللهِ ما النصر إلا من عند الله ... فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ... والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .

وأما تضمينه للأحاديث فيظهر في قوله : وهو أولى القبلتين ، وثاني المسجدين وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا اليه ... الامور بأواخرها ... ومن تضمينه لقول علي ابن أبي طالب : الجهاد الجهاد ، فهو أفضل عبادتكم ...

كما يتضح في هذه الخطابة السجع وأنواع البديع الأخرى . أما السجع فهو متمثل في الخطابة جميعها ، ولعقيمة في الاداء ، اذ يكسب الخطبة ايقاعا مؤثرا لا سيما أن الجمل قصيرة ، حارة انفعالية ، توحي بالحركة ، واما أنواع البديع الاخرى فمنها الطباق ، ومنه : معز الاسلام — مذل الشرك ، مصرف الامور — مديم النعم ، باطن سره — ظاهر جهاره ، رافع الشك — داحض الشرك .... والجناس ومن أمثلته : الشك — الشرك ، واسترد هذه الضالة (القدس) من الامة الضالة (الفرنج) ، مجار — جبار .

ومن السمات الفنية التكرار والاطناب ، إذ إن أفكار الخطبة محدودة ، ولكنه كررها بصور مختلفة ، ومثال ذلك ما ذكره من نعم الله على الانسان المسلم ، فقال : معز الاسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ... ومديم النعم للمتقين بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذى قدر الايام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ... السجع .

---

(١) سورة الأسراء آية ١
(٢) سورة الأنفال آية ٦٥
(٣) سورة آل عمران آية ١٦٠

فهي صور متعددة لمعنى واحد .. ومثال آخر تجده في بيان فضائل المسجد الاقصى والقدس ...

وأخيرا يحس المرء بحرارة العاطفة وصدقها ، وتدفقها ، وهي عاطفة شخصية جماعية في آن واحد ، تعبر عن شعور الخطيب ومشاعر المسلمين المحتشدين في ساحة المسجد الاقصى بعد تسعين عاما من الاحتلال . كما تعبر عن لهفة الناس لرؤية القدس والمسجد الاقصى ، وعن نشوة النصر والفرح ، ولكل ذلك أطنب الخطيب وكرر القول . ثم دعا المسلمين الى تجنيد نصرهم ومشاعرهم وطاقاتهم فيما يرضي الله ، ويستكمل الفتح ، وينهي الوجود الغريب في البلاد ، يقول : والجهاد الجهاد ، فهو من أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم ، أنصروا الله ينصركم ، اذكروا أيام الله يذكركم ، اشكروا الله يزدكم ويشكركم ، جدوا في حسم الداء ، وقطع شأفة الاعداء ، وتطهير بقية الارض التي اغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر ، واجتثوا أصوله ... " .

* * *

ومن الخطب التي وصلتنا ، خطبة صلاح الدين في الجند اثناء حصار الفرنج لمدينة عكا ، يقول : " بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، اعلموا ان هذا عدو الله وعدونا ، قد وطيء أرض الاسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليه ان شاء الله تعالى ، وقد بقي من هذا الجمع اليسير ، ولا بد من الاهتمام بقلعه والله قد أوجب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل ، وهذا العدو ان بقي وطال أمره الى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم ، والرأي كل الرأي عندي مناجزته ، فليخبرنا كل منكم بما عنده في ذلك " (١) .

يتضح من الخطبة أنها قيلت في أرض المعركة ، ولذلك جاءت قصيرة جدا بعيدة عن التكلف والتصنع والإطالة والتكرار ، فهي تدور حول موضوع واحد هو استشارة القوم في القتال بناء على الواقع الذى كان ماثلا أمامهم ، وقد حاول أن يقنعهم بما يرى دونما مبالغة ، وانما بتصوير الخطر ، وبيان واجب الانسان المسلم ازاءه ، وايضاح ما يقتضيه الموقف العسكري .

---

(١) الروضتين ٢/ ١٤٦

٤٠ الهدن

كثرت الكتابة في مواثيق الهدن ،والمواثيق السياسية ،لا سيما بعد رجحان كفة المسلمين . وقد تقبل الفرنج الهدن ترقبا لوصول نجدات من أوروبا ، وتقبلها المسلمون للتصدى للخطر المغولي القادم من الشرق ،أو لمعالجة المشاكل الداخلية ، ولهذا فقد اعتبروها ذات فائدة لهم .

اما النص المتعلق بالهدنة فقد كان كما يلي : القسم على الوفاء بما تضمنته الهدنة ، وطريقة القسم عند الفرنج تكون بأن يحلف مقدمهم بالله ، وبالمسيح وبالصليب وبالأقانيم الثلاثة والأنجيل ... ثلاث مرات على كل مقسم به ، وطريقة القسم عند المسلمين تكون بأن يحلف السلطان أو نائبه بالله ثلاث مرات (١) .

ثم يحدد المقسم عليه ، وهو موضوع الهدنة ، وفيه تفصيلات كثيرة جدا ، تشمل مدة الهدنة والأماكن الواقعة ضمن الهدنة ، والاشياء المتفق عليها ، لا سيما في معاملة التجار والفلاحين (١) .

ثم تنتهي بالعقوبات التي يلزمها كل لنفسه إن خالف ما جاء في الهدنة ... وهي لهذا ذات قيمة تاريخية واجتماعية وأدبية وسياسية ، بما تقدمه من معلومات عن الطرفين .

وقد فرضت كثرة التفاصيل على الهدنة ،أن تكون طويلة مفصلة ، ومثال ذلك ، الهدنة بين الظاهر بيبرس وبيت الاسبتار سنة ٦٦٩ ، ومنها :ـ

" استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس قسيم أمير المؤمنين ، وولده الملك السعيد ناصر الدين خليل ، وبين الباشر المقدم الجليل أفريز أولدكال مقدم جمع بيت اسبتار سرجوان ، بالبلاد الساحلية ، وبين جميع الاخوة الاسبتارية ، لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات وعشرة أشهر أولها مستهل رمضان سنة تسع وستين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية ، الموافق للثامن عشر من نيسان سنة ألف وخمسمائة واثنتين وثمانين للأسكندر بن فيلبس اليوناني على ان تكون قلعة لد بكاملها وربضها واعمالها ، وما هو منسوب اليها ومحسوب منها بحدودها المعروفة بها من تقادم الزمان ، وما استقر لها الآن ، وما يتعلق بذلك : من المواضع والمصايد ، والملاحات ، والبساتين ،والمعاصر ، والطواحين ،والجزائر : سهلها وجبلها وعامرها وداثرها ، وما يجرى بها من أنهار ، وينبع بها من عيون ،

(١) انظر صبح الأعشى ١٣/ ٣١٢ـ٣١٣

(٢) المصدر السابق ١٤/ ٣٨ـ٦٢

وما هو مبني بها من عمائر ، وما استجد بها من القراح وغير ذلك ، وكل ما عمر في أراضي المناصفات على دورها وانهارها ، وما بحدود ذلك من نهر بدرة الى جهة الشمال ، وما استقر لبلده من هذه الجهات الى آخر الايام الناصرية من الحدود المعروفة بها والمستقرة لها ، وحصن برغين وما ينسب الى ذلك من البلاد والضياع والقرى التي كانت مناصفة — تكون جميع بلده وهذه الجهات خاصا الى آخر الزائد للملك الظاهر ، ولا يكون لبيت الاسبتار ولا للمرقب فيها حق ولا طالب بوجه ، ولا سبب الا حين انقضاء مدة الهدنة وما بعدها الى آخر الزائد ، ولا لاحد من جميع الفرنجة فيها تعلق ولا طلب بوجه ولا سبب .

وكذلك مهما كان مناصفة ، كقلعة العليقة في بلادها لبيت الاسبتار ، يكون ذلك جميعه للديوان المعمور والخاص الشريف ، ولا يكون للمرقب فيها شيء ولا لبيت الاسبتار .

وكذلك كل ما هو في بلاد الدعوة المباركة جميعها وقلاعها من القرى — لا تكون فيها مناصفة لبيت الاسبتار ولا للمرقب ، ولا حق ، ولا رسم ، ولا شرط ، ولا طالب في جميع بلاد الدعوة : مصياف المحروسة ، والكهف والمنيقة ، والقدموس ، والخوابي ، والرصافة ، والعليقة ، وكل ما هو في هذه القلاع وفي بلادها من مناصفة يكون ذلك خاصا للملك الظاهر ، وليس لبيت الاسبتار ولا الفرنجة فيه حديث ولا طلب ..." (١) * .

ونص الهدنة طويل جدا يقع في تسع صفحات من القطع الكبير ، لأنها تميل الى التفصيل والتحديد الدقيق للمعاني ، شأن النصوص السياسية ، لا سيما تلك التي يكون الطرف الآخر فيها أعجميا ، وهي مع ذلك لا تتكرر فيها المعاني ، لأن التكرار غير التفصيل ..

وواضح أن لغتها سهلة بعيدة عن السجع وأنواع البديع الأخرى ، فهي تقرر الحقائق ، وتوصي بتنفيذ المقررات ، دون إشارة أو تعريض ، أو تصوير فني ، ولذلك فهي ذات قيمة تاريخية وسياسية واجتماعية قبل أن تكون ذات قيمة فنية .

---

(١) صبح الأعشى ١٤/٤٢ — ٤٤

* للمزيد من الهدن انظر جـ ١٤/٣٣ و جـ ١٣/٣٢٧ وتشريف الأيام والعصور ص ٣٤ ، ٩٣ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ٦٨

وقد تصل البساطة في نصوص الهدن الى حد استعمال التعابير المحكية مثل ما جاء في هذه الهدنة من أن " الدار المستجدة عمارتها بقلعة المرقب برسم الماستر المقدم الكبير ، الذى هو عايز تكميل عمارة سقف القبو بالحجارة والكلس ، لا تكمّل (١) .

هذا ، وقد ذكر القلقشندي ثلاثة مذاهب لبداية الهدن : أولها أن تفتتح بلفظ : هذه هدنة أو نحو ذلك (٢) ، وثانيها : أن تفتتح بلفظ استقرت الهدنة بين فلان وفلان (٣) ، ومنها هذه الهدنة ... وثالثها : أن تفتتح بخطبة مبتدأة بالحمد لله (٤) .

كما بين شروط الهدنة عامة ، من خلال استقرائه لعدد كبير منها في الجزء الرابع عشر من صبح الاعشى ، فذكر أن يكون عاقدها الامام أو نائبه العام ، وأن تكون في مصلحة المسلمين ، وأن لا يكون فيها شرط يأباه الاسلام ، وأما مدتها فهي تتراوح ما بين أربعة أشهر وعشر سنين (٥) .

---

(١) صبح الاعشى ١٤/ ٥٠
(٢) المصدر السابق ١٤/ ٢٩
(٣) المصدر السابق ١٤/ ٣١
(٤) المصدر السابق ١٤/ ٧١
(٥) المصدر السابق ١٤/ ٧ ـ ٨

ثانيا : موازنة عامة بين الشعر والنثر :

اشترك الشعر والنثر في تسجيل الأحداث خلال فترة الحروب الصليبية ، ولكنهما اختلفا في طريقة تناول الاحداث من حيث واقعيتها وطريقة عرضها ، وتأثيرها والتفاعل معها ،

ونعرض فيما يلي نصوصا ثلاثة اشتركت في تسجيل معركة حطين وفتح طبرية ، لنقف على الفروق بينها .

أ. يقول ابن الساعاتي مخاطبا صلاح الدين :

جلت عزماتك الفتح المبينا ... فقد قرت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الاسلام لمّا ... غدا صرف القضاء بها ضمينا
وتان بك الصليب وكان قدما ... يعز على العوالي أن يهونا
يقاتل كل ذي ملك رياء ... وأنت تقاتل الأعداء دينا
غدت في وجنة الايام خالا ... وفي جيد العلا عقدا ثمينا
فيا لله كم سرّت قلوبا ... ويا لله كم أبكت عيونا
وما طبريّة الا هديّ ... ترفّع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء ... وسل عنها الليالي والسنينا
فضضت ختامها قسرا ومن ذا ... لصد الليث أن يلج العرينا
لقد أنكحتها صم العوالي ... فكان نتاجها الحرب الزبونا
عناء ندى أهل الارض طرا ... سواك ، ومعقل أعيا القرونا
قست حتى رأت كفئا فلانت ... وغاية كلّ قاس أن يلينا
تضيّت فريضة الاسلام منها ... وصدّقت الأماني والظنونا
تهزّ معاطف القدس ابتهاجا ... وترضى عنك مكة والحجونا
فلو أن الجهاد يطيق نطقا ... لناداك أدخلوها آمنينا
جعلت صباح أهلها ظلاما ... وأبدلت الزئير بها أنينا
تخال حماة حوزتها نساء ... يخوضون الحديد مقنّعينا
لبيضك في جماجمهم غناء ... لذيذ علّم الطير الحنينا
تميل الى المثقفة العوالي ... فهل أمست رماحا أم غصونا
يكاد النقع يذهلها فلولا ... بروق القاضبات لما هدينا
فكم حازت قدودك قنا منها ... قدودا كالقنا لونا ولينا
وغيد كالجآذر آنسات ... كغيد نداك أبكارا وعونا
ولما باكرتها منك نعمى ... بنان تفضح الغيث الهتونا
أعدت بها الليالي وهي بيض ... وقد كانت بها الأيام جونا

فليس بحادم مرعى خصيبـــــا أخو سغب ولا ماء معينــــــا
فلا عدم الشآم وساكنــــــوه ذبي تشفى بها الداء الدفينـــا
سهاد جفونها في كل فيـــــح سهاد يفتح الغمض الجفونـــــا
فالم بالسواحل فهي صـــــور اليك وألحق الهام المتونــــــا
فقلب القدس مسرور ولـــــولا سطاك لكان مكتئبا حزينـــا (١)

ب٠ وكتب العماد الى الديوان بذلك الفتح رسالة ، وقد وردت مع الرسائـــــل الديوانية فيرجع اليها (٢) ٠

جـ٠ وكتب ابن شداد في وصف معركة حطين ما يلي : " وكانت في يوم السبـــت الرابع والعشرين من ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وذلـــك أن السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك وتمكين الله ايـــاه في البلاد ، وانقياد الناس لطاعته ، ولزومهم قانون خدمته ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد في اقامة قانون الجهاد ، فسير الى سائـــر العساكر واستحضرها ، واجتمعوا اليه بعشترا ، في التاريخ المذكــــور ، وعرضهم ورتبهم ، واندفع قاصدا نحو بلاد العدو المخذول في وسط نهار الجمعة سابع عشر من ربيع الاخر ، وكان أبدا يقصد بوقعاته الجمع لا سيما أوقات صـــلاة الجمعة ، تبركا بدعاء الخطباء على المنابر ، فربما كانت أقرب الى الاجابة ٠

فسار في ذلك الوقت على تعبية الحرب ، وكان بلغنا أن العدو لما بلغهم أنه قد جمع العساكر اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بأرض عكا ، فقصدوا نحو الملتقى معهم ، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبره ، ورحـــل من هناك ، ونزل غربي طبرية على سطح الجبل بتعبية الحرب منتظرا ان الافرنج اذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من منزلهم ٠

وكان نزوله في هذه المنزلة يوم الاربعاء الحادي والعشرين من ربيع الآخـــر المذكور ، فلما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية ، وترك الاطلاب بحالها قبالة وجهة العدو ، ونازل طبرية ، وزحف عليها فهجمها ، وأخذها في ساعة من نهار ، وامتدت الأيدي اليها بالنهب والاسر والحريق والقتل واحتمـــت القلعة وحدها ٠

---

(١) الروضتين ٢ / ٨٤ ــ ٨٥
(٢) انظر الروضتين ٢ / ٨٩ وصبح الأعشى ٦ / ٥١٧

ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية لم يأخذهم الصبر دون إجابة الحمية ، فرحلوا من وقتهم وساعتهم ، وقصدوا طبرية للدفع عنها ، فأخبرت الطلائع الاسلامية الامراء بحركة الافرنج ، فسيروا الى السلطان من عرفه ذلك ، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها ، ولحق العسكر هو ومن معه ، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها ، وذلك في أواخر الخميس الثاني والعشرين .

وحال الليل بين الفئتين فتباتا على مصاف شاكين في السلاح الى صبيحة الجمعة في الثالث والعشرين ، فركب العسكران وتصادما ، وحملت الجالشية ، وتحركت الاصلاب والتحم القتال ، واشتد الامر ، وذلك بأرض قرية تسمى اللوبيا ، وضاق الخناق بالقوم ، هذا وهم سائرون كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون ، وقد أيقنوا بالويل والثبور ، وأحست أنفسهم أنهم في غد زوار القبور .

ولم يزل الحرب يلتحم ، والفارس مع قرنه يصطدم ، حتى لم يبق الا الظفر ووقوع الوبال على من كفر ، فحال بينهما الليل وظلامه ، وجرت في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة ، والامور الجسيمة ، ما لم يحك عمن تقدم ، وبات كل فريق في سلاحه ، ينتظر خصمه في كل ساعة وقد أقعده التعب عن النهوض ، وشغله النصب عن الحبو فضلا عن الركوض .

حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه فطلب كل من الفريقين مقامه ، وعلمت كل طائفة ان المكسورة منهما مدحورة الجنس معدومة النفس ، وتحقق المسلمون أن من ورائهم الاردن ، ومن بين أيديهم بلاد القوم ، وأن لا ينجيهم إلا الله تعالى .

وكان الله قد قدر نصر المؤمنين ويسره ، وأجراه على وفق ما قدره ، فحملت الاطلاب الاسلامية من الجوانب ، وحمل القلب ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، فالقى الله الرعب في قلوب الكافرين : " وكان حقا علينا نصر المؤمنين " .

وكان القومص ذكي القوم وألمعهم ، فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه ، ولم يشغله ظن محاسنة جنسه عن نفسه ، فهرب في اوائل الأمر قبل اشتداده وأخذ طريقه نحو صور ، وتبعه جماعة من المسلمين ، فنجا وحده ، وأمن الاسلام كيده ، واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب ، وأطلقوا عليهم السهام ، وحاكموهم بالصفاح ، وانهزمت منهم طائفة ، فتبعها أبطال المسلمين ، فلم ينج منهم واحد ، واعتصمت الطائفة الأخرى بتل يقال له تل حطين ، وهي قرية عنده وعندها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الانبياء ، فضايقهم المسلمون على التل ، وأشعلوا حواليهم النيران ، وقتلهم العطش ، وضاق بهم الامر ، حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفا من القتل ، فأسر مقدموهم ، وقتل الباقون وأسروا وكان فيمن سلم وأسر من مقدميهم الملك جفرى ، والبرنس أرناط ، وأخو الملك ، والبرنس — وهو صاحب الشوبك — وابن

الهنفسرى ، وابن صاحبة طبرية ، ومقدم الداوية ، وصاحب جبيل ، ومقدم الاستبار (١) .

* * *

يقدم النص الشعرى تصورا عاطفيا شموليا للحادثة دون الدخول في الجزئيات أو التفاصيل ، وهذا التصور جاء ممتزجا بشعور الفرح عند المسلمين وشعور الشماته بالفرنج كما يبدو في الابيات التالية :

فلو أن الجهاد يطيق نطقا	لنادتك ادخلوها آمنينا
جعلت صباح أهلها ظلاما	وأبدلت الزئير بها أنينا
تخال حماة حوزتها نساء	يخوضون الحديد مقنعينا
لبيضك في جماجمهم غناء	لذيذ ، علم الطير الحنينا
تميل الى المثقفة السوالي	فهل أمست رماحا أم غصونا

ثم يذكر الشاعر ما حازه المسلمون من غنائم ،وكان قد أعلن عن النتيجة في بداية القصيدة بقوله :

جلت عزماتك الفتح المبينا	فقد قرت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الاسلام لما	غدا صرف القضاء بها ضمينا

وهذا يدل على أن الشاعر لم يلتزم بالتسلسل المنطقي للحادثة ، ولم يذكر تفاصيل ما حدث فعلا ،وانما ذكر ما هز شعوره وشعور المسلمين ، بينما تسلسل النثر في سرد قصة المعركة ، واذ يتحدث العماد عن المعركة ،فانه يبدأ بالحديث عن فتح طبرية ،موردا تاريخ الفتح ، ثم يتابع حديثه عن الاحداث اللاحقة :

" ويورد البشرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الاخر الى يوم الخميس منسلخه ، وتلك سبع ليال ، وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، واذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خالية ، ورأيتها الى الاسلام ضاحكة ، كما كانت من الكفر باكية ، فيوم الخميس الاول فتحت طبرية ، ويوم الجمعة والسبت نوزل الفرنج فكسروا الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة ، وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة ، وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكا ... " .

وبالاضافة الى التسلسل التاريخي ، يدخل الكاتب في بعض التفاصيل عن الحادثة ،اذ يذكر ما جرى من حوادث خلال اسبوع : ففي الخميس الاول سقطت طبرية

---

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٧٥ ـ ٧٧

وفي يومي الجمعة والسبت نزل الفرنج في حطين ، وبعدها سارت الجيوش الى عكا وفتحتها ، ثم يجمل البلاد المفتوحة ويسميها فيقول : " والبلاد والمعاقل التي فتحت هي : طبرية ، عكا ، الناصرة ، صفورية ، قيسارية ، نابلس ، حيفا ، صليا ، الفوله الطور ، الشقيف ، وقلاع بين هذه كبيرة ... " ولم نجد مثل هذا التفصيل في الشعر .

ويمكننا ملاحظة هذه التفاصيل ، وهذا التسلسل المنطقي في وصف ابن شداد فهو يتدرج مع الاحداث زمنا ومكانا ، وينقل جزئيات دقيقة ، لأن النثر يتحمل ذلك ، لما يهدف اليه من تقديم الوثائق والحقائق بشكل تقريري مباشر ، يقول : " فسار في ذلك الوقت على تعبية الحرب ، وكان بلغه أن العدو لما بلغهم أنه قد جمع العساكر اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بأرض عكا ، فقصدوا نحو المصاف ، معهم ، فسار ونزل من يومه على طبرية ، عند قرية تسمى الصنبرة ، ورحل من هناك ، ونزل غربي طبرية على سطح الجبل بتعبية الحرب ، منتظرا أن الفرنج ، اذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من منزلهم ... " .

فالقصيدة الشعرية لم تلتزم بعرض الحقائق ولا ترتيبها ، كما لم تقدم عن مجريات الاحداث الا النزر اليسير ، ثم أن ذكر النتيجة في بداية القصيدة والعود الى الحديث عنها مرة أخرى في مكان آخر من القصيدة ، لا يتسق مع التطورات الطبيعية للأحداث ولا غرابة في ذلك ، لأن الشعر إنما يتصل أولا وقبل كل شيء بالحالة النفسية للشاعر ، الذي يختار أن يسلط الاضواء على مشاهد معينة منتقاة ، دون أن يلزم نفسه بقيود الواقع .

وكثيرا ما ينقاد الشاعر الى المبالغة ، وهو يعرض مادته الشعرية ، نتيجة تفاعل قوي مع مادته الشعرية ، وهو تفاعل كثيرا ما يؤدي الى التعميمات غير المنضبطة بضوابط الواقع .

أما النثر ، فغالبا ما يلتزم بعرض الحقائق ، كما يلتزم بالتسلسل المنطقي وقد يضفي كتاب معينون ألوانا خاصة على ما يكتبون ، كما فعل العماد في رسالته ... وقد تكون هذه الالوان حادثة غير صادقة ، كما في وصف ابن شداد . وبديهي ان العرض الواقعي للحقائق يحتاج الى هدوء عقلي يتمثل في نثر الناثر ، أكثر من تمثله في شعر الشاعر ، الذي يقيم عادة علاقات غير عادية بين الكلمات ، من أجل الايحاء والتأثير ، وكلا الايحاء والتأثير محتاج الى الصور ، ولذا كانت الصور عنصرا بارزا في الشعر ، في حين أنها تقل عادة في النثر ، الا ما كان منه نثرا فنيا ، يقترب في اسلوبه والصبغة التي يصطبغ بها الشعر كما هي الحال في أكثر نصوص العماد النثرية في الفتح القسي ...

وقد يكون من المفيد أن نقارن بين الصور التي وردت في النصوص الثلاثة آنفة الذكر . فقد صور ابن الساعاتي طبرية بالمرأة السبية التي جاهد صلاح الدين من أجل تحريرها ... ، وصورها بأنها خال جميل في وجنة الايام ، ولذلك فهي تستحق الجهد الكبير الذى بذله ، ومثلها بالعقد الثمين في جيد الحلى ، وهذا يغرى البطل بأن يتحمل الشاق من أجلها ، ومثلها بالمرأة الحصان التي تترفع عن أكف اللامسين ، وتبتعد عن قالة السوء ، ومع هذه الصفات فقد تمكن صلاح الدين منها ، لانها بعد أن صدت وتمنعت رأت أن صلاح الدين ليس كغيره من الرجال ، فلانت له ورحبت به . ثم صور الاماكن الاسلامية المقدسة مشاركة في فرحة المدينة وفرحة المسلمين ، وصور الفرنج داخل المدينة وخارجها في حالة حسرة وعجز ، اذ هم لا يملكون الشجاعة الكافية للدفاع عنها بل هم نساء يلبسون ما يلبسه رجال الحرب ... كما قدم صورا للمعركة بما فيها من غبار وسهام ، وجثث وطيور .. تتحفز لأكل القتلى ..ثم صور السبايا الفرنجيات ، وشعور الارتياح عند المسلمين بعد خلاصهم من احتلال طال أمده .

أما العماد فقد صور انتصار الاسلام على الكفر الذى رد ما عنده ، كما صور جثث القتلى ، والبلاد الخالية . ثم تحدث عن تقدم الجيش الاسلامي في البلاد ، وتقهقر الفرنج أمامه . وفي هذه الصور تسجيل لعواطف الفرح والتشفي بالمحتل ، وقد جاءت هذه الصور في حوالي ثلاثة وعشرين سطرا .

وأما ابن شداد فقد عرض حقائق مفصلة ، فابتدأ بحركة الجيش الاسلامي نحو طبرية ، وحركة الفرنج في مرج صفورية ، ثم تقدمهم نحو طبرية بعد استعادة المسلمين للمدينة ، ثم وصف بداية المعركة بين الطرفين الى أن حجز بينهم الليل ، ثم العودة الى القتال صبيحة اليوم التالي ، ثم تباشير النصر ، الى أن هرب أمير طرابلس وتشتت شمل الباقين ، ووقعوا بين أسير وقتيل ...

ويلاحظ أن الانفعالات التي يثيرها هذا الوصف ، إنما هي وليدة الوقائع والاحداث ، وليست وليدة الزخرف البياني أو الصور اللفظية المثيرة .

(الخاتمــــة)

لما كان من الصعب دراسة جميع النصوص الشعرية والنثرية في فترة الحـــروب الصليبية لتنوعها ، وكثرتها ، ولطول الفترة التي ترتبط بها هذه النصوص ، فقــــد اخترت قضية محددة ، رغبت في أن أدرسها من خلال الادب ، وتلك هي "صورة الصليبيين في الادب العربي" .

وقد احتوت الدراسة على إطار تاريخي للحروب الصليبية تَبَيَّن من خلالــه أن هذه الحروب كانت صورة أخرى على نطاق واسع لحروب المسلمين مع بيزنطة في الشرق ومع الاسبان في الغرب ، فضلا عن كونها تحقيقا لاطماع أوروبية في السيطرة على مناطقــة ذات أهمية دينية وتاريخية واقتصادية ، ولهذا تتبعت مسيرة الحركة الصليبية من أوروبــا الى الشرق الاسلامي ، وبينتُ الحوافز التي كانت تدفعهم للمغامرة والمصابــــرة ، والعوامل التي ساعدتهم على تثبيت أقدامهم في الشرق الاسلامي ، حتى اتحدت مصر والشام تحت قيادة قوية واحدة أنزلت بهم هزيمة ساحقة .

ولدى استقراء المادة الادبية من شعر ونثر ، ظهرت عدة أنواع من الصـــــراع أهمها : الصراع الديني ، وقد تجلى فيه تمسك الطرفين بمعتقداتهم الدينيـــــة ، فالفرنج ، اتخذوا الصليب شعارا لهم ، في حياتهم اليومية والعسكرية ... ولكنهم مــع هذا الشعار الديني كانوا قساة غلاظا ، وقد تصل غلظتهم الى حد الوحشية ... ، فلا يرعون عهدا ولا ذمة ... على النقيض من المسلمين الذين أظهرتهم النصـــوص الأدبية ـ في معرض المقارنة بينهم وبين الفرنج ـ بأنهم يحافظون على العهــود ، ويعطون عند القدرة ولا يبالغون في الانتقام .

وفي إطار الصراع الحضاري ، وصف الادب الفرنج بأنهم متأخرون في علومهم ، وفي طرائق تعاملهم في شؤون القضاء والقانون ، ولكنهم متقدمون في شؤون الحرب من اختراع وتطوير لأدوات القتال الهجومية والدفاعية . وقد قدّم الأدب صورة مفصلـــة للصراع العسكري ، حين عرض علينا وصفا دقيقا للجيش الصليبي من حيث تكوينُـــه ، وامداداته وأسلحته ، وخططه الحربية ، كما سلط الاضواء على حصون الفرنج وقلاعهم . وبين الادباء من خلال الشعر والنثر أن الفرنج إنما كانوا يستمدون مقومات وجودهـــم من المدد الذي كان يأتيهم من وراء البحار ، ومن فرقة المسلمين وعدم اجتماع كلمتهم .

ومن ناحية أخرى ، قدم الادب العربي صورة لهؤلاء الطارئين ، خلال الهدن وتوقف القتال ، فصورهم في أوقات السلم يمرحون ويلعبون ، ويفترسون الأرض ويحتسون ، ويستقبلون القوافل ويتّجرون ، تضج بهم الشوارع والأزقة ... ويعيشون في بلاد الشــرق حياة تتناقض في طبيعتها كثيرا مع حياة السكان الأصليين .

وقد حرص الادباء وهم يقدمون صورة بغيضة للصليبيين ، على أن يحرضوا الحكام والقادة باستمرار ويستثيروا عزائمهم بكل وسيلة ، لتخليص البلاد من الوجود الصليبي في المشرق الاسلامي .

والدراسة الاستقصائية أو شبه الاستقصائية للنصوص الادبية التي كتبت خلال هذه الفترة مما وصل الينا بالفعل ، تكشف عن غزارة في الانتاج الادبي خلال القرن الاول من الغزو الصليبي ، وربما كان من عوامل هذه الغزارة ، ظهور شخصيات فذة خلال القرن المذكور ، في ميادين الحرب والسياسة والادارة ورعاية الادب ، أمثال نور الدين زنكي وصلاح الدين ، وبعض ابنائه . وقد يضاف الى ذلك شدة التحدي والصراع خلال القرن الاول من الصراع . ولا يخفى أثر الزخم الادبي القوي المنحدر من نتاج القرن الرابع الهجري السابق للقرن الذي ابتدأت فيه الحروب الصليبية .

وأما الاداء الفني في نصوص الشعر، فقد كان الى حد ما امتدادا لنظيره في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين ، فهو يجمع بين التقليد والاتباع من ناحية ، وبين التجديد في اغراض الشعر من ناحية أخرى ، ويظهر ذلك في شكل القصيدة ومضمونها ... اذ وجدنا معظم القصائد تنهج نهج الشعر القديم في الاستهلال والصور والافكار ، في حين يخرج بعضها عن النهج المعتاد ، وبخاصة في التقدمة وفي الباس المعاني ثوبا زخرفيا بغية اخراجها في قالب طريف جديد .

وقد لوحظ أن البديع سمة فنية ظاهرة في شعر هذه الفترة ولكنها لم تكن بالظاهرة الطارئة في القرن الخامس الهجري ، اذ هي قد وجدت قبل ذلك ، ولكنها برزت بروزا قويا في هذه الفترة حتى بلغت حد الافراط عند بعض الشعراء .

وأما الاداء الفني في نصوص النثر ، فقد اتسم كذلك بالسمة الزخرفية ، لا سيما في الكتب الادبية المحضة ، أما الكتب التي تجمع بين الادب والتاريخ ، فقد تراوحت حسب اتجاهات المؤلف الادبية بين زخرف أدبي مفرط ، وبين اعتدال في هذا الزخرف ، قد يصل أحيانا الى حد التخلص منه .

هذا ، وقد قورنت رسائل القاضي الفاضل برسائل العماد الاصفهاني ورسائل ابن الاثير ، تبين أنه لا يوجد فرق واضح بين رسائل الكتاب الثلاثة ، مما يجعل المرء يتشكك في قول من رأوا أن للقاضي الفاضل مدرسة أدبية خاصة به تتسم بسمات فنية معينة .

ولدى الموازنة بين الشعر والنثر المرتبطين بالوجود الصليبي في المشرق الاسلامي ، لوحظ اختلاف متوقع في طرائق التعبير عن الموضوع الواحد .

من حيث كيفية التناول والمعالجة ، ومن حيث الأسلوب الأدبي كذلك ، فالشعر قلما يلتزم بالتسلسل المنطقي ، وسرد الحقائق المجردة ، وقلما يحفل بالتفصيل والتعليل ، وانما يعنى بالحركة النفسية للشاعر ، واصداء الأحداث في نفوس ابناء مجتمعه ، وقد يعمد في تصوير ذلك كله الى المبالغة لاحداث تأثيرات معينة ، واستثارة العواطف ، كما يلجأ الى تلوين الوقائع بلون معين ، تتبين فيه ذات المشاعر .

أما النثر فانه يقدم أول ما يقدم الوقائع والأحداث في إطار الحقيقة ، ويعمد الى التسلسل والتفصيل ، وما كان فيه من اثارة ، انما يعتمد بالدرجة الاولى على مجريات الحوادث نفسها . على أن الفجوة بين الشعر والنثر ، قد تضيق أحيانا الى حد كبير ، في نثر المتأدبين الذين تطغى النزعة الفنية على كتاباتهم حتى تتحول في بعض الحالات الى شعر لا ينقصه إلا الوزن الموسيقي .

وأخيرا أسأل الله أن يكون قد وفقني في تقديم صورة الصليبيين كما رسمها الأدب العربي ، وأن يبارك لي في جهدي ، وأن يجعله ابتغاء مرضاته .

" والحمد لله رب العالمين "

الملاحـــــــق

فهرس بأسماء الشعراء الذين وردت لهم أشعار في هذا الملحق

تسلسل	اسم الشاعر	الصفحة	تسلسل	اسم الشاعر	الصفحة
١	الابيوردى • أبو المظفر	٢٩٨	٢٨	ست الفخر مغنية الاشرف	٤٧٦
٠٢	أسامة بن منقذ	٤٠٠	٢٩	السخاوى • ابو الحسن علي بن محمد	٤٨٧
٠٣	أمية بن ابي الصلت	٣٠٣	٣٠	سعادة الاعمى	٣٧٨
٠٤	أيدمر المحيوى علم الدين	٥٠٧	٣١	ابن سعدان الحلبي	٣٨٦
٠٥	بدر الدين المنبجي	٥٠٨	٣٢	ابو سلامة محمود بن علوى	٢٩٦
٠٦	ابو بشر بن الحوّاري	٢٩٤	٣٣	ابن سناء الملك	٤٥٠
٠٧	البهاء زهير	٥٠٠	٣٤	السنجارى بهاء الدين أسعد بن يحيى	٤٢٨
٠٨	البوصيرى	٥١٤	٣٥	شرف الدين الانصارى	٥٠١
٠٩	تقي الدين عمر • الملك المظفر	٤١١	٣٦	شمس الدين الفزارى	٥١٠
١٠	ابن جبير الاندلسي	٤٦٤	٣٧	شمس المعالي ابو الفضائل	٢٦٦
١١	الجلياني • الحكيم ابو الفضل	٤٤٣	٣٨	شهاب الدين محمود	٥١٧
١٢	جمال الدين الكناني الامير	٤٧٤	٣٩	ابن الصياد	٣٥٧
١٣	الجمال الواسطي	٣٨٩	٤٠	طلائع بن رزيك	٣٥٨
١٤	الجواني محمد بن اسعد الحلبي	٤١٢	٤١	ظافر الحداد	٣٠٤
١٥	الجويني	٣٩٦	٤٢	ابن عبد الظاهر	٥١١
١٦	ابو الحسن الذروى	٣٩٠	٤٣	عرقلة الكلبي	٣٦٩
١٧	ابو الحكم الاندلسي	٣٠٩	٤٤	ابن عساكر	٣٨٤
١٨	ابن الخياط	٢٩٩	٤٥	علي بن عرام	٢٩١
١٩	محية بن عبدالله بن نصر	٢٩٥	٤٦	العماد الاصفهاني	٤١٢
٢٠	ابن دنينير	٤٨٩	٤٧	عمارة اليمني	٣٧٣
٢١	ابن الدهان (ابن اسعد الموصلي)	٣٩٢	٤٨	ابن عنيـــــين	٤٨١
٢٢	راجح الحلي	٤٨٠	٤٩	فتيان الشاغورى	٤٦٦
٢٣	الرشيد النابلسي	٤٦٠	٥٠	ابن الفراش	٣٨٢
٢٤	ابن الزغلة	٣٨٥	٥١	ابن قسيم الحموي	٣٠٦
٢٥	ابن الساعاتي	٤٤٤	٥٢	ابن القيسراني	٣١٠
٢٦	سالم بن سعادة	٤٣٧	٥٣	الكاتب الحلبي الامير عبدالمحسن	٤٦٣
٢٧	سبط بن التعاويذي	٣٩٧			

تابع اسماء الشعـــراء

له وقد وقف على داره بالمعرة بعد هجوم الفرنـج :

أمنزل بين انكاري وعرفانـي ... مسارب الوحش أم داري وأوطانـي
جهلتها ولقد أبدت ملاعبهـا ... عهدَ الصبا بين اخواني وخلانـي
فعجت أسألها والدمع منسكـب ... والقلب في لوعة من وجده عـان
يا دار ما لي أرى الأيام قد حكمـت ... فينا وفيك بحكم الجائر الجانـي
فلو أجابت لقالت هكذا فعلـت ... قدما بجيرة نعمان ونعمـان
وفي مدائن نوشروان معتبـر ... للسائلين وفي سيف وغمـدان
فاذهب لشأنك فالدنيا لهـا دُوَلٌ ... تمضي وتأتي وكلٌ بينها فـان(١)

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام جـ ٢ ص ٨٧

وله في المصرة :

هذه مصر بلدة قد قضى الله عليها كما ترى بالخراب
وقف العبد موقفة وأبكى من كان بها من شيوخها والشباب
واعتبر ان دخلت يوما اليها فهي كانت منازل الأحباب (١)

(١) شذرات الذهب ٥/٦٦

أبو سلامة محمود بن علـــوى ــ(٥٠٥)

له في المعـــــرة :

أنا من بلدة قضى الله يـــــا صــا ... ح عليها كما ترى بالخـــــــــراب
قتلوا أهلها وبادوا جميعـــــــــا ... من شيوخ وصبية وشبــــــاب (١)

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ١٠١/٢ ، وانظر النجوم الزاهرة ٢٠٠/٥

أبو المعالي بن المهذب

له يصف الوباء والافرنج بالشام :

ولقد حللت من الشآم ببقعة أعذر بساكن ربعها المسكين
وبئت وجاورها العدو فأهلها شهداء بين الطعن والطاعون (١)

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ٢ / ١٢٩

أبو المظفر الابيوردى

قال بعد دخول الفرنج القدس سنة ٤٩١ :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... اذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فايها بني الاسلام : ان وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
اتهويمة في ظل أمن وغبطة ... وعيش كنوار الخميلة ناعم
وإخوانك بالشام يضحي مقيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
يسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى ... توارى حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبى ... وسمر العوالي داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ... تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم يقرع بعدها سن نادم
سللن بايدى المسلمين قواضبا ... ستغمد منهم في الطلى والجماجم
يكاد لهن المستجن بطيبة ... ينادى باعلى الصوت يا آل هاشم
ارى امتي لا يشرعون الى العدى ... رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى ... ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الاعاريب بالاذى ... وتغضي على ذل كماة الاعاجم
فليتهم ان لم يذودوا حمية ... عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وان زهدوا في الاجر اذ حمي الوغى ... فهلا أتوه رغبة في المغانم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى ... فلا عطسوا الا باجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحة ... الينا بالحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية ... تطيل عليها الروم عض الاباهم
فان أنتم لم تغضبوا عند هذه ... رمينا الى أعدائنا بالجرائم (١)

---

(١) نهاية الارب ٥/ ٢٢٦ ، والكامل ١٠/ ٢٨٥

ابن الخياط ـ ٥١٧

قال يمدح الامير مجد الدين عضب الدولة أبق بن عبد الرزاق، أحد مقدمي أمراء دمشق ويحضه على الجهاد :

غدتك الصواهل قبا وجردا ... وشم القبائل شيبا ومردا

وذلت لأسيافك البيض قضبا ... ودانت لأرماحك السمر ملدا

وقل لمن قام في ذا الزمان ... مقامك أن بات بالشك يفدى

ألست أبر البرايا يدا ... وأندى من المزن كفا وأجدى

وأمضى حساما وأوفى ذماما ... وأهمى غماما إذا الغيث أكدى

وأذكى إذا غيب الامر طرفا ... وأورى اذا أظلم اليوم زندا

اذا التبس الرأي كنت الأسد ... وان غالب الخطب كنت الاشدا

وان قصر الناس عن غاية ... سبقت اليها من الناس فردا

ومن ذا يجاريك فضلا ونبلا ... ومن ذا يساويك حلما وقصدا

سجية من لم يزل بالثنا ... ء والحمد منفردا مستبدا

تجمل معاليه أن تستطاع ... وتأبى مناقبه ان تعدا

حقيق اذا ما انتضى سيفه ... بأن يجعل الهام للسيف غمدا

زعيم الجيوش لقد اعجزت ... أياديك واصفها ان تحدا

وأصبح ذكرك في الخافقـ ... ـين شرقا وغربا وغورا ونجدا

فصار مسير هلال السما ... ء يزداد نورا إذا ازداد بعدا

فلو طبع الفخر سيفا لكنـ ... ـت دون الورى حده والفرندا

وكم لك من نائل نائل ... رقاب المآثر شكرا وحمدا

ندى يعتق العبد من رقه ... ولكنه يترك الحر عبدا

واني لمهد اليك القريـ ... ـض يطوى على النصح والنصح يهدى

إلام * وقد زخر المشركون ... بسيل يهال له السيل مدا

وقد جاش من أرض إفرنجة ... جيوش كمثل الجبال تمردا

تراخون من يجترى شدة ... وتنسون من يجعل الحرب نقدا

أنوما على مثل هذ الصفاة ... وهزلا وقد أصبح الامر جدا

وكيف تنامون عن أعين ... وترتم فأسهر تومن حقدا

وشر الضغائن ما أقبلت ... لديها الضغائن بالكفر تحدى

بنو الشرك لاينكرون الفساد ... ولا يعرفون مع الجور قصدا

ولا يردعون عن القتل نفسا ... ولا يتركون من الفتك جهدا

فكم من فتاة بهم أصبحت ... تدق من الخوف نحرا وخدا

---

* في الديوان : الى كم وقد زخر المشركون : وهو مكسور

وأمّ عواتق ما إن عرفـن حَرّاً ولا ذقن فـي الليل بـردا
تكـاد عليهن من خيفـة تذوب وتتلف حزنـا ووجـدا
فحاموا على دينكم والحريـم محاماة من لا يرى الموت فقـدا
وسدّوا الثغور بطعن النحـور فمن حق ثغر بكم أن يسـدا
فلن تعدموا في انتشار الامـور أخا تدرا حازم الرأي جلـدا
يظاهر تدبيره باسـه مظاهرة السيف كفا وزنـدا
كمثل زعيم الجيوش الملـيّ بحزم يبيت له الحـزم ردا
وعادات بأسكم في اللقـا ء ليست تحول عن النصـر عهـدا
فدونكم ظفـرا عاجـلا لكم جاعلا سائر الارض مهـدا
فقد أينعـت رؤوس المشركـين فلا تغفلوها قطافا وحصـدا
فلا بـد من حدهم أن يفـل ولا بد من ركنهم أن يهـدا
فانّ ألب رسلان في مثلهـا مضى وهو أمضى من السيف حـدا
فاصبح أبقى من الفرقديـن ذكرا وأسنى من الشمس مجـدا
لعلكم أن تعيدوا من المـآثر والمجد ما كان أبـدا
وهذا ابنه قائما فيكـم مقام المفاخر جدا وجـدا
بخيل تختال غداة الكـر طيرا تحملن غابا وأسـدا
وطعن أمرّ من الموت طعمـا وضرب أحر من النـار وقـدا
اذا ما السيوف غداة الحتـو ف نوّعت الضرب قطعا وقـدا

ترى لمعا وقعا لا يـزلـن يخطفن برقا ويقصفن رعـدا
غدو الباس من جاب من تركـة له جنة ومن الدرع بـردا
وليعض السرد عن منكبيـه حتى يصير مع الجلد جلـدا
فما ينزع اليوم عنه الحديـد من رام أن يلبس العز رغـدا
وأيسر ما كابدته النفـوس من الأمر ما لم تجد منه بـدا
بقيتم ولا زلتم في اللقـاء بدورا توافق في الأفق سعـدا
ولا برح العز للمسلميـن من نصركم أبدا مستمـدا
فلسنا نرى بعـد طول البقـا ء أنور منكم على الله وفـدا
وقد قيل في الترك إن الـذي يتاركهم أسعد الناس جـدا (١)

---

(١) ديوانه صفحة ١٨٢ ــ ١٨٧

وقال يرثي السالار (القائد) قول بن الامير عثمان ، وكان قتل في البقاع سنة ٥٠١ ، ويعزي به الامير عضب الدولة :

ليس البكاء وان أطيل بمقنعي ... الخطب أعظم قيمة من أدمعي

ثم يذكر مناقبه باثنين وخمسين بيتا ، الى أن يقول :

لا يطمع الاعداء يوم سرّهم ... ان الردى في طي ذاك المطمع
الثار مضمون في أيماننا ... بيض كمنا طفة البروق اللمّع

وذوابل تهوى الى ثغر العدى ... توق العطاش الى صفاء المشرع
قد آن للدهر المضل سبيله ... أن يستقيم على الطريق المهيع
مستدركا غلط الليالي فيكم ... متنصلا من جرمها المستفظع
أفغركم ان الزمان أجركم ... طولا يبغيكم الوخيم المرتع
هلا ومجد الدين قد عصفت بكم ... عزماته بالفور عصف الزعزع
وغداة علمان التي روتكم ... بالبيض من سم الغراب المنقع
لا تأمنن صريمة عضبية ... من أن تقيم الحق عند المقطع
بقينا لغير رداكم لم تمتقل ... وأبي لغير بواركم لم تطبع
يا خير من تمشي وأكرم من رجي ... وأبر من نودي وأشرف من دعي
إنا وان عظم المصاب فلا الأسى ... فيه المضيّ ولا السلو بطيّع*(١)

ويختمها بتعزية الامير عضب الدوله بستة أبيات أخيره :

---

* انظر الخريدة بداية قسم شعراء الشام ٢١٥
(١) ديوانه صفحة ٢١٣ ــ ٢٢٠

الامير مجسد العسرب

قال يمدح الامير حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى ويذكر ظفره بالفرنج بعد عودة من الشام سنة ٥٢٤ :

أطاعك فيما ساء حاسدك الدهر ووالاك ما عادى معاديك العمر
ولا استعرت الا بحملاتك الوغى ولا سار الا تحت راياتك النصر
فأنت الذى أرضى عن الدهر قربه وجمّلت الايام أيامه الغر

. . . .

أنا لك ما أعيا سواك من العلى بهن الطعان الشزر والنائل النمر
وغربة شقر وماذية خضر وهندية حمر وخطية سمر
تصول اذا استمطرتها ذرت الطلا وخيل اذا استحضرتها أظلم الفجر
مصودة الا تجوس عمارة فترحل الاوحي من سكنها تقفر
هزمت بها جيش العدو مجاهدا فعز بك الاسلام وأمتهن الكفر
ورويت بيض الهند من مهجاتهم فهن ثوانٍ من دمائهم حمرٌ... الخ (١)

---

(١) الخريدة القسم العراقي ج ٢، ص ١٤٥

قال يمدح الوزير الافضل بن بدر الجمالي ويذكر تجريده العساكر الى الشام لمحاربة الفرنج بعد انهزام عسكره في الموضع المعروف بالبصة :

هي العزائم من أنصارها القـدر — وهي الكتائب من أشياعها الظفر

جردت للدين والاسياف مغمدة — سيفا تفل به الاحداث والغير

وقمت اذ قعد الاملاك كلهم — تذب عنه وتحميه وتنتصر

بالبيض يسقط فوق البيض أنجمها — والسمر تحت ظلال النقع تشتجر

بيض اذا خطبت بالنصر السنها — فمن منابرها الاكباد والقصر

وذبل من رماح الخط مشرعة — في طولهن لاعمار الورى قصر

يخشى بها غمرات الموت أسد شرى — من الكماة اذا ما استنجدوا ابتدروا

مستلئمين اذا شاموا سيوفهم — شبهتها خلجا مدت بها غدر

تومتطول بيض الهند أذرعهم — فما يغير ظباها أنها بتر

اذا انتضوها وذيل النقع فوقهم — فالشمس طالعة والليل معتكر

ترتاح أنفسهم نحو الوغى طربا — كأنما الدم راح والظبى زهر

وان هم نكصوا يوما فلا عجب — قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر

العود أحمد والايام ضامنة — عقبى النجاح ووعد الله منتظر

وربما ساءت الاقدار ثم جرت — بما يسرك ساعات لها أخر

ومنهـا :

لله بأسك والالباب طائشة — والخيل تردى ، ونار الحرب تستعر

وللعجاج على صم القنا ظلل — في الدخان وأطراف القنا شرر

اذ يرجع السيف يبدي خده علقا — كصفحة البكر أدمى خدها الخفر

أما يهولك ما لاقيت من عدد — سيان عندك قل القوم أم كثروا

هي الصاعقة الا أنها شرف — وهي الشجاعة الا أنها غرر ... الخ (١)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ، القسم الرابع الجزء الاول ص ٢٦٥

قال يمدح الأفضل الجمالي بقصيدة مطلعها :

الحب مذ كان معنى يعجب الأدبا   فإن تغزلت في مدح فلا عجبا

ومنها :

سارت له سيرة أدنى مناقبها   قد عطر الارض والأفواه والكتبا
تضمنت غزوات كلما ضحك الإسلام منهن ناح الكفر وانتحبا
أرضى المساجد والزهاد عنه الا   لله ما أسخط الرهبان والصلبا
وللآذان سرور في مواطنه   تبدي النواقيس منه الويل والحربا
ضمّر خيولك للنصر التي وعدت   وثقّف السمر حزما وانتض القضبا
أبشر فعادات وفد النصر قادمة   كالهيم من بعد خمس وافت القربا
واسفك دما في طلى الاعداء منتظرا   فلو أشارت له أسيافك انسكبا (١)

وقال يمدح الامام الآمر المنصور ، بقصيدة أولها :

بكم آل وحي الله يفتخر المجد   وفيكم يسوغ المدح والشكر والحمد

ومنها :

ستأخذ للاسلام ثاراته التي   تقاوم للكفر اللعين بها الحقد
كما فعلت في يوم بدر سيوفكم   وفي الشرك من دون القليب لها ورد
لك العزمات النافذات اذا أبصرت   الى مقصد لم تمنع البيض والسرد
وان خفقت راياتك الحمر سبحت   انصارك أعلاها ملائكة جند
وخطية سمر وبيض صوارم   ومسرودة زغف ومقربة جرد
وقوم منايا هم مناهم اذا انتضت   رماحك ، وفي طيب الحياة لهم زهد
فقد شام ملك الشام برقا سيحتوي   على ملك قسطنطين من سيله قصد
تزلزل ما خلف الفرنجة هيبة   له فرواسيها تخر وتنهد
ولله سر فيك حان ظهوره   ليوقن مرتاب ويرجع مرتد ... (٢)

وقال يمدحه بقصيدة مطلعها :

صلى الاله عليك يا ابن رسوله   وهدى لطاعتك الورى لسبيله
فيك استقر الحق واتضح الهدى   وأبان للثقلين وجه دليله
يا ابن الائمة من ذؤابة هاشم   شرف سما بفروعه وأصوله

(١) ديوانه ص ٢٤ ــ ٢٨
(٢) ديوانه ص ١١٧

ومبيد ملك الروم بالنصر الـــذي   نطقت به الآيات من انجيلـــه
قد شام منه الشام أعظم بـــارق   يمحو الفرنجة منه بعض سيولـــه
بادر بيوم مثل بدر أن يكـــن   لأبيك ذاك فان ذا لسليلـــه
قد حان حينهم وكاد لترســـه   منهم يسمعنا صياح عويلـــه
لله جيش مثل جيشك معلـــم   فالنصر يرحل دائما برحيلـــه
لولا الضجيج لكاد يسمع ناصـــت   صوت الملائك فيه من تهليلـــه
وأجر الجياد فكل طرف سابـــح   شوقا لهذا النصر جل صهيلـــه
وشم السيوف اذا فكل مهنـــد   لرقاب أهل الكفر فرط نحولـــه
فليشبت الافرنج منه لقســـور   بعث الحتوف اليهم من غيلـــه
ما مالهم وحريمهم ود ماؤهـــم   الا وديعته بكف وكيلـــه
فالبر مثل البحر من فرسانـــه   والبحر مثل البر من اسطولـــه
جمع يبيت الطير فوق رماحـــه   عدما لكثرته مكان مقيلـــه
ضاقت به الكرة التي هو ملؤهـــا   حتى يكاد يشقها برعيله ...الخ (١)

---

(١) ديوانه ص ٢٥٤ ــ ٢٦٠

قال يمدح صلاح الدين محمد بن أيوب العمادي صاحب حماه :

وما جاءه كلب الروم الا ليحتوي ... حماة وما يسطو على الأسد الكلب
أراد بها أن يملك الشام عنوة ... وقد غلبت عنه الضراغمة الغلب
وما دام فيها العيش حتى صدمته ... فطال جناح الجيش وانكسر القلب
تولى وأطراف الرماح كأنها ... نجوم عليه بالمنية تنصب (١)

وقال يمدح عماد الدين زنكي بقصيدة أولها :

بعزمك أيها الملك العظيم ... تذل لك الصعاب وتستقيم
ألم تر أن كلب الروم لما ... تبين أنك الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلا ... كأن الجحفل الليل البهيم
وقد نزل الزمان على رضاه ... فكان لخطبه الخطب الجسيم
فحين رميته بك في خميس ... تيقن أن ذلك لا يدوم
وأبصر في المفاضة منك جيشا ... فأحرز لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور ... توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى ... وليس سوى الحمام له حميم
يؤمل أن تجود بها عليه ... وأنت بها وبالدنيا كريم
أيلتمس الفرنج لديك عفوا ... وأنت بقطع دابرها زعيم
وكم جرعتها غصص المنايا ... بيوم فيه يكتهل الفطيم
ولما أن طلبتهم تمنى السمنية ... وسليمهم اللئيم
أتاه يطوي الآفاق حينا ... وأنت على مقاتله مقيم
فسار وما يعاد له مليك ... وتاه وما يعاد له سقيم
اذا خطرت سيوفك في نفوس ... فأول ما يفارقها الجسوم
رأيتك والملوك لها ازدحام ... ببابك لا تزول ولا تريم
تقبل من ركابك كل يوم ... كأنا ليس تبلغها النجوم
تود الشمس لو وصلت اليه ... وأين من الغزالة ما تروم
أرذت فليس في الدنيا منيع ... ووحدت فليس في الدنيا عديم
وما أحييت فينا العدل حتى ... أميت بسيفك الزمن الظلوم
وصرت الى الممالك في زمان ... بعوبملك الدنيا عقيم
تزخرف للأمير جنان عدن ... كما لعدا استعر الجحيم

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٣

أمن اللعين من مليك ... تخامر غير شيمته الهموم
فلا برحت لك الدنيا فداء ... وملكك من حوادثها سليم
وإن تلقى في سبيل الله تشقى ... فعند الله أجرك والنعيم (١)

وقال يهنيء صلاح الدين بالعيد ويذكر ما وهبه إياه من العبيد والإماء سنة ٥٧٦ : مطلعها :

أيحسن بعد صدك حسن ظني ... فأجمع بين يأسي والتمني

وبعد مقدمة غزلية يقول :

أتمتالموت لي رصدا فأخشى ... زيارته وإن يك لم يزرني
كما رصد العدى في كل يوم ... صلاح الدين في سهل وحزن
يرون خياله كالطيف يسري ... فلو هجعوا أتاهم بعد وهن
أبا دهم تخوفه فأمسى ... منامهم لو ييمّمهم أمن
تملك حولهم شرقا وغربا ... فصاروا لا اقتناص تحت رهن
أطاف عليهم من كل فج ... قبائل يقبلون بغير وهن
أتاهم بآل أيوب رباطا ... رأت منه الفرنج مضيق سجن
فهم للدين والدين جبال ... رواسي لا ترى أبدا كعهن
إذا اتبسروا له عزما ورأيا ... غنوا في الحرب عن ضرب وطعن
وإن نادى : نزال ، فلن يبالوا ... قتالهم لأمر أو لبجن
ربما أتص الملوك السلم عنهم ... ولهم جهد في البأس يغني
وخافتهم ملوك الناس جمعا ... فلم تقلب لهم ظهر المجن
لهم من بأسه ركن شديد ... ولو طلبوا لما آووا لركن
حوت آفاق مصرهم حصونا ... فكيف إذا أداروا كل حصن
مطارفة لهم سلطان عدل ... يمن لهم بكارمه ويبني

. . . .

أرى داوية الكفار خافت ... بعداء يصفق كل متن
أبوا نسلا مخافة نسل بنت ... تفارق دينهم أو تلق ابن
فقد عقموا به من غير عقم ... كما جبنوا به من غير جبن
ومن أفنائهم قدما حقيق ... بمحمد مثلما وجدوا ويثني
لقد خبر التجارب منه حزم ... وقلب دهره ظهرا لبطن
فكف الكفر أن يطغى بمكر ... يحير كل ذي فكر وذهن
فساق إلى الفرنج الخيل برا ... وإن ركبهم على بحر بسفن
لقد جلب الجواري بالجواري ... يمدن بكل قد مرجحن
يزيدهم اجتماع الشمل بؤسا ... فمرنان تنوح على مرن

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٢ والخريدة ، قسم شعراء الشام ج ١ ص ٤٢٠ ـ ٤٢٢ والكامل ١٠ / ٥٦ والباهر ٥٦

فما من ظبيـــة تفدى بليـــث ... ولا ليث فدى رشأ أغـــنّ
زهت اسكندرية يوم سيقـــوا ... وما طاف فما مُنيا بغبـــن
وخيرهما هناءً ما أتاهـــا ... بقرب الملك كل علىً يهـــني
فلو لبستْ به للفخر بـــردا ... لجرّت فضل أذيـــال وردن
لقد سبق الندى منه السبايـــا ... فكم عزب بأهل باتيهـــني
وأعجله السماح عن اذ كـــارى ... ولو ألقاه مَنّ بغير مـــنّ
فأسلحة تخاف لديه خزنـــا ... وأموال تطيرُ بغير خـــزن
وكيف يصون بحرا جود بحـــر ... فيحمل منه لاء وشـــد ن
وان الناصر الملك المرجّـــى ... لأولى من وَلي حَيَاً بمـــتن
يبيد عداته ويشيد مجـــدا ... لآل فهو يغني حين يقـــني
اذا لاقى العدى فأشدّ ليـــث ... وان بذل الندى فأسمح مـــزن (١)

وقال يمدح نور الدين :

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهـــه ... كالرمح دلّ على القساوة لينـــه
ووراء يقظته أناةُ مجـــرب ... لله سطوةُ بأسه وسكونـــه
هذا الذى فى الله صحّ جهـــاده ... هذا الذى بالله صحّ يقينـــه
هذا الذى يخل الزمانُ بمثلـــه ... والمشمخر الى العلى عرنينـــه
ملك الورى ملك أغرّ مـــوفّق ... لا غدره يخشى ولا تلوينـــه
إن حلّ فالقرب التليد أنيســـه ... أو سار فالظفر الطريف قرينـــه
فالدهر خاذلُ من أراد عنـــاده ... أبدا وجبّار السماء معينـــه
والدين يشهد أنه لمعـــزّه ... والشرك يعلم أنه لمهينـــه
ما زال يقسم ان يبدد شملـــه ... والله يكره أن تمين يمينـــه
فتح الرها بالامس فانفتحت لـــه ... أبواب ملك لا يزال مصونـــه (٢)

---

(١) الخريدة قسم الشام ١/٤٦١ – ٤٦٦
والروضتين ج ١ ق ١ ص ٦٩٥

أبو الحكم الأندلسي

قال يصف ما فعله الفرنج الألمان سنة ٥٤٣ بدمشق :

بشطّي نهر داريّـــا ... أمورٌ ما تواتينـــا
وأقوامٌ رأوا سفك الـــد (٢) ... ما في جلـق دينـــا
أتانا مائتا ألـــف ... عديداً أو يزيدونـــا
فبعضهمو من أندلـــس ... وبعضٌ من فلسطينـــا
ومن عكا ومن صـــور ... ومن صيدا وتبنينـــا
اذا أبصرتهم أبصـــر ... ت أقواماً مجانينـــا
ولكن حرّقوا فـــي عـــ ... جل الحال البساتينـــا
وجازوا المرج والتسديـــ ... ـل أيضاً والدياد ينـــا
تخالهمو وقد ركبـــوا ... فطائرهـــا جراذ ينـــا
وبين خيامهم ضمّـــوا الـــ ... خنازير والقرابينـــا
ورايات وصلبانـــا ... على مسجد خاتونـــا
وقلنا إذا رأيناهـــم ... لعل الله يكفينـــا
صالهم صبيٌّ قـــد ... أعان الخلق والدينـــا
وفتيان تخالهـــم ... لدى الهيجا شياطينـــا
نواوا يطلبون النصـــر ... ج من شرقٍ بمسرينـــا
ولكن غادروا إليـــ ... ـن تحت الترب مدفونـــا

• •

ومنهم مائتا علـــج ... ونيلٌ نحو تسعينـــا
وباقيهم الـــى الآن ... من القتل يفرّونـــا (١)

---

(١) الروضتين ١/١/ ١٣٩

ابن القيسراني — ٥٤٨ هـ

له من قصيدة يهنأ بها القاضي كمال الدين بن الشهرزوري عند فتح الرها :

ان المغانم يوم صافحت الرها … عطفت عليها كل أشوس ناكب
فتح الفتوح مهدر بتمامه … كالفجر في صدر النهار الآيب
لله أية وثقة بدرية … نصرت صحائبها بأيمن صاحب
ظفر ، كمال الدين ، كنت لقاحه … كم ناهض بالحرب غير محارب
وأمدكم جيش الملائك نصرة … بكتائب محفوفة بكتائب
جنبوا الدبور وقدتم ريح الصبا … جند النبوة هل لها من غالب
أترى الرها الورهاء يوم تمنعت … ظنت وجوب السور سورة لاعب
لا أين يا أسرى المهالك بعدها … ضاق الفضاء على نجاة الهارب
شدا الى أرض الفرنجة بعدها … ان الدروب على الطريق اللاحب
أغركموا الثأر رهن دمائكم … ما كان من أطراق لحظ الطالب
واذا رأيت الليث يجمع نفسه … دون الفريسة ، فهو عين الواثب (١)

وقال في تهنئة نور الدين بانتصاره على الفرنج يوم إنب :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب … وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت … تعثرت خلفها الأشعار والخطب
صافحتيا بن عماد الدين ذروتها … براحة للمساعي دونها تعب
ما زال جدك يبني كل شاهقة … حتى ابتنى قبة أوتادها الشهب
لله عزمك ما أمضى ، وهمك ما … أقضى اتساعا بما ضاقت به الحقب
يا ساهد الطرف والأجفان هاجعة … وثابت القلب والأحشاء تضطرب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة … فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة … أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
قل للطغاة وإن صمت مسامعهم … قولا لصم القنا في ذكره أرب
ما يوم إنب والأيام دائلة … من يومهم ببعيد ، لا ، ولا كثب
أغركم خدعة الآمال ظنكم … كم أسلم الجهل ظنا غره الكذب
غضبت للدين حتى لم يفتك رضى … وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهرت أرض الأعادي من دمائهم … طهارة كل سيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قادحه … فالحرب تضرم والآجال تحتطب

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٩٨

والخيل من تحت قتلاها تقر لها
والنقع فوق صقال البيض منعقد
والسيف هام على هام بمعركة
والنبل كالوبل هطال وليس له
وللظبى ظفر حلو مذاقته
وللأسنة عما في صدورهم
خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم
كذاك من لم يوق الله مهجته
كانت سيوفهم أوحى حتوفهم
حتى الطوارق كانت من طوارقهم
أجسادهم في ثياب من دمائهم
أنباء ملحمة لو أنها ذكرت
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا
ذو غرة ما سمت والليل معتكر
أفعاله كأسمه في كل حادثة
في كل يوم لفكرى من وقائعه
من باتت الاسد أسرى في سلاسله
فملوا سلب الإبرنز قاتله
من للشقي بما لاقت فوارسه
عجبت للصعدة السمراء مثمرة
سما عليها سمو الماء أرهقه
ما فارقت عذبات التاج مفرقه
اذا القناة ابتنت في رأسه نفقا
كنا نعد حصى أعدائنا ظفرا
عمت فتوحك بالعدوى معاقلها
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق
فانهض الى المسجد الأقصى بذي لجب
وائذن لموجك في تطهير ساحله
يا من أعاد ثغور الشام ضاحكة
ما زلت تلحق عاصيها بطائعها
حللت من عقلها أيدي معاقلها
وأيقنت أنها تتلو مراكزها
أجريت من ثغر الاعناق أنفسها
وما ركزت القنا إلا ومنك على
فاسعد بما نلته من كل صالحة

قوائم خانهن الركض والخبب
كما استقل دخان تحته لهب
لا البيض ذو ذمة فيها ولا اليلب
سوى القسي وأيد فوقها سحب
كانما الضرب فيما بينهم ضرب
مصادر ، أقلوب تلك أم قلب
فاستسلموا ، وهي لا نبع ولا غرب
لاقى العدى والقنا في كفه قصب
يا رب حائنة منجاتها العطب
ثارت عليهم بها من تحتها النوب
مسلوبة ، وكان القوم ما سلبوا
فيما مضى نسيت أيامها العرب
من الملوك فنور الدين محتسب
إلا تمزق عن شمس الضحى الحجب
ووجهه نائب عن وصفه اللقب
شغل ، فكل مديحي فيه مقتضب
هل يأسر الغلب إلا من له الغلب
وهل له غير انطاكية سلب
وان يساورها من تحته قتب
برأسه ، إن إثمار القنا عجب
انبوبة في صعود أصلها صبب
الا وهامته تاج ولا عذب
بدا لشعلبها من نحره سرب
فملكته الظبا ما ليس يحتسب
كأن تسليم هذا عند ذا جرب
كما التوى بعد رأس الحية الذنب
يوليك أقصى المنى ، فالقدس مرتقب
فانما انت بحر لجه لجب
من الظبا عن ثغور زانها الشنب
حتى أتمت ، وانطاكية قطب
فاستعقلت ، والى ميثاقه الهرب
وكيف يثبت لا جوق ولا طنب
جري الجفون امتراها بارح صخب
جسر الحديد هزبر غيله أشب
ياوي الى جنة المأوى لها عقب

إنْ لا يكن أحدُ الابدال في فلك الــــــــــمستقوى فلا تمارِ أنك القطـــــــب
فلو تناسبَ أفلاك السما بهـــــــــا لكان بينكما من عفة نســــــــــب
هذا وهل كان في الاسلام مكرمــــــة الا شهدْتَ وعبّادُ الهوى غيـــــب (١)

وقال عند دخوله انطاكية في راهبـــــــــة :

أشـْــبِــهَة الصليب وددت انـــــــي وديــن الله عندكم صليـــــــب
اذا اقبلت تبلني حبيـــــــــب أسر به مدانقني حبيـــــــب
وهل بيني وبين العـــود فـــرق يرى الا التفجع والنحيـــــب
حبيني صورة يحنى عليهـــــــا أجيب اذا دعيت ولا تجيـــــب
فليصمها طرف منفتـــــــاة من الرهبان قونتها أديـــــب
فلو تديمها ناجاه لفلـــــــي لأمسى ، والنسيب له نسيـــــب (٢)

ومن ذلك :

عرجا بالاشـــــــارب كـــي أقضـي مآربـــــي
واسرقا نوم مقلـــــــتي من جفون الكواعـــــب
واعجبا من ضلالــــــتي بين عين وحاجـــــب
رب كاس حبابهـــــــا من ثغور الحبايـــــب
اسكرتني فبـت مـلــــــقى على الترايـــــب (٣)

وقال في مدح نور الديـــن حين أسر جوسلين سنة ٥٤٥ هـ : المطلع :

أما وخيال زار من احبـــــــه لقد هاج من ذكراه ما لا أغبـــــه

---

(١) الروضتين ١/١/١٥٢ + الباهر في الدولة الاتابكيه ص ٩٣ + البدايه والنهايه ١٢/٢٢٦ + الكامل ١١/١٤٥
(٢) ديوان : ابن القيسرانـي ورقة ٦٤
(٣) ديوانه : ورقه ٧٨ والخريدة قسم الشام ١/١٥٦

ثم انتقل الى المديح :

مكين الحجى أرضى الزمان بنفسه   الى الآن حتى لان وانقاد صعبه
حمى قبة الاسلام بالخيل ، فاغتدت   واوتادها جرد الطمان وقبه
فكم هبوة أو قمن بالكفر تحتها   فما انقشعت الا وللذل جنبه
كيوم الرها الورهاء والهام يانع   مليّ برعي الهند واني خصبه
وشهباء هاجتها وغىً صرخديه   ثناها وليل الحرب تنقض شهبه
وعارم يوما بالعريمة فاغتدت   كوادي ثمود اذ رغا فيه سقبه
وعاص على العاصي بارعن خاطب   دم الا فك حتى انكر النصل خطبه
بإنب لما اكسب الدال وانثنى   بصاحب انطاكية وهو كسبه
غداة هوى شطرين للسيف رأسه   وللرمح حتى توج الرأس قلبه
على حين للخطي فيه عوامل   يعاقبه خفض الحسام ونصبه
وقائع محمودية النصر لم تزل   غريبا بها عن موطن السيف غربه
يقوم مقام الجيش فيها وحيده   وتفصل أفعال الكتائب كتبه
وحينا نتتمعزة منقرابه   مضى وهو نصل والممالك قربه
الى ان عمرتها كل بلدة   فليس من الأسعار مالا يرتبه
ولما نزا بالقمص عجب هوى به   على أم رأس البغي والغدر عجبه
فاصبح في الحجلين ينكر خطوه   بعيد على الرجلين في السعي قربه
تعاتبه البشرى باخذ حصونه   فيا عانيا ضرب البشائر ضربه
تناجي عزاز باسمعل باشر   فيلمنه لمن الصريع وسربه
فان يكن المعهود من ثل عرشه   فهذا عمود الكفر قد طاح طنبه
تقل لملوك الخافقين نصيحة   كذا عن طريق الليث يزأر غلبه
وخلوا عن الآفاق فالشرق شرقه   بحكم الرديينات والغرب غربه
ولا يعتصم بالدرب طاغ على القنا   فان القنا في ثغرة النحر دربه
رحيب فناء الحلم عن ذات قدرة   اذا ضاق من صدر المملك رحبه
عفو عن الجاني يكاد الذي جنى   يكر به شوقا الى العفو ذنبه
أمحض الاخلاص لله جنة   ومن يعتصم بالله ، فالله حسبه
أبوك استرد الشام بالسيف عنوة   وللروم بأس طالما غال خطبه
اذا ذب عن أضغاث دنياه مالك   فانت الذي عن حوزة الدين ذبه
رأيت اتباع الحق خيرا مغبة   فافرجت عن رأي يسرك غبه
وأوضحت ما بين الفريقين سنة   بها عرف المربوب من هو ربه
وبينت نور الدين ما كان يختفي   دليلا بأن الله من أنت حزبه (١)

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٨٨

وقال بكنيسة أشمونيثا وهي للقرية والنصارى :

لو كنت ثالثنا باشمونيثا … حتى ترى التوحيد والتثليثا
لرأيت منا أعينا طامحة … تستحسن التذكير والتأنيثا
. . . . .
لما سألت عاذلة من ريقه … ملء الزجاجة ثم جاء حثيثا
قلت اسقني من فيك إن رضابه … قد رد أطيب ما حملت خبيثا
قال . . . . . ؟ . . . . المزاج نسيبة … ما عند تغرب يفهم الثالوثا
وبدا يناظرني بها عن دينه … فقطعت ليلا بالجدال مكيثا
. . . . … . . . . (١)

وقال يمدح نور الدين زنكي سنة ٥٤٤ هـ ويذكر وقعته بالفرنج يوم إنب :

ألا لله درك أي در … صريح جاء بالكرم الصريح
وعسكرك الذي استولى مسيحا … على ما بين غامية وسيح
ووقعتك التي بنت المعالي … صوادر عن قتيل أو جريح
بإنب يوم أبرزت المذاكي … من النقع ه النزالة في مسوح
غداة كأنما الماضي احمرارا … من الدم عبرة الجفن القريح
وقد وافاك بالإبرنس حتف … أتيح له من القدر المتيح
تنلت اشجعهم بالنفس إذ لا … يجود بنفسه غير الشحيح
ملأت بهم ضرائحهم فأمسوا … وليس سوى القشاعم من ضريح
وعدت الى ذرا حلب حميدا … سمو البدر من بعد الجنوح
فإن خليت بنرتك الليالي … فكم لسناك من زمن مليح
رويدك تمكن الهيجا فواقا … بحيث تريح من تعب المريح
فأنت وإن أرحت الخيل وقتا … فهمك غير همّ المستريح (٢)

وقال في الصلح بين نور الدين ومجير الدين صاحب دمشق سنة ٥٤٥ هـ وأثر الوحدة في الانتصار على الفرنج :

لك الملك إن حاربت فالنصر والفتح … وإن شئت صلحا عد من حزبك الصلح
وهل أنت إلا السيف في كل حالة … تطورا له حد وطورا له صفح
سقيت الردينيات حتى رددتها … ترنح من سكر فخل القنا تصحو
وما كان كف الحرب إلا إشارة … الى الحزم لو لم يخضب السيف والرمح

---

(١) ديوانه ورقة ٧١ (٢) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٥٥

وقد علم الاعداء مذ بتّ جانحا ... الى السلم ما تنوي بذاك وما تنحو

اذا ما دمشق ملّكتك عنانها ... تيقن من في ايليا أنه الذبح

متى التف نقع الجحفلين على الهدى ... فلا مهمه يحوي الضلال ولا سفح

اذا سار نور الدين في الجيش غازيا ... فقولا لليل الافك قد طلع الصبح

تركتَ قلوب الشرك تشكو جراحها ... فلا زالت الشكوى ولا اندمل الجرح

صبرت فكان الصبر غير مضيعة ... فسيق اليك الملك يسعى به النجح

كان القنا تجلو لوجه أموره ... ولو أمهلت بلقيس ما غرها الصرح

بدولتك الغراء أصبح ضدها ... بهيما ولولا الحسن ما عرف القبح

وكم من قريح القلب لو بات واردا ... موارد هذا العدل ما مسه قرح

سحابك هذا الدهر جودا على الورى ... على أنه ما زال في طبعه شح

وقد كان يمحو رسم كل فضيلة ... ونحن نراه اليوم يثبت ما يمحو

بك ابتهج الالباب وانتهج الحجى ... وأثمرت الآداب وأطرد المدح

ولاذت بك التقوى وعاذت بك العلى ... ودانت لك الدنيا وعز بك السمح

فلا قلب الا قد تملكه هوى ... ولا صدر الا قد جلاه لك النصح

وما الجود في الأملاك الا تجارة ... فمن فاته حمد الورى فاته الربح

ولو اختصر ما قلت الا لأنني ... أعبر عما لا يقوم به الشرح (١)

وقال يمدح نور الدين :

تدارك ملك العربي ذ بتّا ... الى أن عده منه مـدَ

وحلّ ذرى المواصو هي نهبى ... فأجلى الشرك حتى ليس ضد

ثنى يده عن الدنيا عفافا ... ومال بها عن الأموال زهد

رأى حط الكوس عن الرعايا ... فأهدر قبل ما أنشاه بعد

ومدّ لها رواق العدل شرعا ... وقد طُوي الرواق ومن يمد

وبات وعند باب العرش منها ... لدولته دعاء لا يردّ (٢)

وقال يمدح نور الدين بعد هزيمته للفرنج بيفرى* ، مطلعها :

يا ليت أن الصدَّ مصدود ... أو لا فليت النوم مردود (٣)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٨٠

(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٤٨ .

(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٦ وانظر الكامل ١١ / ١٣٤ والباهر ٩٢

(*) وهم ابو شامة فظنها بصرى وهي عند ابن الاثير يفرى ، الكامل ١١ / ١٣٤

ثم خرج الى المدح فقال :

وكيف لا نثني على عيشنا الـمحمود والسلطان محمود

فليشكر الناس ظلال المنى ... ان رواق العدل ممدود
ونيّرات الملك وهّاجة ... وطالع الدولة مسعود

وصارم الاسلام لا ينثني ... إلاّ وشلو الكفر مقدود
مناقبٌ لم تك موجودة ... إلا ونور الدين موجود
مآثرٌ في درعه ضيغم ... عليه تاج الملك معقود
نال المعالي مالكا حاكما ... فهو سليمان وداود

ترتشف الأغوام أسيافه ... إنّ رضاب الغمزّ مورود
وكم له من وقعة يومها ... عند ملوك الشرك مشهود
والقوم اما موهق صرعة ... أو موثق بالقدّ مشدود
حتى اذا عادوا الى مثلها ... قالت لهم هيبته عودوا
طالب بثأر ضمنته الظبى ... فكل ما يضمن مردود
والكر والفر مجال الوغى ... فطارد طورا ومطرود
وانما الافرنج من بغيهم ... "عادٌ" وقد عادَ لها "ثمود"
قد صحصح الحق فما جاحد ... في قلبه بأسك مجحود
فكل مصر بك مستفتح ... وكل ثغر بك مسدود

وقال فيه :

تغني بضمانها البيض الحداد ... وتقضي دينها السمر الصعاد
وتدرك ثأرها من كل باغ ... فوارسُ من عزائمها الجلاد
ويغشى حومة الهيجا همام ... يشدّ بضبعه السبع الشداد
أظنوا أن نار الحرب تخبو ... ونور الدين في يده الزّناد
وجند كالصقور على صقور ... اذا انقضوا على الأبطال صادوا
إذا أخفوا لكيد تهم أخافوا ... وان أبدوْا عداوتهم أبادوا
ونصرة دولة حاميت عنها ... وهل يُخشى وأنت لها عماد
وان تثلُ التواني ما تلته ... بإنبَ ما يؤنّبها سناد
جَرتْ بالنصر أقلام العوالي ... وليس سوى النجيع لها مداد
ونالت أرؤس الاعلاج خضبا ... فنادى السيف قد وقع الحصاد
أحطت بهم فكان القتل صبرا ... ولا طعنٌ هناك ولا طراد
ولا يبرنس فوق الرمح رأس ... توسّد والسنان له وساد
ترجل للسلام ففرسوه ... وليس سوى القناة له جواد

غضيض المقلتين ولا نعـــاسّ ... وغائرُها وليديه سهـــاد
ثمرّ واستوعب الدنيا فتوحـــا ... فلا شقت عناك ولا وهـــاد
وزرّ بني الوغى مثوى جبيـــب ... فما عن باب مسلمة نيـــاد
ولا في باب فارس غير تكلـــس ... بفارسها يضيء بها العـــداد
لانطاكية يحمي ذراهـــا ... وقد دانت لسطوتك البـــلاد
وأذعن الممالك واستجابـــت ... ملبية لدعوتك العبـــاد (١)

وقال في جارية حسناء اسمها ماريّا تغني بالدف ، خفيفة الروح في نهاية اللطف ومن أعواتهـا التي تغايظ بها النصارى وتستميل بها قلوب المسلمـين :

علقت بحبل من حبال محمـد ... أمنتُ به من طارق الحدثـان (٢)

فقال فيها بعد البعد عنهـا :

ألا يا غزال الثغر هل أنت منشـدي ... علقت بحبل من حبال محمـد
ويا هل لذاك اليوم في الدهر ليلـة ... تعود ، ولو عادت عقيبا بعد غـد
فألقاك فيها هادي الكأس حاديـا ... وحسبك من ساع بها ومغـرد
الا حبذا عاري المحاسن عاطـل ... محلىً بأثواب الملاحة مرتـد
اذا ما الأماني ماطلتني بوعدهـا ... ذكرت له وصلا على غير موعـد
وعهدي بماريّا سقى الله عهدهـا ... بما عندها من حاجة الهائم الصـدي
وفي ذلك الزنار تمثال فضـة ... تنقط خديه العيون بعسجـد
وقد غلب المصباح فيه على الدجـى ... سناقمر في جنح ليل مجـد
وكنت اذا عفت الزجاجة مـوردا ... سقتني رضابا في اناء مـورد
فيا ليَ من وجه كقنديل هيكـل ... عليه من الصدغين محراب مسجـد
لقد أسرتني حيث لا أبتغي الفـدا ... فقل في أسير لا يسرّ بمفتـد

وقال في فتح الرّها سنة ٥٣٩ ومهنئا عماد الدين زنكـي :

هو السيف لاينبيك الا جـلاده ... وهل طوّق الاملاك الا نجـاده
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبـا ... سناها وان فات العيون اتقـاده
سمت قبة الاسلام فخرا بطولـه ... ولم يك يسمو الدين لولا عمـاده

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٦ ، وانظر أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢ / ٩

(٢) ديوانه : ورقه ٧٤ ــ ٧٥ والخريدة قسم الشام ١ / ١٠١

وذاد قسيم الدولة ابن قسيمـهـا ... عن الله لا يستطاع ذيـــاده
ليهنيني الايمان أن ترقّـت ... رواسيه عزا واطمأن مهـــاده
وفتح حديث في السماع حديثـه ... شهي الى يوم المعاد معـــاده
أراح قلوبا طرن عن وكناتهـا ... عليها غواشي كلّ صدر فـؤاده
لقد كان في فتح الرهاء لالـه ... على غير ما عند الملوك اعتقـاده
يرجّون ميلاد ابن مريم نصـرة ... ولم يغن عند القوم عنـه ولاده
مدينة أفك منذ خمسين حجـة ... يفل حديد الهند عنها حـداده
تنوت مدى الابصار حتى لوَ انّهـا ... ترقت اليه خان طرفا سـواده
وجاحتفز الملوك قيادهـا ... الى ان ثناها من يعز قيـاده
فأوسعها حر القراع مؤيـد ... بصير بتمرين الالد لـداده
كأن سنا لمع الاسنة حولـه ... سرار ولكن في يديه زنـاده
فأضرمها نارين حربا وخدعـة ... فما راع الاسوارها وانهـداده
فصدت صدور البكر عند افتضاضها ... وهيهات كان السيف حتما سفـاده
فيا ظفرا عم البلاد صلاحـه ... بمن كان قد عم البلاد فسـاده
غداة كأن الهام في كل قونـس ... كمائم نبت بالسيوف حصـاده
فما مطلق الا وشد وثاقـه ... ولا موثق الا وحل صفـاده
ولا منبر الا ترنح عـوده ... ولا مصحف الا أنار مـداده
فان يشكل "الابرنز" فيها حياتـه ... والا فقل للنجم كيف سهـاده
وباتت سرايا القمص تقصد ونهـا ... كما تتنزى عن حريق جـراده
الى أين يا أسرى الضلالة بعدها ... لقد ذل غاويكم وعز رشـاده
رويدكم لا مانع من مظفـر ... يساند أسباب القضاء عنـاده
دتيب سهام الرأي لو أن عزمـه ... رمى سد ذي القرنين أصمى سـداده
وقل لملوك الكفر تسلم بعدهـا ... ممالكها ، ان البلاد بـلاده
كذا عن طريق الصبح أيتها الدجى ... فيا طالما غال الظلام امتـداده
فلو درج الافلاك عنه تحصنـت ... لأمست صعادا فوقهن صعـاده
ومن كان املاك السماوات جنـده ... فأية أرض لم تطأها جيـاده
ولله عزم ماء سيحـان ورده ... وروضة قسطنطينية مستـراده (١)

وقال في جنيسة السيدة ، وهي قبة شاهقة للنصارى بانطاكيـة :

متى عجت يا صاح بالسيـدة ... فسل عن فؤاديَ في الافئـده
وقلبك حذّره عن انيسـاد ... فان بها للهوى مصيـده
وجوّنها هي قناديلهـا ... ببهجة نيرانها الموقـده
ترى كل مستضعف خصـره ... اذا ما دعا طرفه أنجـده

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ / ٩٧ وانظر الخريدة قسم الشام ١ / ١٥٣ وانظر عقد الجمان ج١٢ ق ١ ورقة ١٥٥

وذات روادف عند القيـــــــا ... م تحسبها أنها مقعـــــــده
وبدر من الشعر في غاســـق ... يضاحك أبيضُه أســـــوده
فيا لي من ذلك الزبرقـــــا ... ن اذا زرفن الليل او جعــــده
محل خيال اذا ما رأيـــــت ... أمرده قلت : ما أمـــــرده
به كل نشوانة لحظهـــــا ... يطرق بين يدى عربـــــده
صوارم قاطعة في الجفـــو ... ن فهي مجردة مغمـــــده
فها أنا ممن في سبيل الغــــرا ... م أورده الحب مــــا أورده
فهل لدم فات من طالـــب ... وهيهات أعجز يوم غــــده
وكيف يجازى بقتل النفـــو ... س من لم يمد اليها يـــده (١)

وقال يمدح نور الديـــن :

لله عزمك أي سيف وغـــى ... طبعت مضاربه على القهــــر
ما زفت الحرب العوان بــه ... الا انجلت عن معقل بكــــر
هل وجه نور الدين غير سنى ... صدع الدجى عن خجلة البـــدر
ملك مهابته طليعتـــه ... ابدا أمام جيوشه تســـرى
كم فل كيدهم بصاعقــة ... شغلت قلوبهم عن الفكـــر
تركت حصونهم سجونهم ... فالقوم قبل الأسر في أســـر
عصم السواهم فهي ضاحكة ... تجلو النابى ثغرا على ثغـر
فاذا سرايا خيله قفلت ... نهضت سرايا الخوف والذعـر
ورمى القلاع بمثل جند لها ... حتى استكان الصخر بالصخـر
يا سائلي عن نهج سيرتــه ... هل غير مفرق هامة الفجــر
عدل حقيق من تأملـــه ... ان يحيي العمرين بالذكـــر
وشهامة في الله خالصـة ... عقدت عليه تمائم الاجـــر
وندى يد ما غمر واردها ... الا يبيت مجاور البحـــر
هذا المخيم في ذرا حلب ... وثناؤه أبدا على ظهـــر (٢)

قال يمدح عماد الدين زنكي سنة ٥٣٤ ه ويذكر هزيمة الفرنج قرب حصن بارين :

حذار منا وأنى ينفع الحـــذر ... وهي الصوارم لا تبقي ولا تـــذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملــك ... من خيله النصر لا بل جنده القــدر
سلوا سيوفا كأغماد السيوف بهـــا ... صالوا فما غمدوا نصلا ولا شهـــروا
حتى اذا ما عماد الدين أرهقهـــم ... في مأزق من سنا ميرق البصـــر

---

(١) الخريدة : قسم الشام ١/١٠٠
(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٤٦ ه وانظر الدر الثمين ورقة ١٥١ مخطوط

ولو تخفق لهم ذرعا مسالكهم … والموت لا ملجأ منه ولا وزر
وفي المسافة من دون النجاة لهم … طول وان كان في أقطارها قصر
وأصبح الدين لا عينا ولا أثرا … يخاف والكفر لا عين ولا أثر
فلا تخف بعدها الافرنج قاطبة … فالقوم ان نفروا ألوى بهم نفر
ان قاتلوا قتلوا او حاربوا حربوا … او طاردوا طردوا او حاصروا حصروا
وطالما استفحل الخطب البهيم بهم … حتى أتى ملك آراؤه غرر
والسيف يفترع أبكار أنفسهم … ومن هنالك قيل الصارم الذكر
لا فارقت ظل محيي العدل لامحة … كالصبح تطوي من الاعداء ما نشروا
ولا انثنى النصر عن أنصار دولته … بحيث كان وان كانوا به نصروا
حتى تعود ثغور الشام ضاحكة … كأنما حل في اكنافها عمر (١)

وقال في نور الدين عند قدومه الى حمص وقد استولى على سنجار وأعمال الرحبة والفرات سنة ٥٤٤ :

هذا الذي ولدت له الافكار … وتمخضت فالا به الاشعار
وجرت له خيل النهى في حلبة … وردت وصفو ضميرها المضمار
وأتت به نذر القوافي برهة … إن القوافي وحيها إنذار
حكمت سيفك بالممالك عنوة … حكما لعمري ما عليه غبار
يا أيها الملك المطيل نجاده … بز يدين بهديه الأبرار
يا ابن السيوف وهل فخرت بنسبة … الا سما بك قائم وغرار
فارقت دار الملك غير مفارق … لك من علاك بكل أرض دار
في عسكر يخفي كواكب ليله … نقعا فيطلعها القنا الخطار
جرار أذيال العجاج وراءه … وأمامه بل جحفل جرار
تدني لك الغايات أكبرهمة … نورية همم الملوك كبار
حتى ملأت الخافقين مهابة … دانت لمنظم نظامها الاقطار
وملكت سنجارا وما من بلدة … الا تمنت انها سنجار
وبسطت بالاموال كفا طالما … طالت بها الآمال وهي قصار
وجرت بأمداد الجياد شعابها … جري السيول وما سواك قرار
وثنى الفرات الى يديك عنانه … والبحر ما اتصلت به الانهار
وملكت رحبة مالك فتبرجت … منها لعينك كاعب معطار
جاءتك في حلل الربيع وحليها … قبل الربيع شقائق وبهار
نثرت عليك هوى القلوب محبة … وتود لو أن النجوم نثار
فاتمت كالشمس المنيرة إن نأت … عن أفقها فلها به أقمار
من كان نور الدين ثم أجنة … ليل السرى خفيت به الانوار

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٨ وانظر عقد الجمان ج ١٢ ق ١ ورقه/ ١١٦

تدعو البلاد اليك ألسنة الظبى   فتجيبك الانجاد والاغوار
حتى عمدت الدين يا ابن عماده   بقنا أسنتها عليه منار
وتقلت من أسفار جدك قادما   كالصبح ثم بشره الاسفار
يغشي البصائر نور وجهك بعدما أعــ   ــتركت على قسماته الأبصار
حتى عمرت بكل قلب صدره   حين الصدور من القلوب قفار
ان تمس في حلب رياحك غضة   فلها بأنطاكية اعصار
وغدت جيادك بالشام مقيمة   ولها بأطراف الدروب مغار
هم سبقت بها الى مهج العدى   صرف الردى ومسيرة احضار
وأرى صياح القمص كان خديعة   فطغى وجار وليس ثم وجار
مال الصنيع فغير محقوق بها   والخير يهدم ما بنى المختار
حتى اذا ما غبت أقدم عاتيا   أتدامن ابن الدن منقعر
أمسى السلاح على عدوك بنيه   بالغدر يطعن في الوغى الغدار
فاحسم عناد ذوي العناد بجحفل   كالليل فيه من الصفيح نهار
جند على جرد أمام صدورها   صدر عليه من اليقين صدار
قد بايع الاخلاص بيعة نصرة   ولكل هادي أمة أنصار
ملك له من جد لموفائه   جيش بمستفتح الامصار
واذا الملوك تثاقلت عن غاية   وأرادها خفت به الاقدار
واذا انتضته الى الثغور عزيمة   قامت مقام جنوده الاخبار (١)

وقال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها ، ويذكر قتل البرنس ، وأسر جوسلين ، وأخذ بلاده :

دعا ما ادعى من غره النهي والامر   فما الملك الا ما حباك به القهر
ومن ثنت الدنيا اليه عنانها   تصرف فيما شاء عن اذنه الدهر
ومن راهن الاقدار في صهوة العلى   فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعر
اذا الجد أمسى دون غايته المنى   فماذا عسى ان يبلغ النظم والنثر
ولم لا يلي أسنى الممالك مالك   زعيم بجيش من طلائعه النصر
ليهن دمشقا أن كرسي ملكها   حبي منك صدرا ضاق عن همه الصدر
وأنك نور الدين مذ زرت أرضها   سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر
خطبت فلم يحجبك عنها وليها   وخطب العلا بالسيف ما دونه ستر
جلاها لك الاقبال حورية السنا   عليها من الفردوس أردية خضر
خلوب أتت من هواك محبة   نمت فانتمت جهرا وسر الهوى جهر
فسقت اليها الامن والعدل نحلة   فأمست ولا أسر تخاف ولا اصر
فان صافحت يمناك من بعد هجرها   فأحلى التلاقي ما تقدمه هجر

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٧٤

وهل هي الا كالحصان تمنــت
ولكناذا ما قستها بصداقهــا
هي الثغر أمسى بالكراديس عابســا
على أنها لو لم تجبك إنابــة
فاما وقفت الخيل ناقمة الصــدى
فمن بعد ما أوردتها حومة الوغــى
وجللتها نقصا أنماع شياتهــا
فلا النهر لما كاثر القصب القنــا
وقد شرقت أجرافه بدم الــدى
صدعتهم صدع الزجاجة لا يــدّ
فلا ينتحلْ من بعدها الفخر واثــل
ومن بزّ انطاكية من مليكهــا
أخو الليث لولا عذره ه نزعت بــه
اتى راسمركضا وغود رشلــوه
وقد كان في استبقائه لك منــة
كما أحدث الأقدار للقصر أسـره
طغى وبغى عدوا على غلوائــه
وألقت بأيديها اليك حصونــه
وأمست عزاز كاسمها بك عــزة
فسر ه وأملاء الدنيا ضياء وبهجــة
كأني بهذا العزم ه لافلّ حـده
وقد أصبح البيت المقدس طاهــرا
وقد أدت البيض الحداد فروضهــا
وصلّت بمحراب النبي صــوارمّ
وان يتيمم ساحل البحر مالكــا
سللت سيوفا أثكلت كل بلــدة
اذا سار نور الدين في عزماتــه
ولو لم يسر في عسكر من جنــوده
مليك سمت شم المنابر باسمــه
فيا كعبة ما زال في عرصاتهــا
خلعت حلى الايام من حلل العلــى
وتوجت ثغر الشام منك بحلـة
فلا تفتخر مصرٌ علينا بنيلهــا
رددت الجهاد الصعب سهلا سبيلــه
واطمعت في الافرنج من كان يائســه
واقحمت جرد الخيل أعلى حصونهــا

دلالا ه وان عز الحيا وغلا المهــر
فليس له قدر وليس لها قــدر
واصبح عن باب الفراديس يفتــر
لأرهقها من بأسك الخوف والذعــر
على بردى من فوقها الورق النضــر
واصدرتها والبيض من علق حمــر
فلا شهبها شهب ولا شقرها شقــر
مكاثرة في كل نحر لها نحــر
الى أن جرى العاصي وضحضاحه غمــر
لجابرها ه ما كل كسر له جبــر
فمن بارز الإبرنز كان له الفخــر
أطاعته ألحاظ الدوء للمقالمشـز
الى الذئب ه إن الذئب شيمته الغــدر
وليس سوى عافي النسور له قبــر
هي الفتك لو لم تنتضب البيض والسمــر
واسعد قرن من حواه لك الأســر
فاوبقه الكفران : عدواه والكفــر
ولو لم تجب طوعا لجاء بها القســر
تشق على النسرين لو انها الوكــر
فبالافق الداجي الى ذا السنا فقــر
واقصاه بالاقصى ه وقد قضي الامــر
وليس سوى جاري الدماء له طهــر
فلا عهدة في عنق سيف ولا نــذر
مساجدنا شفع ساجدنا وتــر
فلا عجب أن يملك الساحل البحــر
بصاحبها حتى تخوفك البــدر
فقولا لليل الإفك قد طلع الفجــر
لكان له من نفسه عسكر مجــر
كما زينت بها به الانجم الزهــر
مواسم حج لا يروعها النفــر
ملابس من أعلامها الحمد والشكــر
ترفت لها بغداد لو أنها ثغــر
فيمنا لك النيل ه كل مصر بها مصــر
ويا طال أمسى ومسلكه وعــر
تخوف ا يعتاده منهم كفــر
ولولاك لم يهجم على كافر كفــ

ومن يدّعي في تلك الشرك شركـــــة — اذا لم يكن عند القوافي له ذكــــــر
هي القانتات الحافظات فروجهـــــا — فشاهدها عدل ورائقها سحـــــر
ولو لم يكن في فضلها وكمالهـــــا — سوى أنها من بعد عمر الفتى عمـــر (١)

وقال عند دخوله انطاكية ، ومره بالعواصم يذكر مواضع استحسنها ، وهي الثغريات ، فمن ذلك :

كم بالكنائس من مبتّلــــــة — مثل المهاة يزينها الخفــــر
من كل ساجدة لصورتهـــــا — لو أنصفت سجدت لها الصــــور
تد يحة في جهل عاتقهـــــا — طول وفي زنارها قصـــــر
غرس الحياء بصحن وجنتهـــا — وردا ، سقي أغصانه النظــــر
وتكلمت عنها الجفون فلـــو — حاورتها لاجابك الحـــور
وجلت مدارعها غدائرهـــا — فأرتك ضحى في ليلة قمــــر (٢)

وقال يصف أنطاكيـــة :

واحربا في الثغور من بلـــد — يضحك حسنا كأنـــه ثغـــر
بقصور كأنها بيـــــع — ناطقة في خلالها الصـــور
هالات طاقاتهن آهلـــة — يبسم في كل هالـــة قمـــر
سوافر كلما شعرن بنـــا — برقعهن الحيـــاء والخفـــر
من كل وجه كأن صورتـــه — بدر ولكن ليله شعـــر
فهو إذا ما السلو حاربـــه — كان لتلك الضفائـــر الظفـــر
فيا عذولي فيهن ، دع كلفـــي — وانظر الى الشمس هل لها طـــرر
وكن معيني على ذوي خــــدع — ان سالم القلب حارب النظـــر
سرت وخلفت في ديارهـــم — قلبا تمنيت أنه بصـــر
ولم أزل أغبط المقيم بهـــا — للقرب حتى غبطت من أســــروا (٣)

ومن ثغرياته قولـــه :

.... — ....
على أردافها قضبان بـــان — تميس بفاتنات اللحظ حـــور
اذا انتصبت فأقطار الـــدراري — وإن مالت فأفلاك البـــدور

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٨٥ ـ ١٨٧ وانظر الخريدة قسم الشام ١ / ١٥٧
والكامل ١١ / ١٥٥ ، والباهر ١٠٣
(٢) ديوانه : ورقة ٦٢ مخطوط
(٣) ديوانه : ورقة ٦٣ وانظر الخريدة قسم الشام ١ / ١٠٠

فلو خلقتها بحلى يديهـــــا ... جرت تلك الخصور على الخصـــور

سمعن من مكن بيوت شعـــر ... فأبرزن المحاسن في الشعـــور

وأمرجن النواظر في وجـــوه ... منزهة الخدود عن الخـــدور

تريك الحسن غير مرقعـــات ... ألا ما في البراقع من غـــرور

فلو خادعت طرفك لم تمـــن ... به إلا على قمر منيـــر

فدعني من منازل البـــوادي ... على شغل بسكـان القصـــور (١)

ومن ذلك في خمارة بجسر الحديد على باب أنطاكيـــة :

إن كان لا بد من السكـــر ... فمن يدي خمارة الجســـر

خمارة تطلع من نحرهـــا ... جمارة بيضاء من نحـــر

تمشي فتمشي الراح في راحهـــا ... تهدي سنا الشمس إلى البـــدر

حتى إذا دارت على شربهـــا ... ألحاظها أغنت عن الخمـــر

ما زرتها إلا وباتت يـــدي ... أولى من الزنـار بالخصـــر

وبت أسقى من جنا ريقهـــا ... كأسا من الثغر على الثغـــر (٢)

وقال وقد اجتاز بعزاز من نواحي حلب وهي من الافرنـــج :

أين عزي من روحتي بعـــزاز ... وجوازي على الظباء الجـــوازي

واليعافير ساحبات المغافيـــر ... علينا كالربرب المجتـــاز

بعيون كالمرهفات المواضـــي ... وقدود مثل القنا الهـــزاز

ونحور تقلدت بثغـــور ... ريقها ذوب سكر الأهـــواز

ووجوه لها نبوة حســـن ... غير أن الإعجاز في الأعجـــاز

كل خمصانة شدت طرف الزنـــار ... منسرة على همـــواز

ذات خصر يكاد يخفى على الفــا ... رس منه مواقف المهمـــاز

لا جفتني فاتقي بها على قلـــ ... ـبي طرف له قوادم بـــاز

وسبتني لها ذوائب شعـــر ... عقدتها تاجا على إبـــرواز

من معيني على بنات بني الأصـــفر ... غزوا فإنني اليوم غـــاز (٣)

---

(١) ديوانه : ورقة ٦٦ مخطوط .

(٢) ديوانه : ورقة ٧٧

(٣) ديوانه : ورقة ٧٩ وانظر الخريدة قسم الشام ١/١٥٦.

وقال في كنيسة برسارة وهي للافرنج خاصـــة :

بدينك يا قس برســــارة ... وما بت تتلوه فـي الخنـــدس
أجرني من الصور الناطقـــات ... متى قمن حولك فـي مسـدس
اذا هن أقبلن وقت الصـــلا ... ة في كل لون من الاطلـــس
وجالت مناطق أوساطهـــا ... وضاقت بها حلل السنـــدس
واجلسها ثقل أردافهـــا ... فيا لي من ذلك المجلـــس
فلولا التحرج في ملـــتي ... طلمتحليهن في برنـــس
وتمثالهن قد استهـــن ... غير بليـد ولا اخـــرس (٣)
ولم تك فرسانها في الطعـــان ... باشجع مني ولا أفـــرس
الا حبذا ما استثار الهـــوى ... بتلك الكنائس من كنـــس
ترى كل فاتنة وجههـــا ... مري بشمس الضحى مكنـــس
تكاد التماثيل من حسنـــه ... تفور بنا طاقة الانفـــس
فرنجية ساكن عقد هـــا ... وزنارها قلق المجلـــس
اذا قبلت صورة قبلـــت ... عليها بناظرها الاشـــوس
فيا ليتني عندها دميـــة ... تراني ولا ريب في ملبـــسي
فاقسم لو انني استطيــــــعتحولت صورة مرجرجـــس (١)

وقال في مولد من مولدي الافرنج ابصره بـ "ياعو" من بلاد الشمال :

وشحنة كالهلال فـــي " ياعـو " ... عيناه جند له واشيـــاح
وال وألبابنا ولايتـــه ... ومقطع والقلـــوب أقطـــاع
اذا بدا أذعنت لـــه حــدق ... وان شدا ملكتـــه أسمـــاع
يحـــس أوتار عـود بيـــد ... إيقاعها بالنفــوس ايقاع (٢)

ولغي المكشـــوف :

كم لي بانطاكية من هـــوى ... لا انثني عنـه بتعنيـــف
اذ لا اجيل العين إلا علـــى ... جيش من الأقمـار مصفـوف
من كل بيضاء مسيحيـــة ... ما عندها البدر بموصـوف
تجري ثناياها الحاني ثمـــا ... تلحظ طرفا غير مطـروف
فالعين خوف العين مصروفـــة ... عنها وما القلب بمصـروف
هذا وكم وجه كشمس الضحـــى ... بالهيكل المكشـوف مكشـوف (٣)

---

(١) ديوانه : ورقـة ٧٠ (٢) ديوانه : ورقة ٧٩ (٣) ديوانه ورقة ٦٢

وللمهذب بافرنجية يصفها بزرقة العينين :

لقد فتنتني فرنجية ... نسيم العبير بها يعبق
ففي ثوبها غصن ناعم ... وفي تاجها قمر مشرق
وإن تك في عينها زرقة ... فإن سنان القنا أزرق (١)

وهنا عماد الدين زنكي بفتح الرها سنة ٥٣٩ هـ :

أما آن أن يزهق الباطل ... وأن ينجز العدة الماطل
إلى م يغيب ملوك الضلا ... ل سيف بأعناقها كافل
فلا تحفلن بصول الذئاب ... وقد زار الأسد الباسل
كذا ما انثنت قط صم الرما ... ح أو يتثنى القنا الذابل
هو السيف إلا تكن حاملا ... لبزته يزك الحامل
وهل يمنع الدين إلا فتى ... يصول انتقاما فيستأصل
أبا جعفر أشرقت دولة ... أضاء لها بدرك الكامل
فإما نصبت لرفع اسمها ... فإنكما الفعل والفاعل
بل انقاد جامحها المصعبي ... وأخصب جانبها الماحل
ليهنك ما أفرج النصر عنه ... وما ناله الملك العادل
فتوح الفتوحات نظم القنا ... ة أعلى أنابيبها العامل
نقل للحقائق : الطريق الطريق ... فقد دلف القرم البازل
وجاهد في الله حق الجها ... د محتسب بالعلى قائل
بجيش إذا أم ورد الثغور ... يروى بها الأسل الناهل
إذا شمر البأس عن ساقه ... مضى وهو في نقعه رافل
فيا نعمة شمل الشاكرين ... فضلك ، إغفالها الشامل
تمخض عزلها منجب ... فيا سعد ما وضعت حامل
غداة ولا رمح دون الطعا ... ن إلا وعقربه شائل
ولا نصل إلا لمبارق ... دماء الطلى تحته وابل
وقد قلدوا السيف تحصينهم ... ولكنه الناصر الخاذل
وهل يمنع السور من طالع ... يشايعه القدر النازل
شققتم إليها بحار الحديد ... ملتطما موجها الهاطل
وخضتم غمار الردى بالردى ... وعن نفسه يد عن القاتل
فإن يك فتح الرها لجة ... فساحلها القدس والساحل
فهل علمت علم تلك الديا ... ر أن المقيم بها راحل
أرى القمص يأمل فوت الرماح ... ولا بد أن يضرب السابل

---

(١) ديوانه : ورقه ٦٦ ، وانظر الخريدة قسم الشام ١ / ٩٩

يقوي مقاتله جاهدا ... وهل عاقل بعدها عاقل

وكيف يضبط بواقي الجهات ... لمن فات حشمته الحاصل

برأيك في الحرب أم لفظك اسـ ... ـتقاد إصابتها النابل

وعن حد عزمك في المشكلات ... قضى فمضى الصارم القاصل

نشرت الفضائل بعد الخمول ... ألا ربما نبّه الخامل

وحطت البلاد على نأيها ... كأنك في كلها نازل

أتصفو الممالك من حافظ ... وصدرك من حفظها آهل

ولم لا تحيط بآفاقها ... وفي يدك الصامت القائل

اذا ما علا الخصم في حومة ... ففارس بهمتها راجل

يفيض على الطرس سحر البيان ... كأن بنانك ... بابل

متى ترك الحميد والمرهفات ... فأحدها القاطع الواصل

بسابقة الملوفتا لأنام ... وهل يدرك العالم الجاهل

اذا خطب الاكرمون الثناء ... فأكرم اصهارك الفاضل

أبز الكفاة وتاج العراق ... ومن كفه بالندى حافل

تأمل مطالع هذا الكلام ... والا فكوكبها آفل

أرى القوم تلفح آمالهم ... وحالي من دونه حائل

فهل لي على البعد من قربة ... يزيل بها غفلة الداهل

فإن الغمام بعيد المنال ... وفي كل فج له نائل

وأنت الزمان وأنت الاما ... ن من كل ما يفرق الذاهل

وأنت الحلي على المكرمات ... فلا وصفت أنها عاطل (١)

وقال يمدح نور الدين سنة ٥٤٤ هـ بقصيدة مطلعها :

أبدى السلو خديعة للائم ... وحنى الضلوع على فؤاد هائم

يا أيها المغرى بأخبار الهوى ... لا تخدعن عن الخبير العالم

اسأل عذيتك بالصبابة لمتنى ... واسأل بنور الدين صدر الصارم

ومعطفات ترتمي بأجنة ... ومثقفات تهتدي بلهاذم

ومسومات لمت تدري في الوغى ... بقوائم يدركن أيقاوادم

كل ابن سابقة اذا ابتدر المدى ... فلقير غرته يمين اللاطم

يرمي بفارسه أمام طريده ... حتى يرى المهزوم خلف الهازم

ينمى الى ملك اذا قسم الندى ... والباركان المكتنى بالقاسم

متسربل بالحزم ساعة تلتقي ... حلق البطان على جواد الحازم

ما بين منقطع الرقاب وسيفه ... الا اتصال يمينه بالقائم

سام الشآم ويا لها من صفقة ... لولاه ما أتيت على يد سائم

ولثمت عنها الثغور وأصبحت ... فيها العواصم وهي غير عواصم

---

(١) الخريدة : قسم الشام ١/١٠٨-١١١ ، وانظر الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٢٦

تلك التي جمحت على من راضهـــا ... ودعوت فانقادت بغير شكائـــم

واذا سادت تك أحببتَ في دولـــة ... قام الزمان لها مقام الخـــادم

يا ابن الملوك وعصب أنصار الهـــدى ... ما عند رأيك من ظنون وعزائـــم

تورإذا انتضت السيوف أكفهـــم ... فلت الصواعق في متون غمائـــم

من كل منصور البيان بمجمـــة ... وهل الأسود الغلب غير أعاجـــم

أو مقصر بقرى الصوارم في الوغـــى ... أسخى هناك بنفسه من حاتـــم

حصّن بلادك هيبة لا رهبـــة ... فالدرع من عُدد الشجاع الحـــازم

وارم الاعادي بالصوادي إنهـــا ... كفلت بفل قديمهم والقـــادم

أهلا بما حملت اليك جيادهـــم ... ما في ظهور الخيل غير غنائـــم

واسأل فوارس حاكموك الى القنـــا ... في الحرب كيف رأوا لسان الحاكـــم

تلك العوامل أي أفعال المـــدى ... ما سكّنت حركاتها بجـــوازم

هيهات يطمع في [illegible] طامـــع ... طال البناء على يمين الهـــادم

كلفت همتك العلو فحلقـــت ... فكأنما هي دعوة في ظالـــم

قطنت بأوطان النجوم فكم لهـــا ... من مارد قذفت اليه براجـــم

أنشأت في حلب غمامة رأفـــة ... أمددت ديمتها بنشو ائـــم

ألحقت أهل الفقر فيها بالغـــنى ... أمن المؤمل ثروة للمعـــادم

وأظن ان الناس لما لم يـــروا ... عدلا كعدلك ارجفوا بالقائـــم

فتهن أوساف العلى منظومـــة ... فالدر أنفسه بكف الناظـــم

جاءتك في حلل النباهة حاسـرا ... تختال بين فضائل ومكـــارم

عربية أنسابها لوانهـــا ... لحقت أمية لأنتمت غـــي دارم

وتمل غرة كل فطر بعـــده ... متسربلا أسنى ثواب الصائـــم

لا زال وجهك في عقود شمـــوره ... بدر التمام مقلدا بتمائـــم (١)

ولغي مدح تاج الدين بوري سنة ٥١٣ :

الحق مبتهج والسيف مبتسـم ... وبال أعدا مجير الدين مقتسـم

قدت الجياد وحصّنت البلاد وأمـ ... ـنت العباد فأنت الحل والحـرم

وجئت بالخيل من أقصى مرابطهـا ... ساقد الحزم في أوساطها الحـزم

حتى اذا ما أحاط المشركون بنـا ... كالليل ، يلتهم الدنيا له ظُلَـم

وأقبلوا ، لا من الإقبال ، في عـدد ... يؤود حاسبه الاعياء والسـأم

أجريت بحرا من الماذيّ ممتكـرا ... أمواجه بأواسي الباس تلتطـم

وسست جندك ، والرحمن يكلـؤه ... سياسةً ما يسفي اثرها نـدم

وتقتفي الجيش والاعلام خافقـة ... بالنصر ، كل قناة فوقها علـم

يحوطك الله عونا عن عيونهـم ... والله يعصم مَنْ بالله يعتصـم

حتى إذا بدت الاراء ضاحكـة ... وأقبلت أوجه الإقبال تبتسـم

(١) الخريدة ، قسم الشام : ج ١ / ١١٢ ـ ١١٤ وانظر الروضتين ج ١ ق ١ ص ٤٩

اتبعت جنّ سراياهم مضمّـــرة ... فيها نجوم إذا جدّ الوغى رجمـــوا
والنصر دان وخيل الله مقبلـــة ... ترجو الشهادة في الهيجا وتغتنـــم
صابَ الحمام عليهم والسهام معـــا ... فما دَرَوا أيما الهطالة الدّيـــم
سروا لينتهبوا الأعمار فانتُهبـــوا ... قتلا ، ويغتنموا الاموال فاغتُنمـــوا
وأقبلت خيلنا تردي بخيلهـــم ... مجنوبةً ، وعلى آرماحنا القمـــم
وادبرَ الملِكَ الطاغي يزعزعـــه ... حرّ الأسنة ، وهو البارد الشبـــم
وانوا دمشق فظنوا أنها جـــدة ... ففارقوها وفي أيديهمُ العـــدم
وأيقنوا من ضياء الصبح أنهـــمُ ... إن لم يزولوا سراعا زالت الشيـــم
فغادروا اكثر القربان وانجلفـــوا ... وخلفوا اكبرَ الصلبان وانهزمـــوا
مستسلمين لأيدي المسلمين وقـــد ... أغرى القنا بتمادي قطفهم نهـــم
لا يملك الجسم دفعا عن مقاتلـــة ... كأنه حين يغشاه الردى صنـــم
وحاولوا المسجد الأدنى فما عـــبرت ... عن مسجد القدم الأقصى لهم قدم (١)

وله في كنيسة القيسان :

يا غزال الثغور بالقيســـان ... أنت من غال ذكره نسيانـــي
اسأل السانحات عنك نهـــارا ... فاذا الليلُ جَنّ جُنّ جنانـــي
كيف يصغي الى السلوّ جماحـــي ... بعد ما أطلق الغرام عنانـــي
حبذا يوم باكرتنا الزنانيـــ ... ـرُ ترينا القضبان في الكثبـــان
وعلى موقف الأساقف ظبـــيّ ... يفرس الأسد من بني الفرســـان
غصن كابتٌ من المرمر المنضـــو ... د في غير منبت الأغصـــان
....
فارى من أراني الشمس شمســـا ... على الارض ثاني الألحـــان (٢)

وله في دير سمعان وهو على فرسخين من أنطاكيـة :

يا هل سمعت بدير سمعـــان ... وما به للعيون من عـــان
أوقف للصلاة هيكلـــه ... أم منبتٌ من منابت البســـان
في كل غصن تفاحتا خجـــل ... تلقاك من مثلهـــا ببستـــان
من ذات بشر يلوح في بشـــر ... وذات جان يبدو على جـــان
يرمي فيصمي عن غير ناطقـــة ... ما كل قوس ترمي بمرنـــان
....
تسجد للشمس وهي معرضـــة ... في الافق عن موجه نيـــران
وانصرفوا والفؤاد أفئـــدة ... من كل نصرانـــة ونصـــران
يا حسن عيد الصليب لو أن كـــا ... ن الدهر فيهم أعيادَ صلبـــان (٣)

---

(١) الروضتين : ج١ ق١ / ١٤١ (٢) ديوانه : ورقة ٦٧ (٣) ديوانه : ورقة ٧٣

وقال في تغرباتـــــــــه :

اذا ما زرت ماريـــــــــــا ... فما سعدى وماريـــــــــا ؟
فتاة كقضيب البـــــــــــا ... ن يثنيها الصبا طيـــــــــا
تلوّى كالمواعيـــــــــــد ... أطالت عمرها ليـــــــــا
لها وجه مسيحـــــــــيّ ... ترى الديّتبه حيـــــــــا
اذا ما قابلته الشمـــس لم تبصر له فيـــــــــا
فيا أحسن ما أعـــــــــر ... ض دلالا ومن حيـــــــــا
.... (١)

---

(١) ديوانه : ورقة ٧٦

قال يمدح نور الدين :

وما يوم الفرنجة منك فذ ... فتحصر عدّه خطط الحساب

أجاش الاربعاء لهم خميسا ... بعيد النور ملتطم العباب

وأحكم بالحطيم لهم حطاما ... أمرّ بريمه مرّ الضراب

مشوا متمائدين الى صليب ... يرق صبوة الصم الصلاب

تلقّتهم المنايا في الثنايا ... وتفجأهم شعوب من الشعاب

أطاعتهم كبشهم هناة ... فكنت ذباب طائشة الذباب

حللت التاج عنه وحل تاجا ... فكان البدر من عقد الكعاب

أناف على العقاب فكان أشهى ... وأبهى منه في ظل العقاب

فأشرف وهو عن شرف مسوق ... وأصعد وهو غاية الانصباب

تكاهرما لقواصت وهو منضو ... ثناه مناه عن رجع الجواب

بعيدا من تراح واقتراح ... يؤوب له الى يوم المآب

وكم سوط بخيلك أقبلوه الصدور فكان سوطا من عذاب

تركتهم بأرض الشام شاما ... لناقر تتقيه أو لناب

هتكت حجابه والشمس وسنى ... بشمس لا توارى بالحجاب

بأبيض من حبيك الهند صاف ... مصون المتن متبذل الذباب

له سنة الشيوخ صفاء شيب ... وفي شطراته نزق الشباب

الا يا ناظر الدنيا بعين ... أرته علا بها خدع السراب

تبطنها فطلقها ثلاثا ... على عز التطلق والخضاب

فلا يأوى الى رأي شعاع ... ولا يثني الى أمل خراب

ترفّع عن مجاوزة الاماني ... وحلق عن محاضرة التصابي

صلاة الله كل دروز شمس ... على مثوى أبيك من التراب

لقد ألقى الى الاسلام عضبا ... يطبق في النوائب غير نابي

تجيش له رواس كالرواسي ... تمدّ لها جفان كالجوابي (١)

وقال في تهنئة نور الدين بفتح عزاز وغيرها سنة ٥٤٥ :

تدين القلوب بألبابها ... وسار الملوك بأربابها

كتائب ترمي جنود الصليب منها بتقطيع أصلابها

اذا ما انتشت من تراح الكماة ... كست وقدها يحيي أصابها

تبرنس منها البرنس الشباب ... وحلته وقع أصابها

عشيتئذ غنت على إنسب ... نفوس النصارى بغضابها

وقام لأحمد محمودها ... يجدع مسوارن أحزابها

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ / ٢٢٩

تجلى لهـــا حيـــدري الصـــــا   ع أغلب مودٍ بغلابهـــا
مورّث أركاسها ـــــن أب   أكول الفوارس شرّابهـــا
همام اذا اصوصبتُبـــوة   د هاها بهاشم أعصابهـــا
مضى وجنى لك حلو الشهـــا   د مما تمطّق من صابهـــا
واوص بها لك من بعد مـــا   تجرّع مُقِر أوصابهـــا
واقسم جداك الا يليـــق   بغيرك ملبس أثوابهـــا
صبحت دمشق بمشق الجيـــاد   زبور الوغى بين أحدابهـــا
واطلت رأيك قبل الحســام   غمد جمرة أجلابهـــا
فاعداك ما لم تناله يـــد   وفـازت رتاد بأصحابهـــا
وانتصرت نفل الزمـــا   م من حمص تأخير ركابهـــا
تخوّنها الجور فاستدركـــت   بحزك أغبار ظبطابهـــا
وثاجات قورس بالشائـــلات   تمع القنا سما أذنابهـــا
فما رمت حتى رمت ببيضهـــا   اليك أزمة ضرابهـــا
وعزت عزاز فاذ للتهـــا   بمجر مضيق لأسهابهـــا
باشمخ من أنفها منكبـــا   وأكثر من عد توأبهـــا
دلفت لميطاء أم النجـــو   م في الامر ايطاء أترابهـــا
وعذراء مذ عمرت ما اهتـــدت   ظنون الليالي لإضرابهـــا
تفرعتها بغروب الوشيـــج   مثمرة هام أوشابهـــا
وعن اذا انبضت أغضـــت   ذكاءً لإرسال نشابهـــا
ومحدودبات تطير الخطـــوب   ملافظ ألسن خطابهـــا
تصوب عقبان ريب المنـــون   متى زَنقتها بأعقابهـــا
وما ركعت حول شم الهضـــا   ب الاسجدن لأنصابهـــا
فاذت بمعتصم بالكتـــاب   وهوب الممالك أسلابهـــا
بمقتصى الندى والهـــدى   هموس السرى غير هيابهـــا
يحلى المحل بوصف التقـــو   ووصف التهاني وأربابهـــا
وتعجز مداحه أن تحيـــط   بآدابه ثلة آدابهـــا
بدائع لو رد دهر زمـــين   بنات حبيب بأحبابهـــا
وأين ابن اوس وآياتــــه   من الآء أودت بحسابهـــا
من الآء عاد عتيق لهـــا   وردّ عليها ابن خطابهـــا
فأيامه من حبور تكـــاد   يطير بها فرط أعجابهـــا
لك الفضل ان راسلتك الجيـــاد   وتامت أدلة إنجابهـــا
اذا اعتسفت هم الجائريـــن   أتيت السيادة من بابهـــا
أبوك أبوها وأنت ابنهـــا الـ   عريق ودمية محرابهـــا
أتول لموجرة بالغـــرور   تمطت هواها لـ هوى بهـــا
حذار فعند ابتسام النيـــو   ث تخشى صواعق ألهابهـــا
ولا تخدعوا بافترار الليـــو   ث فالنار في برد أنيابهـــا (١)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٨١ وانظر عقد الجمان ج ١٢ ق ١ ورقه ٢٠٦

وأنشده بحلب سنة ٥٤٧ قصيدة أولهـا :

المجد ما ادركت ثراه هضابه ... وتثقفت شموسها بـه
ملك تكنف دين أحمد كنفه ... فأضاء نيرموصاب شهابـه
فالعدل حيث تصرفت أحكامه ... والأمن حيث تصرمت أسرابـه
متهلل والموت في نيرانه ... يرجى ويرهب خوفه وعقابـه
عقد اللواء وسار يقدمه ومـا ... حلت عقود تديمها أترابـه
أسد فرائسها الفوارس والظبى ... أظفاروا لسمهرية غابـه
طبع الحديد فكان منه جنانه ... وسنانه وإهابه وثيابـه
وتهللت إن كلب الوجوه كأنما ... أعداؤه تحت الوغى أحبابـه
نصرت بمحمود شريعة احمد ... وأرى الصحابة ما احتذاه صحابـه
ما غاب أصلع هاشم فيهـا ولا الـ ... ـفاروق بأبه بخطبه شطابـه
ابناء قيلة قائمون بنصره ... ان اجلبت من قاسط أحزابـه
صبحوا محلقة البرنس بحالق ... حرش الضباب من القلوب ضبابـه
ما زال يغلب من يغالب ضلاله ... حتى أتيح من الهدى غلابـه
ملقى بوجه الاصريين تزيلت ... آراؤه وتزايلت آلابـه
دون الارناط سخت به نجداته ... ونجاده وترابه وقرابـه
سلبته درة تاجه يد ضيغم ... لم تنجه من بأسه أسلابـه
وأتته تحلب جوسلين جنائب ... هبت فقل الى القتال ضبابـه
أسرته لا منت سراه وعـزه ... بالقاع إن رام الورود سرابـه
يمشي فيسمحه وقائع قيـده ... هزجا تقيؤه دما له أندابـه
لا تل باشره ولا كيسونه ... صدت منى عنه ولا عنتابـه
فنشقاوته سعادة صافـح ... غطى على إعنائه إعتابـه
ما زال يغدر ثم يغدر قادرا ... حتى أتاه بجاهم أصحابـه
قصر الاماني أن يملأ عسـرك الأ ... سلافمضروبا عليه حجابـه
مجر يجر الى الغنائم قبه ... وشوى يزار على الفتوح قبابـه (١)

وقال يمدحه ويذكر ظفره بصاحب انطاكية وأصحابه :

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته ... وعلا الهدى وتبلجت قسماته
وانتاش دين محمد محموده ... من بعد ما علت دما عبراته
ردت على الاسلام عصر شبابه ... وثباته من دونه وثباته
أرسى قواعده وقد عماده ... سندا وشيد سوره سوراته
وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا ... إصلاته وصلاته وصِلاته

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢١٨

رفعت لنور الدين نار عزيمة
مالك مجالس لهوه شداته
يغري بجحجة اليراع بنانه
ويروقه ثغر الصدى قان دما
فصبوحه خمر الطلى وغبوقه
فتح تحمّت السماء بفخره
صبغت على الاسلام بيض حجوله
وانهل فوق الابطحين غمامه
لله بلجة ليله حجبت بـ
حط التوام في فيه بعد قماصها
نبذوا السلاح لضيغم عاداته
لجرب عمرية غضباته
تحيا لنيق صفا مأسراؤه
بين الجبال خواضعا أعناقها
نشرت على حلب عقود بنودهم
روض جناه لها مكر جياده
متساندين على الرحال كما انتشى
لم تنبت الاجام قبل رماحه
فليحمد الاسلام ما جدحت له
وسقى صدى ذاك الحيا صوب الحيا
نصب السرير وطال عنه ومهدت
ما غر هذا البدر وهو محلق
في كل يوم تستطيل قناته
وتظل ترتم في الضحى آثاره
أين الالى ملأوا الطروس زخارفا
غدتوا بأعناق السواطل ماله
لو فصلوا سمطا ببعض فتوحه
يمسي تنانيه بنا ستقيونه
بلتان من دون الملوك تترها
تحدث بهم عن خطوه همّاتهم
سكنوا مجففة الحصان واسكنت
لولا للطائي غرة فتحه
أوهبت المطهري طيب نسيمه
صدم الصليب على صلابة عوده
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة
فانقاد في خطم المنية أنفه

رجعت لها عن طيبها ظلماته
ومشوقة بين الصفوف شذاته
ان لذ حتحتة الكؤوس لداته
لا الثغر يعبق في لماه لثاته
نلف النفوس تديرها نشواته
وهفت على أغصانها عذباته
واختال في أوضاحها جبهاته
وسرت الى سكينها نفحاته
واليوم ذبح وشيه ساعاته
ضرب يصلصل في الطلى صفقاته
غرس الفوارس والقنا غاباته
لله متصمة غزواته
وتغيض ما شؤونها نقماته
كالذود نابت عن براعد اته
حلل الربيع تناسقت زهراته
واستوأرت حماله حملاته
ضرب أمالت هامه قنواته
شجرا أصول فروعه ثمراته
شربات غرس هذه مجناته
خير الثرى ما كنت أنتنباته
لمقر منصبك السرى سراته
إن الكواكب في الذرى ضراته
فوق السماء وتعتلي درجاته
مجداً والسنة الزمان رواته
عن نزف بحر هذه قطراته
من جوهر فاتتهم فذاته
سفرت بما اغتصلوا لهم غدلاته
فوق القوانس والقنا قيناته
حركاته وتنيمها يقظاته
وسمت به شش قطوهم شماته
زعل الرحال من السها عزماته
باءت بحمل تاومباءاته
لاحتش من تاريخه حشواته
فتفرقت أيدي سبا شذباته
بالروم مقر ما جنتعد راته
يوم الخطيم وأقصرت سرواته

ومنى يوثب تحت أنب همة　　　أمست زوافر فيهما زفراته
أسد تبوّأ كالفرنف فجاته　　　فتبوأت طرف السنان شواته
دون النجوم منصّا ولطالما　　　أغضت وقد كسرّت لها لحظاته
فجلوته تبكي الأصادق تحته　　　بدء إذا ضحكت لشُماته
تمشي القناة برأسه وهو الذي　　　نظمت مدارُ النيرين قناته
لو ذاق الميّوق يوم رفعته　　　لأراك شامخ خفضه إخباته
ما انقاد قبلك انفبخزامه　　　كلا ، ولا همّت لها هدراته
طيان خلف السرح طال زئيره　　　نحاقت سطاك له فطال صماته
لما بدا مسوّد رأيك فوقه　　　ميمُن نصرك نكّست راياته
ورأى سيوفك كالصوالج طاوحت　　　مثل الكرين تقلصت كراته
ولى وقد شربت ظباك كماته　　　تحت العجاج وأسلمته حماته
ترك الكنائس والكناس لنا هب　　　بالبيض ينهب ما حواه عفاته
غلّاب أروع لا يبيت عداته　　　داء المطال ولا تعيش عداته
للوحش يلتقّ بالسرا يقتاته　　　ما كان قبل بصيدة يقتاته
اليوم ملكه الفراغ فلاعه　　　متسنما ما استشرفت شرفاته
وغدا تحلّ لك الحلائل أسهم　　　متوزعاتٌ بينهن بناته
أوطأت أطراف السنابك هامه　　　فتقاذفت يستيقها قذفاته
لا زال هذا الملك يشمخ شأنه　　　أبدا ويكفت في الحضيض شناته
ما أخطأتك يدُ الزمان فدونه　　　من شاء فلتسرع إليه هناته
أنت الذي يحلي الحياة حياته　　　وتهبّ أرواح القصيد هباته (١)

وقال يمدح نور الدين :

أيا نور دين خبا نوره　　　وقد شاع عدلك فيه اتقد
رآك الطبيب طبيب القنا　　　ة أمين المثار متين المسد
تهمّ فتسلبه ما اقتنى　　　وتدأب تشكلسه ما احتشد
زنفتهم أمس عن صرخد　　　فقضوا كأنما ما شرد
ويوم الغريبة أتبلتهم　　　عراما تتعلب منها الأسد
حبيت مليكهم في الصفاد　　　وعفوك عنهم العصفد
وقبل أزرتهم في الرها　　　موازن مزّقن جرد الجرد
بقيت ترقّع خرق الزمان　　　قياما لابنائه ان قعد
تثقف من زيغها التوى　　　وتصلح من طبعه ما فسد (٢)

---

(١)　الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٦ ٥ وأعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢ / ١٦

(٢)　الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٥١

ولـه فيـــه :

أيا ملك الدنيا الحلاحل والــــذى ... له الارض دارٌ والبرية أعبـــد
وليست بدعوىً لا يقوم دليلهـــا ... ولكنه الحق الذى ليس يجمـــد
أخو الغزوات كالعقود تناسقـــت ... تحل بأجياد الجياد وتعقـــد
لسان بذكر الله يكسو نهـــاره ... بهاء وحتى في الدجى ليس يرقـــد
وبذل وعدل أعرقا وتألقـــا ... فلا الورد مثمود ولا الباب موصـــد
مرام سمائي ٭ وحزم مســـدد ... وراى شهابي وعزم مؤيـــد (١)

وله غيـــره :

أبدا تنكب عن ضلال ســـادرا ... بنقوب زندك او تدل على هـــدى
سدت الكهول من الملوك مراهقـــا ... وشأوت شيبهم البوازل أمـــردا
ان شيدوا صرحا أناف منـــاره ... او أسجدوا للكأس جُدد مسجـــدا
واذا استهزتهم قلائد معبـــد ... هزته موعظة غسرف معبـــدا
قسما لشام الشام منك مهنـــد ... ارضا مشهورا وراع مقلـــدا
وتمسك الاسلام منك بعـــروة ... اللا يبرم حبلها فاستحصـــدا
اشفى فكنت شفاءه من حـــادث ... غادا معارضه ردى بالـــردى
كنت الصباح لليله لما دجـــى ... والغوث كنت لظاه حين توقـــدا
لله يوما طلعتك به النـــوى ... يجتاب من مهج الاعادي مجســـدا
نشوان غنتك الظبى مفلولـــة ... وامال عطفيك الوشيج مقصـــدا
في معرك ما قام باسك دونـــه ... الا أقام المشركين واقعـــدا
ولكم مكر قمت فيه معلمـــا ... ارضى إلهك والمسيح واسخـــدا
يوم العريمة والحليم وصـــارم ... وشهاب باسوطا وهاب وصرخـــدا
لا يعد ما لاشرا لاحداك انـــه ... ما سل فيهم حاكما الا اعتـــدى
اعدتهم من بعد ما عادوا المــلا ... رجالا فهل كانت سيوفك مرتـــدا
طلعت نجوم الحق من آفاقهـــا ... واعادها كسر النصور كما بـــدا
وهوى الصليب وحزبه وتبختر الا ... سلام من بعد التساقف أيـــدا
مهق الجلي للخطي فرفـــه ... نسق بثم ٭ وقد رفضت بالأبتعـد (٢)

وكتب الى نور الدين من حماة وهو محاصر دمشق قصيدة ينال فيها من صاحبها يقول :

أبوك أب لو كان للناس كلهـــم ... أبا ورضوا وطء النجوم لفنـــدوا
وما مات حتى سد ثلمة ملكـــه ... بك الله ترمي ما رماه فتصـــرد
عدمت ابن ذى اللغدين فانحل عقده ... وكالسلك قد أمسى يحل ويعقـــد
يقلب خلف السجف عينا سخينـــة ... ويبكي باخرى ذات شتر وســـهد
ولا غرو قد أبقى أبوه وجـــده ... لكل يوم ثوب عجز يجـــدد
فيا راكبا إما عرضت فبلغـــن ... بيوتا على جيرون بالذل تعمـــد

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٥
(٢) [illegible]

وقل لنور الدين وهو مجيــــــــــره
حملت الصليب باغيا ، ونبذ تــــــــه
وحاربت حزب الله والله ناصــــــــر
تنصرتحينا والبلاء موكــــــــــل
واتصرما ذاق اليهود بايليــــــــا
كبعض الذي جرعتهفسرطتــــــــه
ولايته عزل اليك موجـــــــــــه
رماك بباقلاد مشق فلم تكـــــــن
وجالدت جلادا وانت مؤنــــــــث
تطاولت لانفس تسمــــــــى ولا أب
أسماة نور الدين تبغي ودونهــــا الا
بمحمود المحمود سيفا وساعــــــدا
وهل يستوي سار تأسد طاويــــــا
تنصرت اما بل تمجست والــــــدا
تخذت بني الصوفي أسرا واســــرة
لسرى لنعم العبد أنت تجيهــــه الـــــ
اليكهني التالات عن متشـــــاوس
وما مصر إلا بمثل أمصاره الـــــــتي
أنيبوا اليهفهو أرحم قـــــــــادر
ولا ترشفوا نفث المؤيد إنــــــــه
وفروا الى مولاكم والذي لــــــــه
ولا تكفروا إنما أنتم لـــــــــــه
غداة على الجولان جول وللظبـــــي
ولما اكفهر اليوم واربد وجهـــــــه
وأيقن من بين السدير وجاســــــم
رددتهم على بصرى وصرخد خيلـــــه
وطاروا تهز المرهفات طلابهـــــــم
وليلة ألقى الشرك بالمرج بركـــــه
رمى وأخومغرب الشمس دونكــــم
فمذ ورد تماء الأرنط مغـــــــذة
أيا سيف شانه يد الملك صارمــــا
دمشق ، دمشق : انما القدس سرحـــة
حموها لكي يحموا وقد بلغ المـــدى
متى أنا راء طائر الفتح صادحـــــا

بزعم لموجه الحقيقة أزبــــــــــد
وتثنى مطووسا النبســــــات وادرد
لناصر مودين أحمد أحمـــــــــد
ولا بد من يوم به تتنهـــــــــود
ومضضها من بختنصر أســـــــود
وأيد فيه من عماء المؤيـــــــد
وتصحيفه تتل عليك مؤبـــــــد
سوى بقلة حمقاء بالحق تحصـــــد
تذكرت والجلاد أدهى وأجلـــــد
وراء زحفا أنما أنتمقـــــــــد
سنة بتر والعوامل تعضـــــــد
حملت لقد ناجتك صمصا مؤيــــد
ونشوان يعلى مصمما ويؤبـــــــد
وعنا ، فمزق الكفر فيه مـــــرد
لكي يصلحوا ما في يديك فانســـدوا
موالي وتوليه هوانا فيحمـــــــد
له الشام مرقا والعراق مرقـــــد
الى أمرمصى قباء وتحقـــــــد
لما لصفح دين ، واقبلوا النصح ترشدوا
عن الخير يزوى أو الى المين يسنـد
عليكم أياد وشمها ليس يجحـــــد
ومضويوم عند حوران يشهـــــد
رعود ، قريب الموت منهن يرعـــد
وعوق مرهون وغر مزيـــــــــد
بأن الجرار السود بالجرد تجـــرد
وقد أبصرت بصرى ردا ها وصرخـــد
كما انصاع من أسد نعام مشـــرد
وما رخ نيران الوغى تتوقـــــد
بمشرقها غضبان يحدو ويسنـــد
أثار ريثوروا علةليس تبمـــــرد
فيمهد اذ يسرى ، ويسرى فيمهـد
ومركزها حين عليها مـــــبــرد
بهم أجل حتمهم متـــــــــد
يرفرف في أرجائها ويغـــرد ؟ (١)

---
(١) الروضتين ١/١/١٩٧

وأنشده بحمص سنة ٥٤٦ قصيدة منها :

الدهر أنت وداك الدنيا ومـــــــن
وازتمّا لاقدار طوع يد يـــــــدك والا
فت الورى وعقدت ناصية المـــــــدى
تال ابائك نهل سليمانّ يـــــــرى
جلى وسدتَ مصليا لا يرفـــــع الـــــــ
لم يختر جد نـــــــاك ولا أب
شمخت منارك في اليفاع وأمّـــــــا
وهيبتَ للاسلام وهو مـــــــو
ونشأت بجوةَ صالبيصبنـــــــلم
خطتهمُ فوق الحطيم لوافـــــــح
وربوا على الجولان منك بجولـــــــة
ولحا عظامهم بحرقــــة مـــــــارق
وشللت بالروح السروج وفوقهـــــــا
وعلى عزاز عتوا وتل عروشهـــــــم
وبتل باشر باشروك فما فســـــــوا
أودوا كما أودى بعاد غيهـــــــا
ان آلموا عقرا فانك صالـــــــح
وزعتهم بكل مهبط تلعـــــــة
وصبتهم بمصائب مل‍ء المـــــــلا
آثارها محمودة وآثارهـــــــا
لبستْ من أسطك في الكريهة ملبسـا
وقصيرة الآجال طول باعهـــــــا
مطرورة الاصلاب مذ هززتهـــــــا
أشرعتها فعلى شريعة أحمـــــــد
ولكم نثرتَ نظيمها في موقـــــــف
يجلو سناك ظلامه ويحل ـــــــ
في هبوة زحم السماء رواقهـــــــا
ضربت مخيمها فكان كماتهـــــــا
في كل يوم فتوحات ـــــــادح
تهدى لمانق كأسه فرغانـــــــة
فنزاز سيفك للاحابش مجـــــــي
لا تخفق من هذا المقلد أمـــــــة
الورد ثروالساج وحبـــــــة
والعيش أبلج مشرق القسمات والاشـــــــ
والملك ممدود الرواق منـــــــور الا

في الحد يحد مؤمّل مقصـــــــود
أيام جندك والأنام عبيـــــــد
بمقر الشعرى فأين تريـــــــد
في الدست مهد ملكـــــــه داود
ممدوم ما لم يشفع الموجـــــــود
إن النباهة في الخليف خلـــــــود
من لم يمد غاربه كيف يســـــــود
فاهتز أعضاب ورق مجـــــــود
نصب الأجنة يومها المشهـــــــود
نفس الارين لو أرهن بـــــــرود
تونيد ها نسر الضلال وتيـــــــد
ما زلت تمخض جوه فيبـــــــود
زرع تحصـــــده الرماح حصيـــــــد
ملك مقيد من عداه مقيـــــــد
أشب الاساود حشوهن أســـــــود
وعقوا كما أستغوى الفصيل ثمـــــــود
أو آلموا غدرا فانك هـــــــود
خد به من وازع أخـــــــدود
شتى وان خلّ البسالة مـــــــود
مشهودة وشعارها محمـــــــود
يبلى جديد الدهر وهو جديـــــــد
بوعساص هامها وقـــــــدود
تاه الهدى وتبختر التوحيـــــــد
مما جنته بوارق وعقـــــــود
تفريد صالى حره التفريـــــــد
عقدت قناه لواءك المعقـــــــود
والارض ترجف تحته وتميـــــــد
أوتاد ما القصوى وأنت عمـــــــود
تمزج الغناء وطائر غريـــــــد
وتسيغ زبدة ما شد امزيـــــــد
وبثار نقمك للصعيد صعيـــــــد
ملقى اليه لرعيها الاقليـــــــد
والرفد مد والضلال مديـــــــد
جار غروا لاصائل فيـــــــد
فاق وشاء المنى محمـــــــود

في دولة مذهب نشر ربيعهـــا ... نشر الرفات وأثمر الجلمـــود
محمودة الآثار محموديـــة ... كل المواسم عندها تعييـــد (١)

وله في مدح نور الدين وتهنئته في غزاة حـــارم :

ما فوق شأوك في العلى مـــزداد ... فعلام يقلق عزمك الإجهـــاد
شمّ مضربين على السماء سرادقـــا ... فالشهب أطناب لها وعمـــاد
أنت الذي خطبت له حســـاده ... والفضل ما اعترفت به الحســـاد
قام الدليل وسلم الخصم الألـــدّ ... وانجلى للأعين الإسنـــاد
زهرت لدولتك البلاد فروجهـــا ... أرج المهب ودوحها ميـــاد
أحيا ربيع العدل ميْت ربوعهـــا ... فالروض نجم والهشيم مـــراد
فالعيش إلا في جنابك ميتـــة ... والنوم إلا في حماك سهـــاد
وإذا العدى زرعوا النفاق وأحصـــدوا ... كيدا فعزمك ناقض حصـــاد
بالمقربات كأن فوق متونهـــا ... جنّ الملا وكأنها أطـــواد
تدأى ومن وحي الكماة صفورهـــا ... فالزجر قيد والندى قيـــاد
سحب إذا سحبت بأرض يلمهـــا ... فالحزْن سهل والهضاب وهـــاد
يهدي النواظر في دجنّة نقعهـــا ... بدر بسرجك نيّر وقّـــاد
البستدين محمد يا نـــوره ... عزاً له فوق السهاء إسنـــاد
ما زلت تمسكه بميـــاد القنـــا ... حتى تثقّف عوده الميّـــاد
لم يبقَ مذ أرهفت عزمك دونـــه ... عدد يراعيه ولا استعـــداد
إن المنابر لو تطيق تكلّمـــا ... حمدتك عن خطبائها الأعـــواد
ولئن حمت منك الأعادي مهلـــة ... فلهم إلى المرعى الوبي معـــاد
ولكم لكم في أرضهم من مشهـــد ... قامت به لظباكم الأشهـــاد
ملئن بأطراف الفرنجة كلكـــلا ... دارفا مضرب صادق وجـــلاد
حاموا فلما عاينوا حوض الـــردى ... حاموا برائه كيدهم أو كـــادوا
ورجا البرنس وقد تبرنس ذلـــة ... حرما بحارم والمصاد مصـــاد
ضجّت ثما لبها غرس جرسهـــا ... بيض تناسب في الحديد حـــداد
ومواعظ ضربت بهن با القنـــا ... من دون ملة أحمد الأنـــداد
يركزن في حلب ومن أثنائهـــا ... تجني فواكها منهما بغـــداد
يا من إذا عصفت زعازع بأســـه ... خمدت جحيم الشرك فهي رمـــاد
عجباً لقوم حاولوك وحاولـــوا ... عوداً غواتاهم إليه مـــراد
ورأوا لواء النصر فوقك خافقـــا ... فأقام منهم في العلو فســـاد
من منكر أن ينسف السيل الربـــا ... وأبوه ذاك العارض المـــداد
أو أن يبيد الشمس كاسفة السنـــا ... نار لها ذاك الشهاب زنـــاد

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢١٢ – ٢١٥

لا ينفع الاباء ما سمكوا مـــن الــــعياء حتى ترفـــــع الأولاد
ملك يقيّد خوفه ورجــــــاؤه ولقلما تتظافر الاضـــــداد (١)

وقال يمدح نور الدين حين أسر جوسلـــــين :

شمسٌ اذا ما الحرب زرّ جيوبهـــــا حل المعاقد كرّه وطـــــراده
الوى • الدّ • حمى الشريعة جهـــده واذلّ ناصية الضلال جهـــــاده
صحق البرنسَ وقد تلالأ برقـــــه وأطار ساكنَ جاشِه ارعـــــاده
ولى وقد سلّت فسلّت نفســــه زبر تلقى فـــود هن غــــواده
متلثما متعلما لاعـــــدة رد المنى عنه ولا استعـــــداده
ولجوسلين أحتثهن فاصبحـــت نهبى لهن : بلاده وتـــلاده
جاءت به بعد الفطار عوابـــس تود يلين لمنفهن قيـــــاده
وتحيدته لك السعود وقلمـــا ينجو بخير من أردت معـــاده
داني لقيناه ان هم كلمـــــا غناه طار شماتـــه حســــاده
سلبت عزاز عزاء موقـــــوره محجوبة فرشت له اقتـــاده
وبقى خالد يوم تل جبينهـــــا فلك الثرى بجبينـــه إخــــلاده
وغدا بياسر تل باشر قلبـــه باعز ما حمل القلــوب فـــؤاده
منت أمانيه بشائرك التـــي عادت لهن مآثما أعيـــاده
وحبوت ملكك من نظيم ثغـــوره حليا تتايه تحته أجيـــاده
لا يخدعنك فانما إصلاح مـــن يغشى انتشاط خناقه افســـاده
انزلته حيث تضمّ له غدراتـــه واحله طغيانـــه وعنـــاده
في حيث لا يأوي لمسجانـــه حنقا ويكشط جلــده جـــلاده
وش • هدمت بني الضلال بهدمـــه وعدت عباداك عنوة عبــاده
فتكت به آيات من لمحمـــد ولدينه أبدا او موتـــــواده
او انقط البلد الحرام تـــــوا مت تثني عليك تلاعه ووهـــاده
ولو أن منبره أطاق تكلمـــا نطقت بياهر فضله أعــــواده
نام الخليفة • واستطال لذبـــه عن سدته واستطير رقــــاده
رجعت لك العز القديم سيوفـــه ما زان رونق باتها أغمـــاده
من بعد ما نعق الصليب لحزبـــه ورأيت زرع الملك حـــان حصـــاده
انى تميل الحادثات رواقـــه بعمودها • وابن العماد عمـــاده (٢)

(١) الروضتين ١ / ١ / ٢٥٥ ، وانظر عقد الجمان ج ١١ ق ٢ ورقه ٢٦٧
(٢) الروضتين ١ / ٧٥ ، ج ١ ق ١ ص ١٩١

وقال يمدح نور الدين سنة ٥٤٣

غداك من صام ومن أفطرا ... ومن سعى سعيك أو قصرا
وما الورى أهلا فتفدى بهم ... وهل يوازى عرض جوهرا
عدل تساوى تحت أكنافه ... مطافل العين وأسد الشرى
يا نور دين الله كم حادث ... دجى وأسفرت له فانسرى
وكم حمى للشرك لا يهتدى الـ ... ـوهم له غادرته مجزرا
يا ملك العصر الذى صدره ... أفسح من أقطارها مصدرا
وابن الذى طاول أفلاكها ... فلم يجد من فوقه مظهرا
مناقب تكسر كسرى كما ... تقصر عن إدراكها قيصرا
ما عاقني أوصافها شاعر ... إلا رأى أوصافها أشعرا
لله أصل أنت فرع له ... ما أطيب المجنى وما أطهرا
ما حلب البيضاء مذ صنتها ... إلا حرام مثل أم القرى
شيدت في معمور أرجائها ... لكل باغي عمرة مشعرا

فاصبغ الشادي إذا ثوب الـ ... ـداعي له ضلل أو كبرا
لا عدم الإسلام من كفه ... كهفا لمن أرهق أو أحصرا
كأنما صاحبته جنة ... أجرت بها راحته كوثرا
تصرم الشهر الذى كنت في ... أوقاته من قدره أشهرا
جهاد ليل في نهار فقد ... إن كنت فيه الأصبر الأشكرا
أصدق ما يرشفه سامع ... ما حز من أوصافك المنبرا
أبقاك للدنيا وللدين من ... هداك في ليلهما نيرا
حتى نرى عيسى من القدس قد ... لبا إلى سيفك مستنصرا (١)

وقال فيه من قصيدة :

خضر الثعالب حين زمجر مصحر ... هذه البلاد هماهما وزئيرا
تركوا مشاجرة الرماح لحاذق ... جعلت مخافته القصور قبورا
لربيب حرب لم تزل فعلاته ... كالراء يلزم لفظها التكريرا
أسد إذا ما عاد من ظفر بمفـ ... ـتتح أعد لمثله تدبيرا
يتناذر الأعداء منه سطوة ... ملء الزمان تغيظا وزئيرا
عرفوا بنور الدين وقع وقائع ... وفى بها الإسلام أمس نذورا
أبدا يظافرك القضاء على الذى ... تبغي فترجع ظافرا منصورا
توضت فانتقع الظهائر ظلمة ... وتغلت فاشتمل الدياجر نورا
وعلى العواصم من دفاعك عاصم ... ينشي الرشيد وينشر المنصورا (٢)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٧

(٢) الروضتين ١/١/١٦٣

وقال يمدحه بظاهر حمص :

هيهات يعصم من أردتَ حذار   ***   اني ومن أوهاتك الاقدار
طلمتمليك بجوسلين ذريمة   ***   لاستل أنشاها ولا إمرار
وسمادة ما زلت تمري خلفها   ***   فيشف ، وهو النّاتقُ المدرار
غارتك ما يجني الوني وفاؤه   ***   وأرته كيف يحيّن الفدار
عودٌ امرّ على أبارك طلمه   ***   فاحيل ذاك البر وهو بوار
ما زلتَ تنمو وهو يكثرَ عاتيا   ***   والله يهدم ما بنى الكفار
حتى أتاح لقومه ماجرّه   ***   لثمودَ من عقر الفصيل قدار
أسرى ، فاصبح في برائن اسر   ***   ما زال يدمي ظفره الأظفار (١)

وكتب اليه قصيدة من حماة وهو محاصر دمشق سنة ٥٤٦ :

أخليفةَ الله الذى ضمنت له   ***   تصديق واصفه سراة المنبر
لا المستظلُ بمصر ظلّ قصوره   ***   والمستظال اليمشقة صر صر
يا نور دينا للمواهب عماده   ***   والكوثر ابن الكوثر ابن الكوثر
ظفر بحد السيف دار أشائب   ***   عقلوا جيادك عن بنات الاصفر
هم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا   ***   نارا تحشّ بهم غدا في المحشر
اذكوا بجلق حرها واستشمرت   ***   لفحاتها بين الصفا والمشعر
شردتهم من خلفهم مستنجدا   ***   ما ظاهر الكفار من لم يكفر
لا تمف ، بل شق الهدى نفس الذى أدّ   ***   رع الضلال على أغر مشهر (٢)
قلده ما أهدى علي لمرحب   ***   فلقد تهكم في الخداع لخيبرى
ما الفش ممن أتمنرانه   ***   لم تختتن كالفش من مستنصر
اذكت لنا هذي المزائم لاخبت   ***   ما غار من سنن الملوك الغبر
اقتاب اراء المعز وخفق را   ***   يات العزيز ويقظة المستنصر
شمّر فقد مدت اليك رقابها   ***   لا يدرك الغايات غير مشمّر
أو لست من ملأ البسيطة عدله   ***   واجتبّ بالمعروف أنف المنكر
حدب الأب البر الكبير ورأفة الأ   ***   م الحفية باليتيم الأصغر (٢)
يا هضبة الأسلام ، من يعصم بها   ***   يؤمن ، ومن يتولّ عنها يكفر
كانوا على صلب الصليب سرادقا   ***   أنهت بنيته بكل مذكر
آثارهم نجر اذال المسجد الا   ***   قصى قصّنْ ما دنسوه بطهر
جار الخليل ومن بغزة هاشم   ***   بلها لك المتدفق المتفجر
بحرمم علمت وعاوعه عسرى   ***   اسماع جيحون وسيف البربر
يغترّ عن ملك الملوك منحّل الا   ***   نواءبل سعد السعود الاكبر

---

(١) الروضتين ق ١ ج ١ ص ١٩٠

عن طاعن الفرسان غير مكذب / ويتم الاحسان غير مكدر
بدر الجحافل والمحافل فارس الا / ساد في غاب الوشيج الأسمر
ملك تساوى الناس في أوصافه / عذر المقل وبان عجز المكثر
يأيها الملك المنادى جوده / في سائر الآفاق هل من معسر
ان القصائد أصبحت أبكارها / في ظل ملكك غاليات الأمهر
ان كنت أحييت ابن حمدان لها / فأنا الذى غبرت في وجه السري
ولأنت أكرم من أناس نوهوا / باسم ابن أوس واستخصوا البحتري
ذلت لدولتك الرقاب ولا تزل / ان تغز تغنم أو تقاتل تظفر (١)

وقال يمدح نور الدين ويهنيه بفتح انطرسوس ويحور سنة ٥٤٦ :

أبدا تباشر وجه غزوك ضاحكا / وتؤوب منه مؤيدا منصورا
تدني لك الأمل البعيد سواهم / صفت أسلتها وكن بدورا
مثل السهام لو ابتغى ذو أربع / في الجو مطلبها لكن طيورا
نيطت علائقها بحصر واعلقت / سحرا بصمر عرقها لا ظفورا
وعدون حافيات الاح شوارها / قد أتلعت عنقا اليك مشيرا
القلب أنت فان تصامى عن هدى / عضو أصاب به فساد بصيرا
عرفوا مكانك والظهيرة بينهم / يفري بياض أديمها الديجورا
أين الذبال من الغزالة أشرقت / وجها وطبقت البسيطة نورا
غضبان أقسم لا يشيم حسامه / والأرض تحمل في الكفور كفورا
غسل المواضي من أدرانهم / واليوم رد به السواحل بورا
ليبيق بين الحولتين وآمد / وترا لضاغن ولا موتورا
أخلى ديار الشرك من أوثانها / حتى غدا ما لوثهن نكيرا
رفع القصور على نشائد هامهم / من بعد ما جعل القصور قبورا
بشواحب الآليا طرتقطو في الظلا / م قطا وتهوي في الصباح نسورا
غادرت أنطرسوس كالطرس امحى / رسما وحمر دروعها يحمورا
وهي الرماد لفتنة كانت على الا / سلام أحكم كسره الكسيرا
هتمت طرابلسا فأصبح ثغرها الـ / بسام من عز الثغور ثغيرا
أتليدها كانت وقد انطيته / وأسأل بسه معزد متخبيرا
ان الأولى أمنوا وتاعك بعدها / غروا وقد ركبوا الأغر غرورا
ألق العصا فيمن أطاع ومن عصى / منهم وبدمر أرضهم تدميرا
لا يلههم أن قد منت وشنها / شعرا تصلي الكافرين سعيرا
بالكر بركز قنا تنسف أسها / والخيل صور كي تزيرك صورا
وتريك لا ممتالنريك بساحة الا / قصى مطهرة لها تطهيرا

---
(١) الروضتين ١/١٩٦

أو لستَ من قوم اذا هزّوا القنا ... فتلوا معاصمهم لها تسويرا
واذا هم خطبوا اليراع عزيزة ... ساقوا الشفار على المهار مهورا
ألقى قسيماهم اليك أزمة الـ ... ـملك المطلّ على السّها تأثيرا
ضحكت لك الأيام وأكتاب العدا ... قلقا فجئت مبشرا ونذيرا
لا ملكَ الا ملكُ محمود الذي ... تنفذ الكتاب مظاهرا ووزيرا
تمشي وراء حدوده أحكامه ... تأتمهن فيحكم التقديرا
يقظان ينشر عدله في دولة ... جاءت لمطوي السماح نشورا
خلف الخلائف قائما عنهم بما ... عيّوا به • ألوى • ألدّ • غيورا
البرّ • والمعصوم • والمهدي • والـ ... ـمأمون • والسفاح • والمنصورا
بشروا به فعهودهم وعهادهم ... يمتحن تحت لوائه منشورا (١)

وله فيه :

أيا سيفا أعز الدين منه ال ... ـغزار المضب والنوم الغرار
ملأت جوانح الاقطار رجفا ... كأن الارض خامرها دوار
علاه حلى على الدنيا فتاج ... بمفرقها وفي يدها سوار
أناءت شمس عدلك في دجاها ... فكل زمان ساكنها نهار
تحرك من عصاك وأنت ماء ... وتخرق من رجالك وأنت نار
ألا لله وجهك والمنايا ... مكحلة وللبيض افترار
هتكت حجابها والنصر غيب ... وللهبوات طي وانتشار
بطعن للقلوب به انتظام ... وضرب للرؤوس به انتثار
تبادره كأن الموت غنم ... وما من عادة البدر البدار
أنخت على الصليب مطا صليبا ... به من سلك مبركه دمار
بمشرفة المناكب مقربات ... لهن بمنتكل وغى حضار
جبين بأنبّ أنبَ المناصي ... وأضن وللقنا منها ثمار
وفي هاب أهبتها فجاءت ... كما أجلى من الكسر السوار
وكم ني في حارهن حريم ... عفته فلا جدير ولا جدار
وإنطاكية استنت اليها ... فاجفل خيطها وله عرار
وصبح في عزاز بها عزاز ... فاسى وهو وعث او شبار
يشق بها دجا الغمرات عسفا ... جواد لا يشق لمغبار (٢)

---

(١) الروضتين ١/١/٢١٦ (٢) الروضتين جا ق ١ ص ٢٢٨

وقال يمدح نور الدين بعد أن ملك حصن فامية سنة ٥٤٤ :

أسنى الممالك ما أطلت منارها … وجعلت مرهفة الشفار دثارها
واحق من ملك البلاد وأهلها … رؤف تكنف عدله أقطارها
من هام سام الخافقين وحامها … منا وزاد هوى فخص نزارها
ضربة طبعت ضاربه وان … عدته ذو روقة أسوارها
آل الرعية وهي تجهل آلها … وتعاف نطفتها وتكره دارها
فاخر ضجعتها وأثبت نيها … وأساغ جرعتها وأثبت زارها
ملك أبوه سما لها تسما بها … وأجارها فعلت سهيلا جارها
نهج السبيل له فأوضح خلفه … وبدا له يمن العلى أبشارها
أنشرت يا محمود ملة أحمد … من بعد ما شمل البلى أعصارها
أوجانات تدل السنان توائمها … أو نائبات كان الحسام جبارها
فقلت من المعصم السواعم مذ غدت … في المزائم أسرها وإسارها
وثقلت القمر أنضيتها … في صونها أن تسترد ضمارها
كدت ذواملها ورد مطارها … ما أريقتموثقفت آطارها
كم حاولت من كفتيها غدرة … غلب الأسود فقلمت أظفارها
أنى وحامي سرحها من لو سمت … للفلك بسطته أحال مدارها
في كل يوم من فتوحك سورة … للدين يحمل سفره أسفارها
ومطيلة قصر المنابر إن غدا الـ … ـخطباء تنثر فوقها أقصارها
همم تعجلت الملوك وراءها … بدم المثار وما اقتفت آثارها
وعزائم تستوفز الآساد عن … نهش الفرائس إن أحس أوارها
أبدا تقصر طول مشرفقا الذرى … بالمشرفية أو تطيل قصارها
فغرت أفامية فما فهتمته … كبوار أجناها الأران بوارها
أرهقت رائك فوق رائك تحتها … فحططت من سعفاتها أعفارها
أدركت ثأرك في البغاة وكنت يا … مختار أمة أحمد مختارها
ثارية الزمن المغير مثالها … منك المغير فاسترد معارها
زار الوزير فقيدت عاناتها … عصر الفلال واستمأت يارها
شاءت بجوفك فوقها ولربما … باتت تناغيها النجوم سرارها
أمست من الشعرى العبور وأصبحت … شعراء تستقلي الفحول شوارها
ولكم ترعت بعقرباتك مثلها … تلما وقلدت الكماة عقارها
حتى إذا اشتعلت أشرق سورها … عزا وحلاها سناه سوارها
خر الصليب وقد علت نغماتها … واستوبلت صلواته تكرارها
لما وعاها سمع أنطاكية … سرت الوقار وكشفت أستارها
قاليوها حتى تستد بجيرها … من جوره وغدت تذم جوارها
علمت بأن ستذوق جرعة أختها … إن زر أطواق القباء وزارها

ماض إذا قرع الركاب لبلدة ... ألقت لقبل القراح إزارها
وإذا مجانقمركمن لصمبة الـ ... ـملقاة أسجك كالجدير جدارها
مذه البلاد مواهبا ومهابة ... حتى استرقت آيه أحرارها
يذكي العيون اذا أقام لصونها ... أبدا ويقضي بالظبى أبكارها
أوما الى رمم الندى فأعاشها ... وهى لسابقة المنى فأزارها
نبوي تشبيه الفتوح كأنما ... أنصار رجعت له أنصارها
أحيا لصرح سلامها سلطانها ... وأمات تحت عمارها عمارها
ان سار سار وقد تقدم جيشه ... رجف يقطن في اللهى دعارها
أوحل حل حبا القروم بهيبة ... سلب البدور بدارها أبدارها
واذا الملوك تنافسوا دون العلا ... أربى بنفس أشرعته خيارها
ونهى إذا هيضت تدل بغيرها ... وسطى تذل إذا عنت جبارها
تهدى لمحمود السجايا كاسمه ... لولز فاعلة بها لا ٭بارها
الفاعل الفعلات ينظم في الدجى ... بين النجوم حسودها أسمارها
ساع سعى والسابقات وراءه ... عنقا فمصفر منتماه عثارها
كالمشرجي إذا يصرصر آيها ... خرس البنات وما جرت أوكارها
عرفت لنور الدين نور وقائع ... ينشى إذا اكتحلت به أبصارها
شهور قسطت وقد حاولتها الا ... قدار عجزا ان تشق غبارها
لله وجهك والوجوه كأنما ... حطت بها أوقار هيت وقارها
والبيض تخنس في الصدور صدورها ... هبرا وتكتحل الثغور شفارها
والخيل تدلج تحت أرشية القنا ... جذب المواتح غاورت آبارها
فبقيت تستجلي الفتوح عرائسا ... متمليا صدر العلى وصدارها
في دولة للنصر فوق لوائها ... زبر تنمق في العلى أسطارها
فالدين مواة رفعت بها الصوى ... وحد يقضمت يداك إبارها (١)

وقال أيضا :

هي الخيل خير عتاد الكريم ... يحضر للمهم إحضارها
ضفت فادرت أفواههم ... وسرت تقلمت أظفارها
الام ولم تبق مما غزوت ... قلوبا تكابد اذعارها
أما في تفضل آي القرا ... ع أن تضع الحرب أوزارها
عسى أن يحرم لهذا الحما ... م أن يتوكر أوكارها
وما يوهمن غلته واحد ... فتودعها للسنا شمارها
وأين القاول مما فعلت ... ولو شفع القطر اكثارها
فكم أجليت خلفك الجافخات ... فصلصل فخرك فخارها
أعد تبصرك هذا الانيق ... فتوح النبي وأعصارها

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٦٠ وانظر الكامل ١١ / ١٥٠ والباهر ١٠١

وكان مهاجرها تابعــــك ... وأنصار رأيك أنصارهــــا
فجددت إسلام سلطانهــــا ... وعمر جدك عمارهــــا
وما يوم إنب الا كتيــــك ، بل طال بالبوع أشـ ـبارهــا
وأيامك الغر من بعــده ... تعيد الى الطي اغرارهــا
ولما هبيت ببصرى سكــت ... باهباخ بلك أبصارهــا
وبـ على الجون جون السـرا ... ة عز فسخطها عارهــا
صد متعريمتها صد مــة ... أذابت من الماء أحجارهــا
وفي تل باشر باشرتهــم ... بزحف تسوّر أسوارهــا
وانـد الكتهم د لواءفقــد ... شدّد تفصدقت أشبارهــا
وشب التدامر حتى طلمــت ... عليها فولّت أدبارهــا
مشاهد مشهورة نشــت ... على صفحة الدّهر أسطارهــا
يلذ الاغاني ترجيعهــا ... وتستسفر السفر أسفارهــا
بنيت لوفد المنى كعبــة ... تجير الملك أستارهــا
ملكت الاراضي مفبــرّة ... تكاد تحدّث أخبارهــا
فما زلت تدجن حتى محــوت ... دجاها وشعشعت أنوارهــا
وعلت فاعززت مسكينهــا ... وصلت فاذللت جبارهــا
وصنت حلى من على احكمــت ... على عنق الدهــر ازرارهــا (١)

تال يمدح عماد الدين زنكي ويهنيه بفتح الرها سنة ٥٣٩ :

وما يوم كلب الروم الا أخو الــذى ... أزحت به ما في الجناحين من نبــل
أتاك بمثل الروم حشد أرازيــه ... ليفضل اضعافا كثيرا عن الرمــل
فقاتلته بالله ثم بعزمــة ... تصك قلوب العاشقين بما تسلمــي
توهم أن الشام مرعى ومــا درى ... بأنك أمضى منمني الشرز والمجــل
فطار وخير المغنمين ذمــاؤه ... اذا ردّ عنه منهم المال والاهــل

. . . .

أيا ملكا ألقى على الشرك كلكــلا ... أناخ على أماته كلكل الثكــل
جمعت الى فتح الرها سدّ بابــه ... بجمعك بين النهب والأسر والقتــل
هو الفتح أنسى كل فتح حديثــه ... وفوق مساور الرواية والنقــل
نخضت بمنقذ الخواتم بعــده ... جزيت جزاء الصدق عن خاتم الرســل
تجردت للإسلام دون ملوكــه ... تبثك أسباب المذلة والخــذل
أخو الحرب غذته القراع معظمــا ... يشوب باقدام الفتى حنكة الكهــل (٢)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٩٣

(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٣ ، ص ١٠٠

وقال يمدح نور الدين ويهنئه بالعود من غـزاة سنة ٥٦٠ :

أخرست شقشقة الضلال وقد تمـه ... قود الذلول أطاع بعد صيـال
ورميت دار المشركين بصيلـم ... ألقحت فيها الحرب بعد حيـال
وسمرت بين تريبهم وترابهـم ... ذعرا يشيب نواصي الأطفـال
فوق الغطيم وقد خطمت زعيمهـم ... ضربا سوابقه بغير توالـي
يربا ملأت ترنجة من حسـره ... رئبا به سيف الصقالب صالـي
ويفيخ حار أخرجت لقراعهـم ... شيم أعلن النوم غير حـلال
عجبوا على جسر الحديد حديدهـا ... نبسا يساقه أد يرد صـال
زلزلت أرضهم بوقع صواعـق ... اعطيننا أمنا من الزلـزال
في مأزق شمرت ذيلك تحتـه ... والنصر فوقك مسبل الأذيـال
في دولة غراء محمود يمنـة ... سحبت رداء الحمد غير مـذال
تنسي الفتوح بها الفتوح وتجتني ... زهر المقال بباشر الأفعـال
ليست بنور الدين نور حدائـق ... ثمراتهن غرائب الأنفـال
ملك تحجب في السرير بـزارة ... زرت حواشيها على رئبـال
تنجاب عن ذي لبدتين شذاتـه ... في بردتي بدل من الابـدال
رفع الرواق بروق أنطاكيـة ... فرس الخليل بردي البلبـال
بدر لأربع عشرة اقتبس السنـا ... من خمس عشرة صورة الأنفـال
فوز المآل أخاضه ماء الطلـى ... وسواقيد ماختيار المـال
تقسم بين القسيمين الـلا ... عن عم عم أو مخايل خـال
لا زلت تحتل من تنايا جحفـل ... يقفو لواءك كاللوى المنهـال
لك أن تحل على الكواكب راقيـا ... ولحاسديك بكي على الأطـلال (١)

وأنشد نور الدين بحلب سنة ٥٤٧ قصيدة منها :

لقد أوطأت دين الله عـزا ... أديم الشعريين له رغـام
دعاه وقد تناوشت الرزايـا ... له أنيابا يوزعها الجـذام
فتستنصره والناس فوضـى ... قيام ذم ما اقترفت نثـام
جنت بتبنيه منتصر يـسـم ... له من فوق قسمها لتطـام
وملت على مقاتلهم فخـرت ... ولاء مثل ما انتقد الفـطـام
بصرخد والخطي وفي عـزاز ... وتاين منز شهد هـا الأنـام
ولو لم تعترف وتشم لامـس ... واسبم لاعراق ولا شـام
صبيت على الصليب صليب بـاس ... تواه تحت كلكلـه حطـام
ويوم بالمريمة كان حتفـا ... على الأشراك أنقرما لـزام
لتواه كأن ما سلوه سيـح ... وما اعتقلوه من خـور تمـام
وهاب وقور بكثر لا ... ذممت وأنت للجلى ذمـام

---

(١) الروضتين جا ق ١ ص ٣٥٧

صدقتهم بارض مرج حسن   كأن مطار أنسره غمام
وأية ليلة لم تلف فيها   لهم طيفا يروع به منام
بنور الدين أنشر كل عدل   تشفت في الثرى منه الرمام
وناد الحق بعد كلال حد   حمى من أن تراع له سوام
تألق عدله وذكت سطاه   فلا حيف يخاف ولا اهتضام
بقاء الخير ما يرجوه راج   وأنفع ما يبل به أوام (١)

وله فيه :

ملك كما الاسلام من ذبه   بردا تبد بين الظبا معلما
من اصبح الشام به شامة   يقطر من قتل عداه دما
لو لم يقم فيصلتا دونه   لم تلق في أقطارها مسلما (٢)

وقال يمدحه ويذكر مواقعه :

غدا الدين باسمك سامي السلام   أمين العماد مكين القدم
لذلك لقيت نورا له   وقد أغطش الظلم فيه الظلم
أضاءت بعدلك آفاقه   وفضت عرى الدين لما ادلهم
ولم تنتدبوا لنصر الرها   ومثلك أدرك لما عزم
ونهضوا بحطت الحسام   على الهضب من ركنها فانهدم
وبصرى وصرخد لو لم تثر   راكا لكانا رديف … ارم
وقد تم جيشك في النوطتين   فخر الصليب له ما انثلم
وفي كفر لاثا ودار حلب   … عقد البرنس ببيض … ذم
محودة أنها لا تسيل   … الا مقتسمة للسقم
ويوم سرفوند جرعتهم   أجاجا أغصهم واصطلم
وفوق العريمة غشاهم   عرام يوشك سيل العرم
وانتبكلبهم في الكبول   مهان الحريم مذال الحرم
وبارتهم أذنت أنها   أبارتهم فليبؤوا بـ… ذم
بنوها وأعلوا ولم يعلموا   بما خط في اللوح منه القلم
وأنك خارم ما أحكموه   ومن ديننا راتق ما انخرم
فترفع من بعد خفض هدى   وتخفض من بعد رفع صنم
سمكت المدارس فوق النجوم   فكم منجم تحتها قد نجم

---

(١) الروضتين ١/١/٢١٠
(٢) الروضتين ج١ ق ١ ص٣٢

وعاش الحنيفي والشافعـــــي   بما شدتَ منها وكانا رمَـــــم
وان لم تكن هاشميّ الاصـــــول   فإنك فرع العزيز الهشــــم
ومن يدّعي في العلا ما ادعيـــت   وأنت ابن مَن عز لمّا احتكـــم
واقسمها غاب سيفٌ ستمـــــت   مدارسه عين مغذى الشـــيم (١)

وقال ابن منير يمدح عماد الدين زنكـــي :

غدت لك الملوك وأيامهـــــا   رداء لنقضك إبرامهـــــا
وزلّت لهيبتك أقدامهـــــا   وزال لبطشك إقدامهـــــا
ولو لم تسلّم اليك القلـــــوب   هواها لما صحّ اسلامهـــا
أيا محييَ العدل لما نعـــــاه   أيا منسي البرايا وأيتامهـــا
ومستنقذ الدين من أمـــــة   أزال المحاريبَ أصنامهـــا
ـالتَ لها تقتفيك الاســـــو   د والبيضُ والسمرُ آجامهـــا
جزرتَ جزيرتها بالسيـــــو   فـ حتى تشاءمها شامهـــا
وصارت عواليَ أكنافـــــه   متى شئت أرخص مستامهـــا (٢)

وله في نور الدين يذكر وقعة الجـولان وغيرها :

ما برقت بيضك في غامهـــــا   الا ونيت الدين لابتسامهـــا
محمود المحمودُ جدّا وجـــــدا   أرخص جلد الارض حكم عامهـــا
ملك أزال الروم عن عليانهـــا   د غاته وكب من أصنامهـــا
جال على الجولان أمس جولـــة   صفّرت الادحيّ من نعامهـــا
والجون قد جرعها اجونـــــه   وظل مشحودا من اعترامهـــا
وشد نور الدين له مليكهـــا   تود عقود القوط في شبامهـــا
وفي الرها صابت له سحابـــة   صاروا جفاء ثنى في التطامهـــا
وحبّ في هاب لعواصـــــف   تبيّتها ألهب من جهامهـــا
وكفر لا تالات في جبينهـــا   لتم ابا أبت على أشامهـــا
وتائن يرفل تحت وقعهـــا   نظم الثريا في فضا مصامهـــا
نساعقا لبيق اذا عددهـــا   سوط عذاب صب في أيامهـــا
واعجبا لصعب الشراك التـــي   لم يصب الرشد على أحشامهـــا
حكمة استواؤها في عيهـــا   في نقض ما أحصد من ابرامهـــا
مثغر الرايات والـــرأي اذا   الحرب مشت تعثر في خطامهـــا (٣)
عدّت به حد العلا همـــم   دون النجوم أو نواصي هامهـــا
جلت له الدنيا على زبرجهـــا   عفوا فلم تلـو على حطامهـــا
رأته وهو الليث يحدي ظفــره   أنفذ في المشكل من حكامهـــا

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٢٤   (٢) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٨٩

ولە في نور الدين :

عزت سيوفك ، فالعراق عراقها ... والشام غير مدافعات شامها
ان أغمدت حلت العزائم حلها ... أو جردت حرم الكرى احرامها
شخبت عداك بها ، فلا اشراقها ... بمفازة منها ، ولا اعتامها
سربت نصيحها بها يقظانها ... هدأت فمستها بها أحلامها
كالماء ، الا أن في رشفاته ... نارا حشاشات النفوس ضرامها
خفت على أيمانك أوزانها ... يوم الوغى ، واستثقلتها هامها
حتى أحلن الشام شاما صرصرت ... فيه جنادبها وصدح هامها
ورحضن أدران الجزيرة بعدما ... نمرت بها وهدانها واكامها
شدارا أبرت ، ومثله أنارته ... وقع الخطوب تكرها أيامها
بالخابلات الخاب ، تزأر أسده ... والمجتلى الحي اللقاح صيامها
أوردتها أجمات أنطاكية ... عنقا وقد شب الصدا اجمامها
تلقى المشافر في مراشف ، كلما ... بردت بها الاكباد زاد هيامها
فغدت وقد عز السراج سراحها ... وتوزعت في كتبها آرامها
ومشى الضلال القهقرى واستأصل الا ... ذان من رجع الاذان صلامها
وغدا يخللها الخليل سواجبا ... عذبا يمر لها العذاب غمامها
غضبا لدين الله خص جناحه ... بغيا وأدمى صفحتيه لدامها
فالان رد النور فيه نوره ... وانجاب من تلك الهنات ظلامها
محمود المحمود اقداما اذا ... خام الكماة وزلزلت أقدامها
الفاتح الكرب المظام تفاجمت ... أشداقها وفرى القلوب ضغامها (١)

---

(١) الروضتين ق ١ ص ٢٣١

فتوجته العز في مرتبة ... تتمطى الجوزاء في نظامها
عبان للاسلام لا ينيطه اسم ... تسالمها للتسر من اسلامها
خطا على مثل أب طاعت له الآ (٢) ... ماق واستشرف لاغتشامها
تسرب الدنيا على إيثاره ... عراقها مستردة بشامها
لو لم يكن دون منى فات المنى ... واقتصد الفائز من تمامها
وأمة ما مكة وأضاء ... يقصر باع الدهر عن فطامها
وصار كالجمر الجمار وضلا ... من أهله الاشرف من مقامها
ودونها لا زلت ترقى في حمى ... من مؤلم الارواء أولمامها
تلبس بيت الله وشي يمن ... يقرأ آياته من أعلامها
فانما الدين رحى قطبتها ... وبازل تمكنت من زمامها
أعت بنا الامال منك كعبة ... سلم الليالي آية استسلامها
وأرشفتنا يك ثغر نعمة ... لا نسأل الله سوى دوامها (١)

وقال يمدح عماد الدين زنكي ويهنئه بفتح الرها :

بعماد الدين أضحت عروة الـ ... ـدين معصوبا بها الفتح المبين
واستزادت بقسيم الدولة الـ ... ـمستقيم ابن ارغاش كيد المارقين
ملك أصبح عينا لم تزل ... همها تشريد هم الراقدين
لا خلت من كحل النصر فقد ... قذيت فيها عيون الحاسدين
كل يوم من أيامه ... فهو عيد عائد للمسلمين
لو جرى الانصاف في أوصافه ... كان أولاها أمير المؤمنين
ما روى الراوون بل ما سطروا ... مثل ما خطت له أيدي السنين
اذ أناخ الشرك في أكنافه ... بمنى ألويتها بمئين
وقعة طاحت بذلب الروم من ... تحلقا ابين الى قطع الوتين
ان حمت مصر فقد تاه لها ... واضح البرهان إن الصين صين
دون الدهر عليها مصرا ... لم يد نسر بمرام الآثمين
والرها لو لم تكن الا الرها ... اكتفت تعظيما لشأن المتريين
ولكم من ملك حاولها ... فتحلى الحين وسما في الجبين
هي أخت النجم الا أنها ... منه تا انجم لرأي المصريين
منيت منه بليث تائد ... بدران الذل آساد العرين
زارها يزأر في أسد وغى ... تبدل الأسد من الزأر لأنين
صولجو البيض بضرب ينثر الـ ... ـهام في ساحاتها نثر الكرين
يا لها فتحة ثغر أضحكت ... منها الالف ثغور الشامتين
برنست رأس برنس لست ... بعد ما جاست حوايا جوسلين

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٠٢

وسروق مذ وحت أسراجـــه ... فرقت جماتها عنها عضـــين
تلك أثقال رماها الله مـــن ... عزمه الماضي بخير الفاتحـــين
شام منه الشام برقا ودتـــة ... مؤمن النوف منيف الأنفـــسين
كم كنيس كنست قد رامهـــا ... منه بعد الروع في ظل السفـــين
دنت الآجال من آجالهـــا ... فاحلتها القنا بعد القطـــين
ومنار يجتلي صلبانـــه ... بين بيض تتبارى في البريـــن
قرعته البيض حتى بدلـــت ... ترعة الناقوس تثويـــب الاذيـــن
بالقسيسات مقسوم الهـــا الـــد ... مر في علك لجين او لجـــين
سل بها حران كم حرى سقـــت ... بردا من يوم ردت ما رد يـــن
سمطت أمس سماط بهـــا ... نالم جيش تنهج للناظريـــن
وغدا يلقى على القدس لهـــا ... كالكل يد رسها د رس الدريـــن
تقتضي وتضجي عزمـــة ... ليس حصن إن نحته بحصـــين
قل القوم غرهم أسها لـــه ... ستذوقون شـــذاه بعد حـــين
انه الموت الذي يدرك مـــن ... فرمنـــه مفتحا للناظلـــين
وهو يحيي مسكـــي عروتـــه ... انها حبل لمن تاب متـــين
من يطع ينج ومن يعص يكـــن ... من غداة تبرة الآخريـــن
بك يا شمس المعالي ردت الـــر ... و في اليقين من دنيا ودين
أتسم الجد بان تبقى لكـــي ... تملك الارض يمينا لا يمـــين
وتفيض العدل في أقطارهـــا ... منسيا مؤلم عسف الجائريـــن
لا تزل دارك كيف انتقلـــت ... كعبة محفوفة بالطائفـــين
كل يوم يتحلى جيـــدهـــا ... من نظيم المدح بالدر الثمـــين
كلما أخلص فيها دعـــوة ... لك قالت ألسن الخلق آمـــين (١)

وقال يمدح نور الديـــن :

بجدك أصبح الجد الحـــزون ... واطلع وجه الفتح المبـــين
وفي كنفيك مولت الليالـــي ... وفاروق طبعه الزمن الخـــؤون
ومنك تعلم القطن المواضـــي ... وقد زينت بها الحرب الزبـــون
وأنت السيف لم تمسه نـــار ... ولا شحذت مضاربه القيـــون
ترقرق فوق صفحته الأمانـــي ... ويقطر من غراريه المنـــون
وتبلغ ما صمت بذي فقـــار ... يثير النقع كان ولا يكـــون
ولا غيث سماوته سريـــر ... ولا ليث وسادته عريـــن
ولا قمر لطالهيجـــاء هـــال ... ولا تاج له الدنيا جبـــين
جبلت ندى وعفوا وانتقامـــا ... وطاء كل مجبول وطـــين

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٠٠

وملكك عن الاقطار قطـــــــرا   تأمرت الأواعث والحـــــــزون
تلألاء تحته غرر الليالـــــــي   اذا الايام عند سواك جـــــــون
وانت امت للجدوى منـــــــارا   يبين لشائميه ولا يبـــــــين
وعندك مشرب النعمى زلال   اذا عبقت مشاربها الاجـــــــون
تحكم في عطائك كل عـــــــاط   وقد شيدت من المن المصـــــــون
لقد اصمرت وبين الله عـــــــزمًا   تتيه له المشاعر والحجـــــــون
وقام بنصره والناس فوضـــــــى   توى منك في الحلى أمـــــــين
رجمت ملوكهم ولهم خيـــــــوف   أسير في عقادك أو كنـــــــين
فبرنست البرنس لقاء خســـــــف   وجرع من حوسك حوسلـــــــين
اذا ما الفصل عن تالأحــــــذ ف   يقام لمنتهـــاه أو سكـــــــون
غدوا حتى غزوتهم فغنـــــــى الصـــــــلب (؟)ـــــــدى في أرضهم خف القطـــــــين
وكم عبر الصليب بهم صليبـــــــا   فروتمقنالك وفيه ليـــــــن
وما خطرت بدار الشـــــــرك الا   هوى الناقوس وارتفع الاذيـــــــن
هيأت عظام ساحهم عظامـــــــا   فكل ملك لقولك بمجريـــــــن
بأنت في القنا تجرى نجيمـــــــا   كأن عيون اكتبها عيـــــــون
وبين جرار صرخد ذ بن جـــــــرا   اه في كل جيجبـــة كمـــــــين
وقسين من المريمة في غـــــــرام   لمفي جونها الاتصى وجـــــــون
وكم حرم لحارم قاد رتـــــــه   ودارته لمسفها دريـــــــن
وفي شمرا فورس صخن مـــــــرا   تدار على غراريه اللجـــــــون
وتائحون في صنعاء طـــــــيرا   يوتصها على عدن عـــــــدون
نماك أب اذا عد انتسابـــــــا   تراقى صعدا والنـــــــاس دون
شمالا كان املاك البرايـــــــا   وقد قيسوا به وهلو اليمـــــــين
تقى وتضاؤه في الارض حتمـــــــا   وطاعة اهلها لبنيه ديـــــــن
لهذا اليوم تنتخب القوافـــــــي   ويذخر نفسها الدر المصـــــــون
ونحن احق منك بان نهنـــــــا   اذا ترتبروا يتك السيـــــــون
سلمت لنا فانا كل صعـــــــب   نوازيه بان تبقى يهـــــــون
ترابطنا بمقوتك التهانـــــــي   ويقبطنا بدولتك القـــــــرون (١)

وقال يمدح نور الديـــن :

صفات مجدك لفظ جل معنـــــــاه   فاسترد الذى أعطاكه اللـــــــه
يا عارما بيمين الله قائمـــــــه   وفي أعالي أعادى الله حـــــــداه
أصبحت دون ملوك الارض منفـــــــردا   بلا شبيه إذ الاملاك أشبـــــــاه
فداك من حاولت مسعاك همتـــــــه   جهلا وتصر عن مسعاك مسعـــــــاه
قل للأعادى : ألا موتوا به كمـــــــدا   فالله خيبكم والله أعطـــــــاه
ملك تناهى عن الفحشاء همتـــــــه   تقى وتسهر للمعروف يمنـــــــاه

---

(١)   الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٠٥

ما زال يسلك والايام تخدمه
حتى تعالت عن الشعرى مشاعره
وقد روى الناس أخبار الكرام مضوا
أين الخلائف عن فتح أتيح له
على المنابر من أبنائه أنّ
فتح أعاد على الاسلام بهجته
يهذي بمعتصم بالله فتكته
ان الرها غير عمورية وكذا
أنت الكواكب عزا ما بنى أحد
حتى دلفت لها بالعزم تشحذه
نصرا وبنو الاسلام في شغل
يا محيي العدل إذ قامت نوادبه
يا نعمة الله يستصفى المزيد بها
أبقاك للدين والدنيا تحوطهما

فيما أبتناه وتدنو ما توخاه
قدرا وجاوزت الجوزاء تلقاه
وأين مما رووه ما رأيناه
مظلل أفق الدنيا جناحاه
مقطوبة بفتيق المسك ريّاه
فاهتز مهمه وأهتز عطفاه
حديثها نسخ الماضي وأنساه
من رامها ليس مغزاه كمغزاه
من الملوك لها وقصا غواه
رأي يبيت فويق النجم مسراه
عن بدء غرس لهم أثمار عقباه
وناصر الجود لما مخ ....اه
للشاكرين ويستثني ....اه
مَن لم يتوجه هذا التاج الا هو (١)

وله في نور الدين :

ملك ما أذن بالفتح أرضا
والوسمي في الرها أزجى اليها
جارت جارة اليه فحلى
تلك بكر الفتوح فالشام منها
أين كان الملوك عن وجهها الطلق
ممتنعا أبوه بكلب السمر
خائفا قلبه الى أمن عيا
قسمت راية المواضي القسي
وكذا أنت يا ابنه ما عمدا
وكفى البحر انه ابن سحاب
لم يمت من سددت ثلمته يسا
رهبة لم تدع على الارض قلبا
كلما ظن ذكرنا منه في السم
وجهاد عن حوزة الدين لم يسا
اي شان أدركت يا نور دين الل
نطق الحاسدون بالعجز عن ملـ
غض أبصارهم لحاق جواد
هل بصيرا كم اعتقت يوم بصر

قط الا أعزنا إتفاقه
عارضا شيب الدجى إبراقه
عطلا من أعناقها اعناقه
شانة والعراق بعد عراقه
ق يرينا إضاءة وإطلاقه
وم لما أظله إرهاقه
جله دون نيله إخفاقه
ات وابتز من لهاه عراقه
خلقه فيك خصلة خلاقه
ما ونى سحه ولا اصفاقه
مَن على الدين كظه اشفاقه
خلف صدر ينشق عنه شقاقه
ـيكى في الآفاق نفاقه
ل له ركنه ولا إنفاقه
ـه اعيا على الملوك لحاقه
ـه محلى بالنيرات نطاقه
ليس إلا الى المعالي سباقه
من أسار الموت الزؤام عتاقه

(١) الروضتين ١ / ١٩ / ١

كم عرام على الصريمة شبت … ضاق منه على الصليب خناقه
ولكم صبوة بهاب واختيت … ـها لها حكت الأسارى رباقه
بسط الذل فوق بسطة باسـ … ـطا ولكن طواه عنه ارتفاقه
كان فيها ليث العرين حمى الاسـ … ـبال منه غضبان كالنار ما تطاقه
وشبيه النبي يوم حنين … اذ تلاقى أدواءهم درياقه
وفي الحرب مثلها يحسن الكـ … ـرة ان ضربها لا نياقه (١)

وقال فيه :

مظفر العزم ممدود الرواق على … معالم الدين يرفعها ويبنيها
رد الضلال كما المهدى فجنبت … نار الضلال وورثها أثافيها
وارود المليحدا من إياته … فاستنوأثخنها في صوافيها
وبت الشرك أغراها غادرتـ … ـداريدة منه إلا استوثقت فيها
يا بدرنا أشرقت في الدست غرته … غيث الرعية واشتملت مراعيها
أتاح أحمد من محمودها عاما … به انتقام على البيضاء ساريها
محيي شريعته من بعد ما انهدمت … واستصبحت بعد انصاب مبانيها
ثابت مواهبه فيها مهابته … حتى استقرت على سمت سواريها (٢)

وله من أخرى :

أما الرعايا فانها رشفت … لديك نعمى عذبا ثناياها
ملكت نهي العدل القويم لها … فأصبحت دينها ودنياها
وكم أمنيت خوفا فاتها … متاتا الخوف خوفه الله
لله أقطارك التي تطهرت … لها منها الى منايا دما
أتت في انبرا فوارسها … تروي غثوي أولاء أفراسها
أشجت لهاة البرنس صبوتها … وكم عنا عاتيا فأشجاها
وجوسلين امتصاخ نطاقها … فاستلب الذي تسندها
ركة صغرا من كل ما ملكت … يداه أيدي ما على مسراها
جويس جاسته أو بسـ … ـلارات بوءسا وجاد الحيا محياها
سرية لو تكون فارسها … يومئذ ما انبعثت أشقاها
لا زال ظل النعماء عن ملـ … ـما الدهر كفءا له اذا باهى
والله جازيه عن عقيدة … أعزها الله مذ تولاها
محمود المعتلي الى فلك المحـ … ـمد وثيرا له ولاياها
اعطاكه جداء التقى بالجـ … ـد ونصر الله مغزاها
نفرعون عن الفنا طلبت … نرتهما الله يوم سواها
أنت الذى سلم الانام له … يدي طباق القنا ويسراها
وأنت مولى الدلولة تا نهاية … من كل فنا سرو وشاهنشاها
والدهر هذا لاتول احمده … أوه بديل من ترواستي والدها (٣)

(١) الروضتين ١/١/١٢٧، ١٣١، ١٤٤ (٢) الروضتين ١/١/٢٣٠ (٣) الروضتين ١/١/٠٧

ابن الصيـــــاد

قال يمدح طلائع بن رزيك حين قتل مقدم خيل الفرنـــــج * :

عن سيف دين الله سل أرناطـــــا ... حيث المنية كأسها يتعاطـــــى
والمشرفية قد حكت في جيشـــــه ... في الفتك والنهل القطا الفرّاطـــــا
قد شام طير الكفر منه منســــرا ... أشفى وعاين مخلبا عطاطـــــا
هو ملبس جثث العدى في الحرب مـــن ... حلل النجيع مجاسدا وربا طـــــا
فجياده تشكو مزاحمة القنــــا ... وترد خرصان الرماح سياطـــــا
هو فارس الاسلام يحفظ بالظبــــا ... من دينه الاطراف والاوساطـــــا
كم قد أثار من الاسنة أنجمـــــا ... لما أثار من العجاج غطاطـــــا
فتخاله ملكا رمى بشهابــــه ... في الروع شيطان الحروب فشاطـــا (١)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر جـ ١ ص ١٤٣

(*) نسب الابيات أحمد بدوى الى ظافر الحداد (أنظر الحياة العقليه ص ١٢)
والصواب لابن الصياد (أنظر ديوان ظافر ص ٣٧٥)

قال :

توالت علينا في الكتائب والكتب ... بشائر من شرق البلاد ومن غرب
بشائر تهدي للموالي مسرة ... وتحدث للباغين رعبا على رعب
ففي كبد من حرها النار تلتظي ... وفي كبد أحلى من البارد العذب
جعلنا جبال القدس فيها وقد جرت ... عليها عتاق الخيل كالنفنف السهب
فقد أصبحت أوعارها وحزونها ... سهولاً توطا للفوارس والركب
ولما غدت لا ماء في جنباتها ... صببنا عليها وابلاً من دم سكب
وجادت بها سحب الدروع من العدا ... نجيعا فأغنتها الغداة عن السحب
وأجرت بحاراً منه فوق جبالها ... ولكن بحار ليس تعذب للشرب
فقد عمها خصب به من رؤوسهم ... بها ولكم خصب أضر من الجدب
وقد روعتها خيلنا قبل هذه ... مراراً وكانت قبل آمنة السرب
وأخفى صهيل الخيل أصوات أهلها ... فضاقت نواقيس الفرنج عن الضرب
وأبطال حرب من كتامة دوخوا ... بلاد الأعادي بالمسومة القب
وعادوا إلينا بالرؤوس على القنا ... وأغناهم كسب الثناء عن الكسب
وإنا بنو رزيك ما زال جارنا ... يحل لدينا بالكرامة والخصب
ونتلف بالأموال في السلم دائماً ... كما نحن بالأعداء نتلف في الحرب (١)

كتب الى أسامة بن منقذ :

بأبي شخصك الذي لا يغيب ... عن عياني وهو البعيد القريب
يا مقيما في الصدر قد خفت أن يشوى ... ليك القلب حرقة ووجيب
وأرى الدمع ليس يطفيء حر الوجد ... إن جاد غيثه المسكوب

ومنها :

قد علمتم بأن غيث أيادينا ... على الناس بالنضار سكوب
وبنا يدرك المؤمل ما يرجوه قدما ... وينقذ المكروب
نحن كالسحب البوارق والرعد ... لدينا الترغيب والترهيب
تارة نسعر الحروب على الناس ... وطورا بالمكرمات نصوب
كره الشام أهله فهو معشوق ... بألا يقيم فيه لبيب
إن تجلت عنه الحروب تليها ... خلفتها زلازل وخطوب
رقصت أرضه عشية غنى الرعد ... في الجو والكريم طروب
وتثنت حيطانه فأمالتها ... شمال بزمرها وجنوب
وأرى البرق شاهقاً ضاحك السن ... وللجو بالغيوم قطوب

(١) ديوانه ص ٥٨

ذكروا أنه تذوب بها السحب ، فما للصخور أيضا تذوب
أبذنب أصابها قدرُ الله ، فللأرض كالأنام ذنوب
إنّ ظني ، والظن مثل سهام الرمي ، منها المخطي ومنها المصيب
إن هذا لئن غدت ساحة القدس وما للإسلام فيها نصيب
منزلُ الوحي قبل بعث رسول الله فهو المحجوج والمحجوب
نزلت وسطه الخنازير والخمر ، وبارى الناقوسَ فيها الصليب
لو رآه المسيح لم يرض فعلا زعموا أنه له منسوب
أبعد الناس عن عبادة رب الناس قوم إلههم مصلوب
لهف نفسي على ديار من السكان أقوت فليس فيهما عريب
ولكم حلّها فانسته أوطان صباه والاهل يوما غريب
فاحتسب ما أصاب قومك مجد الدين واصبرْ فالحادثات ضروب
هكذا الدهر : حكمه الجور والقصد ، وفيه المكروه والمحبوب
ان تخصكم نوائب ما زالت لكم دون من سواكم تنوب
فكذاك القناة يكسرّ يوم الروع منها صدر ، وتبقى كعوب
ولعمري إنّ الناصح في الدين على الله أجره محسوب
وجهاد العدو بالفعل والقول على كل مسلم مكتوب
ولك الرتبة العلية في الامرين مذ كنت اذ تشبّ الحروب
أنت فيها الشجاع ما لك في الطعن ولا في الضراب يوما ضريب
واذا ما حرضت فالشاعر المفلق فيما تقوله والخطيب
واذا ما أشرت فالحزم لا ينكر انّ التدبير منك مصيب
لك رأيٌ يقظان إن ضعف الراي على حاطبي الصليب صليب
فانهض الان مسرعا فبامثالك ما زال يُدرَك المطلوب
والق عنا رسالة عند نور الدين ما في إلقائها ما يريب
قل له دام ملكه وعليه من لباس الاقبال بُرد قشيب
أيها العادل الذي هو للدين شهاب ، وللحروب شبيب
والذي لم يزل قديما عن الاسلام بالعزم منه تُجلى الكروب
وغدا منه الفرنج اذا لاقوه ، يوم من الزمان عصيب
إن يوم تزف حقد دهم فاذا شطان قناه في كل قلب قليب
غيرنا من يقول ما ليس يمضيه بفعل ، وغيرك المكذوب
قد كتبنا اليك فاوضح لنا الان بماذا عن الكتاب تجيب
قصدُنا أن يكون منا ومنكم أجلٌ في مسيرنا مضروب
فلدينا من العساكر ما ضاقت بادنا هم الفضاء الرحيب
وعلينا أن يستهل على الشام مكان الغيوث ماءٌ صبيب
أو تراها مثل العروس : ثراها كله من دم العدى مخضوب
لطنين السيوف في فلق الصبح على هام أهلها تطريب

ولجمع المحشود من كل سحـن ... سَلَبٌ مهطعٍ اليهم ونهوب
ويحول الاله ذاك ، ومن غـ ... ـالَبَ ربّي فإنه مغلوب (١)

واجاب طلائع أسامة بن منقذ بقصيدة رداً على قصيدته الطائية ، وحرّضه على الجهاد مطلعها :

هي البدر ، الا أن الثريا له قرط ... ومن أنجم الجوزاء في نحرها سمط

ومنها :

صللنا بها البيض السيوف فلم نخف ... ضباب الدجى لما بدا لمعها شطّ
سيوف لها في كل درع وجنة ... اذا ما اعتلت قدّ أو اعترضت قطّ
ذخرنا سطاها للفرنج ، لانهم ... بهم دون أهل الارض أجدر أن تسطو
لهم تسطيهم في الحرب منها ، وطالما ... عليهم لدى الهيجاء عدل ولا قسط
وقد كاتبوا في الصلح ، لكنّ جوابهم ... بحضرتنا ما ينبت الخط لا الخط
سطور خيول لا تغب ديارهم ... لها بالمواضي والقنا الشكلُ والنقط
وحرب لها الارواح زاهقة اما ... تباين والاسوات من دهش لغط
اذا أرسلت فرعا من النقع فاحما ... أثيثا فأسنان الرماح لها مشط
كأن القنا فيها أنامل خاضب ... أجد بها في السرقة البيض واللقط
رددنا بها ابنَ الفنش عنا ، وانما ... يثبّته في سرجه الشدّ والربط
فقولوا لنور الدين : ليس لجائف الـ ... ـجراحات الا الكي في الطب والبط
وحسم أصول الداء أولى لعاقل ... لبيب اذا استولى على المدنف الخلط
تدع عنك ميلا للفرنج وهدنة ... بها أبدا يخطي سواهم ، ولم يخطبوا
تأمّل فكم شرط شرطت عليهم ... قديما ، وكم غدر به نُقِضَ الشرط
وشمّر فانا قد أعنا بكل ما ... سألت وجهزنا الجيوش ولم يبطوا
ودونك مجدَ الدين قد راح زفها ... اليك الوفاء المحض والكرم البسط
هدايا تهادى بين حسن وفائها ... وانعامنا ، ذا التاج زان وذا القرط
على أنها تشتطّ إن هي ساجلت ... (أجيرة قلبي ، ان تدانوا وان شطوا)(٢)

وقال قصيدة أرسلها الى أسامة مكتوبة بخط يده :

أيها المغتدي أنت على البعـ ... ـد صديق لنا ، ونعم الصديق
ليس فيما تأتيه من سرّ أغراضـ ... ـك للطالب المحقوق عقوق
فلهذا نرى مواصلة الكتـ ... ـب تباطا اليك ما يليق

---

(١) ديوانه ص ٦١ ـ ٦٥ وانظر الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٩٥

(٢) ديوانه ٨٤ والروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٩٨

ونناجيه بالمهمات إذ أنت بالقائها اليك خليق
واهم الأمور أمر جهاد الكفر ، فاسمع فعندنا التحقيق
واصطلتهم منا السرايا فأشجاهم بكور منا لهم وطروق
وأباحت ديارهم فأباد القوم تتل طاذم وحريق
وانتظارنا بزحفنا برء نور الدين علما منا بأن سيفيق
وهو الآن في أمان من الله ، وما يعتريه أمر يعوق
ما لهذا المهم مثلك ، مجد الدين ، فانهض به ، فأنت حقيق
قل له : لا عداه رأي ولا زال لديه لكل خير طريق
أنت في حسم داء طاغية الكفار ذاك المرجو والمرموق
فاغتنمها لجهاد أجرك ، كي تلقى رفيقا له ، ونعم الرفيق (١)

وأنشد قصيدة في وصف جيوشه وعدتها ومناعتها وأرسلها الى الامير أسامة بن منقذ :

قل لابن منقذ الذي   قد حاز في الفضل الكمالا
فلذاك قد أضحى الانام   على فضائله عيالا
وقريحة عند الظما   ينسيهم الماء الزلالا
كالدر ، والياقوت ما   سكن البحار ولا الجبالا
لكن يجاور فيهما أيمان   واحلالا تقالا
ما كان ظني أن يجرّ منه لي السحر الحلالا
كلا ، ولا يشكو لحصد رسائل مني كلالا
كم قد بعثنا نحوك الأ   شعار مسرعة عجالا
مثل الحسان الغيد تا هت في محاسنها دلالا
بذلت لك الممنوع ثم   منحتها منك ابتذالا
وصددت عنها حين رامت من محاسنك الوصالا
ما كان من لهما ، وحقك ، يستحق بها المطالا
هلا بذلت لنا مقالا حين لم تبذل فعالا
من أننا نوليك صبرا في المودة واحتمالا
ونبثك الأخبار إن   اختصارا أو طوالا
سارت سرايانا لقصد الشام ، تعتسف الرمالا
تزجي الى الاعداء جرد الخيل أتباعا توالى
تمضي خفافا للمغا   ر بها ، وتأتينا ثقالا
حتى لقد راح الاعا   دي من ديارهم ارتحالا
وعلى الوعيرة معشر   لو يشهدوا فيها القتالا
لما نأت عمن يجيف   بها يمينا أو شمالا
نهضت اليها خيلنا   من مصر تحتمل الرجالا

(١) ديوانه ص ١٠٣ والروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٩١

والبيض لامعة وبيض الهند والاسل النهالا
فغدت كأن لم يسكنوا في أرضها حيّاً حلالا
هذا وفي تل الجنود ل ملأن بالقتلى التلالا
إذ نزنري ليس يلوي نحو رفقته اشتغالا
واشتاق عسكرنا لقاءه أهلا يحبهم وصالا
وسرية ابن فريح الطائي طال بهما وصالا
سارت الى ارض الخليل ، فلم تدع فيها شمالا
فلو أن نور الدين يجمل غصلنا فيهم شمالا
ويسير الأجناد جهرا ، كي ينازلهم نزالا
وبقي لنا ، ولأهل دولته بما قد كان قالا
لرأيت للافرنج طرّا في معاقلها اعتقالا
واذا أبى الا أطراحاً للنصيحة واعتزالا
عدنا بتسليم الأمور لحكم خالقنا تعالى (١)

وكتب بخط يده قصيدة الى أسامة :

أيها السائر المجد الى الشام تباري ركابه والخيول
خذ على بلدة بها دار مجد الدين لا ريث ريعها المأمول
وتعرف أخباره واقرأه منا سلاما فيه العتاب يجول
قل له : أنت نعم فخر الصديق اليوم ، لكنك الصديق الملول
ما ظننا بأن حالك في القرب ولا البعد بالملال تحول
لا كتاب ، ولا جواب ولا قول به للبقين منا حصول
غير أنا نواصل الكتب اذ تصدر منك البر الكريم الوصول
ذاكرين الفتح الذي فتح الله علينا ، فالصنع منه جميل
لم يزل فعلنا لما هو لما شاء في الأنام فصول
جاءنا بعد ما ذكرنا في كتب أتاكم بهن منا الرسول
أن بعض الاسطول نال من الافرنج ما لا يناله التأميل
سار في قلة ، وما زال بالله وصدق النيات يغني القليل
وبقايا الاسطول ليس لها بعد الى ساحل الشام وصول
فحوى من عكا وانطرطوس عدة لم يحط بها التحصيل
جمع ديوية بهم كانت الافرنج تسطو على الورى وتصول
تيد في وسطهم فقد مهم يهدى الينا ، وجيد مغلول
بعد مثوى بجماعة هلكت بالسيف منها الغريق والمقتول
هذه منحة الإله وتعديد أيادي الاله شيء يطول
بلغوا قولنا الى الملك العادل ، فهو المرجو والمأمول

---

(١) ديوانه ١٢٤ ــ ١٢٦

قل لمه : كم تماطل الدين في الكفـــــــار ، فاعذر أن ينصب المطلـــــول
سر المى التد مر واحتسب ذ لك في الملـــــــه فاليسير مثله يشفي الغليـــــــل ،
واذا ما أبطأ مسيرك فالملــــــــــه اذا حسبُنا ونعم الوكيـــــل(١)

وقال إثر وحشة حصلت بين نور الدين محمود بن زنكي وبين قلج أرسلان بن مسعود صاحب الروم أدت الى الحرب والتطاحن والتضاغن ، فعندما بلغ خبرها الى مصر كتب الابيات هذه الى قلج أرسلان ، ينهاه عن ذلك :

نقول ، ولكن أين من يتفهـــــــم
وما كل من قاس الامور وساسهــــــا
وما أحدٌ في الملك يبقى مخلـــــــدا
أمن بعدما ذاق العدى طعم حربكـــــم
رجعتم الى حكم التنافس بينكـــــم
أما عندكم من يتقي اللـــه وحــــــده
تعالوا ، لعل الله ينصر دينــــــــه
وننهض نحو الكافرين بحزمـــــــــة

ويسلم وجه الرأي ، والرأي مبهـــــم
يوفّق للأمر الذي هو أحـــــــزم
وما أحدٌ مما قضى الله يسلـــــــم
بفيئهمُ ، وكانت وهي صاب وعلقــــم
وفيكم من الشحناء نار تضـــــرّم
أما في رعاياكم من الناس مسلـــــم
اذا ما نصرنا الدين نحن وأنتـــــم
بأمثالها تحوى البلاد وتقســـــم (٢)

وأرسل الى أسامة بن منقذ قصيدة صور فيها حال الغزاة ، وحرض فيها نور الدين على قتال الصليبيين :

الا هكذا في الله تمضي العـــــزائم
وتستنزل الاعداء من طود عزهــــــم
وتنزى جيوش الكفر في عقر دارهـــــا
ويوفي الكرام الناذرون بنذرهـــــم
نذرنا مسير الجيش في صفر فمـــــا
بعثناه من مصر الى الشام قاطعــــــا
وناهيك من أرض الجفار التظـــى بها
وصارت عيون الماء كالعين عــــزة
فما ناله بعد الديار ولا ثنـــــى
يهجّر والعصفور في قعر وكـــــره
اذا ما طوى الرايات وقت مسيــــره
تباري خيولاً ما تزال كأنهـــــا
نان طابتْ صرا تساوين مرشـــــة
هي الدهم الوانا ، وصبغ عجاجـــــة

وتنضى لدى الحرب السيوف الصـــوارم
وليس سوى سمر الرماح سلالـــــم
ويوطا حماها ، والانوف رواغـــــم
وان بذلت فيه النفوس الكرائـــــم
مضى نصفه حتى أنثنى وهو غانـــــم
مفاوز وسط الصيف فيهن دائـــــم
بهجيرهم شبوب من القيظ باجـــــم
اذا ما أتاها العسكر المتراكـــــم
عزيمته جهد الظما والسمائــــم
ويسري الى الاعداء والنجم نائـــــم
عدت عوضا منها الطيور الحوائـــــم
اذا ما هي انقضّت نسور قشاعـــــم
تواد مها في جودها والقوائــــم
ثان دالبت أعداءها فالادائـــــم

---

(١) ديوانه ص ١٢٨ والروضتين جا ق ١ ص ٢٩٦
(٢) ديوانه ص ١٢٢ ، الكامل ١١ / ٣١٨

تصاحبها علما بأن سوف تقتدي ... بها ، ولها في الكافرين مطاعم

كما أن وحش القفر ما زال منهم ... مدى الدهر أعراس لهم ومآتم

خيول اذا ما فارقت مصر تبتغي ... عدى ، فلها النصر المبين ملازم

يسير بها ضرغام في كل مأزق ... وما يصحب الضرغام الا الضراغم

ورنقتعين الزمان وحاتم ... ويحيى ، وان لاقى المنية حاتم

مضى طاهر الاثواب من كل ريبة ... شهيدا كما تمضي السراة الاكارم

هنيئا له ، يسقى الرحيق اذا غدت ... تحييه في الخلد الحسان النواعم

ولو أننا نبكي على فقد هالك ... لقلت له منا الدموع السواجم

ولكننا بعنا الاله نفوسنا ... ورحنا وما منا على البيع نادم

تهون علينا أن تصاب نفوسنا ... اذا لم تصبنا في الحياة المآثم

وما خام اذ لاقى همام وصنوه ... عشية أصوات الرجال غماغم

(وبرتية) شاموا السيوف ، فلم تمش ... ابارقها في ساحة الشام شائم

وأبناء جند لو توجه جمعهم ... لرومة سالت عليها القواصم

وجمع ما لهم بأفعالنا اقتدوا ... فكلهم بالطعن ، والضرب عالم

(وسنبس) قد شادوا المعالي بفعلهم ... وليس لهم الا العوالي دعائم

و (ثعلبة) أضحوا بنا قد تأسدوا ... فما لهم في المشركين مقاوم

وان (جذاما) لم يزل قط منهم ... قديما لحبل الكفر بالشام جاذم

جيوش أعدناها اعتزاما ونجدة ... فطاعتنا منهم ، ومنا العزائم

اذا ما أثاروا النقع فالثغر عابس ... وان جردوا الاسياف فالثغر باسم

ولما وطوا أرض الشآم تحالفت ... فأنست جمعها عربها والاعاجم

وواجهم جمع الفرنجة بصلة ... تهون على الشجعان منها العزائم

فلقوهم زرق الاسنة ، وانطووا ... عليهم ، فلم ينجم من الكفر ناجم

وما زالت الحرب العوان أشدها ... اذا ما تلاقى العسكر المتصادم

يشتتهم من لاح جمعهم له ... بلجة بحر ، موجها متلاطم

وحسبك أن لم يبق في القوم فارس ... من البيض الا وهو للروح حاطم

وعادوا الى سل السيوف فقطعت ... رؤوس ، وحزت للفرنج غلاصم

فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر ... ولا قيل : هذا وحده اليوم سالم

كذلك ما ينفك تهدى الى العدى ... وللوحش أعراس لهم ومآتم

وتسرى لهم آراؤنا وجيوشنا ... بداهية تبيض منها القوادم

نقتلهم بالرأي طورا ، وتارة ... تدوسهم منا المذاكي الصلادم

وما الحازم المحمود الا الذي يرى ... من العزم في أحواله وهو حازم

وقد غرق الكفار منه بقطرة ... سحاب انتقام عندنا متراكم

فكيف اذا سالت عليهم سيولنا ... وجاست لنا تلك البحار الخضارم

وما نحن بالاسلام للشرك هازم ... ولكننا الايمان للكفر هادم

فقولوا لنور الدين : لا فل حده ... ولا حكمت فيه الليالي الغواشم

تجهز الى أرض العدو ، ولا تهن ... وتظهر فتورا ان مضت منك صارم

فما مثلها تبدى احتفالا به ، ولا ... تسل عليها للملوك الاهاشم

فعندك من ألطاف ربك ما بـــه ... علمنا يقينا انه لك راحـــم
أعادك حيا بعد أن زعم الـــورى ... بأنك قد لاقيت ما الله حاتـــم
بوقت أصاب الارض ما قد أصابهـــا ... وحلت بها تلك الدواهي العظائـــم
وخيم جيش الكفر في أرض شيـــزر ... فسيقت سبايا ، واستحلت محـــارم
وقد كان تاريخ الشام وهلكـــه ... ومن يحتويه أنه لك عـــادم
نعم ، واشكر الله الكريم بنهضـــة ... اليهم ، فشكر الله للخلـــق لازم
فنحن على ما قد عهدت نرومهـــم ... ونحلف جهدا أننا لانسالـــم
وثاراتنا ليست تغتر عنهـــم ... ولم ينجـــي القوم منها الهزائـــم
واسطولنا أضعاف ما كان سائـــرا ... اليهم ، فلا حصن لهم منه عاصـــم
ونرجو بأن نحتاج باقيهم بـــه ... وتحوى الاسارى منهم والغنائـــم
على أننا نلنا من المجد ما بـــه ... نفاخر أملاك الورى ونقـــاوم
ولكننا نهنى المثوبة جهدنـــا ... وطاقتنا ، والله معط وحـــارم
ونختم بالحسنى الفعال ، وانمـــا ... تزين أعمال الرجال الخواتـــم (١)

وكتب الى أسامة بن منقذ في وصف غزو جيوشه للفرنج :

يا سيدا يسمو بهمتـــه الى الرتب العليـــة
فينال منها حين يحســـد غيره أوفى مزيـــة
أنت الصديق وإن بعـــدت وصاحب الشيم الرضيـــة
يهنيك أن جيوشنـــا فعلت فعال الجاهليـــة
سارت الى الأعداء مـــن أبطالها مائتا سريـــه
فتبير هذى بكـــرة وتعاود الاخرى عشيـــة
فالويل منها للفرنـــج فقد لقوا جهد البليـــة
جاءت رؤوسهـــم تلـــوح على رؤوس السمهريـــة
وبداش قد قسمـــت بين الجنود على السويـــة
وخلائق كثرت مـــن الاسرى تقاد الى المنيـــة
فانهض ، فقد أنيـــت مجـــد الدين بالحال الجليـــة
ألم يخور الديـــن وأعلمـــه بهاتيك القضيـــة
فهو الذي ما زال يخلـــص منه أعمالا ونيـــة
ويبيد جمع الكفـــر بالبيـــض الرقاق المشرفيـــة
فعساه ينهض نهضـــة يغني بها تلك البقيـــة
أما لنصرة دينـــه أو ملكـــه أو للحميـــة (٢)

---

(١) ديوانه ص ١٣٥ وانظر الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٨٩
(٢) ديوانه ص ١٧٢ والروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٩٠

قال حين سمع تأويل منام بإعلان الخلافة العباسية بمصر قصيدة منها :

لتهنك يا مولى الأنام بشـــارة ... بها سيف دين الله بالحق مرهف
ضربت بها هام الأعادي بنصلة ... تقاصر عنها السمهري المثقف
بعثت الى شرق البلاد وغربها ... بعوثا من الآراء تحيي وتتلف
تقاضت مقام السيف والسيف قاطر ... ونابت مناب الرمح والرمح يرعف
وقدت لها جيشا من الروع هائلا ... الى كل قلب من عداتك يزحف
ملكت به أقصى المغارب عنوة ... وكادت بمن فيها المشارق ترجف
ايهنك يا مولاي فتحا تتابعت ... اليك به حور الركائب توجف
أخذت به مصرا وقد حال دونها ... من الشرك ناس في لهى الحق تقذف
وقد دنست منها المنابر عصبة ... يصان التقى والدين منهم ويأنف
فطهرتها من كل شرك وبدعة ... أغر عزيز بالمكارم يشغف
فعادت بحمد الله باسم امامنا ... تتيه على كل البلاد وتشرف
ولا غرو أن دانت ليوسف مصره ... وكانت الى علياته تتشوف
تملكها من قبضة الكفر يوسف ... وخلصها من قبضة الرق يوسف (١)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٠٠

المهذب بن الزبير – ٥٦١

قال المهذب بن الزبير يمدح طلائع بن رزيك بقصيدة : منها :

وما أصطبحت رماح الخط الا مخافة أن يحطمها جبينا
وما تندق يوم الروع حتى يدق بها الكواهل والمتونا
عجبت لها تصافح من يديه وتوصف بالظما ء بحرا معينا
ويوردها ولا يخطى بمرأى نطاقا من دروع الدار عينا
وهل يشفى لها أبدا غليل وقد شربت دماء الكافرينا
اذا لقيت عيون الروم زرقا حسبت سنانها تلك العيونا
وتاثر في العداة له تبارى صنائع في العفاة المجتدينا
وأرغام به أبكى عيونا وأنعام أقر به عيونا ... (١)

وقال فيه أيضا ، يصف أسطوله ونصرته على الروم سنة ٥٥٣ :

أعلمت حين تجاور الحيان أن القلوب مواقد النيران ؟
يا كاسر الاصنام قم فانهض بنا حتى تصير بكسر الصلبان
فالشام ملكك قد ورثت تراثه عن تولك الماضين من غسان
فاذا شككت بأنها أوطانهم قدما فسل عن حادث الجولان
أو رمت أن تتلو محاسن ذكرهم فاسند روايتها الى حسان

ومنها في وصف الزلزلة :

ما زلزلت أرض العدا بل ذاك ما بقلوب أهليها من الخفقان
وأقول إن حصونهم سجدت لما أوتيت من ملك ومن سلطان
والناس أجدر بالسجود اذا غدا لسناك يسجد شامخ البنيان
ولقد بعثت الى الفرنج كتائبا كالاسد حين تصول في غيطان
لبسوا الدروع ولم تحل من قبلهم أن البحار تحل في غدران
وتيمموا أرض العدو بقفرة جرداء خالية من السكان
عشرين يوما في القفار وليلة يسرون تحت كواكب الخرصان
حتى اذا قطعوا الجفار بجحفل هو في الحديد ورمله سيان
أغريتهم بحمى العدا فجعلته بسطاك بعد المزدار سوان
عجلت في تلك المجول قراهم وشم الك الضيفان بالذيفان
لما أبوا ما في الجفان قريتهم بصوارم سلت من الاجفان
وثللت في يوم العريش عروشهم بشبا ضراب صادق وطعان

(١) الخريدة قسم شعراء مصر جـ ١ ص ٢٠٥

الجأتهم للبحر لما أن جرى ... منه ومن دمهم معا بحران
ودع الورى بالبأس اذ خضبوا الظبا ... في يوم حربهم من الأقران
ولأنت تخضب كل بحر زاخر ... ممن تحارب بالنجيع القاني
حتى ترى دمهم وخضرة مائه ... كشقائق نثرت على الريحان

ومنها في وصف الاسطول :

وكأن بحر الروم خُلِّقَ وجهه ... وطفت عليه مناهب المرجان
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما ... لم يأت في حين من الأحيان
أحبب الي بها شواني أصبحت ... من فتكها ولها الحداة شواني
شبهن بالغربان في ألوانها ... وفعلن فعل كواسر العقبان
أوقرتها عددَ القتال فقد غدت ... فيها القنا عوضاً من الأشطان
فأتتك موقرة بسبي بنية ... أسرى هم مغلولة الأذقان
حرب عوان حكمتك من العدا ... في كل بكر عندهم وعوان
وأتت رسل ابن القسيم اليه تسعى ... شعبان كي يتلقاء الشعبان
والفال يشهد باسمه أن سوف يغدو ... الشام وهو عليكما قسمان

ومنها في مدح نور الدين ووصف قتله للبرنس :

وأراك من بعد الشهيد أبا له ... وجعلته من أقرب الإخوان
وهو الذي ما زال يفصل في العدى ... ما لم يكن ليسد في الامكان
قتل البرنس ومن عساه أعانه ... لما عتا في الغي والعدوان
وأرى البرية حين عاد برأسه ... مر الجني يبدو على المران
وتعجبوا من زرقة في طرفه ... وكأن فوق الرمح نصلا ثاني
فليهنه أن فاز منه بسيد ... أوفى برتبته على كيوان
قد صاغ من أرماحه لمباسم الا ... ملاك أقراطا من الخرصان
والخيل تسلم في الكريهة أنسه ... قد حط هيكلها على الفرسان
عجبا لجود يديه اذ يبني العلا ... والسيل يهدم ثابت الاركان (١)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ص ٢١٠ ، وأزهار الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٢٧٥

عرقلة الكلبي – ٥٦٧ هـ

قال يمدح الامير معين الدين أنر الطغتكي ، وقد وجّه يستنجد بالافرنج :

تضاعف ضعفي بعد بُعد الحبائب ... وقد حجبوا عني قسي الحواجب
ومذ أفلت تلك الكواكب لم تزل ... موكّلة عيني برعي الكواكب
فما آيب للهم عني برائح ... ولا رائح للهم عني بآيب
ونادبة ناحت سحيرا بأيكة ... فهيّجت الوسواس في قلب نادب
تنوح على غصن ، وأنوح لمثله ... وهل حاضر يبكي أسى ، مثلُ غائب
بوادٍ ، بوادي الخوطتين ، ربوعكم ... ربيعي ، ومن ذاك التراب ترابي
يزيد احتراقي واشتياقي إليكم ... إذا صاح بي : عزّ على الدار صاحبي
وأهوى عراصا من رياض أنيقة ... تعوضني عنها صروف النوائب
تظل ثغور الاقحوان ضواحكا ... إذا ما بكتها أعين السحائب
كأن لمع البرق في جنباتها ... سيوف معين الدين بين الكتائب
فتى لم يعد حتى تعفر قرنه ... كأن بأيديه الضرب ضربة لازب
حشيته سرج على ظهر سابح ... وحلته درع على غير هارب
غدا في المعالي راغبا غير زاهد ... وفيما سواها ، زاهدا غير راغب
يظن صلاحُ الدين فرسان جلق ... كفرسانه ، ما الأسد مثل الثعالب
غدا تملك الشام الفرنجُ بفيلق ... مسوّدة أبطاله للمصائب
رجال إذا قام الصليب تصلبت ... رماحهم في كل ماض وراكب
لها الليل نقع ، والأسنة أنجم ... فما غير أبطال وغير جنائب (١)

وقال يمدح الامير مجد الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين :

عز على نجد لمالك منجد ... بنسيمها ، ويذكرى سعدى ، مسعد
بدوية الالفاظ دون خبائها ... خيل تروح الى الطعان وتغتدي
قد كان يَغني لحظها وقوامها ... عن كل خطيّ ، وكل مهند
ياسائلي ، إن دمع عيني سائل ... مالك الحديث عن الغزال الأغيد
من لي بمعسول الثنايا عذ بها ... لدن كغصن البانة المتأوّد
أبداً شواه لي مقيمٌ مقعد ... روحي فداه ، من مقيم مقعد
ولقد نعمت بوصله في سرب ... ألِف الربيع بروضه الغض الندي
أزهاره من جوهر ، ونسيمه ... من عنبر ، وثماره من عسجد
وعلى الغصون من الحمائم قينة ... تغنيك عن شدو الغريض ومعبد

---

(١) ديوان، صفحة ٥ – ٦

والماء في بردى كأن حبابه ... برد جنته الريح غير مصرد
بينا تراه كالسجنجل ساكناً ... حتى تراه أجرداً كالمبرد
وكأنما أنفاس رياه تنسما ... أبقى الهمام الماجد بن محمد
ملك تشرفت المنابر باسمه ... وعلت مناقبه فويق الفرقد
وعلى الأسرة من أسرة وجهه ... شمس تجلت من بروج الاسعد
ما نشرت راياته يوم الوغى ... الا انطوى جيش العدو المعتدي
من قاتل الافرنج دينا غيره ... والخيل مثل السيل عند المشهد
رد الامان بكل ندب باسل ... ومن الجياد بكل نهد أجرد
ومن السيوف بكل عضب أبيض ... ومن الرماح بكل نقع أسود
حتى لون الاسلام تحت لوائه ... وغدا بحمد من شريعة أحمد
طلق المحيا واضح متهلل ... مثل السها في الدجى طلق اليد
كسد القريض وكان قدماً ناقصاً ... في ذا الزمان وعنده لم يكسد
أمجير دين الله وابن جماله ... والسيد بن السيد بن السيد
كم حاسد لك في الشجاعة والندى ... والعلم لا قرت عيون الحسد
أضحت دمشق بحسن وجهك جنة ... فيها الذي شناك غير مخلد
لا زلت للاسلام عضداً ما سرت ... بعد الكرى شدنية في غدغد (١)

وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب :

الام الام فيك وكم أعادي ... وأمرض من جفاك ولن أعادا
لقد ألف الضنى والسقم جسمي ... وهناني المدامع والسهادا
وها أنا قد وهى صبري وشوقي ... اذا ما قلت الاشواق زادا
بقلبي ذات خلخال وقلب ... تملك غورها مني الفؤادا
مهفهفة كأن قضيب بان ... تثنى في غلائلها وميادا
بوجه لم يزد الا بياضا ... وشعر لم يزد الا سوادا
تعجب عاذلي من حر حبي ... ومن يرد السلو وقد تمادى
ولا عجب اذا ما آب حبري ... بأية ومن جماد في جمادى
وقد أنساني الشيب الغواني ... فلا سعدى أريد ولا سعادا
وهل أخشى من الانواء بخلا ... اذا ما يوسف بالمال جادا
فتى للدين لم يبرح صلاحا ... وللاموال لم يبرح فسادا
هو المعروف بالمعروف حقا ... جواد لم يهب الا الجوادا
به الاقطار قد عاشت نفاقا ... وعند سواه قد ماتت كسادا

---

(١) ديوانه صفحة ٢٤ ــ ٢٦ الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٠

يحب الخمسة الأشباح دينـــــــا　　وما يهوى زيدا أو زيــــــــادا

لئن أعطانور الدين حصنـــــا　　فإن الله أعطاه البـــــلادا

الى كم ذا التوانـــي في دمشـــق　　وقد جاءتكم مصر تهــــادى

عروس بعلها أسد هصـــــور　　يصيد المعتدين ولن يصـــادا

الا يا معشر الاجنـــاد ســـيروا　　وراء لوائه تلقوا رشــــادا

وما كل امرئ صلى مـــع النـــا　　س، مأمونا كمن صلى فــــرادى(١)

وقال يمدح صلاح الدين الأيوبي ، وقد وعده بألف دينار ان ملك مصر :

قل للصلاح ، معيني عند اعســـاري　　يا ألف مولاي أين الالف دينـــار

أخشى من الاسر ان حاولت أرضكـــم　　وما تفي جنة الفردوس بالنـــار

فجد بها عاضديات مسطـــرة　　من بعض ما خلف الطاغي أبو الصار

حمرا كأسيافكم ، غرا كخيلكـــم　　عتقا ثقالا كأعدائي، وأطمـــاري (٢)

وكتب الى صلاح الدين من قصيـــدة :

اليك صلاح الدين مولاي أشتكـــي　　زمانا على الحر الكريم يجـــور

ترى أبصر الألف التي كنت واعـــدي　　بها ، في يدي ، قبل الممات تصيـــر

ودينارات والاعزوبي بيني وبينكـــم　　سياج ، فقبل دونه وأســـير

ومن عجب الايام انك ذو غنـــى　　بمصر ، واني في دمشق فقـــير (٣)

---

(١) ديوانه صفحة ٣٠ ـ ٣٢ والروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٩٤ وعقد الجمان جـ ١٢ ق ٢ ورقة ٢

(٢) ديوانه صفحه ٤٩ ـ ٥٠ والروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٤٩ والخريدة قسم شعراء الشـــام جـ ١ / ١٧٨

(٣) ديوانه ٥٠ والروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٤٩ والخريدة قسم شعراء الشام ١ / ٢٠٨

قال يمدح شاوَر بعد أن رحل شيركوه عن بلبيس وعاد الفرنج الذين ساعدوا شاور الى ديارهم :

وأنقذت من مصر عدوا بملكـه … فلله من ظفر فللت ونـاب
صدمت جموع الكفر والشام صدمة … أقمت بها للقوم سوق ضـراب
وقد جودت أجناد مصر عزائمـا … مضاربها في الصخر غير نوابـي
تولوا عن الافرنج فادح ثقلهـا … ودارت رحاها منهم بهضـاب
أقامت دروع الجند تسعين ليلـة … ثيابا لهم ، ما بدلت بثيـاب
وهيهين مطروح هناك وطـارح … وبين مصيب خصمه ومصـاب (١)

وقال يمدح طلائع بن رزّيك من قصيدة :

تيقنت الافرنج أنك إن تـرد … ديارَهم لم ينجهم منك مهـرب
وخافتك إن لم تصطلها الامن مقحما … فجاءتك بالاسد الشرى تتقلـب
وأهدوا رجال السلم آل حريمهـم … ومن بعض ما أهدوا مجن ومقنـب
وذلك قال صادق أن عزمهـم … بسيفك يا سيف الهدى سوف يُسلب (٢)

وقال يمدح صلاح الدين سنة ٥٦٥ هـ :

من شاكر والله أعظم شاكـر … ما كان من نعمى بني أيـوب
طلب الهدى نصرا ، فقال ، وقد أتـوا … حسبي ، فانتم غاية المطلـوب
جلبوا الى دمياط عند حصارهـم … عز القوي وذلة المغلـوب
وجلوا عن الاسلام فيها كربـة … لو لم يجلوها أتت بكـروب
فالناصر أعمال مصر كلهـا … عتقاؤهم من نازح وقريـب
ان لم تظن الناس قشرا فارغـا … وهم اللباب ، فانت غير لبيـب (٣)

وقال يمدح صلاح الدين سنة ٥٦٤ :

ملك صلاح الدين ، لا توضـت … أطنابه ، ملك التقى والصـلاح
سيرة عدل حسّنت عندنـا … ما كان من وجه الليالي القبـاح
سائر في الدنيا وأقطارهـا … ذكر غدا عنه بهيـ... وراح

(١) الروضتين جا ق ٢ ص ٣٣٧
(٢) النكت العصريه ص ١٧٦
(٣) الروضتين جا ق ٢ ص ٣٣٧ وانظر عقد الجمان جـ٢١ ق ٣ ورقه ٤٥٧

قل لابن أيوب ، وكم ناصح ... أنقذ من هو شاكي السلاح

حارب على مثل نجوم السما ... فملك مصر ما عليه اصطلاح

قولا لمن في عزمه فترة ... أرجع الى الجدّ وخلّ المزاح

فالقدس قد آذن اغلاقه ... على يديْ يوسف بالانفتاح (١)

وله في صلاح الدين أيضا :

لك الحسبُ الباقي على عقب الدهر ... بل الشرف الراقي الى قمة النسر

كذا فليكنْ سعي الملوك اذا سمت ... بها هِمَمُ العليا الى شرف الذكر

نهضتم بأعباء الوزارة نهضة ... أقلتم بها الأقدام من زلة العثر

كشفتم عن الإقليم غمته كما ... كسفتم بأنوار الهدى ظلمة الفقر

حميتم من الإفرنج سرب خلافة ... جريتم لها مجرى الأمان من الذعر

ولما استغاث ابن النبيّ بنصركم ... ودائرة الأنصار أضيق من شبر

جلبتم اليه النصر أوسا وخزرجا ... وما اشتقت الأنصار الا من النصر

كتائب ، في جيرون منها أواخر ... وأولها بالنيل من شاطىء مصر

طلعتم فاطلعتم كواكب نصره ... أنارت ، وكان الدين ليلا بلا فجر

وآبت اليكم يا ابن أيوب دولة ... تراسلكم في كل يوم من القصر

حمى الله فيكم عزمة أسدية ... فككتم بها الاسلام من ربقة الأسر

أشد تجلي الافرنج كل ثنية ... وقلتم لأيدي الخيل مُرّي على مُسْتر

لئن نصبوا في البر جسرا فانكم ... عبرتم ببحر من حديد على ابحر

طريق تقارعتم عليها مع العدى ... ففزتم بها والصخر يقرع بالصخر

وأزعجه من مصر خوف يلزه ... كما لزّ مهزوم من الليل بالفجر

وكم وقعة عذراء لما افتضضتها ... بسيفك لم تترك لغيرك من عذر

وأيديكم بالبأس كاسرة العدى ... ولكنها بالجود جابرة الكسر

أبوك الذي أضحى ذخيرة مجدكم ... وانت له خير الذخائر والذخر

ومن كنت معروفا له فاستفزه ... بمثلك تيه فهو في أوسع العذر

فكيف أب أضحتْ نار زناده ... والا كنور البدر من سنة البدر

توفر وسط الذي كرامة ... وتحمل عنه ما يؤود من الوقر

وتخلفه حربا وسلما خلافة ... تؤلف أضدادا من الماء والجمر

وكم تمتّ في بأس ، وجود ، ورتبة ... بماسرّة في الضرب ، والدست ، والنشر

ولو أنطق الله الجمادات لم تقم ... لنصرتكم بالمستحقّ من الشكر

يد لا يقوم المسلمون بشكرها ... لكم آل أيوب الى آخر الدهر

بكم أمّن الرحمن أعظم يثرب ... وأمّن أركان الثنيّة والحجر

ولو رجعت مصر الى الكفر لانطوى ... بساط الهدى من ساحة البرّ والبحر

ولكن شددتم أزره بوزارة ... غدا لفظها يشتق من شدة الأزر

فهنيتم فتحا تقدم جله ... وبشرى أنّ الكلّ يتلو على الإثر

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤١٤

وما بقيت في الشرك الا بقيـــــــة | تتمتها في ذمة البيض والسمــــر
وعند تمام الملك آتي مهنئـــــا | وملتمساً أجر التهانة والزجــــر
ولولا اعتقادي أن مدحك قربـــة | أرجي بها نيل المثوبة والاجـــر
لما قلت شعرا بعد اعفاء خاطـــري | ولي سنوات منذ تبت عن الشعـــر
فاوص بي الايام خيرا ، فانهـــا | مصرّة بالنهي منك وبالامـــر
وجائزتي تسهيل إذني عليكــم | وملقاكم لي بالطلاقة والبشـــر (١)

وقال يمدح صلاح الدين أيضاً سنة ٥٦٦ ويذكر غزوه للداروم بقصيدة منها :

امن بني أيوب أن علوا بمــــا | تظلمت منه ان يرقوا ويشفقـــوا
غزوا عقر دار المشركين بغـــزوة | جهارا ، وطرف الشرك خزيان مطـــرق
وزاروا مصلى عسقلان بارعـــن | يغيض إناء البر منه ويفهـــق
وكانت على ما شاهد الناس قبلكــم | طرائق من شوك القنا ليس تطـــرق
وما عصمهم منك الا معاقـــل | تأتوا على تحصينها وتأنقـــوا
ليت لهم سُورة الحرب ما التقـــى | بواد ره سُور عليهم وخنـــدق
واشرفت من أعطافهم كل عامـــر | يمر به طيف الخيال فيفـــرق
أضفت الى أجر الجهاد زيـــارة الـ | ـخليل ، فابشر انت غاز موفـــق
وهيجت للبيت المقدس لوعـــة | يطول بها منه اليك التشـــوق
تنفس مرهلقاك أعظم نفحـــة | تطيب على قلب الهدى حين تنشـــق
وغزوك هذا سلم نحو فتحـــه | قريبا ، والا رائد ومطـــرق
نحو البيت ، ان تفتحه ، والله فاعـــل | فما بعد مياب من الشام مغلـــق (٢)

وقال يرثي الدولة الفاطمية بقصيدة أولها :

رميت يا دهر كف المجد بالشلـــل | وجيده بعد حلي الحسن بالعطـــل

ومنها :

يا عاذلي في هوى ابناء فاطمـــة | لك الملامة ان قصّرت في عذلـــي
بالله زر ساحة القصرين وابك معـــي | عليهما ، لا على صفين والجمـــل
وقل لاهلهما ، والله ما التحمـــت | فيكم قروحي ، ولا جرحي بمندمـــل
ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلـــة | في نسل آل أمير المؤمنين علـــي
هل كان في الامر شيء غير قسمة مـــا | ملكتم بين حكم السبي والنفـــل (٣)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤١٢ وانظر الكتب المصرية ٢٦٩ ـ ٢٧١ والكامل ١١ / ٣٠٠
(٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٩١ (٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٧٠

وقال يمدح طلائع بن رزّيك منقصيدة :

ولما تشكّى الحوف حيفا على الهدى ... وكاد الهوى يسطو عليه ضلال
نهدتَ الى الإفرنج تزجي كتائباً ... تغلّ بها أعناقهم وشمال
فولّوا وقد أبقت عليهم نفوسهم ... سباسب حالت دونهم ورمال
واتبعتهمْ ركناً على كل سابح ... اذا الريح كلّت لم يصبه كلال
جيادٌ اذا جردتها يوم غارة ... فليس لها غير الوشيج ظلال(١)

وقال يمدح أمير الجيوش شاورا عند رجوعه من حصار بلبيس والافرنج صحبته :

وتداركتْ بلبيس منك عواطف ... بيع الزمان وأهله غفرانها
أقسمتُ لولا حسنُ رأيك لاغتدى الناقوس في بلبيس وهو أذانها
بلد لو انهدمت قواعد سوره ... بيد النصارى لم يشد بنيانها ... الخ(٢)

---

(١) النكت المصرية ص ٣٠٧
(٢) النكت المصرية ص ٣٦٩

قال يمدح صلاح الدين عند وصوله إلى دمشق وملكها سنة ٥٧٠ بقصيدة أولها :

قد جاءك السعد والتوفيق واصطحبا ... لكن لأصناف هذا النصر مرتقبا

ومنها :

لله أنت صلاح الدين من أسد ... أدنى فريسته الأيام إن وثبا
رأيت جلّق ثغرا لا نظير له ... فجئتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل أما قل ناصرها ... وأزمع الخلق من أوطانها هربا
أحييتها مثل ما أحييت مصر فقد ... أعدت من عدلها ما كان قد ذهبا
هذا الذي نصر الإسلام فاتضحت ... سبيله ، وأهان الكفر والصلبا
ويوم شاور ، والإيمان قد هزمت ... جيوشه ، كان فيه الجحفل اللجبا
أبت لها الشيم الشعرية ويد ... غالة ، وفؤاد قط ما وجبا
يستكبر المدح يتلى في مكارمه ... زهدا ويستصغر الدنيا إذا وهبا
ويوم دمياط والإسكندرية قد ... أسار منهم مثلا في الأرض قد ضربا
والشام أو لم يداركه أهله اندرست ... آثاره وعفت آياته حقبا

ومنها :

هو الجواد ولكن لا يقال كعب ... وهو الحسام ولكن لا يقال نبا
وهو الهزبر ولكن لا يقال طغى ... وهو الغمام ولكن لا يقال خبا
فأنت إسكندر الدنيا ووارثها ... فاقصد ملوك خراسان ودع حلبا (١)

---

(١) الخريدة قسم الشام ١/٢٤١ ، الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٠٦
وعقد الجمان ج ١١ ق ٣ ورقه ٥٧٠

قال يمدح صاحب بصرى بقصيدة أولها :

خانَ الصريم لواصفي آرامه   وغزاله لمُتيّمٍ بجفامه

ومنها في المدح :

أسد ولكن من براثن كفه   بيض الظُّبا والسمر من آجامه
لو لم يكن أحد الضراغم لم يكن   كسر الكماة الشوس من الهامه
سائل به يوم الظليل فإنه   يوم تجلى عنه من أيامه
إذ جاءه جيش الفرنج منظما   فسطا إليه فحل عقد نظامه
وغدا يحدث في الهجا من كفرهم   بالبأس والسطوات عن إسلامه
ولمبارض القدس فيهم قوتة   سلبت ملوكهم لذيذ منامه
كم جحفل للشرك ثم بحربه   فأحل صدر الرمح صدر همامه
فبنور شمس الدين قد كشفت من الـ   ـكفر الصروف حالكات ظلامه
فالليث في سرباله والغيث بيـ   ـن بنانه والبدر تحت لثامه
ماء المنايا والمنى في كفه   بحار وفوق الطرس من أقلامه
حاز المفاخر والنهى في مهده   وسما إلى العلياء قبل فطامه
للأريحية والندى في عطفه   فمل يقصر عنه فعل مرامه
وتهز عطفيه المدائح هزة   كعواسل المران يوم زحامه
يغنيك في العام الجديب بجوده   عن غيث أبحره وجود غمامه
كرم غدا هذا الزمان لكل ذي   أمل يروض به نفوس كرامه (١)

---

(١) الخريدة قسم الشام ج ١ ص ٢٣٥

أنشد الملك الناصر صلاح الدين قصيدة منها :

سيُرتَقُ فتقُ هذا المُلكِ منه ... تواضبُ ، للرؤوس بها انتصاب
ويمرح بابوار جناب قوم ... لهم عن نصرة الدين اجتناب
فلا تقبلْ لهم ، يا عشت ، عذرا ... وإن خضعوا لديك وإن أنابوا
هم حشدوا عليك بكل واد ... عصائب ، بالضلال لها اعتصاب
وجيشا طف دعائه على اغترار ... صلاح الدين ، عاجله الجواب
بأرعن مثل رعن الطود مجر ... تضيق به من الارض الرحاب
خميس موف ترضى البيض منه ... اذ زارت ضراغمه الغضاب
تكرّ على الصقور به أسود ... عليها القنا الخطيّ غاب
كأن شار تسطلة [?] عليهم ... اذا طلعت شموسهم ضباب
فلما أقدموا للطعن ولّوا ... ولما أيقنوا بالنجح خابوا
ظفرت أبا المظفر بالأعادي ... وقلّ منهم ظفر وناب
وكانوا كالحديد ، فحين أصلموا ... صلاح الدين ، نار سطاك ذابوا
أصابوا بالهزيمة حين ولوا ... ولو وقفوا الغداة لما أصابوا
غداة هزمتهم ولوا وقالوا ... غنيمتنا السلامة والإياب

ومنها :

وما ضحكت ثغور الصم إلا ... وفيها من محاسنكم رضاب
فأوجهكم كواكبها الدراري ... وأيديكم مشاربها العذاب
صمتم بالمواسم كل شهر ... بذنب لا يقال له ذهاب [?]
أطرتم عنه عادية الأعادي ... كما طارت من الريح الذباب
وصلتم فالعذاب بكم نعيم ... وصلتم فالنعيم بكم عذاب
فيشكر منكم عنه رجال ... لهم فيكم دعاء مستجاب (١)

وأنشد في مجلس السلطان صلاح الدين يحرضه على الوحدة والجهاد ضد الاعداء سنة ٥٧١ هـ بقصيدة طويلة أولها :

لا يصدنك ما حلوا وما عقدوا ... هم الذئاب ، وأنت الضيغم الأسد
كم يخدعون بروقا ما بها مطر ... ويقصفون رعودا ما بها برد
والقوم قد قعدوا عما نهضت به ... من السداد ، فلا قاموا ولا قعدوا
فلا ثياب المعالي فوقهم جدد ... ولا طريق الأماني نحوهم جدد

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ١/٤٢٦

إياك تغفل عنهم مثل ما غفلوا
ماذا الكرى يا صالح الدين عن أرق
ولهان تزمز نار في جوانحه
لا يستطيع اهتداء فهو مرتبك
مغيب السعي لا يعتاده ظفر
فكيف يرقى خوفا وهو متسع
لما رآك وقد أقبلت تقدمها
ألقى السلاح وما غلت ظبى قضب
وراح من بعد ذاك الجمع منفردا
يطوى الحزون فيطويه وينشره
وفي شباه الذي أغمدته فلل
وحوله عزل لو أنهم قصدوا
خانوا فخانوا ، وما حازوا الذي طلبوا
لما دعوك أجبت القوم في لجب
حتى اذا ما رأوا في الدرع منك فتى
صدوا وما عطفوا ، ألووا وما وقفوا
فرقتهم فرقا فاستحلوا فرقا
عدمت ما شعبوا ، قطعت ما وصلوا
حقنت منهم دماء او تراق جرت
عفت من قتلهم يوم الوغى فنجوا
فهم عبيدك إن لانوا وإن خشنوا
وإن أساؤا فأحسنت النداة بهم
أوسعت فرعونهم لما طغى غرقا
حباية البيض والبيض الحداد له
اذا تلاحمن من السابغات به
عرمرم كالدبى الطيار منتشر
اذا تهددت الى أرض العدو به
تسمو عليه سماء من عجاجته
سماء نقع لشيطان العدو بها
وفي دياجيه نار من حوارمه
نار تشب على أيدي فطارقة
شم العوانين في أفعالهم رشد
ما جن عبقر جن كلما عزموا
من كل أروع ، أما رمحه فثمل
في كل يوم جلاد لو ألم به
شم بالشام سيوفاً من عزائمهم

إياك ترقد عنهم مثل ما رقدوا
من قبل سيفك قد أودى به السهد
يشبها القاتلان : الخوف والسهد
حيران فيه ، وفي آرائه أود
مضلل الرأي لا يقتاده رشد
أم كيف يسلم أمرا وهو مقتصد
أسدا عرائنها الاقدام والصدد
تغري الرؤوس ، ولا دقت قنا ملد
ومن نحاك بجمع سوف ينفرد
حزن له منه وجد فوق ما يجد
وفي حشاه الذي أقلقته نكد
أضحى القنا وهو في لباتهم قصد
خابوا فآبوا وما نالوا الذي قصدوا
السيف ناصره والواحد الصمد
كأنه من ثبات في الوغى أحد
ولوا وما رجعوا ، ذلوا وما أصدوا
بخاطر القرن ، والأقران تطرد
فللت ما شحذوا ، حللت ما عقدوا
منها حدود لها من هامهم حدد
ولو ترى القتل رأيا ما نجا أحد
وإن أتوا بما أوليت أو جحدوا
سنما يحدث عنه الناس والبلد
بزاخر : لجاة النقع والزبد
شلو ، وأمواجه لما طفى الزرد
على الكماة عليه من دم زبد
تحصى الرمال ولا يحصى له عدد
لم يبق من مائها غمر ولا ثمد
مبنية من قناة تحتها عمد
من الاسنة شهب كلها رصد
تكاد تقطر ماء وهي تتقد
لا يبرق الجو الا كلما رعدوا
في النائبات وفي أقوالهم سدد
ما الأسد بيشة أسد كلما وردوا
لا يستفيق ، وأما سيفه فسرد
عمرو بن ود عياء الصبر والجلد
اذا [illegible] المواضي ليس ينفد

ولا تخف فالعوالي شوكها شـــــرٌ ... حلو الجنا ، والمعالي عابها شهـــد

وأخطب بحد المواضي كل شامخـــة ... في أنفها شمم في جيدها غيـــد

فمن يكن بالمواضي خاطبا أبـــدا ... زفت اليه بلاد كلها خـــرد

هل بعد جلّق إلا أن ترى حلبـــاً ... وقد تحال منها مشكل خــــرد

وقد أتاك كما تختار طائعـــة ... وقد عنا لك منها الحصن والبلد . (١)

وقال يهنئ صلاح الدين بفتح حصن بيت الأحزان سنة ٥٧٥ هـ :

حللت فكنت الالمعيّ المســــدّدا ... وسرت فكنت القمري المؤيـــدا

وتمت بأعباء الممالك ناهضـــا ... فاقصدت أعداء ولم تخط مقصـــدا

تعودت ضرب السيف والطعن بالقنـــا ... وكل امرئ مغرى بما قد تعـــودا

نصرت الهدى لما تخاذل حزبــــه ... فناداك حزب الله يا ناصر الهـــدى

فنبهت لدين أنت حقا صلاحــــه ... فأرضيت لما ان غضبت محمـــدا

فيا يوسف الخير الذي في يمينـــه ... من الخير ما قد غار فينا وأنجـــدا

وصلت لدى سلم وصلت لدى وغــــى ... ففقت جميع الناس بالبأس والنـــدى

وقدت الى الاعداء جيشا عرمرمـــا ... اذا أبرقت فيه الصوارم أرعـــدا

فلم تبق للطغيان شملا مجمّعـــاً ... ولم تبق للإيمان شملا مبـــدّدا

فناهيك من جيش نهضت بعبئــــه ... فأقعدت لما أن نهضت به العـــدى

حملت ذبالا في ذوابل سمــــره ... فلما دجى ليل العجاج توقـــدا

وزرت بها الحصن الذي لو تحصنـــت ... فوارسه بالنجم أوردته الـــردى

قسمت به سلب الصليب ورعبــــه ... وشهدته لما غزا فتشهـــدا

هببت اليه هبة يوسفيـــــة ... تصيد هباء كل ما كان جلمـــدا

وقربها قد قضه من سهامـــه ... نواجذ ثغر المشرفيّ وقـــدّدا (٢)

وقال يصف غارته على غزة سنة ٥٧١ ، وعوده من ذلك الغزو بالعزة بقصيدة مطلعها :

وقفت وأنضاء المطيّ ضحى تمطـــو ... وقوفي وأنحى على قرية الشمـــط

ومنهـــا :

فتى مذ غزا بالخيل والرجل غـــزّةً ... نأى عن نواحيها الرضا ودنا السخـــط

رماها بأسد مالهن ترابـــض ... ولا أجم إلا الذي ينبت الخـــط

وطاف نواحيها ضحى بكتائـــب ... من الترك ، لا روم طغام ولا قبـــط

رماهم بأمثال السراحين شزبـــا ... عليها أسود بل أساودة رقـــط

وطاحت على تلك الرمال جسومهـــم ... ففي كل سقط من جماجمهم سقـــط (٣)

---

(١) الخريدة قسم شعراء الشام ١ / ٤١٢

(٢) الروضتين ٢ / ١٢

(٣) الخريدة قسم شعراء الشام ١ / ٤١٦ والروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٤٦

وقال يصف دمشق ، ويحرّض صلاح الدين على الجهاد بقصيدة طويلة أولها :

حييتِ أعطاف القدود ببانها ... لما أنثنت تيهاً على كثبانها

وبعد الغزل والوصف يقول في صلاح الدين :

وفتىً اذا زخرت بحار نواله ... غرقت بحارُ الارض في خلجانها
غيث يكرّ من الظبى بصواعق ... ماءُ الردى يجري على نيرانها
بصوارمٍ أجفانها قمم العدى ... لا ما كساها القين من أجفانها
فضية ذهبية فلجينها ... يختال يوم الروع في عقيانها
محمرةٌ بدم الفوارس خضرة ... فالورد منثور على ريحانها
من كل لامعةٍ بليل قتامها ... كالنار لامعة بليل دخانها
تلك السيوف المرهفات بكفّه ... أمضى على الإيمان من حدثانها
تنصبّ إذا اقترنت كواكب بيضها ... بكريهة كانت ردى أقرانها
مهزوزةَ الضرب في يد ماجد ... ضرب أطاح الروع عن أبدانها
ملك اذا جليت عرائس ملكه ... رصعت فريد العدل في تيجانها
واذا جحافله أثرن سحائبا ... لمعت بروق النصر في أحضانها
من كل شهباء الحديد كأنما الا ـــــــ سوار ماثلة على شجعانها
وكتيبة كم قد كتبن لها الظبى ... كتبا يلوح النصر من عنوانها
واذا ذوابله هززنَ رأيتها ... والموت مشتملٌ على خرصانها
من كل جاثلةٍ بكل كريمة ... رأسَ الفتى رأسا على خطانها
سمراء لا يثني حطياً سد رأسها ... الا ومن نحر لها لسانها
واذا صواهله نزعنَ حسبتها ... ما دلّت يوم الروع من أرسانها
من كل سلهبةٍ ألمّ بها الطوى ... حتى طواها الضمرُ طيّ عنانها
جرداء تلتهم البروق اذا دنت ... وتفوت ما قد فات من لمعانها
خيل هي العقبان في طيرانها ... لا بل هي السيدان في عسلانها
فالشهب ما حملته في أرماحها ... والشهب ما نقلته في عدوانها
كم قد نهضنَ أبا المظفر غائراً ... والأُسْدُ صائلة على عقبانها
متواثبات للطعان ، فاذ كبَتْ ... تلك العتاقُ الجردُ يوم طعانها
عقدت سنابكهنّ بالهمم التي ... أشطانهنّ تنوب عن أشطانها
همم رقت بك فارتقيت من العلى ... رُتباً ، فكان الشمس دون مكانها
أقسمت ما شدتَ من أركان الهدى ... الا بما شيّدتَ من أركانها
فافخر فلو روّعت رومية بها ... خرّت كنائسها على رهبانها
او لو بها سيّحتَ قسطنطينية ... نقضت ما رفعته من صلبانها
فانهض الى فتح السواحل نهضةً ... قاد تلك الاعداءَ بعد حرانها
وأسامةَ الدين وأبنَ لدولةٍ ... ذلّت لدولتها ملوكُ زمانها
خضعت لها الشجعان عند نزالها ... وعنت لها الأقران عند قرانها ...(١)

---

(١) الخريدة قسم شعراء الشام ج١ ص٤٠٦ والروضتين ج ١ ق ١ ص ٦٤٦

قال يصف توجه صلاح الدين الى حلب سنة ٥٧٠ وفتحهـــا :

سرى ما بيننا سر النسيب   يبشرنا بنصرك عن قريب
ركبت الى الحروب جياد عزم   مصرفة عن الرأي المصيب
تبسمت البلاد اليك أنسا   وكانت قبل موحشة القطوب
لقد ولت شمال الشرك لما   أنار الدين من أفق الجنوب
تركت صوارم الاعداء فيها   مخرقة المدارع بالحروب
تكاد قلوبهم بالخوف منها   تطير عن المساكن بالوجيب
وما سهرت رماحك فيه الا   لترتد في الترائب والجيوب
عصت حلب وقاتل ساكنوها   وليس قتالهم لك بالعجيب
لانك ناصر الاسلام حقا   وشمس وسط المنيرة أو شهيب
وقد قالت سعودك عن قريب   اليك أسوقهم سوق الجنيب
جهادك أن طلبت الغزو فيهم   أهم اليك من غزو الصليب
فزر باب العراق وما يليه   بكل مزنر طرب الكعوب
وفجر منبع الاوداج حتى   تخوض الخيل في العلق الصبيب
ترى الاسلام قد وافاك يعدو   الى لقياك مشقوق الجيوب
وقد نادى مؤذنهم فنادى   ليوث الغاب : حي على الحروب
أناسي دبت الاغلال فيهم   وليس لهم كسيفك من طبيب
وقد ولى الوزير وعن قريب   سينقلب الوزير الى القليب
أحاط بجمعهم في كل ناد   ظلام الكفر في ليل الذنوب
وقد أطلعت شمس النصل فيهم   على أعناقهم شفق الغروب
فلا يغرركم أن كف عنكم   فان الأسد تجثم للوثوب
اذا ابتسمت سيوف الهند يوما   فبسمها يدل على النحيب
ولم يذخرك نور الدين الا   لتدفع عنه نائبة الخطوب
فخلص ابنه بالسيف منهم   فقد حبسوه في بلد جديب
يبيت وقلبه المحزون أشهى   الى لقياك من نعم الحبيب
صغير بينهم ، لا بل أسير   غضيض الطرف محبوس النصيب
تذكر عهده وأحنق عليه   ونفّر عنه تشييب الكروب
ولا يغررك من يوليك ودا   ويلوى عنك أجفان المريب
أتيتك والرماح تخب نحوى   وخضت عجاجة اليوم العصيب
رأيت كواسر الابطال حولي   محددة المخالب والنيوب
وسرت اليك محزونا فلما   رأيتك قلت للاحزان : غيبي

رأيت المارقين ومن يليهم … جميعا من عصي أو مجيب

اذا غنت صواهلهم وأبدى … لها الخطي أخلاق الطروب

نراها عاينت نارا فأبدت … تهالكها على جمر اللهيب

فأوسع بلحن من عاداك ظلما … كما وسَّعت رزق المستثيب

ألمّتني الهموم بأرض قوم … بما فعلوا وأخذ لني كروب

وها قد قمت من قبري لتحيا … بقربك مهجة المَيْت الغريب

وقد هاجرت إنكارا لما قد … رأيت من المثالب والعيوب

ولي دهر يراقبني فارصد … بلحظ منك الحافظ الرقيب

وشمس تحرق الحسّاد كُبْتا … وشكيي وصف ذي اللسن الخطيب

علت في أوجها وحضيض حظي … يجاذ بها بأرسان لمغيب (١)

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ج١ ص ٣٠٠ ـ ٣٠٤

الحافظ بن عساكر — ٥٧١

قال يمدح نور الدين سنة ٥٦٤ وكان نور الدين قد أعفى أهل الشام من المطالبة بالخشب :

لما سمحت لاهل الشام بالخشب — عوضت مصر بما فيها من النشب
وان بذلت لفتح القدس محتسبا — للاجر ، جوزيت خيرا غير محتسب
والاجر في ذاك عند الله مرتقب — فيما يثيب عليه خير مرتقب
والذكر بالخير بين الناس تكسبه — خير من الفضة البيضاء والذهب
ولست تعذر في ترك الجهاد وقد — أصبحت تملك من مصر الى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل — لما تريد فبادر فجأة النوب
فأحزم الناس من قوى عزيمته — حتى ينال بها العالي من الرتب
وقد بلغت بحمد الله منزلة — عليه فاقصد العالي من القرب
فالجد والجد مقرونان في قرن — والحزم في العزم والادراك في الطلب
وطهر المسجد الاقصى وحوزته — من النجاسات والاشراك والصلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا — وفي القيامة تلقى حسن منقلب (١)

---

(١) الخريدة قسم شعراء الشام ١ / ١٧٧ ، الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٠٥

ابن الزغيلـــــة

قال يمدح الصالح بن رزيك سنة ٥٥٤ بقصيدة مطلعهـــــا :

أبنكا لو أن نائبة تعـــــرو ... تفرج بالشكوى اذا غلب الصبـــر

ومنهـــا :

من القوم ان أبدوا أعادوا ، وان عدوا ... أبادوا ، وان أجروا الى غاية جـــروا
بحور اذا أجدوا ، بدور اذا بـــدوا ... ليوث اذا كروا ، غيوث اذا بـــروا
اذا قيل هذا صائل الدهر اتقـــوا ... وان عرضت أحدى الدنايا لهم فـــروا
تحلي المنايا والاماني أمرهــــم ... فان حاربوا ساءوا وان سالموا ســـروا

أيا كاشف الغماء ان جل فـــــادح ... ويا مسبغ النعماء ان مسنا ضـــر
حفظت ثغور المسلمين ، وصانعـــت ... صروف الردى عنهم مناقبك الغـــر
فلا دولة الا وأنت مقيمهـــــا ... ولا دولة الا وأنت لها ذخـــــر
ولا يقتر الا وأنت له غنـــــى ... ولا عسر الا وأنت له يســــــر
فهنئت الايام منك بمالـــــك ... به أنتصر الاسلام وأنخذل الكفر (١)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ج ١ ص ٣١٠

قال ابن سعدان يمدح السلطان ويذكر ما فعله على عسقلان ويهوّن عليه أمر كسرتها بقصيدة منها :

ترنّت من عسقلان كل نائحة ... باتت تقلّ بهوكان من الأسل
ناحت النجيع عليها وهي محلسة ... فأصبحت مرتعاً للخيل والإبل
قل للفرنجة الخذلى : رويدكم ... بالنار أو تمحي الشعرى من الشمل
ترقبوها من الثوار طالعة ... خوارق الأرض تمحو رونق الأسل
كأنني بنواصيهن يقدمها ... كأسٌ من الجود عريانٌ من البخل
حسب العدى يا صلاح الدين حسبهم ... أن يقرنوك بجوج غير منفصل
وهل يخاف لسان النحل ملتمس ... مرت على أسبحيه لذة العسل ؟ (١)

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٧٠٤

قال يمدح عز الدين فرخشاه في القاهره سنة ٥٧٣ :

أنت الذى جاهدت عن دين الهدى ... فأعزّ نصرك ناصر لا يخذل
وأزرت أرض الشرك أطراف القنا ... حتى غدت من خيفة تتزلزل
وبالمنا لاغماد خاطبت العدى ... فأجابها فتح أغر محجل (١)

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ١/ ٥٥

الامير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العراقي

هنيئاً صلاحَ الدين بالفتح والنصر ... ونَيْلِ الأماني الغرّ والفتكة البِكْر
وما حُزْتَ فيها من فخارٍ ومن عُلاً ... وحسنِ ثناً يبقى الى آخر الدهر
سموت لها بالمشرفيّة والقنا ... سموّ أبيٍّ لا ينام على وَتْر
وصلتَ بها حبل المفاخر مثلما ... قطعتَ بها يوم الوغى دابرَ الكفر
هتكتَ بياضَ الصبح وهو سوادهم ... وخضتَ سوادَ الليل وهو دمٌ يجري
وقد عرف الإفرنج بأسك في الوغى ... وجرّعتهم منه أمرّ من الصبر
وظنوا بناء الحصن صوناً لملكهم ... فأصبح بالشحواء منهتك الستر
فما قبضت منهم يد الغدر قطّت ... أناملها الا على سلقة الخصر
فيا الفتكة الغرّاء لا زلت قائماً ... بأمثالها في الدين في السرّ والجهر
وأصبح في أقصى خراسان ذكرها ... وفي كل قلب منه جيش من الذعر
فلا ترضَ منهم بعدها بذل طاعة ... فما خلقوا الا على شيمة الغدر
فمر وابل الارض التي لو تركتها ... لأغضت عيون المجد منها على أمر
فيا آل أيوب حويتم مناقباً ... بأشخصها تعلو على الأنجم الزُّهْر
اذا عُدّ أرباب الفخار فانتم ... ذووا الفيئات الغرّ والنائل الغَمْر
وأنت الذي أصبحت بالبأس والتقى ... وبذلِ اللُّهى عالي السنا عَطِرَ الذكر (١)

---

(١) الروضتين ٢/١٢

الجمال الواسطي (أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب المقرى)

قال يمدح السلطان بعد إخضاع ملك الأرمن ابن لاون سنة ٥٧٦ه بقصيدة منها :

لقد جعل الله ذلك الــــورى ... باوفى مليك وفيّ شجعـــان
تهشّ الى نفحات السيـــو ... ف في المها لانشطا لقيـــان
ازرت ابـــن لاون لاواءه ... فانحى به شبرا عزيمـــان
ودان من الذل لا يرعـــوي ... حذاراً من الراعفـــات اللـــدان
فلا تدم عنده للثبـــا ... ت وليس له بعساكم يـــدان
وأخلى اليكم مناقـــيره ... وغادر للهدم تلك المبانـــي
وأرسل بالاسراء العنـــا ... ة يسأل إطلاقـــه فهو عـــان
رتقـــت بعزله والكرمـــات ... فتوقـــا من الأرتقـــيّ الهجـــان (١)

---

(١) الروضتـــين ٢ / ١٦

أبو الحسن ابن الذروي

قال في الحاجب لؤلؤ قائد الاسطول المصري الذي لحق الفرنج حين غزوا الحجاز :

يا حاجب المجد الذي ماله ... ايمن عليه في الندى حَجَبَه
ومن دعوه لؤلؤاً عندما ... صحّت من البحر له نسبته
لله من تحمل من عالج ... فيه وما تظهر من حسبته
كفيت أهل الحرمين الصدى ... وذدت عن أحمد والكعبة (١)

وقال أيضا فيه :

مر يوم من الزمان عجيب ... كاد يبدي فيه السرورَ الجماد
اذ أتى الحاجب الاجل باسرى ... قرنتهم في طيها الاصفاد
بجمال كأنهن جبال ... وعلوج كأنهم أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدّى ... هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الاعادى ... وسواه من اللآلي يُصاد (٢)

وقال يمدح صلاح الدين ويذكر ملك الفرنج مرى بقصيدة منها :

ولكم أشمت الروم أشام بمارق ... أضحت مياه نفوسها من قطره
وأتاك بحر دروعها عن مدّه ... ومضى وقد حكمت ظباك بجزره
ولقيت مرّاً وطعم حياته ... حلوٌ فبدله القتال بمرّه
فأعد اليه الرأي في عذب القنا ... وأحلل بها عجلاً معاقد مكره
وأطرده من وكر الشآم فإنه ... قد طار منه بخافق من ذعره (٣)

وقال يمدح صلاح الدين بعد انتصار حطين بقصيدة منها :

شرحت لمتن الدين بالسمر والظبى ... من المجد معنى كان من قبل يغمض
وما كاد جيش الروم يرم كيده ... الى أن سرت منك المهابة تنقض
حميت ثغور المسلمين فأصبحت ... ثغورا بأمواه الحديد تمضمض
أسرت ملوك الكفر حتى تركته ... وما فيه عرق عن قوى النفس ينبض (٤)

---

(١) الروضتين ١/ ٣٦

(٢) الروضتين ١/ ٣٦

(٣) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٩٦

(٤) الروضتين ٢/ ٨٢

قال يصف نزول الفرنج على مصر ، ويمدح شمس الدين تورانشاه بن أيوب وآل أيوب :

ولما دُعوا من مصر لبّوا دعاءنا ... على كل نهد لين السنق يعبوب

فأروى كماة الروم شدة بطشهم ... فهم بين مطلول الدماء ومطلوب

فلست ترى في عصبة الشرك حاملا ... صليبا ولاعلجا لهم غير مصلوب

وحسبهم ذاك الطعان الذي غدت ... بهم خُضّداً فيهم صدور الانابيب

وظل عميد الروم من حذر السروى ... يؤمّ طريقا بينهم غير ملحوب

ونكب عن مصر وولى بمنكب ... جريح بأنياب النوائب منكوب

وقد كاد دين الله يخفت نوره ... ويرمى بتبديل وشيك وتقليب

فحصّنتموه بالامنتوا لظبى ... وتصميد آراء كفته وتصويب

فلست ترى الا محاريب في وغى ... حدوا بيضة الاسلام أو في محاريب (١)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ١٠ / ١٧١

ابن أسعد الموصلي ٥٨١ه
(ابن الدهان)

قـال :

أبدى عذارك اذا تبـدى … عذرى وصـار هواك جـدا

ومنهـا :

ملك أنامله علـى الـ … ـعافي من الانداء أنـدا

من آل غسان الأُلـى … فضلوا الورى بأسا ومجـدا

حسن السريرة لم يـزل … لله مـا أخفـى وأبـدا

ماض على الاعـداء لا … فلت له الاعداء حـدا

ملأ الفضاء عليهـم … عددا وسد الارض سـدا

كالبحر يجري خلفهـم … سفنا وفوق الارض جـردا

…………………… ……………………

هول أشاب صغارهـم … وأتوه شيب الراس مـردا

أغنيتهـم وورثتهـم … مالا وملكـتوولدا … (١)

وقال يمدح صلاح الدين بقصيدة طويلة مطلعهـا :

أما وجفونك المرضى الصحـاح … وسكرة مقلتيك وأنت صـاح

ومنها :

ترنت شجاعة وتقى وعلمـا … الى كرم الخلائق والسمـاح

وقد أثنت عليك ظبى المواضـي … كما تثني بألسنة الرمـاح

وكم نتجت حروب القحتهـا … سيوفك والنتاج عن اللقـاح

وكم لظباك من يوم اعتنـاق … من الاعداء أو يوم اصطبـاح

وكم ذللت من ملك عزيـز … وكم دوخت من حمى لقـاح

تبيح حمى الملوك وتستبيـه … وما تحميه ليس بمستبـاح

وما خضع الفرنج لديك حتـى … رأوا ما لا يطاق من الكفـاح

وما سألوك عقد الصلح ودا … ولكن خوف معلمـة رداح

ملأت بلادهم صهلا وحزنـا … أسودا تحت غابات الرمـاح

على معتادة جوب المواضـي … دواح بالملا بيض الاداحـي

فحلوا أرض نابلس وفيهـا … نواح ليس تخلو من نـواح

---

(١) ديوانه ص ٢٠٠

فكانوا هؤلوا بالحشد جهــــــلا   وما تخشى الأسود من النبــــاح

وهم في تولهم إنا نلاقــــــي   صلاح الدين أكذب من سجــــاح

ألا يا سيلُ مخجل كلّ سيــــل   تظلّ المحجرات لفواضــــي

ويا غيثَ البلاد اذا تشمــــرت   وضن الغيث في شهري تمـــاح

تركتُ بني الزمان فلم أسلهــــم   ولم أر أدله أهل امتداح ... الخ (١)

وقال يمدح صلاح الدين بقصيدة مطلعهـــا :

أعلمت بعدك وقفتي بالاجــــرع   ورضى طلولك عن دموعــي الهمّــع

ومنها :

جمع الجيوش فشتّ شمل عداتــــه   ما فرق الأعداء مثل تجمــــع

لهيبته عن نصره خافـــــاه   علم العدو و لابعاد الموضــــع

بجحافل مثل السيول تدافعــــت   واذا السيول تدافعت لم تدفـــع

منتبّع تلكمْ أرجتْ لهــــا الحمد   (م)   نها لطيب شذى لها متضـــوع

المرضين اذا تمرّض ملمـــع   والمقبلين اذا دعوا في مفـــزع

والناثرين الهام يوم بيضــــه   والخارقين خاعفـــات الادرع

توم اذا يقع الصريخ تبــــادروا   نحو الحمام بكل أبلـــج أروع

لا يغزون الروم بعد ديارهــــم   ان الخليج لديك أقرب مشـــرع

لو أن مثل البحر سبعة أبحـــر   من دونهم وازدتهم لم تمنـــع

كم وتفة لك في الوغى محمـــودة   أبداً وكم جود حميد الموقـــع

والطير من ثقة بأكل مشبـــع   تبعت جيوشك فوق غاب مسبـــع

والناس بعدك في المكارم والعلــى   رجلان : إما سارق أو مدّعي ... الخ (٢)

وقال يمدح طلائع بن رزيك سنة ٥٦٥ ، بقصيدة مطلعها :

أما كفاك تلافي في تلافيكـــا   ولست تنقم إلا فرط حبيكـــا

ثم يقول :

يا كاشف الغمة الكبرى وقد نزلــت   يشعب شمل العلا لولا تلافيكـــا

برزت سبقا فما داناك في أمــد   خلق قديما ولا خلق يدانيكـــا

أرتْ مساعيك سُبْل المجد جاهلهـــا   فلو سعى كان أيضا من مساعيكـــا

ينافك الملك ناء عنك منزلــــه   ويقتر المرء عن بعد يرجوكـــا

يشكو اليك بنو الآمال فقرهـــم   فيثنون وبيت المال يشكوكـــا

---

(١) ديوانه ص ٥٩ ـ ٦٩ وانظر الروضتين ١٠/١٦ وضمار الحقائق ٢٤٠

(٢) ديوانه ص ٣١ ، ضمار الحقائق ٢٤٠

وفيلق يملأ الأقطار ذي لجب   يضحي له ثابت الأطواد مدكوكا
من كل أغلب تلقى عرشه حرما   موقرا وتلاقي المال منهوكا
سن الحديد عليّ كالماء شيمته   مثل الحديد براه الله فتيكا
صمّ عن الذام لا يأتون داعية   فان دعوت الى حرب أجابوكا
بعثتهم نحو جيش الشراك فانبعثوا   يرون أكبر غنم أن أطاعوكا
ساروا الى الموت قدما كأنهم   رأوا طريق فرار قط مسلوكا
فأوردوا السمر شربا من نحورهم   وأوطأوا الهام بالقاع السنابيكا
ضربا وطعنا يقدّ البيض محكمة   ويخرق الزرد الماذي محبوكا
وبات في كل صقع من ديارهم   نوح على بطل لولاك ما شيكا
أمسوا ملوكا ذوى أمر فصبّحهم   أسد أتوك بهم أسرى مماليكا
ولم يفتهم سوى من كان معقله   مطهّما حثه ركضا وتحريكا
يا كعبة الجود إن الفقر أقعدني   ورقة الحال عن مغروض حجيكا
قد جاد غاديك لي جودا وأطمعني   سماحة فيك في استمناء ساريكا ... الخ (١)

وقال يعتذر عن كسرة نور الدين تحت حصن الأكراد سنة ٥٥٨ ويمدحه :

ظبى المواضي وأطراف القنا الذبل   ضوامن لك ما حازوه من نفل
وكافل لك كافٍ ما تحاوله   عزّ وعزم وبأس غير منتقل
وما يسيئك ما نالوه من سلب   بالختل ، قد توتر الآساد بالحيل
وانما أخلدوا جبنا الى خدع   اذ لم يكن لهم بالجيش من قبل
واستيقظوا وأراد الله غفلتكم   لينفذ القدر المحتوم في الأزل
حتى أتوكم ولا الماذيّ من أمم   ولا الظبى كثب من موثق عجل
تنا لقيّ وقسي غير موترة   والخيل عازبة ترعى من الهمل
ما يصنع الليث لا ناب ولا ظفر   بما حواليه من عفر ومن وعل
هلا وقد ركب الأسد الصقور وقد   سلوا الظبى تحت غابات من الأسل
من كل ضافية السربال ضافية السـ   ـقذاف بالنبل فيها القذف بالنبل
وأصبحوا غرقا في أرضهم بسدوا   يجوس أد ناهم الأقصى على مهل
وإنما هم أضاعوا حزمهم ثقة   بجمعهم ولكم من واثق خجل
بني الأصافر ما نلتم بمكركم   والمكر في كلّ إنسان أخو الفشل
وما رجعتم بأسرى غاب سعيكم   غير الأراذل والاتباع والسفل
سلبتم الجرد معراة بلا لجم   والسمر مركوزة والبيض في الخلل
هل آخذ الخيل قد أردى فوارسها   مثال آخذها في الشكل والطول
أم سالب الرمح مركوزا كسالبه   والحرب دائرة من كفّ مستقل
جيش أصابتهم عين الكمال وما   يخلو من العين الا غير مكتمل
لهم بيوم حنين أسوة وهم   خير الأنام ومنهم خاتم الرسل

---

(١) الخريدة قسم الشام ١ / ٢٨٢ ـ ٢٨٤ وأنظر الروضتين ج١ ق ١ ص ٦١٥ وديوانه ص ٢١٩

سيقتضيكم بضرب عند أهونه ... البيض كالبيض والآراء كالحلل
ملك بعيد من الأدناس ذو كلف ... بالصدق في القول والإخلاص في العمل
فالشمس ما أصبحت والشمس ما أفلت ... والسيف ما فل والأطواد لم تزل
كم قد تجلت بنور الدين من ظلم ... للظلم وانجاب للإضلال من ظلل
وبلدة ما ترى فيها سوى بطل ... غزا فأضحت وما فيها سوى طلل
قل للموليّن كفّوا الطرف من جبن ... عند اللقاء وغضّوا الطرف من خجل
طلبتم السهل تبغون النجاة ولو ... لذتم بملككم لذتم الى جبل
أسلمتموه ووليتم فسلمكم ... بثبتة لو بناها الطود لم ينل
حسارين ولم تنثل كنائنكم ... والسمر لم تبتذل والبيض لم تذل
ولا طرقتم بويل النبل طارقة ... ولا تساقت الأسياف في القلل
فقام فردا وقد دلّت جحافله ... فكان من نفسه في جحفل زجل
في مشهد لو ليوث الخيل تشهده ... خرّت لأذقانها من شدة الوهل
وحط المدى وحدثت الجنان وقد ... طارت قلوب على بعد من الوجل
يعود عنهم وحيدا غير مكترث ... بهم وقد كرّ فيهم غير محتفل
يزداد قدما اليهم من تيقّنه ... أن التأخّر لا يحمي من الاجل
ما كان أقربهم من أسر أبعدكم ... لو أنهم لم يكونوا منه في شغل
ثباته في صدور الخيل أنقذكم ... لا تحسبوا وثبات الضمّر الذلل
ما كل حين تصاب الأسد غافلة ... ولا يصيب شديد البطش والفشل
والله عونك فيما انت مزمعه ... كما أعانك في أيامك الأول
كم قد ملكت لهم ملكا بلا عوض ... وحزت من بلد منها بلا بدل
وكم سقيت العوالي من طلى ملك ... وكم قريت المواضي من قرا بطل
وأسمر من وريد النحر مورده ... وأبدل أكله من لحم منجدل
حصيد سيفك قد أعفيته زمنا ... لو لم يطل عهده بالسيف لم يحل
لا أنكبت سهمك الأقدار عن غرض ... ولا ثنت يدك الأيام عن أمل (١)

---

(١) الخريدة قسم الشام ٢٨٩/٢ ــ ٢٩٢ وأنظر الروضتين ج ١ ق ١ ص ٣٢١ وديوانه ص ٧٠ ــ ٧٢

قال يمدح السلطان صلاح الدين بأنتصاره على الفرنج في معركة قرب البقاع سنة ٥٧٥ بقصيدة أولها :

لك رب السماء خير معـــين   وكناه بما تحب ضمـــين
نيله المجد أيّ نصر عزيـــز   قد حبانا به وفتح مبـــين
أرك الثأر حين نازلـــه المنصـــوار ، حيث الكفار ليث العريـــن
الهمام المظفـــر الملك النـــا   صر مولى الورى صلاح الديـــن
يا مليكاً أضحى الزمـــان ينا جـــيه بلفظ المذلل المسكـــين
قذفت أهلها الحصون السيـــبا   ملك حتى عوضتهم بالسجـــون
وأراهم رب السما بأسيـــا   فك ما لم يَجُلْ لهم في ظنـــون
لك قلب عند اللقاء مكـــين   وله من تقاه ألف كمـــين
يا مليكاً يلقى الحروب بصـــول الـــله مستصحباً وصدق اليقـــين
إن هذا الفتح المبين شفـــاء   لصدور وقرّة لعيـــون
هو يوم أضحى كيوم حنـــين   سهّل الله نصره في الحـــزون (١)

وقال في فتوحات سنة ٥٨٢ :

جُنْدُ السماء لهذا الملك أعـــوان   من شكّ فيهم فهذا الفتح برهـــان
متى رأى الناس ما نحكيه في زمـــن   وقد مضت قبل أزمان وأزمـــان
هذا الفتوح فتوح الأنبياء ومـــا   له سوى الشكر بالأفعال أثمـــان
أضحت ملوك الفرنج الصيد في يـــده   صيداً ، وما ضعفوا يوما وما دانـــوا
كم من فحول ملوك غودروا وهـــم   خوف الفرنجة ولدان ونسـوان
أسترخت بمليكها طرابلـــس   فخاضها وسمت منـــه آذان
هذا وكم ملك من بعده نادى الإســـلام يطوى ويحوى وهو سكـــران
تحصون عاما بلاد الله تحصـــن والإســـلام أنصاره شمّ وعيـــان
فالآن لبّى صلاح الدين دعوتهـــم   بأمر من هو للمعوان معـــوان
للناصر أدّخرت هذي الفتوح ومـــا   سمت لها همم الاملاك مذ كانـــوا
حباه ذو العرش بالنصر العزيز فمـــا   ل الناصر داود هذا أم سليمـــان
في نصف شهر غدا للشرك مصطلمـــاً   فطهرت منه أقطار وبلـــدان
فأين مسلمة عنها وأخوتـــه   بل أين والدهم ، بل أين مـــروان
وعدّ عما سواه فالفرنجة لـــم   يبدهم من ملوك الارض إنســـان
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقـــد   تنزّلت فيه آيات وقـــرآن

---

(١) الروضتين ٢ / ٦

قال يمدح صلاح الدين بقصيدة طويلة أولها :

حتّام أرضى في هواك وتغضـــب … وإلى متى تجني عليّ وتعتـــب

ومنها :

ذلّت أخلاق الزمان لأهلـــه … فأطاع ، وهو الجامح المتغضّـــب
واتمتّ سوقاً للمدائح بعدمـــا … كانت إليه أغاني القصائد تجلـــب
ونهضت للإسلام نهضة صـــادق … العزمات ، تراب من بناه وتشعـــب
وغضبت للدين الحنيف ولم تـــزل … في الله ترضى منذ كنت وتغضـــب
غادرت أهل البغي بين مجنـــدل … لقي الحمام ، وهائم يترقّـــب
أو هارب ضاقت عليه رحبـــها الا … رض الفضاء ، وأين منك المهـــرب
فأصبح بلاد الروم منك بغـــارة … النصر فيها رائد لا يكـــذب
وأرم الكنائس من سطاك بصـــاعق … متأرّج نيراً نتلهّـــب
وأرفع بها للمسلمين منابـــرا … باسم الخليفة ثم باسمك يخطـــب
واقرع بحيّ على الفلاح مسامعـــا … تصبو إذا ذكر الصليب فتطـــرب
لا تبق زناراً يشد بها علـــى … علج ولا ناقوس دير يضـــرب
واحمد لحرب المشركين مهذبـــا … بالسيف من بسواه لا يتهـــذب
لا تعفونّ إذا ظفرت بمجـــرم … منهم فرب جريمة لا توهـــب (١)

وقال يمدح صلاح الدين ويذكر هزيمة الفرنج سنة ٥٧٠ :

فأصبحت بالدوّ أشلاؤهـــم … يشبع منها النسر والسيـــد
جيوشهم بالرعب مفلولـــة … وزرعهم بالسيف محصـــود
جهاد من لم يبق يوما لـــه … في نصر دين الله مجهـــود
ومن تبقّاه الردى منهـــم … في الأسر مكبول ومصفـــود *
فأبشر بنصر عاجل يومـــه … بالنصر في الأعداء مشهـــود
وأنصت لها عذراء بيت الدلـــى … بمثلها والفخر محمـــود (٢)

---

(١) مضمار الحقائق ص ١٩٣ – ١٩٤

(٢) ديوانه ص ١١١

(*) حذفت من الديوان خمسة أبيات وقد تعمد المحقق ذلك

وقال يمدحه أيضا :

يغلنني الاعادى كل كريهة ... يشوى الوجوه حريقها المتضرم
يزجي لهم سحب الحمام رعودها ... زجل الكماة ، وصوب عارضها الدم
فزمانهم بالرعب منه ليلة ... ليلاء أو يوم عبوس أيوم

قال يمدح صلاح الدين سنة ٥٧٥ بقصيدة أولها :

إن كان دينك في الصبابة ديني ... فقف المطيّ برملتي يبرين

ثم قال بعد تمام الغزل :

ليت الضنين على المحبّ بوصله ... لقن السماحة من صلاح الدين
ملك اذا علقت يدٌ بذمامه ... علقت بحبل في الحفائظ متين
قاد الجياد معاقلا وان اكتفى ... بمعاقل من رأيه وحصون
سهرت جفون عداه خيفة ماجد ... خلقت صوارمه بغير جفون
لو انّ لليث الهزبر سطاه لم ... يلجأ الى غاب له وعرين
أضحت دمشق وقد حللت بجوّها ... مأوى الطريد وموئل المسكين
لك عفّة في قدرة وتواضع ... في عزة وشراسة في لين
وأريتنا بجميل عفوك ما روى الـ ... ـراوون عن أمم خلت وقرون
وضمنت أن تحيي لنا أيامهم ... بالمكرمات فكنت خير ضمين
. . . .
لله ما اشتملت عليه قبابهم ... يوم النوى من لؤلؤ مكنون
من كل تائهة على أترابها ... بالحسن غانية عن التحسين
خود ترى قمر السماء إذا بدت ... ما بين سالفة وبين جبين
غادين ما لمعت بروق ثغورهم ... إلّا استهلّت بالدموع جفوني
. . . .
كاد الأعادي أن يصيبك كيدها ... لو لم تكدك برأيها المأمون
تخفي عداوتها وراء بشاشة ... تنشف عن نظر لها مشفون
دفنت حبائل مكرها فردتها ... تدوي بغيظ صدورها المدفون
وعلمت ما أخفوا كأن قلوبهم ... أفضت اليك بسرها المخزون
كمنوا وكم لك من كمين سعادة ... في الغيب يظهر من وراء كمين
فهوت نجوم سعودهم وقضى لهم ... بالنحس طائر جدك الميمون (١)

---

(١) ديوانه ص ٤١١ الروضتين ١/ ١٠ ومضمار الحقائق ص ٢١

يا قبحَ أوجه عباد الصليب وقد　　　غدا يبرّقها شؤمٌ وخذلان

خزنت عند إله العرش سائر ما　　　ملكته وملوك الأرض خزان

فالله يبقيك للإسلام تحرسه　　　من أن يُضام ويلفي وهو حيران

وهذه سنة أكرم بها سنةٌ　　　فالكفر في سِنةٍ والنصر يقظان

يا جامعاً كلمة الإيمان قامع من　　　معبوده دون رب العرش صلبان

اذا طوى الله ديوان العباد فما　　　يطوى لأجر صلاح الدين ديوان (١)

---

(١) الروضتين ٢/١٠٤

كتب الى الملك الصالح طلائع بن رزّيك بعد أن استولى الفرنج على أمواله بعد عودته من مصر الى الشام قصيدة أولها :

غرّني لامع السراب ، وهذا البحر دوني عذب المياه شروب
سرت أستقرئ المحول وفي أرضي مرتع رغيد ، وواد قشيب
وسحاب منه تعلمت السحب ، وإن لم تشبهه ، كيف تصوب
سوء حظ نأى عن الملك الصالح ، والحظ ينتهي ويثوب
والى بابه مآلي وللآبق حسن القبول حين يثوب
....
أنا أشكو اليك دهرا لحا عودي ، وأعراه ، فهو يبس سليب
وخطوبا رمى بها حادثات الدهر سوادى ، وكلهن مصيب
أذهبت تالدى وطارف الطارى ، فضاع الموروث والمكسوب
فهو شطران بين مصر وبحر ذا غريق فيء ، وذا منهوب (١)

وقال يمدح صلاح الدين بعد مصاف عسقلان سنة ٥٧٠ هـ ، أولها :

تهنّ يا أطول الملوك يدا في بسط عدل وسطوة ونَدى
أجراً وذكرا من ذلك الشكر في الدنيا ، ومن ذلك الجنان غدا
لا تستقلّ الذى صنعتَ ، فقد قمتَ بفرض الجهاد مجتهدا
وجُبتَ أرض العدى ، وأفنيتَ من أبطالهم ما يجاوز العددا
وما رأينا غزا الفرنج من الملوك في عقر دارهم أحدا
فسر الى الشام فالملائكة الأبرار تلقاك بجمعهم مددا
فهو فقير اليك ، يأمل أن تصلح بالعدل منه ما فسدا
والله يعطيك فيه عاقبة النصر كما في كتابه وعدا
فما حباك الورى ، والهك العدل ، وأعطاك ما ملكت يدى (٢)

وقال يمدح صلاح الدين ويهجو شاورا :

أقمتَ عمود الدين حين أمالته لطاغي الفرنج الغتم طاغي بني سعد
وجاهدتَ حزبَ الكفر حتى رددتهم خزايا ، عليهم خيمة الذل والسرد
أعدت بما قدّمت ملكا مخلدا وذكراً مدى الأيام يقرن بالحمد
وذكراك في الآفاق يسرى كأنه الصباح له نشر الألوة والندا (٣)

---

(١) ديوانه ص ١٦٢
(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٠٥ وعقد الجمان جـ ١٢ ق ٣ ورقه ٥٦٩
(٣) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٩٥

وكتب الى معين الدين أثر لما لقي الفرنج في أرض بصرى سنة ٥٤٤ قصيدة يقول فيها :

كل يوم فتح مبين ونصر ... واعتلاء على الاعادي وقهر
صدق النعت فيك أنت معين الـ ... ـدين ، إن النعوت فال وزجر
أنت سيف الإسلام حقاً فلا كـ ... ـل غراريك أيها السيف دهر
بك زاد الإسلام يا سيفه المشـ ... ـهور عزاً ، وذل شرك وكفر
لم تزل تضمر الجهاد مسرا ... ثم أعلنت حين أمكن جهر
كل ذخر الملوك يفنى وذخرا ... ك هما الباقيان أجر وشكر
للندى مالك الهمام ، وما ... لك إلا الأجر ، وبقي وسمر
عم أهل الشام عدلك لكنـ ... ـك يا بعدنا ، وغاية البعد مصر ... الخ (١)

وكتب ردا على قصيدة طلائع بن رزيك التي مطلعها :

أبى الله الا ان يدين لنا الدهر ... ويخدمنا في ملكنا العز والنصر

قصيدة أشار بها عليه نور الدين وهي :

أبى الله الا أن يكون لنا الامر ... لتحيا بنا الدنيا ، ويفتخر العصر
وتخدمنا الأيام فيما نرومه ... وينقاد طوعاً في أزمتنا الدهر
وتخضع أعناق الملوك لعزنا ... ويرهبها منا على بعدنا الذكر
بحيث حللنا الأمن من كل حادث ... وفي سائر الآفاق من بأسنا ذعر
بطاعتنا للأمر طوعنا الأنـ ... ـام ، فما يعصى لنا فيهم أمر

. . . .

وما في ملوك المسلمين مجاهد ... سوانا ، فما يثنيه حر ولا قر
جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا ... ولم يلهنا عنه السماع ولا الخمر
دماء العدا أشهى من الراح عندنا ... ورقص المواضي فيهم الناي والوتر
نواحلهم وصل الحبيب ونم عدا ... زيارتهم يحتطنا بها الوزر
وثير حشايانا السروج ، وقصدنا الـ ... ـروع ، ومنصوب الخيام لنا قصر
ترى الأرض مثل الأفق ، وهي نجومه ... وإن حسدتها عزها الأنجم الزهر
وتم الملوك البيض والسمر كالدمى ... وعمتنا البيض الصوارم والسمر
صوارمنا حمر المضارب من دم ... قوائمها من جودنا نضرة خضر
نسير الى الاعداء والطير فوقنا ... لها القوت من أعدائنا ، ولنا النصر
فيا رب يذوب الصخر من حر ناره ... واحلف له بالماء ينبجس الصخر
وجيش اذا لاقى العدو وخلتهم ... أسود الشرى عنت لها الأدم والعفر
ترى كل شهم في الوغى مثل سهمه ... نفوذا ، فما يثنيه خوف ولا كثر
هم الاسد من بيض الصوارم والقنا ... لهم في الوغى الناب الحديدة والظفر
يرون لهم في القتل خلداً فكيف بالقـ ... ـاء لقوم قبلهم عند هم عمر

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٦٤

اذا نُسِبوا كانوا جميعاً بني أب   فحاصلهم شزر ، وضربهم الهبر
يظنون أنّ الكفر عصيان أمرنا   فما غدهم يوماً لإنعامنا كفر
لنا منهمُ أقدامهم وولاؤهم   ومنّا لَهُمْ إكرامهم والندى الغمر
بنا أيّد الاسلام ، وأزداد عزّه   وذلّ لنا من بعد عزّته الكفر
قتلنا البرنز ، حين سار بجهله   تحفّ بها الفرسان والعسكر المجر
ولم يبق الا من أسرنا ، وكيف بالـ   ـبقاء لمن أثنت عليه الظبا البتر
وفي سجننا ابن الفنش خيرُ ملوكهم   وإنْ لم يكن خيرٌ لديهمْ ولا برّ
أسرناه من حصن العريمة راغماً   وقد قتلت فرسانه فهم جزر
وسل عنهم الوادي بإقليه إنه   إلى اليوم فيه من دمائهمُ غدر
دم انتشروا فيه لرزّ رعيلنا   فمن تربه يوم المعاد لهم نشر
ونحن أسرنا الجوسلين ولم يكن   ليخشى من الايام نائبة تعرو
وكان يظن الغر أنا نبيعه   بمال ، وكم ظنّ به يهلك الغر
فلما استبحنا ملكه وبلاده   ولم يبق مال يستباح ولا ثغر
كحلناه ، نبغي الأجر في فعلنا به   وفي مثل ما قد ناله يحرز الأجر
ونحن كسرنا البغدوين وما لمن   كسرناه إبلال يرجّى ولا جبر
فهلله اللعين الحائن الغائن الذي   له الغدر دين فابه عندنا الغدر
وقد ضاقت الدنيا عليه برحبها   فلم ينجه بر ، ولم يحمه بحر
أفي غدره بالخيل بعد يمينه   بإنجيله بين الأنام له عذر
دعته الى نكث اليمين وغدره   بذمته النفس الخسيسة والمكر
وقد كان لون الخيل شتى فأصبحت   تعاد إلينا ، وهي من دمهم شقر
توهّم عجزاً حلمنا وأناتنا   وما العجز الا ما أتى الجاهل الغمر
فلما تمادى غيّه وضلاله   ولم يثنه عن جهله النهيُ والزجر
وسرنا اليه حين شاب لقاءنا   وبان له من بأسنا البؤس والضرّ
تولّى يبارى عائرات سهامنا   وفي سمعه من وقع أسيافنا وقر
وخلّى لنا فرسانه وحماته   فشطرٌ له قتل ، وشطرٌ له أسر
وما تنثني عنه أعنّة خيلنا   ولو طار في أفق السماء بها النسر
الى أن يزور الجوسلين بسا[ ]سا   له في دياج ، ما لليلتها فجر
ونرتجع القدس المطهّر منهم   ويتلى بإذن الله في الصخرة الذكر
كأنا لنا في أرض من حان منهم   فلم يبق منها في ممالكهم شبر
اذا استغلقت شمّ الحصون فعندنا   مفاتحها : بيض ، مضاربها حمر
وان بلد عزّ الملوك مرامه   ورمناه ، ذلّ الصعب واستسهل الوعر
وأضحى عليه للصبا ، وللظبا   ووقع المذاكي الرعد والبرق والقطر
بنا استرجع الله البلاد وأمّن العـ   ـباد ، فلا خوف عليهم ولا قهر
فتحنا الرها حين استباح عداتنا   حماها ، وسنّى ملكها لهم الغدر
جعلنا طلى الفرسان أغماد بيضنا   وملّكنا أبكارها النكثة البكر
ونحن فتحنا تلّ باشر بعدما   وقد عجزت عنه الاكاسرة الغرّ

أتى ماكنوها بالمفاتيح طاعة ... إلينا، ومسراهم إلى بابنا شهر
وما كلّ ملك قادر ذو مهابة، ... ولا كلّ ساع يستتبّ له الأمر
وتلّ عزاز، سبّحته جيوشنا ... غلبتهم عنا الرجال ولا الجُدُر
وملنا إلى بين الرصاص وإنه ... كالسدّ، لكنّ الرصاص له قطر
وأضحت لإنطاكية حام شجى ... وفيها لها والساكنين بها حصر
وحصن كفرلاثا وما بتدانيا ... لنا، وذراها للأنوق به وكر
وفي حصن باسوطا وقورس ذلّت الصعاب ... لنا والنصر يقدُمه الصبر
وفامية وابارة استنقذتهما ... لنا دلّة من دونها الفرغ والفقر
وحصن بصرفود، وأتت سهّلت ... لنا واستطال النصر وهو لنا يسر
وفي تل عفار، وفي تل خالد ... وفي حصن سلقين لمملكة تصر
وما مثل راوندان حصن وإنه ... لممتنع، لو لم يسهّل له القسر
وكم مثل هذا من قلاع ومن قرى ... ومن ربعات لا يحيط بها الحصر
فلما استعدناها من الكفر عنوة ... ولم يبق في إقطارها لهم أثر
رددنا على أهل الشام رباعهم ... وأملاكهم، فانزاح عنهم بها الفقر
وجاءتهم من بعد يأس وفاقة ... وقد مسّهم من فقدها البؤس والضر
وحرّ عليها الدهر، والكفر حاكم ... عليها، وعمر مرّ من بعده عمر
فنالهم من عودها الخير والغنى ... كما نالنا من ردّها الأجر والشكر
ونحن وهبنا الكفر عن كل بلدة ... فأمسوا سرورا بمتجرها السفر
وأصبحت الآفاق من عدلنا حمى ... نكدّر قطاها لا يروّعها صقر
فكيف تسامينا الملوك إلى العلا ... وعزمهم سرّ، ووقعاتنا جهر
وإن وعدوا بالغزو نطقاً، فعندنا ... رؤوس أعاديهم بأسيافنا نثر
سنلقى العدا عنهم ببيض صقالها ... صداياهم، والبتر يرشفها البتر

....

فقل لملوك الأرض: ما الفخر في الذي ... تعدّونه من فعلكم، بل كذا الفخر (١)

وكتب إلى صلاح الدين سنة ٥٧١ :

لا زلت يا ملك الإسلام في نعم ... تزينها السعدان : النصر والظفر
تردي الأعادي وتستصفي ممالكهم ... وعونك الماضيان : السيف والقدر
فأنت إسكندر الدنيا، بنورك تسعد ... تضاءل المظلمان : الظلم والضرر
أعدت للدهر أيام الشباب وقد ... أظلّها المهرطان : الشيب والكبر
وجاد غيث نداك المسلمين فمن ... سحابه المغنيان : الدرّ والبِدَرُ
وسرت سيرة عدل في الأنام كما ... قضى به الصادقان : الشرع والسُّوَرُ
فقت بنصر على الكفار إنهم ... يُرديهم المهلكان : الغدر والأشر

---

(١) ديوانه ص ٢٠١ ــ ٢٠٦

تناهم إذ رأوا إقبال ملكهـــم ... إليهم المزعجان : الخوف والحذر
وما الفرار بمنجيهم ، وخلفهم ... من بأسه المدركان : السمر والبتر
وسوف يعفو غداً منهم بصارمه ... وجيشه المخبران : العين والأثر
ولو رقوا في ذرى شهلان أسلمهم ... لسيفه العاصمان : الحصن والوزر
تنبي بتفضيله عمن تقدمه ... ما استودع المخبران : الكتب والسير (١)

وقال في نصر بن الفضل :

وعمت البلاد بالسيف فاستصعب منها سهل ، وعز ذليل
وقسمت الفرنج بالغزو شطرين : فهذا عان وهذا قتيل
والذي لم يخن بسيفك من شو ... ك أمسى وعقله مخبول
مثل الخوف بين عينيه جيشا ... لك في عقر داره ما يزول
فالربى عنده جيوش وموج البحر في كل لجة أسطول
وإذا ما غفى أقض به المضجع في الحلم سيفك المسلول
فابق للمسلمين كهفا ، ولا زالت حتفا ، ما أعقب الجيل جيل (٢)

وكتب اليه الملك الصالح :

أيها الساعر المجد إلى الشا ... م تبارى ركابه والخيول

فرد عليه أسامة بقصيدة مطلعها :

أين سمعي عما يقول العذول ... أنا بالهجر والنوى مشغول

ومنهـا :

يا أمير الجيوش ، يا أعدل الحكام في فعله وفيما يقول
أنت تقضي بالحق لست وإن زا ... ل جبال الارضين ، عنه تزول
فبماذا قضيت ، يا سيد الحكام طرا على أني ملول
من يمل الحياة أم من عليه ... من توالي أنعامه تثقيل
لا ترعني بالعتب ، فهو على قطع رسوم التشريف عني دليل
لي رسوم ، منها مواصلة الكتب وأنت البر الكريم الوصول .. (٣)

---

(١) الخريدة قسم شعراء الشام ج ١ ص ٥٤٥

(٢) ديوانه ص ١٩١

(٣) ديوانه ص ٤٠ وانظر الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٦٦

وأجاب على قصيدة طلائع بن رزّيك اللامية بقصيدة منها :

يا أشرف الوزراء أخــــــــلاقاً وأكرمهم فعـــــــالا
وأعزّهم جــــاراً وأمنعهــــــــم حمىً وأجــــــــلّ آلا
فلذاك قد أضحى الأنـــــــــام على مكارمه عيـــــــالا
وحمى البلاد بسيفــــــــــه عن أن تذال وأن تــــــدالا
وأحلّ بالإفرنج نـــــــــــي برّوفي بحر نكــــــــالا
نبّهت عبــــد أ طالمــــــــــا نبّهته قدرا وحــــــالا
وتبعته فأنلتــــــــــــــه شرفا ومجدا لن ينـــــــالا
لكنّ ذاك المتعـــــــــب يشمــــــــل في جوانبه اشتعـــــالا
أسفا لجدّ جاز عنــــــــــــه الى مساءته ومـــــــالا
أما السرايــــا حين تســــــــر حن بعد غفلتها ثقـــــالا
فكذاك عـــاد وثمـــود بمـــــا باء مقتلين نشا ومـــالا
ومسيرها في كــــــــل أرض تبتغي منها المـــــــالا
فكذاك فعلك مثل عـــــــد لك في الدنى سارا وجـــــالا
فاسلم لنا حتى نــــــــــرى لك في بني الدنيا مثـــــالا
واشدد يديك بـــــــودّ نـــــو ر الدين والق بها الرجـــــالا
فهو المحامي عن بـــــــلا د الشام جمعا أن يـــــذالا
وبهيـد أملاك الفرنـــــــــج وجمعهم حالا فحـــــالا
ملك يتيه الدهر والدنـــــــــيا بدولته اختيـــــالا
جمع الخلائق الدالمحـــــا مد فلم يدع منهم خـــــلالا
فاذا بدا النــــــاظريـــــــن رأيتهم الكمـــــالا
فبقيتمـــــــا للمسلمـــــــين حمىً ، وللدنيا جمـــــالا (١)

وبعث الى معين الدين أنر من مصر قصيدة يبيّن له فيها الدسائس التي يحوكها ساسة دمشق أولهـــا :

ولّوا ولما رجونا عدلهم ظلمـــــوا فليتهم حكموا فينا بما علمـــــوا
ما مرّ يوما بفكري ما يريبهـــم ولا سعت بي إلى ما ساءهم قـــــدم
ولا أضعتُ لهم عهداً ولا أطلعـــت على ودائعهم في صدريَ التهـــــم
فليت شعري بم استوجبْتُ هجرَهُـــم ملّوا فصدّهم عن وصليَ الســــأم
حفظتُ ما ضيّعوا ، أغضيتُ حين جنـوا وفيتُ إذ غدروا ، واصلتُ اذ صرمـــوا
حُرِمتُ ما كنت أرجو من ودادهـــم ما الرزقُ إلاّ الذي تجري بها القســـم
محاسني ، منذ ملّوني بأعينهـــم قذىً ، وذكريَ في آذانهم صمـــمُ

---

(١) ديوانه ص ٢١٥ والروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٦٤

ويعدُ لو قيل لي ماذا تحبّ وما ... سواك من زينة الدنيا لقلت هم

هم مجال الكرى من مقلتيّ ، ومن ... قلبي محل الحق ، جاروا أو احترموا

تبدّلوا بي ولا أبغي بهم بدلاً ... حسْبي هُمُ أنصفوا في الحكم أو ظلموا

يا راكبا تقطع البيداء همّته ... والعيس تعجز عما تدرك الهمم

بلّغ أميري معينَ الدين مألكةً ... من نازح الدار ، لكن ودّه أمم

وقل له : أنت خير الترك فضّلك الـ ... ـحياء والدين والإقدام والكرم

وأنت أعدل مَنْ يُشكى إليه ولي ... شكيّة أنت فيها الخصم والحكم

هل في القضية يا من فضل دولته ... وعدل سيرته بين الورى علَمُ

يضيع واجب حقّي بعد ما شهدت ... بما النصيحة والإخلاص والخدم

....

لكن عداك ما زالوا بمتبهم ... حتى استوت عندك الانوار والظلم

باءوا بالبغض يبغون الغنى ، ولهم ... لو أنهم عدموك ، الويل والعدم

والله ما نصحوا لما استشرتهم ... وكلهم ذو هوى في الرأي متّهم

كم حرّفوا من معان في سفارتهم ... وكم سعوا بفساد ، ضلّ سعيهم

أين الحمية والنفس الأبيّة إذ ... ساءوك خطّة خسف عارها يصم

هلاّ انثنت حياء أو محافظة ... من فعل ما أنكرته العُرْبُ والعجم

....

أسلمتنا وسيوف الهند مغمدة ... ولم يروّ سنان السمهريّ دم

....

هبنا جَنَيْنا ذنوباً لا يكفّرها ... عذر ، فماذا جنى الأطفال والحرم

ألقيتهم في يد الإفرنج متّبعا ... رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم

هم الأعادي ، وقاك الله شرّهم ... وهم بزعمهم الاعوانُ والخدم

إذا نهضت الى مجد تؤثّله ... تقاعدوا ، فإذا شيّدته هدموا

وإن عرتك من الأيام نائبة ... فكلهم للذي يبكيك مبتسم ... الخ (١)

ورد على قصيدة طلائع التي مطلعها :

ألا هكذا في الله تمضي العزائمُ ... وتمضي لدى الحرب السيوفُ الصوارمُ

قصيدة :

لك الفضلُ من دون الورى والمكارمُ ... فمن حاتم ، ما نال ذا الفخرَ حاتمُ

....

رميتَ العدى بالأُسْد في أجَم القنا ... على الجُرْد ، تقتادُ الردى وهو راغم

بمثل أتيّ السيل ، ضاق بها الفضا ... وضاق على الأعداء منه المخارم

يبارين شهبَ القذف يحملن مثلها ... من الحتف للباغي الرجيم رواجم

---

(١) ديوانه ص ١٤٦ ، الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٨٢ الخريدة قسم شعراء الشام ج ١ ص ٥٢٤

سرايا كمون البحر في ليل عثير … به من عواليهم نجوم نواجم
تسير جيوش الطير فوق جيوشها … لها كل يوم من عداها ولائم
فإن خفض الفرسان للطعن في الوغى … رماحهم انقضت عليها القشاعم
تعوض منها فوق غرة عارض … سحاب المنايا فوقه متراكم
فللنقع سحب والسيوف بوارق … وللدم وبل والنهات جماجم
بوائد منها الفوت لا النيه يرتجى … أشائم لا يروى بها الدهر شائم
فليس لراج غير عفوك ملجأ … وليس لعاص لم ينب منك عاصم
تنزهت عن أموال من أنت قاتل … فقد جهلت بين الجيوش المقاسم
فنهبك أرواح تنقلها الظبى … وسمر العوالي والبلاد مغانم

. . . .

يشن أبو الغارات غارات جوده … على ماله وهو المداين المسالم
ويبعثها شعث النواصي كأنها … ذئاب الفلا تردى عليها الضراغم
تلظ بأرض المشركين كأنها … صواد الى ورد حوان حوائم
تويم العدى من بأسها إنما سرى … إليها ولم تشعر ردى وأداهم
لهم جزر للبيض والبيض كالدمى … سبايا تهادى والبلاد مسالم
غزوتهم في أرضهم وبلادهم … ويحفلهم في أرضها متزاحم
فأفنيتهم قتلاً وأسراً بأسرهم … فما بينهم مستسلم أو مسالم
فلما أبادتهم سيوفك وانجلت … عن الأرض منهم ظلمة ومظالم
غزوتهم في البحر حتى كأنما الأ … ساطيل فيه موجه المتلاطم
بفرسان بحر فوق دهم كأنها … على الماء طير ما لهن قوادم
يسيرها فرسانها بأعنة … جرت حيث لم توصل بهن الشكائم
إذا دفعوها قلت فرسان غارة … سروا بجياد ما لهن قوائم
يسوق أساطيل الفرنج إليهم … حمام وطير للفرنج أشائم
دعاؤهم في البحر حمر سوانح … ودعائمهم في البر سحم جواثم
فلم يخش في لج من الأرض هارب … ولم ينج في لج من الماء عائم
وعاد الأسارى مردفين وسفنهم … تقاد كما قاد المهاري الخزائم
وقد نصر الملكان في الله طالبي … رضاه بعزم لم تعقه اللوائم
بجد هو العضب الحسام وحده … لعادية الأعداء والكفر حاسم
وقاما بنصر الدين والله قائم … بنصرهما ما دام للسيف قائم
وما دون أن يفنى الفرنج وتفتح البـ … ـلاد سوى أن يمضي العزم حازم
فيا ملكاً قد أحمد الله سعيه … ونيته والله بالسر عالم
تهن ثناء طبق الأرض نشره … هو المسك لا ما ضمنته اللطائم
ثناء به يحدو الحداة وينشد الـ … ـرواة وتشدو في الغصون الحمائم
يسير مع الركبان أنى تيمموا … على أنه في ساحة الحي ناجم ... (١)

---

(١) الروضتين ص ٢٢٤

وله في صلاح الدين قصيدة منهـا :

الناصر الملك الموفي بذمتـه ... ومن ندى كفه يغني عن الديـم
ومن إذا جرد البيض الصوارم فـي الـهيجاء أغمدها في البيض والقمم
ومن حوى الملك من بعد الطاعة في انـتزاعه بشبا الهندية الحذم
ورد طاغية الإفرنج يحسب مـا ... رجاه من ملك مصر كان في الحلم
ولى وراحته صفر وقد ملئـت ... بعد الطاعة من يأس ومن نـدم
يمتدون على ما فاتهم نفسـا ... لو لامس البحر أضحى الموج كالحمم
وفي السلامة لولا جهلهم ظفـر ... لمن أراد نزال الأسد في الأجم
وهم أسود الشرى لكن أن لهم ... ملكا لديه الأسود الغلب كالنعم (١)

وكتب الى ابن عمه الأمير ناصر الدين تاج الدولة ابي عبد الله محمد بن سلطان بن علي بن مقلد يحثه على تخليص أخيه من أسر الفرنج ، يقول :

يا ناصر الدين ، يا ابن الأكرمين ومن ... يغني ندى كفه عن وابل الديم
....
تولي الجميل بلا من تكدره ... لا كدر الله ما أولاك من نعم
هذا أخي ابن عمك في أسر الفرنج له ... حول تجرم ، في الأغلال والظلم
يدعوك لا بل أنا الداعي نداك له ... يا خير من علقته كف معتصم
وأنت أكرم من تثنيه عاطفة القـربى ، ويرجوه للجلى ذوو الرحم
ومن تكن أنت مولاه وناصره ... فكيف تسطو عليه كف مهتضم؟ ... (٢)

وقال يمدح صلاح الدين بقصيدة مطلعها :

لهفي لفرط شبيبتي وزماني ... وتروحي لفتوة وطعان

ومنها :

يا ناصر الاسلام حين تخاذلت ... عنه الملوك ومظهر الايمان
بك قد أعز الله حزب جنوده ... وأذل حزب الكفر والطغيان
لما رأيت الناس قد أغواهم الشيـطان بالإلحاد والعصيان
جردت سيفك في العدى ، لا رغبة ... في الملك بل لإطاعة الرحمن
فضربتهم ضرب الغرائب وانثنيا ... بالسيف ما رفعوا من الصلبان
وغضبت لله الذي أعطاك فصـل الحكم غضبة ثائر حران
فقتلت من صدق الوغى ، ووهبت من ... نجى الفرار بذلة وهوان
وبذلت أموال الخزائن بعد ما ... ضربت وراء خواتم الخزان
في جمع كل مجاهد ومجالد ... ومبارز ومنازل الاقران
من كل من يرد الحروب بأبيض ... عضب ، ويصدر وهو أحمر قان

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٢٩٥

(٢) ديوانه ١٤٩

ويخوض نيرانَ الوغى ، وكأنه ... ظمآن خاض مواردَ الغدران

قومٌ إذا شهدوا الوغى قال الورى ... ماذا أتى بالأُسْد من خفّان؟

لو أنهم صدموا الجبال لزعزعوا ... أركانها بالبيض والخرصان

فبهمْ الذخيرة للوقائع بالعدى ... والفتح ما استعصى من البلدان ... (١)

---

(١) الخريدة قسم شعراء الشام ج ١ ص ٥٣٠

قال يمدح بعض ذرية صلاح الدين :

مليك من القوم الذين رماحهم ... دعائم هذا الدين في كل مشهد
هم نصروا التوحيد نصرا مؤزرا ... بعز في الآفاق كل موحد
وهم قهروا غلب الفرنج بباسهم ... فدانوا لهم بالرغم لا عن تودد
وردوا الى البيت المقدس نوره ... وقد كان في ليل من الشرك أسود
وهم سهلوا سبل الحجيج وآمنوا ... بها الركب خوف الكافر المتشدد
وقد ركبت فرسانه بحر أيلة ... يخوضون في بحر من الكيد مزبد
وهم رجعوا مصرا الى دعوة الهدى ... بحزم ورأي في العظائم مخصد
وهم شيدوا ركن الخلافة بالندى ... أعادوه من بعد طريف ومتلد
وهم شرفوا قدر المنابر باسمها ... وذكر منوط بالرسول محمد
وهم وهبوا عز الممالك ، واكتفوا ... بسمر العوالي والصفاح المشيد
فسل عن ظباهم يوم حطين كم هدت ... بحز مراد الله في كل أصيد
وخفف حديث العدل والبأس والندى ... اذا كان عن أيامهم غير مسند (١)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٩٧

قال يمدح صلاح الديـــن :

دع مهجة المشتاق من أهوائهـــا ... يا لائمي ، ما أنت من نصحائهـــا

ومنهـــا :

جاءتك أرض القدس تخطب ناكحـــا ... يا كفأها ما العذر عن عذرائهـــا
زُفّت اليك عروس خدر تجتلـــى ... ما بين أعبدها وبين إمائهـــا
ايه ، صلاح الدين خذها غـــادة ... بكرا ملوك الارض من رُقبائهـــا
كم خاطب لجمالها تـــد ردّه ... عن نيلهـــا أن ليس من أكفائهـــا (١)

(١) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ص ٨٥ ـ ٨٦

قال في فتوحات صلاح الدين :

أترى مناماً ما بعيني أبصر   القدس يُفتح والفرنجة تُكسر
وقمامة قمت من الرجس الذي   بزواله وزوالها يتطهر
ومليكهم في القيد مصفود ولم   ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي   وعد الرسول فسبّحوا واستغفروا
فتح الشآم وطهر القدس الذي   هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد   ماذا يقال له وماذا يذكر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها   فاروقها عمرَ الإمام الأطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعده   ولأنت في نصر النبوّة حيدر
ملك غدا الإسلام من عجب به   يختال والدنيا به تتبختر
نثر ونظم طعنه وضرابه   فالرمح ينظم والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع حيث السيو   ف خواشع حيث الجباه تعفر
غاراته جمع فإن خطبت له   فيها السيوف فكل هام منبر
إذ لا ترى إلا طلى بسنابك   تخدى فعالا أو دماء تهدر
وصوافنا تختار أن تطأ الثرى   فيصدّها عنه طلى وسنور
تمشي على جثث العدى عرجاً ولا   عرج بها لكنها تتعثر (١)

---

(١) الروضتين ٢/١٠٥

قال يمدح نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سنة ٥٦١ﻫ بقصيدة مطلعهـا :

يوم النوى ليس من عمري بمحســـــوب ... ولا الفراق إلى عيشي بمنســـــوب

ثم يقـول :

اخوك وابنك ، صدقاً منهما ، اعتصمـا ... بالله ، والنصر وعد غير مكــــذوب
هما حاميان في يومي وغى وقـــــرى ... تعوّدا ضرب هام أو عراقيـــــب
غدا يشبان في الكفار نار وغـــــى ... بلفحها يصبح الشبان كالشيـــــب
بملك مصر ونصر المؤمنين غـــــدا ... تحظى النفوس بتأنيس وتطييـــــب
ويستقر بمصر يوسف ، وبــــــــه ... تقرّ بعد التنائي عين يعقـــــوب
ويلتقي يوسف فيها باخوتــــــــه ... والله يجمعهم من غير تثريـــــب (١)

وقال في تهنئة أسد الدين شيركوه ملك مصر سنة ٥٦٤ﻫ :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعـــــب ... كم راحة جنيت من دوحة التعـــــب
يا شيركوه بن شاذي الملك دعوة مـــن ... نادى ، فعرّف خير ابن بخيـــــر أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهــــم ... من المدى في العلى ما حزت بالخبـــب
تمل من ملك مصر رتبة قصـــــرت ... عنها الملوك فطالت سائر الرتـــب
فتحت مصر ، وأرجو أن تصير بهـــا ... ميسّراً فتح بيت القدس عن كثـــب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة مـــن ... فتح البلاد ، فبادر نحوها وثـــب
أنت الذي هو فرد من بسالتــــه ... والدين من عرفه في جحفل لجـــب
في حلق ذي الشرك من عدوى سطاك شجى ... والقلب في شجن ، والقصر في شجـــب
زارت بني الأصفر البيض التي لقيـــت ... حمرُ المنايا بها مرفوعة الحجـــب
وإنها نقد من خلفها أســــــد ... أرى سلامتها من أعجب العجـــب
لقد رفعنا الى الرحمن أيدينـــــا ... في شكرنا ما به الاسلام منك حبي
شكا اليك بنو الاسلام يتمهـــــم ... فقمت فيهم مقام الوالد الحـــدب
في كل دار من الافرنج ناد بـــــه ... بما دماؤهم ، فقد باتوا على نـــدب
من شر شاور أنقذت العباد فكـــــم ... وكم قضيت لحزب الله مـــن أرب
هو الذي أطمع الافرنج فـــي بلد الا ... سلام حتى سموا للقصد والطلـــب
وإن ذلك عند الله محتســـــب ... في الحشر من أفضل الطاعات والقـــرب
أن له الملك المنصور منتصـــراً ... لمّا دعا الشرك : هذا قد تحزّب لي

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٦٩

وما غضبت لدين الله منتقماً … إلّا لنيل رضا الرحمن بالغضب
وأنت من وتحتفي الكفر هيبتُه … وفي ذويه وتوع النار في الحطب
وحين سرتَ الى الكفار فانهزموا … نصرت نصر رسول الله بالرعب
يا محييَ الأمة الهادي بدعوته … للرشد كل غويٍّ منهمُ وغبي
لمّا سعيت لوجه الله مرتقباً … ثوابه ، نلت عفوا كل مرتقب
أعدتَ نقمة مصر نعمة ، فغدت … تقول : كم نكتةٍ لله في النكب
أركبت رأس سنان رأس ظالمها … تدلاً ، وكنت لوزر غير مرتكب
ردّ الخلافة عباسيّة ، ودع الـ … دعي فيها يصادفْ شر منقلب
لا تقطعن ذنب الأفعى وترسله … فالحزم عندي قطع الرأس كالذنب (١)

وبعث الى الخليفة الناصر قصيدة يبشره بالفتوحات سنة ٥٨٣ :

أبشرْ بفتح أمير المؤمنين أتى … وصيته في جميع الأرض جوّاب
ما كان يخطر في بال تصوّره … واستصعب الفتح لما أغلق الباب
وخام عنه ملوك الأقدمون وقد … فستعلي الناصر من بلواه أحقاب
وجاء عصرك والأيام مقبلة … فكان فيه لقيّمي الكفر انصباب
نصر أعاد صلاح الدين رونقه … ايجازه ببليغ القول اسهاب
قرع الظبى بالظبى في الحرب يطربه … لاقينة صنعت باللحن مطراب
أحيا الهدى وأمات الشرك صارمه … لقد تجلى الهدى والشرك منجاب
بفتحه القدس للاسلام قد فتحت … في قمع طاغية الإشراك أبواب
ففي موافقة البيت المقدس للـ … ـبيت الحرام لناتيه واعجاب
والصخر والحجر الملثوم جانبه … كلاهما لاعتمار الخلق محراب (٢)

وقال يرثي السلطان صلاح الدين بقصيدة عدد أبياتها مائتان واثنان وثلاثون بيتا أولها :

شمل الهدى والملك عم شتاته … والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذي مذ لم يزل مخشيّة … مرجوّة رهباته وهباته
أين الذي كانت له طاعاتنا … مبذولة ولربّه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذي … لله خالصة صفت نياته
أين الذي ما زال سلطانا لنا … يرجى نداه وتتقى سطواته
أين الذي شرف الزمان بفضله … وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذي عنت الفرنج لبأسه … ذلا ومنها أدركت ثاراته
أغلال أعناق العدا أسيافه … أطواق أجياد الورى منّاته
لم يجد تدبير الطبيب وكم … أجدتْ لطبّ الدهر تدبيراته
من في الجهاد صفاحه ما أغمدت … بالنصر حتى أغمدت صفحاته

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٠٣ وانظر تاريخ ابن الفرات م ٤ ج ١ ص ٤٥ وعقد الجمان ج ١٢ ق ٢ ورقة ٤٢٣

(٢) الروضتين ٢ / ١٠٢

من في صدور الكفر صدر قناتـــه   حتى توارت بالصفايح قناتـــه
لذ المتاعب في الجهاد ولم تكـــن   مذ عاش قط لذاته لذاتـــه
مسعود تغدواته محمـــودة   روحاته ميمونة ضحواتـــه
في نصرة الاسلام يسهر دائمـــا   ليطول في روض الجنان سناتـــه
لا تحسبوه مات شخص واحـــد   فممات كل العالمين مماتـــه
ملك عن الاسلام كان محاميـــا   أبداً اذا ما أسلمته حماتـــه
قد أظلمت مذ غاب عنـــا دوره   لما خلت من بعد رعد اراتـــه
د من السماح فليس ينبش بعد مـــا   أودى الى يوم النشور رفاتـــه
الدين بعد أبي المظفر يوســـف   أقوت تواه وأقفرت عرصاتـــه
جهل تضعضع من تضعضع ركنـــه   أركاننا وتهدنا هداتـــه
ما كنت أعلم أن طودا شامخـــا   يهدي ولا تهوى بنا مهواتـــه
ما كنت أعلم أن بحرا طاميـــا   فينا يطم وتنتهي زخراتـــه
بحر خلا من وارديه ولم تـــزل   محفوفة بوفوده حفاتـــه
من لليتامى والارامل راحـــم   متحلف مفوضة صدقاتـــه
لو كان في عصر النبي لانزلـــت   في ذكره من ذكره آياتـــه
فعلى صلاح الدين يوسف دائمـــا   رضوان رب العرش بل صلواتـــه
لقبره سقيا السحاب فان يغب   تترى لرحمة ربه سقياتـــه
وكمادة البيت المقدس يحـــزن الـــــــــبيت الحرام عليه بل عرفاتـــه
من للثغور وقد عداها حفظـــه   من للجهاد ولم تعد عاداتـــه
بكت الصوارم والصواهل اذ خلـــت   من سبلها وركوبها غزواتـــه
وبسيفه صدا لحزن مصابـــه   إذ ليس يشفى بعده صدياتـــه
يا وحشتا للبيض في أغمادهـــا   لا تنتضيها للوغى عزماتـــه
يا وحشة الاسلام يوم تمكنـــت   في كل قلب مؤمن روعاتـــه
يا حسرتا من بأس راحته الـــذي   يقضي الزمان وما انقضت حسراتـــه
ملأت مهابته البلاد فانـــه   أسد وإن بلاده غاباتـــه
ما كان أسرع عصره لما انقضـــى   فكأنما سنواته ساعاتـــه
لم أنس يوم السبت وهو لما بـــه   يبدي السبات وقد بدت غشياتـــه
والبشر منبلجت أســــواره   والوجه منه تلألأت سبحاتـــه
ويقول الله المهيمن حكمـــة   في سرعة حصلت بها مرضاتـــه
وقف الملوك على انتظار ركوبـــه   لهم فلم تأخرت ركباتـــه
كانوا وقوفا أمس تحت ركابـــه   واليوم هم حول السرير مشاتـــه
وممالك الافاق ساعية لـــه   فمتى تجيء يفتحهن سماتـــه
هذي مناشير الممالك تقتضـــي   توقيعه فيها نأين دواتـــه
قد كان وعدك في الربيع بجمعهـــا   هذا الربيع وقد دنا ميقاتـــه
والجند في الديوان جدد عرضـــه   واذا أمرت تجدد نفقاتـــه
والقدس طامحة اليك عيونـــه   عجل فقد طمحت اليه عداتـــه

والغرب منتظر طلوعك نحـــوه / حتى تفيء الى هداك بغاتـــه
والشرق يرجو عزب عزمك ماضيـــا / في ملكه حتى تطيع عصاتـــه
مغرى بأعداء الجهول كأنمـــا / فرضت عليه كالصلاة صلاتـــه
هل للملوك مضاؤه في موقـــف / شدّت على أعدائه شدّاتـــه
وإذا الملوك سعوا وقصّر سعيهـــم / رجحت وقد نجحت به مساعاتـــه
كم جاء بالتوفيق في وقتاتـــه / من كان بالتوفيق توقيعاته ... الخ (١)

وهنأ نور الدين بفتح منبج سنة ٥٦٣ وحرضه على فتح القـــدس :

بشرى الممالك فتح قلعة منبـــج / فليهن هذا النصر كل متـــوّج
أعطيت هذا الفتح مفتاحا بـــه / في الملك يفتح كل باب مرتـــج
وافى يبشّر بالفتـــوح وراءه / فانهض اليها بالجيوش وعـــرّج
أبشر فبيت القدس يتلو منبجـــا / ولتمض لسواه كالأنمـــوذج
ما أعجزتك الشهب في أبراجهـــا / طالبا ، فكيف خوان في أبـــرج
ولقد رميتك أحتر أن يســـرى / أثر السيوف بوجهك المتبلّـــج
لكن تهذّب من عصاك سياســـة / في ضمنها تقويم كل معـــوج
فانهض إلى البيت المقدس غازيـــا / وعلى طرابلس ونابلس عـــرّج
قد سرت في الإسلام أحسن سيـــرة / مأثورة ، وسلكت أوضح مسلـــك
وجهدت ما استقريت من سنن الهـــدى / جدّدت منه كل رسم منهـــج (٢)

وهنأ السلطان صلاح الدين بفتح الموصل وحثه على فتح القـــدس :

فالحمد لله الذي أفضالـــه / حلو الجنا وعلى السنا وغاتـــه
عاد العدوّ بالمقر من ظلمـــه / في ليل ويل قد جنا صباحـــه
وجنى عليه جهله بوقوعـــه / في قبضة البازي فهيض جناحـــه
حمل السلاح الى القتال ، وصادري / أنّ الذي يجني عليه سلاحـــه
أضحى يريد مواصلة صـــدوده / وغدا يجيد رثاءه مداحـــه
إن أفسد الدين الشقاة بحقدهـــم / فالناصر الملك الصالح صلاحـــه
قد كان عزمك بالإله معتصـــما / فيهم ، فلاح ، كما رأيت ، فلاحـــه
وكأنني بالساحل الاقصى ، وقـــد / ماجت بنحر دم الفرنجة ساحـــه
فأغير الى القوم الفرات ، ليشربوا الـ / ـموت الأجاج ، فقد طمى طفاحـــه
لتفك من أيديهم رهن الرهـــا / عجلا ، ويدرك ليلها إصباحـــه
وابغوا لحرّان الخلاص ، فكم بهـــا / حرّان قلب نحوكم ملتاحـــه
نبّوا البلاد من البلاء بمدكـــم / فالظلم باد في الجميع صراحـــه
واستفتحوا ما كان من مستغلـــق / فيها ، فربكم لكم فتاحـــه

(١) الروضتين ج ١ ١١٥/١١٦   (٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٨٠

أنتم رجال الدهر، بل فرسانه ... ولذي الحلوم الطائشات رجاحه
نتاكه ، نساكه ، ضراره ... نفاعه ، مناعه ، مناحه
وأبو المظفر يوسف مطعامه ... مطعانه ، مقدامه ، جحجاحه
واذا اغتدى في محفل فحييه ... واذا غدا في جحفل فوقاحه (١)

قال يمدح نور الدين ويصف الزلزلة سنة ٥٦٥ بقصيدة مطلعها :

هل لماني الهوى من الأسر فادي ... ولساري ليل الصبابة هادي

ثم يقول :

جل رزء الفرنج فاستبدلوا منه بلبس الحديد لبس الحداد
فرق الرعب منه في أنفس الكفار بين الأرواح والأجساد
سطوة زلزلت بسكانها الأرض وهدت قواعد الأطواد
أخذتهم بالحق رجفة بأس ... تركتهم صرعى صروف العوادي
خلفت في تلاعها كل عال ... وأعادت تلاعها كالوهاد
أنفذ الله حكمه فهو ماض ... مظهر سر غيبه فهو بادي
آية أثرت ذوي الشرك بالهلك وأهل التوحيد بالارشاد
والأعادي جرى عليهم من التدمير ما قد جرى على قوم عاد
أشركت في الهلاك بين الفريقين : دعاة الإشراك والإلحاد
ولقد حاربوا القضاء ، فأمضى ... حكمه فيهم بغير جلاد
والإله الرؤوف في الشام عنا ... دافع لطفه بلاء البلاد (٢)

ومن قدسياته قصيدة عدد أبياتها مائة واثنان وخمسون بيتا أولها :

تصاريف دهر أعربت لمن اهتدى ... وسطلة أمر أغربت من تمردا
لسرعة فتح القدس سر مغيب ... وفي صرعة الافرنج معتبر بدا
أتوا كحبال أبرمت لأسارنا ... فسقناهم فيها قطينا مجددا
وساموا تجارا تشترينا غواليا ... فبعناهم بالرخص جهرا على الندى
وجروا جيوشا كالسيول على الصوى ... فآضت غثاء في البطاح مبددا
وقالوا ملوك الارض طول تيادنا ... اذا الكل منهم في القيود مبددا
وقد أقطع الكند العراق موقنا ... فأودع سجنا وسط جلق موعدا
وأقسم أن يسقي بدجلة خيله ... فما ورد الأردن الا مصفدا
فكم واثق خجلان فيهقه خصمه ... وكم سائق عجلان قهقر مقعدا
أتى الكند من إسبان يحمي قمامة ... فكان تقضي ملكه قبل يبتدى

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٥١

(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٦٨ ــ ٤٧٠ والخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ٤٦ ــ ٥٠

فما عقد الرايات الا محلــــــلا ... ولا حلّل الرايات الا معقــــــدا
ووقعة يوم التل اذا قبضت بـــــه ... جبابرة الإفرنج خيرى وشـــــرّدا
عليهمْ من البلوى سوادق ذلّـــة ... ومن ذل ماتت نفسه فتقيــــدا
ترى النسر الديويَّ يلقي سلاحـــه ... كشلّة عصفور من الريش جُـــرِّدا
فتلقى نصارى جلّق في ماتـــمٍ ... يسرّونها إلّا الأشجّ وتنهّـــدا
ألم تر للسلطان صدّق نـــذرَه ... دم الغادر الإبرنسِ فاقتيد أرســدا
وباشره بالقتل وسط جنابـــه ... وعاينه الكند المليك فارعـــدا
وضاقت بنفس القمّص الأرض مهربـــا ... فأدركه الموت المفاجيء مكمـــدا
وما طرق الاسماع من عهـــد آدم ... كملحمة التلّ التي تلت المـــدى
أتوا واديا ما زال ينفي خباثـــا ... ويعني بعقبى الدار طائفة الهـــدى
به جثمت أصحاب ليكة وهي فـــي ... ذراه وذا فيه شعيب تأيـــدا
أرى الله فيه معجز النصر مخلصـــا ... لأمر صلاح الدين في الناس مخلـــدا
وأعدى جنود الرعب يردى عداتـــه ... وسلّم جميع المسلمين مجنّـــدا
ومن عجب خمسون ألف مقاتـــل ... سبتهم جيوش لمن فيها من ارتـــدى (١)

وقال يمدح نور الدين بقصيدة مطلعهـــا :

لو حفظت يوم النوى عهود شـــا ... ما مطلت بوصلكم وعود شـــا

ومنهـــا :

ان الرعايا منه في رعايـــة ... ونعمة مستوجب مزيد شـــا
لنومها يسهر ، بل لأمنهـــا ... يخاف ، بل يخصبها بجود شـــا
بالدين والملك له قيامـــه ... وللملوك عنهما قعود شـــا
ورأيه لثم ثغور الكفـــر ، لا ... لثم ثغور ناقع برود شـــا
قد أسبغ الله لنا بعد لـــه ... ظلال أمن وارف مديد شـــا
غدا ملوك الروم في دولتـــه ... وهم على رغمهم عبيد شـــا
لما أبت هاماتهم سجود شـــا ... لله ، أضحى للظبا سجود شـــا
إن فارقت سيوفه غمود شـــا ... فإنّ هاماتهمُ غمود شـــا
كم فلقات ، من حصون عزمـه ... مفاتحها ، وسيفه إقليد شـــا
وقد ودّت الافرنج لو قرّت نجــت ... منه ، ولكن رعبها يبيد شـــا
قهرتها حتى لودّ حيّهـــا ... من ذلة لو انه فقيد شـــا
أباتها رعبك في حصونهـــا ... كأنما حصونها لحود شـــا
وإنّ مصرا لك تعنو بعد مـــا ... لسيفك العضب عنا صعيد شـــا
والملة الغراء خال بالهـــا ... عال سناها ، بك حالٍ جيدُ شـــا

---

(١) الروضتين ١/١١٧

مفترة ثغورها ، ممنوعـــــة ثغورها ، محفوظة حدودهـــــا
وإن بغى جاورتها ضلالـــــة كانت في إدراكه داودهـــــا
يا ابن قسيم الدولة الـــــذي خرّت له من الملوك صيدهـــــا
دع العدا بغيظها ، فإنمـــــا يذيب أكباد العدى حقودهـــــا
يا دولة نوريّة أمّن الـــــورى وعصبُها ، وجُودها ، وجُودهـــــا
ما تمّل الدنيا لمن يجمعهـــــا بالحرص إلا قرّة ودودهـــــا
أنت الذي يرفعها عن قـــــدرة فلا يشوب زهـــــده زهيدهـــــا
ثابتةٌ لنا يا ملكا ، بقـــــاؤه في كل عام للرعايا عيدهـــــا
في نعمة جديدة سعود هـــــا ودولة سعيدة جدودهـــــا (١)

وانشد أسد الدين شيركوه فـــي سنة ٥٦٣ :

دمت في الملك آمرا ذا نفـــــاذ أسدَ الدين شيركوهُ بن شـــــاذي
يا كريما عن كل شهر بخيلـــــا والى الخير دائم الاغـــــذاذ
وملاذ الاسلام أنت ، فـــــلازلـــــت لأهل الإسلام خير مـــــلاذ
في نفوس الكفار رعبك قـــــد حـــــلّ بصدع الاكباد والافـــــلاذ
لم تدع بالظبى ، رؤوساً وأصنـــــامـــــاً من المشركين غير جـــــذاذ
أنت من نازل الدعيّين فـــــي مصـــــر لنصر الامام في بغـــــداذ
وبلاد الاسلام أنقذتهـــــا أنـــــت من الشرك أيما أنقـــــاذ (٢)

قال يمدح أسد الدين شيركـــوه سنـــة ٥٦٢ :

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشـــــر ونلت ما عجزت عن نيله القـــــدر
من يهتدي للذي أنت اهتديت لـــــه ومن له مثل ما أثرته أثـــــر
أسرت أم بسراك الارض قد طويـــــت كانت اسكندر في السير ام خضـــــر
اوردت خيلاً باقصى النيل صادرة عن الفرات يقاضي وردها الصـــــدر
تناقلت ذكرك الدنيا ، فليس لهـــــا الا حديثك ما بين الورى سمـــــر
كانت من زانت الايام سيرتـــــه وزاد فوق الذي جاءت به السيـــــر
لو في زمان رسول الله كنتَ ، أتتْ في هذه السيرة المحمودة الســـــور
أصبحتَ بالعدل والإقدام منفـــــرداً فقل لنا : أعليٌّ أنت أم عمـــــر
إسكندر ذكروا أخبار حكمتـــــه ونحن فيك رأينا كل ما ذكـــــرا
ورستمٌ خبّرونا عن شجاعتـــــه وصار فيك عيانا ذلك الخبـــــر
أفخر ، فإنّ ملوك الارض أذ هلهـــــم ما قد فعلتَ ، فكلٌّ فيك مفتكـــــر
سهرتَ اذ رقدوا ، وهجتَ إذْ سكنـــــوا وصلتَ اذ جبنوا ، بل طُلتَ اذ قصـــــروا
يمته ظنون الذي أدركته عجبـــــاً وذاك في جنب ما نرجوه محتقـــــر

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٧٧
(٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٨٣

تقضي القضاء بما ترجوه عن كثب ... حتماً ، ووافقك التوفيق والقدر

شكت خيولك إدمان السرى ، وشكت ... من قلبها البيض ، بل من حملها السمر

يمنت فتح بلاد كان أيسرها ... لغير رأيك اقفك فتحه عسر

قرنت بالحزم منك العزم ، فاتسقت ... مآرب لك عنها أسفر السفر

ومن يكون بنور الدين مهتديا ... في أمره ، كيف لا يتوى له السرر

يرى برأيه ما في الملك يبرمه ... فأنت منه بحيث السمع والبصر

لقد بذت ثقة الإفرنج فانتصفت ... منها ، باقدامك ، الهندية البتر

غرست في أرض مصر من جسومهم ... أشجار خط لها من هامهم ثمر

وسال بحر نجيع في مقام وغى ... به الحديد غمام ، والدم المطر

أنهرت منهم دماء بالصعيد جرى ... منها الى النيل في واديهم نهر

رأوا اليك عبور النيل اذ عدموا ... نصرا فما عبروا حتى قد اعتبروا

تحت الصوارم هام المشركين كما ... تحت الصوالج يوما خفت الأكر

أفنت سيوفك من لاقت ، فإن تركت ... قوماً فهم نفر من قبلها نفروا

لم ينج إلا الذي عاقته من خبث ... وحشي الغلا ، وهو للمحذور منتظر

والساكنون القصور القاهرية قد ... نادى القصور عليهم أنهم قهروا

وشاور شاوروه في مكائدهم ... فكان ما الكيد لما خانه الحذر

كانوا من الرعب موتى في جلودهم ... وحين أمنتهم من خوفهم نشروا

وإن من شيركوه الشرك منخزل ... والكفر منخذل ، والدين منتصر

عول على ثقة عند اللقاء وقد ... وعد عن تركمان قبله غدروا

وكيف يخذل جيش أنت مالكه ... والقائدان له التأييد والظفر

أجاب فيه اله الحق دعوة من ... يطيب بالليل من أنفاسه السحر (١)

وقال في صلاح الدين ، وهي أول كلمة خدمه بها :

كيف تلتم بمقلتيه ثغور ... وأراها بلا فتور تجور

ومنها :

لاذ بالنيل شاور مثل فرعو ... ن ، فذل اللاجي وعز المبور

شارك المشركين بغيا ، وقد ما ... شاركتها قريظة والنضير

والذي يدعي الإمامة بالقا ... هرة ارتاع أنه مقهور

وغدا الملك خائفا من سطاكم ... ذا ارتعاد كأنه مقرور

وبنو المهفري دانوا فغروا ... ومن الأسد كل كلب غرور

إنما كان للكلاب عواء ... حيث ما كان للأسود زئير

وتليب عند الفرار سايب ... فهو بالرعب مطلق مأسور

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٧٠ ـ ٣٧٢

لم يبقوا سوى الأصاغر للسبي   فودوا أن الكبير صغير
وحمى الإسكندرية عنهم   ورحى حربهم عليهم تدور
حاصروها وما الذي بان من ذبـ   ـك عنها وحفظها محصور
كحصار الأحزاب طيبة قدما   ونبي الهدى بها منصور
فاشكر الله حين أولاك نصرا   فهو نعم المولى ونعم النصير
ولكم أرجف الأعادي ، فقلنا   ما لما تذكرونه تأثير
ورتبنا كالعيد عودك فاليو   م به للأنام عيد كبير
عاد من مصر يوسف والى يعـ   ـقوب بالتهنئات جاء البشير
فلأيوب من اياب صلاح الـ   ـدين يوم به توفى النذور
ولكم عودة الى مصر بالنصـ   ـر على ذكرها تمر العصور
فاستردوا حق الإمامة ممن   خان فيها فإنه مستعير
وافترعها بكرا ، لها في مدى الدهـ   ـر رواح في مدحكم وبكور ... الخ(١)

وقال في وصف دمشق ومدح صلاح الدين :

مطلعها :

أجيران جيرون مالي مجير   سوى عطفكم فاعدلوا أو فجورا

ومنها :

وكم قد غللت جموع الفرنج   بحد اعتزام شباه طرير
بضرب تحذف منه الرؤوس   وطعن تخسف منه النحور
وغادرت غادرهم بالعراء   ومن دمه كل قطر غدير
يجرد عليها رجال الهياج   كأن صقورا عليها صقور
من الترك عندما بيسها   صحاح الظبى والهوادي كسور
سهام كنائنها الناشرات   لهن قلوب الأعادي وكور
وغدتهم مثل صيد الصوار   اذا حاولوا الفتح صيدا وصور
بجيشك أزعجت جأش العدو   فما نفر منه الا نفور
تركت مصارع للمشركين   بطون القشاعم فيها قبور
تزاحم فرسانها الضاريات   فتصدر فيها النسور النسور
وان تولد بكر الفتوح   اذا ضربت بالذكور الذكور ... الخ(٢)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٢ ٣٧ والخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ص ٣٦

(٢) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ١٩ ــ ٢٩

وقال يمدح صلاح الدين ويعزّيه بعمه :

أيا يوسف الاحسان والحسن ، خير من ... حوى الفضل والافضال والنهى والامرا
ومن للهدى وجه النجاح برأيه ... تجلّى ، وثغر النصر من عزمه افترّا
حمى حوزة الدين الحنيف بحوزه ... من الخالق الحسنى ومن خلقه الشكرا
ابوه أبى الا الصلاح ، وعمّه ... بمعروفه عم الورى : البدو والحضرا
وطال الملوك شيركوه بطوله ... وما شاركوه في العلا فحوى الفخرا
بنو الاصفر الافرنج لاقوا ببيضه ... وسمر عواليه مناياهم حمرا
وما أبيضّ يوم النصر واخضر روضه ... من الخصب حتى اسودّ بالنقع واغبرا
رأى النصر في تقوى الإله ، وكل من ... تقوّى بتقوى الله لا يعدم النصرا
ولما رأى الدنيا بعين ملالة ... أغذّ من الاولى مسيرا الى الاخرى
وقام صلاح الدين بالملك كافلا ... وكيف ترى شمس الضحى تخلف البدرا
ولما صبت مصر الى عصر يوسف ... أعاد اليها الله يوسف والعصرا
فاجرى بها من راحتيه بجوده ... بحارا ، فسماها الورى أغلا عشرا
هزمتم جنود المشركين برعبكم ... فلم يلبثوا خوفا ولم يمكثوا ذعرا
وفرّقتم من حول مصر جموعهم ... بكسر ، وقاد الكسر من أهلها جبرا
وأمنتم فيها الرعايا بعدلكم ... وأطفأتم من شر شاورها الجمرا
بصفك دم حطتم دماء كثيرة ... وحزتم بما أبديتم الحمد والشكرا
وما يرتوي الاسلام حتى تغادروا ... لكم من دماء الغادرين بها غدرا
فصبوا على الافرنج سوط عذابها ... بأن تقسموا ما بينها القتل والاسرا
ولا تهملوا البيت المقدس ، واعزموا ... على فتحه غازين ، وافترعوا البكرا
تديمون بالمعروف طيب ذكركم ... وما الملك إلا أن تديموا لكم ذكرا
وانّ الذي أثرى من المال مقتر ... وإنْ يغنه في كسب محمدةٍ أثرى (١)

وقال في إعلان الخلافة العباسية بمصر :

وأشمنا بها شعار بني العبّاس ، فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعيّ يدعو ثبورا ... وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطبة للهاشميّ في أرض مصر
ولدينا تضاعفت نعم الله ، وجلّت عن كل عدّ وحصر
فاغتدى الدين ثابتَ الركن في مصر ، محوطَ الحمى ، مصونَ الثغر
واستنارت عزائم الملك العادل نور الدين الكريم الأغرّ
وبنو الأصفر التواعس منه ... بوجوه من المخافة صفر
عرف الحق أهل مصر ، وكانوا ... قبله بين منكر ومقرّ

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٥٤ وعقد الجمان جـ ١٢ ق ٢ ورقة ٤٣٩

قل لداعي الدعي : حسبك ، فالله أقر الحقوق خير مقر
هو فتح بكر ، ودون البرايا خصنا الله بافتراع البكر
وحصلنا بالحمد ، والأجر والنصر ، وطيب الثنا ، وحسن الذكر
ونشرنا أعلامنا السود قهراً للعدى الزرق بالمنايا الحمر
واستعدنا من أدعياء حقوقا تدعي بينهم لزيد وعمرو
والذي يدعي الامامة بالقاهرة انحط في حضيض القهر
خانه الدهر في مناه ، ولا يطمع ذو اللب في وفاء الدهر
ما يقام الامام الا بحق ما تحاز الحسناء الا بمهر
خلفاء الهدى سراة بني العباس والطيبون أهل الطهر
بهم الدين ظاهر ، مستقيم الأمر قوة ، قوي الظهر
كشموس الضحى ، كمثل بدور التم كالسحب ، كالنجوم الزهر
قد بلغنا بالصبر كل مراد وبلوغ المراد عقبى الصبر
ليس تثرى الرجال من ملة المال ، ولكنما أخو اللب مثري
ولهذا لم يختلف صاحب القصر ، وقد شارف الدثور ، بدثر
دام نصر الهدى بملك بني العباس حتى يقوم يوم الحشر (١) .

وقال في تهنئة نور الدين بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم عيد الفطر سنة ٥٦٤ :

عيدان : فطر وطهر فتح قريب ونصر
كلاهما لك فيه حقا هناء وأجر

ومنها :

يا أعظم الناس قدراً وهل لغيرك قدر
وساهراً حين ناموا وقائماً حين قروا
ما أتقت الاوفاء وعادة القوم غدر
وفضلك الدهر غزو المشركين وقهر
وفضل غيرك ظلم للمسلمين وقسر
يفتر من كل ثغر الى ابتسامك ثغر
تروم به وتربح في شغلهم لك وتصر
حرب توان وتسعي على مرادك بكر
ينسو الاصاغر من خشية انتقامك صغر
لم يبق للكفر ظفر لاكان للكفر ظفر
وما دجى ليل خطب الا وعزمك فجر

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٠٢

أصبحت بالنصر والعز عبـــــا
أكبر كل يتـــــيم
في كل قلب حســـــود
تمل تطهير ملـــــك
يزهى سرير وتـــــان
وكيف يحمل للطـــــا
هذا الظهور ظهـــــور
وذا الفتيان ختـــــام
رزقت عمرا طويـــــلا

وغمسه بالله عبـــــر
اسماعه بزاه جبـــــر
من جر باسمه جـــــر
له الملوك تخضـــــر
به ودهـــــا وصـــــدور
در المطهـــــر طهـــــر
على الزمان وأمـــــر
بمسكـــــه طاب نشـــــر
ما دام لله شـــــر شعـــــر (١)

وقال في فتوحات صلاح الدين سنة ٥٨٣ :

في باطن الغيب مالا تدركه الفكـــر
مالي أرى ملك الافرنج في تفـــــس
والاعتبار إلى الداوية التامـــــوا
والنفس مولعة عجبا بسيرتهـــــا
يا وقعة التل ما أبقيت من عجـــب
ويا قمحو السبت ما للقوم قد سبتـــوا
ويا شريعة شعيب ما طمحتـــوا
حلوا بحطين ملكا كانوا عجبـــا
أهوى اليهم صلاح الدين مفترســـا
أملى عليهم فصاروا وسط كفتـــه
وانجز الله السلطان موعـــده
وناين الملك الابرنس في د مـــه
رأى مليكا ملوك الارض تتبعـــه
اذا بدا تبهر الاعيان هيبتـــه
تقدم الجيل في أخرى الزمان بـــه
أما رأيتم فتوح القادسيه فـــي
والحق يمرس والطغيان منتصـــب
هذا المليك الذي بشرى النبي بـــه
أنسى ملاحم ذى القرنين واعترفـــت
وصنع ذى المرش إبداع بلا سيـــف
بينا سباياه تجلى في دمشـــق اذا
ازاه زعماء الساحلين مـــــا

فذو البصيرة في الأحداث يعتبـــر
أين القواضب والعسالة السمـــر
كأنهم سد ياجوج اذا اشتجـــروا
وفي المقادير ما تسلي به العبـــر
بجحافل لم يفت من جمعها بشـــر
تهودوا أبكار الطعن قد سكـــروا
كمديّن أم لقوا رجفا بما كفـــروا
في ساعة زال ذلك الملك والقـــدر
وهو المظفر أعدى ظفره الظفـــر
كسرب طير حواها القانص الذكـــر
ونفـره في كفور دينه البطـــر
فمات حيا رهين وهو يستعـــر
والنجم يحدو به والشمس والقمـــر
ويختفي وهو في الأذهان مشتهـــر
على صدور على من قبلنا صـــدروا
أكنان لوبية تجلى وذا عمـــر
والكفر يطمس والايمان مزدهـــر
في فتنة البغي للاسلام ينتصـــر
له الرواة بما لم ينوه أثـــر
فلا تقل : كيف هذا الحادث الخطـــر
ملك الفرنج من الاتراك منتجـــر
مصفدين بحبل القهر قد أسـروا

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٧٩

يتلوهمُ صلبوتٌ سيق منتكساً   وحوله كل قسّيس له زبــــر
ونحن في ذا وذا طير صحيفتــه   بفتح عكا التي سدّت بها الثغــر
تغزو أساطيلنا منها صقليــةً   فتذعر الروم والصقلاب والخــزر
منذا يقول لصاحب القدس منفتــح   اليك بل سفر يعقوب له السفــر
أبو المظفر ينويها فخذ سفنــاً   من باب عكا الى طرطوس تنتشــر
يسبي غرنجة من أقطارها ولــه   مع المجوس حروب قدحها سعــر
ومحض ابنائه بالقدس منتــدب   ويمضهم رومة الكبرى له وطــر
براية تخرق الارض الكبيرة فــي   جمع تقول له الاحســام لا وزر
قالوا أطلت مديحا فيه قلت كمــا   بدأت فالصبّ للمحبوب مذكــر (١)

وقال فيه بعد ان اخذ حصن عزاز وقطع بين الحلبيين وبين الفرنج الجــواز :

أعطاه رب العالمين دولــة   عزة أهل الدين في اعزازهــا
حاز العلا ببأسه وجــوده   وهو أحقّ الخلق باحتيازهــا
بجدّه أفنى كنوزاً غنــيَ المــلوك في الجدّ على اكتنازهــا
مهلك أهل الشرك طراً : رومهــا   أرمنها ، افرنجها ، انجازهــا
تفاخر الاسلام من سلطانــه   تفاخر الفرس بأبراوازهــا
تهنّ من فتح عزاز نصــرة   أوقعت العــداة في اعتزازهــا
واليوم ذلّت حلب ، فانهــا   كانت تنال العز من عزازهــا
وحلب تثني كمشتكينهــا   كما انثنت بغداد من قيمازهــا
برزت في نصر الهدى بحجــة   وضوح نهج الحق في ابرازهــا
كم حائط للزمع عاد مهديــا   عجز عجوز الحي عن عكازهــا
ارض خطوطي من حضيض نقصهــا   وعد عن همازها لمازهــا
والشعر لا بد له من باعــث   كحاجة الخيل الى مهمازهــا (٢)

وقال يمدح تقي الدين عمر سنة ٥٨٣ بقصيدة تشتمل على مائة وأربعين بيتاً مطلعها :

عفا الله عنكم عن ذوي الشوق نفّسوا   فقد تلفت منا قلوبٌ وانفــس

ومنهــا :

رددت كراديس الفرنج وكلهــم   لدى الأسر في غلّ الصغار مكــردس
وبيّضت وجه الدين يوم لقيتهــم   وابيضكم من أسود القصر أشــوس
أفاد دم الأنجاس طهر سيوفكــم   وما يستفاد الطهر لولا التنجّــس
شموس ظبى تغدو لها الهام سجّدا   فللنصرانيّة تتمجّــس

---

(١) الروضتين ٢ / ١١٦

(٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٥٦

وكم كفيَ الاسلام سوءاً بملككــم ... كفيتم على رغم المعادين كل مسو
ولا يفتح البيت المقدس غيركــم ... وبيتكم من كل عاب مقـــدس
لهم كل يوم في جهاد مثلث ... اذا نصروا التوحيد في مخمس
اذا ما تقي الدين صال تساقطت ... لأقدامه من عصبة الشرك أروس
وما عمر الاشبية سميـــه ... شديد على الاعـداء ثبت عمرس (١)

وقال في يوم حطين والقدس :

يا يوم حطين والأبطال عابسة ... وبالعجاجة وجه الشمس قد عبسا
رأيت فيه عظيم الكفر محتقرا ... معفرا خده والانف قد تعسا
يا طهر سيف برى رأس البرنس فقد ... أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا
وغاص إذ طار ذاك الرأس في دمه ... كأنه ضفدع في الماء قد غطسا
ما زال يعطس مزكوما بغدرته ... والقتل تشميت من بالغدر قد عطسا
عزت ظباه من الأغماد مرقة ... دما من الشرك ردا هابه وكسا
من سيفه في دماء القوم منغمس ... من كل من لم يزل في الكفر منغمسا
أفناهم قتلهم والأسر فانتكسوا ... وبيت كفرهم من خبثهم كنسا

ومنهـا :

قل للمليك صلاح الدين أكرم من ... يمشي على الارض أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى ... صور فإن فتحت فاقصد طرابلسا
أثر على يوم انطرسوس ذا لجب ... وابعث الى ليل أنطاقية العسسا
واخل ساحل هذا الشام أجمعه ... من العداة ومن في دينه وكسا
ولا تدع منهم نفسا ولا نفسا ... فإنهم يأخذون النفس والنفسا
نزلت بالقدس فاستفتحته ومتى ... تقصد طرابلساً فأنزل على قدسا (٢)

وقال في تهنئة صلاح الدين بفتح القدس وغيرها سنة ٥٨٣ : مطلعها :

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا ... وتعتاض من ذكراكم وحشتي أنسا

ومنها :

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا ... وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى
وقيل لنا في الارض سبعة أبحر ... ولسنا نرى إلا أنامله الخمسا
سجيته الحسنى وشيمته الرضى ... وبطشته الكبرى وعزمته القعسا

(١) الروضتين ٢ / ٧١
(٢) الروضتين جـ ٢ ص ٨٣ ، ١٠٢

فلا عدمت أيامنا منه مشرقــــــا   ينير بما يولي ليالينا الدمســـا

جنودك أملاك السماء وظنهـــم   عداك جنّ الارض في الفتك لا الإنسـا

فإن يمتدح بالقدس غيرك في الــورى   فأنت الذى من دونهم فتح القدسـا

ومن قبل فتح القدس كنت مقدّســا   فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسـا

وطهّرته من رجسهم بدمائهـــم   فأذهبت بالرجس الذى ذهب الرجسـا

نزعت لباس الكفر عن قدس أرضهـا   وألبستها الدين الذى كشف اللبسـا

وعادت ببيت الله أحكام دينـــه   فلا بطركا أبقيت فيها ولا قسـا

وقد شاع في الآفاق عنك بشـــارة   بأنّ أذان القدس قد بطل القدسـا

جرى بالذى تهوى القضاء وظاهــرت   ملائكة الرحمن أجنادك الحمســا

. . . .

وقد طاب ريّانا على طبريـــــة   فيا طيبها مغنى ويا حسنها مرســى

وعكا وما عكا فقد كان فتحهـــا   لإجلائهم عن مدن ساحلهم كنســا

وصيدا وبيروت وتبنين كلهـــا   بسيفك ألفى أنفه الرغم والتعســا

ويافا وأرسوف وتبنى وغـــــزة   تخذت بها بين الطلى والظبى عرســا

وفي عسقلان الكفر ذل بملككــم   فمنظره بل أمره أربد واربدّ واجتســا

وصار بصور عصبة يرقبونكـــم   فلا تبطئوا عنها وحثّوهم حســا

تمكّن على الله الذى لك أصبحــت   كلاءته درعاً وعصمته ترســا

ودمر على الباقين واجتثّ أصلهـــم   فإنك قد صيّرت دينارهم فلســا

ولا تنصرفوا الشرق غربك فرويــاً   بماء الطلى من صاديات الظبى الخمسا

وإن بلاد الشرق مظلمة فقـــد   خراسان والنهرين والترك والفرسـا

ويعد الفرنج الكرك فاقصد بلادهــم   بعزمك واملأ من دمائهم الرمســا

أتامت بغاب الساحلين جنودكـــم   وقد طاردت عنه ذئابهم الطلســا

ومنهـــا :

صحبت على الاردنّ ردنا من القنـــا   ردينية ملدا وخطية ملســـا

حططت على حطّين قدر ملوكهـــم   ولم تبق من أجناس كفرهم جنســـا

ونعم مجال الخيل حطين لم تكـــن   معاركها للجرد ضرسا ولا دعســا

غداة أسود الحرب معتقلوا القنـــا   أساود تبغي من نحور العدى نهســا

أتوا شكس الاخلاق خشنا فلينّـــت   حدود الرقاق الخشن اخلاقها الشكسـا

طردتهم في الملتقى وعكستهـــم   مجيداً بحكم السيف طردك والعكسـا

فكيف عكست المشركين رؤوسهـــم   ودأبك في الإحسان أن تحلق العكسـا

كسرتهم أذ صحّ عزمك فيهـــم   ونكّستهم اذ صار صحهم نكســا

براقعة رجّت بها الارض جيشهـــم   دمارا كما بسّت جبالهم بســا

يطون ذئاب الارض صارت قبورهـــم   ولم ترض أرض أن تكون لهم رمســا

وطارت على نار المواضي فراشهـــم   صلاء فزادت من خمود هم تعســا

وقد خشعت أصوات أبطالها فمـا ... يقي السمع الا من صليل الظبى همسا
تقاد بدأماء الدماء ملوكهم ... أسارى كسفن اليم نطّت بها القلسا
سبايا بلاد الله مملوءة بهـا ... وقد شُريت بخسا وقد عرضت نخسا
يُطاف بها الأسواق لا راغب لهـا ... لكثرتها كم كثرة توجب الوكسا
فكا يسا رأس البرنس الذي بـه ... تندّى حسام حاسم ذلك اليبسا
حسا دمه ماضي الغرار لقـدره ... وما كان لولا غدره دمه يحسى
فلله ما أهدى يدا فتكت بـه ... وأطهر سيفا بعد ما رجسه النجسا
نسفت به رأس البرنس بضربـة ... فأشبه راسي رأسه العهن والبرسا
تبوّغ في أوداجه دم بغيـه ... فصال عليه السيف يلحسه لحسا
بعثت أمام أمة النار نحوهـا ... فزار أمام ارناطها ذلك الحبسا
ولله نصر النصر جاء لنصلـه ... فلا قونسا أبقى لرأس ولا قنسا
حكى عنق الداويّ صلّ بضربـة ... طرير الشبا عودا لمضرابه حسّا
أيوم وغى تدعوه أم يوم نائـل ... وأنت وهبت الغانمين به الخمسا (١)

وقال يمدح صلاح الديـن :

سواك لمهم البلاد لن يريشـا ... فنال رب البلاد أن تعيشـا
من الناس بالبرّ صدت الكـرام ... وبالبأس في البرّ صدت الوحوشـا
وكسرت من مصر نحو العريـش ... فهدّمت للمشركين العروشـا
سرايا انبعثت قدّامهـا ... من الرعب نحو الأعادي جيوشـا
ويوم حماة تركت العـداة ... كما طيرت بالفلا الريح ريشـا (٢)

وقال في تهنئة صلاح الدين بالنصر في دمياط سنة ٥٦٥ :

يا يوسف الحسن والإحسان يا ملكـا ... بجدّه صاعداً أعداؤه هبطـوا
حللت من ومحل العلياء في شـرف ... ومركز الشمس من أفلاكها الوسط
هنيت صونك دمياط التي اجتمعـت ... لها الفرنج فما حلوا ولا ربطـوا
مصر بيوسفها أضحت مشرّقـة ... وكل أمر لها بالعدل منضبـط
وحين وافى صلاح الدين أصلحهـا ... فللمصالح من أيامه نمـط (٣)

---

(١) الروضتين ج٢/١٠١ ، ٨٣ وأنظر عقد الجمان ج ١٧ ق ١ ورقه ٥٠ ــ ٥١

(٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٤٣

(٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٦١ وانظر عقد الجمان ج ١٢ ق ٣ ورقه ٤٥٨

وقال في صلاح الدين قصيدة طويلة مطلعها :

عفا الله عنكم ، ما لكم أيها الرهط … قسطتم ، ومن قلب المحب لكم قسط

ومنها :

لتبك دما عين العدو فقد جرى … على الأرض من أوداجه دمه السبط
منعت حمى الاسلام للنصر محاميا … غداة عوت من دونه الأذوب المعط
وصلت وكم فرجت عنا ملمة … بسهم الرزايا في الكرام لها لهط
بعودك عاد الحق واتضح الهدى … وهب نسيم النصر وانفرج الضغط
وانت أجرت الشام من شؤم جاره … ولم يكف رهط الكفر حتى يفى رهط
أجرت وقد جاروا ودنت وقد عدوا … وصلت وقد خاروا ولنت وقد لطوا
فلا يعبأ المولى بمن ملء جاشه … هوى وبقوم حشو جيشهم زط
كثير تعديهم ، تليل غناؤهم … ودم لا أصابوا رشدهم رهط رهط
عدلت فلا ظلم ، وطلت فلا مدى … وقلت فلا مين ، وجدت فلا قحط
.... … ....
فدم ظافرا أيا المظفر بالعدى … حليف قبول لا يكون لها حبط
بقيت ولا زلت عداك غيدة … سمودا ولا تحمير صمودا ولا هبط
ولو كنت جارا للمعري لم يقل … "لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا" (١)

وقال في تهنئة نور الدين بفتح تلمقجمبر سنة ٥٦٤ :

اسلم لبكر الفتوح مفترعا … ودم لملك البلاد منتزعا
فإن أولى الورى بها ملك … غدا بصبه الخطوب مضطلعا
ان ضاق أمر فغير همته … لكشف ضيق الامور لن يسعا
يا محيي العدل بعد ميتته … ورافع الحق بعد ما اتضعا
ونور دين الهدى الذي قمع الشهر … ك ، وعفى الضلال والبدعا
أنت سليمان في العفاف وفي الـ … ملك ، وتحكي بزهدك اليسعا
حزت البقا ، والحياء والكرم الـ … محض ، وحسن اليقين ، والورعا
.... … .... الخ (٢)

وقال يمدح صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ

فديتك من ظالم منصف … وناهيك من باخل مسرف
أيبلغ دهري تصدي وقد … قصدت بمصر ذرا يوسف
ويوسف مصر بغير التقى … وبذل الصنائع لم يوصف

---

(١) الخريدة قسم شعراء مصر ج ١ ص ٢٥ ـ ٣١ وانظر الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٣٦
(٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٨٧

فسر وافتح القدس واسفك بـــه | دماً متى تجرها ينظـــف
واعمد الى الإسبتار البتـــا | وهدّ السقوف على الأسقـف
وخلّص من الكفر تلك البـــلاد | يخلّصك الله في الموقـف (١)

وقال يمدح صلاح الدين بقصيدة طويلة مطلعهـا :

يروقني في المها مهفهفهـا | ومن قدود الحسان أهيفهـا

ومنهـا :

كم جحفل بالعراء ذي لجب | بالصف منه يضيق صفصفهـا
كالبحر طامي العباب لاجبة | بموجه للرياح أعصفهـا
كتيبة تنتمي مهنّدة | الى الردى مشرع مثقفهـا
غادرتها للنسور مأكلـة | حيث بأشلائها تضيفهـا
منتصفا من رؤوس طاغية | بباترات الظبى تنصفهـا
وحطت دمياط إذ أحاط بهـا | من برجوم البلاد يقذفهـا
لاقت غواة الفرنج خيبتهـا | تزاد من حسرة تأسفهـا
فرنفريرها وأزعجهـا | نداء داويها تلهفهـا
يمطر مطرانها العذاب كمـا | يودي بهدّ السقوف أسقفهـا
تكبير صلبانها وتنكسهـا | من القنا للدماء تنزفهـا
وليتها سفكها فحاملهـا | عاملها والسنان مشرفهـا
تمسّكت دعوة الداريق فمـا | أجدى سوى ملكها تعسفهـا
وحسبها في الحمى تهافتهـا | بل لسهام الردى تهدفهـا
يمضي لك الله في قتالهـم | عزيمة للجهاد ترعفهـا

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٩١ ه وانظر مفرج الكروب ٢/ ٥٧

ان أظلمت سدفة أنزتَ لهـــا — أبهى ليالي البدور بعد فهمـــا
بشائر الدين في إزالتـــه — قواعد الله ليس يخلفها ... الخ (١)

وقال يمدح الملك الظاهر غـــازي :

هم الملوك ذوو بأس وتكرمـــة — إنْ سالموا أمنوا أو حاربوا خيفـــوا
أغناهم التدبير عن تول الورى فتحـــت — عكا وصيدا وبيروت وأرســــوف
جيش الفرنج إذا لاقى سوابقهـــم — كأنه جبل بالريح منســـوف (٢)

وله في صلاح الدين :

يا الملك الناصر استنـــارت — في عصرنا أوجهُ الفضائـــل
عليّ من حقه فســـروض — شكرا لما جاد من نوائـــل
يوسف مصر الذي اليـــه — تشدّ آمالنا الرواحـــل
أجريت نيلين في ثراهـــا : — نيل نجيع ونيـــل نائـــل

ومنهـــا :

يا مخجل البحر بالأيـــادي — قد آن أن تفتح السواحـــل
فقدّس القدس من خبـــائث — أرجاس كفر غتم أراذ ل (٣)

وقال يمدح نور الدين ويهنئه بملك مصـــر :

بملك مصر اهنئي مالك الأمـــم — فاسعدْ وأبشرْ بنصر الله عن أمـــم
أضحى بعدلك شمل الملك ملتئمـــا — وهل يعدلك شيء غير ملتئـــم
يا فاعل الخير عن طبع بلا كلـــف — ومُوليَ العرف عن خلق بلا ســـأم
رواقمـــا ثلم ثغر الكفر تحجمـــه — لا ثلم ثغر شنيب واضح شبـــم
لله درّك نور الدين من ملــــك — بالحزم مفتتح بالنصر مختـــتم
آثار عزمك في الاسلام واضحـــة — وسره لك باد غير مكتتـــم
بما من العدل والإحسان تنشـــره — تخاف ربك خوف المذنب الأثـــم
أوردت مصر خيول النصر عادمـــة — تثنى الأعنة إقداماً على اللجـــم
فأقبلتْ في سحاب من ذوابلهـــا — وقضبها بدماء الهام منسجـــم

---

(١) الخريدة قسم شعراء مصر ج ١ ص ٩ ـ ١٢ وانظر الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٦١

(٢) الروضتين ٢ / ١٠٧

(٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٥٢

تمكّن الرعب في قلب العدوّ بهـــا ... تكمن النار بالإحراق في الفحـــم
سرت لتقطع ما للكفر من سبـــب ... وإمّا وتوصل ما للدين من رحـــم
مستسهلات وعور الطرق في طلب العلـ ... ـياء مقتحمات أصعب القحـــم
وجاعلات من الإفرنج غلّهـــم ... والقيد في موضع الأطواق والخـــزم
لقد شفت غلة الاسلام وانتقمـــت ... من العدو بحدّ الصارم الخـــذم
أطاعها الله في إطفاء جمـــر أذى ... من شر شاور في الاسلام مضطـــرم
وأصبحت بك مصر بعد خيفتهـــا ... للأمن والعز والاقبال كالحـــرم
والسنّة اتّسقتْ والبدعة انمحقـــت ... وعاود دولة الاحسان والكـــرم
ملوكها انك صاروا أعبدا وغـــدا ... بها عبيدك أملاكا ذوي حـــرم
أنبتّ عنك بها قرما ينوب بهـــا ... في البأس عن عنترٍ في الجود عن هرم
لله درك نور الدين من ملـــك ... عدل لحفظ أمور الدين ملتـــزم
كانت ولاية مصر قبل عزتهـــا ... بكشف دولتها لحما على وضـــم
فالنيل ملتطم جار على خجـــل ... جارا لبحر نوال منك ملتطـــم
أغْز الفرنج فهذا وقت غزوهـــم ... وأطعم جموعهم بالذابل الحطـــم
وطهّر القدس من رجس الصليب وشُـبْ ... على البنيات وثوب الأجدل القطـــم
فملك مصر وملك الشام قد نظمـــا ... في عقد عزّ من الاسلام منتظـــم
محمودٌ الملكُ الغازي يسوسهمـــا ... بالفضل والعدل والأفضال والنعـــم
بالشكر كل لسان ناطق أبـــدا ... محمودٌ الملك محمود بكل فـــم
ناشك مصر واظهرْ عز سنتهـــا ... كم تقتفي وإلى كم تشتكي وكـــم (١)

وقال حين علم بوفاة العاضد الفاطمي سنة ٥٦٧ :

توفّيَ العاضد الدعيّ فمـــا ... يفتح ذو بدعة بمصر فمـــا
وعصر فرعونها انقضى وغـــدا ... يوسفها في الامور محتكمـــا
وانطفأت جمرة الغواة وقـــد ... باخ من الشرك كل ما اضطرمـــا
وصار شمل الصلاح ملتئمـــا ... بها وعقد السداد منتظمـــا
لما غدا معلنا شعار بني العـ ... ـبّاس حقا والباطل اكتتمـــا
وبات داعي التوحيد منتصـــرا ... ومن دعاة الإشراك منتقمـــا
وظل أهل الضلال في ظلـــل ... داجية من غياية وعمـــى
وارتبك الجاهلون في ظلـــم ... لما أضاءت منابر العلمـــا
وعاد بالمستضيء مجتهـــدا ... بناء حق قد كان منهدمـــا
واعتلت الدولة التي اضطهـــدت ... وانتصر الدين بعد ما اهتضمـــا
واهتزّ عطف الاسلام من جـــذل ... وافترّ ثغر الإيمان وابتسمـــا
واستبشرت أوجه الهدى فرحـــا ... فليقرع الكفر سنّه ندمـــا

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٤٣

عاد عريم الاعداء منتهك الـ... ... حمى ، وفوء الطغاة مقتسما

تصور أهل القصور أخربها عامر بيت من الكمال سما

أزعج بعد السكون ساكنها ومات ذلا وأنفه رغما (١)

وقال مهنئا السلطان صلاح الدين بفتح بعلبك :

بفتوح عصرك يفخر الإسلام ... ومنور نصرك تشرق الايام

وبفتح قلعة بعلبك تهذبت ... هذي الممالك واستقام الشام

يبكي الحسود دما ، وثغر الثغر من ... فرح بنصرك للهدى بسام

نتن تسني في الصيام ، كأننا ... شكرا لما منح الإلـه صيام

من ذا رأى في الصوم عيد سعادة ... حلت لنا والفطر فيه حرام

أسدى صلاح الدين والدنيا يدا ... بنوا لهما سوق الرجاء تقام

فتمن نتحك ، واقصد الفتح الذي ... بحصوله لفتوحك الإتمام

دم للعلا حتى يدوم نظامها ... وأسلم يعز بنصرك الاسلام (٢)

وقال يمدح السلطان سنة ٥٦٨ بقصيدة تنيف على مائة بيت منها :

أرى الراية الصفراء يرمي اصطفاقها ... بني أصفر بالراعفات اللهاذم

تسبي فلسطينا وتجبي جزائرا ... وتملك من يونان أرض الاعاجم

وتعفو لها الاملاك شرقا ومغربا ... بذا حكمت حذاق أهل الملاحم (٣)

وقال يهنئه بالعافية سنة ٥٨٢ وهو على حمص :

فيا ملكا لم يبق للدين غيره ... وهت عمد الاسلام فاشدد لها دعما

نشوء فريق الشرك في الشام طائر ... فقص جناحيه بأقصى القوى قصما

خصصت بتمكين نعمة المسدى ردى ... فأنهم يأجوج أثر بها ردما

اذا صفرت من آل الاصفر ساحة الـ ... ... مقدس شاهت فتح أم القرى قدما

فذا المسجد الاقصى وهمتك الملوى ... وعزمك ألقصوى ورميتك الصما

فما هو إلا أن تهم وقد أتت ... فتوح كما فاض الخضم الذي طما

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٩٦ وأنظر البداية والنهاية ١٢/ ٢٦٥

(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٣١

(٣) المصدر السابق ٢/ ١١٦

وأزارها الضلالة الضل الذي … أهدى لهم شللا الى الأيمان
ولى وجوههم سواد وجوههم … نحو السواد ، وآذنوا بهوان

ومنها يذكر القادة :

حملت عليهم من جنودك فتية … لم تدر غير حمية الفتيان
زخرت بهم أمواج آجلك في الوغى … غزوا وطم بهم عباب " طمان "
وتذمموا من حرباء " محمد … وتهيوا الحملات من " عثمان "
وسيف " جرديك " المجرد غودروا … بدماء أهل الغدر في غدران
وحين دولتك الذى تدّتمه … فقئت عيون الكفر والكفران
واليارقية أرقتهم في الدجى … بسهام كل حنيّة مرنان
أجفانهم نفت الفرار كما انتفى … ماضي الفرار بهم من الأجفان
بحلوا معسكر بحايك وأبصروا … من جند بصرى بسرية كل جمران
وكأنما الأكراد فوق جيادها … عقبان ملحمة على عقبان
ولطالما مهرت على نصر الهدى … أنصارك الابطال من مهران
لم يترك الاتراك فيهم غاية … بالفتك والارهاق والإثخان
من كل رام سهمه بن وهمه … أهدى الى انسان عين الراني
ولك المماليك الذين بهم غنت … أملاك مصر لمالكي بغدان
هم كالصحابة يوم بدر حاولوا … نصر النبي ، ونبت عن حسان
الحائزون من السباق خصاله … في ملتقى حرب ، وفي ميدان
من كل مبسوط اليدين يمينه … ما تمتلي إلا بقبض يمان

ومنها في تمصيقمن حضر من الفرنج الملاعين خذ لهم الله تعالى :

لما رأى الداوي راونداه … ولى بطاعون بغير طعان
طلب الفريري الفرار بداله … متباعدا من هلكة المتداني
والهنفرى مذهان فرّ مؤملا … لسلامة ، والهون شأن الشاني
باروا فبارونيهم بفنائه … مود ، وسيرهم أسير عان

ومنها وصف ما اعتمده نور الدين في ذلك اليوم ، حيث أنفذ سرية الى بلاد القوم فأحرقت ونهبت ، وكبست أهلها وكسبت ، وذلك من طريق مخاضة الاحزان :

أخلوا بلادهم فحلّ بأهلها … منك الغداة طوارق الحدثان
أنهضت ، حين خلت ، اليها عسكرا … أخلى قواعدها من البنيان
وشغلت جأشهم بجيش عندهم … فجنى ثمار النصرة الجيشان

وملأت بالنيران أربع أهلها … فتعجلوا الاحراق بالنيران
عادوا وحين رأوا خراب بيوتهم … يئسوا من الأوطار والأوطان
باءوا بأحزان وخاضوا هولها … مما لقوا بمخاضة الاحزان
وقد استفاد المشركون تمازيا … والمسلمون تهاديا بتهان
لم تلقهم ثقة بقوة شوكة … لكنْ ، وثقت بنصرة الرحمن

ومنها :

دانت لك الدنيا ، فقاصيها إذا … حققته لنفاذ أمرك دان
من العراق الى الشام الى ذرى … مصر الى قوص الى أسوان
لم تله عن باقي البلاد وإنما … ألهاك فرض الغزو عن همذان
أذعنت لله المهيمن إذ عنت … لك أوجه الاملاك بالاذعان
أنت الذي دون الملوك وجدته … ملآن من عرف ومن عرفان
عمران عدلك للبلاد كأنما … قد عاش في أيامك العمران
خلدت في الآفاق ذكرا باقيا … أبدَ الزمان بهذل طائر فسان (١)

وقال يمدح الملك المظفر تقي الدين عمر لما أبداه من شجاعة يوم معركة الرملة سنة ٥٧٣ منها :

بنو أيوب مثل قريش مجدا … وأنت لها كأنزعها البطين
ويوم الرملة المرحوب بأسا … تركت الشرك منزعج القطين
وكنت لعسكر الاسلام كهفا … أوى منه الى حصن حصين
وقد عرف الفرنج سطاك لما … رأوا آثارنا عين اليقين
وأنت ثبت دون الدين تحمي … حماه أوان ولى كل دين (٢)

---

(١) الخريدة ، بداية قسم الشام ٥٣ ، والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٢٩

(٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٧٠٣

قال يمدح الملك المنصور صاحب حماة بقصيدة مطلعها :

أمن اللواحظ أن يفوّق أسهما ... ريم براءة طارق حتى رمى

ومنها :

كم بلدة للمشركين بناؤها ... بسطاك في يوم المغار فهدما
وشننت منتقماً بساحل بحرها ... جيشاً حكى البحر الخضم عرمرما
أسدلت في الآفاق من هبواته ... ليلاً وأطلعت الأسنّة أنجما
ودحيت أرض طلا الكماة براحة ... بني العجاج لنجم صارمها سما
وبدا لترقيص الجماجم صارم ... بلسانه كم شق من كلم فما
سيف هو النهر الذي في سيفه ... تضحى نفوس بني الأصفر عوّما (١)

---

(١) مفرج الكروب ٣/١٤٩ ــ ١٥٠ .

قال يمدح صاحب حماه الملك المنصور بقصيدة مطلعهـا :

المجد يدرك بالبسالة الذبـــل	والمشرفية لا بالوعد والأمـــل

ومنهـا :

أسهرت عينك في كسب العلا ولكـم	من بات يسهرها في اللهو والجـذل
جاهدت في الله طوعا والملوك غـدوا	يستهترون بذات الحلي والحلـل
أغمدت بيض المواضي في الرقاب وقـد	حلّيت عاطلها ضرباً من القُلـل
عاجلتهم بالمنايا والحتوف فلا تتـرك	لهم آجالا يبقى الى أجـل
فاكسر صليبهم عن صلب حصنهـم	وارفع لمجدك اعلاما على جبـل
صفدهم عاجلا واجعل حصونهـم	سجونهم فهم في غاية الفشـل (١)

(١) مفرج الكروب ٣/١٤٤ وانظر تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ٢ ص ٢٥٢

قال يمدح صلاح الدين بعد فتح حصن بيت الأُحزان :

هلاكُ الفرنج أتى عاجـلاً ... وقد آن تكسير صلبانهـا

ولو لم يكن قد دنا حتفُهـا ... لما عمرت بيت أحزانهـا (١)

(١) الروضتين جـ ٢ ص ١١ وانظر الكامل ١١/ ٤٥٧

قال في فتح يافا ، وذكر الهدنة مع ملك الانجليز قصيدة أولها :

الوقت أضيق من مطال قصيدة ... موسومة لصفات أغيد أهيف
الجد في هذا الزمان مبين ... والهزل فيه مع الغواية مختف
بالناصر المهدي والهادي السنن ... سبل الجهاد أبي المظفر يوسف
المستبين برته والواثق المنصور والمستظهر البر الوفي
هدت قوى أركان ملة أحمد ... وتجملت بجهاده في الموقف
ملك اذا أمّ الملوك جنابه ... لاذوا بأكرم من يؤم وأشرف
واذا أتوا أسرى الى أبوابه ... وثنوا بأعظم من يصول وأرأف
دولى ، غدا للدين أكرم والد ... حدب على أبنائه مترفرف
عزل الفرنجة ثم ولى جيشه ... أعظم به من سارف ومصرف
قد أنصف التوحيد من تثليثهم ... وأتام في الانجيل حد المصحف
مغرى بتجريح الرجال لأنه ... يروي أحاديث العوالي المرهف
ملك له في الحرب بحر تفقه ... وله غداة السلم زهد تصوف
وعليا نزل في الجهاد مفصل ... فلذاك يقرأه بصبحة أحرف
عزم وحلم أنسيا ما كان من ... عزم ابن مرداس وحلم الأحنف
يا أيها الملك الذي لطباعه ... وسيوفه خلقا رضى وتعسف
لله يوم عروبة اذ درست ... ساحاته عن نصراء المتعسرف
سنت سيوفك في الرؤوس ختانة ... نشبت بمهجة كل علج أقلف
آفاتهم وانت بأخذك منهم ... يافا فكم من حسرة وتأسف
أوما رأى الاعلاج حين دعوتها ... بلسان سيف في الكريهة ملحف
لم تستطع عصيان أمرك بل أتت ... منقادة طوعا ولم تتخلف
فاستدع جارتها وثن بأختها ... وكذاك حتى الاربعين ونيف
ما للسواحل غير بحرك حافظ ... بشبا سنان أو بصفحة مرهف
هذا الطراز الاخضر استفتحته ... فرضى بثوب من علاك مسجف
أحييت دين محمد وأتممته ... وسترته من بعد طول تكشف
وضبطت ديوان الجهاد بحاصل ... من عامل ومشرف من مشرف
وبجهبذ الحزم الذي لا ينثني ... وبناظر الرأي الذي لم يطرف
فخذ الخراج من البسيطة كلها ... وأستاد فرضي جزية وموظف
واقبض على الدنيا بكف زهادة ... وابسط لرحمتها جناح تعطف
جاءت جنود المطلب ثأرها ... وصدور عامل عن قليل تشتفي
فانهض بها وتقاض حقك موقنا ... ان الاله بما تؤمله حفي
هم فتية الاتراك كل مدجج ... يغشى الكريهة فوق كل مجفف
قوم يخوضون الحمام شجاعة ... لا ينظرون اليمن طرف تخوف

ان صبّحوا الاعداء في أوطانهم ... تركوا ديارهم كقاع صفصف
أنا اصطفيتهم لنصرة ديننا ... لله در المصطفى والمصطفي

ومنها :

ياصاح قل للانكتير الكلب دع ... عنك الجنون وخذ مقالة منصف
القدس ما فيه لمرجاك مطمع ... كلا ولا نور الاله بمنطف
والمسجد الاقصى فمنه تقهقر ... وقع الدبابيس الالهية تصرف
واستفت نفسك فهي أخبث ناصح ... واترك متابعة اللجاج المتلف
واعجب لرمح بالرؤوس مثقّم ... واضرب لسيف بالدماء مغلف
قد قلت لما قيل صلح قد جرى ... هذا حديث مخرف ومحرف
سلف تولى السيف عقد شروطه ... احببْ به من مسلم ومسلف
دلنوه سلما ودنو في أرواحهم ... سلمَ الى أجل لهم متخلف (١)

---

(١) الروضتين ٢/١٠٣ و ٢٠٤

وله فيـــه أيضــــا :

يا منقذ القدس من أيدي جبابـــــرة
تأكذبوا كذبهم في وصف ربهـــــم
أما رأيت ابن أيوب استقل بمـــــا
دان الفرنج وقد خاروا المقتضيـــه
لما سبى القدس قالوا : كيف نتركهـــا
تكم مليك لهم شق البحار ســـرى
وكم ترحل منهم فهلك بغـــــلا
استصرخوا الاهل والعدوى تمزقهـــم
هم الفراش لهيب الحرب تحرقـــه
سيف أمام فلسطين يرى أمـــــا
كم قد أعدوا وكم قد فل جمعهـــم
وانما اسم صلاح الدين يذكر غـــي

قد أقسموا بذراع الرب قد غلبـــه
وصدق الوعد فاموا محولـــه
يحيي الزمان وأهليه تخملــــه
فاستنفروا كل مرهوب تدللـــه
والرب في حفرة منها تمثلـــه
لينصروا القبر ، والأقدار تخذلـــه
الى الخوامق ألقاه ترحلـــه
واستكثروا المال والهيجا تثقلـــه
وكلما لج عدما جل مقتلـــه
خلف البحار لقد أعياه مبتلـــه
من غير ضرب ولا طعن يزيلـــه
جيش العدو فيسبيهم تخيلـــه (١)

---

(١) الروضتين جـ ٢/١٥١

قال يمدح صلاح الدين عند فتح القدس بقصيدة منها :

أبا المظفر أنت المجتبي لهـدى أخرى الزمان على خير بخيرتـه
فلو رآك وقد حزت العلى عمـر في تلة التل تقضي كنه عبرتـه
ولو رآك وأهل القدس في ولـه أبو عبيدة فدى من مسرتـه
غداة جزوا النواصي/تما متـه وأعولوا بالتباكي حول صخرتـه
دارت بك الملة الحسنى فنحن على عهد الصحابة في استمرار ملتـه
وأنت كأسطك صديق وصاحبـه الـ ـملك المظفر سام في مبرتـه
وفي الثلاثة عثمان يؤيـده فلا علي على إيثار نصرتـه
وكم لديك ذوو قربى رقوا شرفـا وكم بعيد رأى الزلفى بهجرتـه
يشبه الفتح ما بين البزاة لقـى ملك الفرنج أخيذا بين عترتـه
أما رأيت معالي يوسف نسقـت حتى رمت كل ذي ملك بحسرتـه
أضحى لنشر الهدى في فتح منهجـه وبات يطوي العدى في مد شرتـه
واستنبع الرجس منوا بمشهـده فاستفتح القدس محشوا بزمرتـه
اكن يا صلاح الدين أن يهلهـم بوقعة التل واستشراء سورتـه
يحيي الجوارح والفرسان وهو على بدء النشاط عشياً مثل بكرتـه
يا فاتح المسجد الاقصى علي بهـم وقائد الجيش لا يحصى بكثرتـه
أبشر بملك كظهر الشمس مطلـع على البسيطة قاض بنشرتـه
حتى يكون لهذا الدين ملحمـة تحكي النبوة في أيام فترتـه (١)

وله فيه من قصيدة طويلـه :

أبو المظفر ماوى كل مضطهـد بحلمه ونداه يضرب المثـل
مهما يمل جائر أو عاث مجترمٌ فقد عدل صلاح الدين يعتـدل
احيا بما الله مصرا فهي ناضـرة وانتكثها منذوما بعتبـل
كم للفرنج بها وردا ومنتجعـا ونارهم حولها تذكو وتشتعـل
فاجتا الناصر المنصور جذوتهـم وادبروا بقلوب شفها وجـل
ملك تقلد ملك الملك منتظمـا وقال للمال هذا منك لي بـدل
تفرق المال جمعا للقلوب بـه وحسبه فيهم إدراك ما سألـوا
ان الملوك الذين امتد أمرهـم لم يخزنوا المال ، بل مهما حووا بذلوا
كذا السياسة ، فالاجناد او علمـوا بخل المليك وجاءت شدة خذلوا (٢)

---

(١) الروضتين ١ / ١٠٣
(٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤١٥

قال يمدح صلاح الدين بعد هدنة سنة ٥٨٨ مع ملك الانجليز ، بقصيدة منها :

منعت ظباء المنحنى بأسوده ... وأشد ما أشكوه فيك ظباؤه
فسلت بنا وهي الصديق لحاظها ... كظبى صلاح الدين في أعدائه
سل عنه قلب الانكتير فان في ... خفقانه ما شئت من أنبائه
لولاك أم البيت غير مدافع ... وأسال سيل نداه في بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دما ... لترنم الناقوس في أفنائه (١)

وقال يمدحه بقصيدة منها :

عصفت به ريح الخطوب زعازعا ... فلقين طوداً لا تخف أناته
هو منقذ البيت المقدس بعد ما ... طالت فما وجد الشفاء شكاته
بيت تأسس بالسكون وانما ... عند الزحاف تحركت سكناته
أشققت الاعداء وهي جحافل ... عن شمل دين جمعت أشتاته
أوتيت عزما في الحروب مسددا ... لا زينه يخشى ولا هفواته
أحصن بالبيت العتيق ويثرب ... ولك الفضائل كثيرة حسناته
هذى سيوفك محرمات دونه ... لبكائهن تبسمت حجراته (٢)

وقال يمدح الملك الظاهر وسيرها في رجب سنة ٥٩٤ أولها :

كم بين أكناف العذيب وحاجر ... منا صريع نواظر وحناجر

ومنها :

لا تفخرن أمامه بفضيلة ... فهو المتقي بكل فضل فاخر
من رمحه الخطي أفصح ناطق ... وحسامه الهندى أبلغ ناشر
بحر من الانعام يملك سمه ... شكرا لمديد على نداه الوافر
هو خافض الاعداء ينصب نفسه ... لبناء علياء ورفع محاجر
يحظى ويضحك في خلال عطائه ... كالبرق يضحك في الغمام الماطر
ملك اذا نشرت ملاءة نقعه ... بوفى فما وجه الصباح بسافر
نثرت حياة البيض بيض سيوفه ... والخيل تسبح في النجيع المائر
وبنى منقفة القنا معوجة ... فسرى الردى منهن فوق قناطر
وكم أضرمت نار الحطام وغمادرت ... عمرا ضرابا دون ملك عامر
درت مواهبه فلا عدم الورى ... حلب السماح لغائب ولحاضر

---

(١) الروضتين ج ٢ / ٢٠٤ تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ جـ٢ ص ٨٦

(٢) الروضتين ٢ / ١٠٦

أخلى الجسوم من النفوس حسامه ... فاليوم ساكنها كأمس الدابر

فمعاقل للكفر أي معاقر ... وجزائر للسيف أي جزائر

صدع يعز على الأعادي شعبه ... أبدا وكسر ما له من جابر

من معشر ورثوا -وإن رغم العدى ... شم الممالك كابرا عن كابر

لبسوا من الغدران أي سوابغ ... وعلوا من الخلجان أي بواتر

وعلى الضمائر يقدمون شجاعة ... ما تلك الإدراك فوق ضمائر ... الخ (١)

وقال يمدح صلاح الدين بعد تخريبه حصن بيت الأحزان سنة ٥٧٥ بقصيدة أولها :

بجدك أعطاف القنا تتعطف ... وطرف الأعادي دون مجدك يطرف

شهاب هدى في ظلمة الشك ثاقب ... وسيف هدى في طاعة الله مرهف

وقفت على حصن المخاض وإنه ... لموقف حق لا يوازيه موقف

فلم يبد وجه الأرض بل حال دونه ... رجال كآساد الشرى وهي ترجف

وجرداء سلهوب ودرع مضاعف ... وأبيض هندي ولدن مثقف

وما رجعت أعلامك الصفر ساعة ... إلى أن غدت أكبادها السود ترجف

كبا من أعالي صليب وبيعة ... وشاد به دين حنيف ومصحف

صليب عباد الصليب ومنزل النـ ... ـنزال لقد غادرتمو صفصف

أيسكن أوطان النبيين عصبة ... تمين لدى أيمانها وهي تحلف

نصحتكم والدين في النصح واجب ... ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف (٢)

وقال يحرض صلاح الدين على فتح حلب ، من قصيدة :

لولا مساعي صلاح الدين ما صلحت ... شم الممالك بعد الزيغ والميل

ولا اغتدت ألسن العلياء مفصحة ... من بعد ما كن رهن العي والخطل

فانهض إلى حلب في كل سابغة ... سروجها قلل تغني عن القلل

ما فتحها غير إقليد الممالك والـ ... ـداعي إليه جميع الخلق والملل

وما عصت منعة لكنه غضب ... عالم أحملتها أهالها ميتذل

غارت وحقك من جاراتها فشكت ... ما بالها فيصاحبي غير مبتذل

....

فليحلم القدس أن الفتح منتظر ... حلوله ، وعلى الآفاق فليطل (٣)

وقال يمدح صلاح الدين ويهنئه بالفتوحات :

أعيا ، وقد عاينتم الآية العظمى ... لأية حال ندخر النثر والنظما

وقد سار نعت القدس في كل منطق ... وشاع إلى أن أسمع الأسل الصما

تحل به الأعداد ، والمنظ واحد ... فكم سر قلبا في الأنام وكم غما

حبا مكة الحسنى ، وثنى بيثرب ... وأطرب ذيات الضريح ، وما ضما

---

(١) ديوانه جـ ١ ص ١٧١

(٢) الروضتين ٢ / ١١ وانظر الكامل ١١ / ٤٥٧ وديوانه جـ ٢ ص ٤٠٩ والبداية والنهاية ١٢ / ٣

(٣) عقد الجمان جـ ١٧ ق ١ ورقه ٣ وانظر ديوان ابن الساعاتي جـ ٢ ص ٣٨٢ والروضتين ٢ / ٣

فليت فتى الخطاب شاهد فتحهـــا ... فيشهد أن السهم من يوسف أصمـــى
وقد أوتي الفتحين : مالا وبلــدة ... فلم يبق نصرا ما حواه ولا غنمـــا
ففي لهوات الشرك أرسلها تجســي ... وفي جبهة الأيام غادرها وسمـــا
وما كان الا الداء أعيـــا دواؤه ... وغير الحسام العضب لا يحسن الحسمـا
وأصبح ثغر الدين جذلان باسمـــا ... وألسنة الاغماد توسعه لثمـــا
سلوا الساحل المخشي عن سطواتـه ... فما كان الا ساحة صادف اليمـــا
تجاوزت ما أعيا الجبال منالــــه ... فهل يقظة كانت مساعيك أم حلمـــا (١)

وقال يمدح الملك المعز فتح الدين أسحق بن صلاح الدين ، بقصيدة أولها :

أن حجبتم أشباحكم والمنامـــا ... فابعثوا لي مع النسيم السلامـــا

ومنهـــا :

ما نداه طلا ولا جــــوده الفيـــض قلا ولا السحاب جهامـــا
واهب المرهفات من عشقهــــا الهــام نجادا والمرهفات جمامـــا
ويرد الخميس طعنا فأن لـــم ... يغض ربا فان أبى فصدامـــا
كاتبا بالسيوف في جبهـــات الصيــد لم يأل بالقنا أعجامـــا
شاعر ينظم القلوب ولا ينثـــر الا نظم المالى والهامـــا
ويجر الإرزاق أو يرفـــع الاتـــدار منا أو ينصب الاعلامـــا
واذا صلت السيوف فللهـــــــام سجود لهن كان اماما
في الوغى والندى حربا وسلمـــا ... شف في ذا كلما وفي ذا كلامـــا
فاذا لم يكن بجال لسيـــف ... سل آراءه وشاما لحسامـــا
لا يسام المخسوف بدر محيـــاه وعادى مجده لا يسامـــى
فثناه كالمسك طاب شميـــما ... وحجاه كالعلم طال شمامـــا
حبذا عرفه النمـــو ومـــا أحــبيت من قبل عرفه نمامـــا
. . . .
بك فتح الدين الحنيـــف أذل الســـيف عز الصليب والازلامـــا
ما شكا جفنه الجريـــح الـــى كفـــك سهدا حتى أنمت الانامـــا
ضاق عن حولها ارســـاء ولولا المـــأزق الضنك ما بعثت السهامـــا
فالتقى زغفيك جنة وأصطبـــارا ... وحسابك صارما وأعتزامـــا
فلقد كلت الظبى الضرب والســـمــر من الطعن والجياد الصدامـــا
وأستحال الهجير ظلا ونـــار الـــكفر صارت بردا لنا وسلاما ... الخ (٢)

---

(١) الروضتين ٢ / ١٠٦ ، ديوانه ١ / ٣٨٥ .
(٢) ديوانه جـ ١ ص ١٤٢ ـ ١٤٦ .

وقال يمدح الملك المعظم عيسى بن العادل سنة ٦٠٠ بقصيدة أولها :

سقيت حيا جفني يا بانة الحمى   وان كان ماء أنت عبرته دما

ومنها :

فتى أفصحت عنه مخايل مجده   ففي مهده طفلاً بهن تكلما
يريك ربيعا كل وقت جنابه   ويأبى نداه أن يكون محرما
سلوا السن الاعلام عن فتكاته   وقب المذاكي والوشيج المقوما
حمى القدس من رزق الاعادى بصمرها   فما تجد الخطي الا تحطما
شكا أهلها دائي محول وخيفة   فأجرى على أعطافها الماء والدما
سقى ربها ماء النجيع سيوفه   ففي غيرها لا يستجيز التيمما
فلم يبق في ساحاتها غير مسلم   ولولاه لم تبق الفرنجة مسلما
وما صانها دارا تحل وانما   ولكنه صان الحطيم وزمزما
اذا سل بالبيض الحداد من أشمست   وان كف ثوب الصبح بالنقع عتما
يضيء بمحياه وللركض هبوة   فتلقاه فيها سافرا متلثما
وما جلق في المدن الا كغيرها   اذا لم يحطها ظاعنا ومخيما
سقى الله عهد النيربين عهاده   وعيشا لنا بالغوطتين تصرما
فلم أر ظلا سابغا غير ظله   ولم أر وردا غيرها ينقع الظما ... الخ (١)

وقال في فتح طبرية :

جلت عزماتك الفتح المبينا   فقد قرت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الاسلام لما   غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بها الصليب وكان قدما   يعز على العوالي أن يهونا
يقاتل كل ذى ملك رياء   وأنت تقاتل الاعداء دينا
غدت في وجنة الايام خالا   وفي جيد العلا عقدا ثمينا
فيا لله كم سرت قلوبا   ويا لله كم أبكت عيونا
وما طبرية الا هدي   ترفع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء   وملّ عنها الليالي والسنينا
فضضت ختامها قسرا ومن ذا   يصد الليث أن يلج العرينا
لقد أنكحتها صم العوالي   فكان نتاجها الحرب الزبونا
هناك ندى أهل الارض طرا   سواك ومقل أعيا القرونا
قست حتى رأت كفوا فلانت   وغاية كل قاس أن يلينا
تنيت فريضة الاسلام منها   وصدقت الاماني والظنونا
تهز معاطف القدس ابتهاجا   وترضى عنك قلة والحجونا

---

(١) ديوانه جـ ١ ص ١٧٧ ــ ١٧٩

[illegible] ـــــــ

جعلت عباد آملها ظلالـــــــا

تغال حماة جوزتها نســـــــاء

لبيضك في جماجمهم غنـــــــاء

تميل الى المثقفة العوالـــــــي

يكاد النقع يذهلها فلـــــــولا

فكم حازت تدود قناك منهـــــــا

وغيد كالجآذر آنســـــــات

ولما باكرتها منك نعمـــــــى

أعدت بها الليالي وهي بيـــــــض

فليم بمادم برعى خصيبـــــــا

فلا عدم الشام وماكنـــــــوه

سهاد جفونها في كل فيـــــــح

تألم بالسواحل فهي [illegible]ـــــــور

تقلب السور سرور ولـــــــو لا

أدرت على الفرنج وقد تلاقـــــــت

ففي بيسان ذاقوا منك بؤســـــــا

لقد جاءتهم الأحداث جمـــــــا

وخافهم الزمان فلا مـــــــلام

لقد جردت عزما ناصريـــــــا

فكنت كيوسف الصديق حقـــــــا

لقد أصبحت من طلب المعالـــــــي

وان تك آخرا وخـــــــلاك ذم

وأبدلت الزئير بها أنينـــــــا

يخوضون الحديد مقنعينـــــــا

اذيق علم الطير الحنينـــــــا

فهل أمست رباها أو حصونـــــــا

بروق القاضبات لها حدينـــــــا

تدود كالقنا لونا ولينـــــــا

كغيد نداك أبكارا وعونـــــــا

بنان تفضح الغيث الهتونـــــــا

وقد كانت بها الأيام جونـــــــا

أخو سغب ولا ماء معينـــــــا

الى تشفى بها الداء الدفينـــــــا

سهاد يمنع الغمض الجفونـــــــا

اليك وألحق الهام المتونـــــــا

سطاك لكان مكتئبا حزينـــــــا

جموعهم عليك رحى طحونـــــــا

وفي صفد أتوك مصفدينـــــــا

كأن صروفها كانت كمينـــــــا

فلست بمنقص زمنا شؤونـــــــا

يحدثه عن سناه طور سينـــــــا

له صوت الكواكب ساجدينـــــــا

وحاول أن يؤمر المسلمينـــــــا

فان محمدا في الاخرينـــــــا (١)

---

(١) الروضتين ١/٨٤ وانظر عقد الجمان ج ١٧ ق ١ ورقه ٣٦ ــ ٣٧ وديوانه ج٢ ص ٤٠٦

قال يمدح صلاح الدين :

طالت فروع الحمد فيه كما زكت منه الاصول
راياته تحكي الاصيل فرأيه الرأي الاصيل
حيث الخيول على العدو وكماتها فيها الوعول
أما وقد قصد الغزاة وهنّت القرب النصول
وبكت به أم الصليب وشد صارمه الصليل
وبدت له أرض الشآم تهون اذ كانت تهول
فلسوف يفتح قلبها من قبل أن يقع القفول
ويعيد ما فض العدى بكرا تزف لها الفحول
يا أيها الملك الجليل الامر والملك الجليل
كم منة لك تستطير ومنة بل تستطيل
ولكم صفحت عن الفرور وقد تبطله الفلول (١)

وقال يمدحه أيضا سنة ٥٧١ :

يا صلاح الدين يا ملك قد براه الله للأمم
أضحت الكفار في نقم وغدا الاسلام في نعم (٢)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ١ / ١٠٨
(٢) الخريدة،قسم شعراء مصر ١ / ١٠٦

قال يمدح الملك الناصر صلاح الدين ، ويهنئه بفتح حلب من عماد الدين زنكي بن مسعود سنة ٥٧٩ :

بدولة الترك عزت ملة العرب   وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب

وفي زمان ابن أيوب غدت حلب   من أرض مصر وعادت مصر من حلب

ولابن أيوب دانت كل مملكة   بالصفح والصلح أو بالحرب والحرب

مظفر النصر مصحوب بهمته   الى العزايم مدلول على العزب

والدهر بالقدر المحتوم يخدمه   والارض بالخلق والافلاك بالشهب

ويجتلى الخلق من راياته أبدا   مبيضة النصر من مصفرة العذب

ان العواصم كانت أي عاصمة   مصونة بتعاليها عن الرتب

ما دار قط عليها دور دائرة   كلا ولا واعلتها نوبة النوب

لو رامها الدهر لم يظفر ببغيته   ولو رماها بقوس الافق لم يصب

ولو أتى أسد الابصار مفتصرا   خارت قوائمه عنها ولم يثب

جليتا النجم في أعلى منازله   وطالما غاب عنها وهي لم تغب

تلقى اذا عطشت والبرق أرشية   كواكب الدلو في بئر من السحب

كل القلاع تروم السحب في صعد   الا العواصم تبغي السحب في صبب

حتى أتى من منال النجم مطلبه   يا طالب النجم قد أوغلت في الطلب

من لو أبى الفلك الدوار طاعته   لصير الرأس منه موضع الذنب

أتى اليها يقود البحر ملتطما   والبيض كالموج والبيضات كالحبب

مستلئمين ولولا أنهم حفظوا   عوائد الحرب لاستغنوا عن اليلب

جمالهم من مخازيهم إذا قفلوا   حمالة الحرب لا حمالة الحطب

فما ترى منها ركن لا يقبله   الا أسنة أطراف القنا السلب

وحل من حولها الاقصى على فلك   ودار من برجها الأعلى على قطب

. . . .

لو لم تجب يوسفا من قبل دعوته   لساد طائرها كالجوسق الخرب

خافت وخانت وقر المالكون بها   فالمدن في رهب والقوم في هرب

ثم استجابت فلا حصن بممتنع   منها عليهم ولا ملك بمحتجب

وأصبحوا منه في هم وصبحهم   وهم سكارى بكأس اللهو والطرب

تفرغوا لنعيم العيش واشتغلوا   عن الثغور بلثم الثغر والشنب

أرض الجزيرة لم تظفر ممالكها   بمالك فطن أو سائس درب

ممالك لم يدبرها مدبرها   الا برأي خصي أو بعقل صبي

حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت   من الفساد كما صحت من الوصب

واستحصل الجد فيها غير مكترث   بالجد حتى كأن الجد كاللعب ... (١)

---

(١) ديوانه ص ٩ ـ ١٦ والروضتين ٢ / ٤٢

وقال يمدح الملك المظفر تقي الدين وكان عازما على المضي الى افتتاح المغرب سنة ٥٨٢ :

لنيرك حتى تملك الغرب بالغلب … قد اجتمعت زهر الكواكب في الغرب
وما اجتمعت الا لتنجد عسكرا … بسعدك يغني عن مساعدة الشهب
وباسمك من قبل الوغى تهزم العدى … وباسمك قبل الحرب تنصر بالرعب
ولكن ارادت أن تفوز بخدمة … تشرفها من بعد ما ملك بالقرب
وتأوى الى حزب المظفر انه … يظفر من يأوى الى ذلك الحزب
وتبذل فيه ما اقتضته طباعها … فتكشف عنه شمسها ظلمة الخطب
ويجلو لها البدر المنير مسالكا … فيسهل منها كل متوعر صعب
ويسعد بالبرجيس في السلم مثلما … يساعده المريخ في حومة الحرب

. . . .

لك الجحفل الجرار للبيض والقنا … تخط خطوط النصر حتى على الترب
به كل وثاب الى الموت باسل … ومن ذا يرد الاسد عن عادة الوثب
يعفون عن كسب المغانم في الوغى … فليس لهم غير الفوارس من كسب
ويشغلهم بسعي الاسود عن النهى … ويلهيهم نهب النفوس عن النهب
لهم معجز في الطعن والضرب باهر … فلا طعن في طعن ولا ضرب في ضرب
ويرهب من أسيافهم قبل سلها … ورب سيوف قطعت وهي في القرب
فمن في الاعادى غير متقد المنى … بهم وتراهم غير آمنة السرب
وكم ملك بالتاج يعصب رأسه … أتوه فحازوا ذلك العصب بالغصب

. . . .

هنيئا لك الملك الذي أنت ربه … بذلت له جهد النفوس في طاعة الرب
وبعثك للكفار دائمة [illegible] … تسوق الى السلطان قاصمة الصلب
وسطاك كنا تشهد السحب أنها … وقد صدقت أندى بنانا من السحب
وإدناؤها لظمآن للجود والندى … من المنهل الفياض والمورد العذب
وتقريبك المظلوم من غير حجبة … وان كنت من نور الجلالة في حجب
وسيرك فينا سيرة عمرية … فروحت من قلب ومزجت من كرب
وردك فينا من سجيتك سنة … فأظهرت ذاك الفرض من ذلك الندب
فيا مصر تيهي واستطيلي بملكه … وقولي له حسبي بملكك من حسب
ولا غرو أن تاهت بملكك وازدهت … ولا عجبا أن أسرفت بك في العجب (١)

وقال يمدح الملك العزيز عثمان سنة ٥٩٤ حين رد الفرنج الالمانيين عن تبنين :

الشام للاسلام دار القرار … وكان من قبل طريق الفرار
وكان في ظلمة ليل دجت … فجاء عثمان بها والنهار
وجاءه بالبر بعد الضنى … وجاءه بالأمن بعد الحذار
فيا أمان الكفر لا تأمنوا … بدار ما الشام لكفر بدار

---

(١) ديوانه ص ٦٦ – ٦٧

ويا عماد الدين يا من لـه ... كل نهار في الأعادي مغـار
وجئت لتهنين ومن حولها ... قوم كأعداد الحصى للحصـار
سدوا عليها الطرق حتى لقد ... كادوا يسدون طريق القطـار
يجوزها الطايف ،ولكن علـى الاخطار أداها اليـه الخطـار
ساق اليها الكفر أجناسه الـ ـطار قادتها الملوك الكبـار
من كل من يزأر من غيظه ... كأنه من مغرب الشمس نـار
إثما على البرآتي راكضا ... أو يجتاح القلع في البحر طـار
وطبقوا البحر سفينا فما ... بانوا وساروا فوقها في تقـار
وأموا الثغر وطافوا به ... وأحدقوا كالنمل لا كالسـوار
واجتمعوا حولا ودم حوله ... مدوا كسيل وأحاطوا كنـار
وكان ذاك الثغر من أهله ... وقبل أن يحضره في أستضـار
وكان أهل الكفر في جمهرة ... فعندما أطللت طاروا شـرار
وانهزموا للبحر إذ أبصروا ... بحروقى تغرق فيه البحـار
وعذرهم إذ هربوا واضح ... هل يثبت الليل أمام النهـار
أقسم ما شدوا إزارا لهم ... إلا لأن الليل مرخى الإزار
لولا سرى القوم بعجيلهم ... عجلت في القوم شقاء الشفـار
وظلمة الشهر إذ تمهم ... فليشكروا منه ليالي السـرار
وكان للنيت يد عندهم ... لأنه منك لهم قد أجـار
لولم يحق سيفك ما سح من ... هام مطير سح هام مطـار
عجوا وعاجوا عن طريق الردى ... فما تخلوا من غور أو شـوار
ومنهم يهجعون من خوفه ... فما حديث القوم إلا سـرار
وانقلبت بالذل أزياؤهم ... فصار ذو المغفر ذات الخمـار
أمنت ذاك الثغر من عقره ... ومنك لم يقدر عليه تـدار
ومن حصار الكفر خلصته ... بالبأس بل من حلقات الأسـار
وما سمعنا قط عنها جرى ... ما فيه لا بل ما عليه غبـار
غزوا ولا عار عليهم به ... إن فرارا منك ما فيه عـار
فراضي الرأي اجتناب الوغى ... وهو لهم قد أحسن الاختيـار
يا ملكا تهزم أعداؤه ... بالرعب هذا وأبيك الفخـار
تخيرت حتى الشام إذ زرته ... منامرا أهوالك تلك النمـار
وذل ملك الكفر فيه فقد ... أضحى دم الجبار فيه جبـار
فارجع إلى مصر فقد شفها ... إليك شوق وشجاها أوكـار
وانتظرت عودك مشتاقة ... ما أصعب المشتاق بالانتظـار
تشتاق منك البدر والليث والغيـث ووهاب الالوف النضـار
ومن إذا ما حل في موطن ... حل بها العز وإن سار سـار
والشام قد أوسعتها رحمة ... وآن أن ترحم هذي الديـار

ومصر أهل الملك وهي الـــتي ... أجنت يد الاسلام تلك الثمـــار
نصد ولا زلت لنا عائـــدا ... بالفضل والبسطة والاقتـــدار
والدهر لا زلت به لابســـا ... عمرا طويلا في ليال قصـــار
تبقى مدى الدنيا وأمثالهـــا ... طولا وهذا القول مني أختصـــار (١)

وقال يمدح القاضي الفاضل ويهنئه بفتح عسقلان سنة ٥٨٣ بقصيدة مطلعها :

بأتت معانقتي ولكن في الكـــرى ... أترى درى ذاك الرقيب بما جـــرى

ومنهـــا :

بلغ السماء معالياً وكفا رمـــا ... ظهرت ويبلغ فوق ذلك مظهـــرا
فضل الملوك فصار يُسْمى فاضـــلا ... سَتروا لديه فصار يدعى الأكبـــرا
ويحف ألوية الملوك وأنـــه ... متكبر عن أن يرى متبخـــترا
فيقوده حد الحسام مفلـــلا ... ويرايه حد الهزبر مسعـــرا
الرأي أبيض واليراع مســـوّد ... فيقوم في حرب العدو مشهـــرا
جملت براعته الكلام المفاضـــه ... عبدا ولكنا نراه محـــررا
وسقى الندى من راحتيه يراعـــه ... فلذاك أزهر بالبيان وأثمـــرا
كسر الصليب صنيّه من رأيـــه ... فسل العدى من كان أصلب مكســـرا
ولقد أقر الله عين نبيـــه ... بمطهر جعل الشآم مطهـــرا
ما زال أو جعل الكنيسة جامعـــا ... والأنبل المخفوض منها منبـــرا
فتح الشآم به وقال زمانـــه ... أن كنت فاتحه فلن يتغيـــرا
الشام دارك لو أردت أخذتـــه ... بالأرث عن آبائك الشم الـــذرى
منه بزغت وكنت بدرا نـــيّرا ... وبه طلعت وكنت صبحا مسفـــرا
وله ملكت فلا برحت ملكـــا ... وبمظفرت فلا برحت مظفـــرا
من مبلغ بيسان سيدة القـــرى ... أن الهناء أتاك من أم القـــرى
فلو استطاع البيت أرسل حجـــره ... وفدا وأرسل بالهناء المشعـــرا
ولقد أعدت لعسقلان روحـــه ... ورفعت شاهقه وكان مدمّـــرا
وأدمت راحته لدمت مخلـــدا ... وعمرت ساحته فصمت معمّـــرا
كفر الشآم وعسقلان مؤمـــن ... حاشاه وهو عرينه أن يكفـــرا
ولكان مؤمن آل فرعون بهـــم ... اذ كان يضمر ضمن ما قد أظهـــرا
لأغرت مصر به وأيسر حقهـــا ... أن لاتغار وحقها أن تعذرا ... (٢)

---

(١) ديوانه ص ٢٨٣ ـ ٢٨٩ (٢) ديوانه ص ٣٥١ ـ ٣٦١

وقال يمدح الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب ، بقصيدة مطلعها :

تنزه طرفي بين زاه وزاهـــــر ... على أن طرفي أي ساه وساهـــــر

ومنهـــا :

يوم الندى في عسكر من جنـــوده ... وقد سبقت أخباره في عساكـــــر
يبادر للأقران قبل بدادهـــم ... ولا يدرك العلياء من لم يبـــادر
وتسري الى النسر الجبين رماحـــه ... فتعبر من أجسادهم في معابـــر
فصلاته لا تتقى بسوابـــــغ ... وفصلاته لا تتقى بالمصـــــادر
له الله ما أمضاه حد عزيمـــــة ... وأثبته بين اختلاف البواتـــر
يطل بوجه ضاحك الثغر باســـم ... أمام نهار كالح الوجه باســـر
تراه الى الهيجـــاء أول وارد ... وعنها الى الأوطان آخر صـــادر
تخر الجبال الشم خوف خيولـــه ... وتنداك رعباً قبل وقع الحوافـــر
سنابكها بين الصريف وغـــزة ... وعثيرها بين العذيب وحاجـــر
يزور الاعادي في حصون شوامـــخ ... وينقل منها عن طلول دواثـــر
ملوك عداه ما لها من دساكـــن ... وقتلاهم ما أن لها من مقابـــر
فكم من قلوب في صدور مخالـــب ... وألسنة أفواهها من مناســـر
اذا تغلت أجناده فجمالهـــا ... مغاني الغواني بل قصور القياصـــر
يبيتها منه بأحنق ثائـــر ... ويصبح منه عند أكرم آســـر
يلوذ بغفار الجرائر صافـــح الـ ... ـسرائر غلاب المقادير قـــادر
كريم فما ينفك معدم مـــدم ... حليم فما ينفك عاذر عاثـــر ... (١)

وقال يمدح القاضي الفاضل ، بقصيدة مطلعها :

ألا فانتبه من أفقها طلع الفجـــر ... وحاشاك نم من وجهها ضحك الثغـــر

ومنهـــا :

أبانوا برفع الفاضل الندب فضلهـــم ... وأعلوا له قدراً فصار لهم قـــدر
وما فاته إلا الجيوش بجرهـــا ... وقد جر منها ما يضيق به البـــر
ولا فرق لولا اللون بين سلاحهـــم ... فآراؤه بيض وراياتهم صفـــر
وخاض بهم في البر بحرا من الـــردى ... طرائقه سود وأمواجه حمـــر
وجاز طريقا يرهب النسر قطعهـــا ... على أنه نسر الكواكب لا النسـر
ويطلع فيها الصبح والليل بعـــده ... وفي قلب ذا خوف وفي صدر ذا ذعـــر
تهاب الرياح الهوج مس ترابهـــا ... فما ناله ذل السهاة ولا الأســـر

---

(١) ديوانه ص ٣٦٦ – ٣٧٠

وجاز وأنف الكفر في الترب راغـــم ... وما زال من إيمانه يرغم الكفــــر
تحف به من خلفه وأمامـــــه ... مهندة بيض وخطية سمــــر
تحرسه من جنده البيض والقنـــا ... وتحرسها منه التلاوة والذكــــر
وآب كآوب النصل للغمد سالمـــا ... على أن ذاك النصل ما فاته النصــر
فأقرب شيء بعد رؤيته الغنـــى ... وأبعد شيء بعد رؤيته الفقــــر
وأنهض شيء من أناملها المهـــى ... وأعجز شيء من مدائحه الفكــــر
فليس يوفي كنهة الوصف جاهـــدا ... وليس يؤدي حق نعمته الشكر ... (١)

وقال يمدح الملك العادل بقصيدة مطلعها :

ما ضر من أهدى الي الخيــــال ... لو أنه أهدى الي الخيــــال

ومنهـــا :

آنسني القرب ويوم النــــوى ... دواعب العادل يوم النــــوال
الأغق الاقران بعد الوغـــى ... والواهب الآلاف قبل الســـؤال
والطالب الاطلاب والسالـــب الاسـ ... ـلاب والقاتل يوم القتـــال
والواسع الصدر لدى موقـــف ... ضاق على الراجل فيه المجـــال
يسير سير السيل في موكـــب ... يريك أنموذج سير الجبـــال
أخلى ديار الكفر أو لم يــدع ... فيها خلالا حين جاس الخـــلال
وأوثق الأسرى فقد أصبحـــت ... غدائرُ القتلى لهم كالحبـــال
سيف نضاه ذو العلى المعتلـــى ... كما جلاه للهدى ذو الجـــلال
أعلى بها الله هوادي الهـــدى ... كما به هد ظلال الضـــلال
فأنزل الشرك بدار الــــردى ... وصير الكفر بحال الوبـــال
فأصبح الاسلام في نضــــرة ... قد طال في غرته وأستطـــال
والخلق من نعماه في جنـــة ... ومن قضايا عدله في ظــــلال
أعمارهم بالخير معمـــورة ... منه كما الأحوال منه خـــوال
يا ملكا لا ينبغي ملكــــه ... إلّا له أُوتيتَ عين الكمـــال
.... (٢)

وقال يمدح صلاح الدين ويذكر نزوله على الكرك وانصرافه عنه وفتحه بعد ذلك نابلس بقصيدة مطلعهـــا :

وشفه والأسى يمانه في العـــذل ... ثكلت أبان زُوكان أبا جهـــــل

ومنهـــا :

أذا راسل الاعداء يوما فانمـــا ... كتائبه كالكتب والخيل كالرســـل

(١) ديوانه ص ٣٧٨ ــ ٣٨٥ .

(٢) ديوانه ص ٥٤٤ ــ ٥٤٨

له صارم يشفي به الدين صدره ... وينجز وعد النصر منه بلا مَطل

يذيب ظبا لونه بنجيعه ... فما يتحلى سيفه حلة الصقل

فلا تحسبوا بالكف جرد نصاله ... ولكنه قد جرد الكف بالنصل

ظباه كمثل البقل لونا وأنها ... لترعى السدى رعي الظبى ورق البقل

حداد عداة للحديد تقدّه ... من البعد حتى كل غمد بلا نصل

تكاد تقد الهام من قبل ذبحها ... وتخرج من سجن الغمود بلا سل

يجردها من يغمد الجورَ عدلُه ... ويتوى بها من يشتهي القتل بالبذل

ويحملها من حمل الدين كله ... عليه وما يشكو سوى خفة الكَفل

هل الدراع الثكلى بأولادها أنتهت ... عن النسل مما جرّعتهُ من الثكل

وكانوا لها كالعقد لكنه وهى ... وأضحى لها جيش ابن أيوب كالنمل

أتاهم بمثل الرمل ينقل خيامهم ... الى الافق ما فوق الطريق من الرمل

عساكر أرواح العساكر شربها ... وليس لها غير الفوارس من أكل

وما حال دون الذمر منهم تحصنا ... ولكن ليندوا دارفه منه في جحفل

إذا ما انحنوا للحمل حاكوا قسيهم ... على أنهم للموت أجرى من النبل

يكلفهم غزو الفرنج بدارهم ... ويسهل الا أنه ليس بالسهل

اذا كنت من قتلاه تملأ سبلها ... فكيف يسير الجيش فيها بلا سبل

جيادهم تخشى العثار من القنا القنيف ... وتخشى في الدماء من الوحل

وما خالفة الجرد قطواتها ... لتلحق من عاديته وهي في الشكل

وأرجلها لو قطعت لمرت بمثن ... عليها لهم والصل يمشي بلا رجل

جنى أهل تلك القلعة الشر اذ رأوا ... سوادها كالباسقات من النخل

غدا يملها الافرنج يلمس عرسه ... بها وهي لا تنفك من لعنة البعل

يرى الخيل والفرسان يخشون روحه ... فيضطر لا مستماله غفلة الشغل

وقد رجمتها المنجنيقات اذ رمت ... لشيخ لعين كافر جاهل رذل

فماتت وما قد مات يفني ملكه ... فناقتها تبكي الفروع على الأصل

وصبحت أخرى صبحتك بأهلها ... ومتاه اذ أمسيت وهي بلا أهل

فنابلس لما نزلت بربعها ... أقامت بهم حق الضيافة والنزل

احسوا بحال للشريف فجاءهم ... ربيع من النيل المسدّد كالوبل

ولم أر أرضا جادها الغيث قبلها ... وتصبح تشكو بعد مغلة المحل

وما شرقوا بالماء والريق اذ رأوا ... جيوشك لكن بالفوارس والرجل

شببت وقود الحرب بالبيض والقنا ... عليهم فقد أضحت دماؤهم تغلي

وما أغمدت عنهم سيوفك أو أتت ... على الغر والشيخ المغفل والكهل

بعاتق في قتلاهم فيه عابدا ... صليبا بلا حب له عابد العجل

أبدت النصارى واليهود بمصرك ... وما جاء هذا قط في سالف النقل

وكانت بهم تلك البلاد تنجست ... فناب دم منهم عن الماء في الغسل

ولم يبق الا من سبى الجيش منهم ... وأن كان يسبي الجيش بالحدق النجل

عذارى أسارى كبلت بشعورها ... فجرّتها في الساق والمعصم العبل

وقد شغلت عن أهلها بأسارها ... وأنت بشكر الله في أشغل الشغل
تكبر فيها الله في الجامع الذي ... جمعت به بين الفريضة والنفل
وصليت فيها جمعة بجماعة ... تناديك للإسلام يا جامع الشمل
وعدت بفضل الله للخلق مالها ... وأي زمان لم تعد فيه بالفضل
فقد شغل الأملاك عن شكر ربهم ... سوى أنت بالريحان والراح والنقل
يقولون ما لا يفعلون أما استووا ... من الملك المغني عن القول بالفعل
لك الحكم في الدنيا وما هو بالهدى ... من الجود بالدنيا وما هو بالهزل
فحبك مفروض على كل مسلم ... ويعلم هذا فيك بالعقل والنقل (١)

وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين ، بانتصاره على الفرنج قرب بانياس ، بقصيدة أولها :

أبى صدها أن يجمع الحسن والحسنى ... ووجدي بها أن أجمع الجفن والجفنا

ومنهـا :

أنام بني الإسلام في كهف أمنه ... وأوسعهم عدلا سيكفيه عدنا
وعوضهم من بعد سخطهم رضى ... ومد لهم من بعد خوفهم أمنا
وما شاقه صوت الحمام إذا شدا ... ويطربه صوت الصلاة إذا غنى
له النصل يجلى والقناة بكفه ... تقوم والقوس الشديد له يحني
أقام بدار الكفر تجبى لها الجزا ... وتودي له القتلى وتسبي لها الحسنى
يشن عليها غارة بعد غارة ... فقد أصبحت من شن غاراته شنا
عفت وخلت من ساكنيها ديارهم ... فلا معقل يبقى ولا منزل يغنى
زمان على تلك المساجد قد مضى ... ودهر على تلك المعاقل قد أضنى
أصاف وشتى بين عكا وعكرفة ... تطاير ساعة وهو قد أسنى
أقمت بها التوحيد لله وحده ... وأنسيت فيها الروح والأب والابنا
ولما رأوه أدبروا حين عاينوا ... أعنة خيل لا تعود ولا تثنى
وقد وقفوا لكن لأسر رقابهم ... وقطف رؤوس منهم آن أن تجنى
ثبت لهم والسيف قد كره الطلى ... وجالدتهم والقرن قد صمم القرنا
بضرب يذيب الشمس في الأفق حره ... ويحرق ما بين القلوب من الضغنا
مضى ملكهم في أول الأمر هاربا ... يحس قفاه الطعن فيه ولا طعنا
عتيق عتاق ما نجا من نجابها ... ولا فاز من كان الفرار له حصنا
وما زال أعمى العين والقلب فانثنى ... وقرع العوالي قد أصم له الأذنا
وقد أنفت منه الدواهي لجبنه ... فلما نجت حوباؤه شكر الجبنا
وليهنئ الناقوس بعد انهزامه ... ولكنه من بعده قرع السنا
وأضحى أسيرا بادويل وغيره ... قرون ملوك كم أبادوا لهم قرنا
أسارى جبار لا يرجون فديه ... ولا يأملون الدهر فكا ولا أمنا
وهل زادهم السجن غيظا عليهم ... وقد جعل الأرض الفضا لهم سجنا

---

(١) ديوانه ص ٥٦ ـ ٥٧

بكى الكند والسكند لا وحشةً لهم … ولكن على نفسيهما أصبلا الجفنا
يروعه الصبح المنير اذا بدا … ويوحشه الليل البهيم اذا جنا
ويشرب لكن ان جرى دمعه دما … ويطرب لكن ان شدا تيده اعتنا
وقد ربما زنت عليه قيوده … فحنت وأنّت مثل ما حن وأنا
وقد أصبح الاسلام والكفر كلهما … بقيت لذا ركنا وهدمت لذا ركنا
وقد أصبحت ط سرت مسر وأهلها … كمعنى بلا لفظ ولفظ بلا معنى
غدت مثل يعقوب النبي وقد نأى … سميه عنه تشتكي البث والحزنا
وما أنت الا الشمس أظلم بعدها البلاد … والا السحب قد أقلعت عنا
فهي لعين أبصرتها وبعدها … محلة من شوق ومنزلة من مغنى
فلا زلت تبقى للنبي ودينه … وأتيه يفني الزمان ولا تفنى (١).

(٣)

وقال يمدح صلاح الدين ويهنئه بكسر الفرنج وملك بلاد الشام :

لست أدري بأي فتح تهنى … يا منيل الاسلام ما قد تمنى
كل فتح يقول أني أولى … وهو أولى لانه كان أهنا
أنهنيك اذ تملكت شاما … أم نهنيك اذ تملكت عدنا
قد ملكت الجنان قصراً فقصرا … اذ فتحت الشام حصنا فحصنا
ان دين الاسلام من علي الخلق … وانت الذى على الدين منا
أنت أحييته وقد كان ميتا … ثم أعتقته وقد كان قنا
فاذكر الله ما صنعت على الصخر … ة وفي عرصة الملائك أثنى
لك مدح فوق السماوات ينشا … ومحل فوق الأسنة يبنى
شاق جبريل بيته بيت جبريل … فوافى اليه شوقا وحنا
يخرج الساكنون منه ورب البيت … في بيته أحق بسكنى
شهد الناس أنهم شاهدوا جبريل … رد الاقران قرنا فقرنا
فلكم ضربة ولم تر ضربا … ولكم طعنة ولم تر طعنا
ملء جنده ملائكة الله … فوادى جاءت اليه ومثنى
كم تأنى النصر العزيز عن الشام … ولما نهضت لم يتأنا
قد تمنيت حين أحببت وجه الله … بالحرب والحب معنى
ولعمرى من حاز فتحا جليلا … وتمنى فانه ما تمنى
تمت في ظلمة الكريهة كالبدر … سنا والبدر يطلع وهنا
لم تقف قط في المعارك الا … كنت يا يوسف كيوسف حسنا
تجتني النصر من ظباك كأن القضب … قد صحفوه أو صار غصنا
قصدت نحوك الأعادى فرد الله … ما أملوه منك وعنا
حملوا كالجبال عظما ولكن … جعلتها حملات خيلك عهنا
جمعوا كيدهم وجاءوك أركانا … فمن قد فارسا هد ركنا
لم تلاق الجيوش منهم ولكنك … لاقيتهم بلادا ومدنا

---

(١) ديوانه ص ٧٥٤ ـ ٧٦١

كل من يجعل الجديد لـه شـو — با وتاجا وطيلسانا وردنا
يدّعون الغنى من الناس لكـن — أنت بالنصر كنت أغنى وأقنى
خانهم ذلك السلاح فـلا الرمـ — ـح تثنى ولا المهند طنّا
واستحالت شقاشق الكفر صمتا — حين عادت تلك الشجاعة جبنا
أشجع القوم فيهم جاعـل الصدر — ع هروبا والفرار مجنّا
ليحليقوا الهروب ضعفا وعجزا — هل يطيقوا الهروب عقرى وزمنى
وتصيد تهم حالقة صيد — تجمع الليث والغزال الاغنّا
وجرت منهم الدماء بحارا — فجرت فوقها الخزائر سفنا
صنعت منهم وليمة وحشى — رقص المشرفيّ فيها وغنى
ظل معبودهم لديك أسيرا — مستضاما قد جعل لها النار سجنا
صلبوا ربهم فلم يغن عنهم — من رأى بعد صلبه قط أغنى
وحوى الاسر كل ملك يدين الدهـ — ـر يغني وملكه ايس يفنى
والمليك المعظم فيهم أسير — يتثنى في أدهم يتثنى
يحسب النوم يقظة ويظن الشـ — ـهد طودا ويبصر الشمس دجنا
كم تمنى اللقاء حتى رآه — فتمنى لو أنه ما تمنى
ظن ظنا وكنت أصدق من الظـ — ـنه يقينا وكان أكذب ظنا
رق من رحمة له القيد والغـل — عليه فكلما أنّ أنّا
والملين الابرنس أصبح مضنى — حا فتمنى لم يغد م اليوم يضنا
أنت ذكّيته فوفيت بدرا — كنت قد منه فجوزيت حسنا
وتهادت عرائس المدن نحوك — وثمار الآمال منهن تجنى
لا تغنى الغمام قيلك التهاني — كل عقبى وكل قطر نهنى
قد ملكت البلاد شرقا وغربا — وحويت الآفاق سهلا وحزنا
وتفردت بالذى هو أسنى — وتوحدت بالذى هو أسنى
وأخذت الوصف في علاك حسيرا — أى لفظ يقال أو أى معنى
وسمعنا الاله قال أطيعو — ه سمعنا لربنا وأطعنا (١)

---

(١) ديوانه ص ٨١٢ ـ ٨٢٠

قال يمدح صلاح الدين ويهنئه بالفتح :

هذا الذي كانت الآمال تنتظر ... فليوف لله أقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت ... في سالف الدهر أخبارٌ ولا سيَرُ
حين به حان هلك المشركين فيما ... لله طيب العشايا منه والبكر
مدوا كما مد فيض البحر ملتطم الا ... مواج حتى اذا قابلتهم جزروا
لقد فتحت عصاما من ثغورهم ... لولاك ما هدّ من أركانه حجر
تركت أرضهم من طول ما عمرت ... منهم بلاقع لا أنثى ولا ذكر
نقضت ما أبرموا ، أبرمت ما نقضوا ... عمرت ما هدموا ، هدمت ما عمروا
الآن قرت جنوب في مضاجعها ... ونام من لم يزل حِلفاً له السهر
الآن طابت الى البيت المقدس كا ... لبيت المحرم أحرام ومعتمر
يا بهجة القدس اذ أضحى به علم الا ... سلام من بعد طيٍّ وهو منتشر
يا نور مسجده الاقصى وقد رفعت ... بعد الصليب بها الآيات والسور
شتان ما بين ناقوس يدان به ... وبين ذي منطق يُصغي له الحجر
الله أكبر صوت تقشعر له ... شمّ الذُرى وتكاد الارض تنفطر
يا مالكا الارض مهدها فما أحد ... سواك من قائم للمهد ينتظر
ما أخضر هذا الطراز الساحلي ثمرا ... الا لتعلو به أعلامك الصفر
أضحى بنو الاصفر الانكاس موعظة ... فيها لاعدائك الآيات والنذر
صاروا حديثا وكانوا قبل حادثة ... على الورى يتقيها البدو والحضر
سلبتهم دولة الدنيا وعيشتها ... حتى لقد ضجرت من وعدهم سقر
هذا الذي سلب الافرنج دولتهم ... وملكهم يا ملوك الارض فاعتبروا
مراكز ما اختطاها الخوف مذ مائة ... عاما ولا ريع أهلوها ولا ذعروا
ولا أسرع أسماء البلاد فقد ... أسهبت والقائل المنطيق يختصر
يثنيك أجمال قولي عن مفصله ... في لفظة البحر معنى تحته الدرر (١)

وقال حين قصد الافرنج القدس سنة ٥٨٧ من جملة قصيدة له :

ويح الفرنجة بل ويل أمهم أوما ... فيهم لبيب على الحالات يعتبر
فكم نثرتهم ضربا اذ انتظموا ... وكم نظمتهم طعنا اذ انتثروا
كم قد سقيتهم ذلا فلا عجب ... ان عربدوا سفها فالقوم قد سكروا
ان يحوك فلا بدع لجهلهم ... تسعى الى الأسد في غاباتها الحُمُرَ
زاروا نسورا ولا تخفى وقاحتهم ... اذا أسود الشرى أبطالهم زأروا
فحام عن حوزة البيت المقدس لا ... خوف ، وحاشاك من خوف ولا ضرر
هو الشريف وقد ناداك معتصما ... فما على مجده من بعدها حذر
وسوف تستغفر الايام هفوتها ... وتحصد الفئة الاوغاد ما بذروا (٢)

(١) الروضتين ٢ / ١٠٨ عقد الجمان جـ ١٧ ق ١ ورقة ١٨٠ (٢) الروضتين ٢ / ١٩٤

وقال يمدح العادل حين حاصر كوكب سنة ٦٠٦ وخربها بقصيدة أولها :

وفّى لك السعدان النصر والظفــــر ... وطاوع العاصيان الدهر والقـــــدر

ومنها :

خطب طرى وطغى حتى شهدت لـــه ... فلان جامحه اذ أسهل الوعـــــر
وشامخان رفيعا الاون يحسر عـــــن ... ان يستطيعهما التأميل والنظـــــر
في ذروتي مشمخر العز دونهمــــا ... من أن ينالا تنال الانجم الزهــــر
أوردت حصنك من تلك الحصون منـى ... لولاك عز على ورّادها الصــــدر
وكان أهلاهما قد أكدا حلفــــا ... أن ليس ينقض من أمريهما المــــر
يا ويحهم أو غرتهم بني شمخــت ... مع اعتزالك واستغوتهم جـــــدر
ولو صدمت به السد الذى أطادت ... قطراه لاندك منه القطر والزبــــر
أو رام شامخه الاجرام حل بهـــا ... ما ليس تبقى غواديه ولا تـــــذر
بل لو دعوت النجوم الزهر لابتـــدرت ... اليك من جنبات الافق تبتــــدر
لقد رأى كوكب في نفسه عجبـــا ... وكاد كوكبه الدرى ينكـــــدر
أصرت جذوة بأسٍ في جوانبــــه ... أنفاسها في نفوس الشرك تزدفــــر
رلوّته مجانيق يلين لهـــــا ... قلب الحديد ولا يستمسك الحجـــر
هوت عليه بمثل الشهب قاذفــة ... غضداه بصعيد الارض منعفـــــر
أضحت مخانيق في أعناق هضبتــه ... عقود خيلك مسدودا بها الثغـــر
بادرتهم برجال لا ينهنههــــم ... من رأيك الحزم أو من كفك الهـــذر
مودين قراع الموت قد ألفــــوا ... أن لا يروعهم خوف ولا ذعـــــر
جيش اذا جاش طامي لجه غرقـــت ... في جنب تياره الأفهـــام والفكـــر
لقد بطشتهم بطشا لو انهـــم ... صرف المقادير أو أحداثها خـــتروا
فاستشعروا الذل جلبابا وقادهـــم ... قسرا اليك سطى للأسد تنتســـر(١)

وقال يهنيء السلطان صلاح الدين بالفتح بقصيدة وأنشده أياها بحرعكا أولها :

حدق الغانيات في القلب أنكــــى ... من شفار الظبى وأعظم فتكــــا

ومنها :

ما لجيش الضلال في بحر هلـــك ... لا يحيلون المنجا منه فكـــــا
صاح فيهم داعي البـــوار فلاقسـ ... ــين أقذى وللمسامع سكــــا
فتراهم من التضاؤل كالوهـ ... ـم وكانوا تلك المناكب يمكــــا
بيض ـون بيض يرون بهـ ... ـام مسودة اللون حلكــــا
بهم يا هام قد ضاقــت الا ... رض فأوسعهم بوارا وهلكـــا

---

(١) عقد الجمان جـ ١٧ ق ١ ورقه ٢٣٨

أيقنوا بالبلاء منك وقد كان يقين الأوغاد من قبل شكا

وعدتهم بل أوعدتهم نفوس … كان ميعادها غرورا وإفكا

ولبيض الهند الرقاق وسمر الخط آلت رؤوسهم دون عكا

فقتيل معفر ليس يودى … وأسير مكبل لن يفكا

أنجاة وقد طرحت عليهم … كلكلا يهدم الجبال وبركا

وتوخيتهم ببيض ظباة … كلها يهتك الضرائب هتكا (١)

---

(١) عقد الجمان ج ١٧ ق ١ ورقة ١٧٨ــ ١٧٩

يبعث الى الخليفه العباسي حين نزل الفرنج بأرض الطور :

قل للخليفة لا زالت عساكـــــــره لها الى النصر إصدار وإيــــــراد
إن الفرنج بأرض الطور قد نزلــــوا لا يغفلن محصن الطور بغــــداد (١)

(١) الذيل على الروضتين ١٠٢

قال يمدح صلاح الدين ويهنئه بالفتوحات سنة ٥٨٣ :

أطلّت على أفقك الزاهـــر … سعودٌ من الفلك الدائـــر
فأبشر فان رقاب العـــدى … تمد الى سيفك الباتـــر
وكم لك من فتكـــة فيهـــم … حكت فتكة الاسد الخـــادر
كسرت صليبهم عنـــوة … فلله درك من كاســـر
وغيرت آثارهم كلهـــا … فليس لها الدهر من جابـــر
وأضيت جدك في غزوهـــم … فتعسا لجدهم العاثـــر
وأدبر ملكهم بالشـــآ … م وولى كأمسهم الدابـــر
جنودك بالرعب منصـــورة … فناجز متى شئت أو صابـــر
فكلهم غرق هالـــك … بتيار عسكرك الزاخـــر
ثأرت لدين الهدى في العـــدى … فآثرك الله من ثائـــر
وقمت بنصر اله الـــورى … فسماك بالملك الناصـــر
وجاهدت مجتهدا صابـــرا … فلله أجرك من صابـــر
تبيت الملوك على فرشهـــم … وترفل في الزرد السابـــر
وتؤثر جاهد عيش البهـــا … د على طيب عيشهم الناضـــر
وتسهر ليلك في حق مـــن … سيرضيك في بعثك الساهـــر
فتحت المقدس من أرضـــه … فعادت الى وصفها الطاهـــر
وجئت الى قدسه المرتضـــى … فخلصته من يد الكافـــر
وأعليت فيه منار الهـــدى … وأحييت من رسمه الداثـــر
لكم ذخر الله هذا الفتـــو … ح من الزمن الاول الغابـــر
وخصك من بعد فاروقـــه … بها لاصطفائك في الآخـــر
محبتكم ألقيت في النفـــو … س بذكر لكم في الورى طائـــر
فكم لهم عند ذكر الملـــو … ك لمثلك من مثل سائـــر (١)

---

(١) الروضتين ٢/١٠٥

قال حين أمر المعظم عيسى بتخريب القدس * :

مررت على القدس الشريف مسلّمـــــا ... على ما تبقى من ربوع وأنجـــــم
ففاضت دموع العين مني صبابـــــة ... على ما مضى من عصرنا المتقـــدم
وقد رام علج أن يعفّي رسومـــــه ... وشمّر عن كفي لئيم مذمـــــم
فقلت له شلت يمينك خلهـــــا ... لمعتبر أو سائل أو مسلّـــــم
فلو كان يُفدىٰ بالنفوس فديتــــه ... بنفسي وهذا الظن في كل مسلم (١)

(١) الذيل على الروضتين ص ١١٥ ـ ١١٦

(*) ذكر محمد زغلول سلام أنها قيلت بسبب تدمير التتار لها، وهو غير صحيح ولا يستند الى رواية علمية (الادب المملوكي ج ٢ / ١٢٣)

قال يمدح الوزير صفيّ الدين أبا عبدالله بن علي بقصيدة أولها :

ذكر الصبا منه لي هاجت صبابات ... سهاماً في الحشا منها إصابات

ومنها :

ملك لصارمه والرمح في نحر الأ ... عداء بالثغر ضربات وطعنات
يرمي بأسهمه يوم النزال فما ... تردّ عن الدروع السابريات
فالملك لا أود فيه ولا خلل ... يوماً فدامت له ما شاء دولات
قل للفرنج الألى في عقر دارهم ... غزوا فجاست خلال الدار غارات
عودوا إلى حصركم فالسيف الذي زهقت ... به نفوسكم يدعو بأن تأتوا
قد أصبح ابن علي راقياً رتباً ... حسّاد من علي البأو السماوات
صوداً لفعال الخير قدّمه ... قدّامه فله في الخير عادات
للأولياء ولايات بها ابتسموا الآيـ ... ـات منه وللأعداء ويلات
يا ناصر المذهب الميمون ناصره ... أبشر فبالفتح جاءتك البشارات (١)

وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين :

لله يوسف كم أغاث وغاثها ... وأباد من عبد الصليب وعاثها
يا أيها الملك الذي غزواته ... جعلت بزاة المشركين بغاثها
لما سبيت نساءهم ودّتهم ... ودّ الذكور بأن تكون اناثها
أهداهم التثليث للتوحيد يو ... م لقيتهم فقسمتهم أثلاثها
للسبي والبيض الرقاق والقنا ... ملك الممالك لا تزال تراثها
عزلتهم أطماعهم حتى إذا ... ما استيأسوا نقضتهم أنكاثها
حققتهم آجالهم فسقتهم ... بسلافة كاسات المنون حثاثها
لم يحفروا تلك الخنادق حولهم ... الا لتجعلها لهم أجداثها (٢)

وقال يمدح صلاح الدين بفتح القدس سنة ٥٨٣ :

تبنى الممالك بالوشيج الأسمر ... والبيض تعلمن في العجاج الأكدر
وبكل أجرد شيظم يعدوا الـ ... ـهيجا بمقتحم المهالك أسمر

---

(١) ديوانه ص ٥٣
(٢) ديوانه ص ٥٩

والعدل والاحسان والمعروف مملوء الحياض لموسر ولمعسر

كفعال مولانا علاء الدين ذي   المجد القدامى والعطاء الكوثر

أعيت وأعجزت البليغ صفاته   فالمسهب المنطيق مثل المقصر

خلعت عليه خلعة الملك التي   زيدت بهاء بالطراز الاخضر

أهدى علاء الدين للإسلام اذ   أردى قبيل الكفر ما لم يكفر

رب الملاحم لم يرو مثلها   العلماء قدما في قديم الأعصر

من رام من كل الملوك مرامه   تخفق مساعيه ويكب ويعثر

من سنجر وأقل مملوك له   أعلى وأغلى قيمة من سنجر

يغزو الملوك الرعب قبل مسيره   في عسكر ما أفتكه به من عسكر

هو كاسر كسرى ومتبع تبع   ذلا أحاط به وقاسر قيصر

فلجيشه ولعزمه متماثل   جيش الهرقل وعزمة الإسكندر

راياته صفرا تردن وتنثني   حمراً تمس نجيع آل الاصفر

لم لم تدن شوس الملوك له وقد   ملك السواحل في ثلاثة أشهر

واستنقذ البيت المقدس عنوة   من كل ذي نجس بكل مطهر

كم صابح من خيله في رسمه   تاج لملك في التراب معفر

كم رد من ملك عزيز أصعر   يدعى بمملوك ذليل أصغر

ان الاقاليم التي هي سبعة   دانت لقسرا بسبعة أبحر

والسبعة الافلاك تخدم جده   حتى قوى كيوانها والمشترى

لم يأل معتري الثناء بماله   حسنا فنعم المشترَى والمشتري

تنهل يمناه بجدواه فخمس بنانه للخلق خمسة أنهر

كالنيل في مصر وسيحون وجيحون ودجلة والفرات الأكبر

فليهنه الفتح الذي سدت به   عن ملكه أبواب غدر الادهر

فتح تدانا كل فتح دونه   والشمس تكسف كل جسم نير

يا ناصر الاسلام فزت بمورد   حسن الثنا في العالمين ومصدر

البحر أنت لك السواحل بالشما   سحب الحيا جودا وقاذف جوهر

أنهضت ملحمة يمل بقاتل الفرسان بالعذو الذى لم يحصر

أعرابها ضرب السيوف ونقطها   وقع السهام وشكلها بالسمهرى

والحبر بحر دم تنقطت بوجهه   اذ ليس ثم سوى الثرى من دفتر

والبيض تنثر وهي غير خواطب   والسمر ناطقة وان لم تشعر

والخيل مطربة كأن صهيلها   شدو النحيلة في نسيب البحترى

نشوى تميد من السرور كأنما   صبحت كؤوسا من شراب مسكر

فلقد رأت الغزاة يوم لقيتهم   وغدوت للإسلام عين المنشر

ورأيتهم لما التقى الجمعان بالبيت المقدس حول يوم المحشر

ورددت دين الله بعد قطوبه   بالمسجد الاقصى بوجه مسفر

وأعدت ما أبداه قبلك فاتحا   عمرو فأنت شريكه في المتجر

حتى جمعت لمعشر الاسلام بين الصخرة العظمى وبين المشعر

فلتفخرنا البيت المقدس كفوءهـا   الحجر المفضل عند أفضل معشر
فكأنما نجين صوره   يلقاك أسوده بمنى أنور
جاءت جيوش الشرك يوم لقيتهم   يتدامرون على متون الضمر
وكأنهم بحر تدافع موجه   بمأبي وزعف محكم ومنور
أوردتها نارات الرماح صدورهم   فولفن في علق النجيع الاحمر
فهناك لم غير نجم نقيل   في أثر عفريت رجيم مدبر
ولولا وعقبان المنون مسنة   والخيل تعثر بالقنا المتكسر
لا ينظرون سوى حسام مشهر   ومن الدماء كأنه لم يشهر
رنحت سماء من سنابك خيلهم   مسودة ارجاؤها من عثير
فالقوم نهب للسباع تنوشهم   من كل ذي ناب وصاحب منسر
فمن الذي من جيشهم لم يصرم   تبا ومن من جمعهم لم يؤسر
حتى لقد بيعت عقائل أرهقت   بالسبي بالثمن الاخس الاحقر
من كل حورن غصيل موشح   كالغصن مياد أثقيل مؤزر
وأوانس مثل الدمى سوافرا   من كاعب مثل الغزال ومعصر
آضت أسود هن ثعالب ذلة   منهم غرائر كل ليث تسور
ماتوا بخلتهم وأروى منهم   بيض الصوارم بالدم المتسنجر
صرعى كأنهم تماثيل من الـ   كافور من دمهم ردعن بعنبر
ما قوبلوا بجحافل بل توتلوا   بملائك حضرت بأيمن محضر
شكت الفيافي ثقل وطء جيوشه   فبنا لهم وطفا كبسط المرمر
فالخيل لا تمشي بها الا على   هام منضد توشحو أشقر
نهبت عفاة الطير من حدب بها   زرق فصوصا من نفيس الجوهر
كم أودعت دوية صحراء داوية   صرعوا بها في المعرك المتوعر
جعلت لها الثارات في آنافها   أرج العرار وطيب عرق العبهر
بالسيف رد السيف بحرا من دم   ينبوعه من هامة أو منحر
بحر صوارمه القنا وقلوعه   راياته والسفن من كل مضمر
حص الخوافي والقوادم من جناحهم   وشق القلب بالقلب الجسري
حسدوا وكان الغدر بذرهم فقد   درسوا به وذروا بأوخم بيدر
ما ان ترى إلا مساكنهم وهم   صرعى الصوارم بالبياب المقفر
سقت الممالك الكرام ملوكهم   كأسا به سقت اللئيم الهنشري
مضت الملوك ولم تنل عشر الـذي   أوتيته من منجح أو مفخر
وبذاك آثرك الاله عليهم   يا مؤثرا أورثتشكرا المؤثر
أرسلت من خلل العجاج صواعقا   تهمي عليهم من غيوق كنهور
وعجمت عود صليبهم فكسرته   وسواك الفاه صليب المكسر
أغلى الاداهم من أسرت وأرخصت   بيض الصوارم من نهاب العسكر
وجعلت شرق الارض يحمد غربها   بل فهو داع دعوة لمستنصر
يرجو شفاء غليله ويؤمل الايـ   ـتاح فيه بمفتن ومفتر

فتّ المدائحَ يا صلاح الديـــن فاعـــــــذر المبرّز في الفصاحة فاعــــذر
نبم العفاة يشبّهونك في النـــدى ... والبأس جارت فكرة المتفكّــــر
كم خازن لك مثل ألفي حاتـــم ... كرما وملوك كألفي عنتـــر
افلاذ أكباد البلاد طحا بهـــا ... رب البلاد الى سناك الأبهـــر
واستعظم الاخبار عنك معاشـــرٌ ... فاستصغروا ما استعظموا بالمخبـــر
ما كل ملك عند ما أوتيتـــهُ ... الا قلامة بعض ظفر الخنصـــر
لا ينثني منك المسلمون لكـم يـد ... أوليتهم سرفهام ينكـــر
أمنت سربهم وصنت حريمهـــم ... ود رأت عنهم قاصمات الأظهـــر
لم تخل سمعا من ثناء مهنـــيءٍ ... للمسلمين ومن سماع مبشـــر
ما إن رأى الله الا آمــــراً ... فيهم بمعروف ومنكر منكـــر
متواضعا لله جل جلالــــه ... وبه أضمحلت سطوة المتكبّـــر
كم بالندى عان فككت وبالـــردى ... عات كففت بخوفه أمن البـــرى
هل تعجزنْ صور مليكا ناصـــرا ... لله " أين يسرْ يسرّ وينصـــر
حتى لخلنا أنه إن يلتمـــس ... نثراً لمنتظم الثريا ينثـــر
ما سور صور عاصم منه ولـــ ... سور المعاصم عاصم لمســـوّر
فليمنحنك البحرُ درة تاجـــه ... اذ رعته بخميسك المتفـــر
بحر زعاق ماؤه يتكـــدر ... يعنو لبحر طاب غير مكـــدّر
فانهدّ لصور فهي أحسن صـــورة ... في هيكل الدنيا بدت لمصـــوّر
لما ملكت حصون انطاكيـــة ... يشكو الصليب وحزبه من مظهـــر
أرديت كل مثلث متكبـــر ... بموحّد متواضع فمكبـــر
برزت الى (نزرية) عزمتك التـــي ... مدت يدا عن مطلب لم يقصـــر
فتناولته بأيدها مـــن بــاذخ ... في الافق ذي مثل يروح مســـيّر
عش عمر نوح يا ابن أيوب وكـــن ... ملكا سليمانا وجاهد وأظفـــر
نبنوك كالاسباط كل منهــــم ... في الملك يبلغ عمر سبعة أنســـر
فازت تداعتكم وكل ملوكهـــا ... بدر فليس يسرا للموســـر
لا زال ملكم الظليل ولاخلـــت ... من ذكركم في الدهر ذروة منبـــر (١)

وقال أيضا يمدحه بقصيدة مطلعها :

لحاظ المهى لا بابلٌ تنفث السحـــرا ... وخمر اللمى ينسي عريفين والخمـــرا

ومنهـــا :

فجودك عمّ العالمين وخصّهـــم ... ولم نر جودا قبله ملأ الدهـــرا
أبى لك الثم السراعالك السمـــرا ... ورشف ثغور البيض ان تطلقا الثغـــرا
وخمّ الحصان البكر ركضك في الوغـــى ... حصانا عليه تفتك الفتكة البكـــرا

---

(١) ديوانه ص ١٤٠ والروضتين ج٢ ص ٨٤ ، ١١٨ ، ١٣٢

وحيّك تطنيب الخيام مقوضـا … خيام العدى بالقسر أن تألف القصرا
وايرادك الرايات صفرا سواديا … واصدارها ريّا تمجّ دما حمرا
فخيلك تغشى الروع شعثا ضوامرا … شوازب قد عوّدتها الفتح والنصرا
ترى الحرب روضا والدروع بها أضا … وسمر القنا دوحا وخرصانها زهرا
سنابكها عزت بلاك العدى … فداست خدودا كن من عزها صعرا
وكم قلعة أنكحتها السلم عاصما … وطلقت منها بعد عصمتها الكفرا
فغنى بها الامام راني صوتـه … ينرد ، والاعداء تنظرها شزرا
وما أنكحونا طائعين فتاتهم … ولكن نكحناها بأسيافنا قسرا
وجاشت جيوش الشرك تطلب ثارها … لديك فكانوا الهدي ينتظر النحرا
أتوك وأفواه المنايا فواغر … لتطعنهم شزرا ، وتضربهم هبرا
ضربت القنا في أخدعيه مجاهدا … فغادرت سهلا منك ما لم يزل وعرا
فجيشك ما يشتيقظ عن الصدى … ولا خائف من صفق ولا هاب حنبرا
صبور كأن الصبر أرى يشوره … اذا ما رأت أعداءه الصبر الصبرا
قلوب الالى خلف الفرنجة كلهم … وأنت بأرض الشام ، طائرة ذعرا
جزاك إله الناس خير جزائه … وخولك الدنيا وأوزعك الشكرا
فلا يوم الا فيه نقع مجدد … تريد به بشرا وتهدي لنا بشرى (١)

وقال يمدح الملك موسى بن الملك العادل وكان نازلا على الطور للغزاة :

هنيئا لقد أوتيت سؤلك يا موسى … بجدّ وجدّ كلمه الدهر ما يوسى
وجيش ظلام حلق الطير فوقه … ستضحي لكم أحشاؤهن نواويسا
ورمي سهام عن قسي ينبضهم … تغادر من رامته في الترب مرموسا
كأن كماة الترك عند نزالهم … ملائكة بالشهب ترمي الأباليسا
وقد جالت الاكراد بالسمر والظبى … تصيد الملوك الصيد والاسد الشوسا
اذا العرب الشم الانوف تنمروا … به كان كل بالمقتضى دعيسا
وليس لموسى من عصا غير صارم … تكب على الاذقان ضرباته الروسا
وثعبانه الرمح الاصم امانه … ينضنض في سم المنية مغموسا
ويزجي سحابا من سنابك خيله … بلمع الظبى والبيض تجلو الحناديسا
فيرمي انكبارا بانكدار الى لظى … ويركض في قعر المنية مركيسا
اذا أشرقت للأشرف القيل راية … تنكست الصلبان بالكسر تنكيسا
وقد نطقت بالنصر بيض سيوفه … كما أخرست رقاتهن النواقيسا
ثعالب أطراف الرماح بلظى في … أضى الزرد الضافي على الأسد ملبوسا
هو البحر لولا البحر فيه ملوحة … هو الليث لولا أن في الليث تعبيسا
هو الخضر المشهور نشرا وسؤددا … ويوسف حسنا وألف موسى تجدد موسى

(١) ديوانه ص ٢١٢

ويحمده عيسى على فتكاتـه — بجحفله في أمة عبد عيسى
وما زال يرضي الله سرا وجهرة — ويسخط في كل المواطن أبليسا
اذا قال لم يترك مقالا لقائل — ولو كان تطبيقا يروع وتجنيسا
الى جود ما أشكو من الكرب التي — أؤمل أن ألقى لها منه تنفيسا
فلا ترض في حكم الزمان فانني — أرى حكمه في أهله صار معكوسا
ففيه الذنابى الرأس والرأس أصبح الـ — ذنابى من الطير الذى ليس طاووسا
هو الهازم الآلاف في الروع وحده — ومعطي ألوفا فضة تملأ الكيسا
فما جنده الا أسود خفية — تخذن لها سمر القنا اللدن عريسا
فكلهم (أبن المرد بيش) شجاعة — أجل وهم عند النوال ابن باديسا
فكم من رحى حرب أدار بها سقى — بها السمر والبيض الرقاق الدباييسا
هو الاسد الحامي الحقيقة قد مسا — ومن ذا يرد الليث عن منعه الخيسا
على الطور ناجى الله موسى بنصره — فيا طور ثغر السلم أصبح محروسا
عمارته خريب أعمار تابدى الصـ — ـليب وفيه أشهر النصر تأسيسا
علا مشمخرا في السماء بناؤه — يردد تسبيحا هناك وتقديسا
مظفر دينا للماشدي تدومه — الى القدس أمنا لايزال وتأنيسا (١)

وقال يمدح الملك الأفضل نور الدين علي بقصيدة مطلعها :

أريقك أم صهباء في الكأس اسفنط — وثغرك أم در تضمنه السمط

ومنها :

وسل عنه يوم الصليب وخيله — سواهم ومن تحت العجاج لها نحط
حكوا بلق الضأن المزق شملها — سراحين من فرسانه في القنا شمط
فما عطفتهم عند ذلك رحمة — ولا رحم لما استبيحوا لهم أط
فمنهم قتيل أو أسير ومنهم — جريح ومسئول على جنبه المسط
فان بكر العافون أغنام الرضى — فمن بأسه العادون أغنام السخط (٢)

وقال يمدح علاء الدين ، ويذكر نزول الفرنج على دمياط وهزيمتهم عنها : مطلعها :

لاحجنانك البرق الصحاح التواتل — فواتك فينا وهي للسحر بابل

ومنها :

تخال ملوك الارض خاضعة له — فكل عظيم عنده متضائل
جحافل أسد تزأر في الوغى — وما غيلها الا القنا والقنابل

(١) ديوانه ص ١١٢ (٢) ديوانه ص ٢٥٥

يسير بجيش يرجف الارض باسـه ... وتبدو لها في كل قطر زلازل
خميس له الرايات ظل وفوقـه ... من الطير ظل يحجب الشمس ماادل
تراطن فيها العجم من كل جانب ... وترتجز العرب الكرام البواسـل
دروعهم سحب تلوح خلالهـا ... وجوههم فهي البدور الكوامـل
هم الأسد الا أن غيضهم اذا ... سروا مشرفيات وسمر ذوابـل
أسنتهم والليل تقل نجومـه ... رجوم بأكباد الأعادي أوافـل
اذا ما اشتكت يوما أسنتهم صدى ... فليس لها الا الدماء مناهـل
متى عاينته المشركون تقطعـت ... لهيبته أكبادهم والمفاصـل
ولا غرو أن عاد الفرنج هزيمـة ... ولو لم تصد لم يبق للشرك ساحـل
وقد علموا لو أنهم ثبتوا لـه ... اكانوا كما مصرا رعته المناصـل
وطارت رؤوس منهم وقوانـس ... الى حيث صارت في الهياج القساطل
فقد ألفت أعداؤه أن خطهـم ... لديه رماح أشرعت وسلاسـل
ولما أتوا دمياط كالبحر طاميـا ... وليس له من كثرة القوم ساحـل
يزيد عن الاحصاء والعد جمعهـم ... ألوف ألوف خيلهم والرواحـل
رأوا دونها أسداً بأيديهم القنـا ... وبيضا رقاقا احكمتها الصياقـل
سيوفهم فيها نسور قشاعـم ... ونبغي لأشلاء الملوك أواكـل
وداروا بها في البحر من كل جانب ... ومن دونها سد من الموت حائـل
رجا الكلب ملك الروم اذ ذاك فتحهـا ... فخاب منام الملك والروم خابـل
فأضحى عقاب المؤمنين مرامهـا ... وأنى ينال الدرز المتنـاول
فعادوا على الاعقاب منها هزيمـة ... كأنهم ذلا نعام جوافـل
فلا رأى الا فيه بالضرب صارم ... ولا صدر الا فيه بالطعن عامـل
اذا الله يوما كان ناصر مشعـر ... فليس لهم في سائر الخلق خـاذل
وما أملوا أن يلحقوا ببلادهـم ... لتصميمها رأوه المماتـل
فيا أيها البحر الذي عم جـوده ... وقام بما لم تستطعه الاوائـل
وحارب حتى قيل أفنى عداتـه ... ونول حتى قيل لم يبق سائـل
وطبق سهل الارض والحزن عدلـه ... بمصر فقالوا لم يكن قبل عـادل
سحاب على الاعداء تمطر نقمـة ... وفيه لمن والاه جود ونائـل
فكل لسان دار في فم ناطـق ... له بالدعا والشكر لله جائـل
فيوسف أيوب بمصر سماحـة ... ليوسف يعقوب النبي مساجـل
فما نيل مصر جاريا غير كفـه ... وأحسانه ان ضنت السحب وابـل
هو السيف لا تنبو له الدهر نبـوة ... ولا مثله يوما يقلب ذابـل
حليم عليم بالديانات صـدره ... فقصر اديه إن تكلم باقل ... الخ (١)

---

(١) ديوانه ص ٣١٥ وانظر عقد الجمان ج ١٢ ق ٢ ورقه ٤٥٧

وقال يمدح الملك الافضل علي بن صلاح الدين ، بقصيدة مطلعها :

أنا بالغزلان وبالغــــــزل عن عذل العاذل في شغــــل

ومنهـــا :

وبي الاقبال على الشهـــوات الى الاقتاب على الابـــل
فالخيل تسفر بالتيجـــا ن وبالاشلاء وبالقلـــل
أبوى بالساحل بحشــــــرة فالبحر لديه كالوشـــل
وسطا التأييد بأنصـــار حجن وبأنيـــاب صـــل
فالهول مقال منضـــذل والسلم مدال ذو جدل ... الخ (١)

وقال يمدح الملك الأمجد مجد الدين صاحب بعلبك بقصيدة مطلعها :

أومض البرق بعلياء منـــين مؤذنا بالنصر والفتح المبـــين

ومنهـــا :

كانت الافرنج أصناما وكـــم من حنيف راغ ضربا باليمـــين
وفتاة دونها الشمس علـــى خوط بان فوق تل الياسمـــين
دامة بل دمية في هيكـــل الــــبيعة الروم لديها ساجد يمـــين
يمسك الأسقف في تقريبهـــا قلبه خوفا عليه أن يبـــين
ألزم التوحيد في حبي لهـــا وترى في الحب رأي المشركـــين
وساعدي عليها الملـــك الامـــجد المسعود في دنيا ودين
أسأل الباري أن يملكهـــا ثم يحبوني بها ، قولوا أمـــين
فهو بالعدل وبالاحسان والجـــد بالانصاف في الحكم قمين ... الخ (٢)

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٢٧
(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٨٣ ، ديوانه ٤٨٥

كتب الى الملك الكامل الابيات التاليه وألقاها اليه بسهم نشاب لان الفرنج كانوا يحاصرون دمياط وهو فيها :

يا مالكي دمياط ثغر قد مضت ... رياته كادت تجت أصوله
تقريك من أزكى السلام تحية ... كالمسك طاب دقيقه وجليله
ويقول عن بعد وأنك سامع ... حتى كأنك جاره ونزيله
يا أيها الملك الذي ما ان يرى ... بين الملوك شبيهه وعديله
هذا كتاب مؤذن من حالتي ... ما ليس يمكنني لديك أقوله
أشكو إليك عدو سوء أحدقت ... بجميعه فرسانه وخيوله
فالبر قد منعت اليه طريقه ... والبحر عز لنصره أسطوله
فخضوعه باد على أبراجه ... وحنينه وبكاؤه وعويله
ولو استطاع لأم بابك لائذاً ... لكنما سدت عليه سبيله
ورسوله في أن تجيب دعاءه ... دين الاله وخلقه ورسوله
فقد انتهت أدواؤه وتحكمت ... علاته ونحا عليه نحوله
وبقي له رمق يسير يرتجى ... أو يشتفي لما دعاك عليله
فاحزم حماك بعزمة تشفي بها ... داء لمثلك يرتجى تعليله
فالله أعطاك الكثير بفضله ... ورضاه من هذا الكثير قليله
فالسدر في نصر الاله ودينه ... ما ساغ عند المسلمين قبوله
والثغر ناظره اليك محدق ... ما ان يمل من الدنو همو له
ولئن قعدت عن القيام بنصره ... جفت نضارته وبان ذبوله
ووهت قوى القرآن فيه ورفعت ... صلبانه وتلى به أنجيله
وعلا صدى الناقوس في أرجائه ... وخفي على سمع الورى تهليله
هذا وحقك وصف صورة حاله ... حقا وجملته وذا تفصيله
وكفاك يا ابن الاكرمين بأنه ... أضحى عليك من الورى تعويله
حقق رجاء فيك يا من لم يخب ... أبدا لراجي جوده تأميله
وادخر ليوم البعث فعلاً صالحاً ... الله ضامن أجره وكفيله (١)

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ١٩٩

قال في رثاء القدس سنة ٦١٦ هـ :

أعيني لا ترقي من العبرات ... صلي في البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفئ فيضها ... توقد ما في القلب من جمرات
ويا قلب أسعر نار وجدك كلما ... خبت بادكار يبعث الحسرات
ويا فم بح بالشجو منك لسامع ... يرى ما ألقى من الكربات
على المسجد الأقصى الذي جل قدره ... على موطن الأخبات والصلوات
على منزل الأملاك والوحي والهدى ... على مشهد الأبدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التي ... أنافت بما في الأرض من صخرات
على القبلة الأولى التي اتجهت لها ... صلاة البرايا في اختلاف جهات
على خير معمور وأكرم عامر ... وأشرف مبني لخير بناة
وما زال فيه للنبيين متعبد ... يوالون في أرجائه السجدات
عفا المسجد الأقصى المبارك حوله الـ ... ـرفيع العماد العالي الشرفات
عفا بعد ما قد كان للخير موسما ... وللبر والاحسان والقربات
يوافي اليه كل أشعث قانت ... لمولاه برّ دائم الخلوات
خلا من صلاة لا يمل مقيمها ... توشح بالآيات والسورات
خلا من حنين التائبين وحزنهم ... فمن بين نواح وبين بكاة
لتبك على القدس البلاد بأسرها ... وتعلن بالاحزان والترحات
لتبك عليها مكة فهي أختها ... وتشكو الذي لاقت الى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة ... وتشرحه في أكرم الحجرات
لقد أشمتوا عكا وصور بهدمها ... ويا طالما غادتهما بشمات
لقد شتتوا عنها جماعة أهلها ... وكل اجتماع مؤذن بشتات
وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها ... وقد كان مجدا باذخ الشرفات
وقد أخمدوا صوتا وصيتا أثاره ... لهم عظم ما نالوا من الغزوات
أما علمت أبناء أيوب أنهم ... بمسعاته عدوا من السروات
وأن افتتاح القدس زهرة ملكهم ... وهل ثمر الا من الزهرات
فمن لي بنوح ينحن على الذي ... شجاني بأصوات لهن شجاة
يرددن بيتا للخزاعي قاله ... يؤبن فيه خيرة الخيرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات* (١)

---

(١) الروضتين ٢ / ٢٠٥ وانظر مفرج الكروب ٤ / ٢٤٦

(*) نسبها د. عبد اللطيف حمزه الى ابن الجوزى (الأدب المصرى ص ٦٢)

ست الفخر (مغنية الملك الاشرف)

قالت تمدح الملك الاشرف وتذكر كسرة الفرنج في يوم دمياط سنة ٦١٨ :

ولما طغى فرعون عكا وقومه / وجاء الى مصر ليفسد في الأرض
أتى نحوهم موسى وفي يده العصا / فغرقهم في اليم بعضاً على بعض

فقامت مغنية الملك الكامل وغنت على العود :

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا / لما قد جرى في وقتنا وتجددا
أعبّاد عيسى إن عيسى وقومه / وموسى جميعاً ينصرون محمدا (١)

(١) مفرج الكروب جـ ٤ / ١٠٥ ، المقريزي جـ ١ ق ١ ص ٢٠٩

قال يمدح السلطان موسى الاشـــــرف :

للذة العيش والافراح أوقـــــات
أمام جيشك أنّى سار أربعـــــة
تحت ظل القنا أساد معركـــــة
أهلة في سماء من مثافرهـــــا
تهتز أعطافهم يوم الجـــــلاد إذا
صفائح هي ان دب المنون بهـــــا
ان مس شمس الضحى من لمعها رمـــد
جرد كرائم تالق عن فوارسهـــــا
مستشرفات بآذان موكلـــــة
الويل للروم والأفرنج من ملـــــك
أين المفر لسرب الروم من أســـــد
دمياط طور ونار الحرب موقـــــدة
ألق العصى تتلقف كل ما صنعـــــوا
طاهم بجيشك لا تحفل بكثرتهـــــم
أنت الصباح تمزق ليل كفرهـــــم
زلزل بغارتك الشعواء دارهمـــــو
أصبتهم بسهام الرأى من حلـــــب
فطهر الله ذاك الثغر من قلـــــح
تذكروا يوم صفين وما لقيـــــت
قتلا وسبيا وأسرا وانتهاب ثـــــرى
شننتها غارة كالنار محرقـــــة
للمن ثغر دمياط وبرزخهـــــا
شرحت صدر رسول الله وانتصـــــرت
يوم على الروم يمشى ريحه سحبـــــا
رأوا جيوش بني أيوب يقدمهـــــا
فللرماح كلاهم أو صدورهـــــم
تخلق البحر ذاك اليوم من دمهـــــم
شفاء لوا أن عيسى نصرة لهـــــم
هذا تموت به أحياؤكم أبـــــدا
بوادر وهنوا من مس صدمتهـــــا
تق يا أبا الفتح بالفتح المبين فلـــم
عكا وصور الى رؤيات عاطشـــــة

فانشر لواء له بالنصر عـــــادات
نصل ونصر وآراء ورايـــــات
لها ثبات وفي الهيجاء وثبـــــات
لها الكتائب أفلاك وهـــــالات
غنت لهم من بنات القين قينـــــات
صحائف كتبت فيها المنيـــــات
كحلنها بالعجاج الأعوجيـــــات
شبه الأسنة أعناق ولبـــــات
لها الى الثغر من دمياط حاجـــــات
لهمن النصر والتأييد عـــــادات
ضار لهمن رماح الخط غابـــــات
وأنت موسى وهذا اليوم ميقـــــات
ولا تخف ما حبال القوم حيـــــات
كأنهم لبنات الطير أقـــــوات
واصبر ورابط فللأعمال نيـــــات
فشيمة النجب الغر الأغـــــارات
وللمكائد من بعد إصابـــــات
أصابه وانجلت تلك الثنيـــــات
من حد سيفك عرفا والقليبـــــات
لله كم أحسنت تلك الاســـــاءات
للكفر وهي على الاسلام جنـــــات
فتح له تفتح السبع السمـــــوات
بنصرة الدين والدنيا غمامـــــات
أمطارهن مصيبات مصيبـــــات
ليث له في بيوت الصبر ربضـــــات
وللصوارم أعناق وهامـــــات
والموج ترقصه تلك المسمـــــرات
فقلت بينهما فرق واشتـــــات
وذا تحيا به في الترب أمـــــوات
فكيف لو قد أتت منها النهايـــــات
تنصب لنير أبيهن الفتوحـــــات
فانهض فقد أمكنت منهن خلـــــوات

واستخبر الصريح عنها ان تسـيره ... اليك فهو سالم أو تحيات
الله أكبر ان تمس مزامره ... تتلى وتنس من القرآن آيات
وان يخور على القربان عجلهـو ... جهرا ويخفى آذان أو تـنوات
ما كل من طلب العلياء أدركهـا ... وراثقت سعيه فيها سـادات (١)

وقال يمدح الأشرف ويرثي الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين ويمدح ولده الملك العزيز شهود الى مدح الاشرف ويهنيه بالعيد ويحرضه على قتال الفرنج ، بقصيدة مطلعها :

هويته رشأ الطرف والجيـد ... بدرا ما بين تصفيف وتجعيـد

ومنهـا :

يا قاصد الأشرف أمسك عن سؤال فتى ... إلى المكارم صب القلب معمـود
أفريقاك بالإحسان معتذرا ... عذر المسيء على مطل ترديـد
العاقد الرأي في أعلام عسكـره ... فان نشرن فعن نصر وتأييـد
القائد الجيش كالبحر الخضم ... أمواجه غير صيد أو صناديـد
قوم اذا اعتقلوا المران خلتهم ... أسدا تأبطن أمثال الأساويـد
تجلو لهم في ظلام النقع غرته ... مواقع الطعن من نحر وتوريـد
وتستمير مواضيهم عزائمـه ... فما يدعن وريدا غير مـورود
يا مثلها ظن كيكاووس حين أتـى ... يغزو معاقل اسلام وتوحيـد
في جحفل عذبات الكفر خافقـة ... من جانبيه يمشي غير مقصـود
فاستقبلته من الاسلام شرذمـة ... فبددت شمله في المهمه البيـد
نجا وأسلم للفرسان أسرتـه ... فسيد القوم رزق النسر والسيـد
لو شاء شا * أرمن ما فاته دمـه ... لكن عفا عن أسير القلب مطرود
ورد أسراه بعد السلب في نعـم ... ولو أطاق لأحيا كل مفقـود
هذا هو الجود لا تسبان من لبـن ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود (٢)

وقال يمدح الملك العادل ويذكر بناءه لقلعة الطور ، بقصيدة مطلعها :

تنقبت بالنور والنـور ... واعتجرت لكن بديجـور

ومنهـا :

يا ليلتا لوصل أستقري وسـا ... سيرة سلطان الورى سيري
الملك العادل من أمـة ... فقد رأى موسى على الطـور

---

(١) ديوانه ص ٥٥
(٢) ديوانه ص ٦٢
(*) في الديوان : شاه وينكسر الوزن بذلك

ان كان قد دك قديما فقصـد   عمرته أحسن تعميـر
كأنمـا على مفـرق   اذا استدارت شرف السـور
يزاحم النجم له منكـب   كالنجم في الرفعة والنـور
كأنمـا أوقفته حارسـا   ينظر من عكا الى صـور
فكلما لاح له بـارق   يرتصد الصخر من الصـدور
بني سليمان بأعوانـه   وأنت بالنصر الجماهيـر
تعافى الاحجار أيديهـم   لا ترتضي لمعر الدنانيـر
وانت لك الدنيا وسكانهـا   ما بين آمار ومأمـور
تجري المقادير بما تشتهـي   ما بين تعسير وتيسـير
سعادة ليس لها آخـر   ولا ليوم النفخ في الصـور
هل يقدر الأعداء أن يمسحـوا   ما خط في اوح المقادير؟
يا ملكا تنسخ أيامـه   ما خط من أفك الاساطيـر
أسهره الذب عن الديـن لا   عشق ربيبات المقاصيـر
مؤيد الرايات والرأي فـي   حالة تدبير وتدميـر
ان جنحوا للسلم فاجنح لهـا   ما خدع الحرب بتقصيـر
كم لك في يافا وفي الدين مـن   وقائع غر مشاهيـر
عشرون ألفا غير أتباعهـم   ما بين مقتول ومأسـور
طهرت بيت القدس من رجسهـم   وكان مأوى للخنازيـر
يا ذاكراً لله يا ناسيـا   للعرف من كثرة تكريـر
الى محل الأجر والشكر يـا   أكرم مأجور ومشكـور (١)

---

(١) ديوانه ص ١٠ ــ ١٢ وانظر مفرج الكروب ٣/١١٦ ــ ١١٧ وتاريخ ابن الفرات مجلد ٥ ج ١ ص ١٢٤ ــ ١٢٥

قال يهنئ* أبناء العادل الذين اجتمعوا وطردوا الفرنج من دمياط سنة ٦١٨ :

هنيئا فان السعد راح مخلدا ... وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا اله الخلق فتحا بدا لنا ... مبينا وإنعاما وعزا مؤيدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه ... وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله الـ ... ـطغاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل سيفه ... صقيلا كما سل الحسام مجردا
فلم تر إلا كل شلو مجدل ... ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون في الأرض رافعا ... عقيرته في الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه ... وموسى جميعا ينصران محمدا * (١)

---

(١) الذيل على الروضتين ١٢٩ ـ ١٣٠ وأنظر النجوم الزاهرة ٦/٢٤١ وابن كثير البدايه والنهايه ١٣/٩٥

(*) نسبها المقريزى الى هبة الله بن محاسن (السلوك) جـ١ ق١ ص ٢٠٩

قال يمدح المعظم عيسى ويذكر يوم دمياط ، بقصيدة مطلعها :

عسى البارق الشامي يهمي سحابه ... فتخضلّ أثباج الحمى ورحابه

ومنها :

ومستخبر عنا وما من جهالة ... كشف الغطا عنه نزال ارتيابه
وأذكرته أيام دمياط بيننا ... وبين العدى ، والموت تهوي عقابه
وجيشا خلطناه رحاب صدوره ... بجيش من الأعداء غلب رقابه
وقد شرقت زرق الأسنة بالدما ... وأنكر حد المشرفي ترابه
وعرد إلا الأكل ذمر مناهض ... ونكّب إلا الأكل زاك نصابه
تركناهم في البحر والبر لحمة ... تقاسمهم حيتانه وذئابه
ويوم على القيمون ما جت متونه ... بزرق أعاديه وغصّت شعابه
نثرنا على الوادي رؤوسا أعزة ... لكل أخي بأس منيع جنابه
ورضنا ملوك الأرض بالبيض والقنا ... فذل لنا من كل قطر صعابه
فكم أمرد خط الحسام عذاره ... وكم أشيب كان النجيع خضابه
وكم قد نزلنا ثغر قوم أعزة ... فلم نرتحل حتى تداعى خرابه
وكم يوم هول ضاق فيه مجالنا ... صبرنا له والموت يحرق نابه
يسير بنا تحت اللواء مسدد ... كريم السجايا طاهرات ثيابه
نجيب كصدر السمهري منجب السـ ... ـرايا كريم الطبع صاف لبابه
من القوم وضاح الأسرة ماجد ... الى آل أيوب الكرام انتسابه
تفرج ضيق القوم عنا طعانه ... وشتت شمل الكفر عنا ضرابه
وأصبح وجه الدين بعد عبوسه ... طليقا ولولاه لطال اكتئابه
جهاد لوجه الله في نصر دينه ... وفي طاعة الله العزيز احتسابه
حميت حمى الاسلام فالدين آمن ... تذاد أقاصيه ويخشى جنابه
وما بغيتي الا بقاؤك سالما ... لذا الدين لا مال جزيل أثابه (١)

وقال يرثي الملك المعظم عيسى بن الملك العادل سنة ٦٢٤ بقصيدة مطلعها :

يا دهر ويحك ما عدا مما بدا ... أرسلت سهم الحادثات فأقصدا
أغمدت سيفا مرهفا شفراته ... قد كان في ذات الاله مجردا
فاغصل بجهدك ما تشاء فانني ... بعد المعظم لا أبالي بالردى
ما خلته يفني وأبقى بعده ... يا بؤس عيشي ما أمر وأنكدا

---

(١) ديوانه ص ١٩ — ٢٢ .

لهفي على بدر تغيب في ثرى   رمس وبحر من ضريح ألحدا

أبقيت لي يا دهر بعد فراقه   كبدا مقرّحة وجفنا أرمدا

ومنها :

لولا دفاعك بالصوارم والقنا   عن حوزة الاسلام عاد كما بدا

وديار مصر لو وليت عزماته   عن نصرها لتمكنت فيها العدى

ولأمست البيض الحرائر أسهما   فيها السبايا والموالي أعبدا

ولأصبحت خيل الفرنج مغيرة   تجتاب ما بين البقيع الى كدى

ويشيد ما طالبتم من بيعة   عبد الصليب بها وكانت مسجدا

أنقذتها من خطة الخسف التي   كانت أحلّتها الحضيض الأوهدا

أجليت ليل الكفر عنها فانطوى   وأنرت في عرصاتها فجر الهدى

ولقد شهدتك يوم قيسارية   والقسّ قد نسي القتام لها ردا

والكفر معتصم بسور مشرف الأبـ   ـراج أحكم بالصفيح وشيدا

فجعلت عاليها مكان أساسها   وألنت للأخشاب فيها الجلمدا

قل للأعادي أن فقدنا سيدا   يحمي الذمار فقد رزقنا سيدا

الناصر الملك الذي أضحى بو   القدس في كل الأمور مؤيدا

أعلى الملوك محلة وأسدّهم   رأيا وأشجعهم وأطولهم يدا

ماضي العزيمة لا يرى في رأيه   يوم الكريهة حائرا مترددا

يقظ يكاد يريه ثاقب فكره   في يومه ما سوف يأتيه غدا (١)

وقال يمدح بني أيوب بمصر ويذم العجم بقصيدة مطلعها :

أرى شانيك شانهما أنجاس   تجنب مقلتيك له النعاس

ومنها :

ملوك دأبهم شرف ومجد   ودأب سواهم طرب وكاس

فلولا آل أيوب بن شاذي   لكان لمعهد الجود اندراس

يذادون عن حماهم كل ذمر   له في غمرة الموت انغماس

ثم تركوا صليب الكفر أرضا   يداس وكان معبودا يباس

وأرض بأسهم آنافقوم   تجنبها لعزتها الشطاس

أولو عدل يموت الليث منه   طوى ويجنب مأواه الكناس

بأحلام موقرة اذا ما   تزعزع يذبلٌ ودنا قساس

بنوا في ذروة العلياء بيتا   لمجدهم علوا فيه ارتجاس

فمن سمر الرماح لهم عماد   ومن بيض الصفاح لهم أساس (٢)

---

(١) ديوانه ص ٥٩ ـ ٦٢

(٢) ديوانه ص ٣٢ ـ ٣٤

وقال يمدح الملك الأشرف موسى :

تسعا بمن ضمت أباطح مكة ... ومن حواه من الحجيج الموقف
لو لم يقم موسى بنصر محمد ... لسلا على دين الخطيب الأسقف
لولاه ما ذل الصليب وأهله ... في ثغر دمياط وعز المصحف (١)

وقال يمدح الملك الأشرف موسى بن العادل بقصيدة أولها :

جعل العتاب إلى الصدود توصلا ... ريم رمى فأصاب مني مقتلا

ومنها :

ملك غدا جيد الزمان بجوده ... حالا ولولاه لكان معطلا
يا أيها الملك الذي إنعامه ... لم يبق في الدنيا فقيرا مرملا
لقد اتقيت الله حق تقاته ... ونهجت للناس الطريق الأمثلا
وعدلت حتى لم تجد متظلما ... وأخفت حتى صاحب الذئب الطلى
ورفعت للدين الحنيف مناره ... فصلا وكنت بنصره متكفلا
لولاك لانفصمت عرى الإسلام في ... مصر وأخمل ذكره وتبدلا
وتحكمت فيها الفرنج وغادرت ... أعلامها محراب عمرو هيكلا
حاشا لدين أنت فيه مظفر ... أن يستباح حماه أو أن يخذلا
أنت الذي أجليت عن حلب العدى ... وحميت بالسمر اللدان الموصلا
كم موقف ضنك فرجت مضيقه ... وطريقه لخفائه قد أشكلا
كم يوم هول قد وردت وطيسه ... مر المذاق كريه نار المصطلى
ونثرت بالبيض المهندة الطلى ... ونظمت بالسمر المثقفة الكلى
فالله يخرق في بقائك عادة الدنيا ويعطيك البقاء الأطولا (٢)

وقال يمدح الكامل ويذكر وقعة الفرنج على ثغر دمياط سنة ٦١٦ :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا ... إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا ... من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة ... ودينا وإن كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت ... جموع كأن الموج كان لهم سفنا
عليهم من الماذي كل مفاضة ... دلاص كقرن الشمس قد أحكمت وضنا
وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا ... إلينا سراعا بالجياد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم ... بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى ... وكيف ينام الليل من عدم الأمنا

---

(١) ديوانه ص ١٤ – ١٥

(٢) ديوانه ص ٩ – ١٠ وانظر مفرج الكروب ٤ / ٢٢٠ وعقد الجمان جـ ٨ ق ١ ورقة ٥٨

لقد صبروا صبراً جميلاً ودافعوا ... طويلاً فما أجدى دفاع ولا أغنى

لقوا الموت من زرق الأسنة أحمرا ... فألقوا بأيديهم الينا فأحسنا

وما برح الاحسان منا سجية ... توارثها عن صيد آبائنا الابنا

منحنا بقاياهم حياة جديدة ... فعاشوا بأعناق مقلدة منا

ولو ملكوا لم يأتلوا في دمائنا ... ولوغاً ولكنا ملكنا فأسجحنا

وقد جربونا قبلها في وقائع ... تعلم غمر القوم منا بها الطعنا

فكم من مليك قد شددنا إساره ... وكم من أسير من شقا الاسر أطلقنا

أسود وغى لولا قراع سيوفنا ... لما ركبوا قيداً ولا سكنوا سجنا

وكم يوم حر ما لقينا هجيرة ... بمستر وتر ما طلبنا له كنا

فان نسيم الملك في شطك الشقا ... ينال وشلو النسر من عره يجني

يسير بنا من آل أيوب ماجد ... أبى عزمه أن يستقر به مغنى

كريم الثنا عار من العار باسل ... جميل المحيا كامل الحسن والحسنى

لسمراه ما آيات عيسى خفية ... هي الشمس للأقصى سناء وللأدنى

سرى نحو دمياط بكل سميذع ... نجيب يرى ورد الوغى المورد الأهنا

فأجلى علوج الروم عنها وأفرحت ... قلوب رجال حالفت بعدها الحزنا

وطهرها من رجسهم بحسامه ... همام يرى كسب الثنا المغنم الأسنى

مآثر مجد خلدتها سيوفه ... لها نبأ يفني الزمان ولا يفنى

وقد عرفت أسيافنا ورقابهم ... مواقعها فيها فإن عادوا عدنا (١)

---

(١) ديوانه ص ٢٩ وأنظر مفرج الكروب ٤/١٠٠ والسلوك ج ١ ق ١ ص ٢١١

أرسل الملك الكامل الى أخيه الاشرف موسى يستحثه على سرعة الحضور :

يا مسعدي إن كنت حقا مسعفي ... فارحل بغير تَلَبُّثٍ وتوَقّف
واحثث قلوصك مرقلا أو موجفا ... بتجشم في سيرها وتعسف
واطو المنازل ما استطعت ولا تنخ ... إلا على باب المليك الأشرف
واقر السلام عليه من عبد له ... متوقع لقدومه متشوف
واذا وصلت الى حماه فقل له ... عني بحسن توصل وتلطف
ان تأت عبدك عن قليل تلقه ... ما بين كل مهند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه ... يوم القيامة في عراص الموقف (١)

---

(١) المقريزى جـ ١ ق ١ ص ١٩٧

كتب الى العز بن عبد السلام وقد أغارت الفرنج على نابلس* :

ألا ليت أمي أيم طول عمرهـــــا … فلم يقضها ربي لمولى ولا بعـــــل
ويا ليتها لما قضاها لسيـــــد … لبيب أديب طيب الفرع والاصــــل
قضاها من اللاتي خلقن عواقـــرا … فما بشرت يوما بأنثى ولا فحـــل
ويا ليتها لما غدت بي حامـــلا … اصيبت بما أجننت عليه من الحمـــل
ويا ليتني لما ولدت وأصبحــــت … تشد الى الشد قميات بالرحــــل
لحقت بأسلافي فكنت ضجيعهـــم … ولم أر في الاسلام ما فيه من خلل (١)

---

(١) الفوائد الجليه في الفرائد الناصرية ورقه ٩٥ وورقه ١٠٤ ـ ٢٠٥

(*) ينسبها ابن الوردي للعز بن عبد السلام وهو خطأ اذ ان القطعه للناصر داود كتبها الى العز بن عبد السلام (أنظر تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ١٩٩) .

قال يمدح ابن الناصر صلاح الدين من جملة قصيـــدة :

ملك بوأبيه يفتخر العـــلا | ويفوق فخرهما السهى والفرقـــدا
ما يوسف ما يقاس بحاتـــم | ( )وقد وهب الحصون وأصفـــدا
أو أن يقال كأنه يوم الوغـــى | والروع كالأسد الهصور اذا عـــدا
أو من يشبه جوده بغمامـــة | أو من يقال لمثله عمـــرو النـــدى
بل مالك الدنيا ومالئ رحبهـــا | خيلا ورجلا ناصر دين الهـــدى
ومخلص البيت المقدس بعد مـــا | رفع الصليب على ذراه ومجـــدا
ومن الملوك الصيد يلقاهـــم اذا | رفع السرادق راكعين وسجـــدا
وبه أتى البيت الحرام وفـــوده | من كل فج آمنين من العـــدى
من بعد ما درست به السبلـــه | دهرا وعز لخوفها أن يقصـــدا (١)

وقال في فتح دمياط سنة ٦١٨ يمدح الملك المعظم :

سرى الملك المولى المعظم في الدجى | فأطلع نجم النصر بعد مغيبـــه
ورد على الإسلام بعد كآبـــة | سرورا وأوى الدين بعد شحوبـــه
تجلى بعيسى غمها واغتدى بهـــا | فريدا وأضحى بحرها من نصيبه (٢)

---

(١) الروضتين ٢ / ١٠٧
(٢) الذيل على الروضتين ١٢٦

قال عندما أسر الملك الصالح أيوب بن الكامل بن العادل الفرنسيس وأعتقله بدار فخر الدين بن لقمان وقيده بقيد من ذهب ، ووكل به خادما يسمى صبيحـــا :

قل للفرنسيس اذا جئتـــــــــه	مقال صدق من قؤول فصيـــــح
آجرك الله على مـــــــــــا	من قتل عباد يسوع المسيـــــح
قد جئت مصرا تبتغي أخذهـــــا	تحسب أن الزمر يا طبل ريـــــح
فساقك الحين الى أدهـــــــم	ضاق بعين ناظريك الفسيـــــح
رحت وأصحابك أودعتهـــــــم	بقبح أفعالك بطن الضريـــــح
خمسون ألفا لا يرى منهـــــم	الا قتيل أو أسير جريـــــح
ردك الله الى مثلهـــــــــا	لعل عيسى منكم يستريـــــح
إن كان باباكم بذا راضيــــــا	فرب غش قد أتى من نصيـــــح
فاتخذوه كاهنا انـــــــــــه	أنصح من شق لكم أو سطيـــــح
وقل لهم إن أضمروا عـــــودة	لأخذ ثار أو لقصد صحيـــــح
دار ابن لقمان على عهدهـــــا	والقيد باق والطواشي صبيـــــح (١)

وقال حين أسترد الملك الناصر داود القدس الشريف ثانية من الافرنج :

المسجد الاقصى له عـــــادة	سارت ، فصارت مثلا سائـــــرا
اذا غدا للكفر مستوطنـــــا	أن يبعث الله له ناصـــــرا
فناصر طهــــــــــره أولا	وناصر طهره آخـــــرا (٢)

---

(١) ديوانه ١٨١ وأنظر المختصر في تاريخ البشر ٣ /١٨٢ والالمام ١ /١٧٥

(٢) ديوانه ١٨٢ والروضتين ٢ /٢٠٦

قال يمدح الأمير أسد الدين أحمد بن عبد الله المهراني، ويذكر وقعته مع الفرنج على يافا، ويذكر له أن قوما قد ساءهم قربه منه ، وذلك سنة ٦٠٨ : مطلعها :

راح يخشى في حبه الرقباء	ويسرّ الغرام والبرحاء
ويفيض الدموع حتى لقد أصبح	بين الأحباب منه عزاء (١)

مقدمة غزلية فيها بكاء على فراق الأحبة ورحلة في طلب الممدوح ، عدد أبياتها (٢٣) بيتا ثم يقول :

وإذا ما سألت يافا أجابت	بلسان غادرته فأفصاء
شهدت منك موقفا صعقت منه	وقد كان أن يهدّ البناء
فاختلست النفوس حتى لقد غادرت	ربا بجوعهم اشلاء
ظلت في مسراك تحطّ على الصرو	م من الموت صخرة صماء
فرفعت الغداة الدين فيها	بطوال المثقفات لواء
وأقمت الصلاة في ذلك المسجد	ب وقد كانت الصلاة بكاء
وتلوت القرآن فيها فطال السرّ (م)	وم حتى تخيلوه غناء
وجعلت الصليب منضفرا فيهم	وقد كان عزة وعلاء ... الخ

وقال يمدح الملك الكامل بن العادل ، ويذكر نزول الفرنج على دمياطه وتقاعد الملوك عن النجدة ، وقد كان اتصل بخدمته سنة ٦١٤ مطلعها :

لهم حب قلبي إن تدانوا وإن صدوا	وإن قربوا والحال دونهم البعد (٢)

وبعد مقدمة غزلية استغرقت أربعة عشر بيتا يتخلص إلى المدح فيقول :

وركب تداعوا للسرى ثمت انبرى	ليبغي القرى بعد الهدء ذلك الوفد
فقلت لهم والليل ملق جرانه	وقد ستر الآفاق من جنحه برد
قفوا حيث أنوار الهدى كامنة	ونار الوغى والمشركون لها وقد
فثم ترى الإسلام يسفر وجهه	سرورا ونجم الحق في أفقه يبدو
فلولا سمي المصطفى ووليه	وشمس الدين ، بل كادت قوى الحق تنهد

---

(١) ديوانه : ورقة ٢٠

(٢) ديوانه : ورقة ٢

فما صافحت بيض الصفاح ككفـه … ولا حملت ذاك المطهمة الجـرد
ورى زند ذا الدين الحنيف برأيـه … ورايته من بعد ما قد كبا الزنـد
وجده أثواب المنى فانثنى الغـنى … يرى على قصاد مثل ما يغـدو
تجمعن فيه أربع نبويـة … تأثل منها عند ما الفخر والمجـد
جلال سليمان ، وبهجة يوسـف … وأخلاق داود ومن أحمد الحمـد
اذا منعت أجفان ملك رقادهـا … عن الملك أضحى حشو اجفانه السهـد
وان وهبوا العافي طريفا وتالـدا … فجودهم في بحر احسانه ثمـد
فلو جاز في الدنيا خلود لخالـد … على حسن ما ياتي لحق لها الخلـد
خصائص أيوبية عادليـة … شددت بها الدين فوق الذى شـدوا
فروع زكت في المكرمات وانـما … سمت بهم الاحلام والحسب العـد
فلولاهم لم ينبت الحظ للوغـى … وشيبا ولم تطبع صوارمها الهنـد
فقل لملوك الخافقين اليكـم … عن الملك أو سدوا من الامر ما سـدوا
مليك الورى : أين الملوك عن الـذى … تصديت فيه للعدى حين ما صـدوا ؟
أيطمع أقوام بنعمة عيشـة … متى عطشوا ، فالموت دونهـم ورد
إلا ما التعادي والفرنج بجمعهـم … على جيد دمياط كما انتظم العقـد
فو الله ثم الله حلفة صـادق … حشا محشايا ملؤها الغيظ والحقـد
لما طاب سكنى طيبة ولقد نبـا … بجنب النبي المصطفى ذلك اللحـد
واقسم لولا طود بأسك ما عـلا … منار الهدى حقا ولا سعد الجـد
ولا قام يبغي نصرة الحق قائـم … من الناس لولا سيف عزمك والحـد
أيا ملكا أجهدت نفسي بمدحهـما … اليه رجاء ان سينفعني الجهـد
قصدتك لا ألوى على الناس كلهـم … سواك عسى يرعى لنا ذلك القصـد
أؤمل أن أبقى بقية مدتـي … لديك وعيشي ناعم عندكم رغـد
ولست أرجي غير خدمتك الـتي … يتم بها بين الورى عندي السعـد
تركت بلادى وارتحلت أريدكـم … غدونك فضلا حال عن جزره المـد
فخذ واستمع مدحا تمد لسـواءه … يد الدهر يرويه لرونقه الشـهد
فها أنا يا ملك الملوك وأنـتم … وها مصر لكن النصيب لكم عبـد
فمنذا يرجى بعد ان جاء نحوكـم … مليكا ومن ذا يستطاع له رد ؟

وقال فيه (الكامل) عقيب الهزيمة عن دمياط ، واختلاف العساكر ، ووصول المعظم وفيها يحث الاجناد والامراء على القتال :

أقيموا عمود الدين لله تسعـدوا … فقد جاءكم عيسى وهذا محمـد
فريق الهدى والله يظهر دينـه … على دين من قد أشركوا وتمـردوا
فلله ألطاف عليكم خفيـة … فان تنجدوه من لظى النار تنجـدوا

---

(١) ديوانه : ورقة ٢ ـ ٣

أرى الآية الكبرى من النصر قد جرى ... بها الغال فالافراح فيها تجدد

وبا يبيد المشركين بأنه ... تجمع للاسلام عيسى وأحمد

عسى اللهان ياتي بموسى فانني ... أرى كبدي شرقا اليه توقد

ليظهر ان الحق حق مجسد ... وكل نبي بالذي قلت يشهد

فلا تجزعوا من حادث جاء قاد جميا ... فذا الدين للرحمن في نصره يد

فيبوا الذين الكفر ثارات مبشر ... لهم في الهدى فرع زكي ومحتد

وشبوا لهم نار الجهاد فانكم ... متى تتركوها آن للنار تخمد

فذا الدين ما أرسى قواعد حقه ... لدى الناس الا ذابل ومهند

فحزبكم حزب الالهوالم ... دم النالهون الشرك ، والسود أحمد

هل الدين ملبوس جهل وشهه ... ينيلكموها اليوم أو يوسف النجد

وهل فر من نار القتال أخو حجى ... ليبقى ، وفي نار الجحيم يخلد

أطيعوا مليكا يشتري الحمد بالهدى ... ويرقد في جفن الردى وهو أرمد

لم عزمات الدهر ان دم بالمدى ... وكالليث يهوى صوبه وهو موصد

لم دوحقهم بها عاد ليته ... وللمجد منها كل وقت مجدد

فللحق منه خير ركن وملجا ... وللعدل والاسلام سيف مهند

اذا جئت تلقى السماح مجسدا ... يكف طوال الدهر يعطي ويرتد

وان قرى العافي اذا أم لطه ... جداول تجري والسديف المرشد

لقد سطرت من يسره ونواله ... أحاديث جود عنه تروى وتسند

فيغني ولم يسبق عطاياه موعد ... ويغني ولم يسبق رداه التوعد

ومن وهب الأموال أو قتل العدى ... ليشري بذاك الشكر والحمد ، يحمد

وكان عليه أن يحوز مدى العلى ... ألية مبرور وحلف مؤكد

أقام عمود الدين حقا محمد ... كما بدأ الدين الحنيف محمد

فأشرق بدر الحق في أفق الهدى ... وقد غاله قطع من الكفر أسود

نزلت وحاجاتي بباب محمد ... فاذهلني عن زمان منكد

وقد كان ظني أنني أقطع المدى ... به ، فهو سيف في الرزايا مجرد

تجاوزت أقوبا على أعزة ... اليمني بؤسي بنعما ينقد

فلم يك لي في اللهو ذا عناية ... فيهرف فيلي شيئي ويحمد (١)

ثم يختمها بشكوى الزمان وطلب الرعاية بخمسة أبيات :

---

(١) ديوانه : ورقة ٤ ـ ٥

وقال في المعظم ، وقد اجتمع هو وأخوه الملك الاشرف ، وجمعا العساكر من البلاد كلها لنصرة الكامل وتخليص دمياط من الفرنج ، فعجل الله لهم افتتاحها ، وكسر المشركين . يقول :

ها قد بلغت الذي قد كان ينتظر   الله أكبر ، هذا النصر والظفر
قد صح الخُبْر منك اليوم عن خَبَر   قد كان أنظرَ فيه نفسه النظر
أكذبت ظن الاعادي بالذي كملت   بما لساداتها واستعلى بك الخطر
قالت ظنونهم في الفال وابتدلست   من بارح سانح الطير الذي زجروا
أعدت عود الهدى غضا وقد يبست   أغصانه وهو لا ظل ولا ثمر
هذا هو الفتح فتح لا يقومه   نظم الحديث ولا نثر فيبتكر
فتح مبين وقى من كل موبقة   لهيبته من بعد ما نبا غيثه
يا يوم دمياط قد راحت مسودة   منك الطروس وقد سارت بك السير
تهلل الدين والدنيا به فرحا   واستبشرت مكة والحِجْر والحَجَر
لم تخش يثرب تثريبا لقاد حسة   من بعده اذ سرت في ذكره السور
أنطقت خرس الاماني وهي صامتة   ورضت صعب المعاني فهي تبتدر
أليست أهل الهدى من نصرة حللا   والشرك قد حل ـــــه الازر والازر
في يوم ذي رهج لا وصف يدركه   يكاد منه فؤاد الدهر ينفطر
يوم تدين له الايام إذ خرست   عن فخرها وهو طول الدهر يفتخر
في حالة جمع الدين في قرن   فالشرك منخذل والحق منتصر
قد عاد صبحهم ليلا تضيء به   زرق الأسنة فهي الانجم الزهر
والشمس طالعة فيه وغاربة   لكنها بظلام النقع تستتر
والدين قد تليت اياته فرحا   بنصره ، وصليب الشرك منكسر
يا دين عيسى ، بعيسى قد خذلت وذا   كسر مدى الدهر منكم ليس ينجبر
وافاك في جحفل ضاق الفضاء به   ذرعا ، فأنت الديه بل له جزر
أتى بجيش وغى ، في الارض عسكره   وفي السماء قضاء الله والقدر
فالبحر من تحتهم آذيه وعلى   رؤوسهم منك نار الحرب تستعر
وزعتهم بين بيض الهند مصلتة   وبين سمر القنا ، والموت مستكر
فللرماح قلوب منهم أبدا   وللسيوف الطلى والهام والقصر
أتوا الثغور الى دمياط تحصنهم   وما دروا أنه عبر به العبر
راموا بحيث أطاع الامر سلمهم   وقد رأوا غارة هانت لها الغير
ليطلبوا السلم الا بعد علمهم   بأن سيفك لا يبقي ولا يذر
أضحى لرومية الكبرى بما شهدوا   ويل طويل وقد وافاهم الخبر
إن لم يكن حوصروا فيها فانهم   من يوم رؤياك حصرا لهم ينحصر
يمشون همسا وإيماء حديثهم   فيها لخوفك ، إن قالوا وإن ذكروا
نهاهم الرعب عن عود فمنقصة   إن قيل عودوا نعد بالسيف ننتصر

ما يوم بدر بأعلى منه أو أحد ... ولا حنين وان عدوا وان شهروا

لا يوم أحسن منه منظرا وسنه ... سمر القنا وسيوف الهند تشتجر

جنيت فيه رؤوس القوم يانعة ... لكن ذوت بعدها الاغصان والشجر

فلتشكرنك بنو العباس بعدهم ... لا بل قريش تؤدي الشكر بل مضر

أليستم عزتهم ساءت بعدهم ... من بعد ما قد طووا ما كان قد نشروا

كم آية لك يا عيسى ومعجزة ... يقل هزمهم فيها وان كثروا

أنت المليك الذي لو عيب في ملأ ... ما عابه الناس الا انه بشر

أحييت ميت العلى والمكرمات بما ... أوليت اذ لا يوازي بعضه المطر

مناقب حسنت أخبارها وزهت ... حتى لقد صار مهجورا بها السمر

يا معدن الفضل والاحسان هأنذا ... ومن ورائي يتيما كلنا صبر

الله يعلم أني في انتظاركم ... قد مسني الضر بل اودى بي الضرر

يكفيك مني أدنى ما أشير به ... اذ ليس من عاد في الاكثار والهذر

خذها فاتحبيبا لو يروق لها ... وزنا لحاضره في نكسره الفتر

ولا تصح لاستماع بعدها أبدا ... ما كل مختلف الوانه زهر (١)

وقال أيضا يمدحه ويعاتبه ، وكان جماعة قد تكلموا فيه عنده ، فأثر ذلك (فيه) ويذكر فيها وقعة :

ان العرين الذي يحتله الأسد ... دار المليك وفيها العيشة الرغد

سرادق المجد مضروب على ملك ... لا لاواء في عراص العز مقتعد

ربي من الملك منصور وأفنية ... بها العلى والندى والبأس والجسد

يا حسن دولة روح الله قد كملت ... بها السعادة واستعلى له الأمد

هو الهمام المرجى صوب عارضه ... والصارم المنتضى والفارس النجد

غضب العزيمة ماضي الوهم متلس ... شواعر الحزم بالآراء منفرد

يمشي حوزته والشرب فاغرة ... في حين لا جنة يغني ولا زرد

ما حل ارضا ولم ينهد الى بلد ... الا تضم روضا ذلك البلد

صافي نيه على أعدائه كدر ... والغيث منه يكون الماء والزبد

يا زايغ القلب ان السيف مطلع ... على القلوب فكذا ما للذي تجد

هذا هو الأسد الرادي براثنه ... عليه من زغف ما ذنبه لبد

التي على أنف الدنيا كلا كله ... فالقرب في ذوي الغيمان والبعد

الله أكبر جاء الحق يقدمه ... نصر المليك فلا وان ولا جحد

يا أيها الملك المرسي بعزمته ... طود الخلافة لما مسه الأود

---

(١) ديوانه : ورقة ١٤ - ١٥

كم موقف لك ليس الله ناسيه ... والدين مهتضم والملك مضطهد
جلوت وجه العلى فيه بذي شطب ... ماء المنية في متنيه مطرد
يهتز في وجه إفرند تخاله ... كأنه حية في متنها رسد
فكان مجدك موجودا لطالبه ... والمجد في الروح موجود ومفتقد
أججت للكفر من كتيك ملحمة ... أضحى بها الموت في حوبائه يقد
نشرت راياتك الصفر التي وسمت ... بالنصر فهو لها تحت الوغى سند
لاقيتهم ووجوه الخيل عابسة ... والبيض ضاحكة والموت محتشد
في فتية من نتاج الحرب قد غمست ... أسيافهم للمنايا انها تـرد
حييتهم بنبات الحتف يفرشها ... رزقا مفترسهن القلب والكبد
من كل أسمر تستقي المنون به ... من القلوب دما ما إن له قود
وقد تيقن أن لا صبر يسعدهم ... وأن صبرك لا تحصى له المدد
خانوا بأنفاسهم ما ألم بهم ... فهم يظنون ربما أنها رصد (١)

ثم يختمها بمدحه ويطلب منه أن يعينه على نوائب الدهر (وذلك في ثلاثة عشر بيتا (٢) .

وقال في الأشرف موسى بن العادل عند منصرفه من الجزيرة والشام الى الديار المصرية لنصرة الكامل ، ويذكر له وقائع بالفرنج والروم : مطلعها :

أرأيت ما صنعت لحاظ الغيد ... ما بين منعرج اللوى فـزرود (٣)

ويبدأ بمقدمة غزلية عدد أبياتها (١٣) بيتا ثم يمدحه بالكرم وحسن السيرة بعشرة أبيات ثم يقول :

وطريدة الاسلام أنت أعدتها ... من بعد طول تشرد ونـدود
أيام صافيتا يقصر دونها ... وصف البليغ بخطبة وقصيد
بددت جمع الكفر وهو مؤثل ... منهم بحزم في الأمور رشيد
ونهضت إذ عجز الأنام بأرعن ... ملأ الملا عددا بغير عديد
ثاروا من الاسلام يهدا قسوة ... فأعدته من صلصل وحديد
وسقيتهم كأس المنية بعدما ... شربوا بكأس النصر والتأييد
والروم راموا نصرة فجعلتهم ... ما بين مقتول الى مصفود
أغناك بأسك عن تراكم كتيبة ... او نشر رايات وخفق بنود
علموا بأنك كالدجى لا مهرب ... منه ، وبدرك شاؤ كل شريد

---

(١) ديوانه : ورقة ١٦ ــ ١٧
(٢) ديوانه : ورقة ١٨
(٣) ديوانه : ورقة ١٨

فاستسلموا لأمراء بعد مـــــا ... أسكنت أكثرهم بطون لحـــــود
وفتحت ما افتتحوا بعزم قاهـــــر ... فاعدت معدوما الى موجـــــود
وأتيت اذ ... دمياط بذل ربعهـــــا ... كفرا عن الايمان والتوحيـــــد
تلقى جيوش المشركين بعزمـــــة ... عظمت عن التكييـــف والتحديـــــد
فرعون كثرهم طغى فأتاهـــــم ... موسى لاغراق ببحر جنـــــود
جاءت غواربه بموج مزبـــــد ... فلاطم آذيه بحديـــــد
موسى وعيسى أرسلا لمحمـــــد ... ومحمد بالنصر والتأييـــــد
فالله يشكر ذلكم السعي الـــــذي ... يرضيه بين إقامة ونهـــــود
يا أيها الملك الذي اخلاقـــــه ... وصفت وقد وصفت نظام عقـــــود
يا كعبة إن كان تقبل حجتـــــي ... فلها ركوعي دائما وسجـــــودي
ما بال مثلي خائف من بعد مـــــا ... قد كان في ظل الملاذ صعـــــودي
أيجوز لي خوض الخضم وانثـــــني ... عن مائة دينما بصعيـــــد
ان كان قل النيل يجدد ريـــــه ... فالمستنيل لذاك غير حميـــــد
كانت تمنى الدهر ذلك جهد شـــــا ... لاظل زنكـــي ولا مسعـــــود
والاشرف المنصور أشرف دمعـــــة ... من ان أراني ليس يورق عـــــودي
خذ واستمع مني نظام قريبـــــة ... جاءتك بالتعظيم والتمجيـــــد
حليت بمدح ... في سمع غمـــــا ... تنقلك بين ترنم ونشيـــــد
ولئن تأخر عصرها غلا المـــــا ... هزئت بنظمي جرول ولبيـــــد
عذبت على الافواه حتى أطربـــــت ... بحدائها بزل المطايا القـــــود
لله أنت غريبة ووحيـــــدة ... في مغرب في بأسو الجـــــود
كفل الاله له بطول بقائهـــــا ... لرضى محب او لكبت حســـــود (١)

وقال فيه أيضا بعد فتح دمياط وهزيمة الفرنسيين :

نصر من الله وافانا به الخبـــــر ... فلتهنك العزة القعساء والظفـــــر
فتح قريب ولله قد خصصت بـــــه ... جرى به قبل تكوين الورى القـــــدر
هذا الرجاء الذي كنا نؤملـــــه ... قد وفيت لك في تيسيره النـــــذر
قد صحت لله شكرا اذ سمعت بـــــه ... واستبشرت بالذي حدثته البشـــــر
احرزته وسيوف الهند جائلـــــة ... من دونه والقنا الخطي مشتجـــــر
فما خلا الدهر من يومي نـــــدى وردى ... جود يسيل لديه أو دم هـــــدر
لله باسك يوم الروع شقيـــــت ... منك الجماجم بالهندي والقصـــــر
فتحت فتحا عظيم الخطب كم ملـــــك ... قد رام إحرازه دهرا فما قـــــدروا
راح افتتاحك بين الورى مثـــــلا ... وسيرت الخلق تيسيرها السيـــــر

---

(١) ديوانه : ٢٠ ـ ٢١

نهضت للدين بالهندي منصلتــــا ... والله عونك والأملاك والقــــدر
أبديت في ظلمات الدهر نورَ هــدى ... لقصّرتْ عن مداك الشمس والقمــر
أتيت دمياطَ إذ أعيتْ يا فتيهــا ... كل الورى وتنامى البدو والحضــر
فكنت إذ زرتها مفتاح مقفلهــا ... فالحق منتصر والشرك منكسـر
صد متهخمين لو صدمتَ بــه ... وجهَ البسيطة كادتْ منه تنفطــر
من بعد ما كان في آمالهم طــولٌ ... يوم الكفاح وفي أعمارهم قصــر
أوردت أنفسهم حوض الردى فغــدا ... ورود هم بارتواءٍ ما له صــدر
أنزلت أفئدة منهم رســاش ردى ... زرق الأسنة في أطرافها زهَــر
ما أنبت الخط طول الدهر من أســل ... غادرته وله من هامهم ثمــر
لما أتيتهم قالوا بأجمعهــم ... هذا القضاء فلا يُبقي ولا يــذر
عاد النهار لهم ليلاً بقسطلــة ... دجت ووجهك في ظلمائها قمــر

...

جاءوا وراءك يا موسى فحمّهــمُ ... بحر بأمرك مهما شئت يأتمــر
يوم غدا دونه يوم الكلاب فــلا ... عمرو رأى مثله يوما ولا عمَــر
كلا ولا يوم ذات الدوم يشبهــه ... أو يوم تغلب إن قالوا وإن فخــروا
حفظتَ ملك بني السادات وانحفظــت ... بك الشريعة إذ غيرتْ بك الغيــر(١)

ثم يمدحه بتسعة عشر بيتا ويختمها بشكــره ، يقول :

كم قد شكرتك في الدنيا لدى ملــك ... شكرا تنشّر منه للورى خــبر
وقلتَ ان ذكروا موسى فليس يــرى ... لغيره في العلى ناب ولا ظفــر
وحسن رأيك تغنيني بــوادره ... عن شرح حالي فاستغني واختصــر

وقال في الملك الناصر قلج ارسلان بن الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه الايوبــي ويذكره انه كان كاتبا لأبيه وأهله ويحرضه على قتال الفرنج ونصرة الاسلام والجهاد، مطلعها :

بما بجفنيك من غنج ومن كحــل ... صلْ مغرما ليس يصغي فيك للعــذل(٢)

تبدأ بمقدمة غزلية عدد أبياتها ستة عشر بيتا ، ثم ينتقل الى مدح قلج ارسلان فيقــول :

ملك له عزمة ذلّ الزمان لهــا ... وجحفل باش يريك الناس في رجــل
مؤيد الرأي إلا أنّ همتــه ... أمضى من البيض والخطية الذبــل

---

(١) ديوانه : ٢١ ــ ٢٣

(٢) ديوانه : ٢٣

طوفان راحته بالجود لا أحد ... إنْ ثمّ قائل آوى الى جبل
كلا ولا عاصمٌ من بأسه أبدا ... يوم الوغى بظبى الهندية القصل
ما أعمل الفكر في يومي ندى وردى ... إلا لتعجيل رزق منه أو أجل
كأننا من قريش جاهليتنا ... في الجود عاكفة منه على هبل
أكذبت ظن السحاب الجون من نعم ... رويتَ منها الورى بالعلّ والنهل
جود يعمّ البرايا منك متصل ... وما طلُّ الغيث حينا غير متصل
فانهض الى نصر دين الله في جذل ... في جحفل شرق بالخيل ذي زجل
جيش بجيش بأبطال اذا برزوا ... قال الردى للعدى موتوا على عجل
من كل أغلبَ في عرنينه شمم ... ضخمُ الدسيعة مردٌ غيرُ محتفل
وكل مدرع للصبر مؤتزر ... بالحزم ملتحف بالعزم مشتمل
أبناءَ حرب غدوا فيها ومنشأهم ... بها ولم يحكدوا قولا بلا عمل
فالله جارك والأفلاك دائرة ... بما تؤمله في أوضح السبل
قد سدت كلّ ملوك الارض قاطبة ... وشدتها دولة تسمو على الدول
يا أيها الملك الميمون طائره ... وابن الملوك ونجل السادة الأُوَل
سمعا لشكواي من دهر حوادثه ... لا تتقى بصنوف المكر والحيل
ما زلتُ عند بني أيوبَ في نعم ... موفورة ونوال غير منتزل
أرعى رياض الندى من فيض نعمهمُ ... وأسرح الطرف بين الخيل والخول
وعشتُ في عزة قعساء عندهمُ ... موفر الحظ في الافراح والجذل
أرعى التفضل وما حصلتُ من أدب ... ومن علوم ولا أرعى من الهمل
وكان لي الملك المنصور أعظم من ... يعلي محلي ويدني مصرها أملي
فخانني الدهر في حظي وأعدمني ... من كان أضحى عليه الدهر متكلي
فكنتَ لي عوضا عن كل من ذهبت ... عيني وجئتك أسمى جدّ مقتبل
قصدتُ بابك والآمال تلعب بي ... واعتضت بالجم عن نزر من الوشل
فاسلك مسالك أهليك الكرام معي ... ولا تكن عن قضاء الحق في شغل
فانّ جودك يكفي كل حادثة ... وحسن رأيك لا يؤتى من الزلل
قد صان كفيك ربّ الناس عن قدر ... للمشرفية والتوقيع والقبل
وان بابك يولي قاصديك علىً ... كأنما الشمس منك الدهر في الحمل (١)

وقال في الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين وهي من أشعاره في المهو، وكان قد اجتمع به في القاهرة سنة ٥٩٤هـ مطلعها .

ان كان أضمر قلبي عنك سلوانا ... لا كنتُ من مغرم صبٍّ ولا كانا (٢)

---

(١) ديوانه : ٢٤ ـ ٢٦
(٢) ديوانه : ٣٨

تبدأ بمقدمة غزلية من ١٨ بيتا ، ثم ينتقل الى مدح العزيز عثمان بالكرمشانية أبيـــات ثم يقـــول :

كم موقف لك والخطيّ مشتجـــر ... والبيض تكسي نجيع الهام أجفانـــا
يرضى به الله والاسلام مبتهـــج ... منه وعاد نبيّ الله جذلانـــا
للمشركين على الايام نكمـــدة ... كما حَطَمتَ انا جيلاً وصلبانـــا
شرعت للسيف شرعا في رقابهـــم ... كما لاكباد هم أشرعت خرصانـــا
اني وإياك والامثال أضربهـــا ... ذكر كما قال رب العرش تبيانـــا
نصر وفتح قريب باجتماعهمـــا ... نبغي من الله رضوانا وغفرانـــا (١)

وقال يمدح الملك المعظم كوكبري بن علي بن بكتكين ويذكر وقائعه ويعرض بكسر العجـــم ، مطلعها :

أشاقتك من أطلال ليلى معالـــم ... فأبدت شؤون الدمع ما أنت كاتـــم
أم القلب إثر الظاعنين صبابـــة ... دعي فأجابته الدموع السواجـــم (٢)

تبدأ بمقدمة غزلية عدد أبياتها (١٨) بيتا ، ثم ينتقل الى المدح فيقـــول :

مليك به وجه الخطوب مقطّـــب ... وثغر الندى والدين والعدل باســـم
حسام أمير المؤمنين وما سمـــي ... بذلك الا وهو للخطب حاســـم
به نُصر الاسلام في كل موطـــن ... وحلت بأهل الزيغ منه القواصـــم
لئن عجزت وُطفُ الغوادي بجـــوده ... لقد خجلت منه البحار والخضـــارم
فمن مجده حوض المدائح مـــترع ... ومن جوده بحر المنائح راســـم
مليك له الاقدار تجري على الـــورى ... فليس قضاء غير ما هو حاكـــم
تجليت منا الدهر ثوبا من العلـــى ... ففي عصره كل الزمان مواســـم
اذا عجز الوصاف عن حصر مدحـــه ... وأوصافه أثنت عليه المكـــارم
وما أنصفوه بالمعظم اذ غـــدا ... عظيما ، وقد هانت لديه العظائـــم
ومن أين يلفى للمظفر مشبهـــه ... اذا احتدمت بالدارعين الملاحـــم
وكم سوق حرب للأعادي أقمتـــه ... وموت لهم أيقظته وهو حالـــم
وكم شهدت منك الفرنج مواقفـــا ... وبحر المنايا موجه متلاطـــم
دعوت بها بيض السيوف فأذعنـــت ... تجيبك في هام الكماة الصـــوارم
لدى معرك لم يلف في جنباتـــه ... اذا الروع الا صـــارم أو ضبـــارم

---

(١) ديوانه : ٤٠
(٢) ديوانه : ٥٦

وما زالت في جيشين : جيش مقاتـــل ... ويبقى على القتلى من الطير حائـــم
ولو سئلت أرض الفرنج شهـــادة ... أجابتكم صيدا ويافا وحـــارم
فكم خلست فيها لدى الحرب أنفـــس ... وكم قسمت اذ ذاك منها الغنائـــم
وكم من صريع من مخافة بأسكـــم ... وما نفعت فيه الرقى والعزائـــم (١)

ثم يختمها بالمدح بالكرم ويطلب منه أن يتخذه كاتبا لـــه (في ٦٦ بيتـــا) .

---

(١) ديوانه : ٥٦ ــ ٥٧

قال يمدح السلطان الكامل محمد بن العادل ، ويذكر انتزاعه ثغر دمياط من الفرنج :

بك اهتز عطف الدين في حلل النصر   وردّت على أعقابها ملة الكفر

ومنها :

وما فرحت مصر بذا الفتح وحدها   لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
ولو لم يقم بالله حق قيامه   لما سلمت دار السلام من الذعر
وأقسم لولا همة كاملية   لخافت رجال بالمقام وبالحجر
فمن مبلغ هذا الهناء لمكة   ويثرب تنهيه الى صاحب القبر
فقل لرسول الله ان سميه   حمى بيضة الاسلام من نوب الدهر
هو الكامل المولى الذى ان ذكرته   فيا طرب الدنيا ويا فرح العصر
به ارتُجعت دمياط قهرا من العدى   وطهرها بالسيف والملة الطهر
ورد على المحراب منها صلاته   وكم بات مشتاقا الى الشفع والوتر
وأقسم ان ذاقت بنو الاصفر الكرى   فلا حلمت الا بأعلامه الصفر
عجبت لبحر جاء فيه سفينهم   ألسنا نراه عندنا ملك الغمر
ألا انها من فضلة لكبيرة   سيطلب منها عفو حلمك واليسر
ثلاثة أعوام أقمت وأشهرا   تجاهد فيهم لا بزيد ولا عمرو
صبرت الى أن أنزل الله نصره   لذلك قد أحمدت عاقبة الصبر
وليلة غزو للعدو كأنها   بكثرة من أرديته ليلة النحر
فيا ليلة قد شرف الله قدرها   ولا غرو ان سميتها ليلة القدر
سددت سبيل البر والبحر عنهم   بسابحة دهم وسابحة غر
أساطيل ليست في أساطير من مضى   بكل غراب راح أفتك من صقر
وجيش كمثل الليل هولا وهيبة   وان زانه ما فيه من أنجم زهر
وكل جواد لم يكن قط مثله   لآل زهير لا ولا لبني بدر
وباتت جنود الله فوق ضوامر   بأوضاحها تغني السراة عن الفجر
فما زلت حتى أيد الله حزبه   وأشرق وجه الارض جذلان بالنصر
فرويت منهم ظامىء البيض والقنا   وأشبعت منهم طاوى الذئب والنسر
وجاء ملوك الروم نحوك خُضّعا   تجرر أذيال المهانة والصغر
أتوا ملكا فوق السماك محله   فمن جوده ذاك السحاب الذى يسري
فمنّ عليهم بالامان تكرما   على الرغم من بيض الصوارم والسمر
كفى الله دمياط المخافة انها   لمن قبلة الاسلام من موضع النحر
وما طاب ماء النيل الا لانه   يحل محل الريق في ذلك الثغر
فلله يوم الفتح يوم دخولها   وقد طارت الاعلام منها على وكر
لقد فاق أيام الزمان بأسرها   وأنسى حديثا عن حُنَيْنٍ وعن بدر (١)

(١) ديوانه ص ١١١ ، وانظر مفرج الكروب ٤ / ١٠٢

قال يمدح الملك المنصور (صاحب حماة) ويصف ما يعانيه في الصيد ، بقصيدة مطلعها :

أكملت كل المناقب ... يا خير ماش وراكب

ومنهـا :

أتدمت بالسيف صلتا ... والسيف أكرم صاحب
حتى قهرت الاعادي ... بشامنا غير عائب
فالقوم بين قتيل ... وبين عان وضارب . (١)

وقال يمدح الملك المظفر صاحب حماة ويهنيه بالظفر على الافرنج :

بمجدك فقت أملاك البلاد ... فاذعن حاضرهم والباد
وبالبيض القواضب مخلصات ... لودك ، أخلصت زرق الاعادي
علوتهم بسوط من عذاب ... أعاد أبيهم سهل القياد
وحبتهم سيوفك حين صلت ... فالجمهم جدالك في الجلاد
عرضت لهم بخيل عوضتهم ... بقبح الطرد عن حسن الطراد
رعاك الله ، يا محمود ، ليثا ... وبحر ندى يفيض ، وبدر ناد
أعد للبرق مصاما ، فنيطت ... حمائله على القمر المراد
ليفدك بالاكارم من بنيه ... زمان رائع ، برضاك ، غاد
فيا لنعمى يصافي من تصافي ... وبالبؤسى يعادي من تعادي
اليك زففتها بكرا تحلت ... بدر من صفاتك ، مستفاد ... (٢)

وقال فيه أيضـا :

أبشر بما شئت من نصر وتاييد ... فملك يروى حديث البأس والجود
وأنت ليث وغى تدمى مخالبه ... في نحر كل طويل الباع صنديد
. . . .
ملك اذا سرت الاملاك في قنص ... فصيده غلب آل الاصفر الصيد
وان صبتهم ذوات الحسن مال به ... قطع الطلى عن وصال الخرد الغيد
وان تلذذوا بشرب الراح قال دما ... بني الحروب ولا بنت العناقيد
. . . .
كم عزة لك لاتنفك عن ظفر ... فالجد منك لجد منك مسعود

(١) ديوانه ص ٩٥ ـ ٩٨ (٢) ديوانه ١٧٨

وكم سطى أعربت عنها الحروبة من ... مقول أبطالك الغر المناجيد
كانوا الجلاميد في بأسوفي جلد ... فوق الجلاميد ترمى بالجلاميد
كتائب خدمت في كل معركة ... حتى لقد خلتها كتبا بتقليد
فكم جبان غدته بأسرتك لبد ... وكم شجاع كسته ثوب رعديد
أما الفرنج فقد أخمدت نارهم ... ولم تزل ذات إضرام وتوقيد
من بعد ما جاد أملاك الطوائف عن ... حفظ البلاد وألقوا بالمقاليد
رجا بنو الاصفر الكفار عودهم ... بالفوز عن رب أغلاق وتوصيد
فباكروا في كثيف الحشد ذي لجب ... تبيد في ساحتيه ساحة البيد
مستشعرين سحب نقع من صلادمة ... ونقعة ذات إبراق وترعيد
فلما جنحت الى سلم على غبن ... ولا تنمت بإرغاب وتهديد
أتيلفتهم رحب صدر ليس يحرجه ... ضيق الميدان وقلبا غير مسرود
وسابحا سلمت بالنصر غزته ... ما سار في الحرب أقداما بتشريد
وحد عضب عليهم منه صاعقة ... كنفخة الصور كل عندها مردود
وزعتهم بعضهم قتل جماجمهم ... بحد ضرب وطعن كالأخاديد
فشردوا بين مجروح ومقتتل ... يبكي على هالك منهم ومفقود
ان خبروا عنك بالبأس العظيم لقد ... قام البيان بتصديق الاسانيد
ساروا قتالك اذ راموا القطائع للقـ ... ـوا على البيض في حجب الوغى السود
فلا تدع غزوهم في عقر دارهم ... مضوا الى الزود من نوم وتنييد
وأسلم فإنك الملك قصورا عليها ولا ... زال الورى تحت ظل منك ممدود (١)

وقال يمدح الملك المظفر الثاني (تقي الدين محمود بن الملك المنصور صاحب حماه) ويهنيه بعيد النحر بقصيدة أولها :

ارقت لدايف المالكية اذ سرى ... ولولاه ما ساعدت عيني بالكرى

ومنهـا :

وكم عاد من كسر الفرنج مسلما ... سوى ثلم عضب أو وشيج تكسرا
تلقاهم شهم الجنان يمده ... بواد رضرغام اذا ما تنمروا
فدى لك يا محمود كل مذمم ... بغيض السجايا يحسب المرء منكرا (٢)

---

(١) فوات الكروب ٤/٣٠٢ وانظر عقد الجمان ج ١٨ ق ٢ ورقه ١١٧
ديوانه ص ١٥٦ـ١٥٨
(٢) ديوانه ص ١٩٥

وقال يمدح الملك المظفر الثاني ويهنئه بقدوم من غزاة بقصيدة أولها :

وثرت يداك ، ودمت يا خير الـــــورى ملكا على كل الملوك مظفـــــرا
وقدمت أغنم قادم ضمنت لـــــه عز العزائم أن يفوز وينصـــــرا
من بعد ما جاشت جيوش الروم فـــي أرباض خرشنة القديمة والقـــرى
وتأشبت بفوارس لو أنهـــــا عرضت لسيف أبي فراس ما سـرى
أغناك عن فتكات جيشك فيهـــم جيش كثرت به العديد الاكثـــرا
غررت حتى ظن أنك موقـــن أن الحتوف تحيد عمن غــــررا
وهززت من أعطاف رمحك بينهـــم غصنا بها مات الفوارس ، مثمـــرا
يوم تضمن كل يوم قبلـــــه مجدا " وكل الصيد في جوف الفــرا "
صادمتهم طودا ، ورعتهم ردى ومضيت صمصاما ، وصلت غضنفـــرا
وغنا مليك الروم منك لهد نـــــة حقنت دماء كماته أن تهـــدرا
قابلت عسكره قتالك واحـــــدا ولقيته فردا فظنك عسكـــــرا
ورآك في سلم فأقبل مقبــــلا ولو أنه في الحرب أسرع مدبـــرا
ما زال يسمع عنك أمرا هائـــلا حتى رآك ، فهاله ما أبصـــرا
أخجلته علما وعزما ماضيـــا فأصاب منك الخضر والاسكنــدرا
وفضلت مشكور الصنائع في الندى والاقربين ، وحقها أن تشكـــرا
همم بعثت ، فكلفتك عظائمــــا كلفتهن المقربات الضمـــرا
تختار منها كل بحر سابــــح ليشق بحرا من نجيع أحمـــرا
لولا غرامك بالحروب وخوضهـــا بارت ، ورب نفيسة لا تشتـــرى
فصل الوغى ، أو صد عنها ، أنـــه باد هواك ، صبرت ، أو لم تصبـــرا
وأراك أشجع ذا الانام وليس في الاقـــوام الا من يراك كما أرى ... الخ (١)

وقال يمدح الملك المنصور الاول بقصيدة مطلعها :

أيروم قلبي من هواك تخلصـــا ان زاد لومي لائمي ، أو نقّصـــا ؟

ومنهـــا :

رعت الفرنج بجحفل متقاعــــد يأبى العلا لكماته أن تنكصـــا
لم تغزهم الا وأنك رائـــــدا رعب يصد عن الفرار القوصـــا
فاذا بدوت لليل باطله صنـــا واذا بدا لنهار حقك حصحصــا
تغزوه بدءا وعيده ، نبـــأ اذا رأى طمعا كذوبا سامه فتلصصـــا
حتى اذا وافاك فرّكأنــــه كلب ، اذا زأرت ليوثك بصبصـــا

---

(١) ديوانه ص ٢١٧ ــ ٢١٩

دم للعلا ، يا خير من نصر الرجا   سار له وعلى علاه نقصا
واستجلها بكرا نتيجة ليلة   تومي بناظم سمطها كل الرصا
أحكمت مهدأ نسجها وختامها   ونسيبها ومديحها والمخلصا (١)

وقال يمدح الملك الأمجد بهرام شاه ، ويهنئه بكسر الفرنج بقصيدة مطلعها :

أهلا باقبال سعدى بعد اعراض   وبرء جسمي بها من بعد أمراض

ومنها :

تجاهل الناس في مصر وجارتها   قدر القروم ، فلم تخفض باخفاض
حتى غزا الكفر " دمياطا " بطاغية   أمد ظهر الهدى منها بانقاض
فكاد يقضي على الاسلام جاهلهم   ما ليس يطمع ، في أبطاله ، قاض
فأسرع ابن معز الدين عزمته   من بعد أحكام تدبير وامضاء
بكل ضرب ربيط الجأش مشتمل   بكل عضب مضيء في الوغى ماض
وكل أجرد يخطير تصرفه   يسارُ ليث الى الهيجاء ركاض
وكل أسمر عسال يسيل من المـ   ـاذي بحر دم للحقد رحاض
وكل صفراء مرنان مفترة   تبني العروق ، اذا ثارت لانباض
فسلموا ثغر دمياط بلا عوض   وطالما خودعوا عنه باعراض
أجلاهم عن حماها بأس ذي لبد   في السلم والحرب رفاع وخفاض
أعاد للدين ما غيظ العدو به   وعاد ، والله عن أفعاله راض
شكرا لدهر ثلاثاني بأوبته   من التلاف وأغنى بعد انفاض
قد كان ينحني داورا ويمنعني   فاليوم قد نلت منه كل أغراضي (٢)

وقال يمدح المظفر الثاني بقصيد أولها :

صحبت هواكم في أمان من العذل   ومن ذا الذي يلحى على مثلكم مثلي

ومنها :

وردت ملوك المشركين بسطوة   سقتهم سمام الموت علاّ على نهل
فاكرم بيوم فيه زاحفت آمدا   فكل الورى عما تحملت من كل
وقد مطرت سحب العجاج صواعقا   من الصخر مزجاة بوبل من النبل
وصابرتها يوما أمد بليلة   تكابد فيها ما يمر لما يحلي
الى أن حباك النصر حد مهند   تكفل قدما فتح ما شئت من قفل
فرويت من أوداجهم يابس الثرى   وأوضحت من أسلابهم غامض السبل
وعدت ، وقد حزت الفخار بفعلة   ترغب في الهيجاء من ظنها تسلي

---

(١) ديوانه ص ٢٧٦   (٢) ديوانه ص ٢٨٣

فيا قاطع الاقران ، دامت لك العـلا ... قرينة ملك غير منقطع الحبـل
فأنت جواد لا يشق غبـاره ... سوى نجلك المنصور قُدّس من نَجْـل
تبارك من أنشاه شبهك في العـلا ... فبورك من فرع ، وبوركت من أصـل(١)

وقال يمدح سيف الدين بن أبي علي الامدي بقصيدة طويلة أولها :

أقسمت : ما خده القاني من الخجـل ... أرق من دمعي الجاري ، ولا غزلـي

ومنهـا :

أما الفرنج فقد مزقت شملهـم ... بجد مستزم بالحزم مشتمـل
وجحفل شاب منهم طفلهم فرقـا ... وعاد فيه الضحى فالنقع كالطفـل
فكم كشفت خفايا من مكايدهـم ... وفلت من أجره والشكر في حلـل
وكم أحلت الى هون اباءهـم ... الله أكبر لولا أنت لم يحصـل
وكم خصيم به لم تبق من أحـد ... منهم سليما من الباساء والنيـل
تقتل وأسرا وعدنا رد سائلهـم ... في قبضة اليتم والتأثيم والثكـل
يحز جيشك والهيجاء جائشـة ... رعبا ، وتأمن والالباب في وجـل
أنت الفتى لم يرعه النبي عن رشـد ... ولا شريت علوم الملك بالجدل ...(٢)

وقال يمدح الملك الامجد بهرام شاه بقصيدة مطلعهـا :

هونَّ هو البرء من سقمي به لامـا ... يهدى اليه من السلوان من لامـا

ومنهـا :

ورب أمة شرك حين أمهـم ... شروه أنفسهم من قبل أن سامـا
وجحفل جف ل الاعلام جندلـه ... بجحفل يحبس الاعلام أعلامـا
تسا قلوا فأعطتهم قواضبـه ... عن التساقم أجلالا وأعظامـا
كأنما قسمت للثم هامهـم ... بين السنابك والاقدام أقسامـا
فللسنابك منها ما تبايعـن ... سيل الدماء وللاقدام ما حامـا
كأن ما جهلت من عوض طاعتـه ... غلف القلوب وعته الهام الهامـا
فأعده ذل مختار فرضهـا ... على رؤوس القنا عزا واكرامـا
مهابة وجمال صوراه لنـا ... في السلم بدرا وفي الهيجاء ضرغامـا
أباد أعدائنا سدادا ، وكان لنـا ... هدى ، فأثبتنا ظلما واظلامـا
ما دام للناس دام الناس في دعـة ... فدام حرزا لاهل الدهر ما دامـا
وحيّ الشام نسماه وأبلغ مـن ... عناه بالشام من هنا به الشاما (٣)

---

(١) ديوانه ص ٣٩٦

(٢) ديوانه ص ٣٩٩ ـ ٤٠٣

(٣) ديوانه ص ٤٢٩

وقال يمدح الملك المظفر الثاني بقصيدة أولهـــا :

لمن المنازل ؟ من لي من عينهـــا   رغيد ضنيت صبابة بضنينهـــا

ومنهـا :

وممالك أنزلت صيد ملوكهـــا   بالقهر عن صهوات حصن حصونهـا
وحماة لو لم يسر طالب وصلهـــا   سارت اليك ربوعها بقطينهـــا
ولقد دلفت لفتح آمد بعد مـــا   راع الورى ما شاد من تحصينهـــا
زاحفتها سميا كأنك ضيغـــم   قصد الغزالة آخذا بقرونهـــا
عجز الملوك عن القرار بوهدهـــا   وعلوت مستويا على عرنينهـــا
أمكنت منها ثم عدت مشرفـــا   مغنى حماة غزدت في تمكينهـــا
نصرت ودان له الزمان وأهلـــه   بسطى مظفرها ابن ناصر دينها (١)

وقال يمدح سيف الدين بن أبي علي بقصيدة أولهـــا :

غزال والاسود له رعايـــا   وملك والملوك له رعايـــا

و
ومنهـا :

متى تغز الفرنج تعد بغنـــم   وان وافوا رددتهم سبايـــا
حدوتهم بحد السيف لمـــا   أتوك بأكبد الابل البلايـــا
وتمت عليك يا ابن أبي علـــي   تنائي بالندايا والسجايـــا
وجودك عم كل الناس لكـــن   لي المرباع منه والصفايـــا
وان كان الذي أهديت نـــزرا   فان مدائحي أسنى الهدايا (٢)

---

(١) ديوانه ص ٤٦٧
(٢) ديوانه ص ٥٢٣

قال يمدح السلطان الملك الكامل ، ويذكر أيام دمياط ، وقصد الفرنج لها ، وظفره بهم :

كم منّة لأبي المعالي الكامل السلطـــــان في عنق الهدى لا تجحـــد

أيامَ قال الشرك بغيا للهــدى ⁂ دمياط لي ذلك الغداة الموعـــد

وأتى بها ملء البسيطة كثــرة ⁂ والله ربك عالم ما شيـــدوا

حتى إذا ضحت يداه بقسمـة ⁂ جف المياه بها وذاب الجلمـــد

كالسيل إلا أنه لا ينثنـــي ⁂ والليل إلا أنه يتوقـــد

وأتى بك الإسلام وعداه موقنـا ⁂ أن سوف تهزم جمعهم وتبـــدد

حتى إذا التقيا ظلمت عليهمـا ⁂ بالنصر تُشقي من تشاء وتُسعـــد

فرددت شمل الشرك وهو مرسـل ⁂ خزيا ، ودين المصطفى مؤيـــد

حكمت بأسك فيهم فكلهـــم ⁂ مجدل ومشرد ومصفـــد (١)

---

(١) ديوانه ص ١٥

قال في فتح طرابلس يمدح الملك المنصور قلاوون :

أدركت بالجد أقصى غاية الطلب ... ونلت بالجد أعلى منتهى الرتب
أبا المظفر لا زالت مظفرة ... ملأك الجيوش على الأعداء بالرعب
فالله جارك أنى سرت من ملك ... وناصر لك من ناء ومقترب
للهول مرتكب للحق منتصر ... للغزو محتسب للأجر مكتسب
بالسيد الملك المنصور شيد علا الا ... سلام وانهد دين الشرك والصلب
أحرزت ما فات قدماً من طرابلس ... جمع الملوك ذوي الإرعاب والرهب
أتعبت نفسك في ذات الإله بها ... فيا لها راحة وافت من التعب
فتح يتيه على كل الفتوح به ... عصر غدا منتشي الأعطاف من طرب
فكم لها في حبال الكفر من حقب ... مرت ولم تنج تطليقا على حقب
أغضت على الذل أحيانا وما برزت ... بالوجه طالبة بعداً من الحجب
حتى اذا ما رأت كفءاً لخطبتها ... دعت فلبيتها في جحفل لجب
أصدقتها كل ثبت القلب ترعد من ... أقدامه أسد الآجام من رعب
آساد معركة ، عقبان ملتحمة ... فرسان ملحمة للموت لم تهب
من كل قسطر أحاطوا محدقين بها ... كما أحيط على الأحداق بالهدب
لو كنت شاهدهم والشمس طالعة ... من شقة النقع يوم الزحف في نقب
خلت الأسنة شهباً لحن في غسق ... والمشرفيات برقاً شيم في سحب
قل للملوك التي أعيتهم فقضوا ... عمرا وكل إليها الدهر ذو أرب
تهدى العرايس من شم الحصون التي ... من بات يخطبها بالسمر والقضب
غادرتها بمناجيق نصبن لها ... ورفع أبراجها خفض بمنتصب
فأصبحت ذات اصحاب وكم جنبت ... على مرادك من جار لها جنب
أجريت فيها بحارا من نجيعهم ... فكل سابحة سبحا الى اللبب
لم تخل الشمس فيها بعد ذاك على ... غير الشذيا من القتلى ولم تغب

. . . .

أذقتهم بعد عز مرّ ذلهم ... وبعد أمن كؤوس الخوف والوصب
يا راشا علم الدين الحنيف ومن ... أصاب بالخفض دين الرجس والصلب
تهيلت ما أعجزت صيد الملوك بما ... أدركته من فتحها الميمون عن كثب
غاية السيف كم من آية نسخت ... وطلعة الشمس كم أخفت من الشهب
جزاك ربك عن كل بما لحمة ... وكف عنك أكف الخلق في النوب (١)

(١) عقد الجمان جـ ٢٠ ق ٤ ورقه ٧١١

وقال يمدح الأشرف خليل بن قلاوون :

بلغت في الملك أقصى غاية الأمـــل ... وفقت شأو ملوك الأعصـــر الأول

وحزت رق العلى بالجد مجتهـــداً ... وجزت غاياتها (جهراً) على مهـــل

ونلت بالحول دون الناس منفـــرداً ... ما لم تنله ملوك الأرض بالحيـــل

فدان بدولتك الميمون طائرهـــا ... فانها غرة في أوجه الـــدول

فكم بلغت مراداً بت تأملـــه ... بعزمك الباتر الماضي من الفلـــل

وكم فتحت حصوناً طال ما رجعـــت ... لليأس عنها الملوك الصيد في خجـــل

أنت الذي لم تدع للكفر من بلـــد ... يأوي اليه ، ولا للدين من أمـــل

حررت من عكة الغراء ما عجـــزت ... عنه الملوك بعزم غير منتقـــل

عقيلة المدن أمست من حصانتهـــا ... وصونها من ليالي الدهر في عقـــل

كم قد دعتها ملوك الأرض راغبـــة ... وعطفها عنهم بالتيه في شغـــل

صدت عن الصيد لا تلوي فلم تدل الا ... ودام منها الى وصل ولم تصـــل

حتى أمرت فأمست وهي طائعـــة ... بعد الاباء لامر منك ممتثـــل

ما زال غيرك فيها طامعاً وعلـــى ... يديك قد كان هذا الفتح في الازل

فتح تطاول عن نثر يحوط بـــه ... وصفاً وعن نظم شعر محكم طـــول

تصدتها فأضحت بعد ما فجعـــت ... في أهلها من أسود الغيل بالغيـــل

في جحفل لجب كالليل أنجمـــه ... تبدو لرائيه من قضب ومن أســـل

عم المهابة من وقع أكـــم ... وطبق الأرض من سهل ومن جبـــل

تخال هوجاء الخيل تحتهـــم ... للباس في الروع آسادا على قلـــل

لا تنظر العين منهم إن هم لبســـوا ... لا مات حربهم يوما سوى المقـــل

قدمتها بجيوش لو قدمت بهـــا ... شم الجبال أزالتها ولم تـــزل

فأصبحت بعد عز الملك خاضعـــة ... من ذل له الملك طول الدهر في سمـــل

أمست خرابا وأضحى أهلها رممـــا ... وسطرتها يد الأيام في المثـــل

تسلب بزتها عنها وقد عطلـــت ... ألذ للطرف من حلي ومن حلـــل

ومحو آثارها منها وقد خربـــت ... أشهى إلى النفس من روض الربى الخضل

بالأشرف السيد السلطان زال عنـــا ... التثليث وابتهج التوحيد بالجـــدل

تدبير ذي حلم في عز منتقـــم ... وعمر مقتبل في رأي مكتهـــل

راحت وقد سلبت أرواحهم لشبـــا ... الهندي أموالهم من حملة النفـــل

هدمت ما شيدوا فرقت ما جمعـــوا ... نقضت ما أبرموه غير محتفـــل

وعندما أصبحت قفرا بلا دمـــم ... من السواحل بعد الأهل في عطـــل

رحلت عنها ولكن كم أقمت بهـــا ... من خوف بأسك جيشاً غير مرتحـــل

لا زلت ذا رتب في المجد سامية ... وسؤدد بنواحي الشهب متصـــل(١)

---

(١) تاريخ ابن الفرات مجلد ٨ / ١١٤

قال في فتح عكـــا :

يا أشرف الدّنيا تهنّ فإنـــــه ... فتح سواك بمثله لم يحلــــم

أشبهت معتصم الخلائف دمشقــة ... فالروم منك ديارهم لم تعصـــم

فأريت عكا ما بعموريــــــة ... ذات الفوارس بالزمان الأقــدم

فابلت بلق جيوشه بسوابـــق ... غرّ عليها الريح لم يتقـــدم

ولأنت من صبح وليل لم تـــزل ... تردي الكماة بأشهب وبادهــم

كم رعتها بسواد ليل أليـــل ... فصدمتها ببياض يوم أيـــوم

وأعدتها للمسلمين ولم يكـــن ... منهم ترى التطهير إلا بالـــدم

ولئن صلاح الدين بكراً نالهــا ... فالبكر في التجريب غير الأيــم

بالجمعة الغراء كان صباحهــا ... وجه الزمان بمثله لم يرقـــم

لم تمل خندقها وقد داروا بـــه ... طعناً بغير شظى القنا المتحطــم

وغدت ومن غيها بما أوليتهـــا ... خبراً يقص المجد أوتهــم* (١)

---

(١) جواهر السلوك ورقة ٤٨

(*) نسبها محمود سليم الى ابن الصائغ (عصر سلاطين المماليك ٥٧/٨)

قال في فتح حصن المرقب زمن المنصور قلاوون :

كم له فتح غير هذا خبـــي *** فاستر بفتح الأرض واستوعـب
يا فاتح الحصن الذي فتحــه *** يأتي به شكرك من يشـرب
حصن عظيم القدر في سيــرة *** ابن مضى قبلك لم يكتـب
اذا بدا والغيم من حولــه *** تقول نجم لاح في غيهـب
وإن تلى للعين أبراجــه *** يقال هذا موكب الكوكـب
أنشبت حربا فيه كم رامهـا *** قبلك سلطان فلم تنشـب
ف رحت منه تشتكي صبـوة *** لم يبق حصن ثم لم يجنـب
أخذت حق الدين من بعد مـا *** مضت سنون وهو لم يطلـب
وذات خطوكم لها وثبـة *** عظيمة المسرى إلى المسـرب
قد سقتها قابا وآسادهـا *** تحملها في ضيّق المذهـب
كم نصب الاعداء من هول مـا *** رأوه منها رشي لم تنصـب
وكم لهـا قالوا وقد ركبـت *** أي حصين فيه لم يخـرب
كأنما الأعناق أمست لهـا *** مناصب الأملد والأرطـب
وكم نقوب فيه صيرتهـا *** صما لكا تأتيه بالمطلـب
أبكارها ما أفتضها معسـول *** الا انثنت كالحابل المقسـرب
فاهنأ بفخر منه قد حزتــه *** أخبارهم من طيبها تعذب
وليس حصن بعدها مانـع *** في الأبعد النائي وفي الأقـرب
وأعلم بأن السعد قد قـال ذا *** وقال نصر الله بالموجـب (١)

وقال في فتح حصن عكار سنة ٦٦٩ هـ :

يا مليك الأرض بشـرا *** لك قد نلت الإراده
إن عكار يقينـا *** هو عكا وزيـاده (٢)

وقال في انتصار المنصور قلاوون على الفرنج والتتار والأرمن سنة ٦٨١ :

الله أعطاك لا زيد وعمـرو *** هذا العطاء وهذا الفتح والنصـر
هذا المقام الذي لو لم تحل بـه *** لم يبق والله لا شام ولا مصـر
. . . .
يا عزمة ما رأى الراؤون مشبهـا *** ووقعة سار في الدنيا لها ذكـر
لما بنى جيش أيقا في تجاسـره *** ولن يعد لملا القنا جسـر
واستجمع الخيل والتكفور واتفقـوا *** مع الفرنج ومن أودى به الكفـر

---

(١) تشريف الأيام والعصور ص ٨٠

(٢) تاريخ ابن الوردي ١/٢٠٧ وانظر المختصر في تاريخ البشر ٣/٦

جاءت ثمانون ألفا من بحوثهـــم ... لأرض حمص فكان البحث والنشـــر
وافى التيسان في يوم الخميس ضحى ... وامتدت الحرب حتى أذن السمسـر
والسيف يركن والأعلام رافعـــة ... والروس تسجد لا عجب ولا كبـــر
والخيل لا تغتدي إلا على جثـــث ... والسهل من أروس القتلى به وعـــر
والبيض تغمد في الأجفان من مهـــج ... والسمر ناصية يا ما تفعل السمـــر
فجاء في رجب عيدان من عجـــب ... للسيف والرمح هذا الفطر والنحر (١)

ومما كتب في جواب البشارة عن المولى السلطان الملك الاشرف (بفتح حصن المرقب)

يا ملك الأرض الذى جيشـــه ... يملأ من غرب الى مشـــرق
هنئت بالحصن العظيم الــذى ... لفتحه غيرك لم يسبـــق
حصن بما التتار قالوا تـــرى ... من بعد هذا أى شيء بقـــي
وقال كل منهم ليتنـــا ... لمثل هذا اليوم لم تخلـــق
فأهنأ به فتحا فكم مثلـــه ... في باب عكا بكم يلتقـــي (٢)

وقال في طرد الفرنج من عكـــا سنة ٦٦٠ :

يا بني الأصفر قد حل بكـــم ... نقمة الله التي لا تنفصـــل
نزل الأشرف في ساحلكـــم ... فأبشروا منه بصفع متصـــل (٣)

وقال يرثي الظاهر بيبرس من قصيدة :

اقرأ عليك تحية وســـلام ... يا قبر من فجعت به الانــــام
الظاهر السلطان من يمصابـــه ... هدّ الهدى وتأثر الإســـلام
قبر الذى لو أنصفته قلوبنـــا ... ما أصبحت بصرة تشتـــام

• •

هذا الذى قال الملوك لربـــه ... قل يا رسول وما عليك مـــلام
هذا الذى هزم التتار فأصبحـــوا ... تغتالهم عند الكرى الأحـــلام
هذا الذى قهر الفرنج فكلهـــم ... ترديهم من رعبـــه الأوهـــام (٤)

وقال يمدح الظاهر بيبرس سنة ٦٦٤ :

أى يوم بنصره قد حبينـــا ... وبه الله قد أقر العيونـــا
يوم جزنا ببلاد سيس وقلنـــا ... أي نصر من ربنا قد جزينـــا

ومنهـــا :

كم أذلوا القـــروم نهبا وأســـرا ... في انتصار وكم أعزوا القرونـــا

---

(١) عقد الجمان جـ ٢٠ ، ق ٤ ورقة ٦٧٧ (٢) تشريف الايام والعصور ص ٨٢
(٣) تاريخ ابن الفرات مجلد ٨ ص ١١٤ ، والسلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ق ٢ ص ٧٦٦
(٤) تاريخ ابن الفرات مجلد ٧ ص ١٤٣

فتحوا المدن والحصون وكفّوا ... كافريها وسلّموا المسلمينا
بسطى سيد الملوك ومن قد ... صار حصنا للمسلمين حصينا
ركن دين الله بيبرس الظاهر خير الملوك دنيا ودينا
أسد الله في الوجود أتاها ... بالسطى منه أخذ الظالمينا
وتولى ليفون منه حسيرا ... خائبا خائفا لسينا مهينا
وكذاك التتار خوفا ورعبا ... قد تولوا من بأسه هاربينا
آه لو أنهم أتاهوا فقالوا ... أي يوم لشرّه قد حينا
أنذروا بالجيوش أبغا فولى ... هاربا لا يكذّب الناقلينا (١)

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ١ ص ٥٥١

البوصيري – ٦٩٥

يقول في الرد على النصارى واليهود :

خبرونا أهل الكتابين من أين أتاكم تثليثكم والبداء
ما أتى بالعقيدتين كتاب واعتقاد لا نص فيه ادعاء
والدعاوى ما لم تقيموا عليها بينات أبناؤها ادعياء
ليت شعري ذكر الثلاثة والوا حد نقص في عدكم أم نماء
كيف وحدتم إلهاً نفى التو حيد عنه الآباء والأبناء
أإله مركب ما سمعنا بإله لذاته أجزاء
ألكل منهم نصيب من الملك فهلا تميز الأنصباء
أم هم حللوا بها شركة الأبدان أم هم لبعضهم كفلاء
أتراهم لحاجة واضطرار خلطوها وما بغى الخلطاء
أم جميع على الحمار لقد جل حمار بجمعهم مشاء (٢)
أم أردتم بها الصفات فلم خصت ثلاث بوصفه وثناء
أم هو ابن الله ما شاركته في معاني النبوة الأنبياء
قتلته اليهود فيما زعمتم ولأمواتكم به إحياء
إن قولاً أطلقتموه على الله تعالى ذكراً لقول هراء (١)

ويذكر أقوال اليهود وقبلها يصف الاسلامية :

وأخوا الضلالة قال عيسى ربه ونبيه فأخو الضلال مكذب
ويقول خالقه أبوه وإنه رب وإنما أم ألا فتعجبوا
أبهذه التورات جاءت كتبهم أم حرفوا منها الصواب وبدلوا
فاعوج منها ما استقام طلوعه فكأنها بين النجوم العقرب
عجبا لهم ما باهلوه ولم أبت أحبار نجران الذين ترهبوا
ولقد تحدى بالبيان لقومه واليهم يعزى البيان وينسب (٢)

واتفق أن الشيخ شرف الدين البوصيري رأى في منامه قبل أن يخرج الاشرف الى عكا قائلاً ينشد :

قد أخذ المسلمون عكا وأشبعوا الكافرين صكا
وساق سلطاننا إليهم خيلا تدك الجبال دكا
وأقسم الترك منذ سارت لا تركوا للفرنج ملكا (٣)

(١) ديوانه ص ١٥
(٢) ديوانه ص ٤٦
(٣) ديوانه ص ٢٣١

وقال يمدح أيدمر عز الدين والي القاهرة ويعزيه في سيف الدين :

فطهّر الأرض من أهل الفساد فلا ... عين لهم بقيت فيها ولا أثر
ودبّر الملك تدبيرًا يقصّر عن ... إدراك أيسره الأفهام والفِكَر
وحين طارت الى الأعداء سمعته ... مات الفرنج بداء الخوف والتتر
فما يبالي بأعدائه قلوبهم ... فيها تمكّن منه الخوف والذعر
وكلّ أرضٍ ذكرناه بها غنيت ... عن أنْ يُجرّدَ فيها الصارم الذكَرُ (١)

وقال في مدح الملك المنصور قلاوون بمناسبة بنائه المارستان المنصوري الكبير سنة ٦٨٤ منها :

لقد جهلت داويّة الكفر بأسه ... وغرّهم بالمسلمين غرور
فلا بوركوا من اخوةٍ إنّ أمهم ... وإن كثرت منها البنون نزور
يظنون خيل المسلمين يصدّها ... عن العدو في أرض العدوّ دجور
أما زلزلت بالعاديات وجاءها ... من الترك جيش لا يُعدّ غفير
أتوا بجليّاتٍ من الجرد ستّرت ... ورجّل لهم مثل الجراد طمور
فلم يرتقبوا من صوب هامان مرتبا ... بهامته برد السحاب تكور
وصب عليهم عارض من حجارة ... ونبلٍ وكلّ بالعذاب مُطيّر
وساموه خسفا من نقوبٍ كأنها ... أثافٍ لها تلك البروج قدور
فذاقوا به مرّ الحصار فأصبحوا ... لهم ذلك الحصن الحصين حصير
يصيحون أعلى السور خوفا كأنه ... نفى عنه نوم المقلتين صفير
وماذا يرد السور عنهم وخلفه ... من الخيل سور والصوارم سور
وليس لهم إلا إلى الأسر ملجأ ... وإلا إلى ضرب الرقاب مصير
فلما أحسّوا بأسه غلب همّه ... غدوّ إليهم بالردى وبكور
دعوه وشمل النصر منهم ممزّق ... أمانا وجلباب الحياة بقصير
أطاعهم افرنسيس تلك وسيلة ... رأى مستجيرا غبّها وسجير
فدى نفسه بالمال والآن وانثنى ... تطير به من حيث جاء طيور
فلا تذكروا ما كان بالامس منهم ... فذاك لأحقاد السيوف مثير
فلو شاء سلطان البسيطة ساقهم ... لمصر وتحت الفارسين بعير
تبشّر مصر دائما بقدومهم ... اذا فصلت منهم لغزة عير
تسرّهم عند القفول بضاعة ... وتحفظ منهم إخوة وتمير
ولو شاء مد النيل سيل دمائهم ... ورغت نحوره ماءه وسجور
بصيدٍ كصيد النحر يا حسن ما يُرى ... به من علوجٍ كالعجول جزور
فولوا وسوء الظن يلوي وجوههم ... فتحسبها صورا وما هي صور
وقد شغرت منهم حصون أواهل ... وما راعها من قبل ذاك شغور
فلله سلطان البسيطة إنه ... مليك يسير النصر حيث يسير

---

(١) ديوانه ص ٨٨

ويغمد في هام الملوك حسامـــه ... ويرهب من هام الملوك غفيـــر
ويجني من أشلائهم بتفرقـــة ... بصارمه جمن الهشيم خطيـــر
فأخلق بأن يبقى ويبقى لملكـــه ... ثناء حكاه عنبر وعبيـــر ... (١)

ويقول عن سعور النصارى : من قصيدة يمدح بها الصاحب شمس الدين بن الصاحب برهان الدين :

إن النصارى بالمحلة ودهـــم ... لو كان جامعها يكون كنيســـا
أترى النصارى يحكمون بأنـــه ... من باشر الأحبار صار حبيســـا
إن عاد إسحق إليها ثانيـــا ... ضربوا على أبوابها الناقوســـا
صرف الإله السوء عنك بصرفـــه ... فاصرفه عنا واصفع القسيســـا (٢)

وقال قصيدة سماها المخرج والمردود على النصارى واليهود :

جاء المسيح من الإله رســـولا ... فأبى أقل العالمين عقـــولا
قوم رأوا بشرا كريما فادعـــوا ... من جهلهم لله فيه حلـــولا
وعصابة ما صدقته وأكثـــرت ... بالإفك والبهتان فيه القيـــلا
لم يأت فيه مفرط ومفـــرط ... بالحق تجريحا ولا تعديـــلا
فكأنما جاء المسيح إليهـــم ... ليكذبوا التوراة والإنجيـــلا
فاعجب لأمته التي قد صيـــرت ... تنزيهها لإلهها التنكيـــلا
أمعتم أن الإله لحاجـــة ... يتناول المشروب والمأكـــولا
وينام من تعب ويدعو ربـــه ... ويروم من حر الهجير مقيـــلا
ويمسه الألم الذي لم يستطـــع ... صرفا له عنه ولا تحويـــلا
يا ليت شعري حين مات بزعمهـــم ... من كان بالتدبير عنه كفيـــلا
هل كان هذا الكون دبر نفســـه ... من بعده أم آثر التعطيـــلا (٣)

وله قصيدة أخرى تسمى " ذخر المعاد في وزن بانت سعاد " منها :

فأخسر الناس من كانت عقيدتـــه ... في طيها لظهور الخلق تعطيـــل
وأمة تعبد الاوثان قد نصبـــت ... لها التصاوير يوما والتماثيـــل
وأمة ذهبت للعجل عابـــدة ... فنالها من عذاب الله تعجيـــل
وأمة زعمت أن المسيح لهـــا ... رب غدا وهو مصلوب ومقتـــول
فثلثت واحدا فردا نوحـــده ... وللبصائر كالإبصار تخييـــل
تبارك الله عما قال جاحـــده ... وجاحد الحق عند الله مخذول (٤)

(١) ديوانه ص ٩٦ ــ ٩٨
(٢) ديوانه ص ١١٤
(٣) ديوانه ص ١٢٧ ــ ١٢١
(٤) ديوانه ص ١٧٣

قال في فتح عكا سنة ٦٩٠ هـ

الحمد لله زالت دولة الصلب   وعز بالترك دين المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت   رؤياه في النوم لاستحييت من الطلب
ما بعد عكا ، وقد هدت قواعدها   في البحر للشرك عند البر من أرب
عقيلة ذهبت أيدي الخطوب بها   دهراً وشدت عليها كف مغتصب
لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت   في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب
كانت تخيلها آمالنا فترى   أن التفكر فيها أعجب العجب
أم الحروب فكم قد أنشأت فتنا   شاب الوليد بها هولا ولم تشب
سوران : بر وبحر حول ساحتها   دارا ، وأدناهما أنأى من القطب
مصفح بصفاح حولها أكم   من الرماح ، وأبراج من اليلب
مثل الغمائم تهدي من صواعقها   بالنيل أضعاف ما تهدي من السحب
كأنما كل برج حوله فلك   من المجانيق يرمي الأرض بالشهب
غدا جاءتها جنود الله يقدمها   غضبان لله ، لا للملك والنشب
ليث أبى أن يرد الوجه عن أمم   يدعون رب الورى ـ سبحانه ـ بأب
كم رامها ورماها قبله ملك   جم الجيوش فلم يظفر ، ولم يصب
لم يلهه ملكه ، بل في أوائله   نال الذي لم ينله الناس في الحقب
لم ترض همته إلا التي قعدت   للعجز عنها ملوك العجم والعرب
فأصبحت وهي في بحرين مائلة   ما بين مضطرم نارا ومضطرب
جيش من الترك ترك الحرب عندهم   عار ، وراحتهم ضرب من الوصب
تسنموها فلم يترك ثباتهم   في ذلك الأفق برجا غير منقلب
أتوا حماها فلم تدفع وقد وثبوا   عنها مجانيقهم شيئا ولم تثب
يا يوم عكا ، لقد أنسيت ما سبقت   به الفتوح ، وما قد خط في الكتب
لم يبلغ النطق حد الشكر فيك ، فما   عسى يقوم به ذو الشعر والخطب
كانت تمنى بك الأيام عن أمم   والحمد لله ، شاهدناك عن كثب
أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم   لله أي رضى في ذلك الغضب
وأطلع الله جيش النصر فابتكرت   طلائع الفتح بين السمر والقضب
وأشرف المصطفى الهادي البشير على   ما أسلف الأشرف السلطان من قرب
فقر عينا بهذا الفتح ، وابتهجت   بنشره الكعبة الغراء في الحجب
وسار في الأرض سير الريح سمعته   فالبر في طرب والبحر في حرب
وخاضت البيض في بحر الدماء وما   أبدت من البيض إلا ساق مختضب
وقاص زرق القنا في زرق أعينهم   كأنها شطن تهوي إلى قلب
توقدت وهي تروى في نحورهم   يزاد منها الري في الإشراق واللهب
أجرت إلى البحر بحرا من دمائهم   فراح كالراح ، إذ غرقاه كالحبب

وذاب من حرّها عنهم حديدهم … تقيّدتهم به ذعراً يدُ الرّهب
تحكّمت فسطت فيهمْ قواضبها … قتلاً وعفّتْ لحاويها عن السّلب
كم أبرزتْ بطلاً كالطود قد بطلت … حواسّه فغدا كالمنزل الخرب
كأنه وسنان الرمح يطلبه … بن[illegible] ووراءه كوكب الذنب
بشراك يا ملك الدنيا لقد شرُفتْ … بك الممالك واستعلَتْ على الرّتب
ما بعد عكا وقد لانت عريكتها … لديك شيء تلاقيه على تعب
فانهضْ الى الارض فالدنيا بأجمعها … مدّت اليك نواصيها بلا نصب
كم قد دَعَتْ وهي في أسر العدى زمنا … صيدَ الملوك فلم تسمع ولم تجب
لبّيتَها يا صلاح الدين معتقدا … بأنّ ظنّ صلاح الدين لم يخب
أسلتَ فيها كما سالت دماؤهم … من قبل أجرارها بحرا من الذهب
أدْركتَ ثار صلاح الدين اذ غضبت … منه لسرّ طواه الله في اللقب
وجئتها بجيوش كالسيول على … أمثالها بين آجام من القضب
وخُطتها بالمجانيق التي وقفت … أمام أسوارها في جحفلٍ لجب
مرفوعة نصبوا أضيافها فغدا … للجزم والكسر منها كل منتصب
ورضْتها بنقوب ذللت شمما … منها وأبدَتْ محياها بلا نقب
وبعد صبّحتها بالزحف فاضطربت … رعبا وأهوت بخديها الى الترب
وغنت البيض في الاعناق فأرتقصت … أبراجها لعبا منها مع اللعب
وخُلّقتْ بالدم الاسوارُ فابتهجت … طيبا ولولا دماء القوم لم تطب
وأبرزت كل خود كاعب نشرت … لها الرؤوس وقد زُفّتْ بلا طرب
بانت وقد جاوَرَتنا ناشزًا وغدت … طوعَ الهوى في يَدَيْ جيرانها الجنب
ظنوا بروج البيوت الشمّ تعقلهم … فاستعْقَلتهمْ ولم تطلق ولم تهب
فأحرزتهم ولكن للسيوف لكي … لا يلتجي أحد منهم الى هرب
وجالت النار في أرجائها وعلت … فأطفأت ما بصدْرِ الدين من كرب
أنسحت أبا لهبٍ تلك البروج وقد … كانت بتعليقها حمّالة الحطب
وأثلتَ البحر منهم من يُخبّرُ من … يلقاه من قومه بالويل والحرب
وتمّت النعمة العظمى وقد كمُلت … بفتح صور بلا حصر ولا نصب
أختان في أنّ كلا منهما جَمَعَتْ … صليبةَ الكفر لا أختان في النسب
لمّا رأت أختها بالامسِ قد خربت … كان الخراب لها أعدى من الجرب
فالله أعطاك ملك البر وابتدأت … لك السعادة ملك البحر فارتقب
من كان مهداه عكا وصور معا … فالصين أدنى الى كفّيه من حلب
علا بك الملك حتى أن قبته … على الثريا غدت ممدودة الطنب
فلا برحتَ عزيزَ النصر مبتهجا … بكلّ فتحٍ قريب المنح مرتقب (١)

---

(١) جواهر السلوك ورقة ٥٩ ـ ٦٢ ، ابن كثير البداية والنهاية ١٣ / ٣١٣
درة الاسلاك جـ ١ ورقة ١٥٤ ، تاريخ ابن الفرات ٨/١١٧ ـ ١١٨

وقال في فتح حصن المرقب من قصيدة :

ولقد ذكرتك والحياة كريهة ... والموت يرقب تحت حصن المرقب
والبيض من خلل السهام كأنها ... برق تألق في غمام صيّب
والحصن من شفق الحديد كأنه ... عذراء ترفل في رداء مذهب
سامي السماء فمن تطاول نحوه ... للسمع مسترقا رماه بكوكب
والمنجنيق كأنه من رميه ... حيث استدارت مركب في لولب
والموت يلعب بالنفوس وخاطري ... يلهو بخمرة ذلك المستعذب (١)

وقال في فتح عكا وما معها من الحصون أولها :

الفرك أجلى وانجلى ظلماته ... والدين قرّ وأشرقت قسماته
والنصر ألوت بالفرنج رياحه ... من بعد ما فتكت بهم نسماته

ومنها :

طمع العدو بأن عكا معقل ... تبلى الدهور ولا تلين قناته
فرموهم بالزحف وهو الصدمة الاولى ... فزلزل أرضهم صدماته
وتحكم السيف الصقيل فأحرزت ... بالقتل أسراب الظباء ظباته
ونمى الى صور الحديث بحربهم ... اذ خلّقت بدمائهم صفحاته
فوهت عزيمة من بها وتفرقوا ... عن حصنهم ونفتهم أبياته
وسرت الى صيدا الجيوش وربهم ... تضحي طلائع جندهم طلباته
فسلوا منازلهم وذا نحوضها ... قد عبّرت عن حزنه عبراته
وأتوا على البترون وهو مصمم ... بمراكب صفت بها حافاته
فحووهم أسرى وهل ينجو امرؤ ... قد قيدت بسكوسه حركاته
وأتى على بيروت يوم مثلهم ... تربو على أعوامه ساعاته
أرداهم ما أضمروا من غلهم ... والمرء يتبعه الردى تبعاته
وبحصن عثليث الذي كملت وما ... كانت بغير الوهم تدرك ذاته
وكذاك انطرطوس أسلمها العدى ... ومضت تميل بسنته لفتاته
وجبيل ولى أهلها فرقا وكل ... للفراق ترددت حسراته
غضب الاله لدينه فأتتهم ... من حيث لم يتوهموا سطواته
وتفرقوا أيدي سبا وسباؤهم ... جمعت برغمهم لنا أشتاته (٢)

---

(١) درة الاسلاك ورقة ١٢٥

(٢) جواهر السلوك ورقة ٦١ ودرة الاسلاك في دولة الأتراك ورقة ١٥٨

وقال في فتح حصن المرقب :

الله أكبر هذا النصر والظفر … هذا هو الفتح لا ما تزعم السير
هذا الذي كانت الآمال إن طمحت … الى الكواكب ترجوه وتنتظر
فانهض وسر وأملك الدنيا فقد نحلت … شوقاً منا بروجها وارتاحت السور
كم رام قبلك هذا الحصن من ملك … فطال عنه وما في باعه قصر
وكيف تمنحه الايام مملكة … كانت لدولتك الغراء تدخر
عز المدى منه حلم تحته همم … لا يشقر البرق من تحجيلها غرر
لها وإن أشبهت لطفاً النسيم سرى … منى السواصف لا تبقي ولا تذر
أوردتها المرقب العالي وليس سوى … ماء المجرة في أرجائها نهر
كأنه وكأن الجو يكنفه … وهم تمثله في طيها الفكر
يختال كالغادة العذراء قد نظمت … منه مكان اللآلي الانجم الزهر
لها الهلال سوار والسها شنف … والقلب قلب ومشدود الدجى طرر
تعلو الرياح اليه كي تحيط به … خبرا وتدنو وما في ضمنها خبر
ويومض البرق يهفو نحوه ليرى … أدنى رباه ويأتي وهو معتذر
وليس يروى بماء السحب معهده … اليه من فيها الا وهو منحدر
ففاجأته جنود الله يقدمها … من بأسك المنذران : الخوف والخذر
وأضرمت حوله نارا لها لهب … من السيوف ومن نبل الوغى شرر
والجأته سهام الجـ[illegible]ـى … فاغتاله القاتلان : الحصر والحصر
وأمطرته المجانيق التي نشأت … ولم يكن قبلها يهمي به المطر
كأنها ومجانيق الفرنج لها … غرائن الاسد في أظفارها الظفر
وكم شكا الحصن ما يلقى فما أثرت … يا قلبها أحديد أنت أم حجر
وللنقوب دبيب في مفاصله … تثير سقما ولا يبدو له أثر
أضحى به مثل صب لا تبين به … نار الهوى وهي في الأحشاء تستعر
قد زال وتجلى قواه عن قواعده … وخر أعلاه نحو الأرض ينحدر
وساخ وانكشفت أقباؤه وبدا … لديك من مضمرات النصر ما ستروا
فمال يهدي اليهم كل ليث وغى … له من البيض ناب والقنا ظفر
وقد تقلد من إشراق ملكك ما … به على أنجم الجوزاء يفتخر
رفعت أعلاه أعلاما مسودة … ان لا يزال بها الاسلام ينتصر
تبدو بها غرر الملمات بالحسنة … من كل ناحية في وجهها قمر
ان لم يوف الورى بالشكر ما فتحت … يداك فالله والاملاك قد شكروا (١)

وقال في فتح طرابلس :

علينا لمن أولاك نعمته الشكر … لأنك للاسلام يا سيفه ذخر
ومنا لك الاخلاص في صالح الدعا … الى من له في أمر نصرتك النصر

(١) درة الاسلاك جـ ١ ورقة ١٢٥ ، النجوم الزاهرة ٧/١٧٠ — ٣١٨

ولله في اعلاء ملكك في الـــــورى ... مرادٌ وفي التأييد يوم الوغى ســـر
الا هكذا يا وارث الملك فليكـــن ... جهاد العلا ما توالى به الدهـــر
نهضت الى عليا طرابلس التـــي ... أتى عنا منا أن خندقها البحـــر
وقد ضمها كالطوق الابقيـــة ... كنحر وأنت السيف لاح له نحـــر
منعمة بكر وهل في جهو مـــا ... تملكته الا منعة بكـــر ؟
وكانت بدار العلم تعرف قبلهـــا ... فمن أجل ذا للسيف في نظمها نثر
ولما غدت لا فخر مثل افتتاحهـــا ... أبى الله إلا أن يكون لك الفخـــر
فكم مر من دهر وما مسهـــا أذى ... وكم راح من عصر وما راعها حصـــر
وكم ليث غاب رامها في جيوشـــه ... وغاب ولم يحرز له ظفرا ظفـــر
فجاءتها بالجيش كالموج فانثنـــت ... تديد وقد أربى على بحرها البحـــر
وظلت لدى بحرين أنكاهما لهـــا ... وأقتله البحر الذي جره مصـــر
كأن المجانيق التي أوترت ضحـــى ... عليها لها في هدم أبراجها وتـــر
تحلق في جو السماء وترتمـــي ... اليهم كما ينقض في حالق نســـر
وأيست بحسناء السراتين أن بشـــدت ... لناظرها يوما وفي قلبها صخـــر
لها شرر كالقصر ترمي به الصـــدى ... فلا بنى يستعصي عليه ولا قصـــر
ومن تحتها تلك النقوب كأنهـــا ... اذا ما تمشت في ضمير الثرى ســـر
فزلزلتها بالركن فانهد ركنهـــا ... ولم يبق من دون المنايا لها ستـــر
تقسمهم شطرين غير فريقهـــم ... فللسيف شطر والقيود لها شطـــر(١)

وقال يمدح الاشرف خليل على فتحه قلعة الروم بقصيدة أولها :

لك الراية الصفراء يقدمها النصـــر ... فمن كيقباذ ، إن رآها وكيخســـرو
اذا خفقت في الارض هدت بنود مـــا ... هوى الشرك واستعلى الهدى وانجلى الثغر
وان نشرت مثل الاصائل في وغـــى ... جلا النقع من لألاء طلعتها البـــدر
وان يممت زرق العدى سار تحتهـــا ... كتائب خضر تحتها البيض والسمـــر
كأن مثار النقع ليل ، وخفقهـــا ... بروق ، وأنت البدر والفلك البحـــر
لها كل يوم ، أين سار لواؤهـــا ... هدية تأييد يقدمها الدهـــر
وفتح بدا في اثر فتح ، كأنمـــا ... سماء بدت تترى كواكبها الزهـــر
فان رمت حصنا سابقتك كتائـــب ... من الرعب أو جيش تقدمه النصـــر
ففي كل قطر للعدى وحصونهـــم ... من الخوف أسياف تجرد أو حصـــر
فلا حصن الا وهو حصن لأهلـــه ... ولا منشب الا لأرواحهم قهـــر

. . . .

وما قلعة الروم التي حزت فتحهـــا ... وإن عظمت الا الى غيرها جســـر
طليعة ما يأتي من الفتح بعدهـــا ... كما لاح قبل الشمس في الافق الفجر
تسبحتها بالجيش كالروض بهجـــة ... صوارمه انهارة والقنا الزهـــر

---

(١) درة الاسلاك ورقه ١٤٥ والنجوم الزاهرة ٧/٣٢٣ ـ ٣٢٤

أداروا بها سورًا فأضحت كخاتم   لدى خنصر أو تحت منطقة خصر

وأرخوا اليها من أكف بحارهم   سحاب ردى لم يخل من قطره قطر

كأن المجانيق التي قمن حولها   رواعد سخط وبلها النار والصخر

. . . .

وشبت بها النيران حتى تمزقت   وباحت بما أخفته وانهتك الستر

فلاذوا بذيل العفو منك فلم تجب   رجاءهم لو لم يشب قصدهم مكر

فأحرزتها بالسيف قهرا وهكذا   فتوحاتك اللاتي مضى كله قسر

فيا أشرف الأملاك فزت بغزوة   تحصل منها الفتح

وبشراك أرضيت المسيح وأحمدا   وإن غضب اليعفور من ذاك والكفر

فسر حيث ما تختار فالأرض كلها   تطيعك والأمصار أجمعها مصر

ودم وابق للدنيا ليحيا بك الهدى   ويزهى على ماضي العصور بك العصر (١)

وقال يرثي الملك المنصور بقصيدة أولها :

ملك مضى لسبيله وسبيله   في نصرة الاسلام حكم يقتفى

الملك المنصور أكرم من جفا   طيب الرقاد الى الجهاد وأوجفا

سل يوم حمص عن الألوف وقد سطا   في   هل بعد ذلك تألفا

وانظر تجد تسعين ألفا منهم   ذهبوا كما حكمت صوارمه جفا

وغدوا وطاء للورى فلكم ترى   من جائر قد داس خدا مترفا

والمرقب العالي الذي سامى السما   فغدا على نهر المجرة مشرفا

وافى اليه بعزمة جاءت به   يوم الإباء مسلما مستسلفا

وكذا طرابلس التي لم يرجها   ملك سواه اذا تنبه أو غفا

ولكم أباد عدى وكم أبدى يدا   وندى وجدد رسم مكرمة عفا

وأقال معتذرا وأغنى راجيا   وأعان ملتجئا وسامح مسرفا

طوبى له حازت يداه وقد مضى   ما أقرضا في طاعة أو أسلفا

فتلقت الأملاك مقدم روحه   بأجل ما كان فيه وأشرفا (٢)

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٣ فوات الوفيات ١ / ١٥٥

(٢) درة الأسلاك ١ ورقة ١٥٠

أشعار لم يعرف قائلوها

قيل في هزيمة الفرنج سنة ٥٥١ ويذكر أحد قادة نور الدين :

ما رأينا فيما تقدم يوماً — كان للحسن غاية في البهاء
مثل يوم الفرنج حين علتهم — ذلة الأسر والبلا والفناء
وبراياتهم على السمر زفوا — بين ذل وحسرة وعناء
بعد عزلهم ودينة ذكر — في مصاف الحروب والهيجاء
هكذا هكذا هلاك الأعادي — عند شن الإغارة الشعواء
نقضوا هدنة الصلاح بجهل — بعد تأكيدها بحسن الوفاء
فلقوا بغيهم بما كان فيه — من فساد يجلبهم واعتداء
لا عدى للمسلمين من شمات — بمواض تفوق حد المضاء
فجزاء الكفور قتل وأسر — وجزاء الشكور خير الجزاء (١)

وقال آخر في سقوط القدس سنة ٤٩٢ :

أحل الكفر بالإسلام ضيماً — يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح — وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليباً — ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديراً — على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق — وتحريق المصاحف فيه طيب
أمور لو تأملهن طفل — لطفل في عوارضه المشيب
أتسبى المسلمات بكل ثغر — وعيش المسلمين إذن يطيب
أما لله والإسلام حق — يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا — أجيبوا الله ويحكم أجيبوا (٢)

وجد على عضادة محراب مسجد الرها :

أصبحت صفراً من بني الأصفر — أختال بالأعلام والمنبر
دان من المعروف عان به — ناء عن الفحشاء والمنكر
مطهر الرحب على أنني — لولا جمال الدين لم أطهر (٣)

---

(١) تاريخ ابن القلانسي ٣٤٣ ، عقد الجمان جـ١٢ ق ٢ ورقة ٢٨٣
(٢) النجوم الزاهرة ١٥١/٥
(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ ٢ ص ٢٧٣

مدح بعض الحلبيين أسد الدين :

إن كان آل الفرنج أدركوا فلحسنا ... في يوم يغزوا ونالوا منية الظفر
نفي الخطيم خلفت الكفر منصلتا ... أبا المظفر بالصمصامة الذكر
نالوا بيغرا نهاباً وانتهبت لنا ... على الخطيم نفوس المعشر الأشر
واستقودوا الخيل عريا واستقدت لنا ... قوامص الكفر في ذل وفي صغر (١)

وسمع نائم قولا يقول قبل فتوحات صلاح الدين الكبرى :

ملك العياصي والنواصي ناصر ... للدين بعد إياسه أن ينصرا
وسيفتح البيت المقدس بعد ما ... يطوى الطراز له ويقتل قيصرا (٢)

وقال آخر بعد هزيمة لويس التاسع عن دمياط :

قل للفرنسيس إن كلا ... له من المسلمين شاكر
لأنه محسن اليناسا ... بقوده نحونا العساكر
ساق الى مصر ما اقتناه ... أبة عيسى من الذخائر
وأورد الجمع بحر حرب ... مصدره بالمنون آخر
أركبهم أدهما خضما ... ورابع الشر فهو ثائر
ورام بابا هم أموراً ... فأخلفت ظنه المقادر
وأذهل القوم هول حرب ... تشخص من خوفه النواظر
لم تسم أبصارهم ولكن ... قد عميت منهم البصائر
ولم يفد وقف فيلسوف ... علمه كاهن وساحر
فان يعد طالبا لثار ... من أرض دمياط غاير غادر
فذلك البحر تعرفوه ... والسيف ماض والجيش حاضر
أعاده الله عن قريب ... لمثلها انه لقادر
بحيث لم يبق للنصارى ... من بعد كسر الصليب جابر
ويستريح الصبح منهم ... من كل علج وكل كافر (٣)

وقال بعضهم في أخذ عكا :

مررت بعكا بعد تخريب سورها ... وزند أوار النار في وسطها وار
وعاينتها بعد التنصر قد غدت ... مجوسية الابراج تسجد للنار (٤)

---

(١) الروضتين ١/ ٥٨ ، عقد الجمان جـ١٢ ق ١ ورقة ١٩٩
(٢) الروضتين ١/ ١٠٤
(٣) فوات الوفيات ١/ ١٥٧
(٤) تاريخ ابن الفرات ٨/ ١١٥ وجواهر السلوك ٤٨

ثانيا ـ معاني المصطلحات (مرتبة حسب حروف المعجم)

(*) أتابـك : وتكتب أطابك ، أيضا ومعناها : الاب الامير ، وأول من لقب بذلك عماد الدين زنكي صاحل الموصل . (صبح الاعشى ١/١٦٧)

(*) أيبـك : لفظة تركية معناها الامير القمر ، (أي : القمر ، بك الامير ، (أحمد العبادى ، قيام دولة المماليك الاولى ١٠٩)

(*) البركوس : جمعها : براكيس : نوع من السفن التي كانت تستعمل في الحروب بين الشرق والغرب في مياه البحر الابيض المتوسط في العصور الوسطى وهي أصغر حجما من البطسة ، وحمولة البركوس الواحد حوالي خمسة وعشرين رجلا وهي ماخوذة عن الايطاليه Barcoro (ابن شداد ، النوادر السلطانية ،نشر الشيال ص١٤٤)

(*) الباشورة : جمعها بواشير : الحائط الظاهري من الحصن يختفي وراءه الجند عند القتال (ابن شداد ، النوادر السلطانيه ، نشر الشيال ص١٠٣)

(*) البطسة : أو البطسة ، ويقال أحيانا بطشة أو بطشة ، وقد تحرف الى بسطة وسطة والجمع بطس وبطسات ،وبطشات وبطش ، مأخوذ عن الاسبانيه ومعناها السفينة الكبيرة ،تستخدم أصلا للحرب ، وقد تستخدم لنقل التجاره، تتسع في العادة الى ما بين ٣٠٠ ـ ٧٠٠ مقاتل (أبن شداد ، النوادر السلطانية ،نشر الشيال ص٤٨)

(*) البيضه : جمعها البيض ،وهي الخوذة من الحديد تلبس على الرأس لوقايتها (الروضتين جـ ١ ق ١ ص١٥٣)

(*) تركبلـي : لفظة يونانية معناها سلالة الترك (مفرج الكروب نشر الشيال جـ٢ ص١٤٨)

(*) الجـرخ : مأخوذة عن الفارسية ، والجمع جروخ ، وهو نوع من القوس الرامي الذى ترمى عنه النشاب أو النفط ، وهناك أربعة أنواع للقوس الرامي الذى يشبه المنجنيق ، وهي قوس الزياد ، والقوس العقاد ، والجرخ ، وهو يصنع من القرن ، وقوس الرجل ويقال للذى يرمي عن قوسه السهام أو النفط (الجرخي) (النوادر السلطانية ص٤٢ ، الروضتين جـ ١ ق ١ ص١٣٦)

(*) الجريدة : الفرقة من العساكر الخيالة لا راجل فيها ، وخرج الجند جريدة أي مسرعين من غير أثقال (الروضتين جـ ١ ق ١ ص١٧٢)

(*) الجاليش : في الاصل معناها الراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر ، ثم أطلق اللفظ على مقدمة القلب في الجيش أو على الطليعه (النوادر السلطانيه ٦٢)

(*) الجنائب : في الاصل الخيول التي كانت تسير وراء السلطان أو الامير في الحروب استعدادا لاحتمال الحاجة (الروضتين جـ ١ ق ١ ص٢٤٥)

(*) الاحداث: جماعات مسلحة من أهل المدن ، عظم شأنهم في بلاد الشام ، وخاصة في دمشق وحلب ، وأصبحوا ذوي الكلمة الاولى في الدفاع عن دمشق في عهد آل طغتكين ، كما أصبح لهم مسؤول يدعى رئيس الاحداث أو رئيس البلد ، يقرّ أختياره حاكم المدينة (عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ص ١٢٨)

(*) الحمالة : الجمع: حمالات ، وهي نوع من السفن المخصصة لنقل مؤونة الجيش وأزواده ، والصناع ، والخدم الملحقين بالجيش والاسطول ، كما تستعمل في نقل الخيول (النوادر السلطانية ١٤٠)

(*) الحركاة : الجمع الحركاوات ـ لفظ فارسي ، وهي نوع من الخيام تتكون من قطع من الخشب معقود بينها على شكل قبة ، وتغطيها قطع من اللبد (النوادر السلطانية ١٤٠)

(*) دبابة : جاء في اللسان: الدبابة : آلة تتخذ من جلود وخشب ، يدخل فيها الرجال ، ويقربونها من الحصن لينقبوه ، وتقيهم ما يرمون به من فوقهم سميت بذلك لانها تدفع فتدب ، ومن حديث عمر ، قال : كيف تصنعون بالحصون ، قالوا : تتخذ دبابات يدخل فيها الرجال ، وجاء في وصفها ، بانها آلة سائرة تتخذ من الخشب الثخين المتلزز ، وتغلف باللبود والجلود المنقعة في الخل لدفع النار ، وتركب على عجل مستدير وتحرك وتحرك فتنجر ، وربما جعلت برجا من الخشب .. وقد يدفعها الرجال فتندفع على البكر (النوادر السلطانيه ص ٤٢)

(*) الدبوس : آلة من حديد ذات أضلاع (عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ص ٢٠٥)

(*) الرباط : في الاصل مكان تجمع المجاهدين المتطوعين لقتال العدو على الحدود ثم صار في أيام الايوبيين مكانا يتفرغ فيه للعبادة (الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٢)

(*) الزراق : والجمع زراقون ـ وهو الذي يرمي النفط من الزراقة ، وهي أنبوبة خاصة يزرق بها النفط ، وتنبعث منها نار النفط بارعاد ودخان شديد فتحرق السفن (النوادر السلطانيه ١١٨)

(*) الزنبورك : الجمع زنبوركات ـ قد تعني نوعا من القسي التي تُرمى عنها السهام ، وقد تعني نوعا من السهام ذاتها ، ويكون في سمك الابهام ، وفي طول الذراع ، وله أربعة أوجه ، وطرفه من الحديد ، وهو مريش ليكون في انطلاقه أكثر ثباتا وحيثما سقط فانه مؤكد الاصابة ، وقد يخترق الزنبورك أحيانا ـ في رمية واحدة ـ جسمي رجلين أثنين وقف أحدهما خلف الآخر ، واخترق في الوقت نفسه درع الجندي وملابسه ، ثم نفذ بعد ذلك واستقر في الارض ، وقد يصيب أحجار الاسوار ... (النوادر السلطانيه ص ١٤٨ ـ ١٤٩)

(*) الستائر: من أهم المعدات عند المسلمين في العصور الوسطى ، تتخذ من الجلود واللبود المبلولة بالخل ، لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النفط (مفرج الكروب ٢/ ٣٠٣)

(*) الأسطول: وقد يرسم في المراجع العربية أصطول أو سطول — والجمع أساطيل كلمة يونانية الاصل ، وتطلق في المراجع العربية على السفن الحربية أو السفينة الواحدة ، ويقال للجندي الذي يعمل في الاسطول (أسطولي) . (النوادر السلطانيه ص ٨٤)

(*) الشحنة: الاصل فيها تطلق على مجموعة الخيل التي تحفظ البلد ، ولكنها أطلقت على رياسة الشرطة أو الامير المشرف على حراستها ، ويقال الشحنكية والجمع على شحن ، وشحاني . (النوادر السلطانية ص ٧٣)

(*) الشيني: أو الشاني أو الشينية أو الشونه . . والجمع شواني — السفينة الحربية الكبيرة ، وهي أهم القطع الكبيرة التي كان يتكون منها الاسطول في الدولة الاسلامية ، وتتسع لمائة وخمسين جنديا بأسلحتهم ، وقيل أنها تسير بمائة وأربعين مجدافا (النوادر السلطانية ص ٤٨)

(*) الطريدة: ويقال الطراد أو الطرادة أو التطريدة . والجمع طرائد ، وهي سفينة برسم حمل الخيل ، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فارسا (النوادر السلطانيه ص ٤٨) .

(*) الطوارق ، والطارقيات جمع طارقة ، وهو يطلق على نوعين من السلاح :
الأول : نوع من الترس يحمله الجندي لحماية نفسه أثناء القتال
الثاني : آلة حربية مكونه من جملة من الالواح الخشبية تستخدم كمتراس يختفي الجنود الرماة والصخور خلفها (النوادر السلطانيه ٢٨)

(*) الطلب: لفظ كردي معناه الامير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، ويطلق كذلك على قائد المائة أو السبعين ، وكان أول ما استعمل اللفظ بمصر والشام أيام صلاح الدين (النوادر السلطانيه ص ٢٤ ، ٦٢ جب/صلاح الدين الايوبي ص ٦١)

(*) الكبش: آلة حربية متصلة بالدبابة لها رأس ضخم وقرنان ، تدفعها الجنود نحو الاسوار لتهدمها ، والجمع كباش ، وكبوش وأكبش (الروضتين ج ١ ق ١ ص ٣)

(*) الكوسات: صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدهما على الاخر بايقاع مخصوص ، ومن يتولى ذلك يسمى الكوسيه وكانت تسمى أيضا بالطبلخانة (النوادر السلطانية ٢٠)

(*) القنطاريات: نوع من الرماح وهي لفظ من أصل يوناني ، سميت هكذا لانها تصنع من الخشب الذي يحمل هذا الاسم باليونانية (مفرج الكروب ١/ ٨٣)

(*) القومـــص: تعريب حرفي للفظة اللاتينية (Comes) أى الامير ، ومعناهـــا الاصلي في اللاتينية (الرفيق) لانه كان في بداية الامر يرافق الملك في حروبه وتنقلاته ، وتعريبها ، كند ، كد ، وتجمع على كنـــــود (النوادر السلطانية ٧٧ والباهر ص ٤١)

(*) اللأمـــة : الدرع ، وقيل السلاح ، وقيل الدرع الحصينة ، سميت لأمة لاحكامهـــا وجودة حلقاتها ، وقيل السلاح كله ، ولأمة الحرب : أداته وجمعهـــا لأم ولؤم (النوادر السلطانية ص ٨٨)

(*) المنجنيق : بفتح الميم وكسرها ــ أو المنجنون ، والجمع مجانيق ، ومناجيــــــق ومنجنيقات ، لفظ أعجمي معرب ، وهو آلة الحصار في العصور الوسطى يقوم مقام المدفع الحالي ، وان كانت قذائفه من الحجاره ، وصفـــــه القلقشندى بأنه : آلة من خشب له دفتان قائمتان ، بينهما سهم طويل رأسه ثقيل ، وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيهـــا الحجر ، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبـــه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئا الا أهلكـــــه . (صبح الاعشى ٢ / ١٤٤ والنوادر السلطانية ٢٦)

(*) النبل أوالسهام : واحدته نشابة ، والناشبة والنشابة قوم يرمون بالنشاب ، ويشترط فيها ان تكون صحيحة الاعتدال والاستداره والفتل والثقل والخفة ، وأمـــا طوله وقصره فحسب مقادير الرامي (النوادر السلطانية ٦٣)

(*) النمجـــاه : بالهاء ، خنجر مقوس يشبه السيف القصير ، وهو معرب اللفظ الفارسي (نيمجه) ، ويقال أيضا : نمجا ، ونمجه ، ونمشا ، ونمشـــــــــــــه (النوادر السلطانية ص ٧٩)

(*) الوطـــاق : لفظ معرب عن التركية ومعناه الخيمة ، أو مجموعة الخيام ، أو المعسكـــر أو الفرقة (النوادر السلطانية ١٢٩)

(*) اليزك : لفظ فارسي معناه طلائع الجيش (الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٤٢ ، النـــوادر السلطانيه ص ١٠)

(*) اليلـــب : الترس ، أو الدروع من الجلود أو جلود يخرز بعضها الى بعض لتلبـــس على الرؤوس خاصة (الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٥٢)

ثالثا : جدول بتحويل السنوات الهجرية الى ميلادية

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٤٥٠	٢٨	٢	١٠٥٨
٤٥١	١٧	٢	١٠٥٩
٤٥٢	٦	٢	١٠٦٠
٤٥٣	٢٦	١	١٠٦١
٤٥٤	١٥	١	١٠٦٢
٤٥٥	٤	١	١٠٦٣
٤٥٦	٢٥	١٢	١٠٦٣
٤٥٧	١٣	١٢	١٠٦٤
٤٥٨	٣	١٢	١٠٦٥
٤٥٩	٢٢	١١	١٠٦٦
٤٦٠	١١	١١	١٠٦٧
٤٦١	٣١	١٠	١٠٦٨
٤٦٢	٢٠	١٠	١٠٦٩
٤٦٣	٩	١٠	١٠٧٠
٤٦٤	٢٩	٩	١٠٧١
٤٦٥	١٧	٩	١٠٧٢
٤٦٦	٦	٩	١٠٧٣
٤٦٧	٢٧	٨	١٠٧٤
٤٦٨	١٦	٨	١٠٧٥
٤٦٩	٥	٨	١٠٧٦
٤٧٠	٢٥	٧	١٠٧٧
٤٧١	١٤	٧	١٠٧٨
٤٧٢	٤	٧	١٠٧٩
٤٧٣	٢٢	٦	١٠٨٠
٤٧٤	١١	٦	١٠٨١
٤٧٥	١	٦	١٠٨٢
٤٧٦	٢١	٥	١٠٨٣
٤٧٧	١٠	٥	١٠٨٤
٤٧٨	٢٩	٤	١٠٨٥
٤٧٩	١٨	٤	١٠٨٦
٤٨٠	٨	٤	١٠٨٧
٤٨١	٢٧	٣	١٠٨٨
٤٨٢	١٦	٣	١٠٨٩

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٤٨٣	٦	٣	١٠٩٠
٤٨٤	٢٣	٢	١٠٩١
٤٨٥	١٢	٢	١٠٩٢
٤٨٦	١	٢	١٠٩٣
٤٨٧	٢١	١	١٠٩٤
٤٨٨	١١	١	١٠٩٥
٤٨٩	٣١	١٢	١٠٩٥
٤٩٠	١٩	١٢	١٠٩٦
٤٩١	٩	١٢	١٠٩٧
٤٩٢	٢٨	١١	١٠٩٨
٤٩٣	١٧	١١	١٠٩٩
٤٩٤	٦	١١	١١٠٠
٤٩٥	٢٦	١٠	١١٠١
٤٩٦	١٥	١٠	١١٠٢
٤٩٧	٥	١٠	١١٠٣
٤٩٨	٢٣	٩	١١٠٤
٤٩٩	١٣	٩	١١٠٥
٥٠٠	٢	٩	١١٠٦
٥٠١	٢٢	٨	١١٠٧
٥٠٢	١١	٨	١١٠٨
٥٠٣	٣١	٧	١١٠٩
٥٠٤	٢٠	٧	١١١٠
٥٠٥	١٠	٧	١١١١
٥٠٦	٢٨	٦	١١١٢
٥٠٧	١٨	٦	١١١٣
٥٠٨	٧	٦	١١١٤
٥٠٩	٢٧	٥	١١١٥
٥١٠	١٦	٥	١١١٦
٥١١	٥	٥	١١١٧
٥١٢	٢٤	٤	١١١٨
٥١٣	١٤	٤	١١١٩
٥١٤	٢	٤	١١٢٠
٥١٥	٢٢	٣	١١٢١
٥١٦	١٢	٣	١١٢٢
٥١٧	١	٣	١١٢٣

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٥١٨	١٩	٢	١١٢٤
٥١٩	٧	٢	١١٢٥
٥٢٠	٢٧	١	١١٢٦
٥٢١	١٧	١	١١٢٧
٥٢٢	٦	١	١١٢٨
٥٢٣	٢٥	١٢	١١٢٨
٥٢٤	١٥	١٢	١١٢٩
٥٢٥	٤	١٢	١١٣٠
٥٢٦	٢٣	١١	١١٣١
٥٢٧	١٢	١١	١١٣٢
٥٢٨	١	١١	١١٣٣
٥٢٩	٢٢	١٠	١١٣٤
٥٣٠	١١	١٠	١١٣٥
٥٣١	٢٩	٩	١١٣٦
٥٣٢	١٩	٩	١١٣٧
٥٣٣	٨	٩	١١٣٨
٥٣٤	٢٨	٨	١١٣٩
٥٣٥	١٧	٨	١١٤٠
٥٣٦	٦	٨	١١٤١
٥٣٧	٢٧	٧	١١٤٢
٥٣٨	١٦	٧	١١٤٣
٥٣٩	٤	٧	١١٤٤
٥٤٠	٢٤	٦	١١٤٥
٥٤١	١٣	٦	١١٤٦
٥٤٢	٢	٦	١١٤٧
٥٤٣	٢٢	٥	١١٤٨
٥٤٤	١١	٥	١١٤٩
٥٤٥	٣٠	٤	١١٥٠
٥٤٦	٢٠	٤	١١٥١
٥٤٧	٨	٤	١١٥٢
٥٤٨	٢٩	٣	١١٥٣
٥٤٩	١٨	٣	١١٥٤
٥٥٠	٧	٣	١١٥٥
٥٥١	٢٥	٢	١١٥٦
٥٥٢	١٣	٢	١١٥٧

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٥٥٣	٢	٢	١١٥٨
٥٥٤	٢٣	١	١١٥٩
٥٥٥	١٢	١	١١٦٠
٥٥٦	٣١	١٢	١١٦٠
٥٥٧	٢١	١٢	١١٦١
٥٥٨	١٠	١٢	١١٦٢
٥٥٩	٣٠	١١	١١٦٣
٥٦٠	١٨	١١	١١٦٤
٥٦١	٧	١١	١١٦٥
٥٦٢	٢٨	١٠	١١٦٦
٥٦٣	١٧	١٠	١١٦٧
٥٦٤	٥	١٠	١١٦٨
٥٦٥	٢٥	٩	١١٦٩
٥٦٦	١٤	٩	١١٧٠
٥٦٧	٤	٩	١١٧١
٥٦٨	٢٣	٨	١١٧٢
٥٦٩	١٢	٨	١١٧٣
٥٧٠	٢	٨	١١٧٤
٥٧١	٢٢	٧	١١٧٥
٥٧٢	١٠	٧	١١٧٦
٥٧٣	٣٠	٦	١١٧٧
٥٧٤	١٩	٦	١١٧٨
٥٧٥	٨	٦	١١٧٩
٥٧٦	٢٨	٥	١١٨٠
٥٧٧	١٧	٥	١١٨١
٥٧٨	٧	٥	١١٨٢
٥٧٩	٢٦	٤	١١٨٣
٥٨٠	١٤	٤	١١٨٤
٥٨١	٤	٤	١١٨٥
٥٨٢	٢٤	٣	١١٨٦
٥٨٣	١٣	٣	١١٨٧
٥٨٤	٢	٣	١١٨٨
٥٨٥	١٩	٢	١١٨٩
٥٨٦	٨	٢	١١٩٠
٥٨٧	٢٩	١	١١٩١

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٥٨٨	١٨	١	١١٩٢
٥٨٩	٧	١	١١٩٣
٥٩٠	٢٧	١٢	١١٩٣
٥٩١	١٦	١٢	١١٩٤
٥٩٢	٦	١٢	١١٩٥
٥٩٣	٢٤	١١	١١٩٦
٥٩٤	١٣	١١	١١٩٧
٥٩٥	٣	١١	١١٩٨
٥٩٦	٢٣	١٠	١١٩٩
٥٩٧	١٢	١٠	١٢٠٠
٥٩٨	١	١٠	١٢٠١
٥٩٩	٢٠	٩	١٢٠٢
٦٠٠	١٠	٩	١٢٠٣
٦٠١	٢٩	٨	١٢٠٤
٦٠٢	١٨	٨	١٢٠٥
٦٠٣	٨	٨	١٢٠٦
٦٠٤	٢٨	٧	١٢٠٧
٦٠٥	١٦	٧	١٢٠٨
٦٠٦	٦	٧	١٢٠٩
٦٠٧	٢٥	٦	١٢١٠
٦٠٨	١٥	٦	١٢١١
٦٠٩	٣	٦	١٢١٢
٦١٠	٢٣	٥	١٢١٣
٦١١	١٣	٥	١٢١٤
٦١٢	٢	٥	١٢١٥
٦١٣	٢٠	٤	١٢١٦
٦١٤	١٠	٤	١٢١٧
٦١٥	٣٠	٣	١٢١٨
٦١٦	١٩	٣	١٢١٩
٦١٧	٨	٣	١٢٢٠
٦١٨	٢٥	٢	١٢٢١
٦١٩	١٥	٢	١٢٢٢
٦٢٠	٤	٢	١٢٢٣
٦٢١	٢٤	١	١٢٢٤
٦٢٢	١٣	١	١٢٢٥

السنة الهجريه	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٦٢٣	٢	١	١٢٢٦
٦٢٤	٢٢	١٢	١٢٢٦
٦٢٥	١٢	١٢	١٢٢٧
٦٢٦	٣٠	١١	١٢٢٨
٦٢٧	٢٠	١١	١٢٢٩
٦٢٨	٩	١١	١٢٣٠
٦٢٩	٢٩	١٠	١٢٣١
٦٣٠	١٨	١٠	١٢٣٢
٦٣١	٧	١٠	١٢٣٣
٦٣٢	٢٦	٩	١٢٣٤
٦٣٣	١٦	٩	١٢٣٥
٦٣٤	٤	٩	١٢٣٦
٦٣٥	٢٤	٨	١٢٣٧
٦٣٦	١٤	٨	١٢٣٨
٦٣٧	٣	٨	١٢٣٩
٦٣٨	٢٣	٧	١٢٤٠
٦٣٩	١٢	٧	١٢٤١
٦٤٠	١	٧	١٢٤٢
٦٤١	٢١	٦	١٢٤٣
٦٤٢	٩	٦	١٢٤٤
٦٤٣	٢٩	٥	١٢٤٥
٦٤٤	١٩	٥	١٢٤٦
٦٤٥	٨	٥	١٢٤٧
٦٤٦	٢٦	٤	١٢٤٨
٦٤٧	١٦	٤	١٢٤٩
٦٤٨	٥	٤	١٢٥٠
٦٤٩	٢٦	٣	١٢٥١
٦٥٠	١٤	٣	١٢٥٢
٦٥١	٣	٣	١٢٥٣
٦٥٢	٢١	٢	١٢٥٤
٦٥٣	١٠	٢	١٢٥٥
٦٥٤	٣٠	١	١٢٥٦
٦٥٥	١٩	١	١٢٥٧
٦٥٦	٨	١	١٢٥٨
٦٥٧	٢٦	١٢	١٢٥٨

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٦٥٨	١٨	١٢	١٢٥٩
٦٥٩	٦	١٢	١٢٦٠
٦٦٠	٢٦	١١	١٢٦١
٦٦١	١٥	١١	١٢٦٢
٦٦٢	٤	١١	١٢٦٣
٦٦٣	٢٤	١٠	١٢٦٤
٦٦٤	١٣	١٠	١٢٦٥
٦٦٥	٢	١٠	١٢٦٦
٦٦٦	٢٢	٩	١٢٦٧
٦٦٧	١٠	٩	١٢٦٨
٦٦٨	٣١	٨	١٢٦٩
٦٦٩	٢٠	٨	١٢٧٠
٦٧٠	٩	٨	١٢٧١
٦٧١	٢٩	٧	١٢٧٢
٦٧٢	١٨	٧	١٢٧٣
٦٧٣	٧	٧	١٢٧٤
٦٧٤	٢٧	٦	١٢٧٥
٦٧٥	١٥	٦	١٢٧٦
٦٧٦	٤	٦	١٢٧٧
٦٧٧	٢٥	٥	١٢٧٨
٦٧٨	١٤	٥	١٢٧٩
٦٧٩	٣	٥	١٢٨٠
٦٨٠	٢٢	٤	١٢٨١
٦٨١	١١	٤	١٢٨٢
٦٨٢	١	٤	١٢٨٣
٦٨٣	٢٠	٣	١٢٨٤
٦٨٤	٩	٣	١٢٨٥
٦٨٥	٢٧	٢	١٢٨٦
٦٨٦	١٦	٢	١٢٨٧
٦٨٧	٦	٢	١٢٨٨
٦٨٨	٢٥	١	١٢٨٩
٦٨٩	١٤	١	١٢٩٠
٦٩٠	٤	١	١٢٩١

رابعا ـ جداول بأسماء الحكام المسلمين

١ ـ السلاجقة

(أ) سلاطين السلاجقه العظام

طغرلبك	١٠٣٧ ـ ١٠٦٣	بركيارق بن ملكشاه	١٠٩٤ ـ ١١٠٤
ألب أرسلان	١٠٦٣ ـ ١٠٧٢	محمد بن ملكشاه	١١٠٤ ـ ١١١٨
ملكشاه بن ألب أرسلان	١٠٧٢ ـ ١٠٩٢	احمد سنجر بن ملكشاه	١٠٩٦ ـ ١١٥٧
محمود بن ملكشاه	١٠٩٢ ـ ١٠٩٤		

(ب) سلاجقة العراق

محمود بن محمد بن ملكشاه	١١١٨ ـ ١١٣١	محمد بن محمود	١١٥٣ ـ ١١٥٩
داود بن محمود	١١٣١	سليمان شاه بن محمد	١١٥٩ ـ ١١٦١
طغرل الاول بن محمد	١١٣٢ ـ ١١٣٣	أرسلان شاه بن طغرل	١١٦١ ـ ١١٧٧
مسعود بن محمد	١١٣٣ ـ ١١٥٢	طغرل الثاني بن أرسلان شاه	١١٧٧ ـ ١١٩٤
ملكشاه بن محمود	١١٥٢		

(ج) سلاجقة الشام

تتش بن ألب أرسلان	١٠٩٤	ألب أرسلان بن رضوان (بحلب)	١١١٣ ـ ١١١٤
رضوان بن تتش (بحلب)	١٠٩٥ ـ ١١١٣	سلطان شاه بن رضوان (بحلب)	١١١٤ ـ ١١١٧
دقاق بن تتش (بدمشق)	١٠٩٥ ـ ١١٠٣		

(د) سلاجقة الروم بآسيا الصغرى

سليمان بن قتلمش	١٠٨١ ـ ١٠٨٦	كيخسرو الاول (مرة ثانيه)	١٢٠٤ ـ ١٢١٠
قلج أرسلان الاول	١٠٩٢ ـ ١١٠٧	كيكاوس الاول بن كيخسرو الاول	١٢١٠ ـ ١٢١٩
ملكشاه الاول بن قلج ارسلان	١١٠٧ ـ ١١١٦	كيقباد الاول بن كيخسرو الاول	١٢١٩ ـ ١٢٣٦
مسعود الاول بن قلج أرسلان	١١١٦ ـ ١١٥٦	كيخسرو الثاني بن كيقباد الاول	١٢٣٦ ـ ١٢٤٥
قلج أرسلان الثاني	١١٥٦ ـ ١١٨٨	كيكاوس الثاني بن كيخسرو الثاني	١٢٤٥ ـ ١٢٥٧
ملكشاه الثاني	١١٨٨ ـ ١١٩٢	قلج أرسلان الرابع بن كيخسرو الثاني	١٢٥٧ ـ ١٢٦٧
كيخسرو الاول	١١٩٢ ـ ١٢٠٠	كيخسرو الثالث بن قلج أرسلان الرابع	١٢٦٧ ـ ١٢٨٣
سليمان شاه الثاني بن قلج أرسلان	١٢٠٠ ـ ١٢٠٣	مسعود الثاني بن كيكاوس الثاني	١٢٨٣ ـ ١٢٩٦
قلج أرسلان الثالث بن سليمان شاه	١٢٠٣ ـ ١٢٠٤	كيقباد الثالث	١٢٩٦ ـ ١٣٠٠

(٢) بنو أرتــــق

(أ) الاراتقه في حصن كيفا ثم في آمد

سقمان الاول بن أرتق	١١٠١ ـ ١١٠٤	محمد بن قرا أرسلان	١١٧٤ ـ ١١٨٥
ابراهيم بن سقمان	١١٠٤ ـ ١١٠٨	سقمان الثاني بن محمد	١١٨٥ ـ ١٢٠٠
داود بن سقمان	١١٠٨ ـ ١١٤٨	محمود بن محمد	١٢٠٠ ـ ١٢٢٢
قرا أرسلان بن داود	١١٤٨ ـ ١١٧٤	مودود بن محمود	١٢٢٢ ـ ١٢٣١

(ب) الاراتقه في ماردين

ايلغازى الاول بن أرتق	١١٠٨ ـ ١١٢٢	يولق أرسلان بن ايلغازى الثاني	١١٨٤ ـ [illegible]٢٠٠
تمرتاش بن ايلغازى	١١٢٢ ـ ١١٥٢	ارتق أرسلان بن ايلغازى الثاني	١٢٠٠ ـ [illegible]
ألبي بن تمرتاش	١١٥٢ ـ ١١٧٦	غازى الاول بن أرتق أرسلان	١٢٢٩ ـ [illegible]
ايلغازى الثاني بن ألبي	١١٧٦ ـ ١١٨٤	قرا أرسلان بن غازى الاول	١٢٥٩ ـ [illegible]

(٣) بنو زنكــــي

(أ) أتابكة الموصــــل

عماد الدين زنكي بن آقسنقر	١١٢٧ ـ ١١٤٦	نورالدين أرسلان شاه الاول بن مسعود	١١٩٣ ـ ١٢١٠
سيف الدين غازى الاول بن زنكي	١١٤٦ ـ ١١٤٩	عزالدين مسعود الثاني بن أرسلان شاه	١٢١٠ ـ ١٢١٨
قطب الدين مودود بن زنكي	١١٤٩ ـ ١١٧٠	نورالدين أرسلان شاه الثاني بن مسعود الثاني	١٢١٨ ـ ١٢١[illegible]
سيف الدين غازى الثاني بن مودود	١١٧٠ ـ ١١٧٦		
عزالدين مسعود الاول بن مودود	١١٧٦ ـ ١١٩٣	ناصرالدين محمود بن عزالدين مسعود الثاني	١٢١٩ ـ ١٢[illegible]
		بدرالدين لؤلؤ وابنه ركن الدين اسماعيل	١٢٣٣ ـ ١٢٥٩

(ب) أتابكة الشــــام

العادل نورالدين محمود بن زنكــي	في حلب ١١٤٦ ـ ١١٧٤ في دمشق ١١٥٤ ـ ١١٧٤	الصالح نورالدين محمود بن اسماعيل في حلب	١١٧٤ ـ ١١٨١
		ضم حلب الى أتابكية الموصل وسنجار	١١٨١ ـ ١١٨٢

(٤) بنــو ايــوب

(أ) الايوبــيون فـــي مصـــــر

الناصر صلاح الدين يوسف ١١٧٤ ـ ١١٩٣
العزيــز عثمــان ١١٩٣ ـ ١١٩٨
المنصور محمـــد ١١٩٨ ـ ١١٩٩
العادل (الاول) لمحمد ١١٩٩ ـ ١١١٨

الكامل (الاول) محمد ١٢١٨ ـ ١٢٣٨
العادل (الثاني) ابو بكر ١١٣٨ ـ ١١٤٠
الصالح ايـــوب ١٢٤٠ ـ ١٢٤٩
المعظم توران شاه ١٢٤٩ ـ ١٢٥٠

(ب) الايوبيون في دمشـــــق

الافضل نور الدين علي ١١٩٣ ـ ١١٩٦
العادل (الاول) احمد ١١٩٦
المعظم عيسى ١١١٨ ـ ١٢٢٧
الناصر داود ١٢١٧ ـ ١٢١٩
الاشرف موسى ١٢١٩ ـ ١٢٣٧
الصالح اسماعيل (المره الاولى) ١٢٣٧ ـ

الكامل الاول محمد ١١٣٨
العادل الثاني ابو بكر ١١٣٨ ـ ١١٣٩
الصالح نجم الدين ايوب (المره الاولى) ١١٣٩
الصالح اسماعيل (المره الثاني) ١١٣٩ ـ ٢٤٥
الصالح نجم الدين ايوب (المره الثانيه) ١٢٤٥ ـ ٢٤٩
المعظم توران شاه (صاحب مصر) ١١٤٩ ـ ١٥٠

(ج) الايوبيون في حلـــب

العادل الاول احمد ١١٨٣ ـ ١١٨٦
الظاهر غازي الاول ١١٨٦ ـ ١١١٦

العزيز محمـــد ١١١٦ ـ ٢٣٦
الناصـر (الثاني) يوسف ١١٣٦ ـ ٢٦٠

(د) الايوبيون في حمص

الناصر محمد بن شيركوه ١١٧٨ ـ ١١٨٦
المجاهد شيركوه الثاني ١١٨٦ ـ ١١٤٠

المنصور ابراهيم ١١٤٠ ـ ٢٤٦
الاشرف موسى الثاني ١٢٤٦ ـ ٢٦٣

(هـ) الايوبيون في حمـــاه

المظفر الاول عمـــر ١١٧٨ ـ ١١٩١
المنصور الاول محمد ١١٩١ ـ ١٢١٠
الناصر قلج ارسلان ١٢٢٠ ـ ١٢١٩

المظفر الثاني محمود ١٢٢٩ ـ ٢٤٤
المنصور الثاني محمد ١١٤٤ ـ ٢٨٤

(ز) الايوبيون في ميافارقــــين

الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب	١١٨٥	الاشرف الاول موسى	١٢١٠ ـ ١٢٢٠
العادل سيف الدين أبو بكر	١١٩٤ ـ ١١٩٩	المظفر شهاب الدين غازى	١٢٢١ ـ ١٢٤٤
الاوحد نجم الدين أيوب	١١٩٩ ـ ١٢١٠	الكامل الثاني ناصر الدين محمد	١٢٤٤ ـ ١٢٦٠

(٥) سلاطين المماليك في مصر

(أ) دولة المماليك البحريه

شجرة الدر	١٢٥٠	السعيد ناصر الدين محمد بن بركه خان	١٢٧٧
المعز عز الدين أيبك	١٢٥٠		
المنصور نور الدين علي بن أيبك	١٢٥٧	العادل بدر الدين سلامش	١٢٧٩
المظفر سيف الدين قطز	١٢٥٩	المنصور سيف الدين قلاون	١٢٨٩
الظاهر ركن الدين بيبرس (الاول)	١٢٦٠	الاشرف صلاح الدين خليل	١٢٩٠

(٦) ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية

جودفرى دى بوايون (وصي على الدوله)	١٠٩٩ ـ ١١٠٠	هنرى دى شامبني	١١٩٢ ـ ١١٩٧
بلدوين الاول (اول ملك متوج)	١١٠٠ ـ ١١١٨	عمورى الثاني	١١٩٧ ـ ١٢٠٥
بلدوين الثاني	١١١٨ ـ ١١٣١	مارى (ابنه كونراد تحت الوصايه)	١٢٠٥ ـ ١٢١٠
فولك الانجوى	١١٣١ ـ ١١٤٤	حنا دى برين	١٢١٠ ـ ١٢٢٥
بلدوين الثالث	١١٤٤ ـ ١١٦٢	الامبراطور فردريك الثاني	١٢٢٥ ـ ١٢٥٠
عمورى الاول	١١٦٢ ـ ١١٧٣	كونراد الرابع ملك المانيا (ملك اسمي)	١٢٥٠ ـ ١٢٥٤
بلدوين الرابع	١١٧٣ ـ ١١٨٥	كونرادين (ملك أسمي)	١٢٥٤ ـ ١٢٦٨
بلدوين الخامس	١١٨٥ ـ ١١٨٦	هيو الثالث ملك قبرص (الثاني)	١٢٦٩ ـ ١٢٨٤
جاى لوزجنان	١١٨٦ ـ ١١٩٢	حنا الاول ملك بيت المقدس	١٢٨٤ ـ ١٢٨٥
كونراد دى مونتفرات	١١٩٢	هنرى الثالث ملك قبرص (الثاني)	١٢٨٦ ـ ١٢[illegible]

(٧) أمراء أنطاكية النورمــــان

بوهيموند الاول	١٠٩٨ ـ ١١٠٤	بوهيموند الثالث	١١٦٣ ـ ١٢٠١
تنكرد	١١٠٤ ـ ١١١٢	بوهيموند الرابع	١٢٠١ ـ ١٢١٦
روجر دى سالرنو	١١١٢ ـ ١١١٩	ريموند روبان	١٢١٦ ـ ١٢١٩
بوهيموند الثاني	١١٢٦ ـ ١١٣٠	بوهيموند الرابع (مرة ثانيه)	١٢١٩ ـ ١٢٣٣
ريموند دى بواتييه	١١٣٦ ـ ١١٤٩	بوهيموند الخامس	١٢٣٣ ـ ١٢٥١
ريجنالد دى شاتيون (أرناط)	١١٥٣ ـ ١١٦٠	بوهيموند السادس	١٢٥١ ـ ١٢٦٨

(٨) أمراء طرابلس

ريموند الاول (الصنجيل)	١١٠٢ ــ ١١٠٥	ريموند الثالث	١١٥٢ ــ ١١٨٧
وليم جوردان	١١٠٥ ــ ١١٠٨	بوهيموند الرابع (+أنطاكية)	١١٨٧ ــ ١٢٣٣
برتراند	١١٠٨ ــ ١١١٣	بوهيموند الخامس (+انطاكيه)	١٢٣٣ ــ ١٢٥١
بونز	١١١٣ ــ ١١٣٧	بوهيموند السادس (+انطاكيه)	١٢٥١ ــ ١٢٧٥
ريموند الثاني	١١٣٧ ــ ١١٥٢	بوهيموند السابع	١٢٧٥ ــ ١٢٨٧

(٩) أمراء أرمينية الصغرى

روبان الاول	+ ١٠٩٠	مليح	١١٧٠ ــ ١١٧٥
قسطنطين الاول	+ ١١٠٠	روبان الثالث	١١٧٥ ــ ١١٨٧
ثوروس الاول	١١٠٠ ــ ١١٢٩	ليون الثاني	١١٨٧ ــ ١٢١٩
ليون الاول	١١٢٩ ــ ١١٣٦	(تزوجت ايزابيل ابنة ليون الثاني من هيثوم صبرون	
ثوروس الثاني	١١٤٤ ــ ١١٦٧	الذى أصبح ملكا على أرمينية الصغرى) .	
روبان الثاني (تحت الوصايه)	+ ١١٧٠		

(١٠) ملوك أرمينية الصغرى

هيثوم الاول	١٢٢٩ ــ ١٢٦٩
ليون الثالث	١٢٧٠ ــ ١٢٨٩
هيثوم الثاني	١٢٨٩ ــ ١٢٩٣
ثوروس الثالث	١٢٩٣ ــ ١٢٩٤
هيثوم الثاني (مرة أخرى	١٢٩٤ ــ ١٢٩٦
سمباد	١٢٩٧ ــ ١٢٩٨
قسطنطين الاول	١٢٩٨ ــ ١٢٩٩

(١١) أباطرة الدولة البيزنطية

ألكسيوس الاول كومنين	١٠٨١ ــ ١١١٨	اسحق الثاني +الكسيوس الرابع	١٢٠٣ ــ ١٢٠٤
حنا الثاني كومنين	١١١٨ ــ ١١٤٣	الكسيوس الخامس	١٢٠٤
مانويل الاول كومنين	١١٤٣ ــ ١١٨٠	تيودور الاول لاسكارس	١٢٠٤ ــ ١٢٢٢
ألكسيوس الثاني كومنين	١١٨٠ ــ ١١٨٣	حنا الثالث دوقاس	١٢٢٢ ــ ١٢٥٤
اندرونيق الاول كومنين	١١٨٣ ــ ١١٨٥	تيودور الثاني لاسكارس	١٢٥٤ ــ ١٢٥٨
اسحق الثاني أنجيلوس	١١٨٥ ــ ١١٩٥	حنا الرابع لاسكارس	١٢٥٨ ــ ١٢٦١
ألكسيوس الثالث أنجيلوس	١١٩٥ ــ ١٢٠٣	ميخائيل الثامن باليولوجس	١٢٥٩ ــ ١٢٨٢

د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٢٦٧ ــ ١٣٠٧ .

المصادر والمراجع

أ . المخطوطات :

١ . الملك الأمجد الحسن بن الناصر داود بن عيسى بن نجم الدين أيوب، الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ، مخطوط رقم ٢٢٩٣ أدب ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .

٢ . ابن الجزري ، محمد بن ابراهيم الجزري ، جواهر السلوك في الخلفاء والملوك ، مخطوط رقم ٤٧٥٧٥ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة

٣ . ابن حبيب ، الحسن بن عمر بن حبيب ابو محمد بدر الدين ، درة الاسلاك في دولة الاتراك ، ميكرو فلم رقم ٥٢٩ ، الجامعة الاردنية ، عمان .

٤ . ابن دنينير ، ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن علي اللخمي النابوسي ، ديوانه ، مخطوط رقم ٨٧٤٤ ، المكتبه الظاهرية ، دمشق .

٥ . العيني ، محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد أبو محمد بدر الدين العيني ، عقد الجمان من تاريخ أهل الزمان ، مخطوط رقم ١٥٨٤ ، تاريخ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .

٦ . ابن قاضي شهبة ، بدر الدين أبو الفضل محمود بن أبي بكر ، الدر الثمين في سيرة نور الدين ، ميكرو فلم عن مخطوطة دار الكتب المصرية رقمها ١٢٦٧ تاريخ .

٧ . ابن القيسراني ، محمد بن نصر بن صغير ، ديوانه ، مخطوط رقم ١٤٨٤ أدب ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .

٨ . ابن نباتة ، محمد بن محمد بن محمد بن الحسن ، الجزء الثاني ، المصري جمال الدين بن نباتة ، الفاضل من كلام القاضي الفاضل ، مخطوط رقم ٢٨٨٢ أدب دار الكتب المصرية ، القاهرة .

٩ . النويري، أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، مخطوط رقم ٥٤٩ ، معارف عامة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .

ب . على الآلة الكاتبة :

١٠ . عبد الحفيظ محمد علي ، الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين ، رسالة ماجستير ، القاهرة ، سنة ١٩٧٥

١١ - هادى نهر ، معارك نور الدين في شعر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة رقم ٢٠٩٠ ، القاهرة

جـ - الكتب المطبوعـــة :

١٢ - ابن الاثير ، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري أبو الفتح ضياء الدين ، رسائل ابن الاثير ، تحانيس المقدسي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، سنة ١٩٥٩

١٣ - ابن الاثير ، نصر الله بن محمد ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، القاهره ، سنة ١٩٣٩

١٤ - ابن الاثير ، عز الدين أبو الحسين علي بن أبي الكرم بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد ، الكامل في التاريخ ، ط دار صادر ودار بيروت ، ١٩٦٦

١٥ - ابن الاثير ، عز الدين ابو الحسين ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، بالموصل ، تحقيق عبدالقادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، سنة ١٩٦٣

١٦ - أحمد أحمد بدوي ، الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ط مكتبة نهضة مصر ، مصر ، سنة ١٩٥٤

١٧ - أحمد أحمد بدوي ، صلاح الدين الايوبي بين شعراء عصره وكتابه ، دار القلم ، مصر ، سنة ١٩٦٠

١٨ - أحمد أحمد بدوي ، مأمون بني أيوب المعظم عيسى ، مكتبة الانجلو مصرية ، مصر ، سنة ١٩٥٣

١٩ - أحمد بيلي المصري ، حياة صلاح الدين ، مط السعادة ، مصر ، سنة ١٩٦٢

٢٠ - أحمد الشايب ، أصول النقد الادبي ، ط ٥ ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٥٥

٢١ - أحمد عبدالمجيد الدومي ، صلاح الدين الأيوبي ، ط ٢ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، صيدا ، سنة ؟

٢٢ - أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، سنة ١٩٦٩

٢٣• أسامة بن منقذ ، مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانـــي الشيزري ، الاعتبار ، حرره فيليب حتي ، ط جامعة برنستــــون الولايات المتحدة ، سنة ١٩٣٠

٢٤• أسامة بن منقذ ، البديع في نقد الشعر ، ت أحمد احمد بدوي وحامد عبد المجيد ، ط مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، سنة ١٩٦٠

٢٥• أسامة بن منقذ ، ديوانه ، ت احمد بدوي وحامد عبد المجيد ، المطبعة الاميركية ، سنة ١٩٥٣

٢٦• ألف ليلة وليلة ، ت أنطون صالحاني ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، سنة ١٩٧٥

٢٧• ابن اياس ، محمد بن أحمد ابن أياس الحنفي ، بدائع الزهور في وقائع الامور ، المكتبة الشعبية ، بيروت ، سنة ١٩٧٠

٢٨• بدري محمد فهد ، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخيــر ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، سنة ١٩٧٣

٢٩• ابن بطوطة ، محمد عبد الله بن محمد بن ابراهيم ، رحلته ، دار صادر ودار بيروت ، سنة ١٣٨٤/ ١٩٦٤

٣٠• البنداري ، الفتح بن علي بن محمد البنداري الاصفهاني ، مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ، مطبعة الموسوعات ، مصر ، سنة ١٣١٨/ ١٩٠٠

٣١• بهاء الدين زهير بن محمد بن علي المهلبي العتكي ، ديوانـــه ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، سنة ١٣٨٣/ ١٩٦٤

٣٢• البوصيري ، محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج بن هلال الصنهاجي ، ديوانه ، ت محمد سيد كيلاني ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، سنة ١٣٧٤/ ١٩٥٥

٣٣• تامارا تالبوت رايس ، السلاجقة ، تاريخهم وحضارتهم ، ترجمــة لطفي الخوري وابراهيم الداقوقي ، مطبعة الارشاد ، بغــداد ، سنة ١٩٦٨

٣٤• ابن تغري بردي ، جمال الدين ابو المحاسن يوسف ، النجــوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن دار الكتب ؟

٣٥• الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبـــي النيسابوري ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، ت محمـــد محي الدين عبد الحميد ، ط القاهرة سنة ١٩٥٦

٣٦• جب ، السير هاملتون جب ، صلاح الدين : دراسات في التاريخ الاسلامي ، حررها يوسف أنيس ، المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ، سنة ١٩٧٣

٣٧• جب ، السير هاملتون جب ، المدخل في الادب العربي ، ترجمة كاظم سعد الدين ، العراق ، سنة ١٩٦٩

٣٨• جوانفيل ، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة حسن حبشي ، ط ، دار المعارف ، ط مصر ، سنة ١٩٦٨

٣٩• ابن جبير ، ابو الحسين محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي الشاطبي البلنسي ، رحلة ابن جبير ، دار صادر ، دار بيروت ، سنة ١٣٨٤/١٩٦٤

٤٠• جودت الركابي ، الأدب العربي من الانحدار الى الازدهار ، ط ١ ، مطبعة زيد بن ثابت ، نشر دار الفكر ، دمشق ، سنة ١٣٩٤/١٩٧٤

٤١• حامد غنيم ، الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية ، مكتبة الشباب القاهرة ، سنة ١٩٧١

٤٢• حسن حبشي ، الحروب الصليبية الاولى ، القاهرة ، سنة ١٩٤٧

٤٣• حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون ، القاهرة ، سنة ١٩٦٣

٤٤• حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، دار المعارف ، مصر ، سنة ١٩٧٠

٤٥• الحسيني ، صدر الدين ابو الحسن علي بن السيد الامام ابو الفوارس ناصر بن علي الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، ت محمد اقبال ، لاهور ، سنة ١٩٣٣

٤٦ الحنبلي ، ابن العماد ابو الفلاح عبد الحي بن احمد بن محمد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، المكتب التجاري ، بيروت ،

٤٧ الحنبلي ، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، دار الجيل بيروت ، سنة ١٩٧٣

٤٨• ابن خلكان احمد بن محمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن خلكان ، وفيات الاعيان ، ت احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت

٤٩٠ ابن الخياط ، أبو عبد الله احمد بن محمد بن علي بن يحيى بن صدقة التغلبي ، ديوان ابن الخياط ، ت خليل مردم بك ، مطبعة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٣٧٧/ ١٩٥٨

٥٠٠ ابن الدهان ، ابو الفرج الموصلي ، ديوان ابن الدهان ، ت عبدالله الجبوري ط ١ ، مطبعة المعارف ، بغداد سنة ١٣٨٨/ ١٩٦٨

٥٠١ ابن دقماق ، ابراهيم بن محمد ، الانتصار لواسطة عقد الامصار ، مطبعة بولاق سنة ١٣١٠/ ١٨٩٣ .

٥٠٢ رشيد الجميلي ، دولة الاتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٧٠ .

٥٠٣ رئيف التميمي ، الحروب الصليبية ، مطبعة اللواء ، القدس ، سنة ١٩٤٥

٥٠٤ الزركلي ، خير الدين الزركلي ، كتاب الاعلام ط ٣ ، بيروت ، ١٩٦٩

٥٠٥ زكي مبارك ، النثر الفني في القرن الرابع الهجري ط ٢ ، مطبعة السعادة ، مصر ، سنة ١٩٥٧

٥٠٦ زكي المحاسني ، شعر الحرب في أدب العرب ط ٢ ، دار المعارف ، مصر ، سنة ١٩٧٠

٥٠٧ زكي النقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، سنة ١٩٥٨

٥٠٨ ابن الساعي ، علي بن أنجب ، الجامع المختصر ، نشر مصطفى جواد مطبعة السريانية الكاثوليكية ، بغداد ، سنة ١٣٥٣/ ١٩٣٤ .

٥٠٩ ابن الساعاتي ، ابو الحسن علي بن رستم بن هردوز ، ديوان ابن الساعاتي ، ت أنيس المقدسي ، المطبعة الاميركانية ، بيروت ، سنة ١٩٣٨ والجزء الثاني سنة ١٩٣٩

٦٠٠ سبط بن التعاويذي محمد بن عبدالله ، ديوان سبط بن التعاويذي ، ت ، د ، س ، مرجليوث ، مطبعة المقتطف ، مصر ، سنة ١٩٠٣

٦٠١ سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، سنة ١٩٥١

٦٠٢ ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، نقله السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت ، سنة ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ .

٦٣ - سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، مكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٧٥

٦٤ - سعيد عاشور ، حضارة ونظام أوروبا ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٧٦

٦٥ - ابن سناء الملك ، هبة الدين بن جعفر ، ديوان ابن سناء الملك ، ت محمد عبد الحق ، ط ١ دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الهند ، سنة ١٣٧٧ / ١٩٥٨

٦٦ - سيد قطب ، النقد الادبي ، بيروت

٦٧ - سهيل زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، دار الامانة ، بيروت ط ١ ، سنة ١٣٩١/١٩٧٢

٦٨ - السيوطي ، عبد الرحمن بن أبو بكر ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ط ادارة الوطن ، مصر ، سنة ١٢٩٩

٦٩ - شاكر أحمد أبو بدر ، الحروب الصليبية والاسرة الزنكية ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، سنة ١٩٧٢

٧٠ - ابن شاكر الكتبي ، محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ت محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، سنة ١٩٥١

٧١ - أبو شامة المقدسي ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : النورية والصلاحية ، ت محمد حلمي أحمد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ، سنة ١٩٥٦ ، ١٩٦٢

٧٢ - ابو شامة المقدسي ، كتاب الروضتين ، مطبعة دار الجيل ، ط ٢ ، بيروت ، سنة ١٩٧٤

٧٣ - أبو شامة المقدسي ، كتاب الذيل على الروضتين ، مطبعة دار الجيل ط ٢ ، بيروت ، سنة ١٩٧٤

٧٤ - ابن شاهين الظاهري ، غرس الدين خليل ، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تبولس راويس ، مطبعة الجمهورية باريس ، ١٨٩٤

٧٥ - ابن شاهنشاه الايوبي ، محمد بن تقي الدين عمر ، مضمار الحقائق وسر الخلائق ، ت حسن حبشي ، دار الهناء ، القاهرة ، سنة ١٩٦٨

٧٦• ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ت جمال الدين الشيال ، مطبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٦٤

٧٧• شرف الدين الانصاري ، ديوانه ، ت عمر موسى باشا ، مطبعة الهاشمية دمشق ، سنة ١٣٨٧/١٩٦٧

٧٨• شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد بن محمود الحنبلي الحلبي ، حسن التوسل الى صناعة الترسل ، مطبعة أمين أفندي ، مصر ، ١٣١٥

٧٩• شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه ط ٧ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٩

٨٠• صلاح الدين المنجد ، ولاة دمشق في العهد السلجوقي ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، سنة ١٩٧٥

٨١• ابن طباطبا ، محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، دار صادر ، دار بيروت ، بيروت ، سنة ١٣٨٦/١٩٦٦

٨٢• طلائع بن رزيك ، ديوانه ، جمع محمد هادي الأميني ، ط مطبعة النعمان ، النجف الاشرف ، العراق ، سنة ١٣٨٣/١٩٦٤

٨٣• ظافر الحداد ، ديوانه ، ت حسين نصار ، دار مصر للطباعة ، ١٩٦٩

٨٤• عارف العارف ، تاريخ القدس ، دار المعارف ، مصر ، سنة ١٩٥١

٨٥• ابن الظاهر ، عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي محيي الدين ، الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم ، ت أحمد بدوي ، مطبعة الرسالة ، مصر ، سنة ١٩٥٩

٨٦• ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ت مراد كامل ، وزارة الثقافة ، مصر ، سنة ١٩٦١

٨٧• عبد العزيز الاهواني ، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ، مكتبة الانجلو مصرية ، سنة ١٩٦٢

٨٨• عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، سنة ١٩٦٩

٨٩• عبد الكريم توفيق العبود ، الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ، وزارة الاعلام ، بغداد ، سنة ١٩٧٦

٩٠• عبد اللطيف حمزة ، أدب الحروب الصليبية ، مطبعة الاعتماد ، نشر دار الفكر العربي ، مصر ، سنة ١٩٤٩

٩١. عبد اللطيف حمزة ، الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية ، مكتبة نهضة مصر

٩٢. عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين يوسف ، مكتبة الانجلو مصرية ، مصر ١٩٦٧

٩٣. ابن العبري ، غريغوريوس بن توما الملطي ، تاريخ مختصر الدول ، وقف على طبعه أنطون صالحاني ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، سنة ١٩٥٨

٩٤. ابن العديم ، عمر بن أحمد ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ت سامي الدهان ، الكاثوليكية ، بيروت ، سنة ١٩٥٤ ، ١٩٦٨.

٩٥. عرقلة الكلبي ، ديوانه ، ت أحمد الجندي ، مطبعة دار الحياة ، دمشق ، سنة ١٣٩٠ / ١٩٧٠

٩٦. علم الدين أيدمر المحيوي ، ديوانه ، ت أحمد نسيم ، ط دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٣٥٠ / ١٩٣١

٩٧. العماد الاصفهاني ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن هبة الله ، تاريخ دولة آل سلجوق ، القاهرة ، سنة ١٣١٩ هـ

٩٨. العماد الاصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، ت شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية ، ج ١/ ١٩٥٥ ، ج٢/ ١٩٥٩ ، ٣/ ١٩٦٤

٩٩. العماد الاصفهاني ، الخريدة قسم شعراء مصر ، ت أحمد أمين وشوقي ضيف واحسان عباس ، لجنة الترجمة والتأليف والنشر القاهرة ، ١٩٥١

١٠٠. العماد الاصفهاني ، الخريدة القسم العراقي ، محمد بهجة الأثري ، مطبعة المجمع العلمي ، العراق ، سنة ١٩٦٤

١٠١. العماد الاصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ت محمد محمود صبح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٥

١٠٢. عمارة اليمني ، النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ، ت درنبرغ ، مطبعة مرسو في مدينة شالون ، سنة ١٨٩٧

١٠٣. عمر كمال توفيق ، مقدمات العدوان الصليبي ، جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٦

١٠٤. عمر موسى باشا : الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ، دار الفكر الحديث ، دمشق ، سنة ١٩٧٢

١٠٥. عمر موسى باشا : أمير شعراء المشرق ، ابن نباتة المصري ، دار المعارف القاهرة ، سنة ١٩٦٣

١٠٦ • ابن عنين ، ديوانه ، ت خليل مردم بك ط ٢ ، دار صادر ، بيروت ،
١٠٧ • غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، نقل عادل زعيتر ط ٣ ، دار احياء الكتب العربية ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٦
١٠٨ • الفارقي ، أحمد بن يوسف بن علي بن الازرق الفارقي ، تاريخ الفارقي ، ت بدوي عبد اللطيف عوض ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية ، القاهرة ، سنة ١٣٧٦/١٩٥٩
١٠٩ • فاروق جرار ، محمد بن نصر القيسراني ، حياته وشعره ، المطابع التعاونية ، عمان ، سنة ١٩٧٤
١١٠ • فتيان الشاغوري ، ديوانه ، ت أحمد الجندي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سنة ١٩٦٧
١١١ • ابو الفداء ، اسماعيل بن علي ، المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الحسينية ، مصر ،
١١٢ • ابن الفرات ، محمد حسين عبد الرحيم ، تاريخ ابن الفرات ، ت حسن الشماع ، مطبعة حداد ، البصرة ، سنة ١٣٨٦ / ١٩٦٧
١١٣ • ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ٧ جـ٨ ت قسطنطين زريق ونجلاء عزالدين ط الاميركانية ، بيروت ، سنة ١٩٣٩ / ١٩٤٢
١١٤ • فيشر ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، نقل محمد مصطفى زيادة والباز العريني ط ٥ ، دار المعارف ، مصر ، سنة ١٩٦٩
١١٥ • القرآن الكريم .
١١٦ • القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ، آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ودار بيروت ، سنة ١٣٨٠ / ١٩٦٠
١١٧ • ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة ، ذيل تاريخ دمشق ، ط الآباء اليسوعيين ، بيروت ، سنة ١٩٠٨
١١٨ • القلقشندي ، أبو العباس أحمد ، صبح الاعشى ، مصورة عن الطبعة الاميرية ، القاهرة ،
١١٩ • ابن كثير ، ابو الفداء اسماعيل بن عمر ، البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، مصر ، سنة ١٣٤٨
١٢٠ • مجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، تحقيق حسن حبشي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، سنة ١٩٥٨

١٢١ • محمد راغب الطباخي الحلبي ، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، مطبعة العلمية ، حلب ، سنة ١٣٤٢ / ١٩٢٤

١٢٢ • محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر الأيوبي ، دار المعارف ، مصر سنة ١٩٦٨

١٢٣ • محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف ، مصر سنة ١٩٧٠

١٢٤ • محمد زغلول سلام ، ضياء الدين بن الاثير ، دار المعارف ، مصر ،

١٢٥ • محمد زغلول سلام ، تاريخ النقد العربي من ق ٥ ـ ١٠ ، دار المعارف مصر ، ؟

١٢٦ • محمد سيد كيلاني ، الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي في مصر والشام ، دار الكتاب العربي ، مصر ، سنة ١٩٤٩

١٢٧ • محمد كامل حسين ، في أدب مصر الفاطمية ، دار الفكر العربي مصر ، سنة ١٩٥٠

١٢٨ • محمد كامل حسين ، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، دار الكتاب العربي ، مصر ، سنة ١٩٥٧

١٢٩ • محمود ابراهيم ، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، المكتب الاسلامي ، ومكتبة الاقصى ، دمشق ، عمان ، سنة ١٩٧١

١٣٠ • محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي ، مطبعة الاداب ، مصر ، سنة ١٩٦٥

١٣١ • محمود صداقي ، الأدب العربي في مصر من الفتح الاسلامي الى نهاية العصر الايوبي ، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة ، سنة ١٩٦٧

١٣٢ • ابن مطروح ، الصاحب جمال الدين ، ديوانه ط ١ ، مطبعة الجوائب قسطنطينية ، سنة ١٢٩٨ هـ

١٣٣ • المقّري ، أحمد بن محمد المقري ، نفح الطيب ، احسان عباس ، دار صادر بيروت ، سنة ١٣٨٨ / ١٩٦٨

١٣٤ • المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ت محمد مصطفى زيادة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٣٤

١٣٥ • المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، ط بولاق ، مصر سنة ١٢٧٠ هـ

١٣٦ • مكسيموس مونروند ، من تاريخ الحروب المقدسة في الشرق ، المدعوة حرب الصليب ، ترجمة مكسيموس مظلوم ، ط. دير الرهبان الفرنسيان القدس ، سنة ١٨٦٥

١٣٧ • ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري ، لسان العرب ، دار صادر ودار بيروت ، سنة ١٩٥٦

١٣٨ • ابن ميسر ، محمد بن علي بن يوسف ، أخبار مصر ، تصحيح هنري ماسين ، مطبعة المعهد الفرنسي ، القاهرة ، سنة ١٩١٩

١٣٩ • المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ، بيروت ، الدار المتحدة للنشر ، سنة ١٩٧٤

١٤٠ • ناصر خسرو علوى ، سفرنامه ، ترجمة وتعليق يحيى الخشاب ، ط ١ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٤٥

١٤١ • ابن النبيه ، علي بن محمد ، ديوانه ، المطبعة العلمية ، القاهرة ، ١٣١٣هـ

١٤٢ • النويري ، نهاية الارب في فنون الادب ، المؤسسة المصرية العامة ، دار الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٢٥ ــ ١٩٥٥

١٤٣ • النويرى ، محمد بن قاسم الاسكندري ، الإلمام بالأعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية في وقعة الاسكندرية ، اتين كومب وعزيز عطية مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد ، الدكن ، سنة ١٩٦٨

١٤٤ • ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني ايوب ، ت جمال الدين الشيال ، الأميرية ١٩٥٣/١ ، ١٩٥٧/٢ ، ١٩٦٠/٣

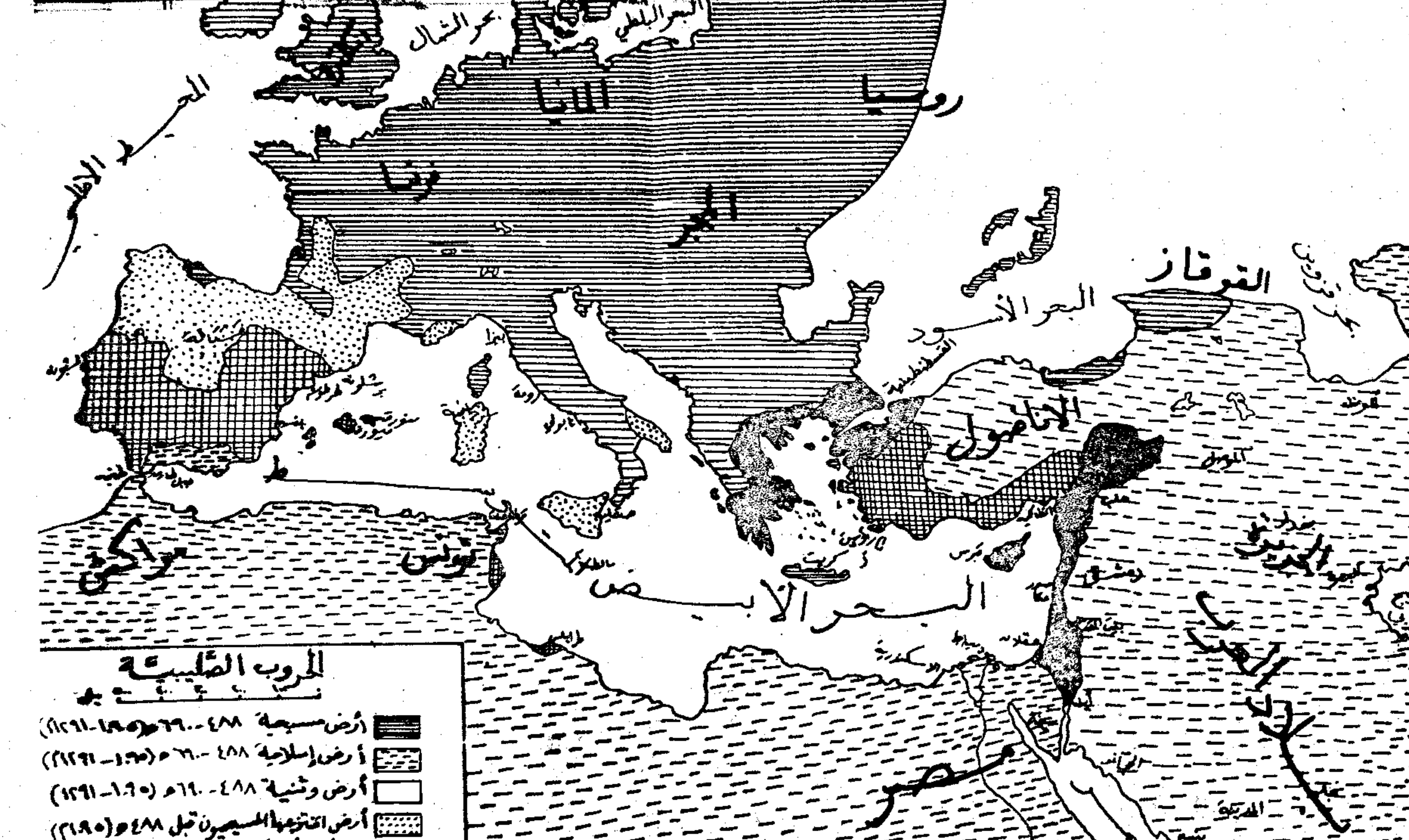
١٤٥ • ابن واصل ، مفرج الكروب ٤ ، ت حسين محمد ربيع وسعيد عاشور ، مطبعة الكتب ، سنة ١٩٧٢

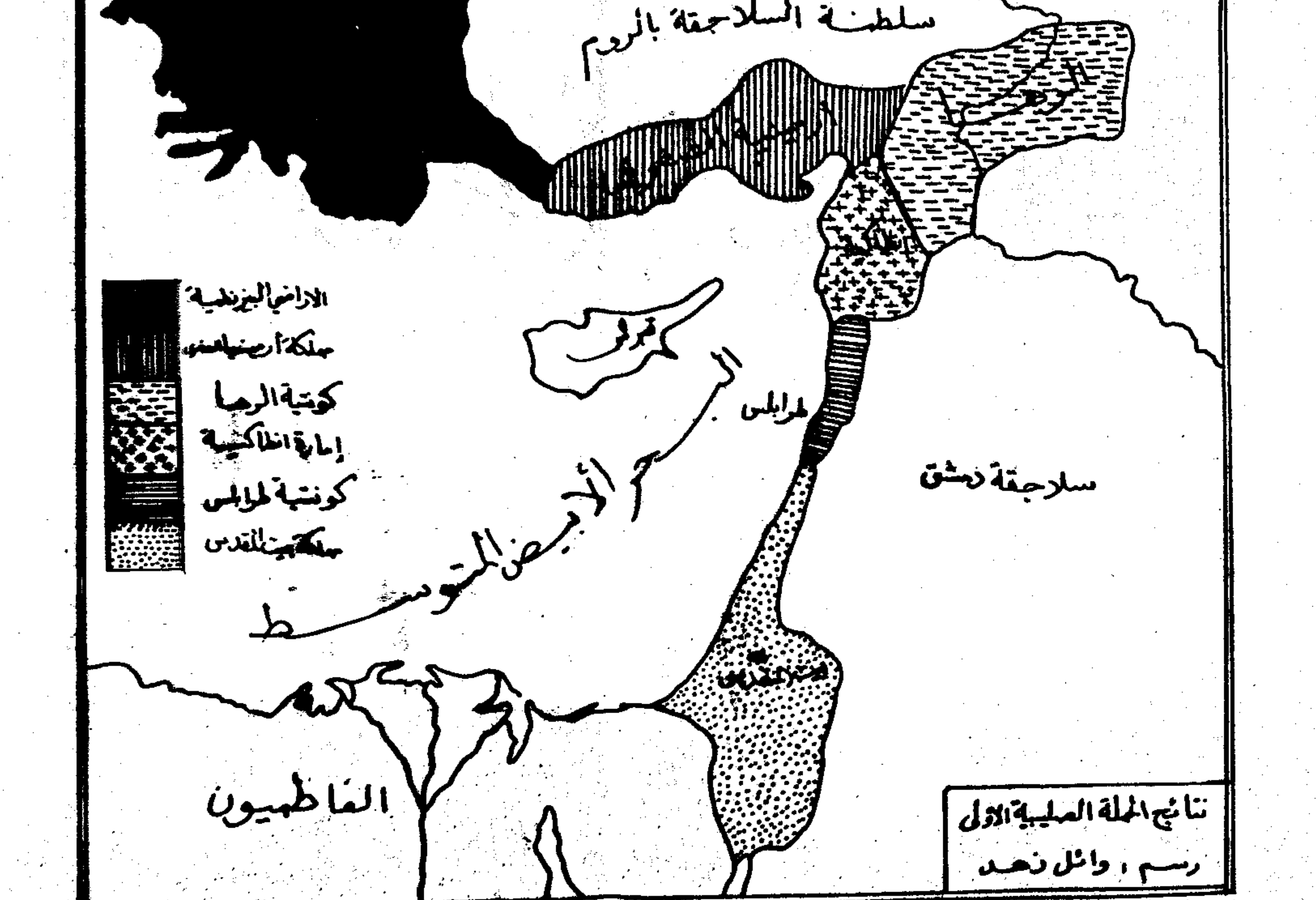
١٤٦ • ابن الوردى ، ابو حفص زين الدين عمر ، تاريخ ابن الوردى ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ، سنة ١٢٨٥ / ١٨٦٨

١٤٧ • اليافعي ، عبدالله بن سلامه بن علي بن سليمان ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، مطبعة المعارف النظامية ، حيدر اباد والدكه ، ١٣٣٨

١٤٨ • ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي ، معجم البلدان ، بيروت ، سنة ١٩٥٧

المحتوى


الحروب الصليبية
أرض مسيحية
أرض إسلامية
أرض وثنية
أرض انتزعها المسيحيون
روسيا
ألمانيا
فرنسا
المجر
بحر الشمال
البحر البلطي
المحيط الأطلسي
القوقاز
البحر الأسود
القسطنطينية
الأناضول
البحر الأبيض
تونس
مراكش
مصر
بلاد العرب
بحر قزوين
قشتالة
روما
كريت
قبرص
دمشق
الموصل
عكا
بيت المقدس
الإسكندرية
دمياط
عسقلان
المدينة


سلطنة السلاجقة بالروم
الاراضي البيزنطية
مملكة أرمينيا الصغرى
كونتية الرها
إمارة انطاكية
كونتية طرابلس
مملكة بيت المقدس
قبرص
البحر الأبيض المتوسط
طرابلس
سلاجقة دمشق
الفاطميون
نتائج الحملة الصليبية الاولى
رسم : وائل زهد



سلطنة السلاجقة بالروم
الامبراطورية البيزنطية
مملكة أرمينيا الصغرى
إمارة انطاكية
قبرص
كونتية طرابلس
البحر الأبيض المتوسط
عكا
مملكة بيت المقدس
امبراطورية صلاح الدين
بقايا الدول الصليبية
نتائج الحملة الصليبية الثالثة

الامبراطورية البيزنطية

سلطنة الروم

مملكة أرمينية الصغرى

البحر المتوسط

قبرص

سيس

قليقية

الإسكندرونة

بغراس

أنطاكية

السويدية

اللاذقية

جبلة

بانياس

المرقب

مرقية

القدموس

الكهف

الخوابي

الطرطوس

مصياف

بعرين

رفنية

البقاع

القليعة

عكار

عرقة

طرابلس

جبيل

البترون

حمص

حماه

سلمية

شيزر

أفامية

كفرطاب

معرة النعمان

البارة

كفرلاثا

سرمين

قنسرين

دانيث

زردنا

معرة مصرين

حارم

أرتاح

العمق

يغرا

عفرين

عزازه

الأثارب

حلب

راعبة

منبج

تل باشر

عينتاب

دلوك

الراوندان

قلعة الروم

رعبان

مرعش

كيسوم

البيرة

قلعة نجم

بالس

قلعة جعبر



الأماكن التي تعرضت للغزو الصليبي في
مصر وبلاد الشام
صور
هونين
تبنين
الجولان
عكا
حيفا
الناصرة
طبرية
السواد
اليرموك
عين جالوت
بيسان
قيسارية
عجلون
نابلس
أرسوف
يافا
اللد
الرملة
بيت المقدس
بيت لحم
بيت جبرين
عسقلان
غزة
الداروم
الكرك
العريش
بحيرة المنزلة
دمياط
المنصورة
بلبيس
القاهرة

وقال أسير على لسان القدس وأرسلها الى صلاح الدين :

يا أيها الملك الـــــــــــذي	لمعالم الصلبان نكـــــــــس
جاءت اليك ظلامـــــــــــة	تسعى من البيت المقـــــــد س
كلّ المساجد طهـــــــرتْ	وأنا على شرفي منجـــــــس (١)

وحكيَ أن فقيراً بات بالقدس فسمع قائلاً يقول في الليل :

إن يكن بالشآم قل نصــــــــيري	وتهدّمتْ ثم دام هلوكـــــــــي
فلقد أصبح الغداة خرابــــــــي	سمة العار في حياة الملـــــوك (٢)

وكتب على أبواب كنيسة في عكا بعد طرد الفرنج عنها سنة ٦٩٠ :

أدي الكنائس أن يكن عبثت بكــــــم	أيدي الحوادث أو تغيّر حـــــــالُ
فلطال ما سجدت على أبوابكـــــــم	شم الانوف جحاجحٌ أبطـــــــال
صبرا على هذا المصاب فإنـــــــه	يوم بيوم والحروب سجــــــال (٣)

وقال بعض شعراء المشرق في صلاح الدين :

الله أكبر جاء القدس هاديهـــــــا	ورام أسهم دين الله راميهـــــــا
فكم لمصر على الامصار من شـــــرف	بيوسفين وهل أرضٌ تدانيهـــــــا
فبابن يعقوبَ هزّتْ جيدها طربـــــا	وبابن أيوب هزت عطفها تيهـــــــا
قل للملوك تخلي عن ممالكهـــــــا	فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها (٤)

وقال بعض شعراء دمشق سنة ٦٥٧ :-

هلك الكفــر في الشآم جميعـــــا	واستجدّ الاسلام بعد دحوضـــــه
بالمليك المظفر الملـــــــك الارْ	وع سيف الاسلام عند نهوضـــــه
ملك جاءنا بعزم وحـــــــزْم	فاعتززنا بسمره وببيضـــــه (٥)

---

(١) الانس الجليل ٣١٨ وزبدة كشف الممالك ص ٢٠

(٢) نهاية الارب جـ ٢٧ ورقه ٣٩

(٣) جواهر السلوك ورقة ٤٨ ، درة الاسلاك ورقه ١٦١

(٤) مرآة الجنان جـ ٣ / ٤٦٥

(٥) النجوم الزاهرة ٧ / ٧٧

د . المجـــــــــلات :

١٤٩ . مجلة الهلال ج ٩ ، السنة الحادية والثلاثون ، سنة ١٩٧٢

١٥٠ . مجلة المعرفة ع ١٥٥ ، كانون ثاني ، سنة ١٩٧٥

هـ . الكتب الأجنبية :

١٥١ . Mahmud Ibrahim, Martial poetry under the Hamdanide of Aleppo. ph.D., 1965.

١٥٢ . Stanley Lane-poole, A History of Egypt in the Middle Ages, Frank Cass and Co. L.T.D., 1968.

١٥٣ . The Encyclopediu of Islam, Leiden-London, 1936.

الباب الثالث

التقويم الفني

(١٩٩ ـ ٢٩٢)

الملاحق:

The study I have chosen: " Crusaders' picture in Arabic Literature" is ustified on the basis that a more comprehensive study would be a difficult task, due to the fact that the poetry and prose written during the Crusades involve a wide range of variety.

This study contains three chapters. The first is the historical framework which deals with the conditions of the Islamic East in Iraq, Syria and Egypt before the Crusades. A special section about the European status before the war is added to clarify the motives behind the war. Then a survey of the wars from beginning to end. follows.

The second chapter is about the forms of struggle between Muslims and invaders. The most important aspect of this struggle was basically religious. This struggle was mainly characterised by the ruthless treatment Muslims received by Christian Europeans.

In the course of cultural struggle Europeans are to be shown backward in their sciences, administration and law, but progressive in war affairs such as in matters relevant to inventing and developing means of fighting, attacking and defence.

Literature has presented a detailed picture of the military struggle, displaying an accurate description of the Crusades army: regarding its construction, supplies, weapons and plans; and it shed light on the Europeans' castles and forts. Literature has also shown that Europeans got their needs for living from overseas supplies

On the other hand, Arabic literature presented a picture of those invaders during armistices and war breaks describing them as playing, cultivating the land gathering the crops, trading and leading different life altogether, presenting this picture of the crusaders.

The writers intended to arouse the feelings of the rulers against the invaders hoping that they would succeed in putting an end to their presence. Research into the literary texts of this period reveals productive literary achievement,

This phenomena was promoted by some eminent characters in the fields of war, politics, administration and literature such as Nour id-deen Zinki, and Saladin and some of his sons, who faced the challenge with courage and strong conviction.

The third chapter is about technical performance in poetic texts, which was to some degree an extension of its equivalent at the end of the fourth and the beginning of the fifth Hegiran centuries. It combines tradition and innoration. This appears in the form and the content of the poem. Some poems were drawn upon old poetry as seen from the beginning of the poem and their decorative pictures. Meanwhile, some of them were produced in a new method especially in Introducing and overdecorating their diction.

It has been noticed that metaphors formed a populer aspect in the poetry of that era, but that was not a new

phenomenon in the 5th Hegiran century. The phenomenon existed before that time, particularly during that period when it reached the excess.

As for prose texts, they were also characterized by the decorative aspect especially in literature in the books that combined history and literature, decorative style, however, varied between excess and moderation.

The letters of AL-Qadi AL-Fadil were compared with those of Al-Imad Al-Asfahani and Ibn-AL-Athir, and it was found out that there were no differences between them.

This finding makes one suspect the view of those who said that Al-Qadi had a special literary school characterized by certain techniques.

When prose and poetry relevant to the crusaders' existence in the Islamic East were compared, a difference in the way of expressing the same subject was noticed, regarding the handling, the treatment and the literary style. As for poetry, it seldom committed itself to logical sequence for it recorded plain truth and analysis of details. It described the psychological movement of the poet and his social environment. In portraying this, poetry might use exaggeration to emit certain effects, and to arouse the emotions. It also colours the events in a way that reflects the poet's identity.

As for prose, it presents the factual incidents and uses sequences and details- Whatever motivation there is in proso it depends on the events themselves. However, the

gap between prose and poetry was sometimes so narrow that prose is changed, in some cases, into poetry which lacks musical.

The three chapters are followed by five appendices. The first contains poems related to the crusades; the second an explanation of some war idioms; the third a table transforming.

Hegiran years to Christian years; the Fourth, the names of Muslim and Crusaders' leaders; the fifth, maps showing places of battles. Some of the maps show the districts occupied by crusaders in the first ninety years of the war, and how their property began to decrease year by year, until, at last, the four emirates ended.